وزارة الثقافة والإرشاد القومي

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

إمّا



تأليف : جين أوستن

ترجمة : صالح زكي

مراجعة : محمد سامي عاشور

إمّا

تأليف جين أوستن

ترجمة صالح زكي

مراجعة محمد سامي عاشور

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

الفصل الأول

بدت « اما وودهاوس » وكأنما جمعت قسطا من أجزل النعم ؛ لما كانت عليه من جمال وذكاء وثراء ومرح ، علاوة على اقامتها فى بيت جمع أسباب الراحة . ولذا فقد سلخت من عمرها قرابة احدى وعشرين سنة لم تلق فيها الا النذر اليسير مما يقلقها أو يثير حفيظتها .

كانت صغرى ابنتين لأب يفيض محبة وحنانا . وما أن تزوجت أختها حتى غدت سيدة بيت أبيها وهى صغيرة جدا .

وكان قد انقضى أمد طويل على وفاة أمها حتى لم يسبق عالقا فى ذهن « اما » من قبلاتها وعناقها الا ذكريات غير واضحة .

وعهدت ادارة البيت الى سيدة ممتازة عوضت « اما » عن أمها الراحلة، فقد كان حبها لا يقل كثيرا عن حب أمها لها .

وقضت « مس تيلور » مع أسرة وودهاوس ستة عشر عاما كانت فيها أقرب الى الصديقة منها الى مديرة البيت ، ولقد أحلت الابنتين فى سويداء قلبها . بيد أن « اما » كانت لها المنزلة الأولى ، اذ كانت ألفتها بها ألفة الشقيقة بالشقيقة .

وكان « لمس تيلور » فى رقة الحاشية ولين الجانب ما جعلها تمتنع عن فرض القيود على « اما » حتى فى الوقت الذى لم تكن قد تخلت فيه عن ممارسة ما لمديرة البيت من سلطان . ولما كان شبح السيطرة بينهما قد ولى وطال الأمد على زواله فقد عاشتا معايشة الصداقة المتبادلة ، وأصبحت « اما » تعمل ما يحلو لها . وعلى الرغم من تقديرها لآراء « مس تيلور » كانت تسير فى الغالب وفق هواها .

وكان من شوائب « اما » حقا أن كان لها القدرة على أن تسلك الطريق التى ترضاها ، كما أنها كانت تعتز الى درجـة ما بنفسها . فكان فى ذلك ما يهدد بتعكير صفو الحياة عليها فى كثير من متعها . ولم يكن الخطـر من ذلك ظاهرا للعيان فى ذلك الوقت حتى هذه الشوائب لم يكن ينظر اليها على أنها عامل من عوامل سوء الحظ .

وحل الأسى بعد ذلك وهو أسى هين ، فلم يكن قط بالوضع الذى يثير شعورا بغيضا .

فلقد تزوجت « مس تيلور » وكان افتقادها أول باعث للأسى وكان يوم قران هذه الصديقة الحبيبة أول يوم تجلس فيه « اما » وقد انتابها الحزن وقتا طويلا .

وانتهت مراسيم الزواج ، وانفرط عقد أهل العروس ، وبقيت « اما » ووالدها ليتناولا العشاء سويا ولا أمل لهما فى رفيق ثالث يسرى عنهما فى أمسيتهما الطويلة . واسترخى والدها كما هى عادته للنعاس بعد تنـاول العشاء ، ولم يعد لها الا أن تجلس وتفكر فيما افتقدته .

على أن هذا الحادث كان يبشر بكل أسباب السعادة لصديقتها ، اذ كان مستر « وستن » شخصية محبوبة ، رضى الخلق ، ذا ثراء يهيىء له عيشا رغدا ، كما أن عمره كان مناسبا ، وسلوكه مرضيا .

وشعرت « اما » بشىء من الرضى عندما فكرت فى أنها — بدافع من نكران الذات والصداقة الفياضة — كانت دائما شديدة الرغبة فى تلك الزيجة ، وفى كيف أنها مهدت لها . ولكن يوم اتمامها مع ذلك كان عندها يوما أغبر ، فلقد أحست بفراق « مس تيلور » فى كل آونة ، وتذكرت ما شـملتها به فيما مضى من حنان وعطف استمرا سـتة عشر عاما ، كما استعادت ذكرى تعليمها لها ، وكيف أنها كانت تلعب معها وهى فى الخامسة

من عمرها ، وكيف بذلت كل ما فى وسعها حتى لا تفترق عنها وتسليها فى صحتها وتعنى بتمريضها فى أمراض طفولتها المتعددة .

وشعرت أنها مدينة لها بالكثير من العرفان بالجميل من أجل هذا . غير أن ذكريات صلتيهما فى السنوات السبع الأخيرة وما كان بينهما من مساواة تامة فى المعاملة وانعـدام التحرز كلية كلما انفردتا ببعضهما عقب زواج « ايزابلا » ، كانت أعز وأرق الذكريات جميعها .

لقد كانت « مس تيلور » صديقة ورفيقة لم يظفر بمثلها الا القليلون ، وكانت ذكية مثقفة ، نافعة رقيقة ، عليمة بكل ما يتصل بالعائلة ، شغوفة بجميع شئونها وعلى الأخص باما نفسها ، فى جميع مسراتها ومشروعاتها ، لقد كانت هى الشخص الذى تبوح له بكل ما يدور فى خلدها ، وهى التى تكون لها حبا لا تعتوره شائبة . فكيف تقوى الآن على تحمل هذا التغيير فى حياتها ؟ .

حقا ان صديقتها سوف لا تبعد الا مسافة نصف ميل عن بيت العائلة ، ولكن « اما » كانت تدرك الفرق العظيم بين « مسز وستن » وقد بعدت عنهم نصف ميل وبين « مسز تيلور » وقد كانت تقيم فى رحاب منزلهم .

ورغم كل ما كان لها من مزايا طبيعية ومواهب منزلية ، أصبحت « اما » الآن عرضة لآلام الوحدة الفكرية .

لقد كانت تحب والدها كثيرا ، ولكنه لم يكن الرفيق الذى يسايرها فى الحديث ، سواء أكان حديثا للترويح أم كان حديثا جادا عميقا .

ولقد زاد كثيرا من مساوىء الفرق الحقيقى بين عمريهما (ولم يكن مستر وودهاوس قد تزوج مبكـرا) ، ما كان من تكوينه الجسـمانى وعاداته ، وما كان من أثر اعتلال صحته طوال حياته وعدم ممارسته أى نشاط جسمانى أو عقلى فأصبح فى كل تصرفاته كمن هو أكبر منه سنا .

وعلى الرغم من أنه كان محبوبا أينما حل لطيبة قلبه ورقة طبعه ، الا أن مواهبه العقلية لم تكن لتزكيه فى أى وقت .

وكانت أختها قد استقرت بعد زواجها فى لندن وأصبح لا يفصلها عنها الا ستة عشر ميلا ، وهى مسافة ليست بالبعيدة نسبيا ، الا أن « اما » وجدت زيارتها لها يوميا أمرا مستعصيا ، ولذا كان لابد لها من أن تعانى الكثير من أمسيات شهرى أكتوبر ونوفمبر فى « هارتفيلد » حتى يحين موعد عيد الفصح وتأتى « ايزابلا » مع زوجها وأطفالها الصغار ويعمر بهم البيت وتنعم بصحبتهم ثانية .

ولم تكن « اما » لتجد من يحل محل هؤلاء فى قرية « هايبرى » ، وهى قرية امتدت مساحتها وكثر سكانها حتى أشرفت على أن تكون مدينة. وكانت « هارتفيلد » رغم مروجها وشجيرات توتها ، ورغم اسمها ، جزءا لا يتجزأ من هذه القرية .

لقد كانت أسرة « وودهاوس » أعظم الأسر المستوطنة فى هذه القرية مكانة ، بقــدر ما كانت لكل أهليها مــلاذا . وقد تعرفت « اما » على الكثيرين من هؤلاء لما كان عليه والدها من أدب وترحيب بالناس جميعا ، ولكنها مع هذا لم تجد من بينهم واحدا يسد فراغ «مس تيلور» ولو لبضع ساعات . نعم فلقد كان هذا التغيير الذى طرأ على حياتها مصدر كآبة وحزن لها ، ولم يعد لاما الا أن تظل تئن حسرة ، وأن تعلل النفس بحدوث المستحيل ، الى أن يستيقظ والدها فتقتضيها الضرورة ادخــال السرور على قلبه . فلقد كان فى حاجة إلى من يرفع معنوياته لما كان عليه من سرعة الانفعال وسهولة الانقباض وما جبل عليه من تعلق بكل من ألف عشرتهم ، ونفور من التخلى عنهم ، وبغض للتغيير فى كل صوره .

ولقد كان الزواج ، وهو أصل التحول من حال الى حال ، بغيضا الى

نفسه على الدوام ، حتى أن جميع الوسائل لم تجد حتى الآن فى ارضائه عن زواج ابنته ، ولا أن تجعله يذكرها بغير الأسى والاشفاق على الرغم من أن زواجها كان وليد المحبة ، ثم اذا به الآن يضطر الى التخلى عن « مس تيلور » كذلك .

وقد دفعه ما طبع عليه من أنانية رقيقة ، وصعوبة تصوره بأن غيره من الناس قد يشعرون بغير ما يشعر به ، الى أن أصبح يميل كثيرا الى الظن بأن « مس تيلور » قد أساءت بعملها الى نفسها بعد ما أساءت اليهم ، وأنها لو كانت أمضت بقية العمر فى « هارتفيلد » لكانت بذلك أكثر سعادة .

وابتسمت « اما » وأخذت تتحدث معه وهى مبتهجة ما أمكنها كى تبعد عنه هذه الأفكار ، ولكن ما أن حان وقت تناول الشاى حتى وجد نفسه مندفعا الى تكرار نفس ما سبق له قوله وقت تناول العشاء .

« ما أتعس مس تيلور !! وددت لو أصبحت هنا ثانية ! وما أتعس تلك الساعة التى فكر مستر « وستن » فى زواجها !! » .

« لست أوافقك على ذلك يا أبى . نعم أنت تعلم بأنى لا أقدر على موافقتك على رأيك . ان مستر « وستن » رجل مرح وظريف وممتاز ولذا فهو جدير بأن تكون له زوجة صالحة . وما كان بودك أن تعيش مس « تيلور » معنا دواما ، وأن تتحمل كل أهوائى ونزواتى الغريبة وفى وسعها أن يكون لها بيتها الخاص به » .

« بيتها الخاص !! ولكن ما الميزة فى أن يكون لها بيت خاص بها ؟ فهذا منزلنا وهو فى اتساعة ثلاثة أضعاف منزلها ، وأنت يا عزيزتى ليست لك نزوات غريبة » .

« اننا سنذهب لزيارتهما كثيرا ، وهما بالمثل سوف يأتيان لزيارتنا ،

وسوف تتقابل دائما . ومن واجبنا أن نبدأ بالزيارة للتهنئة بالزواج ولا بد أن يكون ذلك سريعا » .

« وكيف يتسنى لى يا عزيزتى قطـع تلك المسافة الطـويلة ؟ ان « راندولز » بعيدة ولا أقدر أن أمشى نصف تلك المسافة » .

« لا يا والدى ، وما فكر واحد منا فى أن تذهب اليها سـعيا على الأقدام ، فسوف نذهب اليها بالعربة بكل تأكيد » .

« العربة !! — ولكن « چيمز » لا يحب اعدادها لمثل هـذه المسافة القصيرة . وأين يكون ايواؤنا لخيولنا المسكينة وقت الزيارة ؟ » .

« انها ستكون فى حظيرة مستر « وستن » يا والدى ، ولقـد تم الاتفاق على هـذا بعـد أن تباحثنا فيه مع مستر « وستن » فى الليـلة الماضية . وأما عن « چيمز » فكن واثقا كل الثقة بأنه يروق له دائما أن يذهب الى « راندولز » لأن ابنته تعمل خادمة ، هناك . أما ذهابه الى أية جهة أخرى فهذا هو ما يمكن أن يكون موضع الشك يا والدى . وهذا العمل الجميل الذى تقوم به ابنته حنينة هناك هو من غرس يديك لأنك أنت الذى هيأته لها ، وما كان أحـد ليفكر فيها لولا أنك أوصيت بها . وان « چيمز » لشاكر لك حسن صنيعك » .

« يسرنى كثيرا أنى فكرت فيها ، وهو من حسن الطالع ، لأنى ما كنت أود أن أرى «چيمز» يظن أنه قد أغفل شأنه بحال . وأنا واثق بأنها ستكون خادمة طيبة جدا ، فهى بنت مؤدبة تحسن الكلام ، وانى لأحسن الظن بها كثيرا ، فهى كلما وقع نظرى عليها أراها تحيينى وتسأل عن صحتى بطريقة لطيفة جدا ، كما ألاحظ أنها فى كل مرة أتت اليك فيها لتقوم بأشـغال الأبرة ، كانت تدير أكرة الباب بالطريقة الصحيحة ولا تدفع الباب بشدة أبدا . وأنا على يقين بأنها ستكون خادمة ممتازة . وأنه لشىء يبعث على

الراحة فى نفس مس « تيلور » المسكينة عندما تجد شخصا بقربها اعتادت رؤيته ؛ وفضلا عن ذلك فكلما ذهب « چيمز » ليرى ابنته ستعلم منـــه شيئا عن أخبارنا ، وسوف ينبئها هو كذلك بأحوالنا جميعا » .

وعملت « اما » كل ما فى وسعها كيلا تفارقه تلك الأفكار السارة ، وكانت تأمل أنها اذا ما استعانت بالنرد فقد تهيىء له وقتا طيبا طيلة المساء ولن يصيبها من الهم الا ما كان خاصا بها .

ومدت مائدة النرد . ولكن زائرا أقبل فى الحال فأصبحت غير ذات موضوع .

ان مستر « نيتلى » الرجل العاقل الذى بلغ الســابعة أو الثامنــة والثلاثين من عمره ، لم يكن من أخص أصدقاء الأسرة القدامى فحسب ، ولكن صلته بها كانت ذات طابع خاص ، فهو الأخ الأكبر لزوج «ايزابلا»، وكان يقيم على بعد ميل واحــد من « هايبرى » . وكثيرا ما كان يزور الأسرة فيلقى منها كل ترحيب .

ولقد قوبلت زيارته هذه المرة بترحيب فاق كل ما اعتاده قبلا . ذلك لأنه كان قادما مباشرة من لندن حيث تقيم « ايزابلا » فكان همزة وصل بين الطرفين ، وقد عاد الآن الى بيته بعد غياب بضعة أيام فتناول عشاء متأخرا ثم سار الى « هارتفيلد » ليخبرهم بأن جميع من فى « ميــدان برنزويك » بخير .

وقد سر مستر وودهاوس لحضوره وامتلأت نفسه بشرا بعض الوقت. كما كان فى بشاشة مستر « نيتلى » ما يرتاح اليه دائما . كذلك نالت أسئلته العديدة عن « ايزابلا » المسكينة وعن أطفالها ردودا أرضته غاية الرضى .

وما كاد ينتهى كل ذلك حتى قال مستر وودهاوس بشـــعور من الامتنان :

« انه لعطف كبير منك يا مستر « نيتلى » أن تخرج فى تلك الساعة المتأخرة وتأتى لزيارتنا ، وانى لأخشى أن يكون المشى قد نال منك » .

« لا شيء فى ذلك يا سيدى ، فهى ليلة مقمرة جميلة ، والطقس دافىء حتى لأرانى مضطرا الى الابتعاد عن نار موقدك المتأججة » .

« ولكن لابد أن الطريق كان مبللا وقذرا ، وبودى ألا يكون قد أصابك برد من جراء ذلك » .

« أتقول قذرا يا سيدى !! أنظر الى نعلى فلن ترى فيها بقعة واحدة ».

« حسنا !! وان كان فى ذلك ما يبعث على الدهشة ولا شك ، لأن الأمطار هنا هطلت مدرارا ، وقد سقطت بغزارة نحو نصف ساعة ونحن نتناول طعام الافطار ، ووددت لو أنهم أجلوا الزواج » .

« وبهذه المناسبة أرانى لم أقم بالتهنئة حتى الآن ، ولما كنت أشعر كل الشعور بأنكما لابد مغتبطان كل الاغتباط ، لم أجد أى ضرورة للاسراع بالتهنئة . على أنى آمل أن يكون كل شيء قد تم على خير ما نرجو . ولكن كيف كان مسلككم جميعا ، ومن كان أكثركم بكاء ؟ » .

« آه ، ما أتعس مس « تيلور » !! انه عمل يوجب الأسى » .

« أستميحكما المعذرة ان قلت ما أتعس مستر وودهاوس ومس وودهاوس فهما التعيسان حقا . ولكنى لا أقوى على أن أقول : مسكينة يا مس تيلور . انى لأشعر بالتقدير العظيم نحوك ونحو « اما » .

أما حين تكون المسألة مسألة اعتماد على الغير أو استقلال عنهم فهذا شيء آخر . وعلى كل حال حين تكون المسألة مسألة ارضاء أحد فان من الأفضل ارضاء شخص واحد عن ارضاء شخصين » .

وقالت « اما » فى دعابة : « وخاصة اذا كان أحد الأثنين مخلوقا غريب الأطوار متعبا . أنا أعرف بأن هذا هو ما تفكر فيه ، وهو ما كنت لابد قائلة اذا لم يكن أبى قريبا منا » .

وقال مستر وودهاوس متنهدا :

« أعتقد أن ما تقولينه يا عزيزتى هو عين الصواب ، وأنا أشعر أحيانا بأنى غريب الأطوار ومتعب » .

« لا تظن يا والدى العزيز أنى قصدتك ، أو أن مستر « نيتلى » كان يعنيك .. يا لها من فكرة مزعجة !! لا ، أبدا !! وما قصــدت الا نفسى ، وأنت تعلم بأن مستر « نيتلى » يجب أن يجد فى خطأ يفتح له بابا ليمزح معى ، وما كل هذا الا مزاح . وكلانا يقول للآخر دائما ما يحلو له منه » .

نعم فلقد كان مستر « نيتلى » واحدا من بين القليلين الذين يستطيعون تبين أخطاء « اما » وودهاوس بقدر ما كان الوحيــد الذى يستطيع أن يكاشفها بخطئها . وان كانت اما لا تستسيغ ذلك منه كثيرا ، فقد كانت تعلم بأن أباها أكثر استعدادا لاستساغته ، ومن ثم فقد كانت تود أن تبعد عنه الظنون بأن كائنا من كان لا يراها رمزا للكمال .

وقال مســتر « نيتلى » : ان « امــا » تعلم أنى لا أتملقها ، ولكنى ما قصدت تعريضا بأحد ، لقد اعتادت مس « تيلور » أن تعمل على ارضاء شخصين وليس لها الآن الا واحــد ترضــيه فلا بد اذن أن تكون هى الفائزة من هذه الزيجة » .

وقالت « اما » لكى تغير مجرى الحديث :

« حسنا ، انك تريد أن تسمع شيئا عن موضوع الزواج ويسعدنى أن أقص عليك ما تريد لأننا جميعا سلكنا مسلكا حميدا ، فلم يتأخر أحد عن الحضور ، وكان الكل مبتهجين ، فلا دمعة سالت ولا علت الاكتئابة وجه أحد . لم يحدث شيء من هذا !! ولقد أحسسنا جميعا بأنه لن يفصلنا عن بعضنا سوى مسافة نصف ميل وتأكدنا بأن التقاءنا سيكون يوميا »

وقال والدها : « ان عزيزتى « اما » لها قدرة على احتمال كل شيء ولكنها

فى الحقيقة يا مستر « نيتلى » مهمومة كل الهم لحرمانها من مس « تيلور » التعسة ، وأنا واثق بأنها ستشعر ببعدها عنها أكثر مما قد تتصـور » .
واستدارت « اما » برأسها وهى حيرى بين الدموع والبسمات .

وقال مستر « نيتلى » : « يستحيل على « اما » الا تشعر بفراق رفيقة كهذه ، وما كنا لنشعر نحوها يا سيدى بهذا الحب لو أننا ظننا بأن هـذا الفراق سيكون سهلا عليها ، ولكنها تعـلم مقدار ما سـيعود على مس « تيلور » من فائدة بزواجها وتعلم أن مس « تيلور » وهى فى تلك السن أكثر ما تكون استعدادا للاستقرار فى بيت يكون خاصا بها . وان من أهم الأمور لديها أن تضمن ما يؤمنها على مستقبل مريح .

ولهذا فان « اما » تشعر بالسرور بأكثر مما تشـعر بالألم ، وان كل صديق لمس « تيلور » يجب عليه أن يغتبط عندما يراها سعيدة بزواجها » .

فقالت « اما » : « بل لقد نسيت شيئا آخر كان مبعث سرور لى وكان بالنسبة لى شيئا عظيما جدا ذلك أننى أنا التى رتبت هذا الزواج ، فلقد مهدت له منذ أربع سنوات وقد تابعته حتى نجحت فى اتمـامه وثبتت سلامته ، فى حين كان الكثيرون يقولون ان مستر « وستن » لن يتزوج مرة أخرى . كل ذلك يجعلنى أشعر بارتياح لا يعد له شىء آخر » .

وهز مستر « نيتلى » رأسه بينما أجاب والدها فى حنـان ومحبة : « أجل يا عزيزتى ، بودى ألا تمهدى للزيجات وألا تتنبأى بحدوث الأشياء لأن كل ما تقولينه دائما يتحقق ، ورجائى ألا تمهدى لزيجات بعد اليوم » .

« أعدك بأنى لن أفعل ذلك فيما يتصل بى يا والدى ، ولكنى أجده عملا واجبا بالنسبة لغيرى وهو أعظم تسلية فى الوجود ، وخاصة بعـد نجاح كهذا الذى وفقت فيه !! لقـد قال الكل ان مستر « وستن » لن يتزوج مرة أخرى ، وان مستر وستن الذى عاش طويلا وهو أرمل ، وكان

يبدو دائما فى منتهى الراحة وهو لا زوجة له ، وكان اما مشغولا بمهام أعماله فى المدينة ، أو مختلطا هنا بأصدقائه ، موضع الترحيب أينما ذهب ، دائما باشا مبتهجا ليس فى حاجة الى أن يقضى ليلة واحدة بمفرده طيلة العام اللهم الا أن يشاء ذلك هو نفسه . لا ، لا ، ان مستر وستن لن يتزوج ثانية أبدا . ولقد لاكته ألسن بعض الناس بالحديث فقالوا عنه أنه أخذ على نفسه عهدا أمام زوجته وهى على فراش الموت ألا يتزوج بعدها ، وقال آخرون ان ابنه وخاله منعاه من الزواج . وكم دار فى هذا الموضوع من أحاديث هى هراء فى صيغة الجد ، ولكنى ما صدقت منها شيئا . ومنذ اليوم الذى تقابلت أنا ومس « تيلور » معه فى منعطف « برودواى » منذ أربع سنوات مضت ، عندما رأيناه ، وقد أخذ المطر يتساقط ، يسرع فى خفة وشهامة فيستعير لنا مظلتين من بيت المزارع ميشيل ، كونت لنفسى رأيا فى الموضوع ، ورسمت الخطة لتهيئة الزواج منذ تلك الساعة . واذ كان النجاح حليفى هذه المرة يا والدى العزيز ، فلا أخالك تظن أنى سأتخلى عن التمهيد للزيجات » .

فقال مستر « نيتلى » : « لست أفهم ما تعنين بكلمة « النجاح » — ان النجاح يفرض بذل الجهد ، فاذا كنت طيلة السنوات الأربع الأخيرة قد بذلت جهدا لاتمام هذا الزواج ، فحرى بك أن تقولى أنك أمضيت وقتك فيما هو صواب ولذيذ ، وان عملا كهذا يشغل عقل سيدة فى مقتبل العمر لهو عمل جدير بالثناء أما اذا كنت ، كما أتخيل ، تعنين بما تسمينه التمهيد للزواج أن تكتفى برسم الخطة وأن تقولى لنفسك فى يوم لا تجدين فيه ما يشغلك : « أظنه يكون من الأمور المستحسنة لو أن مستر « وستن » تزوج مس « تيلور » ، ثم تظلين تكررين هذا القول لنفسك بين الحين والحين — ففيم اذن تتكلمين عن النجاح ؟ وأين هو فضلك فى هذا ؟ وبأى

شيء تفخرين ؟ ان كل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد ، هو أن حدسا طارئا خطر لك فصادفك فيه الحظ » .

« ألم تدرك يوما ما للحدس الموفق من شعور باللذة والنصر يا أبتى ؟ انى اذن أشفق عليك ، ولقد كنت أظنك أكثر ذكاء — ثق بأن الحدس الموفق ليس كله وليد الحظ ، بل فيه دائما شيء من الموهبة وسداد الرأى . أما كلمة النجاح البائسة التى صدرت منى ولقيت منك هذه المعارضة فأظن أن من حقى أن أتشبث بها وأن أنسبها الى نفسى . انك قد رسمت صورتين جميلتين ، ولكنى أظن أنه قد تكون هناك صورة ثالثة هى وسط بين حالتين ، عدم عمل أى شيء ، وعمل كل شيء ، فلو أننى لم أعمل على زيارات مستر « وستن » لبيتنا ، وأشجعه وأذلل الكثير من العقبات ، لما تم شيء من هذا أبدا ، وأظنك أدرى بهارتفيلد حتى تفهم معنى ما أقول » .

« ان رجلا صريحا وطيبا كمستر « وستن » ، وسيدة عاقلة لا تغيرها الأهواء مثل مس « تيلور » ، قد يتركان ليدبرا أمورهما ونحن مطمئنون الى حكمهما ، وأغلب الظن أنك بتدخلك تسيئين الى نفسك أكثر مما تسيئين اليهما » .

وتدخل مستر « وودهاوس » فى الحديث وهو لا يكاد يفهم كثيرا مما دار بينهما فقال :

« ان « اما » لا تفكر فى نفسها أبدا اذا وجدت أنها قادرة على فعل الخير للناس ، ولكن رجائى يا عزيزتى ألا تمهدى لزيجات أخرى بعد الآن ، فهى أشياء سخيفة تمزق شمل العائلة وتدخل عليها الهموم » .

فلتكن مرة واحدة أخرى يا والدى من أجل مستر « التن » ، كم أنا مشفقة على مستر « التن » ، انك تحب مستر التن يا والدى ، ولابد من أن أبحث له عن زوجة ، وان كنت لا أجد فى « هايبرى » من هى جديرة به .

انه قد أمضى هنا عاما كاملا وكون لنفسه منزلا به كل أسباب الراحة ، ومن العار أن تتركه بعد الآن أعزبا . لقد خطر فى ذهنى وهو يجمع يديه الى بعضهما اليوم أنه كان يبدو وكأنه يتوق الى من يؤدى له هذه الخـدمة الجميلة ، ان لى رأيا جميلا فى مستر « التن » ، وهذه هى طريقتى الوحيدة لأؤدى له خدمة » .

« ان مستر « التن » شاب ظريف جـدا ولا شـك انى أقدره كل التقدير ، ولكنك ان أردت أن تشمليه بشىء من عنايتك يا عزيزتى ، فسليه أن يأتى يوما لتناول الغداء معنا ، فهذا أفضل من أى شىء آخـر ، وقد يتعطف مستر « نيتلى » فيحضر للقائه » .

وقال مستر « نيتلى » ضاحكا : « مع مزيد السرور يا سيدى ، وفى أى وقت تحدده ، وانى متفق معكم كل الاتفاق فى أن هذا أفضل بكثير ، ادعيه يا « اما » لتناول الغذاء ، وقدمى له أحسن الأسماك وأطيب الأفراخ، ولكن اتركيه وشأنه ليختار زوجته ، وثقى بأن الرجل وقد بلغ السادسة أو السابعة بعد العشرين قادر على أن يدبر أمر نفسه » .

الفصل الثاني

كان مستر « وستن » من مواطني « هايبرى » ومن سلالة أسرة موقرة علت فى الجيلين أو الثلاثة أجيال الأخيرة الى درجة رفيعة من الحسب والغنى . وقد نال قسطا من التعليم وافرا ولكنه وقد آل اليه وهو فى مقتبل العمر ما ييسر له حياة مستقلة ، أصبح عيوفا عن مزاولة أى عمل من الأعمال العادية ، التى كان يزاولها أخوته . ولكنه مع ذلك استجاب الى نداء عقله النشيط المستبشر وميوله الاجتماعية فانضم الى فرقة الدفاع الوطنى « الميليشيا » التى تكونت وقتئذ فى القرية .

وكان النقيب وستن محبوبا من الجميع . فلما هيأت له حياة الجندية فرصة التعرف بمس « تشرشل » وهى من احدى أسر «يوركشير» العريقة، وهامت بحبه ، لم يكن هذا ليثير الدهشة فى نفس أحد الا أخاها وزوجته اللذين لم يرياه من قبل ، وكان فيهما من الكبرياء والشعور بالعظمة ما جعلهما يظنان بأنها مصاهرة قد تنتقص من مكانتهما .

ولما كانت مس « تشرشل » قد بلغت رشدها ولها حرية التصرف فى مالها ، وهو لا يعدو أن يكون جزءا لا يكاد يذكر بجانب أملاك الأسرة ومزارعها ، فقد تشبثت بالزواج ولم يستطع أحد أن يثنيها عنه ، فتم على مضض وشعور من مستر « تشرشل » وزوجته بأنه وصمة عار ، فتخليا عنها بعد أن زوداها بما تقتضيه المظاهر .

لقد كانت زيجة غير متلائمة ، فلم توفر للزوجين قسطا كبيرا من السعادة المرجوة . وكان جديرا بمسز « وستن » أن تحقق من هذه الزيجة

الكثير ، فقد كان لها زوج له من قلبه المحب وطبعه الرقيق ما جعله يوفيها حقها مقابل ما تفضلت وحبته به من حب . لقد كانت فيها شجاعة ولكنها لم تكن خير أنواع الشجاعة ، وكان لها من العزم ما كفاها لتنفيذ ارادتها على الرغم من معارضة أخيها ، ولكن لم يكن لها منه ما يمنعها من الأسف الذى لا أساس له من أصالة الفكر على ما بدر من أخيها من غضب لا مبرر له ، ولا يمنع شعورها بالحرمان من عيشة الترف التى عاشتها فى بيتها من قبل .

لقد عاشا بأكثر مما تطيقه مواردهما ، ولكن هذا لم يكن بالشىء الذى يقارن بما كانت تعيش عليه فى بيت « أسكومب » . ولقد استمرت على حبها لزوجها ولكنها كانت تروم أن تجمع بين شيئين فى آن واحد ، أن تكون زوجة النقيب « وستن » ومس « تشرشل » من أرومة بيت « اسكومب » معـا .

ولقد كان النقيب « وستن » ، الذى كانت تنظر اليه أسرة تشرشل خاصة على أنه قد ظفر بزيجة مدهشة ، هو الذى برهنت الحوادث على أنه الطرف الذى خرج بأكبر نصيب من الخسارة فى تلك الصفقة . ذلك لأنه وقد ماتت زوجته بعد ثلاث سنوات من زواجهما أصبح أقل يسارا مما كان عليه قبلا ، علاوة على طفل أنجبته له وكان عليه أن يرعاه . ولكنه ما لبث أن أعفى من تكاليف رعايته . فلقد كان مولد الطفل وما لازم أمه من مرض يستدر العطف ، عاملا من عوامل الوئام وازالة الفرقة .

ونظرا لأن مستر « تشرشل » وزوجته لم ينجبا أطفالا ولم يكن أمامهما صغير آخر فى مثل قرابة ذلك الطفل يقومان برعايته ، فقد تقدما برغبتهما فى أن يتكفلا بتربية « فرانك » الصغير عقب موت أمه .

وقد تفترض أن الوالد الأرمل قد شعر بشىء من التردد وعدم الموافقة فى تسليم ابنه ، ولكن اعتبارات أخرى سرعان ما تغلبت على تردده ، فعهد

بالطفل الى أسرة تشرشل لترعاه وينعم بثرائها . ولم يبق أمام الأب الا أن يبحث عن راحته ويحسن من مركزه على قدر طاقته . وكان لابد له من تغيير شامل فى معيشته ، فترك الخدمة فى الجيش الوطنى واحترف التجارة . وقد سهل له اخوته ذلك وفتحوا له أبواب العمل فيها ، اذ كانوا قد استقروا فى لندن وهيئوا لأنفسهم مركزا طيبا فى التجارة . فكان له فى تجارته ما يشغله، وكان له بيت صغير فى « هايبرى » يقضى فيه معظم أوقات فراغه . واستمر طيلة ثمانى عشرة سنة أو لعلها عشرون سنة ، وهو يقضى وقته مبتهجا ما بين أعمال تعود عليه بالكسب أو صلات اجتماعية تجلب له المتعة . وقد أمكنه أن يحقق لنفسه فى تلك الفترة مبلغا يكفى لابتياع ضيعة صغيرة تجاور « هايبرى » فقد كانت هذه دائما أمنيته كما يكفى للاقتران بسيدة مثل مس « تيلور » لا مال لها ، وأن يعيش وفق ميوله الاجتماعية ونزعته الى مودة الناس .

لقد مضى الآن بعض الوقت منذ أن بدأت مس « تيلور » تؤثر فى مشاريعه ، ولكن ذلك التأثير لم يكن بالتأثير الجارف الذى يحدث بين شابين فلم يزعزع من عزمه على ألا يهدأ أو يسكن حتى يبتاع « راندولز ». وكان بيعها أمرا ظل يترقبه من زمن . وكم طال انتظاره لتحقيق هذه الأمنية ولكنه ثابر وهو واضع هذا الهدف نصب عينيه حتم تم له ما أراد .

لقد حقق مالا كثيرا وابتاع له دارا ونال زوجته التى يريدها وهكذا بدأ عهدا جديدا عاش فيه محوطا بكل الاحتمالات التى تهيىء له حياة أرغد وأهنأ مما كان له قبلا . وهو لم يكن يوما تعسا فى حياته لأن طباعه جعلته فى مأمن من ذلك حتى فى أيام زيجته الأولى . غير أن زيجته الثانية كانت خليقة بأن تريه ما يصحب الاقتران بسيدة كريمة الخصال بصيرة بحقائق الأمور من سعادة ، وأن تبرهن له بالبراهين المحببة الى النفوس .

على أنه أفضل للانسان أن يَختار من أن يُختار ، وأن يذكى فى الغير العرفان بالجميل من أن يستشعره فى نفسه .

لقد كان كل همه فى اختيار زوجته أن يسعد نفسه . كان المال ملك يديه ، أما « فرانك » فان تنشئته ليكون وريثا لخاله قد أصبحت حقيقة قائمة وأصبح تبنى أسرة « تشرشل » له وانتسابه اليها أمرا معروفا حتى اذا بلغ رشده حمل لقبها وأصبحت حاجته الى معونة تأتيه من أبيه أمرا مستبعدا ، نعم فما كان والده ليخشى شيئا من ذلك . لقد كانت زوجة خال الطفل سيدة متقلبة الأهواء لا تستقر على حال وكان زوجها فى قبضة يدها وتحت امرتها ، غير أن مستر « وستن » لم يكن يتخيل أبدا أن تقلبات أهوائها مهما بلغت من الشدة سيكون لها أقل أثر على عزيز مثل طفله ، وهو فى نظره جدير بأن يكون ذلك العزيز .

وكان مستر « وستن » يرى ابنه فى لندن كل سنة وكان فخورا به . وجعلت الأخبار التى كان يذيعها عن ابنـه ، بأنه شاب فى غاية الظرف ، مواطنى « هايبرى » يحسون نحوه كذلك بنوع من الفخار ويعتبرونه من أبناء الناحية ويرون فيما يتحلى به من كريم الشمائل وما ينتظـر له من مستقبل زاهر شيئا يهتمون له جميعا . نعم لقد كان مستر «فرانك تشرشل» مفخرة من مفاخر أهل « هايبرى » وكان شغفهم برؤيته قويا ، رغم أنه لم يقابل شعورهم بشىء يوازى شعورهم حتى أنه لم يأت الى هذه الجهة اطلاقا . وكم جرت أحـاديث عن قدومه لزيارة أبيـه ولكن الزيارة لم تتحقق .

والآن وقد تزوج والده فقد أجمعت الآراء على أن هذه الزيارة أصبحت واجبة الأداء ، ولم يكن أحد ليشذ عن هذا الرأى فى المجلس الذى جمع مسز « پرى » بمسز « بيتس » وابنتها لتناول الشاى عندهما ، أو عندما ردت مسز « بيتس » وكريمتها الزيارة لها .

لقد حان الوقت لكى يأتى مستر فرانك « تشرشل » اليهم وقوى الأمل فى مجيئه عندما علموا أنه كتب الى زوجة أبيه بمناسبة زواجها ، ومضت بضعة أيام لم تخل فيها الأحاديث التى كانت تدور فى أثناء الزيارات الصباحية فى « هايبرى » من ذكر الخطاب الرقيق الذى وصل الى مسز « وستن » من فرانك « تشرشل » .

« لعلك سمعت عن الخطاب الرقيق الذى كتبه مستر فرانك تشرشل الى مسز وستن ؟!! لقد فهمت مما أخبرنى به مستر « وودهاوس » أنه كان خطابا رقيقا جدا ، لقد رأى مستر « وودهاوس » الخطاب بنفسه وهو يقول أنه لم ير قط فى حياته خطابا فى مثل رقته » .

كان حقا خطابا جديرا بالتقدير ، وكان له أبلغ الأثر فى تكوين فكرة طيبة لدى مسز « وستن » عن صاحبه . فقد كانت هذه اللفتة السارة من جانبه برهانا قاطعا على جميل شعوره جاءت متوجة لكل مظهر وكل مصدر من مصادر التهنئة التى أزجيت اليها بمناسبة زواجها . لقد شعرت بأنها سيدة ميمونة الطالع ، وأنها قد عاشت لترى نفسها فى عداد السعداء ، وانها ان أسفت فانما تأسف على شىء واحد هو افتراقها عن الأصدقاء الذين لم تخمد جذوة صداقتهم لها وكان من الصعب عليهم تحمل ألم فراقهم عنها.

لقد كانت تعلم بأنهم سيشعرون أحيانا بوحشتها ، وكان الألم ينتابها اذا ما خطر فى ذهنها أن « اما » قد تفقد شيئا من مباهجها ، أو أن الضيق قد ينتابها لأنها حرمت من صحبتها . ولكن العزيزة « اما » لم تكن ذات خلق ضعيف ، وكانت تفوق معظم الفتيات فى قدرتها على مواجهة الأمور ، وكان لها من سعة التفكير والنشاط والحيوية ما يجعلها تتغلب فى يسر واشراق عن كل ما يصادفها من متاعب صغيرة أو نقص فى المسرات . ثم هناك الى جانب ذلك قصر المسافة بين « راندولز » « وهارتفيلد » وهى

مسافة يسهل على السيدة حتى ولو كانت بمفردها أن تسيرها مشيا على الأقدام ، كما كان لمستر « وستن » من ميوله وظروفه ما يبعث على راحة النفس ويجعل الموسم القادم يبشر بأن يكون مناسبة لقضاء نصف أمسيات الأسبوع سويا .

لقد كانت « اما » تقضى الساعات تفكر فيما عليها من واجب العرفان بالجميل لمسز « وستن » لا يتخللها الا لحظات من الألم على فراقها . أما شعور مسز وستن بالرضى ، بما هو أكثر من الرضى ، واحساسها بالاغتباط وبالبهجة فقد كان واضحا باديا عليها حتى أن « اما » وهى أدرى الناس بأبيها ، كانت تستولى عليها الدهشة أحيانا عندما تراه ما يزال يظهر أشفاقه على مس « تيلور » البائسة كلما تركاها فى « راندولز » مغمورة بمطالب الحياة العائلية أو شاهداها تخرج من عندهما فى المساء برفقة زوجها الودود وفى عربة تملكها ، فلم تخرج من عندهما مرة دون أن تبدر من مستر « وودهاوس » تنهيدة خافتة يعقبها قوله « واحسرتاه على مس تيلور البائسة ! كم كان يسرها أن تبقى معنا » .

ولم يكن هناك أمل فى عودة مس تيلور بقدر ما لم يكن هناك احتمال فى توقفه عن الاشفاق عليها ، ولكن لم تمض أسابيع قلائل جتى حدث ما يخفف عن مستر « وودهاوس » ويسرى عنه . فلقد انتهت التهانى التى كان يتلقاها من جيرانه وكفت التمنيات الطيبة التى كان يلقى بها اليه الناس فى مناسبة كانت تحزنه ، وأكلت كعكة الزواج التى أقلقته وأثقلته بالهموم عن آخرها . ولم تكن معدته لتحتمل شيئا دسما ، ومن ثم فلم يكن يصدق أبدا أن غيره من الناس يختلفون عنه فى ذلك . وكان يرى أن كل طعام لا يتفق معه ، طعام لا يصلح لأحد من الناس ، ولهذا فقد جاهد لكى يمنعهم عن شراء كعكة الزواج ، فلما فشل فى ذلك حاول بكل

ما وسعه أن يمنع الناس من أكلها . ولقد أتعب نفسه كثيرا فى استشارة مستر « پرى » الصيدلى فى ذلك . وكان مستر « پرى » رجلا ذكيا مهذبا ، وكانت زياراته المتكررة تدخل السرور على نفس « وودهاوس » وكان كلما سئل لا يجد محيصا عن الاعتراف (ولو كان ذلك مخالفا لاتجاهه وميوله) بأن كعكة الزواج قد لا توافق الكثيرين ، بل قد لا توافق معظم الناس الا اذا كان أكلها باعتدال ، وكان هذا الرأى الذى جاء معززا لرأيه هو أمل مستر « وودهاوس » فى التأثير على كل زائر للعروسين ، وعلى الرغم من ذلك فقد أكلت الكعكة عن بكرة أبيها ولم تهدأ أعصابه حتى التهمت عن آخرها .

وانتشرت فى « هايبرى » شائعات عجيبة بأن أطفال مستر « پرى » جميعا قد شوهدوا وفى أيديهم شرائح من كعكة زواج مسز « وستن » ، ولكن مستر « وودهاوس » لم يصدق هذا أبدا .

الفصل الثالث

كان « مستر وودهاوس » مغرما بمعاشرة الناس على طريقته الخاصة ولهذا فقد كان يحب كثيرا أن يأتى أصدقاؤه لزيارته ، ولقد أمكنه أن يسيطر بدرجة كبيرة على الزيارات التى يقوم بها له أفراد دائرته الصغيرة لأسباب عديدة متجمعة ، منها طول مدة اقامته فى « هارتفيلد » وما طبع عليه من سجايا حميدة ، وثراؤه ، وبيته ، وكريمته . ولم تكن صلاته بالأسر لتخرج عن نطاق هذه الدائرة ، فقد كان خوفه الشديد من السهر ومن ولائم العشاء الكبيرة سببا فى أنه كان يرى نفسه غير أهل للتعارف الا بمن تكون زياراتهم له وفق مزاجه وميوله وكان من حسن حظه أن قرية « هايبرى » بما فيها « وراندولز » التى تقع معها فى نفس الأبرشيه ، وكذلك رهبانية « دونيول » فى الأبرشيه المجاورة ، وهي مقر مستر « نيتلى » كانت تضم كثيرين من أمثال هؤلاء الأصدقاء ، وغالبا ما كانت « اما » تغريه فيدعو بعضا من النخبة الأخيار لتناول الغداء ولكن اجتماعات الأمسيات هي التى كانت دائما مفضلة عنده . وكان من النادر أن تمر أمسية فى الأسبوع من غير أن تهيىء « اما » منضدة للعب الورق ، اللهم الا اذا كان يشعر بعزوف عن مقابلة الناس .

وكان مستر « وستن » وقرينته ومستر « نيتلى » يأتون دائما على الرحب لما كان لهم فى نفسه من مكانة وتقدير ، وكان مستر « التن » ذلك الشاب الذى يعيش بمفرده غير راض عن وحدته ، لا يخشى أن يلقى اعراضا اذا رغب فى أن يستبدل أمسياته الموحشة التى يكون فيها وحيدا

لامؤنس له ، مايلقاه فى حجرة الاستقبال ببيت مستر « وودهاوس » من مظاهر النعمة ، بمن فيها من خيرة مجتمع ، علاوة على ابتسامات ابنتـــه الجميلة .

وتلى هؤلاء مجموعة أخرى ، كان أكثر أفرادها ترددا على بيته ، اذا ما تهيأت لهم الظروف المناسبة « مسز بيتس » وابنتها مس « بيتس » ، ثم مسز « جدرد » — ثلاث سيدات كن غالبا يلبين الدعوة التى تأتيهن من هارتفيلد ، فتذهب اليهن العربة لتأتى بهن ثم تعود بهن المرة بعد المرة ، حتى أصبح مستر « وودهاوس » يظن أنه لا الحوذى « چيمز » ولا الخيل يلقون فى ذلك عناء . ولو أن هذا كان يحدث مرة واحدة فى العام لسبب له ضيقا .

وكانت « مسز بيتس » ، وهى أرمــلة راعى كنيســة « هايبرى » السابق ، سيدة شمطاء ، زهدت فى كل شىء عدا موائد الشاى ولعبــة الكوادريل (الورق) .

وكانت تعيش مع ابنتها الوحيدة عيشة الكفاف وتلقى من التقدير والاحترام ما هو خليق بسيدة عجوز لا حول لها ، وفى مثل ظروفها السيئة ولقد بلغت ابنتها من الحظوة ما لم تبلغه مثيلاتها ممن لم يكن متزوجات ، ولا نصيب لهن من الشباب أو الجمال أو الغنى .

وكانت « مس بيتس » فى أسوأ موقف يمكن أن يكون فيه أحد فى هذه الدنيا بسبب ما كانت تنعم به فى حظوة عند الناس ، دون أن يكون لها ذكاء خارق يعوض عليها مواطن النقص فيها ، أو يسمح لها بأن تخيف أولئك الذين يكرهونها الى حد التظاهر باحترامها ، وهى لم تبــاه يوما بجمالها أو بذكائها ، فقد ولى عهد شبابها وهى مغمورة لا يميزها شىء على غيرها ، وكرست ربيع عمرها لترعى أما ذبلت زهرة أيامها ، وتجاهد لكى

تعيش فى حدود دخل ضئيل ما أمكنها . ومع ذلك فقد كانت سعيدة ، ولم يكن أحد يذكر اسمها الا مقرونا بطيبة قلبها ، كل ذلك لانطباعها على حب الخير وشعورها بالرضي ولأنها أحبت الناس وتمنت لهم السعادة جميعا ، ولا تخفى عليها شاردة ولا واردة من مزاياهم . وكانت تؤمن بأنها من أوفر الخلائق حظا ، وأنها مغمورة بالنعم بما جادت به عليها الحياة من أم ممتازة وعدد وفير من الجيران الطيبين والأصدقاء المخلصين ، وبيت فيه كل أسباب الحياة . وكان لها من بساطتها وطبيعتها المستبشرة ونفسيتها القانعة الشاكرة ما حببها الى الناس جميعا بقدر ما كان مصدر سعادة لها . وكانت لها قدرة على تناول صغائر الأمور بالحديث المستفيض فكان ذلك يصادف هوى فى نفس مستر وودهاوس ، كما كان فى جعبتها الكثير من أخبار الناس ، فكانت تتناول سيرهم بالحديث البرىء .

أما مسز « جدرد » فكانت صاحبة مدرسة ليست مما يطلق عليها اسم الأكاديمية أو المؤسسة ، أو أية تسمية أخرى مما يصاغ فى جمل طويلة ، وهى ليست الا عبارات من الهراء النمق الذى يقصـد منه الاعـلان عن مزاياها العديدة وما تقوم عليه من قواعد جديدة ، وطرق حديثـة ، تلك المدارس التى يتقاضون فيها عن الفتيات مبالغ باهظة ليخرجن منها وقد ذبلت صحتهن وتملكهن الزهو والكبرياء ، ولكنها كانت مدرسة داخلية تسير على النظام القديم وتقوم على أسس حقيقية ثابتة ، يمكن التلميذات فيها الحصول على قسط معقول من المعلومات مقابل أجر معقول ، ويبعث بالبنات اليها لأبعادهن عن البيت ، ولكى ينلن فيها قسطا قليلا من التعليم دون خطر من أن يعدن منها أعجوبة من الأعاجيب .

لقد كان لمدرسة مسز « جدرد » سمعة طيبة هى جديرة بها . ولما كانت « هايبرى » معروفة بأنها مكان صحى ، فقد أعدت صاحبتها منزلا فسيحا

وحديقة واسعة ، وزودت الأطفال بغذاء صحى وفير وجعلتهم يمرحون كثيرا أيام الصيف ، أما فى أيام الشتاء فكانت تضمد بنفسها ما يصيب أقدامهن من قروح وتسلخات بسبب الصقيع . ولم يكن مستغربا أن ترى وهى تسير ومن ورائها أربعون صغيرة ، يسرن مثنى مثنى وهن فى طريقهن الى الكنيسة ، فقد كانت مسز « جدرو » سيدة نقية السريرة ، فيها عطف الأمومة ، كدت أيام الصبا فأصبحت ترى الآن أن لها الحق فى عطلة بين الحين والحين ، تمضيها فى زيارة بعض الناس لتتناول معهم قدحا من الشاى.

وبالنظر الى ما كان لمستر وودهاوس عليها من أياد بيضاء فقد كانت تشعر بأن من حقه عليها أن تترك حجرتها الأنيقة التى زينت جدرانها بالتحف الجميلة ، كلما تيسر لها ذلك لتقضيها حول مدفأته .

هؤلاء كن السيدات اللائى كان فى وسع « اما » جمعهن فى بيتها أغلب الأحيان . وما أسعدها بدعوتهن من أجل والدها ولو أن هذا بالنسبة لها لم يكن ليسد الفراغ الذى تركته « مسز وستن » وراءها .

فلقد سرها أن ترى والدها هانئا ، كما سرها كثيرا أن تكون هى المهيئة لهنائه . غير أن الأحاديث الهادئة لمثل هؤلاء السيدات الثلاث جعلتها تحس بأن مثل هذه الأمسيات الطويلة هى ما كانت تخشاه .

وذات صباح ، بينما كانت جالسة تفكر فيما تكون عليه خاتمة اليوم ، جاءها خطاب من مسز « جدرد » تلتمس فيه بأبلغ عبارات التبجيل أن يؤذن لها باصطحاب « مس سمث » عند مجيئها لزيارتهم .

وقابلت رجاءها بترحيب عظيم ، فقد كانت « مس سمث » فتاة فى السابعة عشرة سبق لاما أن رأتها فاستلفتت أنظارها بجمالها . وكان الرد على هذا الرجاء توجيه دعوة كريمة لها للحضور . ولم تعد سيدة القصر الجميلة لتخشى قضاء أمسية مملة بعد ذلك .

كانت « هاريت سمث » ابنة غير شرعية ، ألحقها شخص ما منـذ سنوات مضت بمدرسة مسز « جدرد » ؛ ثم نقلها شخص ما من وضعها كتلميذة الى مشرفة بالقسم الداخلى . وكان هذا هو كل ما يعرف عن تاريخ حياتها . ولم يكن لها صديقات معروفات غير اللائى صادقتهن فى «هايبرى». وكانت قد عادت على التو من زيارة طويلة قضتها فى الريف فى ضيافة شابات كن معها فى المدرسة .

كانت فتاة جميلة جدا ، وكان جمالها من النوع الذى تهواه « اما » وتعجب به خاصة . كانت قصيرة القامة ممتلئة الجسم ، مليحة الخلقة ، مشرقة المحيا ، لها عينان زرقاوتان وشعر فاتح ، تقاسيم وجهها منتظمـة ونظراتها بالغة العذوبة .

وأعجبت « اما » كثيرا بها وبأخلاقها ، وقبل أن ينقضى المساء كانت قد وطدت العزم على ألا تقطع صلتها بها ، واذا كانت لم تلمس فى حديث « مس سمث » شيئا يدل على ذكاء خارق فقد وجدت فيها جاذبية خاصة . لم تكن خجولة بدرجة تبعث على الضيق ، ولم تتوان عن الحديث ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت بعيدة كل البعد عن اقحام نفسها فيه ، وقد أظهرت عند لقائها للحاضرين بشاشة وكياسة ، وأبدت عظيم امتنانها وتقديرها للسماح لها بزيارة هارتفيلد ، وكشـفت فى غير نفـاق عن تأثرها بكل ما شاهدته من عظمة لا تقارن بما ألفته ، مما دل على حسن ذوقها وعلى أنها جديرة بالتشجيع ، بل لقد كان تشجيعها واجبا ، فان مالها من عينين زرقاوين ناعستين ، وما طبعت عليه من الرقة يجب ألا يضيع هباء بين من هم أقل قدرا من أهل هايبرى . ثم هؤلاء الصديقات اللائى تعرفت بهن لهن لسن أهلا لصحبتها . وأولئك الصويحبات اللائى كانت فى زيارتهن على الرغم من أنهن من أسرة طيبة لابد أن يلحقن بها ضررا . انهن من أسرة

تعرف بأسرة « مارتن » . وكان لاما علم بأن تلك الأسرة تستأجر ضيعة واسعة يمتلكها مستر « نيتلى » ، وأنها تقيم بناحية رهبانية « دونول » ، وأنها أسرة مؤتمنة فيما تعتقد وأن « مستر نيتلى » يظن بها خيرا . ولكنها مع ذلك لابد أن تكون من عامة الناس وأن تكون غير مثقفة ، ولا تصلح بأى حال لأن تعقد الصداقة بفتاة لا ينقصها الا القليل من المعرفة والرشاقة لتصبح كاملة . ان عليها أن تلحظها وأن تعمل على رفع مكانتها فتفرق بينها وبين معارفها اللائى لا يلائمنها ثم تدفع بها الى وسط أرقى ، ولسوف تشكلها من حيث مسلكها مع الناس ومن حيث تفكيرها ، وهى لابد واجدة فى هذا العمل لذة ، فهو عمل لذيذ ملىء بالعطف والحنان ويتفق وما هى عليه من مكانة وما لديها من فراغ وما فيها من مقدرة .

لقد شغلت فى أثناء حديثها معها والاستماع اليها ، بعينيها الزرقاوين الناعستين وأعجبت بهما ، ورسمت كل هـذه الخطط خلال ذلك حتى انقضت فترة المساء بسرعة خاطفة على غير ما اعتادته . وكذلك مائدة العشاء التى كانت دائما تعقب مثل هذه الاجتماعات والتى اعتـادت أن تجلس وترقب اعدادها ، مدت واستكملت عدتها ، ثم قربت من مكان المدفأة قبل أن تكاد تتنبه الى ذلك .

وفى حيوية لم تفارقها أبدا فى أدائها للأعمال بعناية وعلى أكمل وجه ، وبشعور حى صادر عن عقلية تعتز بآرائها ، قامت « اما » بكل الحفاوة التى تتطلبها وجبة العشاء ، وأخذت تقدم لضيوفها الدجاج المفرى ، والمحار الطهى بسرعة واصرار حالا دون ترددهم فى قبولها . وكانت مشاعر مستر وودهاوس فى مثل تلك المناسبات فى حرب محزنة مع نفسها ، فكان يجب أن يرى المفرش يغطى المائدة فهذا ما اعتاد أن يراه منذ صباه ، ولكن اعتقاده بأن تناول العشاء أمر ضار بالصحة جعله يحزن اذا رأى أى شىء يوضع فوق

المفرش ، ولهذا ، فبينما كان حسن كرمه يأبى عليه الا أن يرحب بزائريه ويغمرهم بكل شيء ، كان اهتمامه بصحبتهم يثير غمه اذ يراهم يأكلون .

وان صحنا به عصيدة مخففة مثل صحنه لهو كل ما كان يمكن أن يوصى به أو يوافق عليه ، ولو أنه قد يضغط على نفسه وهو يرى السيدات يلتهمن ما لذ وطاب ويقول :

« اسمحى لى « يا مسز بيتس » أن أقترح عليك تذوق واحدة من هذا البيض . ان بيضة مسلوقة قليلا لا يضر أكلها ، وان « سيرل » لا يدانيه أحد فى درايته بسلق البيض وأنا لا أشير بأكل بيضة يسلقها شخص آخر . ولا داعى للخوف على أية حال لأنها بيضات صغيرات جـدا كما ترين . وبيضة صغيرة مما لدينا لن تؤذيك ، دعى يا « مس بيتس » ابنتى « اما » تقدم لك قطعة صغيرة من الفطير المحشو ، ان فطائرنا محشوة بالتفاح ، ولا تخافى أن تكون الفاكهة المحفوظة عندنا غير صحية ، وكل نصيحتى لك ألا تأكلى الكريم وأنت يا مستر « جدرد » ما رأيك فى نصـف قدح من النبيذ » نصف قدح صغير فى كوب ماء ، ولست أظن بأن هذا لا يوافقك » .

وتركته « اما » يتحدث وظلت تمد زائريها بسخاء لا مزيد عليه ، وكان منتهى سرورها فى هذا المساء أن تراهن مغتبطات ساعة انصرافهن . لقد كان ابتهاج «مس سمث» وفق ما كانت تروم . لقد كانت «مس وودهاوس» من الشخصيات البارزة فى « هايبرى » الى حـد أن فكرة التعارف بها ملأت قلب مس سمث بشعور من التهيب المقرون بالسرور . غير أن الفتاة الصغيرة المتواضعة الشكورة ، غادرت البيت وهى راضية كل الرضى ، وسرها ما لقيته من حفاوة « مس وودهاوس » بها طيلة المساء ومصافحتها لها يدا بيد بالفعل بآخر الأمسية .

الفصل الرابع

وسرعان ما توطدت أواصر الصـداقة بين « مس سـمث » وأسرة هارتفيلد ، وكان من عادة « اما » انهـا اذا أرادت شـيئا حزمت أمرها وسارعت الى تنفيذه ، ولهذا لم تتوان فى دعوتها للولائم ، وفى تشجيعها ومطالبتها بالاكثار من زياراتها .

وزادت الألفة بينهما بتقادم العهد على تعارفهما ، فلقد تنبأت « اما » منذ أول وهلة بأنها قد تجد فيها الرفيق الصالح حين تخرج للتريض مشيا على الأقدام ، اذ كانت تعانى من تلك الناحية بعد أن افترقت عنها « مسز وستن » ، لأن والدها لم يكن يتخطى فى مشيه مكان شجيرات التوت ، حيث كانت هناك رقعتان من الأرض وجد فيهما كل ما يشبع رغبتـه فى السير الى مسافة تطول أو تقصر حسب فصول العام . ومنذ أن تزوجت « مسز وستن » قلت ممارستها لتلك الرياضة وظلت مقصورة على مسافات محدودة للغاية . لقد جازفت مرة وسارت بمفردها الى « راندولز » ولكنها لم تشعر بلذة ، ومن ثم فان فتاة مثـل « هاريت شمث » يسـهل عليها استدعاؤها فى أى وقت لمصاحبتها فى سيرها سوف تكون غنما يضاف الى ما لها من امتيازات أخرى . وقد خبرتها من جميع الوجوه وازدادت معرفتها بها فرضيت عنها واستمسكت بتنفيذ ما رسمته من أجلها .

ولم تكن « هاريت » فتاة حاذقة ولا شك ولكنها كانت حلوة الشمائل ، طيعة ، شكورة ، بعيدة عن الزهو بنفسها ، وكل ما كان ينقصها هو أن تجد من يوجهها ، فلقد نشأت محببة الى الناس ، وكان ميلها الى صحبة

الأخيار ، وتقديرها لكل ما هو جميل وصادر عن ذكاء ، دليــلا على أن الذوق لا يعوزها ، ولو أن قوة الادراك لم تكن منتظرة منها .

لقد أيقنت « اما » أن مس « هاريت سمث » هى الصديقة الشابة التى تريدها وأنها الشخص الذى ينقص بيتها . ان وجود صديقة تشبه « مسز وستن » تماما كان أمرا مستبعدا فان وجود اثنتين من هذا الطراز ليس بالأمر الممكن ، بل هى لم تكن فى حاجة الى اثنتين من هذا الطراز . انها تختلف عن مسز وستن تماما ، وعاطفتها نحوها تتميز عن عاطفتها نحو مسز وستن ومستقلة عنها كل الاستقلال . ذلك أن « مسز وستن » كانت موضع تقدير أساسه العرفان بالجميــل والاكبار ، أما محبتها لهــاريت فمصدرها شعورها بأنها سوف تؤدى لها منفعة واذا لم يكن هناك ما يمكنها أن تؤديه نحو مسز « وستن » فقد كان فى استطاعتها أن تؤدى كل شىء نحو « هاريت » .

وكانت أولى محاولاتها فى ذلك سعيها للتعــرف على والديها ولكن هاريت لم تكن تذكر من ذلك شيئا لقد كانت على استعداد لأن تقول كل شىء فى وسعها ولكن كل أسئلة تتعلق بهذه الناحيــة ذهبت كلها هباء . واستسلمت « اما » لخيالها وجعلت تصور لنفسها ما يحلو لها عن منبت صديقتها . ولكنها لم تعتقد قط بأنها لو كانت فى مكانها كانت تظل عاجزة عن معرفة حقيقة أمر نفسها . ولم تكن « هاريت » ممن يزجون بأنوفهم لاستقصاء الأخبار ولذا قنعت فى ذلك بما وصل لعلمها من أخبار اختارتها لها مسز « جدرد » وأفضت بها اليها . فرضيت بها ولم تطلب مزيدا عليها .

وكان قسط كبير من حديثهما يدور حــول مسز « جــدرد » وعن المدرسات والبنات وأحوال المدرسة بوجه عام ، بل ان حــديثهما كان ولا شك يقتصر على هذه الموضوعات وحدها لو أنها لم تذكر شيئا عن

معرفتها بأسرة « مارتن » التى تقيم بضيعة الرهبانية ، فقد كانت كثيرا ما تفكر فى هذه الأسرة التى قضت معها شهرين شعرت فيهما بأقصى قسط من السعادة وأصبح يطيب لها الآن أن تتحدث عما استمتعت به مدة زيارتها، وأن تصف ما لقيته هناك مما تستريح له النفس وتعجب له .

وكانت « اما » تشجعها على أن تسترسل فى الكلام اذ وجدت متعة فى أن ترى صورة لطيفة من ناس من نوع آخر ، وأن ترى بساطة الشباب فى الكلام تغمر « هاريت » وهى تتحدث عن مسز « مارتن » وتذكر أن فى بيتها بهوين رائعين أحدهما فى اتساع حجرة استقبال مسز « جدرد » ، وأن لديها رئيسة خدم عاشت معها خمسة وعشرين عاما وأن لديهم ثمانى بقرات من بينها اثنتان من أبقار « الذرنى » وبقرة صغيرة من نوع « الولش » ، صغيرة وجميلة جدا ، وأن مسز « مارتن » تقول وهى معجبة بهذه البقرة : « انها بقرتى » ، ثم تستطرد فتقول أن لهم مقصورة صيفية فى حديقتهم وأنهم سيتناولون فيها جميعا الشاى يوما ما فى السنة القادمة — وهى مقصورة جميلة للغاية وتتسع لاثنى عشر شخصا » .

لقد سرها ذلك الحديث بعض الوقت دون أن تفكر فيما وراءه من دوافع ولكنها بعد أن أصبحت أكثر فهما لأحوال تلك الأسرة أخذت تحس شعورا آخر . فقد كانت فكرتها فى بادىء الأمر ، أنها تتكون من والدة وابنتها وابن وزوجته ، ولكنها عندما تبينت أن مستر « مارتن » الذى شغل جانبا من حديث صديقتها — وكانت تذكره دائما وهى فى غاية الرضا وتصفه بطيبة القلب لما يأتيه من أعمال تنم عن حسن سريرته كان أعزبا — ولا زوجة له — أصبحت تخشى أن يكون من وراء ذلك ، ومن وراء الترحيب والعطف من ناحيتهم ، خطر يلحق بصديقتها الصغيرة المسكينة ، وأنها ان لم تشملها برعايتها فستتردى فى هاوية لا تقوم لها من بعدها قائمة.

ودفعتها هذه الفكرة الى زيادة أسئلتها وتنويع أهـداقها ، فشرعت تستدرج « هاريت » حتى تسترسل فى حديثها عن مستر « مارتن » وهو حديث لم يلق غضاضة من جانب « هاريت » ، بل هى لم تتردد فى ذكر ما كان له من دور فى نزهاتهم خلال الليالى المقمرة أو فى ألعابهم المسائية . كانت تتحدث فى استفاضة عن خفة روحه وعن نفسه المرحة ومبادرته الى تقديم المساعدة لها ، وأنه سار يوما ثلاثة أميال ليجلب لها بعض ثمار الجوز لأنها قالت مرة انها مولعة بأكلها ، وأنه كان فى كل ما يقوم به ميالا بسجيته الى المعونة وفعل الخير ، وأنه أتى ذات ليلة بابن الراعى الى « الصالون » لكى يغنى لها ، وكانت هى مولعة بالغناء ، أما هو فكان لا يغنى الا قليلا ، وأنها تعتقد بأنه شديد الذكاء يفهم كل شيء ، وأن له قطيعا جميـلا من الأغنام ، وأنها شاهدت وهى تقيم بينهم أن الاقبال على طلب صوف أغنامه كان أعظم منه على صوف أغنام غيره من أهل القرية ، وأنها تعتقـد أن الناس جميعا يلهجون بذكره ، وأن أمه وأخواته يكبرنه اكبارا ، وأن مسز « مارتن » أخبرتها يوما (وقد علت وجهها حمرة وهى تذكر ذلك) أنه أحسن الأبناء طرا ، ولذا فهى موقنة بأنه اذا تزوج سيكون زوجا مثاليا ، لا لأنها شديدة الرغبة فى تزويجه ، فهى ليست قط متلهفة على ذلك » .

وقالت « اما » فى نفسها : « لقـد أصبت يا مسز « مارتن » وانك لتعرفين ما تهدفين اليه » .

واستطردت « هاريت » تقـول انها لما غادرت بيتهم ، تكرمت مسز « مارتن » فبعث بأوزة جميلة الى مسز « جدرد » فكانت أحسن ما وقعت عليه عينا مسز « جدرد » من الأوز » . وقد قامت مسز جدرد بطهوها يوم أحد ، ودعت المدرسات الثـلاث ، مس « ناش » ومس « پرنس » ومس « رتشاردس » ليتناولن معها العشاء » .

« وأظن أن مستر « مارتن » لا تتعدى معلوماته ما له صلة بأعماله ، أفلا يطالع ؟ » .

« أى نعم ، أعنى لا ، اننى لا أعلم فى الواقع ولكنى أعتقد أنه قرأ كثيرا ، ولكن قراءاته ليست من النوع الذى يخطر لك ، انه يقرأ التقارير الزراعية وكتبا أخرى وضعها فوق حافة أحد النوافذ ، ولكنه يقرأها جميعا لنفسه ، على أنه كان فى بعض الأمسيات قبل أن نلهو بلعب الورق يأخذ فى قراءة نبذ من « المقتطفات الظريفة » وهى مسلية جدا . وأنا أعلم كذلك أنه قرأ قصة « راعى ويكفيلد » ولكنه لم يقرأ « غراميات الغاب » ولا « أطفال الدير » ، ولم يكن قد سمع عنها قبل أن أذكرها له ، ولكنه يعتزم الحصول عليها حالما يتيسر له ذلك » .

ثم كان السؤال التالى : « وكيف يبدو مستر « مارتن » فى طلعته ؟ » .

« أجل ، انه غير جميل ، بل ليست به مسحة من الجمال ، ولقد ظننته لأول وهلة شخصا عاديا جدا ولكنى لا أظنه كذلك الآن . ان المرء كما تعلمين لا يحكم عليه الا بعد وقت ، ولكن ألم يتسن لك رؤيته ؟ انه يأتى من وقت الى آخر الى « هايبرى » ومن المؤكد أنه يمر بها ممتطيا جواده وهو فى طريقه الى « كنجستون » وكثيرا ما يمر بداركم » .

« قد يكون هذا وربما أكون رأيته خمسين مرة دون أن أعلم من يكون هذا . ان آخر من يثير اهتمامى من الناس هو الفلاح الصغير سواء أكان ممتطيا جوادا أم سائرا على الأقدام ، والفلاحون هم على وجه التحديد الفئة التى أشعر برغبتى فى الابتعاد عنها ، وقد ارتاح الى من كانوا من طبقة هى أقل من طبقتى درجة أو درجتين ما دام مظهرهم لائقا ، وقد يتسنى لى القيام ببعض ما يعود على أسرهم بالنفع ، ولكن الفلاح لا يمكن أن يكون فى حاجة الى معونتى ، ولذا فهو من وجهة واحدة فوق مستوى نظرى ، أما فيما عداها فهو دونه » .

« أجل ، من المحتمل أنك لم تلحظيه ولكنه ولا شك يعرفك تماما ، أعنى أنه يعرف شكلك » .

« أنا لا يخامرنى فى أنه شاب محترم جدا بل وأعرف تماما أنه كما ذكرت ، ولذا فانى أتمنى له كل خير ، وما عمره حسب تقديرك ؟ »

« لقد بلغ الرابعة والعشرين فى اليوم الثامن من شهر يونيو الماضى ، وتاريخ ميلادى هو الثالث والعشرين أى أن الفرق بين تاريخ ميلاده وتاريخى أسبوعان ويوم واحد وهى مصادفة عجيبة جدا » .

« أربع وعشرون فقط ، ان هذه سن صغيرة للزواج وأمه محقة فى أنها لا تتعجل زواجه ، ثم يبدو أنهم فى عيشة هانئة فى وضعهم الراهن ، فاذا ما أقدمت أمه على زواجه الآن فربما ندمت على ذلك بل قد يكون من المستحسن أن يكون زواجه بعد ست سنوات من الآن اذا وفق الى فتاة طيبة وعلى شىء من الثراء ومن مستواه » .

« بعد ست سنوات يصبح يا عزيزتى مس « وودهاوس » فى الثلاثين » .

« أجل ، وهذه هى أقل سن يراها معظم من لا موارد لهم سنا ملائمة ليتحملوا أعباء الزواج ، ويخيل الى أن مستر « مارتن » يعتمد على نفسه فى تكوين مركزه المالى وهو لا يمكن بحال أن يكون قد بلغ فى ذلك شأوا كبيرا مهما كان نصيبه من مال أصابه من موت والده ، ومهما كان نصيبه فيما تحوزه أسرته من أملاك ، فهى فيما أرى أموال غير ثابتة تستغل فى تجارة الماشية وما أشبه ذلك ، ومع أنه مع الجد والتوفيق وبمرور الوقت قد يصبح غنيا فان من المستحيل أن يكون قد حقق شيئا من ذلك الآن » .

« نعم ، نعم هذا هو الوضع الصحيح ، ولكنهم يعيشون عيشة رغدة ، نعم انهم ليس لديهم رجل يعمل ساقيا ، أما فيما عدا ذلك فلا ينقصهم شىء ، على أن مسز « مارتن » تتحدث بالفعل عن استخدام رجل من هذا النوع بعد عام » .

« بودى « يا هاريت » ألا تقعى فى المحظور عندما يتزوج ، أعنى بذلك الا تتعرفى الى زوجته ، فعلى الرغم من أن أخواته اذا نظـرنا الى ثقافتهن الواسعة قد لا يكن محل اعتراض كبير ، فان هذا لا يستتبع أن تكون زوجته كفئا لك . فان مولدك وما يحيط به من ظروف قاسـية يجب أن يجعلك تتريثين فى اختيار من ترافقين ، فلا شـك أنك ابنة سيد كريم ، ولابد أن تعززى مركزك هذا بكل ما فى وسعك والا وجد الكثيرون فى ذلك مغمزا ولذ لهم أن يحطوا من شأنك » .

« أجل وأعتقد أن أمثال هؤلاء موجودون بالفعل ، ولكن ما دمت أزور بيت « هارتفيلد » وما دمت تشملينني بعطفك يا مس « وودهاوس » فانى لا أخشى شيئا مما قد يفعلون » :

« انك تفهمين جيدا « يا هاريت » ما لأثر الناس من سلطان ، ولكنى سأوطد صلتك بعلية القوم لتكونى فى غنى حتى عن « هارتفيلد » ومس « وودهاوس » . انى أود أن أرى لك دائما صلات طيبة ، ومن ثم أرى أن من الصواب أن تقللى من المعارف الذين ليسوا على شاكلتك ، ولهذا فانى أقول لك ان كنت لا تزالين مقيمـة فى هذه القرية عنـدما يتزوج مستر « مارتن » فبودى الا تجرك صداقتك بأخواتك الى مصادقة الزوجة التى يحتمل أن تكون ابنة غير متعلمة لواحد من الفلاحين » .

« كونى واثقة من هذا ، وان كنت لا أظن الا أن مستر « مارتن » سوف يتزوج بواحدة نالت قسطا من التعليم ونشأت نشأة طيبة . ومع ذلك فأنا لا أقصد أن أعترض على ما تبدين من ملاحظات ، وأنا واثقة من أننى لن أرغب فى التعرف الى زوجته ، وان كنت سأحمل لشقيقاته دائما كل تقدير وخاصة « اليزابث » ، وسيحزننى أن أتخلى عنهن لأنهن على قدر من التعليم مثل حالى ، أما اذا ما اقترن بجاهلة من حثالة القوم فمن المؤكد أنه سيكون أجدر بى ألا أزورها ما دام هذا فى الامكان » .

وراقبتها « اما » في أثناء ذلك الحديث المتقلب ولكنها لم تر منه من أعراض الحب ما يخيف . لقد كان هذا الشاب أول من أعجب بها ، ولكنها كانت واثقة من عدم وجود شيء غير هذا بينهما وأنه لن يصعب عليها أن تحول بين مس « هاريت » وبين أية تطورات عاطفية أخرى .

وقابلتا مستر « مارتن » في نفس اليوم التالي بينما كانتا تسيران في طريق « دونيول » . كان يسعى على قدميه ، وبعد أن حدجها بنظرة فيها أكبر دلائل الاحترام ألقى بنظرة فيها كل الرضى الى رفيقتها . ولم تأسف « اما » على فرصة سنحت لها لكي تفحصه فحصا عاما ، فتقدمت بضع خطوات عنهما وتركتهما يتبادلان الحديث ، وبنظرة خاطفة أمكنها أن تقف على الكثير مما يتعلق بمستر « مارتن » — لقد كان مظهره أنيقا ، وبدا لها شابا متزنا ، أما فيما عدا ذلك فلم يكن له ما يميزه ، بل انه اذا قورن بسادة القوم لما استطاع في نظرها أن يحتفظ بالأرض التي كسبها في تقدير « هاريت » . بل ان « هاريت » لم تكن غافلة عن أثر الرقة والكياسة في النفوس فلقد لاحظت من تلقاء نفسها ما كان عليه مستر وودهاوس » من رقة الشمائل وأعجبها ما رأته فيه من حسن المسلك . أما مستر « مارتن » فقد بدا وكأنه لا يعرف من الكياسة شيئا .

ولم يمضيا معا غير دقائق قليلة اذ لا ينبغي أن يتركا مس «وودهاوس» تنتظر طويلا ، أقبلت مس « هاريت » بعدها على عجل وعلى وجهها ابتسامة وفي مشاعرها ثورة متأججة . كانت مس « وودهاوس » تأمل أن تطفيء من تأججها سريعا .

وسارعت مس هاريت تقول : « انظري كيف هيأت لنا الظروف فرصة مقابلته ، ما أعجب هذا ! لقد قال انها كانت محض مصادفة ، انه لم يتخذ طريقه الى جوار « راندولز » ولم يكن يظن بأننا نسير في هذا الطريق ،

بل كان يظن أننا نتخذ طريقنا فى معظم الأيام فى اتجاه « راندولز » . انه لم يتمكن من الحصول على قصة « غرام الغابة » حتى الآن . لقد كان مشغولا آخر مرة جاء فيها الى « كنجستون » الى حد أن نسيها بالكلية ، ولكنه سيذهب مرة أخرى غدا . ما أعجب أن نقابله مصادفة « أجـل يا مس « وودهاوس » هل تجدينه كما كنت تنتظرين أن يكون ؟ وما رأيك فيه ؟ هل تظنينه شخصا عاديا ؟ » .

« انه شخص عادى جدا ، وهو عادى بشكل ملحوظ ، ولكن هـذا لا يعد شيئا اذا قورن بما يعوزه من رقة الجانب . وما كان لى حق فى أن أنتظر منه الكثير ، بل أنا لم أكن أنتظر منه الكثير ، ومع ذلك فلم يدر بخلدى أبدا أن أجده جلفا لم يتذوق للكياسة طعما ، وأعترف لك بأننى كنت أتخيله أقرب قليلا الى أخلاق السادة » .

وردت « هاريت » وفى صوتها غصـة « حقـا انه ليس كالسادة فى رقتهم » .

« أظنك يا هاريت منذ أن عرفتينا قد اختلطت مرارا وتكرارا ببعض السادة ، ولا بد أنك لاحظت أن بينهم وبين مستر « مارتن » بونا شاسعا ، نعم لقد وجدت فى « هارتفيلد » نماذج فذة من الرجال الذين نشأوا نشأة طيبة ونالوا قسطا وافرا من التعليم ، ويدهشنى بعد أن رأيتيهم أن تختلطى بمستر « مارتن » مرة أخـرى ولا تلحظين أنه من طبقـة دنيا ، وأكثر ما يدهشنى أنك فكرت قبل اليوم بأن فيه ملاحة . أما بدأت تحسين بذلك الآن ؟ أولم تأخذك الدهشة ؟ انى واثقة من أنك قد أخذت بقبح مظهره ، وخشونة مسلكه ، وصوته الخالى من الرقة والعذوبة كما سمعته وأنا واقفة هنا » . . .

« لا شك أنه ليس على شاكلة مستر «نيتلى» ، وليس فيه ملاحة مظهره

وطريقة مشيته ، واني لأرى الفرق بينهما واضحا كل الوضوح ، ولكن مستر « نيتلى » مع ذلك رجل مفرط فى ظرفه » .

« ان مستر نيتلى يستلفت الأنظار بحسن مظهره وليس من العدل أن تقارنه بمستر « مارتن » ، وقد لا تعثرين على واحد فى كل مائة له من علو المكانة وطيب العنصر ما لمستر « نيتلى » ، ولكنه ليس بالسيد الأوحد الذى عرفتيه أخيرا ، فما قولك فى مستر « وستن » ومستر « التن » ؟ قارنى مستر « مارتن » بأيهما شئت ، ووازنى بينه وبينهما فى المظهر ، من حيث المشية وطريقة الحديث والسكوت ، فلا بد أنك ستجدين فارقا » .

« نعم ان هناك فارقا عظيما ولكن مستر « وستن » أوشك أن يكون رجلا مسنا ، فهو لابد بين الأربعين والخمسين » .

« وهذا ما يجعل سلوكه الحميد أبعد أثرا فكلما تقدم المرء فى العمر « يا هاريت » كان حسن سلوكه من الاعتبارات الهامة وأية بادرة من جلبة أو غلظة أو انعدام للكياسة فيه تبدو مفضوحة مذمومة ، وان ما يتجاوز عنه فى وقت الشباب يكون مكروها فى الكبر ، ومستر « مارتن » فيه الآن خرق ورعونة فما بالك حين يصبح فى سن مستر « وستن » ؟ » .

وأجابتها « هاريت » وهى واجمة : « حقا ليس عندى ما أقوله » .

« ولكن الظنون تصدق مع ذلك ، فهو لاشك سوف يصبح فلاحا جلفا لا يعنى بمظهره فتيلا ولا يفكر الا فى الكسب والخسارة » .

« أيكون هذا حقا ؟ ما أقبح أن يكون الأمر كذلك » .

نعم ، فما أكثر ما تستولى أعماله الآن على كل مشاعره ، يتضح ذلك جليا من نسيانه السؤال عن الكتاب الذى أوصيتنى بشرائه .

لقد شغل بالسوق عن كل ما عداه وهذا هو حال من يسعى وراء المال ،

اذ ما شأنه بالكتب ؟ لا شك عندى أنه سيصيب نجاحا ويصبح بمرور الوقت رجلا ذا ثراء ، ومع ذلك فليس لنا أن نجزع نحن من جهله أو خشونته » .

« حقا انى لأعجب كيف لم يذكر الكتاب ؟ » .

كان هذا كل ما ردت به « هاريت » ، نطقت به وهى مغمومة مكتئبة .

ورأت « اما » ألا ضير عليها ان هى تركتها فى غمها وتوقفت قليلا عن الحديث ثم عادت تقول :

« لو أننا نظرنا من ناحية معينة فقد يكون مستر « التن » متفوقا فى سلوكه على كل من مستر « نيتلى » ومستر « وستن » ، فسلوكهما قد يكون أكثر رقة وقد يصح أن يكون أنموذجا تحتذيه الناس وهم فى مأمن ، وقد يكون مستر « وستن » من ناحية أخرى صريحا ومندفعا الى حد الخشونة ومع ذلك فكل الناس تحب ذلك فيه لأنه يقرن ذلك بقسط وفير من الدعابة الطيبة — وان كانت هذه الناحية فيه مما لا تجوز محاكاتها — وبقدر ما لا تنبغى محاكاة مستر « نيتلى » بما فيه من صراحة قاطعة وأسلوب آمر ، وان كان ذلك يلائم شخصيته ، فان حسن قوامه وجمال مظهره ومركزه فى الحياة يسمح له بذلك ، فاذا حاول أحد من الشبان تقليده كان لا يطاق فى نظر الناس — وعلى النقيض من ذلك فانى أظن ألا ضير على شاب اذا ما أشار عليه أحد بأن يتخذ من مستر « التن » أنموذجا له ، فمستر « التن » مرح باش خدوم رقيق ، ويلوح لى أنه قد ازداد رقة وعذوبة فى الأيام الأخيرة بوجه خاص ، ولست أدرى «ياهاريت» اذا كان يعتزم التقرب الى احدانا فيخصها بمزيد من المعاملة الرقيقة ، ولكن ما لفت نظرى هو أنه قد أصبح الآن أكثر ظرفا مما كان ، وان دل هذا على شىء فانما يدل على أنه قصد أن يدخل السرور على قلبك ، ألم أخبرك بما

قاله عنك فى اليوم السابق ؟ » ثم رددت بعض ما امتدحها به مستر « التن » وانتهت بقولها : « وهو لم يعد الحقيقة فيما قال » .

وعلت حمرة الخفر وجه « هاريت » وابتسمت وهى تقول : « انها تظن أن مستر « التن » رجل ظريف للغاية على الدوام » .

لقد كان مستر « التن » الشخص الذى وضعته « اما » نصب عينيها لتصرف به الفلاح من تفكير « هاريت » ورأت فيها خطة رائعة بقدر ما هى أمنية طبيعية محتملة التحقيق الى حد لا يجعل لها فضلا كبيرا فى ابتكارها . وأخشى ما كانت تخشاه أن يكون ذلك ما يفكر فيه سائر الناس ويرسمون خططه . وحتى اذا صح ذلك لم يكن من المحتمل أن يجاريها أحد منهم فى توقيت هذه الخطة ، فقد فكرت فيها فى نفس الأمسية التى قدمت فيها « هاريت » الى « هارتفيلد » ، وكانت كلما استعرضت الأمر ، زاد احساسها بضرورة الاسراع فى تحقيقها . لقد كانت مكانة مستر « التن » لا تشوبها شائبة فهو من السادة ولا تربطه بالدهماء صلة ، وهو فى الوقت نفسه من أسرة لا اعتراض لها على واحدة مثل « هاريت » تحيط الظنون بمولدها . وهو فوق ذلك له منزل تتهيأ فيه أسباب راحتها . وكانت « اما » تعتقد لذلك بأن له دخلا فوق الكفاية ، اذ على الرغم من صغر أبرشية « هايبرى » كانت له أملاك خاصة . ولقد قدرته كثيرا لأنها رأت فيه شابا طيب القلب حسن القصد رفيع القدر لا ينقصه الفهم النافع أو المعرفة بشئون الدنيا ، ملم بما يعود عليه بالمنفعة . بل لقد أقنعت نفسها بأنه يرى فى « هاريت » فتاة جميلة ، وتأكدت بأن هذا الرأى سوف يكون مع تكرار المقابلات فى « هارتفيلد » أساسا يمكن الاعتماد عليه من ناحيته . وأما من ناحية « هاريت » فلم يكن يخامرها الشك فى أن تفضيله اياها سيكون له من الأثر فى نفسها ما يحقق الهدف المنشود .

لقد كان فى الواقع شابا ظريفا للغاية ، شابا تهواه كل سيدة غير متزمتة. لقد عرف بأناقته وكان فى شكله مرضيا بصفة عامة ، الا بالنسبة لها فقد كانت ترى فى تقاسيم وجهه قلة انسجام لا يمكن تجاهلها . ولكنها رأت أن فتاة يرضيها « روبرت مارتن » لأنه يجوب القرية بجواد ليجلب لها ثمار الجوز ، قد يسهل غزو قلبها بعبارات الاعجاب التى يصوغها مستر «التن».

الفصل الخامس

قال مستر « نيتلى » لمسز « وستن » :

« لست أدرى يا مسز وستن شيئا عن رأيك فى تلك الصداقة الوثيقة التى توطدت أواصرها بين « اما » و « هاريت سمث » ولكنى أظنها شيئا غير مستحب » .

« شيئا غير مستحب ! وهل تظنها حقا غير مستحبة ؟ ولم ذلك ؟ » .

« أظن ألا فائدة ترجى من احداهما للأخرى » .

« انك لتدهشنى ، فان «اما» لابد أن تفيد هاريت ، كما أن «هاريت» وقد أمدت « اما » بشىء جديد يثير اهتمامها ستكون بدورها قد أدت لاما عملا طيبا ، لقد كنت أرقب صداقتهما الوثيقة فتفيض نفسى سرورا ، فما أكثر الفارق بين شعورى وشعورك !! كيف لا تظن أن فى تلك الصداقة منفعة لهما ! لا شك أن هذا سيكون بداية لمشاحناتنا من أجل « اما » يا مستر « نيتلى » .

« أوتظنين أنى قد حضرت خصيصا للمشاحنة معك لما علمت بأن « مستر وستن » قد خرج ، وأنه سيصبح لزاما عليك أن تخوضى هذه المعركة بنفسك » .

« لو أن « مستر وستن » كان هنا ، فانه ولا شك كان يناصرنى ، لأن رأيه فى الموضوع مثل رأيى ، ولقد كنا نتحدث عن ذلك بالأمس ، واتفق رأينا على أن من يمن طالع « اما » أن وجدت مثل هذه الفتاة فى «هايبرى» لتكون رفيقة طيبة لها . اننى لا أجد فيك يا مستر « نيتلى » القاضى العادل

فى هذه القضية . انك قد اعتدت أن تعيش وحيدا حتى صرت لا تعلم قيمة الرفيق ، وقد لا يوجد من الرجال من يقدر ما تشعر به سيدة من الراحة النفسية وهى فى صحبة احدى بنات جنسها اذا كانت قد اعتادت هـذه الصحبة طوال حياتها ، انى لا أكاد أتصور سبب اعتراضك على مس «هاريت سمث » ، فهى ليست بالشابة الممتازة التى يجب أن تكون عليه صـديقة « اما » ولكننا لو نظرنا الى المسألة من جهة أخرى ، فما دامت « اما » تريد أن ترى صديقتها أكثر ثقافة ودراية بشئون الدنيا فأن من شأن هذا أن يحملها على المزيد من القراءة هى نفسها ، وسيقرآن سويا ، وأنا أعلم أنها تعنى ذلك » .

« بل ان « اما » منذ أن كانت فى الثانية عشرة من عمرها كانت تحب الاستزادة من القراءة . ولقد رأيت قوائم عديدة من الكتب أعـدتها فى أوقات مختلفة لكى تقرأها ، فكانت كتبا أحسنت اختيارها ، وقامت على ترتيبها أحسن قيام ، تارة بالحروف الأبجدية ، وتارة على أسس أخرى . وانى لأذكر أن آخر قائمة أعدتها وهى لم تتجاوز بعد الرابعة عشرة من عمرها كانت تدل على أن حكمها على الأشياء جدير بالثناء ، حتى لقـد اختفظت عندى بهذه القائمة بعض الوقت . وما من شك فى أنها قد أعدت الآن قائمة أخرى أعظم منها ، على أننى قد أصبحت لا أنتظر من « اما » أن تكون دؤوبة على القراءة بانتظام ، فهى لن تستجيب الى شىء يحتاج الى جهد أو اصطبار ، أو يتطلب تغليب الفهم على الخيال ، وأنا واثق من أن « هاريت » لن تفلح فيما أخفقت فيه « مس تيلور » ؛ وما كنت يوما قادرة على أن تغريها على قراءة نصف ما كنت تريدين منها ، وأنت أعلم منى بأنك عجزت عن ذلك » .

وأجابته « مسز وستن » وعلى وجهها بسمة :

« حقا هذا ما كنت أظنه وقتئذ ، ولكن منذ أن افترقنا لم أستطع أن أذكر أن « اما » أغفلت القيام بشيء كنت أريده » .

وقال « مستر نيتلى » فى رفق : « ما كنت أود أن أحيى مثل هــذه الذكريات » . وانتظر برهة ثم استطرد يقول : « ولكنى وقد برئت حواسى من أثر كل سحر ، لا زلت أرى وأسمع وأذكر . لقد أفســد « اما » أنها كانت أذكى أفراد أسرتها ، وكان من سوء حظها أنها كانت وهى فى العاشرة قادرة على اجابة أسئلة كانت تعجز عنها أختها وهى فى السابعة عشرة ، وكانت اجاباتها فى سرعة وعن يقين ، بينما كانت « ايزابلا » بطيئة وجلة . ومنذ أن بلغت « اما » الثانية عشرة وهى ربة البيت المهيمنة عليك وعلى الجميع ، ولم تكن غير أمها التى فقدتها صنوا لها ، فلقد ورثت عن أمهــا ما كان لها من مواهب ، ولا بد أنها تأثرت كثيرا بشخصية أمها وبسلطانها» .

« لقد كان يسوءنى يا « مستر نيتلى » لو أننى كنت يوما فى حاجة الى تزكية منك ، لو اننى كنت تركت أسرة مستر وودهاوس ورغبت فى عمل آخر ، فأغلب ظنى أنك فى تلك الحالة ما كنت تجود بكلمة طيبة من أجلى لأى انسان بل انى موقنة بأنك كنت تظن دائما بأنى لم أكن أهلا للعمل الذى وكل الى » .

فقال باسما : « أجل ، ومكانك هنا أفضل ، فأنت تصلحين كل الصلاحية لأن تكونى زوجة لا أن تكونى مربية . على أنك كنت تعدين نفسك طيلة اقامتك فى هارتفيلد لكى تكونى زوجة ممتازة ، وقد تكونين عجزت عن أن تمدى « اما » بثقافة شاملة بما يتفق مع مواهبك ، ولكنك كنت تتلقين منها دروسا قيمة عن أهم شيء تتطلبه الحياة الزوجيــة ، ذلك هو كبح ارادتك أو أداء ما تطلب منك . ولو أن وستن كان سألنى أن أزكى له زوجة لكنت ولا شك أرشح له « مس تيلور » .

« شكرا ، فليس لى فضل كبير فى أن أكون زوجة صالحة لرجل مثل « مستر وستن » » .

« ولماذا ؟ الحق يقال أن الغرم واقع عليك ولا ريب ، فقد تصبرين معه على كل شيء ، أما هو فلن يجد منك شيئا يصطبر عليه ، على أننا لن نيأس على أية حال ، فقد يشعر وستن بالضيق من فرط ما يعتـــاده من المتعـــة والراحة ، كما أن ابنه قد يؤرق باله » .

« آمل ألا يكون هذا ، بل هو أمر لا يحتمل حـــدوثه . لا يا مستر « نيتلى » ، لا تتنبأ بمضايقات فى تلك الناحية » .

« لا ، لست أتنبأ بشيء من هذا ، وانما هو مجرد ذكر لما يحتمل حدوثه ، ولست أدعى لنفسي ما لمس « اما » من عبقرية فى التنبؤ أو الحدث ، بل انى لأرجو من كل مشاعرى أن يكون للفتى من كريم الخصال ما لمستر وستن وفى الثراء ما لأسرة « تشرشل » . أما عن « هاريت سمث » فانى لم أتنه من نصف ما أردت أن أقول عنها فهى كما أظن أسوأ من تتخذها « اما » رفيقة لها ، فهى لا تعرف شيئا وتنظر الى « اما » على أنها تعرف كل شيء وهى تتملقها وتكيل لها المديح دائما وفى هذه الطامة الكبرى لأنه يصدر منها على غير هدى ، وجهها يبعث على المداهنة فى كل آونة . وكيف تتصور « اما » أنها ستتعلم شيئا اذا كانت « هاريت » تريها أنها أقل منها شأنا ؟ وانى أقول ولا جناح على فيما أقول ان « هاريت » نفسها لن تنال من هذه الصحبة مغنما ، وان بيت « هارتفيلد » سيزهدها فى الأماكن الأخرى التى تنتمى اليها بحكم وضعها ، وستغدو ولها من الصقل والتهذيب ما ينغص عليها العيش فى بيئة وفى بيت شاءت ظروفها ومولدها أن يكون مقـــامها فيه ، ولسوف أكون مخطئا اذا كانت نظريات « اما » تضفى أية قوة على عقل أية فتاة أو تساعدها على المواءمة بين نفســـها وبين ظروف حيـــاتها المختلفة ، وكل ما يمكن أن تحققه هو قسط من الصقل والتهذيب » .

« أرانى اما أن أكون أكثر منك ثقة بحسن تفكير « اما » ، أو أن أكون أكثر قلقا على راحتها الراهنة . وأنا لا آسف على هذه الصداقة ، وكم بدت على أحسن ما تكون فى الليلة الماضية » .

« أجل ، أراك تؤثرين أن تتكلمى عن شخصها ولا تتكلمى عن عقليتها، وأنا لن أحاول انكار أن « اما » ظريفة وجذابة » .

« ظريفة وجذابة !؟ أحرى بك أن تقول انها جميلة ، وهل فى قدرتك أن تتصور أى شىء أقرب الى الجمال الرائع من « اما » وجها وقواما ؟ » .

« لست أدرى ما فى قدرتى أن أتصوره ، ولكنى أعترف بأنى من النادر أن سعدت برؤية وجه أو قوام كسعادتى برؤية وجهها وقوامها ، ولكنى مع ذلك صديق متحيز منذ أمد » .

« ما أجمل عينيها !! تلكما العينان العسليتان الصافيتان . وما أشدهما بريقا !! وتقاسيم وجهها المنسقة ومحياها المشرق وجمال بشرتها !! ثم ما أبهج النضرة المنبعثة من كمال صحتها !! » .

وما أجملها طولا وشكلا ، وما أصلب عودها وأحلى قامتها !! وانك لا ترى معالم الصحة فى ازدهار بشرتها فحسب ، بل تراها كذلك فى حركتها وهامتها ونظرتها . ان الانسان ليسمع أحيانا عن طفل يوصف بأنه عنوان الصحة وان « اما » لتوحى الى دائما بأنها عنوان الصحة الكاملة بين الكبار. انها الجمال بعينه ، أليست كذلك يا مستر « نيتلى » ؟ .

وأجابها : « انى لا أجد فى ذاتها عيبا ولا نقصا ، وأظن أن كل ما وصفتها به لا يعدو الحقيقة ، وأنا دائما أحب أن أتطلع اليها ، وأضيف الى ذلك ثناء آخر فانى لا أخالها مزهوة بنفسها ، ولو نظرنا الى ما هى عليـــه من جمال لرأيناها تبدو وكأن هذا الجمال الرائع لا يشغل من تفكيرها الا حيزا ضئيلا أما عجبها فهو فى ناحية غير هذه . ومع ذلك يا مسز وستون فلن

أصرف بهذا الحديث عن كراهيتي لصداقتها مع « هاريت سمث » أو عما ساورني من خوف مما قد تلحقه هذه الصداقة بهما » .

« أما أنا يا مستر « نيتلي » فكلي ثقة بأن هذه الصداقة لن تلحق بهما ضررا ، فان عزيزتي « اما » مع كل ما بها من هنات ، مخلوقة ممتازة وأنى لنا أن نرى ابنة أفضل أو شقيقة أشفق أو صديقة أخلص منها ؟ لا ، لا ، ان لها من الصفات ما لا سبيل الى التشكك فيها وهي لن تسيء الى أحد ، ولا تتمادى في هفوة تصدر منها ، وان أخطأت مرة فهي تصيب مائة مرة » .

« حسنا فلن أضايقك أكثر من هذا ، وستظل « اما » ملاكا وسأحتفظ برأيي لنفسي الى أن يحين موعد عيد الميلاد وتعود « ايزابلا » و « چون » .. ان « چون » يحب « اما » حبا يقوم على رجحان الفكر بعيدا عن التحيز والهوى ، وكذلك « ايزابلا » فهي تسير في تفكيرها على خطاه ، الا عندما لا يشتد يجزع على الأطفال بالقدر الكافي ، وأنا واثق بأنهما سيتفقان معي في الرأي » .

« أنا أعلم بأنكم جميعا تحبونها حبا يحول بينكم وبين أن تظلموها أو تقسوا عليها ، ولكن معذرة يا مستر « نيتلي » اذ استبحت لنفسي (باعتباري كما تعلم كأمها وأن لي حق الأم في الكلام عنها) حرية التلميح بأن صداقة « هاريت سمث » لن يكون لكم من وراء طول جدلكم فيها فائدة ترجى . واني أستميحكم القول بأنه على فرض أننا نخشى أن تحدث هذه الصداقة بعض المضايقة ، فليس من المنتظر أن تقطع « امّا » هذه الصداقة التي أقرها والدها وهو الوحيد الذي له أن يحاسبها ما دامت تجد في تلك الصداقة مصدرا لسعادتها . لقد ظل اسداء النصح لها من اختصاصي سنوات عديدة فلا تدهش يا مستر « نيتلي » لتلك البقية الباقية من مظاهر وظيفتي السابقة » .

وصاح قائلا : « عفوا ، بل أنا مدين لك بهذه النصيحة وانها لنصيحة غالية سيكون مصيرها أفضل من كثير من نصائحك السابقة لأنى سآخذ بها هذه المرة » .

ان مستر « چون نيتلى » سريعة الهلع وقد لا تسرها حالة آختها .

ورد عليها : « اطمئنى فلن أثير ذعرا وسأحتفظ باكتئابى لنفسى ، ان « امّا » تهمنى وأنا أخلص لها كل الاخلاص ، « وايزابلا » كزوجة أخ أقرب منها الى بل لعل اهتمامى بها لا يصل الى اهتمـامى « باما » . ان مشاعر الانسان نحـو « اما » يقترن بها شيء من القلق عليها ومن حب الاستطلاع فى كل ما يتصل بها . ترى ماذا يدخر الزمن لها ! » .

وقالت مسز « وستن » فى حنان « وكذلك أنا ، أشعر بما تشعر به » .

« انها تعلن دائما بأنها لن تتزوج وهذا بطبيعة الحال لا يدل على شيء أبدا ولكنى لا أظن أن نظرها قد وقع حتى الآن على رجل أثار اهتمامها . على أنها لن تضار فى شيء ان هى هامت بحبّ من هو ند لها . وبودى أن أرى « اما » وقد وقعت فى شراك الحب ، ثم يساورها بعض الشك فى أن حبيبها لا يبادلها حبها ، فسيكون هذا فى مصلحتها على أنه ليس هنا فى هذه الناحية من يمكن أن يثير حبها ، ثم هى نادرا ما تغادر منزلها » .

وقالت مسز « وستن » : « نعم يبدو أنه ليس هنـاك الآن من شيء يمكن أن يغريها على الرجوع عما اعتزمتـه فى الوقت الحاضر ، ولكنى لا أحب لها أن تعقد صـلات يكون من ورائهـا خـلق المتـاعب لمستر « وودهاوس » المسكين طالما هى تحس بالسعادة فى « هارتفيلد » . بل أنا لا أشير بزواج مس « اما » فى الوقت الحاضر ، وأؤكد لك أنى ما قصدت بذلك التقليل مما لهذا الموضوع من أهمية » .

وتعمدت من عبارتها أن تخفى ما أمكنها بعض ما كان يدور فى ذهنها

وذهن مستر « وستن » حول هذا الموضوع . فلقد كان الجو فى راندولز مليئا بالتمنيات حول مصير « اما » ، غير أنه لم يكن من المستحب أن تجعل هذه التمنيات موضع الحدس والتخمين ، وكان فى انتقال مستر « نيتلى » بالحديث عقب ذلك مباشرة حين سألها ، « ما رأى « وستن » فى الطقس ؟ هل سيكون ممطرا ؟ » ما أكد لها بأنه لن يزيد على ما قاله شيئا أو أن يخمن شيئا عن « هارتفيلد » .

الفصل السادس

لم يكن يخامر « اما » أى شك فى أنها نجحت فى توجيه « هاريت » توجيها سليما ، وأنها قد أذكت ما فيها من زهو بنفسها الى ما يحقق هدفا طيبا . نعم فلقد ألفتها الآن أكثر ادراكا لمحاسن مستر « التن » وخصاله الجميلة . ثم لما كانت « اما » لا تضيع وقتا فى توكيد اعجابه بها ، بما توجهه اليها من تلميحات ايجائية رقيقة ، فقد وثقت بأنها كانت بالفعل تبذر بذور محبته فى قلب « هاريت » كلما وجدت الى ذلك سبيلا . كذلك تأكدت « اما » من ناحية أخرى بأن مستر « التن » كان قريب الوقوع فى هوى « هاريت » ان لم يكن قد وقع فيه بالفعل . نعم فلم يكن يخامرها شك من ناحيته ، فقد كان يتحدث عن « هاريت » كثيرا ويمتدحها بحرارة حتى ظنت أنه لن يطول بها الوقت حتى تحقق أمنيتها وكانت ملاحظته للتقدم العجيب الذى ظهر على سلوك « هاريت » منذ اتصالها بهارتفيلد من بين الأدلة الناصعة على ازدياد تعلقه بها ، لقد قال لها مرة : « انك وهبت مس « هاريت » كل ما كان ينقصها ، وجعلتيها رشيقة مقربة الى النفوس . لقد كانت جميلة لما عرفتك ، ولكنك أضفيت عليها من جاذبية قد فاق فى رأيى ما حبتها به الطبيعة » .

وقالت « اما » . « يسرنى اعتقادك بأنى قد أديت لها عملا نافعا على أن « هاريت » لم يكن ينقصها الا اخراج مكنونات نفسها وتزويدها بالقليل من الملاحظات . لقد كانت حلوة الشمائل بطبيعتها ، جميلة بسجيتها ، وما قمت لها الا بالنزر اليسير » .

وهنا قال مستر « التن » الشهم : « لو آن معارضة السيدات كانت مسموحة .. » .

« وربما آكون قد زودتها بالقليل من قوة الحكم على الأشياء وعلمتها كيف تفكر فى أمور لم تصادفها من قبل » .

« تماما ، وهذا ما أدهشنى خاصة ، فلقد رفعت كثيرا على الحكم ، وكم كنت ماهرة فى ذلك » .

« لقد سرنى هذا كثيرا فلم أقابل فى حياتى شخصية آكثر وأصدق قربا الى نفسى منها » .

« أنا لا أشك فيما تقولين » قال هذا بروح فيها لوعة ، تحمل الكثير من مظاهر المحب ولم يكن سرورها الآن بأقل من سرورها فى يوم آخر حين رأته يعزز رغبة مفاجئة طرأت عليها بأن ترسم صورة لهاريت .

قالت لها « اما » يومئذ : « هل أخذت لك صــورة يا « هاريت » يوما ما ؟ وهل جلست مرة لترسم لك صورة ؟ » .

وكانت « هاريت » على وشك أن تغادر الحجرة ، ولكنها توقفت لتقول فى براءة مدهشة : « لا ياعزيزتى ، أبدا » .

وما كادت تختفى عن الأنظار حتى صاحت « اما » قائلة :

« ما أجمل أن يقتنى الانسان صورة جميلة لها !! انى لن أضن بمال من أجل صورة كهذه ، وكم أنا مشوقة لأقوم بمحاولة لرسم صورة لها بنفسى ، فأنت قد لا تعرف عنى أن لى دراية بذلك ، فقد كان لى منــذ سنتين أو ثلاث ، ولع شديد بالتصوير ، وحاولت عمل صور للكثيرين من أصدقائى ، وكان الناس يرون أن لى فى ذلك قدرة لا بأس بها بوجه عام ، ولكنى عزفت عن ذلك لسبب ما ، غير أنى أكاد أجرؤ الآن على محاولة ذلك اذا رغبت « هاريت » فى أن تجلس لكى أصورها ، فما أبهج أن يكون لها عندى صورة !

وصاح مستر « التن » قائلا : « دعيني أتوسل اليك أن ترسمي لها هذه الصورة ، ان في ذلك متعة وأي متعة ، أرجو يا « مس وودهاوس » أن تستغلي موهبتك الجميلة من أجل صديقتك ، انى أعرف رسومك ، وكيف تظنين أننى أجهل قدرها ؟ أليست هذه الحجرة نفسها مليئة بصور للمناظر الطبيعية والأزهار من عملك ؟ وهل لا توجد لدى « مسز وستن » صور لشخصيات في حجرة الاستقبال براند ولز لا تمكن محاكاتها ؟ » .

وفكرت « اما » ثم اندفعت تقول : « أجل يا عزيزى ! ولكن ما علاقة هذا بعمل صور طبق الأصل من الأشخاص ؟ انك لا تعرف شيئا عن الرسم . لا تدعى بأنك تكاد تجن من أجل جمال رسومى ، وخير لك أن تحتفظ بسرورك من أجل وجه « هاريت » — ولكنها استدركت تقول : « أجل ، اذا أنت شملتنى بمثل هذا التشجيع الرقيق يا مستر « التن » فأنى أعتقد بأنى سأحاول ذلك » . ان ملامح « هاريت » دقيقة للغاية وهذا مما يجعل تصويرها صعبا ، وعلاوة على ذلك ، فأن عينيها لهما مميزات خاصة كما توجد حول فمها خطوط تجب ملاحظتها » .

« هذا صحيح فيما يتعلق بشكل العين والخطوط التى تحيط بالفم ، ولا أشك في أنك ستتغلبين على ذلك ، أرجوك أن تحاولى ، أرجوك أن تشرعى في رسم صورتها ، واذا ما قمت بهذا العمل على حد قولك فانه سيكون شيئا جميلا يحرص المرء على اقتنائه » .

« ولكنى أخشى يا مستر « التن » ألا توافق « مس هاريت » على الجلوس لكى أرسمها ، فهى لا تهتم كثيرا بجمالها ، ألم تلاحظ طريقة اجابتها على سؤالى كما لو كانت تريد أن تقول : « ولماذا ترسم صورتى؟ » .

« أجل ، أؤكد لك أنى لاحظت ذلك ولم أغفل عنه ولكنى لازلت أستبعد أنه يصعب عليك استمالتها » .

وعادت « هاريت » بعد قليل ، فعرضت عليها الفكرة على الفور ، ولم تجد فى نفسها أمام الحاحهما الا أن تستجيب لرجائهما . ورغبت « اما » فى أن تبدأ العمل فى الحال ، فجاءت بحقيبتها الصغيرة التى تحوى الهياكل العديدة لصور لم تكن أكملتها كى يختاروا منها حجم الصورة الذى يلائم « هاريت » ، وهكذا جعلت تعرض كل ما كانت قد بدأته فى الصور ، تتفحص الواحدة تلو الأخرى ، بعضها صور صغيرة ، وبعضها يظهر نصف القوام ، أو القوام كله ، بعضها بالقلم الرصاص ، وبعضها الآخر بالفحم أو الألوان المائية . فلقد كانت دائما تروم العلم كل شيء ، فأحرزت بما بذلته من جهد قليل تقدما فى الرسم والموسيقى لا يتاح للكثيرين غيرها ، حتى صارت تعزف وتغنى ، كما كانت ترسم بجميع الأساليب . غير أن الثبات على مواصلة الأشياء كان دائما يعوزها ، فلم تقترب من درجة الكمال التى كان يسعدها أن تظفر بها ، بل ما كان ينبغى لها أن تقصر عن بلوغها . واذا كانت لم تسمح لنفسها اطلاقا بأن تخدع نفسها فى قدرتها على التصوير أو الموسيقى فلم تكن تمانع فى أن ترى الغير يخدعون فى قدرتها على ذلك أو تأسف لأن شهرتها تعدو حدود ما هى أهل له .

لقد كان فى كل رسم من رسومها ما يجعله جديرا بالاعجاب ، وكان أجدرها بالاعجاب أقلها اتماما . وكان أسلوبها ينبض بالحياة . ولو أن رسومها كانت أقل عددا بكثير مما هى ، أو لو أنها كانت عشرة أضعاف ما كانت ، فان سرور رفيقيها فى الحجرة فى تلك اللحظة ما كان ليتغير . نعم ، فلقد غلبهما السرور ، اذ ما من أحد الا وتسره رؤية صورة تطابق شخصية صاحبها ، وما رسمته « مس وودهاوس » من ذلك لابد كان رائعا.

وقالت « اما » : « ليست هناك مجموعة كبيرة فى الوجوه المنوعة لكى أريها لك ، اذ لم يكن أمامى الا أفراد أسرتى لأهتدى فيها بوجوههم .

فهذه صورة لأبى ، وتلك صورة أخرى له ولكن مجرد تفكيره بأنه سوف يجلس للتصوير كان يثير أعصابه حتى أننى لم أتمكن من تصويره الا خلسة ، ولذا لم تكن واحدة منهما تشبهه تماما . وها هى صورة « لمسز وستن » وهذه أخرى ، وتلك ثالثة . ان عزيزتى « مسز وستن » هى فى كل المناسبات أكرم من صادفتهم . كانت تجلس لأصورها كلما طلبت منها ذلك — وهذه صورة أختى ، انها تشبهها تماما بقوامها الصغير الرشيق ، والوجه شديد الشبه بوجهها . ولو أنها كانت جلست طويلا لكنت أخرجت لها صورة لا تفترق عنها ، ولكنها كانت تتعجلنى لكى أرسم أطفالها الأربعة ، ولذا لم تهدأ فى جلستها أبدا . وها هى محاولاتى فى رسم ثلاثة من أطفالها الأربعة . لقد ملأت صور الثلاثة « هنرى » و « چون » و « بلا » ، فراغ الورقة من أولها الى آخرها . وانك لتجدين أن الصور الثلاثة تشبه بعضها ، فلقد كانت أمهم تتلهف على تصويرهم ، فلم أقو على رفض طلبها . وأنت تعلمين أن الأطفال فى الثالثة أو الرابعة من عمرهم يصعب عليهم أن يكفوا عن الحركة ، كما أنه ليس من السهل فيما عدا الشعر ولون البشرة عمل صور لهم تدل على شىء أكثر من مظهرهم العام وملامح وجوههم ، اللهم الا اذا كانت قسمات وجوههم أقل تناسقا ودقة . ثم ها هى صورة تخطيطية لرابعهم وهو رضيع ، صورته وهو نائم فوق الأريكة ، وهو بالشريط الذى يحيط بقبعته صورة طبق الأصل منه . لقد نام ووضع رأسه فى أنسب الأوضاع ، بالوضع الذى ترينه هنا ، انى فخورة بچورچ الصغير — وهذا ركن الأريكة ترينه فى غاية الجمال » .

وأخرجت بعد ذلك صورة تخطيطية صغيرة لرجل بحجم كامل ، وهى تقول : « وها هو آخر ما رسمت وأحسنه ، انها صورة لمستر « چون نيتلى » زوج أختى ، ولم يكن ينقصها الا القليل حتى تتم عندما طرحتها

جانبا فى ساعة كنت فيها غاضبة ، وآليت فيها على نفسى ألا أرسم بعدها صورة لأحد — فلقد شعرت وقتها بكثير من الاستفزاز ، ذلك لأننى بعد ما كابدته فيها من المتاعب ، وبعد أن جعلتها شبيهة به كل الشبه (وكانت مسز وستن » تتفق معى فى الرأى بأنها كذلك) ولا عيب فيها الا أنها أكثر رشاقة مما يجب — وهو عيب فى صالحه — بعد ذلك كله اذا بى أقابل بتقريظ فاتر من عزيزتى « ايزابلا » ، واذا بها تقول : « أجل ، ان فيها بعض الشبه ولكن الواقع أنها لم « تنصفه تماما » وكنا عانينا الكثير لنحمله على أن يجلس أمامى لتصويره ، وظن هو أن هذه منة كبرى منه ، فلم أطق ذلك أبدا ولذا لم أتمها وتركتها لتكون عبرة لكل من يأتى ليزورهم فى بيتهم « بميدان برنزويك » ، وكما قلت عاهدت نفسى بعد ذلك على ألا أصور أحدا ، ولكنى من أجل « هاريت » أو بالأحرى من أجلى أنا نفسى ، ولأن المسألة ليست مسألة أزواج وزوجات الآن فأنى سأرجع الآن فما كنت قررته لنفسى .

وبدأ مستر « التن » وكأن تلك الفكرة قد أثارت اهتمامه وملأت قلبه بالسرور ، فصاح يردد قائلا :

« ليست مسألة أزواج وزوجات الآن ، انه الأمر كما ترين ، وهو تماما كما تقولين ، فلا أزواج ولا زوجات » . قال هذا بشعور يستلفت الأنظار ، حتى أن « اما » أخذت تفكر فيما لو كان أحرى بها أن تتركهما وحدهما فى الحال ، ولكنها وقد كانت جد راغبة فى البدء فى التصوير ، رأت أن ترجىء ذلك بعض الوقت . ولم تلبث طويلا حتى كانت قد حددت اتساع الصورة ، وفى أى نوع تكون . لقد كانت فكرتها أن تجعلها صورة بحجم الجسم كله ، وبالألوان المائية مثل صورة « چون نيتلى » ، وأن تخطها بمكان محترم فوق رف المدفأة .

وجلست « هاريت » باسمة وقد احمر وجهها خجلا . وكانت تخشى أن تغير من جلستها أو من تعبيرات وجهها ، فكانت النتيجة مزيجا بالغ العذوبة من تعبير الشباب ويقظة عين الفنان .

ولكن « اما » لم تكن لتنجز عملا ومستر « التن » من خلفها يرقب كل لمسة من لمساتها ولا يكاد يستقر لحظة فى مكانه ، لقد سمحت له بالوقوف حيث يمكنه أن يتأملها دون أن تبدو منه مخالفة ، ولكنها اضطرت بعد ذلك الى منعه من الوقوف حيث هو ، ورجته أن يتخذ له مكانا آخر يقف فيه ثم خطر لها بعد ذلك أن تشغله بالقراءة ، فقالت تخاطبه : « لو أنك تكرمت فقرأت علينا شيئا لكان ذلك مكرمة منك ولا شك ، فانك بذلك ستخفف ما ألاقيه من صعوبة فى العمل ، وتقلل مما تشعر به مس سمث من حرج » .

وسر ذلك مستر « التن » كثيرا ، ووقفت « هاريت » تنصت بينما راحت « اما » ترسم فى هدوء ، وان كان لابد لها مع ذلك من أن تسمح له بالتقدم والنظر بين الحين والحين . فلو أنه سمح له بأقل من ذلك لكان شيئا أقل مما ينبغى للحبيب ، ولذلك كان كلما توقف قلم الرصاص لحظة فى يد « اما » وثب ليرى ما أنجزته ويبدى اغتباطه . وما كان لها أن تمتعض فى الواقع من مشجع كهذا ، فقد دفعه اعجابه الى تبين الشبه بين الأصل والصورة حتى قبل أن يتحقق هذا الشبه . ولم تعجب « اما » برأيه ، أما حبه ووداعته فلم يكن فيهما مجال لنقد .

لقد كانت جلسة مرضية للغاية ، وسرها ما تم خلالها من رسوم تخطيطية فى اليوم الأول ، مما جعلها راغبة فى الاستمرار . ولم يكن فيها نقص فى الشبه ، فلقد كان الحظ حليفها فى الأسلوب الذى اختارته لرسمها ، ولما كانت تعتزم ادخال بعض التحسينات على الصورة ، فتطيل القامة قليلا

تجعل صاحبتها أكثر رشاقة ، فقد وثقت كل الثقة بأن الصورة سوف تخرج جميلة من جميع الوجوه فى النهاية ، وأنها ستملأ مكانها الذى أعد لها ، وتستوجب المديح لكليهما فتكون عنوانا على جمال احداهما ، ودليلا على مهارة الأخرى ورمزا لصداقة الاثنتين معا ، مع ما تقترن به كل هذا من ملابسات أخرى مستحبة لصداقة « مستر التن » التى يرجى من ورائها الكثير .

وكان اليوم التالى موعد جلوس « هاريت » للمرة الثانية ، ورأى « مستر التن » كما يحتم عليه الواجب أن يلتمس السماح له بالحضور والقراءة .

« بكل تأكيد ويسعدنا كثيرا أن تكون من بين زمرتنا » .

وكما حدث فى اليوم السابق تمت الترحيبات وتبودلت التحيات ، وصادفهم من النجاح حظ وفير ، وكملت الصورة فى زمن وجيز وفى جو من السعادة . لقد رضى عنها كل من شاهدها أما بالنسبة لمستر « التن » فقد ظلت مثار نشوة لا تنقطع ، ونصب نفسه مدافعا عنها ضد أى نقد يوجه اليها .

وأبدت « مسز وستن » ملاحظة وهى لا تدرى أنها تخاطب محبا ولهانا . قالت :

« ان « مس وودهاوس » زودت صديقتها بما ينقصها من الجمال ، وتعبيرات العين سليمة للغاية ، غير أن « مس سمث » ليس لها هذان الحاجبان ، ولا تلك الأهداب ، والخطأ خطأ وجهها لافتقاده هذه الحواجب والأهداب » .

ورد عليها : « أتظنين هذا ؟ انى لا أوافقك على ذلك ، فالصورة تشبهها تماما فى كل معالمها ، بل ما رأيت فى حياتى تشابها مثلها ، ثم ان علينا أن نعمل حسابا لأثر الظل » .

وقال « مستر نيتلى » : « لقد زدت من طولها كثيرا يا « اما » .

وكانت « اما » على علم بأنهـا فعلت ذلك ، ولكنها لم تعترف به ، وعقب « مستر التن » فى حماس : « لا ، لا ، بالمرة . أؤكد أنها ليست أطول مما يجب ، ثم عليك أن تلاحظ أنها جالسة ، وهذا بطبيعة الحال يحدث اختلافا ، أو هو من شأنه أن يؤدى الى هذه الفكرة ، ولابد كذلك من مراعاة النسب ، تناسب الأبعاد وتقصير الخطوط لتبدو الصورة الى العين مطابقة للحقيقة لا ، انها توحى بطول « مس سـمث » الحقيقى ، لا شك فى هذا » .

وقال « مستر وودهاوس » : « انها صورة جميلة حقا ، ولقد أجدت الرسم كما هى عادتك دائما يا عزيزتى ، بل انى لا أرى أحدا يجاريك فى هذا المضمار ، والشىء الوحيد الذى لا أرتاح اليه فى الصورة ، هو أنها تبدو وكأن صاحبتها جالسة فى العراء ، ولا يغطى كتفيها غير شال صغير ، مما يجعلنى أظن أنها لابد ستصاب بالبرد » .

« ولكن المفروض يا والدى العزيز أن الفصل فصل صيف ، وأنه يوم دافىء ، انظر الى الشجرة » .

ولكن الجلوس فى العراء لا يؤمن أبدا يا عزيزتى » .

وصاح « مستر التن » : « لك ياسيدى أن تقول ما تشاء ، ولكن لابد لى من أن أعترف بأنى أعتبرها فكرة رائعة ، فكرة وضع « مس سمث » فى العراء ، وتلك الشجرة تنطق بحيوية لا سبيل الى محاكاتها ولو أنهـا كانت فى غير هذا الوضع لقلت قيمتها . وهذه الطهارة التى تبدو فى « مس سمث » وفى الصورة بأكملها ، ما أجملها !! انى لا أمل من النظر اليها ، وما رأيت فى حياتى صورة مثلها » .

ثم جاءت بعد ذلك مسألة اطار الصورة ، وهنا ظهرت بعض العقبات ،

لابد من عمل هذا الاطار على الفور ، ولابد أن يكون عمله فى لندن ، وأن يكون على يد شخص ذكى له من حسن الذوق ما يجعله أهلا للاعتماد عليــه .

وقد رؤى أن « ايزابلا » وهى التى يوكل اليها عادة القيام بمثل هذه المهام ، لا ينبغى أن يعهد اليها بهذه المهمة ، اذ كان الوقت فى شهر ديسمبر ، ولن يطيق « مستر وودهاوس » أن يسمع بأن ابنته « ايزابلا » قد خرجت من بيتها فى ذلك الشــهر وفيه ما فيه من ضــباب كثيف . ولكن ما كاد « مستر التن » يتبين هذه الحيرة حتى عمل على ازالتها ، فقد كانت شهامته دائما متوثبة ، فتقدم يقول « ان سروره سيكون عظيما لو عهد اليه بهذا العمل وترك له أمر انجازه ، ففى وسعه أن يركب الى لندن فى أى وقت ، وانه لمن العسير عليه أن يعبر عن السعادة التى تغمره وهو يكلف القيام بمثل هذه المهمة » .

واندفعت « اما » تقول : ما أكرمك !! ولكننى لا أحتمل مجرد التفكير فى ذلك ، ولن أكل اليك القيام بعمل متعب كهذا بأى حال » .

وكان لهذا القول أثره المطلوب ، اذ أخذ يكرر التوسلات والتأكيدات ، حتى وصلوا فى النهاية الى حل لم يستغرق الوصول اليه وقتا طويلا .

واتفق أخيرا على أن يذهب مستر التن بالصورة الى لندن ، وأن يختار الاطار الملائم لها ، وأن يعطى التعليمات التى يراها لازمة . كما رأت « اما » أن بوسعها حزمها حتى تضمن سـلامتها دون أن تجعـل منها حمـلا ثقيلا ، أما هو فقد كان لا يجد فى أى عمل كهذا ما يمكن أن يكون فيه ارهاق له أو يعتبر حملا بالمرة .

« ما أغلاها من وديعة !! » قالها فى تنهيدة رقيقة وهو يتسلم الصورة .

وقالت « اما » فى نفسها : « ان هذا الرجل فيه من الشهامة ما يؤهله

للحب ، هذا ما يجب أن أعترف به غير أن هناك مع ذلك طرقا أخرى عديدة للحب ، وهو رجل ممتاز وفى ميعة الصبا، وهو ملائم « لهــازيت » كل الملاءمة ، وأقول كل المــلاءمة كما قالها هو نفسه ،.ولكنى أراه يبــذل عصارة قلبه فى صوغ عبارات المديح لها بأكثر مما تقره مبادئى ، ولكن ما العمل . فهذا هو شعوره نحو « هاريت » ؟ .

الفصل السابع

وحدث فى نفس اليوم الذى ذهب فيه « مستر التن » الى لندن ظرف جديد كان يتطلب من « اما » أن تؤدى خدمة لصديقتها . فلقد جاءت « هاريت » كعادتها الى « هارتفيلد » بعد الافطار مباشرة . وبعد قليل ذهبت الى بيتها على أن تعود ثانية لتناول العشاء ، ولكنها بكرت بالعودة أكثر مما وعدت ، وكان مظهرها وما كان يبدو عليها من اضطراب ولهفة ، يدلان على آن شيئا غير عادى قد وقع لها ، وأنها كانت تتوق الى الافضاء به . وان هى الا نصف دقيقة حتى ظهرت جلية الأمر .

فلقد سمعت ساعة عودتها الى بيت « مسز جدرد » بأن « مستر مارتن » كان هناك قبل وصولها بساعة ، ولما لم يجدها ولم يكن يتوقع عودتها فقد ترك لها ربطة صغيرة مرسلة من احدى شقيقاته ، وانصرف . وعندما فتحت الربطة ، وجدت علاوة على الأغنيتين اللتين كانت أعارتهما لأليزابث لكى تنسخ منهما صورة ، خطابا موجها اليها ، وكان الخطاب منه ، أى من « مستر مارتن » ، وقد طلب فيه يدها صراحة .

من كان يظن هذا ؟ لقد دهشت لذلك حتى لم تدر ماذا تفعل ، أجل ، انها خطبة صريحة ، والخطاب نفسه جميل للغاية ، أو هذا على الأقل ما ظنته ، لقد كتبه بأسلوب من يحبها حبا جارفا . انها لم تستطع أن تتبين حقيقة الأمر ، ومن ثم فقد جاءت بأقصى سرعة لتسأل « مس وودهاوس » عما يجب أن تفعله .

واستنكفت « اما » من صاحبتها ما بدا عليها من سرور مشوب بالشك

وصاحت فيها قائلة : « أجزم بأن الفتى قد وطد العزم على ألا يفقد شيئا لأنه لم يطلبه ، وأنه سيوطد صلته ان أمكنه » .

وصاحت « هاريت » قائلة : « هل تسمحين بقراءة الخطاب ؟ انى أتوسل اليك ، فأنا أفضل أن تقرئيه بنفسك » .

ولم يكن ذلك الالحاف ليسىء الى « اما » ، فقرأته واستولت عليها الدهشة . لقد كان فى أسلوب يعلو على ما كانت تتوقعه ، فهو لم يكن خلوا من اللحن فحسب ، ولكنه كان فى صوغه لا يقل عما يصوغه سادة القوم ، وكانت لغته رغم بساطتها متينة لا تكلف فيها ، وعباراته العاطفية تشهد على قدرة كاتبها . لقد كان خطابا موجزا ولكنه كان يدل على سلامة التفكير ، وعلى المحبة وسعة العقل ، وعلى الكياسة ورقة الشعور .

وتأملته فى صمت ، بينما وقفت « هاريت » قلقة فى انتظار رأيها وهى تردد : « أجل ، أجل » حتى وجدت نفسها آخـر الأمر مضطرة الى أن تقول : « هل هو خطاب مقبول ؟ أم هو موجز للغاية ؟ » .

وأجابتها « اما » بتؤدة : « انه ولا شك خطاب فى منتهى الجمال ، وقد بلغت جودته يا « هاريت » درجة تجعلنى اذا فحصت الأمر من جميع نواحيه ، أظن أن احدى شقيقاته لابد قد عاونته فى كتابته ، اذ يصعب على أن أتخيل بأن الفتى الذى رأيته يتحدث اليك فى اليوم السابق ، قادر على التعبير بهذه الجودة لو أنه ترك لمواهبه ، ومع ذلك فالأسلوب قطعا ليس أسلوب سيدة ، فهو متين محكم ، وعباراته مركزة وغير مشتتة . ان مما لاشك فيه أنه رجل مفكر ، وأنه ربما كان ذكيا بطبيعته ، وأنه ثاقب الفكر وأنه اذا ما تناول القلم تخير أنسب الألفاظ ، هذا هو حال بعض الرجال ، وأنا أدرى بهذا النوع من العقول ، عقول فيها القوة والعزم ، وفيها عواطف لا تشوبها الغلظة الى حد ما » .

وناولتها الخطاب وهى تقول : « انه يا « هاريت » خطاب أجمل مما كنت أتوقع » .

وقالت « هاريت » وكانت لا تزال فى انتظار رأيها :

« أجل ، أجل ، و .. و .. ماذا أفعل ؟ » .

« ماذا تفعلين ؟ أى شىء تعنينه ؟ الخطاب ؟ » .

« نعم » .

« ولكن ما هو موضع التردد عندك فى ذلك ؟ لابد أن تردى عليه ولا تتمهلى » .

« أجل ، وماذا عساى أقول له ؟ زودينى بالنصيحة يا مس وودهاوس يا عزيزتى » .

« لا ، لا ، والأفضل أن يكون موضوع الخطاب من شأنك أنت ؛ وأنا واثقة أنك قادرة على حسن التعبير عما فى نفسك ، ولا خوف عليك من أن تسطرى شيئا لا يفهم معناه ، وهذا هو أهم شىء ، اذ يجب أن يكون المعنى قاطعا ، لا لبس فيه ولا حياء ، وكل تعبير تريدين به الاعتراف بالجميل والألم الذى تسببينه له ، كما تقضى بذلك أصـــول الكياسة ، سيأتى اليك طواعية ودون عناء ، ومع ذلك فاياك أن تدعى شعورك بالجميل أو العطف يكتسحك فى طريقه ، فتندفعى الى الظهور بمظهر الحزن على خيبة رجائه » .

وقالت « هاريت » وهى مطرقة : « اذن فأنت ترين أنه يجب على أن أرفضه » .

« ماذا تعنين يا عزيزتى « هاريت » بقولك « يجب أن أرفضه ؟ وهل أنت فى شك من هذا ؟ لقد كان هذا ظنى — ولكن عفوا ، فربما أكون قد أخطأت فهمك وظننتك فى شك مما يجب أن يحويه ردك عليه . فلقد كنت

أظن أن كل ما أردت أن تستشيريني فيه هو صوغ العبارة التى تضعين فيها ردك » .

ولم تحر « هاريت » جوابا ، وواصلت « اما » كلامها فى شىء من التحفظ وهى تقول :

« أفهم من هذا أنك تعنين الرد بالموافقة » .

« لا ، لست أعنى ذلك ، الهى ماذا أفعل ؟ ما الذى تشيرين به على ؟ أرجوك يا « مس وودهاوس » أن تخبرينى عما يجب عمله » .

« لن أسدى اليك أية نصيحة يا « هاريت » وليس لى دخل فى ذلك وهذه مسألة متروكة لك لتقطعى فيها برأى وبدافع من شعورك » .

وقالت « هاريت » وهى تمعن النظر فى الخطاب :

« ما كان يجول بخاطرى أنه يهوانى بهذا القدر » .

ولبثت « اما » هنيهة لا تنبس بكلمة ، ولكنها وقد أخذت تدرك ما قد يكون لهذا الخطاب من أثر بالغ بسبب ما حواه من عبارات المديح الساحرة، وجدت من الصواب أن تقول « أن المرأة اذا أشكل عليها الأمر ، فى هل تقبل الزواج من رجل ما أو ترفضه ، وجب عليها أن ترفضه . واذا كان هناك أى تردد من جانبها فى أن تقول له « نعم » وجب عليها أن تقــول « لا » على الفور ، فهذه مسألة لا تؤمن عاقبة الارتبــاط فيها برأى اذا داخلك الشك ، أو كنت غير متحمسة لها . وقد رأيت من واجبى بصفتى صديقتك ، وأكبر منك سنا ، أن أقول لك كل هذا ، ولكن لا تتخيلى أنى أردت التأثير عليك » .

« قطعا لا ، وانى لعلى يقين بأن لك من كريم الخلق ما يمنع ذلك ولكن حبذا لو نصحتينى بما ينبغى لى أن أفعله — لا ، لا ، فلست أقصد هذا — وكما تقولين ، لابد للمرء من أن يكون له رأى قاطع وألا يكون مترددا ،

لأن الأمر جد خطير ، وقد يكون الآمن فيه أن يقول الانسان « لا » ، فهل تظنين أن الأحرى بى أن أقول « لا » ؟ » .

فقالت « اما » وعلى ثغرها ابتسامة عذبة : « لن أنصحك أى طريق تتخذين بأية حال ، ورأيك هو الذى يجب أن يفضل كل الآراء فيما فيه سعادتك ، فان أنت فضلت « مستر مارتن » على الناس جميعا ، واذا كنت ترينه أقرب من خالطينه من الرجال الى قلبك ، فلماذا تترددين ؟ بل أراك قد ارتبكت واحمر وجهك حياء يا « هاريت » فهل جال بخاطرك فى هذه اللحظة شخص آخر تنطبق عليه هــذه الأوصاف ؟ لا تخــدعى نفسك يا « هاريت » . ولا تجعلى العرفان بالجميل أو العطف يتغلبان عليك ، خبرينى فيمن تفكرين فى هذه اللحظة ؟ » .

ودلت المظاهر على أن « هاريت » قد اقتنعت بكلامها ، فبدلا من أن ترد ، ظهر عليها الارتباك ، واتجهت الى الموقد ، ووقفت بجواره تفكر ، وكان الخطاب لا يزال فى يدها تطويه دون اكتراث وفى حركة آلية .

وانتظرت « اما » فى قلق لترى أثر كل هذا والأمل القوى لا يزال يداعبها ، وأخيرا تكلمت « هاريت » فى شىء من التردد ، فقالت :

« بما أنك يا « مس وودهاوس » قد أحجمت عن ابداء رأيك فلا بد لى من أن أتولى الأمر بنفسى على قدر استطاعتى ، والآن قد حزمت أمرى ، وقررت أن أرفض « مستر مارتن » فهل ترين أنى على صواب ؟ » .

« تماما ، بل هو عين الصواب ، وأنت يا عزيزتى «هاريت» انما فعلت فى ذلك ما كان يجب عليك أن تفعليه ، لقد احتفظت بشعورى لنفسى حين كنت مترددة ، أما الآن وقد استقر رأيك نهائيا ، فأنى لا أتردد فى الموافقة على رأيك ، بل ان قرارك يا عزيزتى « هاريت » يدخل الفرحة على قلبى ، فقد كان يحزننى أن تنقطع الصلة التى بيننا ، وهو ما كان لابد أن يحدث

نتيجة لزواجك من « مستر مارتن » فلما لمست فيك مسحة من التردد ، لم أفتح فمى بكلمة عن ذلك ، لأنى لم أرد أن أؤثر عليك وان كنت سأفقد صديقة عزيزة على ، اذ ما كان ليتيسر لى أن أقوم بزيارة مسز « روبرت مارتن » فى المزرعة المجاورة للرهبانية ، والآن قد اطمأنت نفسى وهدأ بالى من ناحيتك » .

ولم تكن « هاريت » قد توقعت خطرا يلحقها ، ولكن فكرة أن ذلك كان متوقعا كانت شديدة الوقع عليها ، فصاحت وهى تنظر اليها فى هلع وقالت :

« عجبا !! هل وكنت ستمتنعين عن زيارتى ؟ لا ، أؤكد لك انك ما كنت تفعلين ذلك ، على انى لم يدر بخاطرى شىء من ذلك قبل الآن ، ما أفظعه من شىء لو أنه حدث !! وما أجمل أننا نجونا من احتمال وقوعه يا عزيزتى « مس وودهاوس » وأنا لا أضحى بما أفاضت على به صداقتك من شرف وسعادة فى مقابل أى شىء فى الوجود » .

نعم يا « هاريت » انى كنت سأشعر بألم شـــديد لو أنى حرمت من صداقتك ، ولكنه كان أمرا لابد منه ، وقد كنت بعملك ستتسببين فى عزلتك عن صحبة كرام الناس ، ولم يكن لى فى هذه الحالة الا أن أتنحى عنك » .

« عجبى !! وكيف كنت أحتمل ذلك !! لو أننى حرمت من الحضور الى « هارتفيلد » لكان فى ذلك هلاكى » .

« يا عزيزتى الحبيبة !! عجبا أن يكون مثلك منفيا فى صنيعة الرهبانية !! وأن تكتب على مثلك صحبة الجهلاء والسذج . وحدهم طول حياتك ، بل انى لأعجب كيف وجد هذا الفتى فى نفسه الجرأة على طلب يدك ، لابد أنه يحسن الظن بنفسه » .

ولم يرض « هاريت » هذا التجريح فقالت : « لست أظنه مغرورا على وجه العموم وهو على الأقل كريم الخلق ، وسأظل أشعر دائما بأننى مدينة له بالشكر ، كما أنى أحترمه كل الاحترام ولكن هـذا شىء آخر ، وأنت تعلمين أنه على الرغم من احتمال حبه لى ، فأن ذلك لا يستتبع حبى له ، ولابد لى من الاعتراف بأنى منذ اللحظة التى زرتكم فيها شاهدت أناسا هم من حيث الخلق والخلق يعلون عن كل مقارنة ، وفيهم واحد بصـفة خاصة مفرط فى أناقته وظرفه ، ومع ذلك فأنى أعتقد أن « مستر مارتن » فتى ظريف جدا ، وانى لأقدره كثيرا كما أقدر تعلقه الكبير بى ، وكتابته مثل هذا الخطـاب ، ولكن تركى لك شىء لن أقدم عليـه مهما كانت الأسباب » .

« شكرا ، شكرا يا صديقتى الحلوة الصغيرة ، وسوف لا نفترق عن بعضنا . على أن الواحدة لا تتزوج رجلا لمجرد أنه طلبها ، أو علق بها ، أو لأنه استطاع أن يسطر خطابا جميلا » .

« لا بالتأكيد ، ثم هو لا يزيد على أن يكون خطابا موجزا » .

وأحست « اما » بما لصديقتها من ذوق سقيم ، ولكنها تغاضت عن ذلك واستطردت تقول : « حقا ما تقولين ، وان ما قد تعرفه المرأة عن زوجها من قدرة على كتابة خطاب جميل لهو عزاء ضئيل عما قد يلحقها من حرج لاحساسها فى كل ساعة من ساعات النهار بسذاجته » .

« أجل ، هذا ما لا شك فيه ، فما من شخص يمكن أن يهتم بموضوع خطاب ، ولكن الذى يوجب الاهتمام ، هو أن يسعد المرء دائما برفقاء تسره صحبتهم ، لقد اعتزمت أن أرفضه ، ولكن ماذا أفعل وماذا أقول ؟ » .

وأكدت لها « اما » بأنه لا توجد صعوبة فى الرد ، ونصحتها بكتابة ردها اليها مباشرة ، ووافقت « هاريت » على ذلك أملا فى أن تنال معاونتها

فى ذلك . وعلى الرغم من أن « اما » ظلت تمانع وتعارض فى تقديم آية مساعدة لها ، فقد أعانتها فى تكوين كل جملة من جمل الرد . وكان لتصفح « هاريت » لخطابه مرة أخرى وهى ترد عليه أثر ملطف على مشاعرها ، ومن ثم فقد كان من الضرورى بصفة خاصة تزويدها ببعض العبـارات القاطعة . لقد كان يقلقها أنها ستحزنه ، كما فكرت كثيرا فيما سيكون عليه رأى أمه وأخواته ، وماذا هن قائلات عنها فقد كانت شديدة الرغبة فى ألا يذهب بهن الظن الى جحودها ونكرانها للجميل ، حتى اعتقدت « اما » أنها لو قابلت الفتى فى تلك اللحظة لعادت فقبلت عرضه بعد كل ذلك .

وكتبت الخطاب أخـيرا وغلفته ، ثم أرسلته وانتهى بذلك الأمر ، وأصبحت « هاريت » فى مأمن من الخطر ، ولكنها لبثت مكتئبة مهمومة طوال المساء ، وتركتها « اما » تخفض عنها وتحاول أن تخفف من ذلك بالحديث عن محبتها لها ، أحيانا وبالحديث عن « مستر التن » أحيـانا أخرى .

وقالت « هاريت » وفى صوتها نبرات حزينة : « سوف لا أدعى الى الرهبانية مرة أخرى » .

« وحتى لو دعيت فلن يمكننى أن أحتمل بعدك عنى يا « هاريت » فقد أصبح وجودك فى « هارتفيلد » ضرورة الى حد لا يسمح لنا بأن نتركك تذهبين الى الرهبانية » .

« وأنا من ناحيتى لا أظن انى أحب أن أذهب هنـاك لأنى لن أكون سعيدة الا فى هارتفيلد » ثم استطردته بعد أن توقفت برهة « أظن أن « مسز جدرد » ستدهش كثيرا اذا علمت بما حدث ، وأعتقد أن « مس ناش » ستدهش كذلك لأنها تظن أن أختها تزوجت زيجة عظيمة مع أن زوجها لا يعدو أن يكون بائع أقمشة » .

« ان المرء يا « هاريت » لا يجوز أن ينتظر من مدّرسة باحدى المدارس طموحا ، ولا تهذيبا أكثر من هذا ، بل انى لا أكاد أجزم ان « مس ناش » ستحسدك على سنوح فرصة كهذه للزواج ، وموضوع هيام « مارتن » بك قد يبدو شيئا ذا قيمـــة فى نظرها ، اذ أظنها تجهل بأن هناك شـــيئا خـــيرا من ذلك مدخـــرا لك . نعـــم ، فان الاهتمام البـــادى من شخص بالذات لم يحن الوقت بعـــد ليكون حـــديث النـــاس فى « هايبرى » ، وانى لأكاد أتصور بأن نظراته وتصرفاته لم تفصح عن نفسها لأحد سوانا نحن الاثنتين » .

وعلت الحمرة وجه « هاريت » وابتسمت ، ثم نطقت بكلمات عبرت بها عن دهشتها كيف أن الناس يحبونها بهذا القدر ، فلقد أشاع موضوع « مستر التن » السرور فى نفسها ولا شك ، ولكنها مع ذلك عادت بعد قليل تبدى عطفها على « مارتن » الذى رفضته وتقول فى حنان : « لقد وصله خطابى الآن ، ترى ماذا يفعلون الآن ، وهل وصل لأخـــواته علم بذلك ؟ فهو اذا حزن استولى عليهن الحزن كذلك ، وعلى أية حال أرجو ألا يحز الموضوع فى نفسه كثيرا » .

وصاحت « اما » تقول : « فلنفكر فى بعض أصدقائنا الغائبين الذين قد شغلوا بما يشرح صدورهم ، فقد يكون « مستر التن » فى هذه اللحظة مشغولا بعرض صورتك على أمه وأخواته ، وهو يقول لهن ان الأصـــل يفوق الصورة جمالا ، ثم هو لا يبوح لهن بالاسم ، باســـمك الغالى ، الا بعد أن يلحفن عليه فى الرجاء خمس أو ست مرات » .

« صورتى أنا !! ولكنه قد ترك صورتى فى شارع بوند » .

« وهل تظنين أنه فعل هذا حقا ؟ اذن فلست أعرف شـــيئا عن مستر « التن » لا يا « هاريت » ، لا أيتها الصغيرة ، لن تبقى صورتك فى شارع

« بوند » الا ريثما يكاد يستعد للرحيل غدا ، فهى ستكون نعم الرفيق له طيلة هذه الأمسية وسيجد فيها بهجته وسلواه ، وهى ستكون وسيلته للافصاح لعائلته عما حزم عليه أمره . انها وسيلة التعارف بينك وبينهـم وهى التى سوف تشيع بينهم ألذ ما عرفته طبيعـة الانسان من مشاعر ، وسوف يتلهفون على معرفة أخبارك ويكونون عنك أحسن فكرة ، ولسوف يشغل خيالهم بك ويحسون بالبهجـة تجرى فى عروقهـم » . وابتسمت « هاريت » مرة آخرى ، وجعلت بسماتها تقوى وتنفرج ..

الفصل الثامن

نامت « هاريت » فى « هارتفيلد » تلك الليلة ، وكانت منذ أسابيع مضت قد اعتادت أن تمضى أكثر من نصف وقتها هناك ، حتى كاد بالتدريج أن تصبح لها حجرة للنوم خاصة بها ، وقد رأت « اما » أن من أصلح الأشياء وآمنها وأكرمها من كل الوجوه أن تجعل اقامتها معهم أكبر مدة ممكنة فى الوقت الحاضر بالذات ، اضطرت « هاريت » الى الذهاب فى صبيحة اليوم التالى الى بيت « مسز جدرد » لقضاء ساعة أو ساعتين ، ولكن ذهابها اليه كان على أساس ضرورة عودتها الى « هارتفيلد » لتمضى فيها بضعة أيام متواصلة .

وما أن غادرت هارتفيلد حتى عاد مستر « نيتلى » الى « هارتفيلد » وجلس الى مستر « وودهاوس » و « اما » بعض الوقت ، الى أن زينت « اما » لوالدها أن يخرج للتريض ، كما كان قد اعتزم من قبل ، وألا يؤجل رياضته الى أكثر من ذلك . ورضى « وودهاوس » استجابة لرجاء الاثنين ، رغم أن ذلك كان لا يتفق وما طبع عليه من أدب يمنعه من ترك مستر « نيتلى » لمثل هذا الغرض . أما « مستر نيتلى » الذى لم يكن يحفل بمظاهر المجاملة ، فقد جعل يرد بعبارات موجزة وقاطعة ، فيها تباين جميل لما كان يردده صاحبه من اعتذارات مستفيضة ، وتمنع عن الخروج فى صيغة مهذبة .

« أجل ، أرجو المغفرة يا مستر « نيتلى » ، ولكنك اذا قبلت عذرى ولم تعتبر أنى أتيت أمرا ادا ، فأنى سآخذ بنصيحة « اما » وأخرج مدة

ربع ساعة . ولما كانت الشمس قد غربت ، فأنى أعتقد أنه قد يكون أجرى بى أن أقوم بنزهتى ما دام ذلك فى الامكان . انى يا « مستر نيتلى » أرفع الكلفة بيننا فى صلتى بك ، نعم ان المرضى من أمثالنا لهم بعض الامتيازات » .

« أرجوك يا سيدى العزيز ألا تعاملنى كما لو كنت غريبا » .

« انى أترك ابنتى معك وهى خير من يقوم مقامى ، انه ليسعد « اما » أن تحتفى بك ، ولذا فأنى أستسمحك لأخرج للمشى فهو رياضتى فى الشتاء » .

« وهذا يا سيدى أحسن شىء يمكن أن تعمله » .

« كان يسعدنى أن تكون بصحبتى يا « مستر نيتلى » ولكن سيرى بطىء جدا ، وقد تتعبك خطوتى ، وأمامك علاوة على ذلك طريق طويل فى عودتك الى رهبانية « دونول » سيرا على أقدامك » .

« شكرا يا سيدى شكرا ، وأنا نفسى على وشك الاستئذان فى الانصراف وأظن أنه كلما أسرعت أنت بالخروج كان أفضل ، وسأحضر لك معطفك وأفتح لك باب الحديقة » .

وخرج « مستر وودهاوس » أخيرا ، ولكن « مستر نيتلى » بدلا من أن يستأذن فى الانصراف عاد فجلس ثانية وبدا وكأنه يميل الى مزيد من الحديث ، وبدأ الحديث بالفعل ، « عن هاريت » فخصها فى كلامه بمدح لم تسمعه « اما » منه من قبل حيث قال :

« لست أقدر جمالها بمثل ما تقدرينه ، ولكنها فتاة لطيفة ، وانى لأقرر ما طبعت عليه من خلق . أما سلوكها فهو متوقف على من تخالطهم ، فأن حسنت رعايتها أصبحت سيدة فاضلة » .

« يسرنى أن يكون هذا رأيك ، وانى لآمل ألا تعوزها الأيدى الصالحة التى تتعهدها بالرعاية » .

فقال : « تعالى هنا ، فأنت تتوقين الى كلمة اطراء ، فما دام الأمر كذلك فها أنذا أقول انك قد رفعت من شـأنها وأنسيتيها ما كانت تأتى به من هأهأة أشبه بهأهأة تلميذات المدارس ، الحق أنك جديرة بالثناء من أجل ما أديتيه لها » .

« شكرا ، وانى لكنت أحس بكثير من هوان النفس لو أننى اعتقدت بأننى لم أحقق لها نفعا ، غير أن من الناس من لا يؤدون الثناء حيث يجب الثناء ، وأنت بالذات قلما تكيل لى ثناء » .

« أتقولين انك فى انتظارها ثانية هذا الصباح ؟ » .

« انى أنتظر مجيئها بين لحظة وأخرى ، بل لقد طالت غيبتها عما كانت تعتزم » .

« ربما حدث لها حادث ، أو أقبل بعض الزائرين فأخروها » .

« ما أكثر الحديث عن سير الناس فى « هايبرى » وما أشقى القائمين بها وأتعبهم للناس !! » .

« قد يختلف نظر « هاريت » عن نظرتك فيمن تظنين أنت أنهم أصل المتاعب » .

وكانت « اما » تعلم أن ما يقوله هو عين الصواب وأنه أمر لا يستحق جدلا ، ولذا لم تقل شيئا . ثم أعقب مستر « نيتلى » عبارته بقـوله على الفوروهو يبتسم :

« لا أريد أن أحـدد الزمان ولا المكان ، ولكنى أجد لزاما على أن أخبرك بأن عندى ما يعزز ثقتى بأن صديقتك الصغيرة ستسمع عاجلا خبرا فى صالحها » .

« صحيح !! كيف هذا ؟ وما نوع هذا الخبر ؟ » .

فقال وهو لا يزال يبتسم : « أؤكد لك أنه خبر خطير للغاية » .

« خطير جدا !! اننى لا أستطيع أن أفكر الا فى شىء واحد — من هو ذا الذى يهيم بحبها ؟ ثم من هو ذا الذى اصطفاك واتخذك أمينا على سره ؟ » .

وكانت « اما » تؤمل أن يكون مستر « التن » قد قصد الالقاء بتلميحة لها معناها ، فقد كان « مستر نيتلى » صديق الجميع وناصحهم ، وكانت تعلم أن مستر « التن » يلجأ اليه أحيانا ليستشيره .

وأجابها : « لدى ما يعزز ظنى بأن « هاريت » سيتقدم اليها حالا من يطلب يدها ، وهذا الخبر من مصدر لا يتطرق اليه شك ، انه « روبرت مارتن » ، ويبدو أن زيارتها لهم فى ناحية الرهبانية هذا الصيف قد حققت له هدفه ، فهو مولع بحبها ويريد أن يتزوجها » .

وقالت « اما » : « انه كريم النفس جدا ، ولكن هل هو واثق من أن « هاريت » ستوافق على زواجها منه ؟ » .

« أجـل ، أجـل ، انه سيطلب يدها ، فهـل يكفيك هـذا ؟ لقـد تعمـد أن يأتى الى الرهبانية منـذ يومين فى المسـاء لكى يستشيرنى فى ذلك ، لأنه يعلم أنى أقدره كثيرا ، كما أقدر كل أسرته ، وأعتقد أنه يعتبرنى من أعز أصدقائه . لقد جاء يسألنى اذا كنت أظن أن تبكيره بالزواج قد لا يكون من أصالة الرأى ، أو اذا كان من رأيى أنها أصغر من أن تليق به ، وبالاختصار ، اذا كنت موافقا على اختياره كلية . ولعله كان يخشى أن يعتبرها الناس من وسط أرقى من وسطه ، خاصة منذ أن أخذت تهتمين بشئونها . وقد سررت كثيرا لكل ما قاله ، بل انى لم أجد أحدا له من سداد الرأى ما يبز « روبرت مارتن » ، فهو دائما يرمى فى كلامه الى هدف معين ، وهو صريح ليس به عوج ، وهو دائم صادق الحكم ، وقد أخبرنى بكل شىء ، عن ظروفه وخططه ، وعما اعتزموا جميعا أن يعملوه

عند زواجه . انه حقا فتى ممتاز ، سواء أكان ابنا أم أخا . ولم أتردد فى اسداء النصح له بالزواج ، فقد برهن لى على أنه قادر على تحمل مسئولياته، وتأكدت والحالة كما ذكرت ، أن هذا هو خير ما يفعله ، كذلك امتدحت فتاتنا الجميلة ، وخرج من عندي قرير العين مسرورا . وهو ان لم يكن أقام وزنا لآرائى من قبل ، فهو لابد قد نظر الى هذه المرة بعين الاكبار ، وأعتقد أنه تركنى وهو يظن أننى أحسن من يصادفه المرء من صديق مخلص وناصح أمين ، حدث كل هذا فى ليلة أول أمس ، وأظن أننا لن نعدو الحقيقة اذا قلنا أنه لن يتوانى عن التحدث اليها فى الأمر ، وما دام لم يتكلم بالأمس كما هو ظاهر ، فمن المحتمل جدا أنه سيذهب اليوم الى بيت « مسز جدرد » ، وهكذا لعل زائرا أخرها وهى لا تراه مصدر تعب لها ».

وقالت « اما » ولم تكن الابتسامة قد فارقتها معظم الوقت الذى دار فيه هذا الحديث : « قل لى بالله كيف عرفت أن مستر « مارتن » لم يتكلم أمس ؟ » .

وأجابها فى دهشة : « لست أجزم بهذا ، ولكن ذلك مما يمكن استنتاجه ، ألم تكن معك طول النهار بالأمس ؟ » .

وقالت : « هلم الىّ وسأفضى اليك بشىء مقابل ما أفضيت به الىّ ، فلقد تكلم بالأمس هذا ، أعنى أنه كتب اليها ورفض طلبه » .

وكان عليها أن تكرر هذه العبارة حتى يمكنه تصديقها . واحمر وجه « مستر نيتلى » وبدت عليه الدهشة والاستياء ثم وقف غاضبا وهو يتمتم: «اذن فهى غرة أكثر مما كنت أظنها ، وماذا تريد هذه الفتاة الحمقاء؟».

وصاحت « اما » تقول : « عجبا !! ان الرجل لا يستطيع أن يدرك أن المرأة قد ترفض عرضه ، وهو يتخيل دائما أنها لا يمكن أن ترد أحدا يتقدم اليها » .

« هراء !! ان الرجل لا يتخيل شيئا من ذلك ، ولكن ما معنى هذا ؟ وهل ترفض « هاريت سمث » « روبرت مارتن » ؟ لو صح هـذا فهو الجنون بعينه ، ولكنى أرجو ألا يكون ما قلتيه حقا » .

« بل لقد رأيت ردها عليه ، وقد كان واضحا لا غموض فيه » .

« عجبا !! رأيت ردها بل أنت التى كتبت ردها كذلك ؟ ان هذا كله من صنع يديك يا « اما » ، وأنت التى زينت لها رفضه » .

« وعلى فرض أنى فعلت ، وهو شيء لا أستبيحه لنفسى ، فأنى لا أشعر بأنى قد أخطأت ان « مستر مارتن » فتى مهذب جدا ، ولكنى لا أعترف بأنه كفء لهاريت ، ولقد أدهشنى جدا كيف وجد فى نفسه الجرأة على أن يتقدم اليها ، وقد فهمت مما ذكرته الآن أنه كان متهيبا ومترددا ، وليس أدعى الى الأسف من انه استطاع أن يتغلب على تهيبه وتردده » .

وقال مستر نيتلى متعجبا وبصوت مرتفع فيه حرارة :

« ليس كفئا لهاريت !! » ثم أردف يقول بعد قليل وقد هدأ روعه :

« لا ، انه ليس كفئا لها حقا ، فهو يفوقها عقلا ومركزا ، ان عواطفك الجامحة يا « اما » نحو هذه الفتاة قد أعمتك ، ثم ماذا لدى « هاريت » من مؤهلات من حيث مولدها وطبيعتها وثقافتها لكى ترتبط بمن هو أعلى منزلة من « روبرت مارتن » ؟ فهى ابنة غير شرعية ، ولا علم لأحد بوالديها، وقد يكونان معدمين ، بل ان من المؤكد أنها من أصل وضيع فكل ما يعرف عنها أنها مشرفة بمدرسة ثانوية داخلية ، وهى بعد ذلك فتاة لا نصيب لها من سعة التفكير أو سعة المعرفة ، لم تتعلم فى حياتها شيئا نافعا ، ثم هى بعد ذلك صغيرة جدا ، ومن السذاجة بحيث لا يمكن أن تتعلم بنفسها . وهى فى مثل سنها لا تتأتى لها خبرة من تجاربها فى الحياة ، وليس من المحتمل ، بما لها من ذكاء محدود أن تجد من التجارب ما ينفعها . وكل ما فيها أنها

لطيفة ووديعة . وما كنت لأتردد فى الموافقة على هذه الخطبة الا من أجله ، ذلك لأنها أقل مما يستحق وغير جديرة بأن يرتبط بها . لقد كنت أشعر من ناحية الثروة أن من المحتمل جدا أن تنمو ثروته وتزدهر ، وأنه لو كانت له زوجة عاقلة أو معاونة ، فان يسوء حاله ، ولكنى لم أستطع أن أكون منطقيا الى هذا الحد مع رجل وقع فى شراك الحب ولذا وجدتنى أميل الى الاعتقاد بأنه لا ضير عليه اذا هو تزوج بها ، لما هى عليه من استعداد لو وجد يدا حكيمة كيده لسلس قياده فى الاتجاه السليم . ولقد شعرت بأنها الرابحة من تلك الزيجة ، وأن لها منها كل الغنم ، ولم يكن يخالجنى أدنى شك — ولا زلت لا يخالجنى شك — فى أن الناس جميعا سوف يقولون انها بهذا الزواج كانت ميمونة الطالع ، بل لقد كنت واثقا بأن هذا الزواج سوف يرضيك . وقد خطر ببالى وقتها أنه لن يحزنك أن تغادر صديقتك « هايبرى » من أجل زيجة موفقة ، وأذكر أنى قلت فى نفسى : « وحتى « اما » مع ما هى عليه من تحيز نحو « هاريت » سترى أن هذه زيجة طيبة » .

« انى لا أتمالك نفسى من الدهشة عندما أراك لا تعلم الا اليسير عن « اما » حتى تقول مثل ما قلت ، عجبا لك !! أتظن فلاحا (ولا يزيد « مستر مارتن » على أن يكون فلاحا رغم فضائله ومزاياه) يكون كفئا للزواج من أحب صديقة لى ، واننى لن أحزن على تركها « هايبرى » من أجل زواجها برجل لا أسمح لنفسى بأن يكون أحد معارفى . انى لأعجب كيف تظن أن هذا مبلغ شعورى » « أؤكد لك بأن شعورى ليس كما تظن ، ولا بد لى من القول بأنك لم تكن بحال عادلا فيما قلت ، انك لم تعدل فى تقدير ما لهاريت من مؤهلات ، وأنا وغيرى نخالفك فى تقديرك لها ، وقد يكون « مستر مارتن » أغبى منها ، ولكنه يقل عنها مرتبة فى المجتمع ،

وهى تعيش فى وسط أسمى وأرفع من وسطه ، وزواجها به فيه انقاص من شأنها ، وخفض لمنزلتها » .

« وهل يكون فى زواج الجاهلة التى لا يعرف أصلها بسيد زكى مبجّل، حرفته الزراعة ، ما ينتقص من قدرها ؟ » .

« وأما من جهة ظروف منبتها ، فعلى الرغم من أن القانون لا يعترف بها ، فأن المنطق السليم لا يجيز هذا ، فهى ليست مسئولة عن أخطاء غيرها ، ولا يجوز أن تكفر عن هذا بوضع نفسها فى مستوى أقل من المستوى الذى نشأت وترعرعت فيه ، بل ما من شك فى أن أباها من سادة الناس وأثريائهم فهو ينفق عليها بسخاء ، ولا يضن عليها بشىء فى سبيل ازدهارها وراحتها . نعم انى لا أشك فى أنها ابنة سيد ، وأنها فى مصاف بنات السادة ، ولا سبيل لأحد أن ينكر ذلك ، ولذا فهى أرفع من « روبرت مارتن » وأعلى منه مكانة » .

ورد عليها « مستر نيتلى » يقول : « مهما يكن من أمر والديها ، ومهما يكن شخص من تكفل بتربيتها ، فان من الواضح أنهم لم يكونوا يعدونها للاختلاط بما تسمينه مجتمعا راقيا ، اذ بعد أن أخذت قسطا يسيرا من التعليم؛ تركت فى رعاية « مسز جدرد » لتشق طريقها فى الحياة بنفسها ، تتحرك فى ركاب « مسز جدرد » وتقتصر فى اتصالاتها على معارفها وفى الواضح أن أصدقاءها أنفسهم رأوا فى ذلك ما يكفيها بل هى نفسها كانت لا تبغى أكثر من ذلك ، وكانت الى الوقت الذى اخترت فيه أن تجعلها صديقة لك لا تأنف من صحبة بنات جنسها ولا تطمع فيما هو أكثر من وضعها وكانت أسعد ما تكون وهى بين أسرة مارتن أيام الصيف . لم تكن تشعر وقتها بعلو المنزلة ، وهى اذ كانت تشعر بذلك الآن فانما أنت السبب فى ذلك ، وما كنت بذلك الصديقة المخلصة لهاريت يا « اما » . وروبرت مارتن ؛

ما كان ليقطع شوطا بعيدا كهذا ان لم يكن قد أغراه ما شعر به من عدم زهدها فيه . انى أعرفه حق المعرفة وأعرف ان له من الشعور الحى الفياض ما لا يجعله يقــدم على خطبة أية سيدة اســتجابة لعواطفه الشخصية وحدها . أما الغرور فهو أبعد الناس عنه ، كونى واثقــة بأنه لابد قد وجد منها تشجيعا » .

ورأت « اما » أن الأنسب لها ألا ترد عليه مباشرة فيما يؤكده وفضلت متابعة بسط آرائها فى الموضوع . قالت :

« انك صديق حميم لمستر « مارتن » ولكنك كما قلت لك من قبل لم تكن عادلا فى الحكم على « هاريت » فان ما لها من مؤهلات الزيجة الطيبة لا يمكن أن يكون موضع استهانة على نحو ما وصفت . وهى ليست فتاة ذكية ، ولكن ادراكها أحسن مما تظن ، ثم هى لا تستحق هذا الاستخفاف بتفكيرها . واذا نحن تغاضينا عن ذلك ، وفرضنا أنها كما وصفتها : لطيفة ووديعة لا أكثر ، فاسمح لى بأن أقول لك ان ما عندها من هاتين الصفتين ليس مما يستهان به ليزكيها لدى الناس جميعا ، فهى حقا فتاة جميــلة ، ولا بد أن يكون هذا رأى تسعة وتسعين فى كل مائة ممن يرونها ، والى أن يحين الوقت الذى يكون فيه الرجال أكثر اتجاها الى النظرة الفلسفية فى تقدير الجمال ، عما يظن أنهم عليه عادة ، والى أن يحين الوقت الذى يهيمون فيه بالعقول الراجحة بدلا من الوجوه الجميــلة ، فأن فتاة فى جمــال « هاريت » ستظل واثقة بأنها ستكون دائما موضع الاعجاب ، يسعى الرجال اليها سعيا وهى محتفظة بقدرتها على أن تختار من بين الكثيرين ، وبحقها فى أن تباهى بحسنها . وكذلك ما طبعت عليه من نقاء السريرة ليس ممــا يستهان به فى تزكيتها لأنه يجمع الى لين العريكة البشاشة والتواضــع والألفة بالناس ، وانى لأكون جد مخطئة لو أنكم معشر الرجال بوجه عام

لا ترون أن مثل هذا الجمال وهذه النفسية هما أعظم ما تعتز به المرأة من مؤهلات » .

« أؤكد لك يا « اما » أن سماعى لك وأنت تسيئين الى تفكيرك على هذا النحو ، كاف لأن يجعلنى أفكر بأن تفكيرك هو كما تعرضينه أمامى ، وأفضل لك ألا يكون لك عقل من أن يكون لك عقل تسيئين التصرف فيه على نحو ما تفعلين » .

وصاحت « اما » تقول فى شيء من الدعابة : « كن واثقا بأنى أعلم أن هذا هو شعوركم جميعا ، وأعلم أن فتاة مثل « هاريت » هى مشتهى كل الرجال ، وأن النظرة الأولى اليها تأسر فؤاد الرجل وتقنعه ، أجل ان « هاريت » لها أن تنتقى وتختار ، ولو أنك أنت نفسك كنت تريد الزواج لكانت هى التى تصلح لأن تكون زوجتك . وهل يجوز أن تكون موضع الدهشة وهى لم تبلغ الا السابعة عشرة من عمرها ولم تخط الا أولى خطواتها فى الحياة ، وقد بدأ الناس يعرفونها وتعرفهم ، اذا هى أعرضت عن أول رجل يتقدم اليها ؟ لا ، انى لأستحلفكم أن تتركوا لها فسحة من الوقت للتطلع الى ما حولها » .

ورد « مستر نيتلى » فى الحال : « كنت أرى دائما أن صداقتكما غاية فى السخف ، ولو أنى فضلت أن أحتفظ بهذا الرأى لنفسى ، ولكنى الآن أرى أن هذه الصداقة ستكون وبالا على « هاريت » ، وانك لتملئينها غرورا بجمالها وبما لها من ميزات حتى تصبح بعد قليل وقد اقتنعت بأنه ليس بين الرجال الذين فى متناولها من هو كفء لها . والغرور اذا استولى على عقلية ضعيفة ، تولدت عنه كل الشرور ، وليس من شيء أسهل على المرأة من أن تزيد من غلوها وتبالغ فى آمالها . ومع ذلك فقد لا تنهال طلبات الزواج على « مس هاريت » سريعا ، رغم أنها فتاة على جانب كبير

من الظرف ، فان عقلاء الرجال مهما كان رأيك الذى تختارينه لنفسك ، لا يريدون زوجات سخيفات ، أما الرجال الذين ينتمون الى أسر كريمة فليس لهم ولع بالارتباط بفتاة لا يعرف أصلها ونسبها ، ومعظم ذوى الفطنة من الرجال يخشون ما سوف يلاقونه من المتاعب وما يلحقهم من العار اذا ما كشفت الأيام عن سر منبتها . دعيها اذن تتزوج « روبرت مارتن » ، أما اذا شجعتيها على الانتظار لكى تفوز بزوج أفضل ، ولقنتيها ألا تقنع من الرجال الا بمن كان ذا جاه ، وعلى جانب كبير من الثراء ، فانها لن تبارح النزل الذى تقيم فيه عند « مسز جدرد » طيلة البقية الباقية من عمرها ، أو على الأقل (لأن هاريت سميث يرضيها أن تتزوج بأى رجل) الى أن يبلغ بها اليأس مبلغا يجعلها تسعد باقتناص ابن مدرس الخط العجوز » .

« ان اختلافنا يا « مستر نيتلى » فى تفكيرنا فى هذه النقطة كبير ولذا فلن ترجى فائدة من بحثها ، اذ لن يكون من وراء ذلك الا أن يغضب أحدنا الآخر . أما أن أدعها تتزوج « روبرت مارتن » فهذا مستحيل ، وقد رفضته رفضا لا رجعة فيه ، حتى لا يكون هناك عود الى هذا الطلب ، وعليها أن تتحمل ما قد ينجم عن رفضها الزواج منه من ضرر مهما بلغ شأنه ، وأما عن الرفض فى ذاته ، فأنى لا أزعم بأننى كنت عديمة الأثر فيه ، ولكنى أؤكد لك بأنه لم يكن لى ولا لغيرى ما يمكن أن تفعله الا النزر اليسير . فمظهره يوجب الرفض ، وحركاته غير مرضية ، وهى ان مال قلبها اليه قبلا ، فقد برئت الآن من هذا الميل ، وفى استطاعتى أن أتخيل أنها ربما كانت ترضى به قبل أن تتهيأ لها الفرصة لرؤية من يتفوق عليه . لقد كان أخا لصديقاتها ، وبذل الجهد فى ارضائها ، ولما لم تكن قد رأت من هو أحسن منه (ولا بد أن ذلك كان أكبر عامل مساعد له) فقد كان طبيعيا ألا تجد فيه وهى تقيم فى ناحية الرهبانية ما ينفرها منه ، ولكن الوضع قد

تغير الآن ، وأصبحت تدرك من هم السادة ، ولذلك فلن ترتضى « هاريت » لنفسها الآن غير سيد مثقف كريم الخصال » .

وصاح « مستر نيتلى » قائلا : « هراء !! محض هراء لا مثيل له !! ، ان « روبرت مارتن » يتصف بسلامة الفكر والاخلاص ، وفيه دعابة تزكى هاتين الخصلتين ، وان له من العقل ما يعز على « هاريت سمث » أن تدركه » .

ولم تحر « اما » جوابا ، وحاولت أن تبدو مشرقة الوجه ، وكأن الأمر لا يقلقها ، ولكنها ولا شك كانت تشعر فى نفسها بالضيق ، وودت لو أنه تركها وحدها » . انها لم تندم على ما فعلت ، وكانت لا تزال تعتقد فى نفسها أنها أقدر منه على الحكم فى موضوع كهذا يتعلق بحق المرأة وما يتصل به من ضروب الكياسة ، ولكنها كانت مع ذلك قد اعتادت احترام آرائه بوجه عام ، مما جعلها تكره أن تراه يجهر بمعارضته لها بقدر ما كرهت أن تراه يجلس غاضبا فى مواجهتها .

ومضت دقائق وهما على هذا السكون الكريه الذى لم تقطعه الا محاولة « اما » الحديث عن الطقس ، ولكنها لم تجد منه ردا ، فقد كان غارقا فى تفكير عميق انتهى به الى أن يقول : « لو أن « مارتن » فكر جيدا لوجد أن خسارته ليست بالشىء الذى يذكر ، وأرجو أن يدرك ذلك قريبا ، أما أنت فانك أدرى الناس بآرائك عن « هاريت » ، ولكن أما وأنك لا تخفين ولعك بتهيئة الزيجات ، فأن من المؤكد أن لديك آراء وخططا ومشاريع فى هذا الصدد ، وأنا بصفتى صديقا لك ، أرى لزاما علىّ أن أنوّه لك بأن « التن » لو كان هو الرجل الذى تقصدينه فأن كل جهدك فيما أحسب سوف يضيع هباء » .

وضحكت « اما » ضحكة استنكار ، أما هو فقد استمر يقول :

« تأكدى بأن « التن » لن يستجيب ، ان « التن » من خيرة الرجال ، وهو راع محترم لأبرشية « هايبرى » ولكنه لا يحتمل أبدا أن يندفع فى زيجة خرقاء ، وهو يعرف كغيره من الناس ، قيمة الدخل الكبير ، وقد يكون حديثه عاطفيا ، ولكنه يحكم العقل فى جميع أعماله ، وهو يدرك ما لديه من محاسن بقدر ما تدركين أنت ما لدى « هاريت » ، ثم هو يعلم أنه رجل فى ميعة الصبا ، وعلى جانب كبير من الجمال ، وأنه محبوب أينما حل . ولقد تأكدت من طريقة حديثه العامة فى أوقات تخلى فيها عن تحفظه وكان لا يوجد معه فيها سوى الرجال ، أنه ضنين بنفسه ، وسمعته وهو يتحدث فى حماس شديد عن أسرة كبيرة فيها شابات صديقات لاخواته ، ولكل واحدة منهن عشرون ألفا من الجنيهات » .

فقالت « اما » وهى تضحك ثانية : « انى مدينة لك بالشكر كثيرا ، ولو أنى كنت أهدف الى تزويج مستر « التن » من « هاريت » لكان هذا التحذير منك جميلا ، ولكن كل ما أريده الآن هو أن أحتفظ بهاريت لنفسى، ولقد تركت فى الوقت الحاضر موضوع تهيئة الزيجات ، اذ لا أمل عندى فى أن أوفق فى زيجة كتلك التى أنجزتها فى « راندولز » وسأمتنع عن تهيئة الزيجات ما دمت بخير » .

« عمى صباحا » — قال هذا ثم وقف وانصرف مسرعا . لقد كان فى حالة شديدة من الغيظ لشعوره بالخيبة التى لحقت بالفتى وتألمه لأنه كان سببا فى ذلك بموافقته على زواجه . وزاد فى ألمه ما رسخ فى ذهنه من أن « اما » كان لها يد فى ذلك .

وكذلك « اما » كانت فى حالة من الضيق ، وان كانت أسباب ضيقها أقل وضوحا من أسباب غيظه ، فقد كانت لا تشعر بالرضى الكامل عن نفسها لأنها لم تكن مقتنعة كل الاقتناع بأن آراءها فى هذه المسألة كانت صائبة وآراء خصمها خاطئة » .

وكذلك هو قد انصرف وهو أكثر منها اعتقادا بأن الصواب فى جانبه ومع ذلك فان الأسى لم يكن قد بلغ منها مبلغه ، ولو كانت « هاريت » عادت بعد فترة وجيزة ، لكان فى ذلك ما يخفف عنها ، ولكن طول غياب « هاريت » زادها قلقا ، وساورتها وساوس مزعجة ، فذهب بها الفكر الى أن الفتى قد يأتى الى بيت « مسز جدرد » فى هـذا الصـباح فيقابل « هاريت » ويؤثر عليها ، فكان توقعها الفشل بعد كل ما قامت به أكثر ما يضايقها ، فلما أقبلت « هاريت » منتعشة وليس لديها سبب تبديه تبريرا لطول غيابها ، شعرت « اما » بالغبطة التى هدأت من روعها وأكدت لها بأنه على فرض أن « مستر نيتلى » فكر أو قال ما يحلو له ، فأنها لم تأت شيئا لا تجيزه الصداقة أو تبرره مشاعر المرأة .

لقد أزعجها « مستر نيتلى » قليلا من ناحية مستر « التن » ولكنها عندما فكرت فى أن « مستر نيتلى » لم يتح له من الفرص لمراقبته باهتمام مما أتيح لها (كذلك أكدت لنفسها على الرغم مما كان يدعيه مستر نيتلى) ولا بالمهارة التى لها فى موضوع كهذا ، وأنه انمـا قال ما قاله فى تسرع وغضب ، أيقنت بأنه قال فى سخطه وغضبه ما كان يود أن يكون صحيحا ، لا ما كان يعلمه علم الواقع . وقد يكون سمع « مستر التن » يتكلم دون تحفظ ، وعرف ما لم تعرفه ، وقد لا يكون « مستر التن » مبرأ من الاهتمام بأمور المال بل ان من الطبيعى أن يكون أكثر اهتماما من ألا يكون ، ولكن « مستر نيتلى » فاته أن يقدر ما لعاطفة الحب القوية من أثر يتغلب على كل الدوافع الأخرى . ان « مستر نيتلى » لم يشهد مثل هذه العاطفة ، ومن ثم فهو بطبيعة الحال لا يقدر أثرها ، ولكن « اما » شاهدت الكثير منها ، مما جعلها لا تشك فى أنها سوف تتغلب على ما قد يقف فى سبيلها من تردد قد توحى به الحكمة والتعقل ، بل هى لم تكن تعتقد بأن « مستر التن » له من بعد النظر ما يتعدى الحد المعقول .

ولقد هدأت عندما رأت ما بدت عليه « هاريت » من هدوء وغبطة . انها لم تعد الى « هايبرى » لتفكر فى « مستر مارتن » ، بل لتتحدث عن « مستر التن » ، لقد قالت لها « مس ناش » شيئا قصته عليها على الفور وهى فى نشوتها ، قالت ان مستر « برنى » كان عند « مسز جدرد » ليعود طفلة مريضة ، وأن « مس ناش » رأته فأخبرها بأنه بينمـا كان عائدا بالأمس من كيتون پارك التقى بمستر « التن » ، وأدهشه أن رآه متجها الى لندن ، وأن يعلم منه أنه ليس فى نيته العودة قبل الغد ، على الرغم من أنها كانت ليلة « نادى لعب الورق » التى لم يتخلف عنها مرة قبل ذلك ، وأن مستر « پرى » احتج عليه وقال له انه لا يليق بأحسن اللاعبين أن يتغيب فى هذه المناسبة ، وحاول اغراءه لكى يؤجل رحلته يوما واحدا ، ولكنه لم ينجح فى ذلك لأن « مستر التن » كان مصمما على مواصلة السير ، وأخبره بطريقة غير عادية ، أنه ذاهب لقضاء حاجة ليس فى الوجود ما يغريه على تأجيلها ، وتحدث عن قيامه بعمل يحسد المرء عليه ، وأنه يحمل معه شيئا نفيسا للغاية .

ولم يفهمه « مستر پرى » تماما ، ولكنه تأكد أنه لابد وأن يكون فى الأمر سيدة ، بل لقد صارحه بذلك ، واستولى على « مستر التن » الخجل وابتسم وقتها ثم سار ممتطيا جواده فى حيوية متدفقة .

لقد أخبرتها « مس ناش » بكل هذا ، وقالت غير ذلك كلاما كثيرا عن « مستر التن » . ثم قالت وهى تنظر اليها نظرة ذات معان : « انها لا تدعى بأنها فهمت موضوع مهمته ، ولكنها تعلم فقط بأن أية سيدة يفضلها مستر «التن» فهى فى نظرها أسعد نساء العالم جميعا ، اذ لا سبيل الى الشك فى أنه ليس هناك من يماثل « مستر التن » فى جماله وظرفه .

الفصل التاسع

قد يتشاجر « مستر نيتالى » مع « اما » ولكن لم يكن من المعقول أن تتشاجر « اما » مع نفسها ، فلقد بلغ استياؤه منها حدا طالت معه غيبته عن «هارتفيلد» على غير عادته . وعندما التقيا ، دلت نظراته الغاضبة على أنه لم يكن قد عفا عنها بعد ، وأسفت لذلك ولكنها لم تندم على ما فعلت ، بل على النقيض من ذلك دلت مظاهر الأمور فى الأيام القليلة الأخيرة ، على سلامة ما رسمته من خطط ، مما زاد اعتزازها بها .

فقد وصلت الصورة سالمة فى اطارها الجميل ، عقب عودة « مستر التن » مباشرة ، وما كادت تعلق فوق رف حجرة الجلوس العائلية حتى انتصب « مستر التن » واقفا ليراها ، وعبارات الاعجاب تنطلق من بين شفتيه فى جمل غير مستكملة ، وفى همسات خافتة ، وهو ما كان منتظرا منه ، أما هاريت فقد تبلورت مشاعرها واستحالت الى محبة متينة ثابتة تتفق مع ما سمحت به عقليتها وشبابها . ورضيت « اما » تمام الرضى بذلك لأن مستر « مارتن » لم تعد له فى نفس « هاريت » ، صورة الا ما تفقده من موازنة تكون فيها كفته هى الكفة الراجحة .

ولم تكن آراء « اما » فى تثقيف صديقتها الصغيرة بالاكثار من القراءة النافعة والمحادثة المفيدة قد قطعت سوى مرحلتها الأولى ، وكانت دائما تقف عند حد الرغبة فى الاستزادة منها فى اليوم التالى ، فلقد كان الحديث أيسر من الدرس والمطالعة ، وكان أشهى على نفسها أن تترك المجال لخيالها

لكى يسبح ويعمل لمستقبل « هاريت » بدلا من أن تشغل نفسها بزيادة مداركها أو تصرف اهتمامها الى الحقائق الرصينة .

وكان سبيل « هاريت » الوحيد فى ممارسة الأدب وتزويد عقلها بما يفيد فى خريف العمر ، هو جمع وكتابة كل أنواع الأحاجى التى تصادفها ، فى مجلد صغير رقيق من الورق المضغوط ، عملته لها صديقتها وزينتـه بالرموز الدالة على الانتصار فى الصيد والمباريات . وكان جمع مثل هذه الأحاجى على نطاق واسع عادة شائعة فى ذلك العصر الأدبى ، ولقد سطرت منها « مس ناش » ، وهى المدرسة الأولى بمدرسة « مسز جـدرد » ما لا يقل عن الثلاثمائة فى هذا المجلد . وكانت « هاريت » وقد أخـذت الفكرة عن « مس ناش » تأمل بمعاونة « مس وودهاوس » أن تزيد عليها. وساعدتها « اما » على ذلك بابتكاراتها أحيانا وبما كانت تذكره منها أحيانا أخرى ، وبما كان لها من ذوق سليم دائما . ولما كانت « هاريت » تجيد الخط فقد كان من المنتظر أن يأتى عملها غاية فى التنسيق والترتيب ، شكلا وكمًا .

وكان اهتمام « مستر وودهـاوس » بذلك العمل كبيرا كاهتمـام الفتاتين ، وكثيرا ما حاول أن يتذكر شيئا جديرا بالتدوين ، وكان من بين ما قاله : « كم من أحاجى محبوكة كانت لى فى أيام صباى ، وانى لأعجب لنفسى كيف لا أتذكرها الآن ولكنى آمل أن أتذكرها على مر الأيام » — وكان يعقب على ذلك دائما بقوله : « كتى جميلة ولكنها كالثلج جامدة » وتحدث فى ذلك الى صديقه « پرى » » ولكن « پرى » لم يتذكر منها شيئا كذلك ، ومع ذلك فقد رغب مستر وودهاوس الى صديقه أن يكون متيقظا لما قد يصادفه منها ، فقد كان « پرى » كثير التنقل ، واعتقد « وودهاوس » أنه قد يظفر بالكثير من هذه الأحاجى من الأماكن التى يرتادها .

ولم يكن من رأى « اما » الاستعانة بأحد من أهالى « هايبرى » عامة، ولم تستثن من ذلك سوى « مستر التن » ، فقد كان الوحيد الذى طلبت معونته ورجته الاسهام بأى شيء يتذكره من الأحاجي المستملحة ، وسرها أن تراه جادا فى مهمته ، عظيم الاهتمام باستعادة ما يستطيعه منها الى الذاكرة . وقد لاحظت عليه فى الوقت نفسه أنه كان حريصا غاية الحرص على ألا يفوه بكلمة لا تتنسم بالشهامة ، أو يقول ما لا ينطوى على اطراء للنساء . وقد كانتا مدينتين له بأحجيتين أو ثلاثة ، كانت أكثر الأحاجى التى جمعت مراعاة للأدب .

وابتهج وعظم ابتهاجه عندما تذكر آخر الأمر تلك الأحجية المشهورة ، وأخذ يرويها فى عطف وحنان :

أول أجزائى دليل الألم   وعلى الثانى يقع الألم
وان جمع الجزءان   كان البلسم للسقم

ولكن « اما » أسفت أسفا شديدا وهى تعترف له بأنه سبق لهما تدوين تلك الأحجية فى احدى صفحات المجلد ، ثم قالت :

« ولكن لماذا لا تكتب لنا شيئا من عندك أنت يا مستر « التن » ، فهذا هو الضمان الوحيد لجدته ، وليس أسهل عليك من أن تقوم بهذا » .

واعتذر قائلا : « انه لم يسبق لى كتابة شيء من ذلك طول حياته ، وأنه أكثر الناس غباء فى هذه الناحية ، وانه يخشى ألا تكون مس وودهاوس.. » وتوقف لحظة ثم قال : « ولا « مس سمث » ، على ما لهما من قدرة على الايحاء ، قادرتين على الهامه » .

وجاء اليوم الثانى يحمل الدليل على قدرتهما على الالهام فقد أقبل ليمكث لحظات قصيرة ويترك رقعة من الورق فوق المنضدة ، وبها ، على

حد قوله ، أحجية من أحد أصدقائه الى فتاة يعجب بها ، وان كانت « اما » تأكدت من أول وهلة أنها من وضعه هو .

ثم أردف يقول : « على انى لا أقدم هذه لتكون من بين ما تجمعه « مس سمث » ، لأنها خاصة بصديقى ، وليس من حقى أن أجعلها بحال عرضة لأنظار الناس ، ولكن قد يروق لك مع ذلك أن تنظرى اليها » .

وأدركت « اما » أن هذا الكلام موجه اليها أكثر مما كان موجها الى « هاريت » ، فقد كان يبدو عليه اضطراب شديد جعل مواجهته لاما أيسر عليه مما لو واجه صديقتها ، وسكت برهة ثم انصرف .

وقالت « اما » وهى تبتسم : « خـذيها » — ودفعت بالورقة الى « هاريت » وهى تقول : « انها لك فخذى ما لك » .

ولكن « هاريت » اعترتها رجفة فلم تستطع أن تمسها ، ووجدت « اما » نفسها ، وهى من لم تحجم يوما عن أن تكون البادئة ، مضطرة الى أن تفحص الورقة بنفسها ، فاذا بها تقرأ فيها :

الى الآنسة ..

« أحجيـة »

أول مقاطعى دليل الثروة وأبهة الملك ، وما عليه ملوك الأرض من ترف وهدوء بال . وثانيهما يأتى برأى آخر للانسان ، انظر اليه تجده المتوج فوق البحار . واذا اجتمع المقطعان ، فما أعجب انعكاس الآية ، اذ يذهب ما يفخر به الانسان من الحرية والسلطان ، ويخر سـيد الأرض والبحار عبدا ، ثم لا يكون الملك لغير السـيدة الحسناء ، وان بديهتك بالكلمة حالا ستجود ، فهل تأتى الموافقة فيما تشعه العيون الناعسـة من ضـياء ؟ » .

وألقت على الورقة نظرة وفكرت ، وأدركت المعنى ، ثم قرأتها مرة

أخرى لتتأكد تماما من معنى السطور ، ثم أعطتها لهاريت وجلست تبتسم وهى مسرورة وتقول فى نفسها ، بينما راحت « هاريت » تجهد قريحتها لفك ما بالورقة من رموز فى مزيج من الأمل والغباء : « هذا جميل جدا يا مستر « التن » انه جميل جدا ولا شك !! لقد قرأت من الأحاجى ما هو أصعب من ذلك ، ان أحجيتك تعنى كلمـة « كورت شپ » Courtship(*) ، انه تلميح جميل جدا تستحق عليه الثناء ، تريد أن تتحسس به الطريق ، انه كما لو كنت تريد أن تقـول فى غير لبس أو غموض : « اسـمحى لى يا « مس سمث » أن أطلب يدك ، وأظهرى بنظرة واحدة منك أنك توافقين على الأحجية وعلى خطب ودك » .

فهل تأتى الموافقة بما تشع العيون الناعسة من ضياء ؟

انها « هاريت » بنفسها ، والناعسة هى هى الكلمة التى تصف عينيها ، وان أدق ما ذكره من التعبير هو قوله :

« وان بديهتك بالكلمة حالا ستجود » .

ها ، بديهة « هاريت » المتوثبة !! هذا شيء حسن على أية حال ولا بد أن الرجل قد شغفه حبها حتى وصفها على هذا النحـو . وددت لو أنك استفدت من هذا يا مستر « نيتلى » ، وظنى أنك ستجد فيه ما يقنعك ، وستجد نفسك مضطرا الى الاعتراف بأنك أخطأت مرة فى حياتك .. انها أحجية ممتازة ولا شك ، أحجية هادفة ، ولا بد أن تصل الأمور حالا الى قول فصل » .

(*) كلمة « كورتشـپ » Courtship بالانجليزية مكونة من مقطعين: كورت، شپ ، وأولهما معناه « بلاط الملك » وثانيهما معناه « السـفينة » والاثنـان معا بمعنى « خطب ود الحبيب » ـ المترجم .

واضطرت « اما » الى الكف عن الاسترسال فى هذه الملاحظات المحببة اليها ، على كثرة ما كانت تود الاسترسال فيها بسبب ما كانت توجهه اليها « هاريت » من أسئلة تنم عن لهفتها ودهشتها : ! ماذا يمكن أن تكون يا مس « وودهاوس » ؟ وعلام تدل ؟ ليس لدى عنها أية فكرة ، وليس فى استطاعتى أن أتكهن بما تعنيه ، وماذا عساها أن تكون ؟ حاولى أنت يا « مس وودهاوس » أن تعرفى ذلك ، ساعدينى فلست أجد شيئا أشق على من هذا ، فهل هى كلمة « مملكة » ؟ انى لأعجب من يكون هذا الصديق ، ومن تكون هذه الفتاة ؟ وهل تظنينها طيبة ؟ وهل هى سيدة ؟

« ثم لا يكون المتبسلك لغير السيدة الحسناء » .

وهل يقصد بالكلمة الكوكب « نبتيون » ؟ .

« أنظر تراه المتوج فوق البحار » .

هل يقصد بها « الحرية ذات الشعب الثلاث ؟ » .

هل هى عروس البحر ؟ أم هى « سمك القرش ؟ » .

ولكن لا ، ان كلمة قرش ذات مقطع واحد ، لابد وأن تكون الأحجية مسبوكة غاية السبك ، والا ما كان أتى بها . عجبا يا مس « وودهاوس »!! هل تظنين أننا سنعرفها » .

« عروس البحر والقرش » !! ما هذا الهراء ؟ ما هذا الذى تفكرين فيه يا عزيزتى « هاريت » ؟ وما الفائدة التى يجنيها من الاتيان الينا بأحجية قام بها صديقه فى وصف عروس البحر أو سمكة القرش ؟ اعطينى الورقة وأنصتى الىّ :

الى الآنسة ..

اقرئى يا مس سمث

« أول مقاطعى دليل الثروة وأبهة الملك وما عليه ملوك الأرض من ترف وهدوء بال » .

انها (كورت) (ومعناها بلاط الملك) .

« وثانيهما يأتى برأى آخر للانسان ، أنظر اليه تجـده المتوج فوق البحـار » .

انها كلمة (شيپ) (أى السفينة) وهى واضحة كل الوضوح.

ثم يلى ذلك زبد الكلام :

« وكلها آه ، اذا اجتمع الشطران فما أعجب انعكاس الآية ، اذ يذهب ما يفخر به الانسان من الحرية والسلطان ويخر سيد الأرض والبحر عبدا ، ثم لا يكون الملك لغير السيدة الحسناء » ما أصدق هذا المديح !! ويأتى بعد ذلك التطبيق ، وأظنك يا عزيزتى « هاريت » لن تجدى فى فهمه مشقة، اقرئيها بنفسك مرة أخرى وأنت هادئة ، فما من شك فى أنها كتبت لك ومن أجلك » .

وانصاعت « هاريت » لهذا الاغراء السار على القراءة ، ثم قرأت خاتمة السطور فالتهبت مشاعرها وغمرها السرور حتى عجزت عن الكلام ، بل ولم تكن بها حاجة الى الكلام ، فقد كان يكفيها الشعور ، وتكلمت « اما » نيابة عنها فقالت :

« ان لهذا المديح معنى خاصا محددا ، حتى أنى لا أشك مطلقا فيما اعتزمه مستر « التن » ، فأنت كعبته وهدفه وعما قريب ستضعين يدك على الدليل كله . لقد ظننت دائما أن هذا هو الذى سيكون حتمـا ، واننى لا يمكن أن أكون مخدوعة ، وقد وضح الأمر الآن كل الوضوح ، وتبين

فكره واستقر رأيه على ما كنت أريده مذ عرفته ، أجل يا « هاريت » لقد تمنيت كثيرا منذ وقت طويل أن يحـدث هذا الذى حـدث ، وان كنت لا أستطيع أن أتبين اذا كان ارتباطى بمستر « التن » هو أعظم ما تشتهيه النفس أم هو أكثر الأمور تمشيا مع طبيعة الأشياء . على أن احتمال حدوثه ومناسبة حدوثه يتساويان مع ذلك ، وانى لسعيدة جدا ، وأهنئك ياعزيزتى « هاريت » من كل جوارحى ، فهو ارتباط تفخر أية امرأة بأنهـا كانت الباعث عليه . انها صلة لا ينجم عنها الا كل خير ، وستظفرين فيها بكل ما تريدين من اعتبار واستقلال وبيت يليق بك ، وستكونين وسط أصدقائك المخلصين بجوار « هارتفيلد » وبجوارى ، ولسوف يدعم كل ذلك صداقتنا الى الأبد . انه ارتباط لن يحمر وجه أحدنا خجلا منه أبدا » .

وكان كل ما أمكن مس « هاريت » أن تنطق به هو التعانق المفعـم بالحنان وهى تردد :

« عزيزتى « مس وودهاوس » ، عزيزتى مس وودهاوس » ، فلمـا وصلا بعد ذلك الى شىء أدنى الى مراتب الحديث ، تبينت صديقتها بجلاء ووضوح أنها كانت ترى وتحس ، وتترقب ، وتتـذكر ، كما كان ينبغى عليها ، لقد بان اعترافها بتفوق مستر « التن » بوضوح .

وصاحت « هاريت » تقول أخيرا : « ان ما تقولينه هو دائما عين الحق، ولذا فانى أظن وأعتقد وآمل أنه لابد وأن يكون الأمر كذلك ، ولولا هذا ما كنت أستطيع أن أتصور ما قد حدث ، فهو فوق ما أستحق ، وكيف لا ، ومستر « التن » قادر على أن يتزوج بمن يريد ، وقد أجمع الكل على أنه رجل ممتاز ، ويكفى أن تفكرى فى تلك الأشعار الجزلة .

« الى الآنسة .. » .

يا الهى ، ما أذكاه من رجل !! وهل هى حقيقة موجهة الىّ ؟ ..

وأجابت « اما » « انها الحقيقة ، فلا أنا بسائلة ولا بمستمعة لسؤال يوجه الىّ فى ذلك . اقبلى رأيى فى هذا الموضوع على عهدتى ، انها مقدمة لمسرحية جميلة وعنوان لأحد فصولها ، وستتوالى الحقيقة بعد ذلك حالا ».

« انه أحد الأشياء التى لم يكن أحد يصدقها ، فمنذ شهر واحد لم يكن يخطر ببالى شيء من هذا ، ولكن كثيرا ما تحدث العجائب » .

« عندما يتعارف « مستر التن » بمس « سمت » فلا بد أن تحدث العجائب ، ومع ذلك فهو أمر عجيب فعلا ، فأن من المستغرب ومن غير المألوف حقا أن الشيء المرغوب بهذا الوضوح وهذا الجلاء — مما يتطلب من الغير التدبير والترتيب — يتم ويأخذ طابعه الصحيح بهذه السرعة . فأنت ومستر « التن » يجمعكما مركزكما المتشابه فى الحياة ، وظروفكما العائلية تقرب المسافة بينكما ، وزواجكما سيكون شبيها بالزيجة التى تمت فى « راندولز » — كأنما يتخلل الهواء فى « هارتفيلد » شيء يوجه الحب الوجهة الصحيحة ، ويبعث به فى الاتجاه الذى يجب أن يسير فيه .

« ما كان قط طريق الحب الصادق أملس » ولو أنه كان لهارتفيلد طبعة خاصة بها لشكسبير ، لكان خليقا بأن يدرج فيها تعليق مستفيض عن هذه الفقرة .

« انى لأعجب كيف أحبنى مستر « التن » وكيف اختارنى من بين الناس جميعا ، أنا التى لم تعرفه ، ولم يسبق لها أن كلمته فى عيد الملاك ميخائيل !! هذا الذى يوصف بأنه أجمل الرجال ، وبأنه رجل يتطلع اليه الناس كما يتطلعون الى « مستر نيتلى » !! والكل يرجو صحبته ، حتى أجمع الكل على أنه ان لم يكن باختياره لما تناول وجبة طعام واحدة بمفرده ، وأن ما يدعى اليه من الولائم أسبوعيا أكثر من أيام الأسبوع عددا . ثم كم هو ممتاز فى أعمال الكنيسة كذلك !! ، ان « مس ناش » قد كتبت كل

ما كان يعظ به الناس منذ أن قدم الى « هايبرى » رباه !! انى لأعجب كيف أنى كنت قليلة الادراك عندما أعود بذاكرتى الى أول يوم رأيته فيه ، لقد أسرعت أنا وراهبان الى الحجرة الأمامية ، واسترقنا النظر اليــه من خلال الستار ، عندما سمعنا أنه سيمر ، ثم أقبلت « مس ناش » فقرعتنا وحملتنا على الانصراف ، ثم مكثت هى لترى وتنظر ، ولكنها ما لبثت أن نادتنى لأعود ، وجعلتنى أنظر معها ، وكان هذا عطفا جميلا منها ، وكم كان رأينا فيه بأنه رجل حسن الطبع جميل الخلقة وهو يتأبط ذراع مستر « كول » .

« ان هذا الرباط لابد أن يرتاح له أصدقاؤك مهما كانوا ومهما كانت مكانتهم ، بشرط ألا يعوزهم حسن الادراك على الأقل ، فليس علينا أن نكترث بالأغبياء . فاذا كان أصدقاؤك يريدون لك زواجا سعيدا ، فها هو الرجل الذى له من مكارم الأخلاق ما يكفل ذلك ، واذا كانوا يريدون لك استقرارا فى نفس المكان وبين نفس الجماعة التى اختاروها لك ، فهنا يمكن أن يتم لهم ما يريدون واذا كان غرضهم على حد القول المأثور ، أن يكون زواجك زواجا طيبا ، فهنا الثروة المريحة والمنزل المحترم والحياة الباسمة التى لابد أن ترضيهم » .

« أجل وهو عين الحقيقة ، وما ألطف حديثك ، انى لأحب أن أستمع اليك ، انك تدركين كل شىء ، انك مثل « مستر التن » فى الذكاء . أنظرى الى أحجيته ، فلو أننى بقيت سنة كاملة أدرس وأبحث لما أمكننى أن أعمل مثلها » .

« ظننت من طريقة اعتذاره بالأمس ، أنه أراد أن يجرب قدرته » .

« وأنا أظن أن هذا أحسن ما قرأته من الأحاجى بلا استثناء » .

« الحق أنى لم أقرأ أحجية أوفى منها بالغرض » .

« وهى فى طولها لا تكاد تقل عما جمعناه من قبل » .

« أنا لا أعتبر طولها شيئا يرفع من قيمتها ، ومثل هذه الأشياء لا تكون عادة قصيرة » .

وركزت « هاريت » أنظارها على السطور ، فشغلها ذلك عن أن تسمع شيئا ، فقد كان تفكيرها منصرفا الى المقارنات التى ترضى نفسها . وقالت بعد ذلك وقد احمرت وجنتاها :

« فرق بين أن يكون للانسان علم بتصريف الأمور بصفة عـامة كما يفعل سائر الناس ، حتى اذا عنّ له أن يقول شيئا جلس وكتب ما يجب أن يقال فى ايجاز ، وبين أن يكتب الانسان ما يريد شعرا وأحاجى كهـذه الأحجية » .

وما كانت « اما » لترغب فى أكثر من هذا رفضا لأسلوب « مارتن » المنشـور .

وواصلت « هاريت » حديثها فقالت : « ما أملح تلك السـطور ولا سيما السطرين الأخيرين !! ولكن كيف يتأتى لى أن أرد الورقة ، أو أن أقول بأنى فهمت الأحجية ، وكيف يكون تصرفنا يا مس « وودهاوس » فى هذه الورقة ؟ » .

« أتركى هذا لى ولا تفعلى شيئا ، وسيحضر هنا فى هذا المساء بالتأكيد وسأردها اليه ، وتتبادل بعض المهاترات والعبارات السطحية دون تورط منك ، وثقى بأنه سيحين الوقت الذى تختاره عيناك الناعستان لكى تشعا ما فيهما من ضياء » .

« انه لشىء يؤسف له يا مس « وودهاوس » ألا يؤذن لى بتدوين هذه الأحجية الجميلة فى مجلدى ، ويقينا أنى لم أحصل على أحجية فى نصف جودتها » .

« احذفى السطرين الأخيرين ، وليس هناك ما يمنعك من تدوينها فى مجلدك » .

« آه ، ولكن هذين السطرين .. » .

« هما أحسن ما فيها ، هذا مسلم به ولكنهما لمتعتك فقط فاحتفظى بهما للمتعة الخاصة ، ولن تقل جودتهما لأنك اقتطعتيهما ، فلا المعنى يتغير ولا السجع يتأثر ، فاحذفى السطرين الأخيرين ، ولن تصبح الأحجية بعد ذلك خاصة بأحد ، وما تبقى منها سيكون أحجية جميلة ، ونبيلة وخليقة بأن تدرج فى أية مجموعة ، وثقى بأنه لن يرضيه أن يرى استخفافا بأحجيته، وهى أفضل عنده من حبه ، لأن الشاعر الذى يحب ، لابد من تشجيعه فى الناحيتين ، ناحية حبه وناحية شعره ، أو يصرف النظر عن كليهما ، أعطنى المجلد وسأدون الأحجية بنفسى ولن يكون عليك لوم أو تثريب فى ذلك » .

وأذعنت « هاريت » رغم أن عقلها كان يعارض تقطيع أوصال أحجيتها، رغبة منها فى ألا تعرض صديقتها حبهــا على الملأ فهو أغلى من أن يذاع على الناس .

وقالت : « لن أدع ذلك المجلد يخرج من بين يدى » .

وأجابتها « اما » قائلة : « هذا جميل جدا ، وهو شعور حى صادر من القلب ، وكلما بقى ازداد سرورى ، ولكن ها هو أبى قادم ، وأظنــك لا تعارضى فى أن أقرأ له الأحجية لأنه سيسر بها كثيرا ، وهو يحب مثــل هذه الأشياء ، خاصة ما كان فيه اطراء للمرأة ، فهو من أنبل الناس وأرقهم حاشية نحونا جميعا ، ويجب أن تأذنى لى بقراءتها له » .

وبدأ الوجوم على وجه « هاريت » فقالت « اما » :

« عزيزتى « هاريت » يجب ألا تكونى مرهفة الاحساس من ناحية تلك الأحجية ، لأنك ستكشفين عن مشاعرك بطريقة غير لائقــة اذا كنت مرهفة الحس أو متسرعة ، أو بدا منك ما يدل على أنك تحملين الأحجية من المعانى أكثر مما تحتمل ، أو حتى تحملينها كل ما فيها من المعانى . لا تجعلى

لمثل هذا النزر اليسير من قلائد الاعجاب سلطانا عليك ، فلو أنه كان يروم السرية ، لما ترك الورقة وأنا بجوارك ، ولكنه رأى أن يدفع بها نحوى لتكون أقرب الىّ . هيا لا تجعلينا نعير هذا الموضوع اهتمامنا ، فأن له من الشجاعة ما فيه الكفاية ليتقدم من غير أن نبذل عصارة المهج على هذه الأحجية » .

« لا ، لا ، وأرجو ألا أجعل نفسى أضحوكة بسببها ، افعلى ما يحلو لك » .

ودخل مستر « وودهاوس » ولم يلبث أن أثار الموضوع مرة ثانية فأعاد السؤال الذى اعتاده قال :

« أجل عزيزتى ، كيف يسير العمل فى مجلدكما ؟ هل من جديد ؟ »

« نعم يا والدى ، ولدينا ما سنقرأه عليك وهو شىء جديد حقا ، فلقد عثرنا هذا الصباح على ورقة فوق المائدة (ألقت بها جنية فيما أظن) ، تحتوى على أحجية لطيفة للغاية ، وقد فرغنا من تدوينها حالا » ، ثم قرأتها عليه فى تؤدة ووضوح كرغبته فى أى شىء يقرأ عليه ، وقرأتها مرتين أو ثلاثا وهى توضح كل جزء تقرؤه ، وقد سر لذلك كثيرا ، وأعجبه منها بصفة خاصة ، كما تنبأت ، نهاية الأحجية وما فيها من اشادة بالمرأة .

« أجل ان هذا هو عين الصواب ولا شك ، فلقد صيغت فى عبارة طيبة صادقة : « أيتها السيدة الحسناء » انها يا عزيزتى أحجية لطيفة للغاية ، ومن السهل أن أتنبأ بالجنية التى أحضرتها ، فما من أحد سواك يا « اما » قادر على كتابة شىء لطيف كهذا » .

وطأطأت « اما » رأسها وابتسمت وفكر أبوها هنيهة ثم تنهد فى حنان واستطرد يقول :

« لقد كانت أمك العزيزة ماهرة فى كل هذه الأشياء ، ليتنى كان لى

ولو ذاكرتها القوية !! فأنا لا أتذكر شيئا حتى ولا تلك الأحجية التى سمعتينى أذكرها ، ولا أتذكر منها سوى المقطوعة الأولى ، مع أن لهـا مقطوعات عديدة .

كيتى الجميلة مثلجة ولهيبها كم أتقيه
ولقد طلبت مساعدة من خادع لا أرتجيه
وغدوت أخشى قربه وبكل روحى أتقيه
اذ كان قبلا مفسدا لخطبتى ، فالشر فيه

هذا كل ما أتذكره منها ، ولكنها كلها مليئة بعبارات ماهرة ، ولكننى أذكر يا عزيزتى أنى قلت أنك حصلت عليها » .

« نعم يا والدى وهى مدونة فى صفحتنا الثانية ، وقد نقلناها عن المقتطفات المستملحة » من وضع جاريك » كما تعلم » .

« أجل ، هذا صحيح ، وبودى لو كنت قادرا على أن أتذكر الكثير منها » .

« كتى الجميلة مثلجة » .

ان هذا الاسم يذكرنى « بايزابلا » المسكينة ، فلقد كانت على وشك أن يطلق عليها اسم « كاترين » تيمنا باسم جدتها ، وآمل أن تكون معنا فى الأسبوع القادم ، فهل فكرت يا عزيزتى أين تكون اقامتها ، وفى أية حجرة سينام الأطفال ؟ .

« أجل ، ستكون فى حجرتها طبعا ، وهى الحجرة المخصصة لها دائما وهناك حجرة الحضانة ، وهى للأطفال كما هى العادة ، ثم لماذا يكون هناك أى تغيير ؟ » .

« لست أدرى يا عزيزتى ، ولكنها لم تأت هنا منذ فترة طويلة ، منذ عيد الميلاد الماضى ، حيث قضت معنا أياما قليلة ، وان اشتغال مستر « جون نيتلى » بالمحاماة يسبب تعبا كبيرا لها ، كم هى مسكينة « ايزابلا » !! .

اننا جميعا نشعر بالألم لبعدها عنا ، ثم ما أشد حزنها عندما تأتى ولا ترى « مس تيلور » هنا » .

« سوف لا تدهش لذلك يا والدى أبدا » .

« لست واثقا من ذلك يا عزيزتى ، وأؤكد لك أنى كنت مشدوها لما سمعت لأول مرة بأنها ستتزوج » .

لابد من دعوة « مستر وستن » و « ومسز وستن » لتناول العشاء معنا عندما تكون « ايزابلا » هنا » .

« نعم يا عزيزتى ، ان كان هناك متسع من الوقت (قالها بصوت فيه حسرة) : انها ستأتى لتقيم معنا أسبوعا واحدا لا أكثر ولن يكون هناك وقت لنعمل شيئا » .

« من سوء الحظ ألا يمكثوا طويلا ، ولكنها الضرورة التى قضت بذلك ، اذ لابد لمستر « چون نيتلى » من أن يعود الى المدينة فى الثامن والعشرين ، ويجب أن نحمد الله يا والدى مع ذلك على أن كل ما لديهم من وقت يقضونه فى الريف سيكون مخصصا لنا ، وأنهم لن يقتطعوا يومين أو ثلاثة ليقضوها فى الرهبانية ، وقد وعد « مستر نيتلى » بالتنحى عن حقه عليهم فى عيد الميلاد هذا ، على الرغم من أن بعدهم عنه كان أطول من بعدهم عنا » .

« انه ليكون أمرا شاقا جـدا يا عزيزتى لو أن « ايزابلا » المسكينة ذهبت الى أى مكان غير هارتفيلد » .

ذلك أن « مستر وودهاوس » لم يكن يعترف لمستر « نيتلى » بأى حقوق على نحو أخيه ، أو بأى حقوق لأحد على « ايزابلا » الا أن تكون الحقوق له هو وحده ، وجلس وهو يفكر فترة قصيرة ثم قال :

« ولكنى لا أرى لماذا تكون « ايزابلا » المسكينة مضطرة الى العودة

بهذه السرعة رغم أنه هو مضطر الى هذا ، ومن رأيي يا « اما » أن أحاول أن أزين لها البقاء معنا وقتا أطول ، فقد ترتاح هي والأطفال اذا أطالوا بقاءهم عندنا » .

« ان هذا يا والدي هو ما عجزت دائما عن تحقيقه ، ولا أعتقد أنك سوف تنجح فيه أبدا ، لأن « ايزابلا » لا تحتمل التخلف عن زوجها » .

وكانت هذه حقيقة لا جدال فيها ، ولم يسع مستر وودهاوس الا أن يتنهد عندما لم ير من ذلك بدا ، فلما رأت « اما » أن فكرة تعلق «ايزابلا» بزوجها قد أثرت في نفسيته ، عمدت في الحال الى تحويل مجرى الحديث وجهة أخرى قد ترفع من حيويته فقالت :

« لابد أن « هاريت » ستقيم معنا على قدر استطاعتها عندما تكون أختي وزوجها هنا وأعتقد أنها ستجد في الأطفال كل ما يسرها . اننا فخورون بالأطفال يا والدي أليس كذلك » ولست أدري أيهما ستراه « هاريت » أكثر جمالا ، « هنري » أم « چون » ؟ » .

« نعم لست أدري من ستحكم عليه بأنه أكثر جمالا ، ما أكثر فرحة الأعزاء الصغار بالمجيء ، انهما مغرمان جدا بالحضور الى هارتفيلد يا « هاريت » .

« انهما كما تقول يا سيدي ، ومن ذا الذي لا يحب المجيء اليها » .

« ان « هنري » ولد لطيف ، ولكن « چون » أشبه بأمه كثيرا وهنري أكبرهما سنا ، وقد سمي باسمي وليس باسم أبيه . أما « چون » وهو ثانيهما ، فقد سمي باسم والده وأعتقد أن البعض استولت عليهم الدهشة عندما رأوا أن الأكبر لا يسمى باسم أبيه ، ولكن « ايزابلا » أرادت أن تمنحه اسم « هنري » فكان ذلك جميلا جدا منها وهو ولا شك ولد على جانب كبير من الذكاء ، على أن كليهما مع ذلك ذكي بشكل ملحوظ ، ولهما

نزعات كثيرة لطيفة ، فهما يأتيان ويقفان بجوار مقعدى ويقولان : « هل تعطينا يا جدى قطعة من الخيط ؟ . وقد طلب منى « هنرى » مرة أن أعطيه سكينا ، ولكنى أخبرته بأن السكاكين انما صنعت للأجداد وأظن أن أباهما يقسو عليهما فى معظم الأوقات » .

وقالت « اما » : « انه يبدو لك قاسيا عليهما ، لأنك مفرط فى رقة طبعك ، ولكنك لو قارنته بغيره من الآباء فلن تجده قاسيا . انه يريد من أولاده نشاطا وخشونة ، فاذا انحرفوا ، قال لهم قولا لاذعا من وقت الى آخر ، ولكنه مع ذلك والد محب ، نعم ، ان مستر « چون نيتلى » والد عطوف ولا شك ، والأطفال جميعاً يحبونه » .

ثم يدخل عمهما ويطوح بهما عاليا نحو السقف بطريقة تثير الفزع » .

« ولكنهما يا والدى يحبان ذلك ، وليس هناك ما هو أحب اليهما من هذا ، وانهما ليجدان فى هذا كل متعة ولولا أن عمهما وضع لهما قاعدة بحيث يأخذ كل منهما دوره ، لما تخلى البادىء بدوره عن مكانه للآخر اطلاقا » .

« على أية حال ، اننى لا ستطيع أن أدرك لذلك معنى » .

« هذا هو حالنا جميعا يا والدى ، ان نصف الناس لا يفهمون ما يسعد النصف الآخر » .

فلما تقدم النهار ، وكانت الفتاتان على وشك أن تفترقا استعدادا لوجبة الغذاء العادية فى الساعة الرابعة بعد ظهر كل يوم ، اذا ببطل الأحجية الفريدة يدخل عليهما . وأستدارت « هاريت » فى مكانها . أما « اما » فقد استقبلته بابتسامتها المألوفة وهى تلاحظ بنظراتها الخاطفة ما تنبىء به عيناه من أنه قد أقدم على شىء ، وأنه قد ألقى بزهر النرد ، وتخيلت وقتها أنه انما أتى ليرى ماذا كانت نتيجة ما أقدم عليه ، أما هو فقد تظاهر بأنه انما أتى ليسأل

عما اذا كان يمكنه التخلف عن الحضور الى حفل مستر وودهاوس ، أو أن هناك ثمة ضرورة لوجوده فى « هارتفيلد » ، فأن كان هذا فلا يسعه الا الموافقة والتخلى عن كل ما عداه فى سبيل حضوره ، فاذا لم يكن هذا ، فأن مستر « كول » قد ألح عليه ليتناول الغذاء معه وأنه وعده بالحضور وعدا مشروطا » .

وشكرته « اما » وهى تقول انها لا يمكن أن تسمح لنفسها بأن تخيب رجاء صديقة من أجل حفلهم ، وأن هناك من لاعبى الورق ما يكفى حاجة أبيها فى الأمسية . وعاد يلح وعادت ترفض ، وكان بعد ذلك على وشك التحية والانصراف عندما أخذت الورقة من فوق المائدة وأعادتها اليه وهى تقول :

« ها هى الأحجية التى تفضلت بتركها معنا ، وشكرا لك على السماح لنا برؤيتها ، لقد أعجبنا بها كل الاعجاب ، حتى لقد جرؤت على تدوينها ضمن ما تقوم مس « سمث » بجمعه ، وأرجو ألا يأخذ صديقك هذا علينا ويظنه خرقا منا . وبالطبع لم أدون أكثر من الثمانية أسطر الأولى » .

ولم يدر « مستر التن » ماذا يقول ، ونظر اليها نظرة ما بين الشك والارتباك ، ثم قال شيئا عن الشرف ، وعاد ينظر الى كل من « اما » و « هاريت » ثم وقع نظره على المجلد ورآه مفتوحا أمامه ، فرفعه وأخذ يفحصه بامعان . ورأت « اما » أن تتحاشى هذه اللحظة الحرجة ، فابتسمت وقالت : « اعتذر لصديقك نيابة عنى ولكن أحجية جميلة كهذه لا يجوز أن يختص بها واحد أو اثنان من الناس ، وليتأكد أنه ما دام يكتب بهذه الشهامة فسوف يلقى قبولا عند جميع النساء » .

وأجابها « مستر التن » : « لن أتردد فى أن أقول (قالها فى كثير من التردد) ، وخاصة اذا كان صديقى يشعر بمثل ما أشعر به ، فى اننى

لا يخامرنى أدنى شك فى أنه لو علم بأن قصيدته القصيرة قد نالت هـذا الشرف الذى أراه (ونظر الى المجلد مرة أخرى ثم أعاده فوق المائدة) ، فانه لابد أن يعتبر ذلك اللحظة الخالدة التى يحق له أن يتيه بهـا فخارا طول حياته » .

وما كاد ينتهى من الكلام ، حتى بارح المكان مسرعا ، ولم تستطع « اما » أن تستوعب ما قاله على الفور لأنه رغم ما كان له من حميـد الخصال ، كان يتكلم بطريقة استعراضية كادت تثير فى نفس « اما » ميلا شديدا الى الضحك ، فجرت كى تفرج عن نفسها بالضـحك ، وتركت « هاريت » لتنعم بأزكى وأعلى درجات السرور .

الفصل العاشر

لم تكن حالة الطقس بعد لتمنع الفتاتين من الرياضة بانتظام رغم أن شهر ديسمبر كان قد انتصف . وأرادت « اما » أن تخرج فى الصباح لتقوم بزيارة خيرية لأسرة فقيرة تعانى من المرض ، وتعيش على مسافة قصيرة وراء مشارف « هايبرى » . وكان الطريق الى كوخ تلك الأسرة المنعزل فى آخر منعطف الأبرشية ، وهو منعطف يخرج متعامدا من الطريق الرئيسى العريض كثير المنحنيات . ومن هذا نستنتج أن منزل مستر « التن » المبارك يقع فى ذلك المنعطف . وكان عليهما أن تمرا فى بداية المنعطف على عدد من المساكن المتواضعة ، ثم تسيرا مسافة تقرب من ربع الميل قبل أن تريا مسكن راعى الأبرشية قائما ، وهو منزل قديم وليس على درجة كبيرة من الجمال ، وأقرب ما يكون على الطريق نفسه ، ولم يكن لموقعه ميزة تميزه وان كان مالكه الحالى قد جدده وزخرفه كثيرا ، وفى ظرف كهذا لم يكن بوسع الصديقتين الا أن تتمهلا فى مشيتهما وأن تتطلعا الى المنزل بعين فاحصة . وأبدت « اما » ملاحظة .

قالت :

« ها هو وستذهبين يوما ما بمجلد الأحاجى اليه » .

وردت « هاريت » : « ما أحسنه منزلا !! وما أجمله !! وها هى الستائر الزرقاء التى تعجب بها « مس ناش » كثيرا » .

وقالت « اما » : « انى لا أسلك هذا الطريق كثيرا فى هذه الأيام ، ولكنى سأجد بعد اليوم ما يغرينى على أن أسلكه كثيرا ، وسوف أعرف

تدريجا كل السياجات والبوابات والمناقع ، والأشجار التى اجتثت أغصانها فى هذا القطاع من « هايبرى » .

واكتشفت « اما » أن « هاريت » لم يسبق لها أن دخلت مسكن راعى الأبرشية ، وأنها كانت تتوق كثيراً الى معرفته من الداخل ، وفكرت فيما كان يبدو عليها من لهفة على ذلك ، واتخذت من هذه اللهفة برهانا جديدا على الحب أضافته الى ما كان يراه « مستر التن » فى « هاريت » من سرعة البديهة قالت :

« وددت لو أننا وجدنا طريقة للدخول ، ولكننى لا أجد فى ذهنى عذرا مقبولا لذلك ، وليس هناك خادم أسأله عمن تكون مديرة البيت ، كذلك ليست معى رسالة من أبى اتخذها ذريعة » .

وجعلت تفكر دون أن تهتدى الى شىء ، ومضت دقائق قليلة والسكون يخيم عليهما ، ثم بدأت « هاريت » الحديث مرة أخرى .

« ان من بواعث دهشتى يا « مس وودهاوس » أنك تعافين الزواج وتعرضين عنه وأنت بهذه الجاذبية » .

وضحكت « اما » وقالت ترد عليها :

« ان كونى جذابة يا « هاريت » لا يكفى لأن يغرينى على الزواج ، اذ لابد أن أجد جاذبية فى الآخرين كذلك أو فى واحد آخر على الأقل . اننى لا أرفض الزواج فى الوقت الحاضر فحسب ، بل لا تراودنى رغبة فى أن أتزوج اطلاقا » .

« هذا ما تقولينه ، ولكن هذا ما يصعب على تصديقه » .

« لن يغرينى على الزواج الا أن أرى شخصا يتفوق على أى رجل ممن سبقت لى معرفتهم . ان « مستر التن » (وقد عادت تستجمع نفسها) خارج نطاق البحث ، ثم اننى لا أود أن أرى شخصا تتوافر فيه هذه الصفات ،

وأفضل ألا يوجد من يمكنه اغرائى ، اذ لن يكون وضعى بأحسن مما أنا عليه ، ولو أنه قدر لى أن أتزوج فلا بد أنى سأندم على ذلك » .

« غريب !! انه شيء غريب أن أسمع مثل هذا الكلام من سيدة » .

« لست أجد فى نفسى ما يغرينى على الزواج مما يغرى سائر النساء . نعم قد يتغير الوضع اذا أنا أحببت ، ولكنى لم أحب قبل الآن اطلاقا . فالحب ليس مزاجى ولا هو طبيعتى . ولست أظن أننى سأحب يوما . بل أعتقد أننى أكون معتوهة لو أننى غيرت وضعى الحالى دون أن أحب ، فلست فى حاجة الى المال ، ولا الى العمل ، ولا الى الشهرة ، وأعتقد أن عددا قليلا من المتزوجات من لهن فى بيوت أزواجهن مثل ما لى فى « هارتفيلد » من سلطة فى المنزل ، ولن أنتظر أن ألقى من أى رجل ما ألقاه فى بيت أبى من الاهتمام والرعاية والصدارة والايمان بأن كل ما أقوله هو الصواب » .

« ولكنك ستصبحين بذلك آخر الأمر عانسا مثل « مس بيتس » .

« ان الصورة كما تعرضينها يا « هاريت » رهيبة ، ولو فكرت فى أنى سأكون يوما ما مثل مس « بيتس » فى سذاجتها ، واستسلامها ، وابتسامتها، وطريقة كلامها ، وعدم قدرتها على التمييز بين الأشياء ، وتزمتها ، وسرد كل شيء يتصل بمن حولها ، لتزوجت غدا ، ولكنى أسر بأنى واثقة بأنه ليس بينى وبينها شبه واحد الا أن كلينا غير متزوج » .

« ولكنك مع هذا ستكونين عانسا ، وهذا شيء رهيب » .

« لا عليك من هذا يا « هاريت » فلن أكون عانسا فقيرة ، لأن الفقر وحده هو الذى يجعل العزوبة فى عيون الناس شيئا محتقرا ، فالسيدة العزبة ذات المورد الضئيل تكون عانسا ممقوتة تبعث على السخرية ، وتكون ألعوبة البنات والصبية ، ولكن غير المتزوجة اذا كانت ثرية ، تكون دائما

موقرة . وليس فى هذا التميز حطٌ من وفاء الناس ، أو من حسن ادراكهم كما يبدو لأول وهلة ، انما المورد الضئيل أدنى الى أن يكون سببا فى قصر العقل وسوء الطباع . وأولئك الذين يعيشون على الكفاف ، والذين قد يضطرون الى العيش وسط جماعة قليلة العدد وعادة ذات مستوى متواضع، قد يقصر ادراكهم ، وتكثر همومهم . على أن هذا لا ينطبق على « مس بيتس » . وكل ما لا يروقنى فيها أنها أطيب قلبا وأكثر سذاجة مما يتفق وطبيعتى ، أما بالنسبة للناس عامة ، فهى تتفق مع مشاربهم على الرغم من فقرها وعدم زواجها . فمما لا شك فيه أن الفقر لم يضيق من عقليتها ، وأنا واثقة بأنه لو كان لها من حطام الدنيا شلن واحد ، فلن يبعد عليها أن تضحى بنصفه ، ثم ما من أحد يخشى منها سوءا ، وهذا شىء يجذب قلوب الناس اليهـا » .

« عجبى !! ولكن ماذا عسى أن تفعلى ؟ وما الذى ستشغلين به نفسك عندما تتقدم بك السن ؟ » .

« لو كانت نفسى كما أعرفها يا « هاريت » فأن لى عقلا نشيطا ودؤوبا على التفكير ، كما أن لى موارد كثيرة أعتمد عليها ، ولست أرى لماذا أحتاج الى عمل وأنا فى الأربعين أو الخمسين ، أكثر مما أحتاج اليه وأنا فى الواحدة والعشرين ، وان ما تؤديه المرأة من أعمال يدوية أو نظرية أو عقلية ، سيكون بوسعى أداؤه وقتئذ على نحو ما أؤديه الآن ، أو مع اختلاف يسير . فاذا أنا قللت من الرسم سأكثر من القراءة ، واذا أنا تخليت عن الموسيقى ، سأحب صناعة السجاد . أما النواحى التى تستهوى النفوس ، والمسائل العاطفية التى تولد عقدة نقص وتؤدى الى شر يعمل الجميع على تجنبه اذا لم يتزوجوا ، فأنى سوف أكون سعيدة بوجودى مع أطفال شقيقتى الذين أحب كل الحب أن أرعاهم ، وهم قد يزدادون عددا حتى يهيئوا لى

كل ما قد تتوق اليه نفسى فى خريف الحياة ، وسوف أجد فيهم الكفاية من الآمال والمخاوف . وعلى الرغم من أنه لن يكون حبى لأحدهم كحب الأم لابنها ، فان هذا يتفق وما أنشده من راحة وأفضل عندى من عاطفة أكثر حرارة ولكنها أقل تبصرا . أهلا بأبناء وبنات أختى !! ولسوف يكون معى فى معظم الأحيان واحدة على الأقل من بنات أختى » .

« أتعرفين ابنة أخت « مس بيتس » ؟ لابد أنك شاهدتيها مائة مرة ، ولكن هل لك بها صداقة ؟ » .

« أجل ، ونحن دائما نجد أنفسنا مضطرين الى التعارف كلما جاءت الى « هايبرى » ، ولا يفوتنى أن أذكر بهذه المناسبة ، أنها بالذات تكفى لأن تجعل الانسان يتخلى عن كل غرور يساوره عن أبنة الأخت ، اللهم احفظنى من أن أضايق الناس بالتحدث عن أطفال « مستر نيتلى » نصف ما تضايقهم به « مس بيتس » بالحديث عن « چين فيرفاكس » . فلقد سئمت حتى ذكر اسم « چين فيرفاكس » . اذ كل خطاب يصل منها يقرأ أربعين مرة ، وتحياتها وسلاماتها الى الأصدقاء تبلغ اليهم المرة بعد المرة ، وان هى أرسلت لخالتها أنموذجا لميدعة (مريلة) أو نسجت رباطا لجورب جدتها ، فأنك لا تسمعين طيلة الشهر الا الحديث عن ذلك . انى أرجو « لچين فيرفاكس » كل خير ، ولكنها ترهقنى حتى توشك أن تخمد أنفاسى » .

وكانا قد اقتربا فى ذلك الوقت من الكوخ ، فعدلا عما تلهوان به من حديث تافه . لقد كانت « اما » عطوفة للغاية ، تولى الفقراء الرعاية ، وتشملهم بحنانها ، وتسدى اليهم النصح ، وتجود عليهم بمالها ، وتفسح لهم صدرها ، كانت عليمة بأحوالهم ، متغاضية عن جهلهم وغواياتهم ، ولا تنتظر ممن لم يفدهم التعليم كثيرا أن يتصفوا بأعلى مراتب الأحاسيس

العاطفية ، تنفذ الى صميم متاعبهم مدفوعة الى ذلك بروح التعاطف ، وتقدم لهم العون عن حكمة وطيب خاطر ، ومن ثم فقد قامت بزيارتها لهذه الأسرة التى انتابها المرض تدفعهــا الرغبة فى مواجهة المرض والفقــر مجتمعين . وبعد أن مكثت هناك وقتا يتيح لها التخفيف من متاعب هذه الأسرة ويسمح لها بأسداء النصيحة ، غادرت الكوخ وقد ترك المنظر فى نفسها أثرا جعلها تقول لهاريت وهما تسيران .

« تلك هى المناظر التى يستفيد منها الانســان يا « هاريت » ، وكل ما عداها يعد شيئا تافها . انى أشعر الآن وكأنى لن أقوى على التفكير فى غير هؤلاء البؤساء حتى آخر النهار ، ومع ذلك فمن ذا الذى يستطيع أن يقول متى يمحى أثر ما رأيت من فكرى ؟ » .

وردت « هاريت » : « ما أصدق ما تقولين ، وما أبأسهم من مخلوقات، ان المرء لا يسعه الا أن يفكر فيهم » .

واستطردت « اما » تقول وهى تتخطى السياج المنخفض وتمر فوق الطريق المتأرجح الذى ينتهى عند آخر الممر المنحدر الضيق عبر حديقــة الكوخ حتى وصل بهما الى المنعطف ثانية :

« الحق أنى لا أظن أن هذا الأثر سيمحى سريعا ، بل أغلب ظنى أنه لن يمحى أبدا » . ثم توقفت لتلقى نظرة أخرى على مظاهر البؤس التى تخيم على المكان من الخارج وتستعيد ما رأته بداخله مما هو أمرّ وأدهى .

وقالت رفيقتها : « لا ، لا يا عزيزتى » .

وواصلتا السير ، وانحنى المنعطف بهما قليلا ، ثم سارتا حتى اجتازتا هذه الانحناءة ، فاذا بهما تريان « مستر التن » فجأة ، وكان قريبا منهما بحيث لم يسمح قربة لاما بأكثر من أن تقول :

« ها نحن وجها لوجه أمام اختبار عسير لسلامة تفكيرنا يا « هاريت »،

ثم استطردت تقول وهى تبتسم : « أجل ، وآمل أن تقرينى على أن العطف اذا جلب راحة للبؤســاء وطــرح عن كواهلهم الألم ، فقد أتى ولا ريب بكل ما له قيمة فى الحياة ، وأننا اذا شعرنا نحو التعساء بقــدر كاف من العطف يحملنا على بذل كل ما فى وسعنا من أجلهم ، فان ما يتبقى بعــد ذلك لا يعدو أن يكون حنانا أجوف لن يلحقنا منه الا الألم » .

ولم تكد « هاريت » تجيب بقولها : « أجل يا عزيزتى » حتى كان الرجل معهما . وكان أول موضوع تناولوه بالحديث عند المقابلة مطالب هذه الأسرة البائسة ومتاعبها . فلقد كان فى طريقه الى زيارتها ، ولكنه رأى الآن أن يرجىء هذه الزيارة ومع ذلك فقد تناول حديثهم بحثا شيقا عما يمكن عمله وما يجب عمله من أجلها ، ثم اذا بمستر « التن » يستدير ليسير معهما .

وقالت « اما » فى نفسها ، انه لشىء يزيد من حبهما لبعضهما أن يتلاقيا فى مثل هذه المهمة وفى مشروع خيرى كهذا ، ولن أدهش اذا أدى ذلك الى اعلان خطبتهما ، بل لولا أننى هنا ، لكان اعلانها واقعا لا محالة . كم كنت أود أن أكون الآن فى جهة أخرى » .

ورغبة منها فى الابتعاد عنهما ما وسعها البعد ، لم تلبث أن انحرفت بنفسها فى طريق ضيق يعلو قليلا على أحد جانبى المنعطف وتركتهما يسيران سويا فى الطريق العام . ولكنها ما كادت تبتعد عنهما دقيقتين حتى وجدت « هاريت » بحكم ما اعتادته من محاكاة وعدم اعتماد على النفس تصعد لتكون معها ، وأنهما عما قليل سيكونان فى اثرها . وما كان ذلك بالشىء الذى ترتضيه نفسها ، فتوقفت فورا عن المسير بحجة عمل بعض التغيير فى رباط حذائها ، وانحنت حتى سدت الطريق عليهما ثم رجتهمــا بأن يتكرما بمواصلة السير ، على أن تتبعهما بعد نصف دقيقة . وفعــلا كما

طلبت اليهما . فلما انقضى الوقت الذى قدرت أنه يكفى عقلا لاصلاح ما طرأ على حذائها ، ارتاحت لأنها وجدت فرصة لمزيد من التأخير ، اذ أبصرت طفلة تلحق بها آتية من الكوخ ، اطاعة لأمرها ، وهى تحمل قدرا لتجلب فيه بعض الحساء من « هارتفيلد » .

وكان من الطبيعى جدا ، أو هو ما كان يجب أن يكون طبيعيا ، أن تسير مع هذه الطفلة جنبا الى جنب ، وأن تتبادل معها الحديث ، وتوجه اليها الأسئلة ، لولا أنها كانت وقتئذ تسير على غير خطة مرسومة . وبهذه الوسيلة كان للآخرين العذر فى أن يتقدما ، دون أن يكون ثمة ما يضطرهما الى الانتظار ، ولكنها لحقت بهما مع ذلك على غير ارادتها ، فقد كانت خطى الطفلة سريعة ، بينما كان الآخران يتهاديان فى سيرهما .

وقد لاحظت أنهما يتحدثان حديثا شيقا مما زاد من اهتمامها . كان « مستر التن » يتكلم بحماس ، و « هاريت » تنصت اليه مسرورة ، كلها آذان واعية . وطلبت « اما » من الطفلة أن تواصل سيرها وتسبقها ، ثم أخذت تفكر فى كيف تتخلف قليلا ، واذا بهما يلتفتان خلفهما ، فاضطرت الى اللحاق بهما .

وكان « مستر التن » لا يزال يتحدث ومنهمكا فى تفاصيل شيقة ، غير أن « اما » شعرت بخيبة عندما وجدت أن حديثه مع رفيقته الحسناء لم يكن الا وصفا للحفل الذى أقيم بالأمس فى بيت صديقه « كول » ، وأنها لم تلحق بهما الا لتسمع الحديث عن « جبن ستلتن » ، ولحم الخنزير المقدد من « ولتشير الشمالية » ، والزبد والخضر والبنجر ، وكل أصناف الحلوى.

وقالت فى نفسها لكى يطمئن خاطرها : « لا شك أن هذا سيؤدى فورا الى ما هو أحسن ، فان كل ما يدور بين المحبين لذيذ ، وقد يكون ذلك مقدمة لما هو أقرب الى القلب . ليتنى كنت بعدت عنهما فترة أطول » .

وساروا ثلاثتهم معا وهم لا يتحدثون ، حتى بدا لهم سور بيت راعى الابرشية ، فاذا « باما » قد صحت عزيمتها فجأة على أنه ليس أقل من أن تدخل « هاريت » البيت ، ودفعها ذلك الى أن تدعى مرة أخرى أن شيئا ما قد حدث لحذائها ولا بد من اصلاحه ، وفى براعة تلقى بجزء من رباطه فى حفرة ، راجية اليهما التوقف ليريا عجزها عن اصلاح هذا التلف ، حتى تتمكن بذلك من السير الى بيتها فى غير عناء ، واستدارت لتقول :

« لقد ضاع جزء من رباط حذائى ، ولست أدرى كيف أتصرف ، انى لأشعر حقيقة بأننى رفيقة متعبة ، وان كنت أرجو ألا يظن بى أننى أستعمل دائما أصنافا رديئة أرجو يا « مستر التن » أن تأذن لى بالوقوف عند باب داركم لأسأل مديرة البيت عن قطعة من الشريط أو الخيط أو أى شىء آخر حتى أتمكن من الاحتفاظ بحذائى فوق قدمى » .

وبدا « مستر التن » وقد غمره السرور بسبب هذا العرض ، وما كان لأحد أن يدانيه فى سرعة استجابته ، ورغبته فى أن يدخلها منزله ، وبذل كل ما فى وسعه لكى يجعل كل شىء يبدو كما ينبغى .

وكانت الحجرة التى دخلوها حجرته الخاصة ، وكانت الى خلفها حجرة أخرى تتصل بها مباشرة والباب الذى يصل بينهما مفتوحا . ودخلت « اما » من هذا الباب ومعها مديرة البيت لتقدم لها المساعدة وتعمل على راحتها ، ووجدت « اما » نفسها مضطرة الى ترك الباب مفتوحا كما وجدته وكان بودها لو أن مستر « التن » قد أغلقه وراءها ، ولكنه لم يفعل ، وهكذا ظل الباب بين الحجرتين مفتوحا . وشغلت « اما » مديرة البيت فى حديث متواصل أملا فى أن تتيح لمستر « التن » أن يختار لنفسه الموضوع الذى يرى التحدث فيه مع هاريت ، فى الحجرة المجاورة ، ومضت عشر دقائق وهى لا تسمع الا نفسها ، فقررت ألا يطول الوقت على هذا النحو ، فانتهت

من اصلاح حذائها وعادت مرة آخرى الى حيث يوجد « التن » و «هاريت»

كان الحبيبان يقفان معا بجوار احدى النوافذ ، وكانت النافذة تطل على منظر من أبهى المناظر وأنسبها . ولبثت « اما » نصف دقيقة وهى تحس بالفخر ، فقد دبرت شيئا ونجحت فيه ، ولكنها مع ذلك لم تقنع بذلك فهو لم يصل بعد الى الحد المطلوب .

لقد كان أكثر ما يكون رقة وبهجة ، حتى لقد اعترف لهاريت بأنه رآهما وهما يسيران ، وأنه اقتفى أثرهما عمدا ، وبدت منه ايماءات وعبارات طفيفة تنبىء عن حبه لها ، أما فيما عدا ذلك فلم يصدر منه شيء جدى .

وقالت « اما » فى نفسها : « انه حريص ، وحريص جدا ، انه لا يتقدم قيد أنملة ، ولا يجازف بشيء حتى يتأكد من أنه فى مأمن » .

وعلى الرغم من أن خطتها المحكمة لم تأت بنتيجة حاسمة فقد كانت تغالط نفسها بأن ما قامت به كان فرصة فيها متعة كبيرة لكليهما ، لابد أنها ستصل بهما الى الحدث العظيم .

الفصل الحادى عشر

كان لابد أن يترك « مستر التن » الآن وشأنه ، اذ لم يعد فى وسع « اما » أن تنظم له شئون سعادته ، أو تحمله على الاسراع فى اجراءاته لقد أضحى مجىء عائلة أختها اليهم وشيكا ، وكان مجيئها أول الأمر أمــلا مرتقبا ، ولكنه أصبح بعد ذلك حقيقة متوقعة ، مما سوف يسترعى اهتمامها قبل أى شىء آخر .

ولم يكن أحد لينتظر منها فى العشرة الأيام التى تقضيها أسرة أختها فى « هارتفيلد » ، ولا «اما» نفسها ، أن تقوم بمساعدة المحبين ، الا ما ندر فى مساعدات عابرة وسريعة . وقد يقطع المحبان شوطا بعيدا وسريعا لو أنهما أرادا ذلك ، فان لم يريداه فهما لابد متقدمان بعض الشىء سواء حاولا أو لم يحاولا .

وما كانت « اما » فى قرارة نفسها تود التفرغ لهما ، فأن من الناس من اذا أفرطت فى مساعدتهم ، قل ما يبذلونه من جهد نحو أنفسهم .

ولما كان مستر « چون نيتلى » وعقيلته قد طال غيابهما عن « سرى » هذه المرة أكثر مما اعتادا ، فقد أثار حضورهما بطبيعة الحال اهتماما أكثر من ذى قبل . لقد كانا يقتسمان كل عطلة لهما حتى هذا العام ، منذ زواجهما ، بين « هارتفيلد » و « رهبانيــة دونول » ولكنهما آثرا هــذه المرة أن يخصصا عطلة الخريف بأكملها للأطفال يقضونها فى الاستحمام فى البحر ، فانقضت بذلك شهور عديدة دون أن يراهم أقاربهم بصفة منتظمــة فى « سرى » ، بل ان « مستر وودهاوس » لم يرهم اطلاقا طوال هذه المدة .

فلم يكن من الميسور اغراؤه على الذهاب الى مكان بعيد مثل لندن حتى ولو كان هذا من أجل « ايزابلا » المسكينة ، ومن ثم فقد شعر الآن بمنتهى الغبطة المقرونة بالقلق وهو فى انتظار هذه الزيارة القصيرة ، وكان دائب الفكر فيما قد تسببه الرحلة لها من متاعب ولم يكن أقل تفكيرا فيما سوف تلاقيه خيوله وحوذيه من المتاعب ، من جراء حمل بعض أفراد الجماعة فى الرحلة الأخيرة من سفرهم .

وما كان ينبغى له أن يجزع ، فقد قطعوا الستة عشر ميلا الأخيرة وهم فى غبطة ، ووصل مستر « چون نيتلى » وعقيلته وأطفالهما الخمسة وعدد من المربيات الى « هارتفيلد » بسلام .

ولقد كان لمجيئهم وما استتبع وصولهم من ضجيج ، ومن فرحة بسلامة الوصول ، ومن حضور الكثير من الوافدين على البيت ، وما اقتضاه ذلك من ضرورة الحديث اليهم والترحيب بهم ، والتخلص منهم ، أثره فى حياة « هارتفيلد » بما كان ينطوى عليه كل ذلك من صخب وارتباك مما لم يكن لأعصابه طاقة على احتماله لأى سبب آخر ، بل وما كانت لتحتمله طويلا حتى لهذا السبب نفسه .

على أن العادات المرعية فى هارتفيلد ، ومشاعر « مستر وودهاوس » كانت دائما موضع احترام مسز « چون نيتلى » ، ولذلك وعلى الرغم من حرص الأم على توفير أسباب المتعة لصغارها ، وأن تكون لهم كامل الحرية والرعاية ، وأن يكون لهم كلما أرادوا ، كل ما يحتاجون اليه من الطعام والشراب والنوم واللعب ، فى الحال ودون أدنى تأخير ، فانها لم تكن لتسمح للأطفال اطلاقا بأن يكونوا مصدر ازعاج لأبيها ، لا من ناحية أشخاصهم ولا من ناحية رعايتهم والقيام على شئونهم .

فلقد كانت مسز « چون نيتلى » جذابة ، رشيقة ، هادئة الطباع ،

رقيقة ، وكانت حميدة الخصال محببة الى النفوس ، تتفانى فى خـدمة أسرتها . فهى زوجة وفية ، وأم مولعة بحب أبنائها . بقدر ما كان بينها وبين أبيها وأختها من حنان وعطف ، وهى كلها روابط متينة لم تدع مكانا لمزيد من المحبة والتعاطف ، ولم تترك لها فرصة لترى فى أحد منهم عيبا . ولم تكن من ناحية أخرى سيدة واسعة الادراك أو سريعة الفهم ، فقد كانت فى كل ذلك على شاكلة أبيها ، بقدر ما ورثت منه الكثير من صفاته الجسمانية. كان بنيانها رقيقا ، وكانت حريصة على أن يتوفر فى أبنائها ما افتقدته فى نفسها من عامل الصحة ، وكانت كذلك كثيرة المخاوف متوترة الأعصاب ، وتعجب بمستر « ونج فيلد » اعجاب والدها بمستر « پرى » . كذلك تشابها فى شعورهما بالحنان والعطف على الناس كافة ، وفى تقدير معارفهما القدامى جميعا .

أما مستر « چون نيتلى » فقد كان رجلا فارع الطول ، مظهره يدل على أنه من السادة ، وكان ذكيا للغاية ، ناجحا فى مهنته ، محبا لبيته ، مبجلا فى حياته الخاصة ، ولكنه كان متحفظا حريصا فيما يقول أو يفعل ، مما نفر الناس منه أحيانا وجعله يشعر بكآبة أحيانا أخرى على أنه لم يكن مع ذلك حاد الطباع ولا ميالا الى مخاصمة الناس بالقدر الذى يعرضه للومهم، ومع ذلك فان طبعه لم يكن أقوى جوانبه ، وان كان من الصعب ، وقد نعم بزوجة كهذه تكاد تعبده وتقدسه ، ألا تزداد عيوبه الطبيعية أمام ما جلبت عليه زوجته من هدوء وسماحة كان لابد أن تحزا فى نفسه .

لقد كان فيه ما ينقصها من صفاء الذهن وسرعة الادراك ، ولكنه كان أحيانا يأتى عملا بعيدا عن اللياقة ، أو يقول كلاما قاسيا ليس له ما يسوغه، ولم تكن أخت زوجته تألفه كثيرا ، بل ما كان ليخفى عليها شىء من عيوبه ، فقد كانت سريعة الاحساس بما يلحقه بايزابلا أحيانا من أبسط الاساءات

التى لم تكن « ايزابلا » نفسها تشعر بها . وقد كان من الجائز أن تتغاضى حتى عما هو أكثر من ذلك لو أن سلوكه نحوها هى كان أكثر مجاملة باعتبارها أخت زوجته . ولكنه كان فى معاملته لها كالأخ أو الصديق العطوف الرزين ، فلا ثناء ولا اغضاء عن هفواتها ، ومع ذلك فما كان أى مديح لها مهما كانت درجته كافيا ليجعلها تغضى عن أعظم هفواته جميعا فى نظرها ، تلك هى عجزه عن التسامح المتسم بالتجلة والاحترام نحو أبيها ، فقد كان ينقصه الصبر الذى كانت تود أن تراه فيه . فقد كان يضجر أحيانا بما يصدر من « مستر وودهاوس » من تصرفات غير عادية ، ومن ملل وعدم استقرار ، فكان يعترض عليه أحيانا ، أو يقابله أحيانا أخرى برد عنيف لا يقل عن مسلك مستر وودهاوس عنفا . ومع ذلك فلم يكن هذا بالحديث الذى يتكرر كثيرا ، فقد كان مستر « چون بنتلى » ولا شك يقدر حماه كل التقدير ، ويحس احساسا قويا بواجبه نحوه بوجه عام ، ولكن حدوثه على ندرته ، كان يبدو فى نظر « اما » كثير التكرار ، وساعد على ذلك ما كان ينتابها من ألم بسبب توقعها حدوث خطأ قد لا يحدث اطلاقا . وكان مستر « نيتلى » لا يبدى فى أول كل زيارة من المشاعر الا أحسنها ، ومن ثم فقد كان يرجى وقد اقتضت الضرورة ، أن تكون هذه الزيارة قصيرة ، أن تمر فى وئام ومحبة ، فلا يحدث فى خلالها ما يعكر صفوها ولكنهم ما كادوا يجلسون الى بعضهم عقب حضورهم ، ويهدأون من وعثاء سفرهم ، حتى أخذ « مستر وودهاوس » يهز رأسه فى أسى ويتنهد وهو يلفت نظر ابنته الى التغير الكئيب الذى طرأ على « هارتفيلد » منذ أن كانت هنا آخر مرة ، وأردف يقول : « آه يا عزيزتى !! مسكينة « مس تيلور » ، انها مسألة محزنة » .

وردت « مسز نيتلى » على الفور فى عطف ملموس : « أجل يا سيدى

اذ لابد أنك أنت والعزيزة « اما » متألمان لفراقها ، فما أقسى هذا عليكما !! لقد حزنت من أجلكما ، ولم أستطع أن أتصور كيف يمكنكما العيش بدونها ، انه ولا شك تغيير يبعث على الأسى ، ولكنى أرجو أن تكون سعيدة » .

« سعيدة يا عزيزتى !! نعم أرجو أن تكون كذلك ، وان كنت لا أعلم شيئا سوى أن المكان يوافقها كثيرا » .

وهنا سأل مستر « چون نيتلى » « اما » بصوت هادىء ، عما اذا كانت الحالة فى « راندولز » تثير أى قلق .

« لا ، فليس هناك أقل شىء من هذا ، بل ولم أر « مسز وستن » أحسن مما هى عليه الآن طول حياتى ، ولم تبد فى عينى يوما أصح مما أراها الآن ، ولكن والدى يعبر عما يشعر به هو من الأسف » .

وأجابها بلباقة : « ان فى ذلك ما يشرف كلاهما » .

وسألت « ايزابلا » فى نبرات حزينة صادفت هوى فى نفس أبيها : « وهل ترونها فى معظم الأوقات يا سيدى ؟ » .

وتردد « مستر وودهاوس » ثم قال : « ليس بالكثرة التى كنت أحبها يا عزيزتى » .

« عجبا يا والدى ، اننا لم نحرم من رؤيتها الا يوما واحدا بأكمله منذ أن تزوجا ، ونحن فى الصباح أو فى المساء من كل يوم ، عدا اليوم الذى أشرت اليه ، كنا نرى « مستر وستن » تارة ، و « مسز وستن » تارة أخرى ، وغالبا ما كنا نراهما معا اما فى راندولز ، واما هنا ، وأغلب الأحيان هنا ، كما تتصورين يا « ايزابلا » ، وهما يبديان كثيرا من كرم النفس فى زيارتهما . « ومستر وستن » لا يقل عنها كرما . انك يا والدى وأنت تتكلم بهذه الطريقة المحزنة ، قد تعطى « ايزابلا » فكرة خاطئة عنا جميعا . يجب

أن يعلم الناس جميعا أننا نشعر بأن « مس تيلور » قد تركت فراغا ، ولكنهم يجب أن يتـأكدوا كذلك بأن « مستر وستن » وزوجته يعمـلان على ألا نشعر بهذا الفراغ بجميع الوسائل التى كنا ننتظرها منهما ، هذه هى الحقيقة بعينها » .

وتدخل مستر « چون نيتلى » : وهذا ما يجب أن يكون ، هذا ما كنت أتوقعه مما جاء فى رسائلكم الينا ، وما من شك فى أن حرصها على اظهار اهتمامها بكم ، ونزعته الاجتماعية وعدم ارتباطه بما يشغله ، كل ذلك قد سهل عليهما مهمة التودد اليكم . لقد كنت أقول لك يا حبيبتى دائما ، انى أرى أن التغيير فى « هارتفيلد » لن يكون كبيرا كما كنت تخشـين ، وها أنت تسمعين ما تقوله « اما » : أرجو أن تكون قد اقتنعت الآن » .

ورد « مستر وودهاوس » : « نعم لا شك فى ذلك ، نعم كن واثقا من ذلك . ولست أنكر أن « مسز وستن » — مسكينة يا « مسز وستن » — تأتى لزيارتنا فى أغلب الأوقات ، ولكنها تضطر بعد ذلك الى العودة ثانية » .

ان من الصعب على « مستر وستن » يا والدى ألا تعود اليه ولا شك وأخالك تنسى « مستر وستن » تماما » .

وقال مستر « چون نيتلى » متلطفا : « من رأيى ولا شك أن لمستر « وستن » بعض الحق ، أننا أنا وأنت يا « اما » يجب أن ندافع عن الزوج المسكين ، ومن المحتمل جدا ، أنا باعتبارى زوجا ، وأنت باعتبارك لا زوج لك ، أن يكون لنا نفس الشعور نحو ما للرجل من حقوق . أما « إيزابلا » فقد طال عهدها بالزواج حتى أصبحت تغفل ما لأى « مستر وستن » من حقوق وهى قريرة العين بذلك » .

وصاحت به زوجته ولم تكن قد سمعت أو فهمت من حديث زوجها الا القليل : « أنا ياحبيبى ، هل أنت تتحـدث عنى » انى واثقة من أنه

لا يمكن أن يوجد ، بل ولا يوجد فعلا من هو أشد منى دفاعا عن مسائل الزواج ، ولولا ما تركته « مس تيلور » فى «هارتفيلد» من وحشة ، ما كنت أفكر قط الا أنها أسعد نساء العالم قاطبة ، وأما التصغير من شأن « مستر وستن » ، ذلك الرجل الممتاز ، فأنى لا أعرف شيئا طيبا الا ويستحقه ، انى أعتقد أنه من أحسن الرجال طباعا ، ولو أنى أستثنيتك أنت وأخاك ، لما وجدت له فى السلوك نظيرا ، ولن أنسى له أنه وقت اشتداد الريح يوم عيد الفصح الماضى ، أخذ يعمل على أن يطير لهنرى طيارته ، ولن أنسى ما حبانى به من عطف خاص فى شهر سبتمبر الماضى ، حين جلس فى الساعة الثانية عشرة ليلا ليكتب لى رسالة يؤكد لى فيها عدم وجود الحمى القرمزية فى « كيهام » ، وقد تأكدت من كل ذلك أنه لا يوجد قلب أرق من قلبه ، ولا رجل أحسن منه فى الأرض قاطبة ، ولو كانت هناك امرأة جديرة به ، فهذه المرأة هى « مس تيلور » .

وسأل مستر « چون نيتلى » : « ولكن أين الفتى ، وهل أتى هنا لهذه المناسبة ، أم لا ؟ » .

فأجابته « اما » : « انه لم يأت الى هايبرى حتى الآن ، فقد كنا ننتظر مجيئه بعد زواج أبيه مباشرة ، ولكنه لم يحضر ، وما سمعت أحدا يذكره بعد ذلك » .

وقال والدها : « لكن يجب أن تخبريهم عن الخطاب يا عزيزتى ، فقد كتب رسالة الى « مسز وستن » المسكينة ليهنئها ، وكانت رسالة رقيقة جميلة ، ولقد أرتنى اياها ، ووجدت أن ذلك كان منــه ولا شك عمــلا مجيدا ، وان كان لا أحد يعلم اذا كانت هذه الرسالة من بنات أفكاره أم لا ، فهو صغير ، ولعل خاله .. » .

« انه يا والدى العزيز قد بلغ الثالثة بعد العشرين ، وأراك قد نسيت كيف تمر بنا السنون » .

« هل بلغ حقا الثالثة والعشرين ؟ ما كنت أظن ذلك ، انه كان فى الثانية من عمره وقت أن فقد أمه المسكينة . وعلى كل حال ، فقد كانت رسالته طيبة للغاية ولطيفة ، غمرت كلا من « مستر وستن » وزوجته بالسرور ، وانى لأذكر أنه كتبها فى « ويموث » فى الثامن والعشرين من شهر سبتمبر ، وأنه بدأها بقوله :

« سيدتى العزيزة » — لقد نسيت ما كتبه بعد ذلك ، ثم أمهـرها بامضاء : « ف . وستين تشرشل » ، أذكر ذلك تماما .

وصاحت « مسز چون نيتلى » طيبة القلب تقول : « كم كان هـذا جميلا منه ! بقدر ما كان سارا !! لست أشك فى أنه شاب لطيف جـدا ، ولكن مما يوجب الأسف أنه لا يقيم فى بيت والده ، انها لفجيعة حقا أن ينتزع الطفل من والديه ومن بيته الطبيعى . لست أدرى أبدا كيف أمكن « لمستر وستن » أن يتخلى عنه ، لعمرى !! هل يتخلى المرء عن ابنـه !! الحق أنى أسيء الظن بكل من يشير بشيء من ذلك على أى انسان » .

وتحدث مستر « نيتلى » فى جمود وهو يقول :

« لا أعتقد أن أحدا من الناس أحسن الظن يوما بآل « تشرشل » ، ثم لا داعى لأن تتصورى أن « مستر وستن » يمكن أن يشعر بما تشعرين به لو أن « هنرى » أو « چون » أخذ منك . فمستر « وستن » أقرب الى الرجل السهل المرح منه الى الرجل القوى المشاعر ، فهو يتقبل الأشياء كما يجدها ، ولا يعدم سبيلا للاستمتاع بها ، معتمدا فى ذلك ، فما أظن ، على ما يسمونه بالمجتمع لينال ملذاته من مأكل ومشرب ، ولعب الورق خمس مرات فى الأسبوع مع جيرانه بأكثر مما يعتمد على روابط الأسرة ، أو أية متعة أخرى تأتى عن طريق حياة البيت » .

ولم تكن « اما » راضية عن الاطار الذى أحاطه الحديث بصـورة

« مستر وستن » ، وهمت أن تنتزعه ، ولكنها قاومت نفسها وتغاضت عما سمعته ، رغبة منها فى ألا تعكر الصفو ما أمكنها ، وتذرعت بالصبر ما أمكنها الصبر ، فقد كانت هناك عادات منزلية راسخة لها قيمتها واحترامها ، تلك التى جعلت زوج أختها يرى أن البيت فيه الكفاية كلها ودفعته الى التقليل من شأن الصلات الاجتماعية ، ومن شأن أولئك الذين يهتمون بها .

الفصل الثانى عشر

كان من المتفق عليه أن يتناول مستر « نيتلى » الغذاء معهم ، مع ما كان فى ذلك من تعارض مع ميول « مستر وودهاوس » ، الذى كان يرى من حقه أن يخص نفسه بصحبة « ايزابلا » فى اليوم الأول من زيارة الأسرة لا يشاركه فيها أحد . ولكن « اما » كانت قد اتخذت فى هذه المسألة قرارا ، فعلاوة على ادراكها لما للأخوين من حق الرعاية الكاملة ، فقد كان مما يسعدها ، بسبب ظروف اختلافها مؤخرا مع « مستر نيتلى » ، أن تحتفظ له بالدعوة التى تليق به . وكانت تأمل من وراء ذلك أن يعودا صديقين مرة أخرى ، فقد حان الوقت فى ظنها للتصالح ، غير أن المصالحة بينهما كانت مع ذلك أمرا متعذرا ، فقد كانت متأكدة بأنها لم تخطىء ، وهو من جانبه كذلك لن يعترف بأنه أخطأ ، ولذا وجب استبعاد فكرة المصالحة ، أو تنازل كل طرف عن رأيه ، ولكن لا أقل مع ذلك من أن يتظاهرا بنسيان خلافهما الماضى . وأعتقدت « اما » أن مما يساعد على عودة صداقتهما الى مجاريها الأولى ، أنه حينما دخل عليها « مستر نيتلى » ، كان معها أصغر أطفال أختها سنا ، وهى طفلة صغيرة فى الشهر الثامن من عمرها تقريبا ، تزور « هارتفيلد » للمرة الأولى فى حياتها ، وكانت سعيدة فى تلك اللحظة لأن خالتها كانت ترقصها بين يديها .

وساعد ذلك بالفعل على تحقيق ما كانت ترجوه ، اذ على الرغم من أن نظراته الأولى كانت جدية ، وأسئلته مقتضبة ، لم يلبث أن أخذ يتناولهم جميعا فى حديثه كما كانت عاداته ، ثم أخذ الطفلة من بين ذراعيها بطريقة

تدل على الصداقة التامة ، الخالية من التكلف . وأحست « اما » أنها قد أعادا صديقين مرة أخرى . واطمأن قلبها كثيرا بادىء الأمر وهى تستشعر ذلك ، ثم تملكها شىء من الجرأة ، ولم تتمالك نفسها من أن تقول وهو يبدى اعجابه بالطفلة :

« ما أثلجه للصدر أن تتفق آراؤنا فيما يختص ببنات وأبناء اخوتنا وأخواتنا !! فحتى اذا اختلفت آراؤنا فى الرجال والنساء اختلافا بينا فى بعض الحالات فانها لن تختلف حين يكون الأمر متعلقا بهؤلاء الأطفال » .

« لو أنك كنت فى تقديرك للرجال والنساء مدفوعة بطبيعتك ، ولم تستسلمى للخيال والأهواء ، كما هو شأنك مع هؤلاء الأطفال ، لأمكن أن نكون فى تفكيرنا دائما سواء » .

« طبعا ، فاختلافنا لابد أن ينشأ دائما فى أننى أتجنب الصواب » .

ورد وعلى وجهه ابتسامة : « أجل ، ثم فكرى جيــدا لقد كنت فى السادسة عشرة من عمرى عندما ولدت أنت » .

وأجابت : « لقد كان الفرق كبيرا وقتئذ ، ولا شك أنك كنت تفوقنى كثيرا فى حكمك على الأشياء فى تلك الفترة من حياتنا ، ولكن أليس مرور احدى وعشرين سنة كافيا للتقريب بين ادراكى وادراكك ؟ » .

« نعم يقربه الى درجة كبيرة » .

« نعم ، ولكنه لا يقربه الى الحد الذى يهيىء لى الفرصة لأكون على حق حين تختلف آراؤنا ! » .

« ما زالت لى عليك ميزة تجاريب ست عشرة سنة كاملة ، ثم أنا بعد ذلك لست فتاة حسناء أو طفلا مدللا . هلمى الىّ يا عزيزتى « اما » ولنكن أصدقاء ، ولنكف عن الكلام فى هذا الموضوع وأنت يا « اما » الصغيرة ، قولى لخالتك أن من واجبها أن تجعل لك من نفسها مثلا أفضل ، بدلا من

ترديد ما يجيش بنفسها من مضايقات سابقة ، وانها ان لم تكن أخطأت فيما مضى فهى قد أخطأت الآن » .

وصاحت « اما » تقول : « انه لقول الحق ، انه لعين الصدق . وأنت يا « اما » الصغيرة شبّى على أن تكونى سيدة أفضل من خالتك . كونى أكثر منها ذكاء ، ولا تكونى حتى فى نصف غرورها ، واسمح لى الآن يا « مستر نيتلى » بكلمة أو كلمتين لا قول لى بعدهما :

« ما دام حسن النية متوفرا فقد كان كلانا على صواب ، ولا بد لى من أن أقول أنه لم يثبت أن شيئا مما قلته قد ثبت خطؤه ، وكل ما يعنينى الآن هو أن أطمئن الى أن « مستر مارتن » لم يتعرض لخيبة أمل مريرة » .

وأجابها فى ايجاز يحمل كل المعانى :

« لم يصب أحد بخيبة أمل أمرّ منها » .

« واحسرتاه !! ان ذلك ولا شك يحزننى كثيرا ، والآن تعال الىّ ، ولنشد على أيدى بعضنا بعضا » .

وما كادا يفرغان من هذا الحديث فى جو من الود والصفاء ، حتى دخل عليهما « چون نيتلى » وقال : « كيف حالك يا چورج ؟ » .

! وأنت يا « چون » كيف حالك ؟ » نطق بها كل منهما باللهجة الانجليزية الصرفة ، وفى هدوء كاد يصل الى حد عدم الاكتراث ، وان كان كل منهما يخفى وراء عبارته ذلك الود الخالص الذى كان كفيلا بأن يدفع كلا منهما اذا دعا الداع الى القيام بكل ما فيه نفع لأخيه .

وجاء المساء فكان هادئا تتخلله الأحاديث ، فقد ترك « مستر وودهاوس » لعب الورق ليتحدث مع عزيزته « ايزابلا » حديثا يرتاح اليه ، وانقسمت الجماعة الصغيرة الى فريقين طبيعيين : هو وابنته فريق ، والأخوان « نيتلى » فريق ، كل فريق منهما يتحدث فى موضوعه الخاص ،

وقلّما يتبادل الكلام مع الفريق الآخر ، بينا « اما » كانت تشترك مع هذا أو ذاك بين الحين والحين .

وتناول حديث الأخوين ما يعنيهما فى الأمور ، وما يتصل بأعمالهما ، وخاصة ما كان يتعلق بشئون أكبرهما ، فقد كان هذا بطبعه أكثرهما استعدادا للتحدث ، وأشدهما قدرة على مواصلة أطراف الحديث فلقد كان فى أعماله تولى القضاء فى القرية ، ولذا كان كثيرا ما يستشير « چون » فى بعض نقاط القانون ، أو على الأقل يقص عليه أخبار حادثة غريبة مما يعرض له . ثم باعتباره مزارعا وبيده زمام صنيعة الأسرة فى « دونول » ، كان عليه أن يتحدث فيما سوف يكون عليه محصول كل حقل فى العام التالى ، وأن يدلى بكل المعلومات المحلية التى قد يجد فيها أخوه متعة فى قرية قضى فيها أطول أيام حياته ولا تزال تربطه بها صلات قوية .

وهكذا تناول الحديث كل ما عنّ له من مشروع عمل مصرف ، الى تغيير سياج ، الى قطع احدى الأشـجار ، الى مصير كل فدان خصص لزراعة القمح أو اللفت أو أذرة الربيع .

ولم يكن « چون » ليقل اهتمامه بهذا الحديث عن أخيه ، على قدر ما سمحت به طباعه الخشنة ، فكان كلما أغفل أخوه شيئا يحتاج الى سؤال ، تقدم هو فسأل عنه بنغمة تقرب من أن تكون تلهفا .

وبينما كان الأخـوان منهمكين فيما فيـه متعتهما ، كان « مستر وودهاوس » يستمتع بفيض من الحديث مع ابنته ، حديث يعبّر فيه عن أسفه ، على ما فاته من فرص سعيدة ، وعما يكنّه لها من حب يجعله فى خوف من أن يلحقها أى ضرر .

قال فى لهفة وقد أمسك بيدها فعطلها بضع لحظات عما كانت تؤديه لأحد أطفالها الخمسة :

« ابنتى العزيزة المسكينة « ايزابلا » ، ما أطول المدة وما أقساها تلك التى مضت منذ كنت هنا !! وما أشد التعب الذى لابد أنك قد قاسيته من وعثاء السفر !! يجب يا عزيزتى أن تبكرى بالنوم ، وانى أشير عليك قبل أن تأوى الى فراشك ، بتناول القليل من العصيدة . سـيأخذ كل منا صحنا لطيفا منها ، ما رأيك يا عزيزتى « اما » لو أننا جميعا تناولنا قليلا منهـا » .

ولم تكن « اما » تفكر فى شىء من هذا ، فقد كانت تعلم أن مستر « چون نيتلى » وأخاه ، كانا مثلها لا يمكن حملهما على تناول هـذا الصنف من الطعام ، ولذا لم تأمر باعداد أكثر من صحنين منه .

وبعد أن استطرد فى حديثه عن محاسن العصيدة ، أردف يقول وهو فى دهشة من أن الناس جميعا لا يتناولونها فى أمسياتهم ، فى أسلوب من يفكر تفكيرا عميقا :

« ولقد كان قضاؤكم فصـل الخريف فى « سوث اند » بدلا من مجيئكم هنا ، عملا غير مستحسن يا عزيزتى ، وأنا لم أحسن الظن يوما بهواء البحر » .

« لقد أوصى به مستر « ونج فيلد » بشدة يا سيدى ، ولولا ذلك ما ذهبنا ، لقد أوصى به للأطفال جميعا وخاصة لـبـلا الصغيرة بسبب ضـعف حلقها ، أوصى بهـواء البحر وبالاسـتحمام فى ماء البحر عـلى السواء » .

« عجبا يا عزيزتى !! ولكن « پرى » يشك كثيرا فى أن يكون للبحر أية فائدة لها ، وأنا من ناحيتى كنت واثقا كل الثقة من ذلك منذ وقت بعيد ، ولو أنى لم أخبرك من قبل بأن البحر يندر أن تكون له فائدة لأى انسان ، بل انى واثق أنه كاد يقتلنى يوما ما » .

فصاحت « اما » وقد شعرت أنه موضوع لا تؤمن عواقبه :

« أرجو ألا تتكلموا عن البحر لأن ذلك يثير فى نفسى شعورا بالحسد والتعاسة ، فاننى لم يسبق لى رؤيته ولهذا فان الحديث عن « سوث اند » اذا سمحتم . ثم اننى يا عزيزتى « ايزابلا » لم أسمعك تسألين عن مستر « پرى » ولو مرة واحدة حتى الآن فى حين أنه لا ينساك اطلاقا » .

« آه !! ما أطيب « مستر پرى » !! كيف حاله يا سيدى ؟ » .

« لا بأس ، وان لم يكن على أحسن ما نحب له ، ان « پرى » المسكين يشكو من مرض المرارة ، وهو لا يجد الوقت الذى يعنى فيه بنفسه ، وهو يقول لى أنه لا يجد وقتا لذلك . انه شىء محزن للغاية ، ولكن الناس من جميع أطراف القرية يطلبونه ، وما أظن أن هناك رجلا له مثل تجاريبه ، بل قد لا يوجد فى أى مكان آخر رجل فى مثل مهارته » .

« وكيف حال « مسز پرى » وأطفالها ، وهل كبر الأطفال ؟ انى أقدر « مستر پرى » كل التقدير ، وأرجو أن يأتى لزيارتنا قريبا ، انه سيسر لرؤية أطفالى الصغار » .

« أرجو أن يأتينا غدا لأن عندى سؤالا أو سؤالين أحب أن أسأله بشأنهما ، لما لهما من بعض الأهمية عندى ، وأنت يا عزيزتى ، يجدر بك عند مجيئه أن تدعيه يفحص حلق الصغيرة « بلاّ » .

« ان حلقها يا سيدى العزيز تحسن كثيرا حتى أصبحت غير قلقة من ناحيته ، وقد يكون مرد ذلك الى الاستجمام وما كان له من فائدة عظيمة ، أو « لمروخ » مستر « ونج فيلد » الممتاز الذى ظللنا نستعمله بين الحين والحين منذ شهر أغسطس » .

« انه لشىء بعيد الاحتمال أن يكون الاستحمام قد أفادها ، ولو كنت أعلم أنك فى حاجة الى « مروخ » لتكلمت مع — » .

وقالت « اما » : « يبدو لى أنك قد نسيت « مسز بيتس » وابنتها « مس بيتس » فلم أسمع سؤالا واحدا عنهما » .

« آجل ، عائلة « بيتس » الطيبة ، انى لأخجل من نفسى ، ولكنك تذكرينهما فى معظم رسائلك الى وأرجو أن تكونا متمتعتين بصحة جيدة . نعم ، ما أطيب « مسز بيتس » العجوز ، سأذهب لزيارتها غدا ومعى أطفالى ، فهما تشعران دائما بالسرور عند رؤيتهم ، ثم ناهيك « بمس بيتس » ، تلك الآنسة الرائعة ، ان كليهما من خيار النساء وأكملهن ، كيف حالتهما يا سيدى ؟ » .

« لا بأس بصحتهما يا عزيزى بوجه عام ، غير أن « مسز بيتس » المسكينة أصابها برد شديد منذ شهر تقريبا » .

« انى لآسفة لذلك ، ولكن البرد لم يكن أبدا منتشرا فى أى وقت كما كان فى هذا الخريف ، لقد ذكر لى مستر « ونج فيلدا » انه لم يسبق أن رأى اصابات البرد منتشرة بمثل هذه الكثرة ، ولا بشدة هذه الوطأة الا أن يكون المرض المنتشر هو مرض الأنفلونزا » .

« نعم لقد كانت الحالة كما تقولين الى حد كبير ، وان لم تكن بالدرجة التى تذكرينها ، ان « پرى » يقول ان اصابات البرد كانت كثيرة الانتشار ، ولكنها لم تكن فى شدة وطأتها كالاصابات التى يشاهدها عادة فى شهر نوفمبر ، ان « پرى » لا يرى أنه كان فصلا مليئا بالأمراض » .

« لا ، لست أظن بأن مستر « ونج فيلد » يعتبره فصلا موبوءا ما عدا — » .

« الحق يا ابنتى العزيزة المسكينة ان هذا الفصل يكون كثير الأمراض دائما فى لندن ، وما من أحد يتمتع فى مدينة لندن بالصحة ، وأنّى يكون لأحد أن يتمتع بها ؟ انه حقا لشىء مزعج أن أراك مضطرة الى المعيشة

هناك — وعلى هذه المسافة البعيدة منا !! وفى مثل هذا الهواء الفاسد !! ».

« لا أبدا ، اننا لا نعيش فى هواء فاسد اطلاقا والجهة التى نقطنها فى لندن ، تفوق كثيرا معظم الجهات الأخرى ، وليس لك أن تدرجنا فى جو لندن بصفة عامة يا سيدى العزيز ، لأن ناحية « ميدان برنزويك » تختلف كثيرا عن سائر الجهات ، فالهواء عندنا منعش وعليل ، وأعترف بأننى لن أرضى بالمعيشة فى جهة أخرى غير هذه المدينة ، فلا تكاد توجد جهة أخرى أرتضيها سكنا لأولادى . حقا اننا نقيم فى جهة هواؤها عليل ، ومستر « ونج فيلد » نفسه يرى أن منطقة « ميدان برنزويك » هى أصلح الجهات هواء » . .

« انها لا تقارن يا عزيزتى بهارتفيلد ، انك ترفعين من شأنها . ولكنكم بعد قضاء أسبوع فى « هارتفيلد » ستصبحون وكأنكم خلقتم من جديد ، وسوف تتغير أشكالكم عما كنتم عليه ولا أستطيع أن أزعم أن أحدا منكم فى رأيى يبدو فى أكمل صحته الآن » .

« يؤسفنى أن أسمع منك ذلك يا سيدى ، ولكنى أؤكد لك أنه لولا ذلك الصداع العصبى البسيط ، وتلك الاضطرابات فى النبض التى لا تفارقنى تماما أينما كنت ، لكنت الآن على أتم ما يكون من الصحة ، واذا كان الأطفال قد بدا عليهم شىء من الشحوب قبل أن يأووا الى فراشهم ، فما ذلك الا نتيجة لأنهم كانوا مجهدين على غير عادتهم من أثر السفر ، ولفرحتهم بالمجىء ، وآمل أن يتغير رأيك فى صحتهم غدا . بل أؤكد لك ان مستر « ونج فيلد » أخبرنى بأنه ما تركنا نسافر يوما ونحن فى مثل الصحة التى نحن عليها الآن ، وأعتقد أنك لن تظن بأن مظهر مستر « نيتلى » يدل على اعتلال صحته (ثم التفتت الى زوجها وهى تنظر اليه نظرة قلق متسمة بالحب) .

« ان صحته متوسطة يا عزيزتى ولا يمكننى أن أحابيك فى ذلك ، بل أرى أن « مستر نيتلى » لا يبدو متمتعا بكامل صحته » .

وصاح مستر « چون نيتلى » عند سماع اسمه :

« مــاذا جرى يا ســيدى ؟ هــل كنت توجــه كــلاما الىّ ؟ .

« يؤسفنى يا حبيبى أن أجد والــدى يظن أنك لا تبــدو فى أكمل صحتك ، ولكنى أرجو أن يكون هذا نتيجة لما لحقك من التعب البسيط ، ومع ذلك فقد كان بودى كما تعلم ، لو أنك عرضت نفسك على مستر « ونج فيلد » قبل سفرك » .

وأسرع مستر « نيتلى » يقول فى دهشة : « أرجو يا عزيزتى « ايزابلا » ألا تشغلى بالك بصحتى ، وحسبك ما تقومين به من علاج وتدليل لنفسك وللأطفال . دعينى أبدو كما أحب أن أبدو » .

وصاحت « اما » قائلة : « لم أفهم تماما ماذا كنت تقول لأخيك عن صديقك مستر « جراهام » ، أو عزمه على الأتيان بناظر زراعة من أسكتلندة ليشرف على ضيعته الجديدة ، ولكن هل هناك فائدة ترجى من وراء ذلك ؟ ثم ألا يكون التحيز للقديم له أثره القوى » .

وظلت « اما » تتحدث بهذه الطريقة طويلا ، وكانت فى حديثها موفقة ، حتى أنها عندما اضطرت الى الانتباه مرة أخرى لوالدها وأختها ، لم يكن هناك ما يؤذى سمعها أكثر من استفسار « ايزابلا » عن « چين فيرفاكس » بعطف وحنان وعلى الرغم من عدم وجود انسجام بينها وبين مس فيرفاكس بوجه عام ، فقد استعذبت فى تلك اللحظة اشتراكها فى الثناء عليها .

وقالت « مسز چون نيتلى » : « ما ألطف « مس چين فيرفاكس » وأظرفها !! انى لم أرها منذ وقت طويل ، اللهم الا الفينة بعد الفينة وبطريق الصدفة المحضة فى لندن ، وما أسعد جدتها العجوز الطيبة وخالتها الممتازة

بها عندما تأتى لزيارتهما !! انى لأشعر بمنتهى الأسف لما تقوله العزيزة « اما » فى أنها لن تمكث فى « هايبرى » ولكنى ظن أن المقدم « كامپبل » وزوجته قد تزوجت ابنتهما الآن لن يسعهما أن يفرطا فيها أبدا ؛ وهى نعم الرفيقة التى قد ترتاح اليها « اما » لو أنها بقيت هنا .

ووافق « مستر وودهاوس » على كل ذلك وزاد عليه قوله :

« ان صديقتنا العزيزة الصغيرة « هاريت سمث » هى الأخرى فتاة لطيفة ، انك سوف تحبين « هاريت » ، ولن تجد « اما » رفيقة خيرا من « هاريت » .

« انى لأسعد ما أكون بأن أسمع بذلك ، ولكنى أعلم بأن « چين فيرفاكس » ذات ثقافة عالية ، وهى ممتازة ، وفى سن « اما » تماما » .

وطاب لهم الحديث فى ذلك الموضوع ، ثم انتقلوا منه الى مواضيع أخرى فى مثل أهميته ، وانتهت أحاديثهم فى وئام وانسجام . ومع ذلك فلم ينته المساء الا وقد خيمت على الجو سحابة من الكدر فقد جىء بالعصيدة فأثار مجيئها نقاشا طويلا ، فيه مدح مستفيض وتعليقات كثيرة ، وقرارات لا تنقض عن فائدتها لصحة جميع الأجسام ، ولوم قارس للبيوت الكثيرة التى لا تستسيغها . غير أن من سوء الحظ أن من بين نواحى القصور التى كان على ابنته أن تواجهها ، ناحية كانت أحدثها عهدا ، ومن ثم فقد كانت أشدها أثرا ، تلك هى ما كانت تقاسيه من طاهيتها فى « سوث اندا » ، وهى شابة استأجرتها مؤقتا ، فقد عجزت هذه الطاهية عن أن تدرك ما كانت تعنيه من إعداد صحن من العصيدة اللذيذة الناعمة التى لا هى ثخينة القوام ، ولا هى كثيرة السيولة ، ولذلك فكثيرا ما فشلت فى تلبية رغبة سيدتها فى أن تظفر بصحن منها يمكن أن تستسيغه . فانفتحت بذلك ثغرة خطيرة سرعان ما نفذ اليها الحديث .

فقد سمعت « اما » مستر « وودهاوس » يقول فى دهشة وهو يهز رأسه ويركز عينيه عليها فى اهتمام وحنان :

« انى لا أكاد أرى نهاية للعواقب الوخيمة التى نجمت عن ذهابك الى « سوث اند » مما لا يطاق الحديث فيه » .

ولبث فترة وهى ترجو فى أثناءها ألا يسترسل فى ذلك الحديث ، وأن يكون فى تفكيره الهادىء ما يكفى لحمله على الانصراف الى تذوق عضيدته الناعمة . ولكن ما كادت تنقضى لحظات معدودات حتى انطلق يقول :

« سأظل دائما فى حسرة لذهابك الى البحر فى هذا الخريف بدل المجىء الى هنا » .

« ولكن ما الذى يستوجب الحسرة فى ذلك يا والدى ؟ انى أؤكد لك أن ذلك أفاد الأطفال فائدة عظيمة » .

« ثم علاوة على ذلك ، اذا كان لابد من ذهابك الى البحر ، فقد كان الأحرى بك ألا تذهبى الى « سوث اند » فهى مكان غير صحى ، ولقد دهش « پرى » عندما سمع بأنك اخترت « سوث اند » دون غيرها » .

« انى أعلم أن الكثيرين يرون هذا الرأى ، ولكن من المؤكد أنهم مخطئون فى ذلك تماما يا سيدى ، فلقد تمتعنا جميعا بصحة جيدة هناك ، ولم نجد أية مضايقة من الوحل ، وقد قال مستر « ونج فيلد » ان من الخطأ الجسيم أن يظن أحد من الناس أن المكان غير صحى ، وأعتقد أنه ممن يعتد برأيهم ، لما له من علم تام بطبيعة الهواء فيها ، ثم لقد ذهب الى هناك أخوه وأسرته مرارا » .

« كان يجب عليك أن تذهبى الى « كرومر » يا عزيزتى اذا كان لابد من الذهاب الى أى مكان . لقد ذهب « پرى » الى « كرومر مرة ، وهو يعتقد أنها أحسن مكان للاستحمام فى البحر ، ويقول ان البحر هناك فسيح

وجميل ، والهواء فى غاية النقاء ، وقد كان من الممكن كما فهمت العثور على أماكن للسكنى هناك بعيدةعن البحر — على بعد ربع ميل منه ، ومريحة كل الراحة ، نعم لقد كان لابد لكم من استشارة « پرى » .

« ولكن هناك يا سيدى العزيز فرقا فى المسافة التى تقضيها فى السفر وحسبك أن تحسب حساب بُعدها ، انها مسافة قد تصل الى مائة ميل بدلا من الأربعين » .

« ولكن يا عزيزتى ، اذا كانت الصحة مهددة بالخطر فهى كما يقول « پرى » فوق كل اعتبار آخر ، واذا كان لابد للانسان من السفر ، فسيان عنده أن يقطع أربعين ميلا أو مائة ميل ، بل خير للانسان ألا يتحرك وأن يقيم فى لندن كلية من أن يقطع أربعين ميلا كى يصل الى مكان هواؤه أردأ ، وهذا ما قاله « پرى » بنصه ، لقد بدا له أن ما فعلتموه كان عملا بعيدا عن الروية وحسن التقدير » .

وحاولت « اما » أن تمنع والدها من الاسترسال فى هذا الكلام ، ولكن محاولاتها ضاعت سدى ، وما كان لها أن تعجب بعد ذلك عندما رأت زوج أختها يثور غاضبا عندما وصل والدها الى هذه النقطة ويقول :

« يجدر بمستر « پرى » أن يحتفظ برأيه لنفسه حتى يُطلب منه ، ثم لماذا يشغل نفسه بما أفعله ؟ ألأنى أذهب الى مكان دون آخر على ساحل البحر ؟ أرجو أن يكون لى ما لمستر پرى من حق ابداء الرأى ، وأنا لم أعد فى حاجة الى تعاليمه ولا الى عقاقيره » .

وسكت هنيهة هدأت فيها نفسه قليلا ، ثم ما هى الا لحظة بعد ذلك حتى انطلق يقول فى تهكم جاف :

« ولو أمكن مستر « پرى » أن يقول لى كيف أنتقل بزوجتى وأطفالى الخمسة مسافة مائة وثلاثين ميلا دون أن أتكبد نفقات أكثر ، أو ألاقى

عناء أشد مما أتكبده أو ألاقيه لو كانت المسافة أربعين ميلا ، كنت مستعدا الى أن أفضل « كرومر » على « سوث اند » كما يفضلها » .

وصاح « مستر نيتلى » كى يخفف من حدة الحديث :

« حقا ما تقول ، فان بُعد المسافة شىء تجب مراعاته ولا شك ، لكن أما عن فكرتى التى كنت أحدثك عنها يا « چون » من أننى أريد تغيير موضع الممر الموصل الى « لنجهام » وجعله أكثر انحرافا الى الجهة اليمنى ، حتى لا يخترق المراعى التى حول المنزل ، فأنا لا أرى فيها أية صعوبة ، على أننى لن أحاول القيـام بهذا لو كانت فى ذلك أية مضايقة لأهالى « هايبرى » . ولو أنك تذكرت بالضبط الوضع الحالى للممر — على أن الطريقة الوحيدة لاثبات ذلك ، هى بالرجوع الى خرائطنا ، وأرجو أن أراك غدا صباحا فى الأبرشية ، وعندئذ تفحص الخرائط سويا ثم تبدى لى رأيك » .

وأقلقت « مستر وودهاوس » تلك العبارات الخشنة التى وجهت الى صديقه « پرى » ، وهو الذى كان ينسب اليه بطريقة لاشعورية الكثير من أحاسيسه نفسه وتعبيراتها ، ولكن التهدئة التى لقيها من ابنتيه أزالت تدريجا ما كان لهذا الحديث من أثر سىء فى نفسه ، كما أن يقظة أحد الأخوين وحسن ادراك الأخ الثانى ، حالا دون تجدده .

الفصل الثالث عشر

كان من الصعب أن تجد انسانا أسعد من « مسز چون نيتلى » خلال تلك الفترة القصيرة التى قضتها فى زيارة « هارتفيلد » اذ كانت تذهب كل صباح ومعها أطفالها الخمسة لتقضى مع معارفها القدامى بعض الوقت ، ثم تعود فى المساء لتتحدث مع أبيها وأختها عما فعلته فى الصباح ولم يكن شيء أحب الى نفسها من ألا تمر الأيام بمثل هذه السرعة ، فلقد كانت زيارة ممتعة ، وكان من أسباب كمالها ، أنها كانت قصيرة جدا .

وكان الأصدقاء بوجه عام أكثر ما يجتمعون بهم فى الصباح منهم فى المساء ، ومع ذلك فلم يكن بد من خروجهم فى احدى المرات تلبية لدعوة عشاء كامل رغم أن ذلك كان فى ليلة عيد الميلاد ، اذ ما كان « مستر وستن » ليقبل منهم اعتذارا عن قبول دعوته ، وهكذا أصبح لزاما عليهم جميعا أن يتناولوا عشاءهم فى « راندولز » فى احدى الليالى . وحتى « مستر وودهاوس » نفسه أمكن التأثير عليه وحمله على التسليم بأن قبول الدعوة خير من انقسام الجماعة .

ولقد كان فى استطاعته أن يقيم العقبات دون قبول هذه الدعوة وأن يتعلل بوسيلة انتقالهم الى « راندولز » بقضهم وقضيضهم ، ولكن وجود عربة ابنته وزوجها بخيولها فى « هارتفيلد » جعله لا يوجه لهذه المسألة أكثر من سؤال بسيط لم يرق حتى الى حد التشكك . بل ان « اما » لم تجد نفسها فى حاجة الى وقت طويل لكى تقنعه بأن فى امكانهم كذلك تدبير مكان لهاريت فى احدى العربتين .

ولم يُدع معهم الى هذا العشاء ، الا زمرتهم الخاصة المكونة من « هاريت » و « مستر التن » و « مستر نيتلى » اذ روعيت فيه ميول « مستر وودهاوس » وعاداته ، فكان عدد المدعوين قليلا ، وحددت للعشاء ساعة مبكرة .

وكانت « هاريت » قد أمضت المساء فى اليوم السابق لهذا الحادث العظيم ، فى « هارتفيلد » (وانه لحادث عظيم حقا أن يتناول « مستر وودهاوس » العشاء خارج بيته فى الرابع والعشرين من ديسمبر) ، وكانت قد عادت الى بيتها مضطرة لاصابتها بوعكة برد شديدة ، ولولا رغبتها الملحة فى أن تقوم « مسز جدرد » على تمريضها ، لما سمحت لها « اما » بمغادرة البيت .

وزارتها « اما » فى اليوم التالى ، فأدركت استحالة ذهابها معهم الى « راندولز » ، فقد كانت تشكو من حمى شديدة ، وكانت تشكو من ألم شديد فى حلقها . وكانت « مسز جدرد » شديدة العناية بها ، تفيض عليها حنانا . كما تحدثوا عن استدعاء « مستر پرى » . وكانت « هاريت » فى شدة المرض والأعياء ، فلم تقو على مقاومة هذا الظرف القاهر الذى منعها من تلبية هذه الدعوة الممتعة ، وان لم تتمالك نفسها من البكاء وهى تتكلم عن حرمانها منها .

وجلست « اما » معها بقدر ما سمح لها وقتها كى ترعاها فى غياب « مسز جدرد » الذى لم يكن فى استطاعتها أن تتحاشاه ، ثم أخذت لكى ترفع من معنويتها تحدثها عما سوف يشعر به « مستر التن » فى حزن وألم عندما يعلم بحالتها — وتركتها أخيرا وقد استراحت الى حد مقبول بايمانها السعيد بأنه لن يجد فى دعوته الى العشاء راحة أو غبطة ، وبأن الكل سوف يحزنون لتخلفها عن الحضور . ولم تكد « اما » تبعد عن بيت « مسز

جدرد » بضع خطوات حتى التقت بمستر « التن » نفسه متجها اليهــا فيما يبدو . وبينما هما يتمهلان فى سيرهما معا ، ويتحدثان عن المريضة التى كان ذاهبا للسؤال عنها عندما سمع بشدة وطأة المرض عليها ، وحتى يستطيع كذلك أن ينقل بعض أنبائها الى « هارتفيلد » ، أدركهما مستر « چون نيتلى » ، وكان عائدا من زيارته اليومية الى « دونول » بصحبة ولديه الكبيرين اللذين دل اشراق وجههما بالصحة على ما أفاداه من التجول فى القرية وبدا من اسراعهما الخطى نحو البيت انهما كانا متلهفين غلى التهام لحم الضأن وبوذنج الأرز .

وسار الكل معا ، وأخذت « اما » تصف مرض صديقتها وتقول انه التهاب حاد فى الحلق ، مصحوب بارتفاع كبير فى درجة الحرارة ، مع نبض سريع ومنخفض ، وما الى ذلك من علة صديقتها وانه قد أحزنها ما علمته من « مسز جدرد » من أن « هاريت » كانت دائما عرضة لالتهاب الحلق الشديد وأنها كثيرا ما كانت تنزعج عليها .

وبدا على « مستر التن » الانزعاج عندما سمع ذلك ، وقال متعجبا :

« التهاب فى الحلق !! أرجو ألا يكون من الأمراض المعدية وألا يكون من الأمراض الخبيثة ، وهل رآها « پرى » ؟ — يجب أن تحافظى على نفسك كما تحافظين على صديقتك ، وألا تخاطرى بنفسك . ولكن لماذا لم يذهب « پرى » ليراها ؟

غير أن « اما » — ولم تكن تخشى على صديقتها شيئا — سرعان ما هدأت من روعه وأكدت له بأن « مسز جدرد ؟ لا تنقصها العنــاية ولا التجربة — ولكن لما كان من الواجب أن تبقيه على شيء من التعلق على أية حال ولم تكن لها رغبة فى تخليصه منه ، بل لعلها كانت أميل الى زيادته واشعاله فقد قالت بعد قليل وكأنها تطرق موضوعا آخر :

« ان الطقس بارد ، شديد البرودة ، حتى ليبدو من برودته كأنه الثلج بعينه ، ولو كان ذهابنا اليوم الى مكان آخر ومع جماعة أخرى ، لحاولت ولا شك عدم مبارحة البيت ، وعملت على ابعاد أبى عن تلك المخاطرة ، أما وقد صحت عزيمته ، وبدا وكأنه لا يشعر بالبرد ، فأنى لا أريد التدخل لأنى أعلم بأن ذلك قد يصيب كلا من « مستر وستن » و « مسز وستن » بخيبة أمل شديدة ، ولكنى أقسم بأنى لو كنت مكانك يا مستر « التن » لاعتذرت عن الذهاب ، اذ يبدو لى أن صوتك به أثر التهاب ، فاذا أضفت الى ذلك ما يتطلبه منك الغد وما ستعانيه فيه من مشـقة ، فلست أظن الا أن الحكمة تقضى بأن تمكث فى البيت ، وأن تعنى بنفسك الليلة » .

وبدا « مستر التن » وكأنه لا يدرى بم يجيب ، بل لقد كان فعلا لا يدرى بم يجيب ، اذ عـلى الرغم من أنه راض غاية الرضى عن الرعاية التى يلقاها من مثل هذه الحسناء ، حريص على ألا يخالف نصحها ، لم يكن لديه أقل ميل للتنحى عن هذه الزيارة . ولكن « اما » كانت مشغولة بما لديها من آراء وتصورات سابقة لم تسمح لها بأن تستمع اليه فى غير تخيز ، أو تنظر اليه بعين فاحصة ، بل رضيت عن نفسها كل الرضى ، وهى تسمع اليه وهو يقول : « نعم الطقس بارد جدا ، انه فى غاية البرودة ولا شك » .

وسارت وهى مغتبطة فقد تمكنت من أن تحـله من الذهاب الى « راندوارز » ، ومكنته له من أن يسأل عن « هاريت » فى كل ساعة من ساعات المساء ، وقالت أخيرا :

« لقد أنصفت ، وسنتولى عنك الاعتذار « لمستر وستن » وزوجته » .

وما كادت تنتهى من عبارتها ، حتى وجدت زوج أختها يعرض عليه مكانا فى عربته ، اذا لم يكن هناك ما يمنعه من الذهاب غير الطقس ، ورأت

« مستر التن » يوافق على هذا العرض فورا وهو راض كل الرضى ، وهكذا انتهى الأمر ، وأصبح ذهاب « مستر التن » شيئا مؤكدا ، بل لم يبد على محياه الجميل الوضاء من السرور من قبل مثل ما بدا عليه فى هذه اللحظة ، ولم يسبق له أن ابتسم بهذا الوضوح ، ولا سبق لعينيه أن شعتا بالسرور كما رأتهما تشعان وهو ينظر اليها بعد ذلك .

وقالت فى نفسها : « أجل ما أعجب ذلك !! ما أعجب بعد أن خلصته من الدعوة أن يختار الذهاب معهم ويترك « هاريت » وهى مريضة !! انه لشىء ولا شك فى غاية الغرابة !! ولكنى أعتقد أن كثيرا من الرجال ، وعلى الأخص غير المتزوجين منهم ، يميلون الى مثل ذلك ، ويولعون بتناول العشاء خارج بيوتهم ، وهم يضعون الدعوة الى وليمة عشاء فى المقام الأول من مسراتهم ، بل لعلها مفضلة لديهم على أعمالهم وكراماتهم ، وحتى على واجباتهم . اذن لابد أن يكون هذا هو حال « مستر التن » ، وهو شاب له مكانته ولا شك ، وفيه رقة وعذوبة ، وهو يهيم بحب «هاريت» ، ولكنه مع ذلك لا يقوى على رفض دعوة الى وليمة ، فيستجيب لتناول العشاء خارج بيته كلما دعى — ما أعجب الحب !! فها هو يرى سرعة البديهة فى « هاريت » ، ثم لا يؤثر أن يتناول العشاء وحده من أجلها » .

وتركهما مستر « التن » بعد ذلك فورا ، ووجدت « اما أن من العدل أن تعترف بأنها شعرت بوجود عاطفة قوية من الطريقة التى ذكر بها اسم « هاريت » ساعة انصرافه ، ومن نبرات صوته وهو يؤكد لها بأنه سيذهب الى بيت « مسز جدرد » ليستقصى أخبار صديقتها الجميلة قبل أن يسعد بلقائها ثانية ، وأنه كله أمل فى أنه سوف يتمكن من موافاتها بأنباء أحسن ، ثم تنهد ومسح الابتسامة عن شفتيه بطريقة جعلت كفة الميزان ترجح فى جانبه .

ومضت دقائق قليلة سادها السكون ، بدا بعـــدها « چون نيتلى » الحديث بقوله :

« انى لم أر فى حياتى رجلا حريصا على التظرف مثل « مستر التن » ، وانه ليجهد نفسه فى ذلك اذا كان الأمر متعلقا بالنساء ، وهو مع الرجال حكيم غير متكلف ، أما اذا أراد اشاعة البهجة فى النساء فان جوارحه كلها تنطق بذلك » .

وردّت « اما » تقول « ان تصرفات « مستر التن » لا تخلو من عيوب — ولكن اذا أراد الانسان أن يكون محبوبا ، وجب عليه أن يتغاضى — وكم يتغاضى الواحد منا — عن الكثير . والشخص المتوسط المواهب ، ان بذل قصارى جهده ، كان له التفوق على الممتاز الخامل . والمرء لا يسعه الا أن يقدّر ما عليه « مستر التن » من رقة الطبع وطيبة القلب » .

وردّ مستر « چون نيتلى » على الفور وفى شىء من الخبث :

« أجل يبدو عليه أنه على جانب كبير من رقة الشعور نحوك أنت » .

وأجابت وعلى ثغرها ابتسامة تعبّر عن دهشتها : « أنا !! وهل يدور بخلدك أنى هدف « مستر التن » ومطمحه ؟ » .

« انى أعترف لك يا « اما بأن هذا ما جال بخاطرى ، واذا كان ذلك لم يخطر ببالك من قبل ، فيحسن بك أن تأخذيه فى اعتبارك الآن » .

« عجبا أن يحبنى مستر التن ؟ يا لها من فكرة !! » .

« أنا لا أقول أنه يحبك ، ولكن قد يحسن بك أن تأخذى فى اعتبارك اذا كان الأمر كذلك أم لا ، وأن ترتبى سلوكك نحوه وفقا لما يتبين لك بعد ذلك ، وأظن أن معاملتك فيها تشجيع له ، اننى أتكلم معك يا « اما » كصديق ، ويجدر بك أن تدققى النظر حولى وأن تتأكدى من عملك ومن مقاصدك » .

« أشكرك ، ولكنى أؤكد لك بأنك لم تصب شيئا من الحقيقة فى ذلك، فأنا و « مستر التن » صديقان حميمان ، ولا شىء أكثر من ذلك » .

قالت ذلك وقد استمرت فى سيرها وهى تسرّى عن نفسها بالتفكير فى الهفوات التى كثيرا ما تنجم عن عدم الالمام الكامل بالظروف والملابسات وفى الأخطاء التى يقع فيها أولئك الذين يدعون لأنفسهم دائما قدرة الحكم على الأشياء . فلم يرقها أن ترى زوج أختها يتخيلها غير متبصرة وجاهلة ، وفى حاجة الى النصح ، أما هو فلم يزد على ما قاله شيئا . « أما مستر وودهاوس » فكان نقد وطد نفسه على القيام بهذه الزيارة الى حد كان من المستحيل معه أن يفكر فى التراجع عنها على الرغم من اشتداد برودة الجو ، وركب أخيرا عربته فى الموعد المحدد بالدقة ، ومعه كبرى ابنتيه وهو يبدو أقل من الآخرين احساسا ببرودة الطقس ، المتزايدة ، فلقد غمرته السعادة التى سيضيفها ذهابه على « راندولز » ، حتى لم يعد يتبين برودة الجو ، ثم هو فوق ذلك قد تدثر بالملابس حتى لم يعد يشعر بالبرد . ومع هذا فقد كان البرد زمهريرا ، فلما بدأت العربة الثانية تتحرك ، كانت بعض ذرات الثلج قد أخذت تتساقط ، وبدت السماء محمّلة بالثلج ، وكأنما لا ينقصها الا هبة ريح معتدلة ، ثم تصبح الأرض بعد قليل وقد كسيت بحلة بيضاء ناصعة .

ولاحظت « اما » بعد قليل أن زميلها لم يكن منشرح الصدر ، فلقد كان يرى فى الاستعداد لهذا العشاء والخروج فى مثل هذا الطقس ، وما قد يتعرض له أطفاله بعد تناول العشاء من أذى ، أو على الأقل من مضايقات شرا لا يرضاه مستر « چون نيتلى » بأى حال . ثم هو فوق ذلك كان لا ينتظر من وراء هذه الزيارة شيئا ذا قيمة ، ولذا فقد أمضى كل الوقت الذى كانت تسير فيه العربة بهما الى بيت راعى « الابرشية » وهو يَعبِّر

عن عدم ارتياحه وانطلاق يقول : « لابد أن يكون المرء قد أفرط فى حسن الظن بنفسه وهو يدعو الناس الى ترك مواقدهم ، ليواجهوا يوما كهذا سعيا الى لقائه ، ولابد أنه يظن فى نفسه أنه شخص محبوب للغاية . وأنا من ناحيتى لا أجد فى نفسى القدرة على فعل ذلك ، لأنه سلوك فى منتهى السخف ، فها هو الثلج يتساقط الآن . يالها من جهالة !! ألا تترك الناس ليستريحوا فى بيوتهم ؟ ويا جهل أولئك الذين لا يستقرون فى بيوتهم لينعموا بالراحة ما دام هذا فى امكانهم !! الحق لو أننا اضطررنا الى الخروج فى أمسية كهذه ، تلبية لنداء الواجب ، أو للقيام بعمل هام ، لاعتبرنا ذلك أمرا شاقا ، وها نحن وعلينا من الملابس ما قد يكون أخف مما اعتدنا أن نرتديه ، نسير باختيارنا ، وبغير مبرر ، نتحدى صوت الطبيعة التى تبصِّر الانسان بما يقع تحت نظره وحسه لكى يستقر فى بيته ، ويحافظ على كل ما لديه تحت سقفه ، ومع ذلك فها نحن نسير قدما لنقضى خمس ساعات مقبضة للنفس ، فى بيت رجل آخر ، لن نقول فى أثنائها قولاً أو نسمع شيئا لم نقله بالأمس ، أو لم يقرع أسماعنا من قبل ، وقد نقوله أو نسمعه فى الغد كذلك ، نغدو فى طقس عبوس ، وقد نعود فى طقس أكثر عبوسا ، ثم فوق كل ذلك أربعة خيول وأربعة من الخدم يخرجون فى هذه الرحلة لا لشيء الا لينقلوا خمسة مخلوقات كسالى تنتفض جسومهم الى حجرات أبرد ، وبين جماعة أسوأ ممن قد يكونون معهم فى بيوتهم » .

ولم تجد « اما » فى نفسها القدرة على موافقته على رأيه وهى راضية قريرة ، على نحو ما اعتاد أن يسمعه من زوجته حين تقره على رأيه بقولها : « هذا صحيح يا حبيبى » . ومن ثم فقد حزمت أمرها على ألا ترد عليه . فهى من جهة لا تحب الموافقة العمياء ، ومن جهة أخرى تخشى ان هى ردت عليه أن تثير مشاحنة بينهما . وهكذا آثرت ألا تنبس ببنت شفة . وتركته

يتكلم ويتصلح من وضع عويناته ، بينا التفتت هي في دثارها دون أن تفتح فمها بكلمة .

ووصلا أخيرا الى بيت مضيفهما فانعطفت العربة بهما الى داخله ، وأدلى سلّمها ، وما هي الا لحظة حتى كان « مستر التن » معهم وقد تهندم وأشرق وجهه بابتسامة جميلة . ورحّبت « اما » برؤيته كوسيلة لتغيير مجرى الحديث . لقد بدا « مستر التن » وكل جوارحه تنطق بالبشر والامتنان ، وأخذ يرحّب بهما في بهجة وسرور حتى ظنت بأنه وقد وصلته معلومات عن « هاريت » تختلف عما وصلتها ، وكانت قد أرسلت وهي ترتدي ملابسها تسأل عنها ، فجاءها الرد بأنها « كما هي — لم تتحسن » .

وقالت في الحال : « لم يكن التقرير الذي وصلني من « مسز جدرد » طيبا كما كنت أرجو ، اذ كان الرد على سؤالي : « لم تتحسن » .

وظهر على وجهه الحزن في الحال ، ورد عليها بصوت ملؤه الحنان :

« لا ، بل يحزنني أني وجدت — وكنت على وشك أن أخبرك أني عندما ذهبت الى بيت « مسز جدرد » ، وكان هذا آخر ما قمت به قبل رجوعي لارتداء ملابسي ، علمت بأن حالة « مس سمث » لم تتحسن ، ولم تكن بأي حال أحسن مما كانت ، بل لعلها كانت أسوأ ، وقد أقلقني ذلك ، وأخذ مني الحزن مأخذه . لقد كنت أعلل نفسي بالأمل في أن تكون قد تحسنت بعد أن تناولت جرعة من الدواء المنعش للقلب في الصباح » .

وابتسمت « اما » وهي تقول : « أرجو أن تكون زيارتي قد أفادتها من ناحية حالتها النفسية ، أما آلام الحلق فهذا ما لا قبل لي بأبعاده عنها ، وهي ولا شك وعكة برد شديدة الوطأة ، ولعلك سمعت بأن مستر « پري » قد زارها » .

« نعم لقد ظننت ذلك — أعني أنني لم — » .

« انه اعتاد أن يزورها كلما تعرضت لهذه الأمراض ، وأرجو أن يصل كلانا فى الصباح تقرير يجعلنا أكثر اطمئنانا ، وان كان من المستحيل ألا يشعر الانسان بالقلق عليها ، وكان تخلفها عن مصاحبتنا الليلة خسارة أليمة فى الواقع » .

« يالها من شيء مُروِّع !! انه لأمر مروّع ولا ريب ، وسنشعر فى كل لحظة بأنها تركت فراغا » .

كان ذلك تفكيرا محمودا منه ، بقدر ما كان تنهده وهو يتكلم معها جديرا بالتقدير . ولكن حديثه فى هذا الموضوع كان يجب فى رأيها أن يمتد أطول من ذلك وزادت حسرتها عندما رأته ، ولما يمض على ذلك غير نصف دقيقة ، يتحدث عن أشياء أخرى ، وبصوت يفيض بشرا وابتهاجا . قال :

« يالها من وسيلة ممتازة أن يستعمل فراء الضأن للعربات ، وما أكثر ما يجعل العربة مريحة حتى ليصبح من المستحيل أن يشعر المرء بالبرد مع هذه الحيطة . ان الوسائل الحديثة قد جعلت عربات السادة ولا شك مريحة للغاية فالمرء فيها يحاط بسياج يقيه من الطقس ، حتى النسمة لا تجد الى داخلها منفذا ، وبذلك أصبح الطقس شيئا لا يخشى عواقبه أبدا ، فالطقس هذا المساء قارس البرودة ، ولكننا ونحن داخل عربة كهذه لا نكاد نحس به ، ها ها !! انى أرى بعض الثلج يتساقط فعلا » .

وقال « چون نيتلى » ، « أجل وأظن أنه سيتساقط كثيرا » .

واستدرك « مستر التن » يقول : « انه طقس عيد الميلاد ، وهو يتفق وما يكون عليه الطقس عادة فى مثل هذا الوقت من السنة ، وكم كان من حسن طالعنا أن سقوط الثلج لم يبدأ بالأمس ، فيعوق اجتماعنا اليوم . نعم لقد كان هذا محتملا ، واذن لكان من الصعب على « مستر وودهاوس »

أن يجازف بالحضور لو أن الأرض اكتست بطبقة من الثلج ، ولكن الثلج كما هو الآن شيء لا يعتد به . وهذا هو الفصل الذى يستحب فيه اجتماع الأصحاب . وفى يوم عيد الميلاد يدعو كل امرىء الأصدقاء حوله . والناس جميعا لا يبالون بالطقس مهما ساءت حالته . لقد حجزنى الثلج مرة مدة أسبوع كامل فى بيت أحد الأصدقاء ، ولم يكن أسعد تلك الأيام ، فلقد ذهبت على أن أقضى ليلة واحدة ، فلم أتمكن من الخروج الا بعد أسبوع من تلك الليلة » .

ونظر اليه مستر « چون نيتلى » نظرة تدل على أنه لا يعرف أى سرور هذا الذى يعنيه واكتفى بأن يقول فى عبارة جامدة : « أما عن نفسى ، فأنا لا يروقنى أن يحتجزنى الثلج أسبوعا بأكمله فى « راندولز » .

ولقد كان من الجائز أن تجد « اما » فى هذا الحديث ما يسرّى عنها فى وقت غير هذا الوقت . ولكنها فى هذه اللحظة ، كان قد استبد بها العجب من مشاعر « مستر التن » بازاء مسائل أخرى ، وكأنما غابت « هاريت » عن ذهنه تماما من أجل مأدبة ممتعة .

واستمر « مستر التن » : يقول : « ولابد أننا واجدون دفئا كبيرا هذه الليلة ، وأن كل شيء سيكون فى منتهى الراحة ، وان « مستر وستن » وزوجته أشخاص يسعد المرء بهم . فمسز « وستن » فوق كل مديح ، أما هو فهو شخص يعتز به ، فهو مضياف بقدر ما هو مولع بالاجتماعات ، وسوف يكون اجتماعنا قليلا فى عدد أفراده غير أنه عندما تكون الجماعة الصغيرة من الصفوة ، فانها تكون أجمل الاجتماعات جميعا . ثم ان حجرة الطعام فى بيت « مستر وستن » لا تتسع لأكثر من عشرة ، وأنا من جانبى أفضل فى مثل هذه المناسبات أن ينقص العدد اثنين عن العشرة على أن نزيد عليها اثنين . ثم التفت نحو « اما » وقال فى نغمة رقيقة : « أظنك

توافقينني على ذلك ، وأعتقد أنك تحبذين رأيي هذا ، ولو أن مستر « نيتلى » وقد اعتاد الاجتماعات الكبيرة فى لندن لا يشاركنا هذا الشعور » .

« ليس لى علم بالاجتماعات الكبيرة فى لندن يا سيدى ، فأنا لا أحضر وليمة عشاء مع أحد أبدا » .

ورد « مستر التن » بنغمة المتعجب المشفق : « عجبا !! ما كنت أظن أن مهنة القانون تستبعد الانسان بهذا القدر ، أجل يا سيدى ومع ذلك فلابد أن يحين الوقت الذى تجزى فيه على كل ذلك عندما يقل تعبك وتزداد متعتك » .

وأجابه مستر « چون نيتلى » وهم يهمون باجتياز البوابة الخارجية : « ان أحسن متعة لى هى أن أجد نفسى قد عدت الى « هارتفيلد » سالما » .

الفصل الرابع عشر

كان لابد لكل رجل من هؤلاء السادة أن يغير من ملامح وجهه وهم يدخلون الى حجرة الاستقبال فى بيت « مستر وستن » — فيحد « مستر التن » من مرحه ، ويبدو « مستر چون نيتلى » من عبوسته ، وأن يقلل « مستر التن » من ابتساماته — بينا يزيد « مستر چون نيتلى » منها ، ليكونا أهلا للمكان . وأما « اما » فيكفيها أن تكون طبيعية وأن تظهر كعادتها فرحة مستبشرة فقد كانت تجد متعتها فى وجودها بين أسرة « مستر وستن » ، اذ كان « مستر وستن » من أقرب المقربين اليها ، ولم يكن هناك فوق ظهر الأرض من تتحدث معه دون تحفظ مثلما تتحدث مع زوجته ، وما من أحد غيرها كانت تقص عليه شيئا وهى موقنة بأنه يستمع اليها ويعى ما تقول ويفهم ما تقصه عليه فى بسائط أحوالها وترتيباتها ومشكلاتها ومسراتها ومسرات أبيها مثلها . ولم تكن تذكر شيئا عن « هارتفيلد » الا وكانت « ميسز وستن » تبدى عظيم اهتمامها به ، وكان من أهم ما ترتاح اليه نفس كل منهما ، أن يتناولا بالحديث كل المسائل البسيطة التى تتوقف عليها السعادة اليومية فى حياتهما الخاصة ، وأن يدوم الحديث بينهما فى ذلك نصف ساعة دون مقاطعة .

لقد كان فى ذلك متعة لم تكن زيارة اليوم بأكمله لتوفيها حقها ، ولم تكن لتختص بها نصف الساعة الحالية . ومع ذلك فقد وجدت « اما » ما يرضيها فى رؤية « مسز وستن » وابتساماتها ، وفى احساسها بأنها تلمسها وتسمع صوتها ، وقررت ألا تفكر ما وسعها فى تصرفات « مستر

التن » وما قد يأتيه من أفعال مستغربة ، أو فى أى شىء آخر قد لا ترتاح اليه نفسها وأن تستمتع بكل ما فى الحفل من متعة أقدر ما تستطيع . أما مرض « هاريت » فكان قد دار فيه حديث طويل قبل وصول « اما » اذ أخذ « مستر وودهاوس » يروى قصة البرد الذى أصابها ، بعد أن كان قد استراح فى مقعده وقتا يسمح له بسرد كل شىء عنه ، وأن يتحدث عن قصة مجيئه ومجىء « ايزابلا » ، مرددا بأن « اما » سوف تأتى بعده . ثم ما كان يصل الى نهاية حديثه قريرا وهو يقول : « ان على « چيمز » أن يأتى لرؤية ابنته حتى كانت بقية الجماعة قد حضرت ، وتمكنت « مسز وستن » التى كانت توليه كل انتباهها من أن تتركه وترحب بعزيزتها « اما » .

وكانت « اما » قد رأت أن تتناسى « مستر التن » بعض الوقت ومن ثم فقد ساءها وقد اتخذ كل منهم مجلسه ، أن تراه يجلس قريبا منها ، حتى كان من العسير عليها أن تتغلب على فكرة عدم شعوره العجيب نحو « هاريت » .

ولم يجلس فى ملاصقتها فحسب ، ولكنه استمر يطالعها بوجهه المغتبط ويوجه اليها الحديث فى كل مناسبة بتلهف واشتياق ، وهكذا بدلا من أن تنساه ، دفعها سلوكه الى عدم الكف عن التفكير فى قرارة نفسها فيما اذا كان رأى زوج أختها فيه صحيحا ، وهل من الممكن أن يكون ذلك الرجل قد بدأ يتحول بحبه من « هاريت » اليها . انه لمن السخف الذى لا يحتمل أن يفكر مثل هذا التفكير ، ومع ذلك فقد كان مهتما بها ، حريصا على توفير الدفء لها ، شديد الاهتمام بأبيها ، سعيدا بالاحتفاء بمسز وستن » . ثم بدأ آخر الأمر يعجب برسومها فى تحمس شديد ودراية قليلة ، فبدا ويا للهول كما لو كان على أبواب الحب . ولهذا فقد جهدت ما وسعها

الجهد فى أن تحتفظ نحوه بالأدب الضرورى ، ورأت لصالحها ألا تكون فظة معه ، ولصالح « هاريت » أن تكون دمثة فى سلوكها ، أملا فى أن تتحول الأمور الى الغاية المنشودة . على أن ذلك تطلّب منها جهدا كبيرا . وقد كان الآخرون منهمكين فى الحديث وقت أن كان « مستر التن » يشغلها بسخافاته ، فى حين أنها كانت تتوق الى الاصغاء لما يدور بينهم من حديث . ومع ذلك فقد سمعت الكثير مما كان كافيا لأن تعرف منه أن مستر « وستن » كان يدلى بمعلومات عن ابنه ، وسمعت كلمة « فرانك » وكلمة « ابنى » تترددان مرارا خلال حديثه ، وزاد ظنها مما سمعته من أطراف الحديث بأنه يعلن قرب مجىء ابنه لزيارتهم . ولكنهم انتهوا من حديثهم قبل أن تتمكن من جعل « التن » يكف عن الكلام معها ، ورأت أن أى سؤال جديد تسأله فى موضوع فرانك قد يكون شيئا مستهجنا . وعلى الرغم من أن « اما » كانت قد وطدت عزمها على ألا تتزوج أبدا ، فقد كان ذكر اسم « فرانك تشرشل » أو التفكير فيه يثير اهتمامها دائما . وكثيرا ما فكرت ، وخاصة بعد أن تزوج والده بمس « تيلور » ، أنها اذا قدّر لها أن تتزوج ، فانه هو الشخص الذى يناسبها فى السن والخلق ، وبدا لها بحكم الرابطة التى تربط الأسرتين أنه رجلها ، وما كانت تظنها الا زيجة لابد وأن يفكر فيها كل من كان يعرفهما . بل لقد اقتنعت تماما بأن « مستر وستن » و « مسز وستن » كانا يفكران فى ذلك .

وعلى الرغم من أنها لم تكن تريد أن تتأثر به أو بغيره ، حتى لا تتخلى عن وضع كانت تؤمن بأنه يهيىء لها من أسباب الخير ما لا يهيئه لها أى وضع آخر ، فقد كانت تتوق لرؤيته ، مصممة على أن تجده ظريفا ، واثقة من أنه سيعجب بها الى درجة ما شاعرة بالسرور من أن تراود عقول أصدقائها فكرة زواجهما من بعضهما .

ولم تجد — وهذه مشاعرها — الا أن حفاوة « مستر التن » بها قد أسيىء اختيار وقتها بصورة مزعجة ، ولكنها كانت مرتاحة مع ذلك لظهورها معه بالأدب الجم ، رغم أنها كانت تشعر بالوجوم فى قرارة نفسها ، كما أثلج صدرها ما ظنته من أن بقية وقت الزيارة لن ينقضى دون أن تظفر بالمعلومات التى تريدها عن فرانك ، أو على الأقل بمضمونها من « مستر وستن » ، ذلك الرجل الصريح النقى السريرة . وقد تحقق ظنها عندما سعدت بالتخلص من « مستر التن » ، وجلست بجوار « مستر وستن » ساعة العشاء . واستغل مضيفها أول فترة سنحت بعد عبارات الترحيب بالضيوف ، وكانوا قد انتهوا من تناول ضلع الضأن ، ليقول لها :

« لا ينقصنا الا اثنان آخران هنا صديقتك الصغيرة اللطيفة « مس سميث » وابنى لكى أقول بعدها إن عـددنا قد اكتمل ، وأعتقـد أنك لم تسمعينى وأنا أقول للآخرين فى حجـرة الاستقبال ، اننا فى انتظار « فرانك » فلقد وصلنى منه خطاب فى هذا الصباح ، يقول فيه انه سيكون معنا بعد أسبوعين .

وتكلمت « اما » بالقدر المناسب من السرور ، ووافقته على رأيه بأن « مستر فرانك تشرشل » و « مس سمث » يكملان الجماعة فعلا .

واستطرد « مستر وستن » يقول : « ان فرانك ظل يبدى رغبته فى الحضور الينا منذ سبتمبر ، وظل يردد ذلك فى كل رسالة من رسائله ، ولكنه لا يتحكم فى وقته ، فأمامه من يتعين عليه أن يرضيهم ، ورضاؤهم واجب عليه (وبينى وبينك) ان ارضاءهم يتطلب تضحيات كبيرة وكثيرة . ولكنى لا أشك الآن فى أننا سنراه هنا فى حوالى الأسبوع الثـانى فى شهر يناير » .

« ما أعظم ما يدخله هذا من السرور على قلبك ، وان « مسز وستن »

لشديدة الشوق الى التعرف به ، ولابد أنها لا تقل عنك اغتباطا بمجيئه » .

« أجل سيسعدها ذلك ، ولكنها تعتقد أن مجيئه قد يؤجل مرة أخرى. انها ليست متأكدة من حضوره تأكدى من ذلك، ولكنها لا تعرف الوضع معرفتى به ، والأمر كما ترين هو (وهذا سر بيننا لم أذكر منه حرفا واحدا فى الغرفة الأخرى ، وفى كل العائلات أسرار كما تعلمين) ان جماعة من الأصدقاء وجهت اليهم الدعوة لزيارة « أنسكومب » فى شهر يناير ، ويتوقف حضور « فرانك » على تأجيل زيارتهم ، فاذا لم تؤجل فلن يستطيع التحرك من مكانه ، ولكنى أعلم أنهم سيؤجلون زيارتهم ، فهناك سيدة لها مكانتها فى « أنسكومب » ، وهى تكره تلك الأسرة بصفة خاصة ، وعلى الرغم من أن هناك ما يوجب دعوة هذه الجماعة مرة فى كل سنتين أو ثلاث ، فان الزيارة تؤجل دائما عندما تصبح وشيكة الحدوث ، ولا يخامرنى أدنى شك أن هذا هو الذى سيحدث الآن بل انى أكاد أجزم بذلك كما أجزم بوجودى هنا الآن ، وهكذا سوف أرى « فرانك » هنا قبل منتصف يناير (وأومأ برأسه نحو رأس المائدة وهو يقول : « ولكن صديقتك الحميمة التى تجلس هناك ليس لهـا من التخيـلات ، ولم تعتد منها الا القليل فى « هارتفيلد » ، الى حد لا تستطيع معه أن ترتب حسابها على أساس هذه التخيلات كما ظللت أفعل أنا وقتا طويلا » .

وردت « اما » تقول : « انه لمن دواعى أسفى أن يكون هناك أى شك فى موضوع حضوره ، ولكنى مع ذلك فى جانبك يا « مستر وستن ».فاذا رأيت أنه سيأتى لزيارتكم كان ذلك رأيى كذلك فأنت عليم بما يجرى فى « أنسكومب » .

« أجل وأعتقد أن من حقى أن يكون لىَ هذا العلم ولو أنى لم أذهب الى ذلك المكان مرة طوال حياتى ، وهذه السيدة التى حدثتك عنها ، امرأة

مسنة ، ولكنى لا أسمح لنفسى يوما بأن أذمها مراعاة لفرانك لأنى أعتقد أنها مولعة به . وقد كان عهدى بها أنها لا تحب الا نفسها ، ولكنى أراها دائمة العطف عليه (وذلك بطريقتها الخاصة ، وعلى أن تغض الطرف عن أهوائها وتقلباتها ، ورغبتها فى أن يكون كل شىء وفق هواها) وفى رأيى أنه جدير بالثناء لقدرته على اثارة مثل ذلك الشعور فيها ، واذا كنت لا أبوح لأحد بذلك ، فانى أختصك بأن أقول لك ان قلب هذه السيدة نحو الناس جميعا كأنما قُدَّ من حجر ، وطباعها لا تحتمل » .

وصادف الحديث فى هذا الموضوع هوى فى نفس « اما » حتى أنها شرعت تتحدث فيه مع « مسز وستن » بمجرد انتقالهم الى حجرة الاستقبال ، راجية أن تجد فى حضوره باعثا على سرورها ، ولو أنها أضافت بأنها تعلم بأن المقابلة الأولى قد تكون لها رهبتها . ووافقتها « مسز وستن » على ذلك وان زادت عليه أنه يسعدها أن تكون مطمئنة الى أنه لن يكون هناك خوف من تلك المقابلة الأولى فى الموعد الذى يتحدثون عنه « لأنى لا أتوقع أن يتحقق مجيئه فى هذا الموعد ، وليس لى ما « لمستر وستن » من ثقة بمجيئه ، وانى لأخشى كثيرا أن يتمخض كل هذا عن لا شىء ، وأعتقد أن « مستر وستن » كان يدلى اليك بوصف دقيق عن الموقف » .

« أجل ، ويبدو أن كل شىء لا يتوقف الا على انحراف مزاج « مسز تشرشل » وهو ما أرى ليس فى الدنيا شىء يكاد يكون مؤكدا مثله » .

وقالت « مسز وستن » وهى تبتسم : « عزيزتى » اما ، وما الذى يضمن لنا أنها ستغير رأيها فجأة ؟ ثم التفتت الى « ايزابلا » التى لم تسمع الحديث وقالت : « ليكن فى علمك يا عزيزتى « مسز نيتلى » أنى لست واثقة أبدا من رؤية مستر « فرانك تشرشل » كما يظن والده ، لأن ذلك يتوقف على شعور زوجة خاله وما يحلو لها ، أو باختصار على مزاجها ،

وانى لن أحجم عن الادلاء بالحقيقة اليكما يا ابنتاى وهى أن « مسز تشرشل » هى الآمرة الناهية فى « أنكسومب » ، وهى امرأة ذات أهواء متقلبه ، ومجيئه الآن متوقف على ارادتها فى اخلاء سبيله » .

وردت « ايزابلا » : « أوه !! « مسز تشرشل » ان الناس جميعا يعرفونها ، وانى أؤكد لك بأنى ما فكرت فى هـذا الفتى المسـكين الا وشعرت بالاشفاق عليه ، اذ لابد أن يكون العيش مع شخص سيء الطباع مثلها شيئا مزعجا ، وهو ما أعفينا منه فى حياتنا من حسن حظنا . انها حياة لابد أن تكون تعسة بائسة وانه لمن النعم أن هـذه السيدة لم ترزق بنين ، فلو كان لها أطفال ، فما أشد ما كانت تسببه لتلك المخلوقات الصغيرة المسكينة من شقاء !! » .

وودت « اما » لو أنها كانت على انفراد مع « مسز وستن » فى تلك اللحظة حتى تسمع أكثر مما سـمعت ، لأن « مسز وستن » تبوح لهـا بما لا تجازف بأن تبوح به « لايزابلا » ، ولأنها كانت موقنة بأنها لن تخفى عنها شيئا يتعلق بأسرة ! تشرشل » فيما عدا رأيها فى الفتى وهو رأى استطاعت بخيالها وغريزتها أن تقف على قدر كبير منه . وعلى أية حـال فلم يكن هناك ما يقال فى تلك الآونة أكثر مما قيل ، فقد لحق بهن « مستر وودهاوس » فى حجرة الاستقبال بعد قليل ، وهو رجل لا يطيق صبرا على اطالة الجلوس بعد تناول العشاء ، ويعتبر ذلك أشبه بالبقاء فى السجن . ولم يكن الحديث ولا النبيذ عنده مما يساعده على البقاء فى مكانه ، ومن ثم فقد انتقل الآن وهو مغتبط الى أولئك الذين كان يشعر دائما بالراحة وهو بينهم .

وفيما هو يتحدث الى « ايزابلا » ، سنحت الفرصة لاما لكى تقول :

« وعلى ذلك فأنت لا تعتبرين زيارة ابن زوجك هذه مؤكدة بأى

حال . يؤسفنى ذلك حقا ، فالتعارف بينكما لا بدأ أن يكون غير سار متى حدث ، ولكنه كلما تم فى أقرب وقت كان أفضل » .

« أجل ، وكلما كان هناك تأجيل زاد تخوف الانسان فى أن تكون هناك تأجيلات أخرى ، فلو تأجلت زيارة أسرة « بريزويتس » هذه المرة ، فان خوفى من انتحال أعذار أخرى تخيّب رجاءنا لن ينقطع ، وأنا لا أكاد أتصور أن التردد فى المجئ يأتى من جانبه ، ولكنى متأكدة بأن أسرة « تشرشل » شديدة الرغبة فى الاستئثار به ، فهناك شعور بالغيرة ، وهم غيورون حتى من حبه لوالده ، وقصارى القول فانى لا أركن الى الاعتقاد بأنه آت ، وبودى لو كان « مستر وستن » أقل خيالا » .

وقالت « اما » : « ان من واجبه أن يحضر ، ولو استطاع أن يأتى ليومين فقط لكان من واجبه أن يفعل ، وانه ليصعب على المرء أن يتصور شابا فتيا ليست له القدرة على أن يفعل حتى شيئا كهذا .

ان الفتاة اذا ألقت بها المقادير الى أيدى قرناء السوء ، فقد يمكن تهديدها بغية ابقائها بعيدة عن أولئك الذين تحب أن تكون معهم . أما أن شابا يكون فى مثل هذا الحرج حتى ليعجز عن أن يمضى أسبوعا مع أبيه اذا هو أراد ، فهذا ما لا يستطيع أن يفهمه أحد » .

وردت « مسز وستن » تقول : « لابد للمرء أن يكون فى «أنسكومب» وأن يعرف حياة هذه الأسرة قبل أن يقرر ماذا يفعل ، وقد يتعيّن على المرء بصفة عامة أن يكون حذرا فى الحكم على سلوك أى فرد معيّن فى أية أسرة معينة ، أما « أنسكومب » فلا يجوز أن يحكم عليها أحد بهذه الأحكام العامة اطلاقا ، فان هذه السيدة لا تصدر عن روية ولا يقف فى سبيلها شئ » .

« ولكنها مولعة بحب ابن أخت زوجها ، وهو كبير الحظوة عندها .

. ومن الطبيعى جدا حسب فكرتى عن « مسز تشرشل » ، أنها وهى تأبى أن تضحى بشىء فى سبيل راحة زوجها الذى تدين له بكل شىء وتسلك نحوه سلوكا قائما على الأهواء والنزوات ، أن يكون زمامها عادة فى يد ابن أخت زوجها الذى لا تدين له بشىء اطلاقا » .

« لا تدعى لنفسك يا عزيزتى « اما » وأنت على ما جبلت عليه من حسن الطبع ، انك قادرة على تفهم من ساءت طباعهم ، أو انك تستطيعين أن تضعى لهم القواعد والأصول ، بل عليك أن تدعيهم وشأنهم ، ولست أشك فى أن لفرانك فى بعض الأوقات نفوذا كبيرا ، ولكنه قد يستحيل عليه التكهن بالوقت الذى يستطيع أن يستغل فيه سلطانه عليها » .

وأصغت اليها « اما » ثم قالت فى هدوء : « لن أقنع حتى يحضر » .

واستطردت « مسز وستن » تقول : « قد يكون له تأثير كبير فى بعض الأمور ، وقد يقل تأثيره فى أمور غيرها ، ويغلب أن يكون من بين الأمور التى لا يستطيع أن يتغلب عليها اليها موضـــوع تركه لهم وحضـــوره لزيارتنا » .

الفصل الخامس عشر

لم يمض وقت طويل حتى كان « مستر وودهاوس » قد استعد لتناول الشاى ، وما أن تناوله حتى أبدى استعداده للعودة الى منزله ، وحاول الثلاث اللائى كن يجلسن معه أن يسرّين عنه بما يشغله من ملاحظة أنهم أصبحوا فى ساعة متأخرة من الليل الى أن أقبل السادة الآخرون .

وكان « مستر وستن » فياضا فى حديثه معهم ، شديد الترحيب بهم ، عزوفا عن تفرق جمعهم فى ساعة مبكرة . وزاد عدد الحاضرين فى حجرة الاستقبال أخيرا ، وكان « مستر التن » أول القادمين ، ويفيض حيــوية وابتهاجا . وكانت « اما » و « مسز وستن » تجلسان معا عــلى أريكة واحدة ، فشاركهما على التو وجلس بينهما من غير أن يدعواه الى الجلوس . وأرادت « اما » وقد انتعشت نفسها بما علمته عن قرب مجىء « مستر تشرشل » أن تتناسى ما صدر منه أخيرا من تصرفات لا تليق ، وأن تنظر اليه نظرة الرضى كما ظلت تفعــل من قبل . فلما رأته يضع موضــوع « هاريث » فى مقدمة حديثه الآن أظهرت استعدادها الى الاصغاء اليه ، وعلى محياها ابتسامات الصداقة الحقة .

لقد أظهر شدة قلقه على صديقتها الحسناء — « صديقتها الحسناء المحبوبة الجميلة » ، واسترسل يتساءل : « هل علمت شيئا عن صحتها ؟ هل سمعت أى شىء عنها منذ وجودهم فى راندولز » ؟ لقد كان على حد قوله يشعر بقلق عظيم ولا يسعه الا أن يعترف بأن طبيعة مرضها أقلقته كثيرا ، واســتمر يتحدث على هــذا النحو بعض الوقت بطريقة تنم عن

الاخلاص حتى كان لا يبدي اهتماما الى أية اجابة عن أسئلته ، وان ظل طـول الوقت متيقظا لمـا قد يكون للحلق الملتهب من آثار مخيفـة ، وصفحت « اما » عما فرط منه ، وعفت عما سلف .

غير أنه وقع بعد ذلك ما قلب احساسها رأسا على عقب ، فقد بدا فجأة وكأن خوفه من الحلق الملتهب لم يكن من أجل « هاريث » نفسها ، بل من أجلها هي ، وكأنه يخشى عليها هي من العدوى أكثر مما كان يتمنى ألا يكون مرض صديقتها معديا بالكلية ، فأخذ يرجوها بالحاح أن تبتعد عن زيارة حجرة المريضة في الوقت الحاضر ويتوسل اليها أن تعده بأنها لن تقدم علي مثل هـذه المخاطرة حتى يقـابل مستر « يرى » ويقف منـه على رأيه . ورغم محاولتها تخفيف الأمر والعودة بالحديث فى الموضوع الى طريقه السليم ، فلم يتوقف عن اظهار قلقة الشديد عليها .

واغتاظت اما « لذلك ولم تستطع أن تخفى غيظها بعد أن بدا مالا سبيل الى اخفائه ، وهو أنه يريد أن يظهر بأنه لا يحب « هاريت » بل يهيم بحبها هى نفسها ، ولو صح هذا لكان دليلا على عدم الثبات . وعملا جديرا بالاشمئزاز والاحتقار وأحست « اما » بأن من الصعب عليها كبت مشاعرها وأنها على وشك أن تشتط غضبا .

والتفت الى « مسز وستن » يرجو منها العون وهو يقول : « هلا وجد منها مسندا ؟ هلا انضمت اليه وحبذت معه « لمس وودهاوس » عـدم الذهاب الى بيت « مسز جدرد » حتى يثبت تماما أن مرض « مس سمث » غير معد بالمرة ؟ » وأضاف بأنه « لن يقنع بأقل من عهد تقطعه « اما » على نفسها بذلك ، فهلا كان لها من التأثير عليها ما يساعده على أن يظفر بذلك العهد ؟ » ثم استطرد يقول : « انها كثيرة الاهتمام بالغير فى حين أنها لا تهتم بنفسها ، لقد أرادت مني أن أبقى اليوم بالمنزل كى أعالج

نفسى من وعكة البرد ، ثم هى لا تتعهد الآن بتجنب خطر الاصابة بالتهاب الحلق المتقرح فهل هذا عدل يا « مسز وستن » ؟ احكمى فيما بيننا ، أليس من حقى أن أشكوها ؟ انى واثق من مساندتك الرقيقة ومعاونتك لى فى ذلك » .

ورأت « اما » أن « مسز وستن » قد استولت عليها الدهشة العظيمة بما بدا من كلماته وطريقة حديثه من أنه كان يتصور بأنه أول من لهم الحق فى العناية بشئونها ، أما هى فقد شعرت بأنها استثيرت الى حد كبير ، وأن كرامتها قد انتهكت الى درجة تستوجب منها أن تقول شيئا ما على الفور ، ولكنها اكتفت مع ذلك بأن وجهت اليه نظرة ظنت أن فيها الكفاية لكى ترده الى صوابه ، ثم تركت الأريكة وانتقلت لتتخذ لنفسها مقعدا بجوار أختها ، وانصرفت اليها بكل انتباهها .

ولم تكن هناك فسحة من الوقت لترى وقع هذا التأنيب فى « مستر التن » ، ولا سيما بعد أن انتقل الحديث الى موضوع آخر ، فقد دخل « مستر جون نيتلى » الى الحجرة بعد أن وقف على حالة الطقس ليخبرهم بكل ما عنده ويقول لهم أن الأرض قد كساها الثلج ، وان الثلج لا يزال يتساقط بسرعة ، وان الريح تهب بشدة ، واختتم كلامه موجها قوله الى « مستر وودهاوس » :

سوف يكون هذا برهانا يا سيدى على أنك قد بدأت تلبى الدعوات الشتوية بحماســة ، وأنه لشىء جديد على الحوذى وعــلى الخيول أن يضطروا الى شق طريقهم وسط عاصفة ثلجية » .

وسكت « مستر وودهاوس » من أثر الهلع ، أما من عداه فقد كان لكل واحد منهم رأى يبديه ، بعضهم استولت عليهم الدهشة ، وبعضهم أخذوا يتساءلون أو يقولون ما يطمئنون به أنفسهم ، وحاولت كل من «اما»

ومستر ويتنى أن يسريا عن مستر وودهاوس وأن يصرفاه عن الانتباه الى ما يقوله زوج ابنته الذى كان لا يفتر يتشفى فيه . فيقول :

« لقد أعجبت ياسيدى كثيرا بصدق عزيمتك فقد خاطرت بالخروج فى مثل هذا الطقس وكنت ولا شك ترى سقوط الثلج وشيكا ، فقد كان هذا أمرا واضحا للجميع ، ولقد أعجبتنى حيويتك ، وقد يكون لى أن أقول اننا سنعود الى بيوتنا سالمين ، وأن سقوط الثلج ساعة أو ساعتين لن يوصد الطريق أمامنا وأن لدينا عربتين ، ان طوحت الريح بواحدة منهما فى مكان قفر من الحقول ، فلن نعدم عربة أخرى ، نعم أظن أننا سنصل جميعا الى « هارتفيلد » قبل منتصف الليل سالمين » .

وأخذ « مستر وستن » يعترف وهو مزهو بانتصار من نوع آخر ، بأنه كان على علم بأن الثلج قد أخذ يتساقط منذ بعض الوقت ، ولكنه لم ينطق بكلمة حتى لا يقلق راحة « مستر وودهاوس » فيتخذ من ذلك ذريعة للاسراع بالانصراف ، أما أن الثلج قد سقط ، أو هو قد يسقط بحيث يعطل عودتهم فليس الا دعابة . نعم فلن يجدوا فى عودتهم مشقة ، وكم كان بوده أن يستعصى الطريق عليهم حتى يتمكن بذلك من ايوائهم جميعا فى « راندولز » ، مؤكدا فى كرم وحسن ضيافة بأن كل واحد منهم سوف يجد مكانا للمبيت ، داعيا زوجته الى الموافقة على أن مبيت الجميع ميسور بشىء من التعديل البسيط ، فى حين أنها كانت لا تدرى كيف يتأتى لها ذلك وليس تحت تصرفها غير حجرتين .

وكان أول ما نطق به « مستر وودهاوس » بعد مرور بعض الوقت أن التفت الى ابنته فى دهشة وقال :

« ماذا تفعل يا عزيزتى « اما » ؟ ما العمل ؟ » وظل يتطلع اليها ليجد عندها الأمن والطمأنينة ، فكان عندها ما أراد . فلقد طمأنته الى قدرة

الحوذى والى قوة الخيول الفائقة والى أن من حولهم أصدقاء كثيرين ، فأنعشه ذلك بعض الشىء .

ولم يكن هلع ابنته الكبرى ليقل عن هلعه ، فقد استحوذ على مخيلتها الخوف من أن تحتجز فى « راندولز » بينا أطفالها فى « هارنفيلد » ، وتخيلت أن الطريق لن يظل صالحا للمرور طويلا بعد ذلك ، وأنه لن يسمح لهم بمزيد من التسويف ، ومن ثم كانت حريصة على انهاء المناقشة ، على أن يبقى أبوها مع « اما » فى « راندولز » ، وأن تشرع هى وزوجها على الفور فى شق طريقهما خلال الثلوج المتراكمة التى قد تعوق سيرهما ، والتفتت الى زوجها لتقول :

« يحسن بك يا حبيبى أن تأمر بأعداد العربة فى الحال ، وقد تتمكن من السير لو أننا خرجنا حالا ، فاذا ساءت الأمور فسوف أغادر العربة وأمشى نصف الطريق على قدمى حتى اذا وصلت ألى البيت غيّرت حذائى فورا ، وليس هذا بالشىء الذى يصيبنى البرد من جرائه » .

وأجابها زوجها : « عجبا !! لو أن هذا الذى تقولين حدث يا عزيزتى « ايزابلا » لكان أعجب شىء فى الوجود ، فكل شىء فى الدنيا يكاد يصيبك بالبرد ، وانى لأعجب كيف يمكن أن تذهبى الى البيت سيرا على الأقدام ، وحذاؤك رقيق لا يحتمل المشى اليه ، وكفى ما سوف تعانيه الخيل من مشقة الطريق » .

والتفتت « أيزابلا » نحو « مسز وستن » تطلب موافقتها على خطتها فلم يسعها الا أن توافق ، وذهبت « ايزابلا » الى « اما » ولكن « اما » لم تكن قد فقدت بعد الأمل فى أن الجميع قد يتمكنون من العودة معا .

وكانوا لا يزالون فى نقاشهم حين عاد « مستر نيتلى » وكان قد غادر الحجرة مباشرة عقب أول تقرير جاء به أخوه عن حالة الثلج ، ليخبرهم بأنه

خرج يستطلع الحال ، وأنه يرى أنه ليست هناك ثمة صعوبة فى الوصول الى بيوتهم متى شاءوا سواء كان ذلك الآن أم كان بعد ساعة من الزمن ، وأنه سار الى مسافة فى طريق « هايبرى » فلم يكن الثلج فى أى مكان منه يعلو على نصف بوصة ، بل لم يكن كافيا فى بعض الأماكن ليكسو الأرض حلة بيضاء ، وان ما يتساقط من الثلج الآن قليل جدا ، وأن السحب أخذت تنقشع ، وكل الظواهر تدل على أن سقوط الثلج سينقطع حالا . وأضاف أنه قابل الحوذيين فوافقاه على أن ليس هناك ما يخشى منه .

وخففت تلك الأنباء كثيرا من قلق « ايزابلا » واضطرابها . ولم تكن « اما » لتقل عنها اقتناعا بها من أجل أبيها الذى هدأ روعه بقدر ما سمح له جهازه العصبى . على أن المخاوف التى استثيرت فى نفسه لم يكن من السهل مع ذلك تهدئتها الى الحد الذى يجعله يشعر بالراحة والاطمئنان طالما بقى فى « راندولز » ، فلقد اقتنع الآن بأن ليس هناك خطر من رجوعه الى بيته فورا ، ولكنه لم يجد ما يؤكد له أن فى بقائه أمانا .

وبينما كان الآخرون يضغطون عليه ويحبذون بقاءه استطاع « مستر نيتلى » و « اما » أن يحزما الأمر فى جمل قصيرة معدودات . قال « مستر نيتلى » :

« ان والدك سيكون قلقا ، فلماذا لا تذهبون ؟ » .

« أنا على استعداد لو أن الآخرين كانوا كذلك » .

« هل لى أن أدق الجرس ؟ » .

« نعم فلتفعل ! » .

ودق الجرس ، وطلب اعداد العربة ، ومرّت دقائق قليلة راود « اما » خلالها الأمل فى أن يصل رفيق متعب الى داره فيسكن وتهدأ أعصابه ، وأن يستعيد الآخر هدوءه اذا ما انتهت رحلة المتاعب هذه .

وجيء بالعربة ، وكان « مستر وودهاوس » دائما أول من تتجه اليه الرعاية فى مثل هذه المناسبات ، ومن ثم فقد رافقه كل من « مستر نيتلى » و « مستر وستن » وسارا فى ركابه حتى وصل الى عربته ، ولكن ما قاله كل منهما من توكيدات لم يمنع من تجدد فزعه عندما أبصر كمية الثلج التى تساقطت ، واكتشف أن الليل كان أحلك مما كان يتوقع . فلقد كان يخشى أن تكون رحلتهم شاقة متعبة ، وألا تكون « ايزابلا » المسكينة راضية عن ليلتها ، وأقلقه أن تكون « اما » فى العربة التى تسير خلف عربته ، ولم يدر ماذا يحسن بهم عمله ، فقد كان من رأيه ألا تفترق العربتان عن بعضهما ما أمكن .

وتحدث مع الحوذى « چيمز » وكلفه أن يسير على مهل وأن ينتظر العربة الأخرى وهو يشق طريقه .

وخطت « ايزابلا » الى داخل العربة بعد أبيها ، وغاب عن « مستر چون نيتلى » أنه ليس من ركاب هذه العربة فخطا الى داخلها فى اثر زوجته ، وهو أمر طبيعى .

وهكذا ألفت « اما » نفسها وقد رافقها « مستر التن » الى العربة الأخرى ، ثم دخل بعدها ، وفى عربة واحدة معها ، وأغلق عليهما بابها ، فصار لزاما عليهما أن يقضيا رحلتهما فى العربة وحدهما .

وما كان هذا ليضايقها لحظة واحدة ، بل لعلها على العكس كانت تجد فيه سعادة لولا ما ساورها من شكوك فى أمره فى ذلك اليوم ، فلولاها لتمكنت من التحدث معه عن « هاريت » ولكانت مسافة ثلاثة أرباع الميل تبدو اذن وكأنها ربع ميل فقط ، ولكنها ودت الآن لو أن هذه الخلوة لم تكن ، فقد كانت واثقة من أنه قد تناول من نبيذ مستر « وستن » المعتق قدرا كبيرا ، وتأكدت من أنه سيسترسل فى كلامه السخيف .

ولكى تكبح جماحه ما استطاعت بسلوكها ، فقد أعدّت العدة فورا لكى تجعل حديثها معه فى صيغة من الرزانة والجد وأن تقصره على الكلام عن الطقس والليل ، ولكنها ما كادت تبدأ الحديث ، وما كادا يمران بالبوابة المؤدية الى الطريق ، ويلحقان بالعربة الأخرى ، حتى وجدت موضوع الحديث قد توقف فجأة ، ورأته يمسك بيدها ويطلب اليها أن توليه انتباهها ثم يسترسل فيعبّر عن هيامه بها ، مغتنما هذه الفرصة الثمينة لكى يعلن لها عن مشاعره التى لابد وأن تكون معروفة لها ، مشاعر الأمل ، والتخوف والتقديس ، وعن استعداده للموت ان هى رفضته ، ثم يعلل النفس بأن حبه المتأجج ، وهيامه الذى لا نظير له ، وغرامه الذى ليس كمثله غرام ، سيكون شفيعا له عندها . نعم ، فلقد عقد العزم باختصار على أن يلقى عرضه قبولا لديها فى أقرب وقت ..

وهكذا ، وبلا مقدمات ، وبلا اعتذار ، وبلا حياء ، اعترف « مستر التن » حبيب « هاريت » ، بحبه « لاما » وبرغبته فى الزواج منها . وحاولت « اما » أن تصده ، ولكن محاولتها ذهبت سدى وأصر على أن يقول كل ما فى جعبته .

وغضبت « اما » كل الغضب لهذا السلوك ولكنها آثرت فى تلك اللحظة أن تكبح جماح نفسها اذا هى نطقت بشىء ، فلقد شعرت بأن نصف ما كان به من حماقة مرده الأفراط فى الشراب ، ومن ثم راودها الأمل بأن يكون سلوكه هذا ابن ساعته وأنه لابد منته بعد ذلك ، ولهذا ففى مزيج من الجد والدعابة أجابته وهى تبغى من وراء كلماتها أن يكون فيها ما يلائم حالة بين بين التى كان عليها .

« انى مندهشة جدا يا « مستر التن » عجبا !! أتقول هذا لى أنا ؟ انك قد نسيت نفسك وظننتنى صديقتى ، وانه ليسعدنى أن أقوم بتسليم

أية رسالة منك الى « مس سمث » ، ولكنى أرجوك ألا تزيد من هذا معى » .

« مس سمث ! رسالة الى مس سمث !! ماذا عساها أن تعنى بهذا !! وأعاد ترديد كلماتها ممعنا فى طريقة النطق التى يؤكد بها دهشته ، فلم يسعها الا أن ترد عليه بسرعة :

« ان هذا يا « مستر التن » أعجب ما رأيت من سلوك ، فانى لا أجد سببا واحدا أعلل به سلوكك الا أنك قد فقدت وعيك ، والا لما خاطبتنى أو تكلمت عن « هاريث » بمثل هذه الطريقة — تحكم فى نفسك ولا تقل أكثر من ذلك ، وسأحاول أن أنسى ما قلته » .

ولكن « مستر التن » لم يحتس من النبيذ الا القدر الذى ينعشه ، لا القدر الذى يذهب بعقله ، فلقد كان يدرك تماما معنى ما يقول على حد توكيده . وما كاد يحتج فى قوة على ظنها بأنه مخمور ، ويشكو مما يلحقه به هذا الظن من أذى ، ثم يعرّج فى لمسات عابرة على ما يكنه من احترام « لمس سمث » صديقتها ، ويبدى دهشته مع ذلك من ذكر اسمها بالمرة ، حتى استأنف حديثه فى موضوع هيامه وهو يلح فى أن يسمع ردها بالموافقة

وأخذ ظنها بأنه ثمل يقل ، بقدر ما زاد ظنها فى تقلبه وجرأته ، ثم جاهدت بعض الشيء حتى لا تخرج عن جادة الأدب ، وأجابته :

« انه لمن المستحيل علىّ أن يراودنى شك بعد الآن ، فلقد وضح أمرك ، وان دهشتى يا « مستر التن » لهى فوق ما يمكن التعبير عنه ، وهل بعد هذا السلوك الذى سلكته نحو « مس سمث » ، والذى شاهدته بنفسى طيلة الشهر الماضى ، وبعد هذه الرعاية التى كنت توليها اياها ، وكنت ألاحظها كل يوم ، تخاطبنى بهذه الطريقة ، ان هذا خلق ولا ريب منحرف ، وما كنت أظنه محتملا . ثق يا سيدى بأنى بعيدة ، وبعيدة جدا عن أن أرضى بأن أكون موضوع مثل هذه الإعترافات » .

وصاح « مستر التن » قائلا : « رباه !! ما معنى ذلك ؟ مس سمث !! انى ما فكرت فى « مس سمث » طول حياتى ، ولم أختصها أبدا بشىء من العناية ، الا لأنها صديقتك ، وما كان يعنينى أن تموت أو تحيا الا لأنها صديقتك ، ولو كانت تتصور ما يخالف ذلك ، فان أمانيها قد أضلتها السبيل انى آسف جدا ، آسف أشد الأسف ، يا للعجب !! « مس سمث ؟ ! » عجبا يا « مس وودهاوس » !! من ذا الذى يفكر فى « مس سمث » و « ومس وودهاوس » بالقرب منه ، كلا ، وأقسم لك بشرفى أنه ليس فى خلقى أى انحراف ، وما فكرت أبدا الا فيك وحدك ، وانى لأحتج على كل من يقول انى شملت أى إنسان غيرك بشىء من عنايتى ، وكل ما قلته أو فعلته منذ أسابيع كثيرة مضت ، كان هدفى الوحيد منه اظهار فرط حبى لك ولا يمكن أن تكونى جادة فى شكك ، لا أبدا !! » .

ثم قال فى نبرات موحية : « بل انى لمتأكد بأنك لاحظتينى وفهمتينى » .

وقد يصعب على المرء أن يحدد مشاعر « اما » وهى تستمع الى هذا الكلام ، أو يقول أى هذه المشاعر المؤلمة كان يبز غيره . بل لقد كانت هى نفسها قد غمرتها مشاعرها حتى لم تعد قادرة على تحديد ذلك ، ومضت لحظتان سادهما السكون ، ولكن « مستر التن » رأى فيهما تشجيعا له ، فحاول أن يمسك بيدها مرة أخرى وهو يقول مغتبطا :

« كم أنت لطيفة يا « مس وودهاوس » !! اسمحى لى أن أفسر سكوتك الجميل على أنه دليل على أنك أدركت مقصدى منذ وقت طويل » .

وصاحت « اما » تقول : « لا يا سيدى ، ان السكوت لا يدل على شىء من هذا ، وأنا لم أدرك قصدك من قبل ، بل لقد أخطأت كل الخطأ فى ادراك قصدك حتى هذه اللحظة ، أما عن نفسى فانى آسفة أشد الأسف اذ أراك تفضفض عن مشاعرك ، وما من شىء أبعد من هذا عما أريده ، وان اتصالك

بصديقتى « هاريت » وتتبعك لها (كما بدا لى) قد غمرنى بالسرور ، وكنت أصبو الى أن أراك قد وفقت فى هذا ، ولكننى لو ظننت وقتها أنها لم تكن الهدف الذى اجتذبك الى « هارتفيلد » ، لوجدتك ولا شك غير مصيب فى كثرة ترددك عليها . وهل تريدنى أن أعتقد أنك لم تحاول اطلاقا أن تزكى نفسك لمس « هاريت سـمث » خاصـة ؟ وانك لم تفكر فيها جديا ؟ » .

فصاح قائلا وقد أحس بالمهانة بدوره : « أبدا يا سيدتى وأؤكد لك أن شيئا من هذا لم يحدث أبدا ، وانى لأعجب كيف أفكر فى « مس سمث » جديا !! ان « مس سمث » فتاة لا غبار عليها ، ويسعدنى أن أراها قد استقرت وتزوجت زيجة محترمة . وأنا أرجو لها كل خير ، ولا شك عندى بأن هناك من الرجال ، من لا يعـارض فى ... ، ان لكل شخص مكانته الاجتماعية ، أما من جهتى فاننى لا أظننى قد ضيعت نفسى وبلغ بى اليأس من أن أوفق الى زوجة كفء ، حدا يجعلنى أتقدم الى « مس سمث » !! لا يا سيدتى ان زياراتى لهارتفيلد لم تكن الا من أجلك أنت ولما لقيته منك من تشجيع على ذلك »

« تشجيع ؟؟ ماذا تقول !! أنا كنت أشجعك ! ؟ لقد أخطأت يا سيدى كل الخطأ فى ظنك هذا ، وما كانت نظرتى اليك الا عـلى أنك معجب بصديقتى ، وأنت فيما عدا ذلك لست فى نظرى الا واحدا من معارفى العاديين لا أكثر ، وانى لشديدة الأسف ، ولكن من الخير أن ينتهى الخطأ عند هـذا الحد ولو أنك داومت على سلوكك هذا ، لأخطأت « مس هاريت » مقصدك ، وربما لم تكن فى عدم ادراكها لهذا الفارق العظيم بين درجات الناس ، الذى أراك تحس به كل هذا الاحساس بأكثر منى ، على أن الشعور بخيبة الأمل فى هذه الحالة الآن انما هو من جانب واحد ، وأعتقد أن هذا لن يدوم ، فأنا لست أفكر حاليا فى الزواج » .

وعقد الغضب لسانه عن أن يتفوه بكلمة أخرى . وكانت طريقة حديثها حازمة فلم تترك له مجالا للرجاء — وفى تلك اللحظة التى ثارت فيها حفيظة كل منهما لشعوره بأن كرامته قد امتهنت ، كان عليهما أن يستمرا فى صحبة بعضهما بضع دقائق أخرى ، فقد شاءت مخاوف « مستر وودهاوس » أن تضعهما سويا فى هذا الحيز الضيق ، ولو أن الغضب لم يصل الى ذروته لبدت منه تصرفات اليأس المبتذلة ، ولكن انفعالهما الذى لم تخف حدته ، لم يترك مجالا لما تضيق به صدور الناس من أخذ ورد .

ووقفت العربة بهما فجأة عند باب منزله ، ولم يكونا قد شعرا بدخولها المنعطف الذى يقع فيه منزله ، ولا متى وقفت العربة ، وسرعان ما خرج منها دون أن ينطق بكلمة واحدة ، ورأت « اما » أن من الحكمة أن تتمنى له ليلة سعيدة ، ورد التحية فى برود وكبرياء ، ثم انتقلت بها العربة الى « هارتفيلد » وقد أثير شعورها بالغيظ الى درجة لا يمكن وصفها .

ورحب بها والدها فى « هارتفيلد » وهو مسرور بقدومها ، فقد كان يرتجف خوفا عليها من خطر قد يلحقها وهى بمفردها فى عربة تسير بها من منعطف راعى « الأبرشية » وتعرج بها فى منحنى لا يطيق التفكير فيه ، خاصة وأن العربة لا يقودها حوذيه « چيمز » بل حوذى عادى لم تكن له خبرة حوذيه الخاص .

وقد بدا أن الحاجة كانت ماسة الى عودتها لكى تصلح الأمور جميعها ، وهكذا نرى مستر « چون نيتلى » ، وقد شعر بالخجل لما بدا منه من غلظة نحو رجل كله عطف ورعاية ، يحنو على أبيها ولا يهمه شىء الا راحته الى حد ، ان لم يسمح له بمشاركته فى تناول طبق من العصيدة ، فقد دفعه على الأقل الى الموافقة على فائدتها للصحة .

وانقضى اليوم فى هدوء وسكينة لكل فرد من أفراد تلك الجماعة الصغيرة ، الا « اما » التى لم يصادفها طيلة حياتها اضطراب فى التفكير مثلما صادفها فى هذه الليلة ، وقد اقتضتها ضرورة التظاهر بالمرح والاهتمام ، جهدا مضنيا ، الى أن جاءت الساعة التى افترق فيها كل منهم الى فراشه ، لتمنحها فترة من التفكير الهادىء .

الفصل السادس عشر

كانت قد انتهت من تصفيف شعرها وانصرفت الخادمة . وجلست «أما» بعد ذلك تفكر وتتأمل وتترك نفسها لشعور التعاسة الذى كان ينتابها . فلقد كانت المسألة كلها مسألة طالعها النحس أن يتبدد كل ما كانت تؤمل فيه ، وأن تتطور الأمور فى اتجاه لا يرضى . يا لها من ضربة قاصمة أصابت « هاريت » !! لقد كان هذا الجانب أسوأ ما فى الأمر ، كل شىء فيه جلب فى أعقابه الألم والمهانة من نوع أو آخر ، ولكن كل ذلك اذا قورن بما لحق « بهاريت » كان هينا بسيطا . بل لقد كانت « اما » تقبل عن رضى بأن تكون أكثر خطأ وأكثر ملامة ، وأن تكون خليقة بمزيد من الخزى والعار بسبب سوء حكمها على الأشياء ، لو أن آثار غلطتها ارتدت عليها وحدها .

« لو أننى لم أرغب « هاريت » فى محبة الرجل لتحملت كل شىء ، صحيح انه ربما كان يضاعف جرأته علىّ ، ولكن « هاريت » المسكينة قد خدعت هى الى هذا الحد !! » لقد احتج أنه لم يفكر جديا فى « هاريت » على الاطلاق ، نعم على الاطلاق ، وحاولت « اما » أن تستعرض الماضى ما أمكنها فألفت نفسها فى لجة من الحيرة والارتباك ، وبدت لها نفسها وقد احتضنت الفكرة التى احتضنتها ، وفرضت الفروض ، ورتبت كل شىء على أساسها . واذن لابد أن سلوكه لم يكن واضح المعالم ، لابد أنه كان سلوكا متأرجحا مترددا وباعثا على الغموض ، ولولا ذلك لما خدعت » . والصورة !! كم كان متلهفا عليها ! والأحجية ومئات من المناسبات الأخرى ! لقد كانت كلها تبدو واضحة على أنها موجهة الى

« هاريت » ، وتؤكد ذلك الأحجية ، ما ذكره فيها عن « سرعة بديهتها » ولكن « العيون الناعسة » من كان يقصده بها ، الحق ان الوصف لم يكن منطبقا على أيهما . نعم ، لقد كانت الأحجية كلها خلطا تعوزه الحقيقة وحسن الذوق ، ثم من ذا الذى كان يستطيع أن يرى ما وراء هذا المزيج الكثيف من الترهات ؟ » الحق يقال انها كانت قد لاحظت فى كثير من الأحيان ، وخاصة فى الأيام الأخيرة ، أن سلوكه نحوها كان فيه شهامة لا ضرورة لها ، ولكنها مع ذلك كانت تتغاضى عن ذلك وترى أنه نتيجة قصور فى الحكم الصحيح وفى المعرفة والذوق ، ودليل من بين أدلة عديدة على أنه لم ينشأ فى أوساط راقية ، وعلى أنه كان ينقصه أحيانا بعض الأناقة السليمة رغم رقة حديثه ، ولكنها ما كانت تشك لحظة واحدة حتى ذلك اليوم ، فى انه كان لا يعنى بذلك سوى التعبير عما يكنه لها من احترام وتقدير ، باعتبارها صديقة « هاريت » . لقد شعرت الآن بأنها مدينة لمستر « چون نيتلى » بأول فكرة عن هذا الموضوع ، وبأول بداية لاحتمال هذا الاتجاه الجديد . وما كان أحد لينكر ما للأخوين « نيتلى » من بصيرة نافذة ، لقد تذكرت الآن ما قاله لها « مستر نيتلى » مرة عن « مستر التن » ، وتحذيره لها ، ثم تأكيده بأن « مستر التن » لن يتزوج دون روية . واحمرت وجنتاها خجلا عندما تبينت أنهما كانا أصدق علما بأخلاقه منها . لقد برهن « مستر التن » فى كثير من الحالات على أنه عكس ما كانت تعتقد ، اذ كان متكبرا ، دعيا ، مغرورا ، امتلأ عقله بما يزعمه لنفسه من مزايا بينما هو لا يهتم بمشاعر الآخرين .

لقد كانت رغبة « مستر التن » فى التقدم ليطلب يدها — على عكس ما جرت به العادة — سببا فى تسوىء فكرتها عنه ، ولم تجده فى ذلك اعترافاته ولا عروضه ، فان « اما » لم تفكر يوما فى حبه ، بل لقد شعرت

بالاهانة وهى تراه يعلق آماله عليها . لقد أراد أن يتزوج زيجة طيبة ، فدفعه غروره الى أن يرفع بصره اليها وأن يتظاهر بأنه قد شغف بها حبا . وما كان ضميرها ليؤرقها لما أصابه من خيبة الأمل ، فهو لم تبد فى أقواله ولا فى حركاته ما ينم عن حب صادق . صحيح أنه أكثر من التنهدات وهو يتحدث ، ولكن تعبيراته ونبرات صوته كانت أبعد ما تكون عن الحب الحقيقى . ولم تجد « اما » فى نفسها ما يدعوها للاشفاق عليه . ان كل ما كان يبغيه هو أن يرفع من شأن نفسه ، وأن يحسن من أحواله ، فهو اذا لم يستطع الظفر « بمس وودهاوس » سليلة « بيت هارتفيلد » والوريثة لثلاثين ألفا من الجنيهات ، كما يذهب به خياله ، فانه سرعان ما يحاول الزواج بآنسة أخرى تملك العشرين أو العشرة آلاف .

ولكن الذى كان يثير غضبها الى أقصى الحدود هو ما قاله عن تشجيعها له ، وزعمه بأنها كانت عليمة بأغراضه ، راضية عن مقاصده ، تقبل باختصار أن تتزوجه ، وافتراضه أنه يقف منها على قدم المساواة ، سواء من حيث النسب أو التفكير ، ثم احتقاره لصديقتها ، فأثبت بذلك أنه يدرك من كان دونه فى المقام ، ويعمى فى الوقت نفسه عمن كان فوقه ، حتى ظن أن طلب يدها لا يعتبر جرأة منه ، ان هذا لهو الاستفزاز بعينه .

وقد لا يكون من الانصاف أن تنتظر منه أن يدرك مدى تخلفه عنها فى العقل وفى دقة التفكير ، لأن ما ينقصه من ذلك كفيل بأن يقعد به عن ادراك هذا الفارق بينهما ، ولكن كان عليه أن يعلم بأنها تفوقه كثيرا من حيث المال والمكانة ، فهو لابد مدرك أن « بيت وودهاوس » قد استقر فى « هارتفيلد » منذ أجيال عديدة ، وأنه فرع من فروع أسرة عريقة تليدة ، بينما أسرة « التن » لم تكن شيئا مذكورا . حقيقة ان الأرض التى فى حيازة « بيت هارتفيلد » ليست شاسعة ، فهى ليست الا جزءا صغيرا من

ضيعة « أبرشية دونول » التى ألحق بها كل ما بقى من قرية « هايبرى » غير أن موارد أسرتها من مصادر أخرى كانت كفيلة بألا تجعلهم فى مكانة دون « أبرشية دونول » نفسها ، فى كل شىء عدا حيازة الأرض ، فضلا عن أن « أسرة وودهاوس » كانت دائما موضع التقدير والاحترام من أهل المنطقة كلها ، وهى المنطقة التى لما يمضى على وجود « مستر التن » بها غير سنتين اثنتين ، حين أقبل اليها ليشق طريقه على قدر جهده ، وليس له من قرابة الا قرابته بمحترفى التجارة ، ولا شىء يلفت الأنظار اليه الا مركزه وتأدبه ، ثم ها هو الآن يتخيل أنها تحبه ، وهذا هو كل ما يعتمد عليا فيما يبدو .

وبعد أن أستطردت « اما » قليلا فى هذا التفكير المحموم على التناقض الواضح بين الدماثة والغرور ، وجدت أن الأمانة تقتضيها أن تتوقف لتعترف بأن سلوكها نحوه كان محببا الى النفس ، داعيا الى التقـدير ، متسما بالترحيب والاهتمام ، الى حد قد يحمل الرجل العادى فى دقته وقدرته على الملاحظة ، مثل « مستر التن » (هذا اذا لم تكن نواياها الحقيقية واضحة) على أن يتخيل أنه من المقربين اليها ومن ذوى الحظوة عندها . ثم اذا كانت هى قد أخطأت فى فهم مشاعره فليس لها أن تعجب اذا أخطأ هو فى فهم مشاعرها وقد أعمته مصالحه .

ان أول الاخطاء فى هذا الموضوع كله ، وأكثرها شفاعة ، انما يقع على كاهلها . فأنه لمن الحماقة والخطأ أن يحاول انسان أن يقوم بدور ايجابى لكى يجمع بين شخصين ، فهى مخاطرة لها نتائج بعيدة المدى ، ومغالاة فى الوثوق بالنفس ، واستهانة بجلائل الأمور ، بل هو تحايل على ما يجب أن يكون بسيطا لا تعقيد فيه .

وقد قلقت « اما » لذلك كثيرا وشعرت بالخجل ، ووطدت عزمها على ألا تقوم بمثل هذه المحاولة بعد الآن وقالت لنفسها :

« ها أنذا قد دفعت المسكينة « هاريت » بكلامى ، الى دعم صلتها بهذا الرجل ، ولولاى لما فكرت فيه أبدا ، بل من المؤكد أنها لم تكن لتعلق عليه أملا لولا أننى أكدت لها تعلقه بها ، فهى متواضعة بقدر ما كنت أظنه كذلك . ليتنى كنت قنعت بتنفيرها من الفتى « مارتن » ، فلقد كنت على حق فى ذلك ، وهو ولا شك اجراء محمود من جانبى . ولكن كان يجب علىّ أن أكتفى بذلك وأن أترك ما تبقى للوقت وتحين الفرص . لقد كنت أقدمها فى الأوساط الراقية ، وكنت أهيىء لها الفرصة لتنال استحسان من تراه جديرا بها ، وكان من واجبى ألا أحاول أكثر من هذا ، ولكن الفتاة المسكينة قد فقــدت الآن ما كانت تشعر به من السكينة الى حين . انى لم أكن فى كل ذلك الا نصف صديقة لها ، واذا هى لم تشعر فى ذلك بصدمة عنيفة لآمالها فانى لا أكاد أجد غير « التن »من يليق بها . « وليم كوكس » ؟ لا ، انى لا أطيقه ، فهو محام ناشىء ومتعجرف » .

وتوقفت هنا عن الكلام واحمرت وجنتاها خجلا وضحكت لرجوعها الى سيرتها الأولى ، ثم عادت تفكر وهى أكثر جدية وأشد قلقا ، فيما كان ، وفيما يحتمل أن يكون ، وفيما يجب أن يكون . فكرت فيما يجب أن تقوله لهاريت لتوضح لها مأساتها وفى كل ما قد تعانيه المسكينة من آلام ، وفيما قد تكون عليه المقابلات فى المستقبل من حرج ، وفى الصعوبة التى قد تترتب مستقبلا على الاستمرار فى صداقة « مستر التن » أو قطعها على السواء ، وفى المضايقات التى قد تنجم عن كبت الأحاسيس واخفاء الشعور بالاساءة ، وتجنب الجلبة والضجيج لقد كان فى كل هذا ما يكفى ليشغل بالها فى تأملات محزنة . وآوت أخيرا الى فراشها ولم تكن قد انتهت بعد الى قرار سوى أنها قد أيقنت بأنها قد ارتكبت أفظع غلطة .

على أن طلوع النهار على واحدة مثل « اما » فى شبابها ومرحها الطبيعى

رغم ما يكون قد اعتراها من هموم وقتية فى أثناء الليل ، كفيل بأن يعيد اليها حيويتها ويذهب عنها أتراحها . فالشباب وبهجة الصبح صنوان قويان لهما أثر بليغ ، ومن ثم فان المآسى والآلام اذا لم تبلغ حدا يؤرق صاحبها ، فان العين لابد تنفتح فى الصباح على آلام أخف ، وعلى آمال أزهى وأكثر اشراقا .

واستيقظت « اما » فى الصباح وهى أكثر ارتياحا مما كانت وقت أن آوت الى فراشها ، وأكثر استعدادا للتخفيف من حدة الشر الذى يواجهها ، والتخلص منه بسلام . وكان أعظم عزاء لها ، أن « مستر التن » لم يكن جادا فى حبه لها ، أو أنه لم يكن له من رقة الشعور ما يجعله يشعر بصدمة عندما لا تتحقق آماله ، وأن طبيعة هاريت لم تكن من النوع المرهف الذى يحتضن آلامه ، وأنه لا داعى لأن يعرف كائن من كان بما حدث ، اللهم الا ثلاثتهم الذين شملتهم المأساة خاصة ، ولا سيما والدها الذى كانت تحرص كل الحرص على ألا تسبب له ازعاجا ولو لحظة واحدة من هذه الناحية . وابتهجت لهذه الأفكار السارة كثيرا ، كما كان لمنظر الثلوج المتراكمة على الأرض أثر كبير فى نفسها ، فقد كانت ترحب بأن يظل ثلاثتهم فى الوقت الحاضر فى عزلة عن بعضهم .

كانت حالة الطقس فى يومها هذا أعظم ما يلائم مزاجها ، ومع أنه كان يوم عيد الميلاد ، فانها لم تقو على الذهاب الى الكنيسة ، ولو أنها كانت حاولت ذلك لكان ذلك سببا فى ابتئاس « مستر وودهاوس » ، ولذا فقد شعرت بأنها فى مأمن من أن تثير أية أفكار غير سارة لا مكان لها فى ظروفها أو أن تسمع بشىء من ذلك . ولما كانت الأرض قد ظلت مغطاة بالثلوج ، والطقس متقلبا ما بين صقيع متجمد ، وثلوج آخذة فى الذوبان ، مما جعله أبعد من أن يكون صالحا للرياضة ، وكان الصباح يبدأ كل يوم بأمطار غزيرة أو ثلوج منهمرة لا تلبث أن تتحول الى جليد عندما يحل المساء ،

فقد بقيت سجينة مكرمة فى بيتها أياما عديدة لا تستطيع الاتصال بهاريت ، اللهم الا أن يكون ذلك عن طريق تبادل الرسائل . ثم لا حاجة بها الى الذهاب الى الكنيسة يوم الأحد بأكثر مما كانت بها حاجة الى الذهاب اليها يوم عيد الميلاد ، ولا ضرورة تقضى بتلمس الأعذار التى تبرر تغيب « مستر التن » عنهم .

فلقد كان الطقس مما يجعل كل انسان يقبع فى عقر داره . وعلى الرغم من أنها كانت ترجو وتعتقد أن « مستر التن » كان يجد سلواه بين جماعة أو أخرى ، فقد كان أعظم ما يسرها أن ترى والدها راضيا كل الرضى عن بقائه فى منزله لا يغادره ، وأن تسمعه يقول ان ملازمته للبيت قد دلت على حكمته ، ويسأل « مستر نيتلى » الذى لم يكن أى طقس ليصرفه عن المجىء اليهم :

« عجبا يا « مستر نيتلى » لماذا لم تقم فى بيتك كما فعل « مستر التن » المسكين ؟ » .

ولولا همومها الخاصة ، لكانت تلك الأيام التى ظلت فيها حبيسة فى بيتها ، أكثر أيامها راحة ومتعة ، فقد كانت مثل هذه العزلة أكثر ما يلائم زوج أختها الذى كان يتعين على من كان فى صحبته أن يرعى مشاعره دائما ، وهو علاوة على ذلك كان قد تخلص من الشعور بالكآبة الذى لازمه وهو فى « راندولز » حتى أصبح فى الأيام الباقية له فى « هارتفيلد » عزيزا على الجميع ، ظريفا دائما ، يهتم بالجميع ، ولا يحمل لأحد فى حديثه حقدا ولا ضغينة .

ولكن على الرغم من كل ما كانت تؤمله « اما » من زوال هذه الغمة عن صدرها ، وما كانت تشعر به من راحة بسبب ارجاء ضرورة مواجهة موضوع الأمس ، فقد كانت ترى سحابة كئيبة تخيم على نفسها كلما فكرت فى الساعة التى يتعين عليها فيها أن توضح الأمور « لهاريت » . وهكذا استحال عليها أن تهدأ نفسها ، وأن تكون خالية من الهموم .

الفصل السابع عشر

لم تدم اقامة « مستر چون نيتلى » وزوجته فى « هارتفيلد » طويلا فسرعان ما تحسن الطقس الى درجة تسمح لمن يرى وجوب الرحيل بأن يرحل . وقد حاول « مستر وودهاوس » على عادته أن يقنع ابنته بالتخلف هى وأطفالها جميعا ، ولكنه ألفى نفسه مضطرا فى آخر الأمر أن يقف لتوديع الجماعة ، ثم عاد بعد ذلك ليعبر عن أسفه على مصير « ايزابلا » المسكينة ، هذه المسكينة التى تقضى حياتها بين من يشغفها حبهم وتتغنى بمحاسنهم ، وتغمض عيونها عن مساوئهم ، وتظل دائما منهمكة فى كل ما هو برىء من الأعمال ، فضربت بذلك المثل على السعادة النسوية الحقة .

وقد حمل نفس المساء الذى رحلت فيه الجماعة رسالة الى « مستر وودهاوس » من « مستر التن » ، كانت رسالة مطولة تفيض أدبا واحتراما ، يقول فيها مع أطيب تحياته ، أن فى عزمه مبارحة « هايبرى » فى صبيحة اليوم التالى ، ميمما نحو « باث » ، استجابة لرغبة بعض أصدقائه الذين ألحفوا عليه بالرجاء كى يقضى معهم بضعة أسابيع ، وأنه يأسف كل الأسف بسبب ظروف كثيرة ، منها الطقس ومطالب العمل ، أن يستحيل عليه الحضور شخصيا ليستأذن من « مستر وودهاوس » فى الرحيل ، وهو الذى أضفى عليه من التكريم ما جعله يلهج بحسن صنيعه على الدوام ، وانه ليسعده أن يلبى كل ما يطلبه منه « مستر وددهاوس » .

واستولت على « اما » الدهشة المقرونة بالغبطة . لقد كان تغيب « مستر التن » فى الوقت الحاضر الشىء الذى تتمناه ، ولقد أعجبها تدبير

أمر تغيبه ، ولو أنها لم تستصوب طريقة ابلاغه ، فما كان يستطيع أن يعبّر عما يعتمل فى نفسه نحوها بأبلغ من عبارات التبجيل والمجاملة التى أضفاها على أبيها فى رسالته ، بينما تعمّد أن يغفلها منها اغفالا مقصودا ، فلم يشركها حتى فى عبارات التحية فى مطلع رسالته .

وقد كان فى كل ذلك من التغير فى المعاملة وفى الجدية فى استئذانه فى السفر ، وفى عبارات التقدير والعرفان بالجميل التى جرى بها قلمه ما حمل « اما » على الاعتقاد أو الأمر بأن أباها لن تفوته ملاحظة هذا التبدّل أما فى الواقع فقد فات أباها أن يلحظ شيئا من ذلك ، فقد استولت عليه الدهشة لهذا الرحيل المفاجىء ، وخشى أن يلحق « بمستر التن » سوء قبل أن يصل الى نهاية رحلته ، فعجز عن أن يرى فى أسلوب رسالته شيئا غير عادى . ومع ذلك فقد أفادت الرسالة كثيرا لأنها أمدتهما بمادة جديدة يفكران فيها ويتحدثان عنها بقية اليوم وهما على انفراد . وقد تحدث « مستر وودهاوس » اليها عن مخاوفه ، وجاهدت « اما » بسرعتها المعهودة لابعاد تلك المخاوف عنه .

وقد عقدت « اما » الآن عزمها على ألا تتأخر فى اطلاع « هاريت » على حقيقة الموقف وألا تخفى شيئا عنها . ولما كانت تعتقد بأنها قد أوشكت على البرء من البرد الذى أصابها ، فقد رأت من المستحسن أن يكون أمام صديقتها فسحة من الوقت ما أمكن لكى تبرأ من علتها الأخرى قبل عودة « مستر التن » . ومن ثم فقد ذهبت الى بيت « مستر جدّرد » فى اليوم التالى متحملة ما لابد أن تتحمله من الآلام التى تنجم عن نقل مثل هذا الخبر ، وما أقساه من ألم ! نعم فلقد كان عليها أن تهدم الآمال التى ظلت تبنيها باهتمام فيما مضى وأن تظهر فى مظهر غير كريم ، مظهر السيدة المفضلة التى تعترف بخطئها وسوء حكمتها فى آرائها ، وملاحظاتها ،

واعتقاداتها وتنبؤاتها خلال الأسابيع الستة الماضية . وقد أعاد اليها هذا الاعتراف ما أحست به من الخجل فيما مضى ، وكانت رؤيتها لدموع « هاريت » باعثا لها على ألا تغفر لنفسها زلتها بعد اليوم .

وتحملت « هاريت » النبأ بشجاعة دون أن تلوم فى ذلك أحدا وأثبتت بذلك ما لها من أصالة الخلق ومن التواضع فى فكرتها عن نفسها ، مما سهل على صديقتها مهمتها فى تلك اللحظة . فلقد كانت « اما » فى حالة نفسية تجعلها تقدر البساطة والتواضع أعظم تقدير ، فبدت لها « هاريت » وقد اتصفت بكل ما هو محبب الى النفوس وبكل ما يجتذبها الى قلوب الناس . ولم تجد « هاريت » فيما حدث ما يدعو الى شكايتها فان حب رجل مثل « مستر التن » لها هو ولا شك امتياز يفوق ما تستحقه ، وما من أحد كان يظنه ممكنا ، الا اذا كان متحيزا ، أو صديقا شديد العطف مثل « مس وودهاوس » .

وانهمرت الدموع غزيرة من مآقى « اما » ، فقد كان حزنها أصيلا لا صنعة فيه . وما من وقار ، أو عظمة ، كان كفيلا بأن يبعث على الاحترام بأكثر من تلك الدموع التى كانت فى عينيها . لقد أصغت الى صديقتها وحاولت أن تواسيها من قرارة قلبها ، وبكل ما اتسعت له وسائلها وتفكيرها .

وما من شك فى أن « هاريت » قد أثبتت فى تلك الآونة أنها المتفوقة من بين الاثنتين ، وأن « اما » لو كانت مثلها ، لكان هذا أجدى عليها وأجلب لسعادتها من نبوغها وذكائها .

لقد تطورت المسألة الى حد لم يكن يسمح لها بأن تسير فى الحياة بعد ذلك فى غباء وجهل ، ولكنها تركت « هاريت » الآن ، وفى نفسها ما عقدت عليه العزم من قبل ، بأن تكون متواضعة ، حكيمة ، تكبح جماح

خيالها ما بقى لها من العمر ، وأصبحت ترى الآن أن واجبها الذى لا يعلو عليه واجب آخر غير واجبها نحو أبيها ، يقتضيها أن تهيىء كل ما فيه راحة « هاريت » وأن تحاول جهدها أن تثبت لها حبها بطريقة أفضل من أن تهيىء زيجة لها . فجاءت بها الى « هارتفيلد » وغمرتها بعطفها وحنانها ، وبذلت قصارى جهدها كى تشغل فراغها وتسليها ، واستعانت بالكتب وبالحديث لتطرد « مستر التن » من مخيلتها .

وكانت تعلم أن تحقيق ذلك سوف يحتاج الى وقت طويل وأنها لا تعدو أن تكون حكما وسطا لا خبرة له بمثل تلك المسائل بوجه عام ، وأنها ليست كفئا لأن تواسى فى موضوع حب « مستر التن » بوجه خاص ، ولكنها رأت مع ذلك أنها لن تخرج عن جادة الصواب لو أنها — و « هاريت » فى هذه السن تفتقد كل أمل — عملت على أن تتقدم الأمور بها نحو الاستقرار قبل أن يعود « مستر التن » ، بحيث تسمح لهم مرة ثانية بالاجتماع جميعا فى ظروف الصداقة العادية دون أن يكون فى ذلك خطر فى فضح مشاعرهم أو فى اذكائها .

لقد كانت هاريت ترى فى « التن » كل ما يمثل الكمال ، ولم تجد من يعدله فى هيئته أو طيبته ، وأثبتت فى الواقع بذلك أنها كانت جادة فى حبه بأكثر مما تنبأت به « اما » ، ولكن « اما » وجدت مع هذا أن مقاومة مثل هذا الشعور غير المتبادل أمر طبيعى ، بل هو أمر لامفر منه ، وأن مثل هذا الحب لا يمكن أن يستمر طويلا بمثل القوة التى كانت له .

واذا كان « مستر التن » بعد عودته يظهر عدم اهتمامه بصورة جليّة لا تدع سبيلا الى الشك مما لم تكن « اما » ترتاب فى أنه يتوق الى عمله الآن ، فأنها لا تتخيل أن « هاريت » يمكن أن تداوم على أن تجعل سعادتها مقرونة برؤيته أو بذكراه .

على أن ارتباط ثلاثتهم ارتباط كاملا بنفس المكان ، كان له أثر سيء على كل واحد منهم ، فلم يكن فى وسع أحدهم أن ينتزع نفسه من هذا المجتمع ، أو أن يحدث فيه تغييرا جوهريا ، واذن فلا مناص فى أن يتقابلوا وأن يلقى بعضهم بعضا ، وأن يحاولوا أن يوفقوا بين ذلك وبين أنفسهم ما استطاعوا .

ولقد كان حديث زميلات « هاريت » فى بيت « مسز جدرد » مما يزيد عليها تنغيص عيشها ، فقد كان « مستر التن » معبود المدرسات وكبريات البنات بالمدرسة ، ومن ثم فلم يكن غير « هارتفيلد » مكانا يمكن أن تسمع فيه عنه حديثا وسطا يخفف عنها ألمها ، أو كلمات صدق تنفرها منه ، فحيثما حدث الجرح وجب أن يكون التئامه ان كان ثمة التئام . وشعرت « اما » بأنها لن تنعم حقيقة حتى ترى صديقتها فى طريقها الى البرء مما هى فيه .

الفصل الثامن عشر

لم يأت مستر فرانك تشرشل ، ولما اقترب الموعد الذى كان محددا لمجيئه تحققت مخاوف « مسز وستن » حين وصلت منه رسالة يعتذر فيها ويقول انه لم يظفر بالموافقة على مجيئه وأنه شديد الألم والأسف من أجل ذلك ولكنه ما زال يؤمل الحضور الى « راندولز » قريبا .

وكان احساس « مسز وستن » بخيبة الأمل من احساس زوجها رغم أنها كانت أكثر منه رزانة فى ترقبها مجىء الفتى . غير أن المستبشر على الرغم من أنه ينتظر من الخير أكثر مما يتحقق فعلا ، لا يدفع الثمن كمدا يتناسب مع ما كان يؤمله من الخير ، وسرعان ما يعمل على تناسى الفشل وتجديد الأمل ، ولهذا لم تستمر دهشة « مستر وستن » وأسفه أكثر فى نصف ساعة أخذ بعدها يفكر فى أن مجىء « فرانك » بعد شهرين أو ثلاثة قد يكون أفضل من مجيئه الآن حيث الوقت أحسن أوقات السنة التى يعتدل فيها الطقس ، ولا شك فى أنه سيتمكن فى أثنائها من المكث معهم فترة أطول عما لو بكر بالحضور .

وما أسرع ما أعاد اليه هذا التفكير طمأنينته وأثلج صدره ، فى حين كانت « مسز وستن » وهى أخوف منه طبعا ، لا تنتظر الا مزيدا من الاعتذارات والتأجيلات فى المستقبل ، وزاد فى آلامها ما كان يساورها من قلق لما سوف يلاقيه زوجها من جراء ذلك .

ولم تكن حالة « اما » التعسة فى ذلك الوقت لتجعلها تهتم بتخلف « مستر فرانك تشرشل » عن المجىء الا أن يكون ذلك بسبب ما سوف

يلقاه من فى « راندولز » من خيبة أمل ، بل كانت تفضل عليه الهـدوء والابتعاد عما فيه اغراء لها . وقد استصوبت أن تكون على طبيعتها بصفة عامة ، فحرصت على أن تبدى من الاهتمام بما حدث وتشارك « مستر ومسز وستن » فى صدمتهما بما يتفق وصداقتها لهما .

وكانت هى أول من أعلن النبأ لمستر « نيتلى » وعبّرت عن دهشتها لمسلك أسرة «تشرشل» فى ابقائه بعيدا عن أهله بما رأته ضروريا من التعليقات (أو أزيد من ذلك قليلا بالنظر الى أنها كانت تقوم بدور تمثيلى فى هذه الحالة) ثم واصلت الحديث بأكثر مما كان يمليه عليها شعورها ، عما كان يمكن أن يكون لهذه الزيارة من أثر فى اضافة شخصية جديدة الى جماعتهم المحـدودة فى « سَرِى » ، وما تحدثه رؤية قادم جـديد من بهجة ، وما افتقدوه من يوم ، كان يمكن أن يكون يوم عيد لأهل « هايبرى » كافة عندما يرونه . فلما عرجت فى ختام حديثها على أسرة « تشرشل » وجدت نفسها على خلاف مباشر فى الرأى مع « مستر نيتلى » ، وكان أكثر ما أضحكها أن ترى نفسها تعضد الرأى الذى يناقض رأيها الحقيقى ، وتتخذ من آراء « مسز وستن » حجة على نفسها .

قال « مستر نيتلى » فى جفاء : « ان أسرة « تشرشل » قد تكون مخطئة ، ولكنى أؤكد أنه كان بوسعه أن يأتى لو أنه أراد المجىء » .

« لست أدرى لماذا تقول هذا ، فهو شديد الرغبة فى الحضور ولكن خاله وزوجته لا يفرطان فيه » .

« لا يمكن أن أصدق بأنه غـير قادر على المجىء اذا هو أراده ، لن أصدق هذا الا بالدليل المقنع » .

« ما أعجب ما تكون !! وماذا فعل « مستر فرانك تشرشل » حتى تظن فيه أنه انسان غير طبيعى الى هذا الحد ؟ » .

« ما ظننته أبدا مخلوقا غير طبيعى حين ظننت فيه أنه قد اعتاد أن يستعلى على أقاربه وأنه لا يعنى الا بمسراته الخاصة نتيجة لمعاشرة من كانوا المثل الذى يقتدى به ، فان من الطبيعى ، بل أكثر من الطبيعى أن تنتظر من شاب قام بتربيته أناس يتصفون بالكبرياء ويعيشون عيشة الترف والأنانية ، ثم هو لا يكون بعد ذلك مثلهم فى الكبرياء والترف والأنانية . ولو أن « فرانك » رغب فى رؤية أبيه لأعد العدة لتحقيق ذلك فيما بين شهرى سبتمبر ويناير . وان رجلا فى مثل سنه — كم يبلغ من العمر ؟ ثلاثة وعشرين ؟ أو أربعة وعشرين ؟ — يبعد ألا يجد الوسيلة التى تمكنه من أن يقوم بتحقيق هذا ، ان ذلك مستحيل »

« انه لمن السهل عليك أن تقول هذا ، وأن تشعر بهذا الشعور ، فقد كنت دائما المهيمن على شئون نفسك ، وأنت يا « مستر نيتلى » أبعد من يحكم على الصعوبات التى يلاقيها من يعتمدون على غيرهم . وأنت لا تدرك ما فى معاملة من يتصفون بحدة الطبع من صعاب » .

« لا أكاد أتخيل أن رجلا قد بلغ الثالثة أو الرابعة والعشرين من عمره ولا تكون له حرية الفكر والعمل بهذه الدرجة ، مع أن لديه المال والفراغ ، ونحن نعلم بأن لديه الكثير منهما حتى أنه يسر بصرفهما فى الجهات التى لا يغشاها الا الكسالى ، وكثيرا ما سمع عنه أنه ذهب الى أماكن الاستحمام ، أو حيث توجد الينابيع وما شاكلها . لقد كان من عهد قريب فى « ويموث » ، وهذا دليل على أن فى وسعه الابتعاد عن أسرة « تشرشل » .

« أجل ، ان ذلك فى مقدوره أحيانا » .

« وهو لا يذهب الا فى تلك الأحايين التى يراها تستحق الذهاب وحيثما يجد ما يشبع ملذاته » .

« ليس من العدل أن تحكم على أخلاق الناس من غير أن تكون على علم تام بأحوالهم ، وما من أحد لم يختلط اختلاطا تاما بالأسرة ، يستطيع أن يدلى برأى فى الصعوبات التى قد يلاقيها أحد أفرادها . ان واجبنا يقتضينا أن نتعرف على أسرة « أنسكومب » وأن نعرف طباع « مسز تشرشل » قبل أن نتخذ قرارا فيما يكون بوسع ابن أخت زوجها أن يفعله ، فقد يستطيع أن يفعل أحيانا ما لا يستطيع أن يفعله أحيانا أخرى » .

« هناك شيء واحد يا « اما » فى قدرة الانسان أن يفعله اذا هو أراد ، ذلك هو واجبه ، ولا يكون هذا بالمناورات والتحايل ، ولكنه بالقوة والعزيمة ، ومن واجب « فرانك تشرشل » أن يظهر اهتمامه بأبيه . انه يعلم أن هذا من واجبه ، بدليل وعوده ورسائله ، فلو هو أراد ذلك حقا لأمكنه أداؤه ، ان الرجل الجاد اذا شعر حقا بأن عليه واجبا يجب أداؤه ، يذهب فورا الى « مسز تشرشل » ليقول لها فى بساطة وعزم : « ستجدينني دائما على استعداد للتضحية بأى شيء فيه متعة لى ، ما دام ذلك يرضيك ، ولكن لابد لي من الذهاب حالا لرؤية أبى لأنى أعلم بأنه سيتألم اذا فاتنى فى هذه المناسبة أن أظهر له أنه موضع تقديرى واحترامى . ولهذا فانى سأرتحل غدا ، فاذا أمكنه أن يقول ذلك لها فى الحال بالحزم الذى هو خليق بالرجال ، فلن يقوم أى اعتراض على ذهابه » .

وقالت « اما » وهى تضحك : « لا ، وربما كان هناك ترتيب آخر بخصوص عودته ثانية ، وهل هذه لغة يتحدث بها شاب الى من يعتمد عليها كل الاعتماد الا أحد غيرك يا « مستر نيتلى » يتصور أن هذا فى الامكان ، ولكنك لا تعلم شيئا عما هو واجب فى ظروف تختلف كل الاختلاف عن ظروفك . كيف يمكن أن تتصور « مستر فرانك تشرشل » وهو يقول مثل ذلك لخاله وزوجة خاله ، وهما اللذان ربياه ويقومان بالانفاق عليه !! .

أن يقف وسط الحجرة ويقول ذلك بأعلى صوته !! كيف تتصور شيئا من هذا ؟ » .

« ثقى يا « اما » أن الرجل الحصيف لن يجد فى ذلك صعوبة ، وحسبه أن يشعر بأن الصواب فى جانبه لكى يدلى بما يريد بالطريقة السليمة التى ينتهجها العقلاء . وسوف يعود عليه ذلك بالنفع ويرفع من قدره ، ويثبّت أقدامه عند أولئك الذين يعتمد عليهم ، أكثر مما يأتيه عن طريق الخطط والأساليب المنوعة ، وسوف يظفر بالاحترام علاوة على الحب ، كما يصبح موضع ثقتهما ، اذ يعتقدان بأن ابن الأخت الذى يبر بوالده ، سيكون بارا بهما ، فهما يعلمان ، كما يعلم هو ، وكما يجب أن يعلم الناس جميعا ، أن من واجبه الذهاب لزيارة والده ، وهما حين يبذلان الجهد لتأخر هذه الزيارة ، انما يشعران فى قرارة نفسيهما بأنهما لا يحسنان الظن به لخضوعه لأهوائهما . ان الناس جميعا يحترمون المسلك القديم ، وهو أن اتبع هذا المسلك ، وجعله مبدأه فى الحياة وداوم عليه بانتظام ، فهما لابد أن يلينا وأن يأخذا برأيه » .

« انى أشك فى ذلك كثيرا ، وأراك مولعا باخضاع العقول الصغيرة ، ولكن العقول الصغيرة فى الأثرياء ذوى السلطان تنزع الى أن تنتفخ وتكبر حتى تستعصى على الاخضاع كالعقول الكبيرة ، وانى لأتخيلك أنت يا « مستر نيتلى » ، أنك لو نقلت ووضعت فى مكان مستر « فرانك تشرشل » لأمكنك أن تقول وتعمل ما توصى به الآن وقد تصل فى ذلك الى نتائج طيبة جدا ، وقد لا تجد عائلة « تشرشل » ما تعترض به عليك ، ولكنك فى هذه الحالة لن يكون عليك أن تشق طريقك من خلال عادات وتقاليد اعتدتها من قبل ، أما هو فقد ربّى على ذلك ولن يسهل عليه أن ينتقل فجأة الى الاستقلال برأيه ، ويضرب بما لهم عليه من حقوق عرض

الحائط ، بل هو قد يكون مثلك شديد الاحساس بما يجب أن يتبع ، ولكنه وهو فى ظروف غير ظروفك لا يستطيع أن يعمل وفق ما يحس به » .

« اذن فشعوره ليس بهذه القوة ، لأنه اذا لم يدفعه الى بذل ما يعادله من جهد فانه لا يمكن أن يكون عن قدر مماثل من العقيدة والايمان » .

« ولكن ما أكبر الفرق بينكما فى الوضع والعادات !! وددت لو حاولت أن تفهم ما قد يشعر به شاب دمث لو أنه واجه أولئك الذين اعتاد أن يعتمد عليهم طوال حياته بالمعارضة » .

« ان فتاك الدمث شاب على جانب كبير من الضعف لو أن هذه كانت أول مرة يحزم فيها أمره على أن يعمل ما يراه صوابا ، مخالفا فى ذلك رأى الآخرين . لقد كان من واجبه أن يكون قد عوّد نفسه القيـام بالواجب بدلا من أن ينظر الى مصلحته ، وقد أسمح بمثل هذا للطفل ، لا للرجل ، وما دام قد أصبح كامل الادراك فان واجبه يقتضيه أن يتنبه وأن يطرح عن كاهله كل سلطان لهما لا يرى له مبررا ، نعم لقد كان عليه أن يقاوم أول محاولة من جانبهما يرى فيها استهانة بأبيه ، ولو أنه بدأ بداية طيبة ، لما واجهته الآن أية صعوبة » .

وصاحت « اما » : « اننا لن نتفق على شىء بشأنه وليس فى ذلك شىء غير عادى . ليست عندى أية فكرة على أنه فتى ضعيف ، بل أكاد أجزم بأنه ليس ضعيفا ، و « مستر وستن » لن يغفر الجهالة فى أحـد حتى ولو كانت فى ابنه ، ولكن أكبر الظن أنه أكثر انصياعا وموافقة وتساهلا ، مما يتفق وآراءك عن كمال الرجال : أؤكد لك بأنه كما أقول ، وان كان هذا ينتقص من بعض مزاياه فهو يضفى عليه مزايا أخرى كثيرة » .

« أجل كل المزايا التى هى السكون بدلا من الحركة ، وأن يعيش عيشة الملذات الخاملة ، وأن يستشعر فى نفسه القدرة على انتحال المعاذير

لذلك ، فهو قادر على الجلوس ليسطّر رسالة منمقة ملؤها الوعـود والأباطيل ، ثم يضلل نفسه بأنه قد وفق الى أحسن طريقـة يضمن لهـا السكينة فى بيته ، ولا يجعل لأبيه سبيلا الى الشكوى . ان خطاباته تثير الامتعاض فى نفسى » .

« أنت فريد فى مشاعرك ، ويبدو أنها ترضى الناس جميعا ما عداى » .

« وأظنها لا ترضى « مسز وستن » ، فان من الصعب أن ترضى سيدة فى مثل تفكيرها السليم واحساسها المرهف ، تقوم بالنسبة له مقام الأم ، دون أن يكون لها حنان الأم الذى يجعل العين كليلة عن عيوب الابن ، ان الاهتمام « براندولز » يجب أن يكون ضعفين من أجلها ، وشعورها بأنها أهملت ، من شأنه أن يزداد بالمثل الى الضعفين ، وانى أؤكد بأنها لو كانت هى نفسها ذات شأن ، لحضر ، ثم ما كان يعنيها فى هذه الحالة أن يحضر أو لا يحضر . وهل تحسبين أن صديقتك غافلة عن ادراك هذه الاعتبارات ؟ هل تظنين أنها لا تفكر فى ذلك معظم الوقت ؟ لا يا « اما » ان فتاك الظريف قد يكون ظريفا عـلى طريقة الفرنسيين لا على طريقة الانجليز ، فقد يكون رقيقا جدا فى معاملته للناس ومحببا الى نفوسهم ، ولكن تنقصه الرقة الانجليزية فى مراعاة شعور الآخرين ، ومن ثم فلست أجد فيه ظرفا بمعنى الكلمة » .

« يبدو لى أنك لن تتخلى عن اساءة الظن به » .

وأجابها « مستر نيتلى » فى كثير من الامتعاض :

« أنا !! لا أظن ذلك مطلقا ، ولا أريد أن يتجه بى فكرى الى أن أظن به سوءا ، ولن أتأخر عن الاعتراف بما فيه من محاسن ، شأنه شأن بقية الرجال ، ولكنى لم أسمع بأنه يتصف بشىء من ذلك ، اللهم الا ما يتصل منها بشخصه من حيث بنيانه وجمال خلقته ، ورقته فى معاملة الناس » .

« حسنا ، ولو لم يكن له غير هذا ليزكيه لكفاه لكى يكون محبوبا فى « هايبرى » ، فنحن لا يقع نظرنا كثيرا على الشباب الظريف المثقف الذى نشىء تنشئه طيبة ، وواجبنا ألا ندقق ، وألا نطالب بكل الفضائل ، ألا يسعك أن تتخيل يا « مستر نيتلى » ما سيكون لمجيئه من الاثارة ؟ فلن يكون هناك وقتها الا موضوع واحد فى كل من « أبرشية دونول » و « أبرشية هايبرى » ، ولن يكون هناك الا موضوع واحد يثير اهتمام الناس وحبهم للاستطلاع وهذا الموضوع لن يكون سوى « فرانك تشرشل » ولن يكون تفكيرنا ولا حديثنا فى أحد سواه » .

« أرجو المعذرة لأنك أفحمتينى ، وانه ليسرنى التعرف به لو وجدته لبقا يحسن الحديث ، أما اذا كان غرا ثرثارا فلن يشغل شيئا من وقتى أو تفكيرى » .

« ظنى بى أنه يكيف حديثه بما يلائم ميول الناس وأنه قدير بل وحريص على أن يكون محبوبا من الناس جميعا ، فهو يتحدث اليك عن الزراعة كما يتحدث معى عن الرسم أو الموسيقى ، وهكذا الحال مع جميع الناس ، وله من الثقافة العامة ما يؤهله اما لأن يسير فى الركب ، أو أن تكون له الزعامة حسب ما تقتضيه الكياسة وحسن التفكير ، وهو فى كلتا الحالتين غزير الكلام . هذه هى فكرتى عنه » .

وقال « مستر نيتلى » متحمسا : « أما فكرتى أنا عنه فهى أنه لو تبين أنه على نحو ما تقولين لكان أعظم شخص لا يحتمل فوق ظهر الأرض ، عجبا !! أتكون له وهو فى الثالثة أو الرابعة والعشرين الصدارة على من معه ، ويكون الرجل العظيم والسياسى المحنك الذى يدرك طبائع الناس جميعا ، ويسخر مواهبهم لابراز تفوقه عليهم ، ويغمر كل من حوله بالاطراء استخفافا بعقولهم كى يظهروا بالغفلة اذا ما قورنوا به .

ان حسن ادراكك يا عزيزتى « اما » لكفيل بأن يجعلك تجزمين بأن مثل هذا الجرو المدلل لا يحتمل » .

وصاحت « اما » تقول : « لن أزيد على ما قلته عنه شيئا ، انك تقلب الحسن قبيحا ، وأرى أن كلينا متحيز فأنت ضده وأنا فى صفه ولا ينتظر أن نتفق على رأى حتى يأتى هنا » .

« أمتحيز أنا ؟ كلا ، أنا لست بالمتحيز » .

« ولكنى متحيزة له للغاية ولا أرى فى ذلك ما أستحى منه ان حبى « لمستر وستن » وزوجته يجعلنى لا أكف عن أن أكون متحيزة له » .

وردّ عليها « مستر نيتلى » فى كثير من الغيظ :

« انه شخص لا يخطرلى على بال فى نهاية الشهر الى نهاية الشهر الذى يليه » .

واضطرت « اما » بعد هذا الرد الى تغيير مجرى الحديث ، ولو أنها لم تر لغضبه سببا ، وعجبت كيف يكره فتى لا لشىء الا لأنه يختلف عنه فيما جُبل عليه ، مما لا يتفق وما عهدته فيه دائما من اتساع الأفق . لقد كانت تعيب فيه اعتزازه بنفسه دائما ، ولكنها ما كانت تظن لحظة واحدة قبل ذلك أنه يغبن غيره وينكر عليه محاسنه .

الفصل التاسع عشر

رأت « اما » وهى تسير ذات صباح مع « هاريت » أنهما قد تحدثتا بما فيه الكفاية عن « مستر التن » فى ذلك اليوم ، ولم تر حاجة الى مزيد من الحديث لكى تسرى عن صديقتها أو تهون عن الأثر الذى اقترفته نحوها ، ومن ثم فقد جاهدت فى أثناء عودتها لكى تنهى الحديث فى ذلك الموضوع. ولكن الحديث فيه لم يلبث أن عاد بعد أن ظنت أنها قد أغلقت بابه . وكانت « اما » وهى تحاول أن تسدل الستار على الحديث فى هذا الموضوع ، قد أخذت تتحدث بعض الوقت عن الفقراء وما يعانونه فى زمهرير الشتاء ، فاذا بهاريت ترد عليها فى توجع « ما أبرّ مستر التن » بالفقراء .

عندئذ أدركت « اما » أنه لابد من اجراء آخر تتخذه .

وكانا قد اقتربا من البيت الذى تقيم فيه « مسز بيتس » وكريمتها « مس بيتس » ، وقر قرارها على أن تدخل مع « هاريت » لزيارتهما طلبا للخلاص فى حضرة غيرهما من النــاس . وكان لهــذه الزيارة ما يكفى لكى يبررها . فقد كانت « مسز بيتس » وكريمتها مولعتين بزيارة الناس لهما ، ثم ان « اما » كانت واثقة من أن قلة من الناس ممن يتلمسون لها الأخطاء يرونها مهملة فى هذه الناحية ، ولا تسهم بنصيبها فى ادخال السرور على قلبيهما على قلة ما لهما من أسباب المتعة .

وكثيرا ما نوّه لها « مستر نيتلى » بهذا العيب ، كما شعرت هى فى قرارة نفسها بأنها مقصرة فى هذه الناحية ، ولكن لم يكن شىء من هــذا ليتغلب على كراهيتها الشديدة لهذه الزيارات فقد كانت ترى فيها مضيعة

للوقت بين جماعة من النساء المتعبات ، علاوة على فزعها من التعرض بسببها لخطر الاختلاط بالطبقة الثانية أو الثالثة من أهل « هايبرى » الذين كانوا يزورون بيت « مسز بيتس » وابنتها ، ولذلك كان من النادر أن تقترب منهما . ولكنها الآن وقد مرت ببابهما قررت فجأة أن تدخل وقد قالت لهاريت وهى تقترح عليها الدخول انهما فى مأمن من أن يكون قد وصل خطاب من « چين فيرفاكس » .

وكان البيت مملوكا لجماعة من رجال الأعمال ، وكانت « مسز بيتس » وابنتها تقيمان فى الطابق الأرضى منه وفى هذه الشقة المتواضعة ، التى كانت كل شىء بالنسبة لحاجاتهما ، كانتا تستقبلان ضيوفهما بالحفاوة والتكريم .

وقامت السيدة العجوز الأنيقة من مكانها فى أدفأ ركن من الحجرة حيث كانت جالسة منهمكة فى عمل التريكو ، لتتنازل عن مكانها « لمس وودهاوس » وانطلقت ابنتها بما لها من نشاط أوسع وقدرة على الكلام تغمرهما بعنايتها وحنانها وتشكرهما على هذه الزيارة ، وتبدى اشفاقها على أحذيتهما ، وتسأل باشتياق عن صحة « مستر وودهاوس » ، وتنقل اليهما أخبارا سارة عن صحة والدتها وعن الفطيرة الحلوة التى أتت بها من الصوان « البوفيه » .

ثم أخذت تقول : « لقد كانت « مسز كول » هنا منذ برهة ، وقد أتت لزيارتنا ، على أن تقضى معنا عشر دقائق ، ولكنها تكرمت وأمضت معنا ساعة كاملة ، كما تناولت قطعة من الفطيرة ، وكان فضلا منها أن تقول أنها أعجبتها للغاية — ولذلك فهى تأمل أن تتكرما فتأخذ كل من « مس وودهاوس » و « مس هاريت » قطعة منها » .

وكان الحديث عن أسرة « كول » لابد مؤد الى الحديث عن « مستر التن » فقد كانت تربطه بتلك الأسرة ألفة ومودة ، وكان قد وصل الى

« مستر كول » خطاب من « مستر التن » منذ سفره ، وأدركت « اما » ما سينجم عن ذلك ، اذ كان لابد أن يدور الحديث عن الخطاب مرة أخرى ، وعن الفترة التى غاب فيها « مستر التن » ، وعن الحفلات الكثيرة التى لبّى اليها الدعوة ، وكيف أنه كان ملء العيون أينما حل ، وكيف كانت حلبة الرقص الكبرى فى حفلة مدير التشريفات مزدحمة على سعتها .

واستمعت « اما » لكل هذا وأولته عظيم اهتمامها ، وجادت بما هو ضرورى من الاطراء ، وكانت فى ذلك سباقة الى ابداء الملاحظات لكى تقفل باب الحديث على « هاريت » فلا تضطر الى التفوه بكلمة . وكانت « اما » قد وطدت نفسها على سماع ذلك كله عندما دخلت المنزل ، ولكنها كانت تؤمل وقد امتدحته مرة ألا تظل تحرج بالتحدث فى هذا الموضوع المتعب ، وأن يتشعب الحديث فينتقل الى سيدات وآنسات « هايبرى » ، والى ندوات لعب الورق فى بيوتهن . كذلك لم تكن « اما » مستعدة لسماع شىء عن « چين فيرفاكس » بعد الذى سمعته عن « مستر التن » ، ولكن « مس بيتس » أسرعت فى كلامها عقب حديثها عن « مستر التن » الى الحديث فجأة عن « أسرة كول » لتخرج خلال ذلك برسالة وصلت من ابنة أختها . واستطردت تقول :

« نعم ، ان « مستر التن » كما فهمت يجيد الرقص ، ولا شك فى ذلك ، وقد قالت لى « مسز كول » ان الرقص فى صالات « باث » كان — ، وقد تعطفت « مسز كول » وجلست معنا بعض االوقت تتحدث عن « چين » ، اذ ما كادت تدخل حتى أخذت تسأل عنها ، ذلك لأن « چين » محبوبة هناك جدا ، وعندما تكون « چين » معنا ، ترى « مسز كول » أنها مهما بالغت فى العطف والحنان عليها فهى مقصرة لم توفها حقها — وأعتقد أن « چين » جديرة بهذا أكثر من أى انسان آخر ، ولذلك أخذت تسأل

عنها مباشرة وتقول : « أعتقد أنه لم تصلكما أخبار من « چين » أخيرا ، لأن هذا الوقت ليس بالوقت الذى تكتب اليكما فيه » — وعندما قلت على الفور « بل لقد وصلتنا أخبار منها ، فقد استلمنا خطابا منها فى هذا الصباح » — لم أجد فى حياتى شخصا استولت عليه الدهشة مثلما استولت عليها اذ قالت : « اقسمى بشرفك على صحة ذلك !! حسنا ان ذلك لم يكن منتظرا ، دعينى أسمع ما تقول » .

وابتسمت « اما » فى أدب وأبدت اهتمامها وقالت :

وهل وصلتكما أخبار من مس « فيرفاكس » منذ هذه المدة القصيرة ؟ انى لسعيدة جدا ، وأرجو أن تكون بخير » .

وأجابتها الخالة التى غرها ذلك ، وهى تبحث عن الخطاب باهتمام : « شكرا لك ، وكم أنت عطوفة !! « ها هى الرسالة ، لقد كنت متأكدة أنها ليست فى مكان بعيد ، ولكنى لم أحترس وجعلت الخادمة تطلع عليها ، ولذلك اختفت ، ولكنها كانت فى يدى من وقت قريب ، ولذلك كنت متأكدة بأنها لابد أن تكون فوق المنضدة . لقد كنت أقرؤها « لمسز كول » ، ثم أخذت أقرؤها بعد أن خرجت مرة أخرى لوالدتى ، لأن رسالة تأتى من « چين » تغمرها سرورا ، ومن ثم فهى لا تمل الاستماع اليها وكنت أعلم أنها لن تكون بعيدة عن هنا ، ها هى معى الآن ولكنها كانت فقط مع خادمتى — وما دمت قد تفضلت باظهار رغبتك فى سماع ما تقوله — ولكن يجب بادىء ذى بدء أن أعتذر نيابة عن « چين » لكتابتها مثل هذا الخطاب القصير ، وهو كما ترين مكتوب فى صفحتين ، صفحتين فقط لا أكثر بل أقل ، وهى فى العادة تملأ فراغ الورقة وتضرب على نصف ما كتبته ، وكثيرا ما تبدى والدتى دهشتها من قدرتى على قراءاتها ، وكثيرا ما تقول عندما تفض الرسالة : « أجل يا « هتى » أظنك الآن ستأخذين

فى حل رموزها ، أليس كذلك يا سيدتى ! وعندئذ أقول لها بأنى واثقة انها ستجد وسيلة لقراءتها كلها بنفسها ان هى لم تجد من يقرؤها لها — وأنا متأكدة بأنها ستدقق الى أن تدرك كل كلمة فيها — ولا شك أن والدتى رغم أن عينيها قد ضعف ابصارهما عن قبل ، لا تزال ترى والحمد لله بدرجة تدعو الى الدهشة بنظارتها ، وانها لنعمة كبرى أن تكون عوينات والدتى بهذه الجودة العظيمة ، وكثيرا ما تقول « چين » عندما تكون هنا : « أنا متأكدة يا جدتى بأن عينيك كانتا حادتين جدا ، حتى أنك لا زلت ترين الآن الى هذا الحد ، وتقومين بعمل أشياء جميلة كالتى كنت تعملينها ، وكل ما أتمناه أن أكون مثلك فتدوم قدرة ابصارى على مر السنين » .

قالت « مس بيتس » كل هذا بمنتهى السرعة ، مما اضطرها للتوقف كى تسترد أنفاسها — وأشادت « اما » فى بعض كلمات بجمال الخط الذى تكتب به مس « فيرفاكس » .

واستطردت « مس بيتس » تقول وهى راضية كل الرضى :

« ما أعظم رقتك ، انك أحسن حكم فى ذلك لأن خطك فى منتهى الجمال ، وأؤكد لك بأنه لن يكون لمدح كائن من كان ، من السرور ، ما لمدح « مس وودهاوس » — وأنت تعلمين أن والدتى لا تسمع ، لأن بأذنيها بعض الصمم » — ثم وجهت الحديث الى أمها قائلة : « أتسمعين يا سيدتى ما تفضلت فقالته « مس وودهاوس » عن خط « چين » ؟ واضطرت « اما » الى الاستماع لكلماتها السخيفة عن خط « چين » يكرر مرتين قبل أن تتمكن السيدة العجوز الطيبة من أن تفهمه .

وكانت « اما » فى الوقت نفسه تفكر فى أنها قادرة على أن تهرب من رسالة « چين فيرفاكس » دون أن تبدو فظة ، وأوشكت أن تحزم

أمرها وتبدى عذرا تافها ثم تخرج مسرعة فى الحال ، واذا بمس « بيتس » تعود اليها مرة أخرى وتجذب انتباهها فتقول :

« ان ما عند أمى من الصمم بسيط جدا كما ترين ، وهو يكاد يكون معدوما ، ومن المؤكد أنها تسمعنى لو رفعت صوتى وقلت الشىء مرتين أو ثلاثا ، ولكنها مع ذلك قد اعتادت صوتى ، ويلاحظ كثيرا أنها تسمع « چين » أكثر مما تسمعنى ، لأن « چين » تتكلم بوضوح ، وعلى كل حال فهى لن تجد جدتها أقل سمعا مما كانت عليه منذ عامين ، وهذا أمر ليس بالهين فى سن أمى ، انهما عامان كاملان كما تعلمين منذ أن كانت هنا ، ولم يسبق لها أن غابت عنا هذا الغياب الطويل ، وكما كنت أقول « لمسز كول » : اننا لا نكاد نعرف كم ستمضى من الوقت معنا » .

« وهل تنظران مجىء « مس فيرفاكس » قريبا ؟ » .

« أجل ، فى الأسبوع المقبل » .

« هذا شىء يبعث على السرور ولا ريب » .

« شكرا ، أنت عطوفة جدا ، أجل فى الأسبوع القادم ، والجميع فى دهشة ، وهم يقولون نفس هذا الكلام الجميل ، وأعتقد أنها سوف تسر برؤية أصدقائها فى « هايبرى » كسرورهم برؤيتها ، أجل ، قد يكون ذلك يوم الجمعة أو يوم السبت ، وهى لا تعلم فى أى اليومين تجىء ، لأن المقدم « كامپبل » سيحتاج الى العربة فى أحد هذين اليومين ، وانه لكرم عظيم منهم أن تقطع كل الطريق بعربتهم ، ولكنهم يفعلون ذلك دائما ، أجل ، وسيكون ذلك يوم الجمعة القادم أو يوم السبت ، هذا هو ما ذكرته فى هذا الصدد ، وهو السبب الذى من أجله كتبت فى غير الأوقات التى اعتادت الكتابة فيها ، اذ لم نكن ننتظر منها خطابا قبل يوم الثلاثاء القادم أو يوم الأربعاء ، حسب ما جرت به العادة » .

« نعم ، وهذا ما تخيلته ، فقد كنت أخشى ألا تتهيأ لى فرصة لسماع شيء عن « مس فيرفاكس » اليوم » .

« انك تأسريننا بفضلك ، لا ، وما كان ليصلنا منها خطاب لولا تلك المناسبة بذاتها التى هيأت مجيئها الى هنا بهذه السرعة . ان والدتى مسرورة جدا لأنها ستقيم معنا ثلاثة شهور على الأقل ، فهى تؤكد بأنها ثلاثة شهور ، كما يتبين لك من قراءة خطابها عليك الآن ، وخلاصة الموضوع كما ترين هو أن أسرة « كامپبل » ستسافر الى أيرلندة ، لأن « مسز دكسون » حببت الى أبيها وأمها المجيء عندها حالا ، ولم يكن فى عزمهما الذهاب الى أن يحين فصـــل الصيف ، ولكنها لم تستطع أن تصبر على فراقهما أكثر من ذلك . وكانت حتى تزوجت فى أكتوبر الماضى لا تغيب عنهما أكثر من أسبوع واحد ، فما بالك وهى فى مملكة غير مملكتها ، وكنت على وشك أن أقول وفى بلاد تخالف بلادها ، ولذلك كتبت خطابا عاجلا لأمها أو لأبيها ، وأقول صراحة بأنى لا أعلم الى أيهما كتبت ، ولكننا سنرى الآن من خطاب « چين » ، وقد كتبته باســمها واســم « مستر دكسون » ، يلحان عليهما فى الحضور حالا ، ويقولان انهما سيلتقيان بهما فى « دبلن » ثم يعودان بهما الى مقرهما الريفى فى « بالى كريج » ، وظنى أنه مكان جميل ، ولقد سمعت « چين » عنه الكثير من « مستر دكسون » ، أقصد أنها لم تسمع عنه من أى شخص آخر ، فان من الطبيعى أن يغرق فى الحديث عن بلده فى أيام الخطبة ، وبما أن « چين » اعتادت أن تخرج كثيرا للرياضة معهما ، لأن المقدم « كامپبل » وزوجته كانا يحرصان على ألا تخرج ابنتهما للرياضة وحدها مع « مستر دكسون » ، وهذا بالطبع شيء لا ألومهما عليه ، فانها بطبيعة الحال كانت تسمع كل ما يقوله « لمس كامپبل » عن بيته فى أيرلندة ، وأظن أنها كتبت الينا بأنه أطلعها على بعض

رسوم وصور للجهة ، وعلى بعض مناظر أخذها هو بنفسه ، وأعتقد أنه شاب على غاية من الظرف والمرح ، وكانت « چين » تتوق الى الذهاب الى أيرلندة لما سمعته من وصفه لها » .

وساور « اما » فى تلك اللحظة شيء من الشك عن « چين فيرفاكس » و « مستر دكسون » الظريف ، وعن عدم ذهابها الى أيرلندة ، فرسمت خطة بارعة لتستكشف ما هو أبعد من هذا فقالت :

« لابد أنك تشعرين بأن من حسن الطالع أن يسمح لمس « فيرفاكس » بالحضور اليكما فى مثل هذا الوقت ، واذا أخذنا فى الحساب ، الصداقة التى بينها وبين « مسز دكسون » خاصة ، فانه لم يكن من المنتظر اعفاؤها من مصاحبة « المقدم كامپبل » وزوجته فى رحلتهما الى ايرلندة » .

« لا ريب أنه عين الصواب ، الصواب بعينه ، وهذا ما كنا نخشاه ، لأننا ما كنا نود أن تبعد عنا بهذا القدر ، تغيب شهورا ثم لا يتسنى لها الحضور اذا ما حدث حادث ، ولكنك ترين أن كل شيء يتحول الى ما هو أحسن ، انهما (أعنى مستر دكسون ومسز دكسون) يبديان رغبتهما الشديدة فى حضورهما مع المقدم « كامپبل » وزوجته — كونى واثقة من ذلك ، بل لا شيء أكرم ولا أكثر اغراء على الاستجابة للدعوة من اشتراكهما معا فى دعوتها ، وان « چين » تقول كما ستسمعين الآن : « ان مستر دكسون يوليها كل عنايته ، وهى لا تغفل عن شيء من ذلك أبدا ، فهو شاب على جانب كبير من الظرف ، ومنذ أن أدى الى « چين » جميلا لا ينسى فى « ويبموث » وقت أن خرجوا جماعة للتريض فى عرض البحر ، وحدث أن التفت الشراع فجأة لسبب ما ، وكاد يطاح بها فى البحر وينتهى كل شيء فى غمضة عين ، لولا سرعة خاطره وامساكه بتلابيبها (وأنا لا يمكننى أن أفكر فى ذلك دون أن تأخذنى رجفة) نعم ، منذ أن

علمنا بما حدث فى ذلك اليوم ، وأنا أشعر بالميل الشديد الى « مستر دكسون » .

« ولكن على الرغم من الحاح أصدقائها ، ورغبتها هى فى روية أيرلندة ، فان « مس فيرفاكس » تفضل أن تكرس وقتها لك ولمسز بيتس ؟ » .

« أجل ، وهذا كله من فعلها وبمحض اختيارها ، ويرى المقدم «كامپبل» وكذلك « مسز كامپبل » أن هذا الذى فعلته هو الصواب بعينه ، وهو ما يحبذانه ، ولا شك أنهما يريدان بصفة خاصة أن تجرب هواء مسقط رأسها ، لأنها لم تستمتع أخيرا بصحتها كعادتها » .

« يهمنى أن أسمع ذلك ، وفى رأيى أنهما يحكمان عن روية ، ولكن لابد وأن تكون « مسز دكسون » قد شعرت ببالغ الأسى ، وأنا أعلم أن « مسز دكسون » ليست علـى درجة ملحوظة من الجمـال الشخصى ، وأنه لا وجه للمقارنة بينها وبين « مس فيرفاكس » بحال » .

« لا ، أبدا ، وانه لمن حسن ذوقك أن تقولى ما تقولين ، والواقع أنه لا وجه للمقارنة بينهما ، فلقد كانت « مس كامپبـل » دائما فى منتهى البساطة ، ولكنها فى غاية الظرف والرشاقة » .

« أجل ، وهذا شىء أكيد » .

« ان المسكينة « چين » أصابها برد شديد ، كان ذلك منذ وقت طويل ، منذ السابع من شهر نوفمبر (كما سأقرأ لك) ولم تبرأ منه من وقتها ، أليست تلك فترة طويلة لأصـابتها بوعكة برد لا تزال تلازمها ؟ وهى لم تذكر شيئا عنه قبلا ، لأنها لم ترد أن تزعجنا ، فتلك هى طبيعتها ، وما أكثرها مراعاة لشعور الناس !! ولكنها على كل حال لا تزال متوعكة الصحة ، حتى أن أصدقاءها العطوفين من أفراد أسرة « كامپبل » يرون أنه من الأفضل لها أن تأتى الى بلدتها ، وتستنشق الهواء الذى يلائمها ،

وهم لا يشكون فى أن ثلاثة شهور أو أربعة تقضيها فى « هايبرى » سوف تكون كافية لكى تشفى شفاء تاما ، ولا ريب أن مجيئها هنا أفضل بكثير من ذهابها الى أيرلندة ما دامت مريضة ، اذ لن يكون هناك من يقوم بتمريضها مثلنا » .

« يبدو لى أن هذا أحسن قرار اتخذ » .

« وعلى ذلك فسوف تأتى الينا يوم الجمعة أو يوم السبت القادمين ، وستغادر أسرة « كامپبل » المدينة يوم الاثنين التالى لذلك ، وتتجه الى « هولى هد » كما ستعرفين ذلك من خطاب « چين » . نعم لقد كانت مفاجأة لنا ، ولك يا عزيزتى « مس وودهاوس » أن تتصورى كيف كان وقع ذلك فى نفسى ، ولولا مرضها — ولكنى أخشى أنها لابد أن تكون قد أصبحت نحيلة وفى حالة سيئة ، ويجدر بى أن أقول لك ، ان ذلك كان من سوء طالعى ، ذلك أنى أحرص دائما على أن أقرأ خطابات « چين » بنفسى أولا قبل أن أقرأها بصوت مرتفع لأمى ، وذلك خشية أن يكون فيها شىء يقلقها ، وتلك هى رغبة « چين » ، وانى دائما أتبعها ، وهكذا بدأت أقرأ خطابها وأنا حريصة كعادتى ، ولكنى ما كدت أصل الى ذكر مرضها حتى استولى علىّ الجزع وصمت قائلة : « رحماك !! ، ان « چين » المسكينة مريضة » . وسمعت أمى ذلك بوضوح ، وكانت تراقبنى باهتمام ففزعت حزنا عليها ، على أنى عندما استرسلت فى القراءة وحدث أن الحالة لم تكن بالخطورة التى تصورتها لأول وهلة ، وقد استطعت أن أهوّن الأمر على أمى الآن حتى لم تعد تفكر كثيرا فى ذلك ، ولكننى لا أكاد أتصور كيف فاتنى حرصى ! واذا لم تستعد « چين » صحتها سريعا فسندعو « مستر پرى » ، ولن نفكر فيما سننفقه فى سبيل ذلك ، على الرغم من أنه كريم ومحب لچين ، حتى أرانى أعتقد بأنه لن يطلب أجرا

مقابل عنايته بها ، الا لن نقبل ذلك كما تعلمين ، اذ أن له زوجة وأسرة يرعاها ويقوم بالانفاق عليها ، ولا يليق بنا أن يضيع وقته هباء ، أجل ، والآن أعطيتك فكرة عما كتبته « چين » ، نعود الى خطابها ، وأعتقد أنها ستروى قصتها أحسن منى بكثير » .

وقالت « اما » وهى تنظر الى « هاريت » وتهم بالوقوف :

« آسفة لأننا لابد أن نسرع بالخروج ، لأن والدى فى انتظارنا ولم يكن فى نيتى ولا فى استطاعتى أن أبقى معكم هنا أكثر من خمس دقائق عندما دخلت البيت ، وما كانت زيارتى الا لأنى رأيت ألا أمر ببابكم دون أن أسأل عن « مسز بيتس » ، ولكنى سعدت باستبقائكما لنا طول هـذه المدة ، ومن واجبنا الآن أن نقول لك « ولمسز بيتس » عما صباحا » .

ولم تجد كل المحاولات التى بذلت لحملهما على البقاء أكثر من ذلك ، وبلغت « اما » الطريق وهى فرحة بأنها وان اضطرت الى سماع الكثير مما لم يكن على هواها وكان عليها أن تنصت الى مضمون خطاب « چين فيرفاكس » كاملا ، فقد نجحت فى الهرب من الاستماع الى تلاوة نص الخطاب نفسه .

الفصل العشرون

كانت « چين فيرفاكس » فتاة يتيمة ، والابنة الوحيدة لصغرى بنات « مسز بيتس » . وكان زواج الملازم « فيرفاكس » ، الضابط باحدى كتائب المشاة ، من الآنسة « چين بيتس » ، حدثا ذاع صيته وعمّت فرحته ، وعقدت عليه الآمال ، وان لم يبق منه الآن الا ذكرى محزنة لزوج كريم ، قضى نحبه وهو يؤدى عمله بعيدا عن بلده ، وذكرى أرملة لم يمهلها المنون من بعده ، فراحت ضحية الحزن وداء ذات الرئة ، ثم هذه الفتاة چين فيرفاكس وهى من مواليد « هايبرى » وكانت قد بلغت الثالثة من عمرها عندما لبّت أمها نداء ربها ، فانتقلت الى كنف جـدتها وخالتها ، وظلت تحت رعايتها تدللانها وتجدان فيها العزاء والسلوى عما أصابهما .

وبدا وكأنها ستقيم معهما بصفة دائمة ، وأنها ستنال قسطا من التعليم بقدر ما كانت تسمح به مواردهما الضئيلة ، وأنها سوف تشب وليس لها من مزايا النسب أو فرص الارتفاع بمستواها ما يمكن أن يزيد عـلى ما حبتها به الطبيعة من ظرف وحسن ادراك ومن قلب عطوف وأقارب طيبين . ولكن أحد أصدقاء والدها كان له من الشعور بالاشفاق عليها ما غيّر مصيرها — هـذا هو « المقـدم كامپبل » ، الذى كان يُجل « فيرفاكس » ، لأنه كان ضابطا ممتازا ، وشابا جديرا بالتكريم ، علاوة على أنه كان مدينا له بما شمله من رعاية فى أثناء اصابته فى المخيم بحمى شديدة ، وايمانه بأن الفضل فى نجاته انما يرجع اليه . وما كان المقدم « كامپبل » ليغفل عما طوّق به « فيرفاكس » المسكين عنقه من حسن

الصنيع ، وان انقضت أعوام كثيرة على وفاته ، قبل أن تهيىء له عودته الى انجلترا الفرصة ليقوم بما فى وسعه أداؤه . فلما عاد بحث عن الطفلة ، وأخذ يتتبع أخبارها ، وكان فى ذلك الوقت متزوجا وله طفلة فى عمر « چين » فاستضاف « چين » فى منزله ، تنزل فى ضيافتهم وتقضى معهم فترات طويلة ، وتستمتع بالحظوة عندهم جميعا .

وقبل أن تبلغ التاسعة من عمرها ، تضافرت رغبته ، فى أن يكون لها صديقا وفيًا ، مع ولع ابنته بها ، على أن يأخذ على عاتقه مهمة تربيتها . وأجيب الى طلبه ، وسرعان ما اندمجت « چين » منذ ذلك الحين فى أسرة المقدم « كامپبل » وعاشت بينهم ، حتى كانت لا تزور جدتها الا الفينة بعد الفينة . ووضعت الخطة لاعدادها لأن تكون مدرسة ، فقد كان من المستحيل عليها أن تعتمد فى حياتها على بضع مئات الجنيهات التى ورثتها عن أبيها ، ولم يكن فى وسع « المقدم كامپبل » أن يجد سبيلا غير هذا : اذ على الرغم من أن دخله من مرتبه وأعماله كان كبيرا ، فان ثروته كانت وسطا وكان لابد أن تؤول بأكملها الى ابنته ، ومن ثم فقد كان يأمل بتعليمها أن يمدها بالوسائل التى تهيىء لها فيما بعد عيشة كريمة .

كانت هذه قصة حياة « چين فيرفاكس » بعد أن آل أمرها الى أيد كريمة ترعاها . فلم تر من أسرة « كامپبل » الا كل عطف وحنان ، كما نالت قسطا من التعليم ممتازا ، وعاشت دون انقطاع مع أناس اتصفوا برجاحة العقل وسعة المعلومات ، فاكتسبت كل ما من شأنه أن يصقلها روحا وعقلا .

ولما كانت اقامة المقدم « كامپبل » فى لندن ، فانه لم يترك شاردة ولا واردة من مواهبها الروحية الا وأولاها كل عنايته ، وعهد بها الى خيرة الأساتذة . فلقد كانت ميولها وقدراتها جديرة بكل ما تمليه تلك الصداقة من خدمات ، حتى أصبحت لها الكفاية التامة للقيام بمهنة التدريس

عندما بلغت الثامنة أو التاسعة عشرة من عمرها ، وهى فى الحق سن مبكرة لمن يرخص له بتربية الأطفال . على أن فرط حبهم لها جعلهم لا يسمحون بالتفريط فيها ، فلا الأم ولا الأب كانا يحبذان مفارقتها ، ولا الابنة كانت تحتمل البعد عنها ، وهكذا تأجل يوم الفراق ، فقد كان من السهل الاعتذار بأنها ما زالت صغيرة . وبقيت « چين » معهم كأنها ابنة ثانية تشاركهم كل ملذاتهم المعقولة التى تستمتع بها جماعة راقية ، فتوفرت لها بذلك ، المتعة الحكيمة والمأوى الهنىء ولم ينقصها الا أمر مستقبلها ، ولكنها رأت بحسن ادراكها أن كل هذا لا يجوز أن ينغص عليها حياتها طويلا ، وكان أشرف ما حظيت به ، هو حب العائلة بأسرها لها ، وتعلق « مس كامپبل » الشديد بها خاصة وأن « چين » كانت تفوقها فيما كان لها من جمال ومواهب . وكانت فتاة الأسرة لا يغيب عنها ما منحته الطبيعة لچين من بهاء الطلعة ، وكذلك الوالدان لم يخف عليهما تفوقها على ابنتهما فى قدراتها العقلية .

وهكذا ظلت الفتاتان تعيشان سـويا لا يعتور تقديرهما لبعضهما نقصان ، الى أن تزوجت « مس كامپبل » التى واتاها الحظ الذى غالبا ما يتحدى الآمال فى أمور الزواج ، فيهب الحب للوسط ويصرفه عن الكمال : فلم يكن « مستر دكسون » ذلك الشاب الجميل ، ذو الثروة الطائلة ، يتعرف بها حتى تعلق بحبها واستقر معها فى حياة زوجية سعيدة . أما « چين فيرفاكس » فقد كان عليها أن تسعى بعد ذلك الى كسب قوتها .

وقد تم ذلك الزواج وليس أمام صديقتها التى لم يكن لها مثل حظها فسحة من الوقت لتشق طريقها فى الحياة رغم أنها كانت قد بلغت الآن الحادية والعشرين ، وهى السن التى كانت قد حددتها لنفسها منذ وقت طويل لتكون بداية لدخولها معترك الحياة .

والآن وقد بلغت هذه السن ، فقد استجمعت قواها ، وشدت من

عزيمتها بحماس من يكرّس نفسه لعمل جديد ، واعتزمت أن تسير فى التضحية الى النهاية ، وأن تبتعد عن كل مباهج الحياة ، وعن مخالطة الناس ، وأن تتخلى عن حياة الطمأنينة وتترك الأمل لتعانى الآلام على ما فاتها ، وتحس بالوجيعة الى الأبد .

ولم يكن فى وسع المقدم ولا « مسز كامببل » حين يحكمان تفكيرهما السليم أن يرداها عما اعتزمته ، وان كانت عواطفهما تدفعهما الى محاولة ذلك ، فما داما على قيد الحياة فلا حاجة بها الى جهد نفسها ، بل عليها أن تعتبر بيتهما بيتها دائما ، وأن تثق بأن راحتهما هى فى أن تمكث معهما الى الأبد ، ولكن هذا الاحساس من جانبهما لا يعدو أن يكون أنانية منهما فان ما لابد أن يقع آجلا ، أحرى به أن يقع عاجلا . ولعلهما شعرا بأنه كان يكون أقرب الى الحكمة والعطف لو أنهما كانا قاوما ما حدا بهما الى تعطيلها عن مهنتها فيما مضى ، فقد كان ذلك خليقا بأن يجنبها الآن شعور الحرمان من حياة المتعة والراحة والفراغ التى اعتادتها وهى فى كنفهما. ومع هذا فقد وجد عطفهما عليها فرحة عندما وجدا عذرا معقولا يتعلقان به كى لا يعجل باللحظة المشئومة ، فقد لازم السقم « جيم فيرفاكس » منذ زواج ابنتهما ، وأصبح من واجبهما أن يمنعاها من العمل الى أن تستمتع بكامل الصحة وتسترد عافيتها . فالعمل ، حتى فى أشد الظروف الملائمة ، يتطلب حسن أدائه شيئا غير مجرد السلامة الجسمانية والعقلية .

ولقد كانت « جين » صادقة فيما أفضت به الى خالتها من أنها لن تسافر معهما الى أيرلندة ، رغم أنها أخفت عنها بعض الحقائق . فلقد كانت رغبتها الخاصة هى التى أملت عليها أن تخصص مدة غيابهما فى أيرلندة لتقضيها فى « هايبرى » . ولعلها أرادت بذلك أن تقضى الشهور الأخيرة التى تتمتع فيها بكامل الحرية مع أولئك اللائى يعطفن عليها من أقاربها ،

ولها فى قلوبهن أعظم منزلة . أما أسرة « كامپبل » فقد أيدت هذا الاجراء فى الحال ودون توان ، وبدافع أو أكثر ، قائلين بأن جلّ اعتمادهم على أن تقضى أسابيع قليلة فى موطنها لتستعيد صحتها ، أكثر من اعتمادهم على أى شىء آخر . وهكذا أصبح مجيئها الى « هايبرى » أمرا محققا .

وبدلا من أن ترحب « هايبرى » بالتحفة الغالية التى طال انتظار قدومها فى شخص مستر « فرانك تشرشل » ، كان عليها أن تكتفى مؤقتا بمقدم « چين فيرفاكس » التى لم تكن لتجلب معها سوى ذكرى تغيبها مدة عامين كاملين .

واغتمت « اما » أن يكون من واجبها أن تظل ترحب بشخص لا تحبه ثلاثة شهور كاملة ، تؤدى فيها من المجاملات أكثر مما تحب ، وأقل مما يجب ، أما لماذا لا تحب « چين فيرفاكس » فقد تكون الاجابة على هـذا السؤال صعبة . لقد أخبرها « مستر نيتلى » مرة أن مرد ذلك أنها تجد فيها الفتاة التى جمعت المحاسن كلها ، وأنها كانت تود لو كان هذا هو رأى الناس فيها هى . وعلى الرغم من أنها لم تقره على هذه التهمة فى حينها ، فقد مرت بها لحظات منذ ذلك الوقت ، كانت تتفحص فيها نفسها ، فلا تجد فى ضميرها ما يبرئها منها كل التبرئة .

على أنها مع ذلك لم تستطع أبدا أن تعقد معها أية صلة من صلات الصداقة ولم تعرف سببا لما كانت تلاحظه فيها من تحفظ واعراض . ومع ذلك فهى لا يعنيها أن تنال استحسانها أو لا تناله . ثم هناك خالتها فوق ذلك — امرأة ثرثارة لا تكف عن الكلام ومع ذلك فهى موضع الاهتمام من الناس جميعا دون أن يكون لذلك أى مبرر . لقد كان الناس يتصورون أنهما سيكونان ، هى وچين ، صديقتين حميمتين . فقد كانتا فى سـن واحدة ، ومن ثم فقد افترض الجميع أنهما لابد أن يتعلقا ببعضهما البعض تلك كانت الأسباب ، ولم تجد « اما » لديها ما هو أحسن منها .

ولم تكن « اما » فى الواقع منطقية فى كراهيتها لها الى هذا الحد ، فقد كانت تجسّم ما تزعمه من هفواتها ، فى مخيلتها ، حتى أنها لم تكن ترى « چين فيرفاكس » لأول مرة بعد أية غيبة طويلة حتى تشعر بأنها قد أساءت اليها . والآن وقد قامت بزيارتها عقب وصولها ، بعد غياب دام سنتين ، أدهشها ما رأته من أنها ظلت على حالتها فى مظهرها وسلوكها . فقد كانت « چين فيرفاكس » لا تزال رشيقة بل غاية فى الرشاقة ، وكان للرشاقة فى نظر « اما » أعظم قدر ، فقد كان طولها مناسبا ، كان ذلك الطول الذى يظنها الناس معه طويلة دون أن تكون فارعة فى الطول ، وكان قوامها يتميز بالرقة ، فكانت وسطا ، لا هى بالبدينة ولا بالنحيلة ، رغم ما كان يبدو عليها من بعض مظاهر الضعف الطفيف التى قد تبرز بعض ما فى النحافة أو البدانة من عيوب . لمست « اما » كل ذلك الآن . ثم محياها . لقد بدا فيه من الجمال أكثر مما كانت تذكره فيها . ولم تكن تقاطيعها متناسقة ، ولكنها مع ذلك كانت جميلة يسر المرء لرؤيتها ، وكانت لها عينان داكنتان ، وأهداب وحواجب سوداء كانت دائما مثار الاعجاب . أما بشرتها التى اعتادت « اما » أن تتلمس فيها عيبا يعيبها ، وتصفها بأن اللون ينقصها ، فكانت صافية رقيقة لا حاجة بها الى مزيد من الاشراق نعم . لقد كان جمالها من النوع الذى يمتاز بالرشاقة ، ومن ثم كان يقتضيها شرفها ومبادئها أن تعجب به .

لقد كان لها من رقة الجمال وصفاء الذهن مالم تجد له شبيها فى « هايبرى » كلها ، فقد كان جمالا رقيقا مهذبا بعيدا كل البعد عن الابتذال . وقصارى القول ، لقد جلست «اما» فى أثناء زيارتها الأولى ، تنظر اليها وهى راضية من ناحيتين ، من ناحية شعورها بالغبطة ، ثم من ناحية شعورها بأنها توفيها حقها ، وعزمت على ألا تستمر فى كراهيتها لها .

وعندما فكرت فى تاريخ حياتها وفى مركزها وفى جمالها ، وراعت مما رسمه القدر لكل هـذا الظرف ، ومن الهوة التى ستنحدر اليهـا فى المستقبل وما ستكون عليه حياتها فيما بعد رأت كل هذا موجبا لاحترامها والاشفاق عليها ، وخاصة اذا أضفنا الى كل ما تميزت به من المحاسن ، ما كان من احتمال تعلقها بمستر « دكسون » ، الذى كانت بدأته بطبيعة الحال من أجل نفسها . بل لم يكن هناك ما هو أدعى الى الاشفاق عليها والى احترامها وتقديرها من التضحيات الجسيمة التى وطدت نفسها على احتمالها . ورأت « اما » الآن أنها أميل الى ابرائها من تهمة تحويل حب مستر « دكسون » عن زوجته اليها أو أنها قامت بما فيه أية اساءة مما كان يصوره لها خيالها فى أول الأمر . ثم اذا كان هناك حب ، فهو حب بسيط ، حب فاشل ومن جانبها وحدها . بل لعلها كانت تتجرع مرارة الحب وهى لا تشعر عندما كانت تشارك صديقتها الحديث معه ، ولعلها الآن حرمت نفسها من زيارة أيرلندة ، وقررت الابتعاد عنه وقطع صلتها به ، مدفوعة الى ذلك بأنبل الدوافع وأكرمها ، فقررت أن تشق طريقها فى الحيـاة بالالتجاء فورا الى احتراف مهنتها المضنية .

وتركتها « اما » وهى تشعر بوجه عام بالحنان والعطف عليها ، مما جعلها تفكر فيها وهى عائدة الى بيتها ، وشعرت بالحزن لأنها لا تجد فى « هايبرى » شابا جديرا بها ، ولا من يستحق أن ترسم له خطة لكى يقترن بها .

لقد كانت تلك المشاعر مما يبعث على السرور ، ولكن هذا السرور لم يدم طويلا . فقبل أن تعاهد نفسها ، وتعلن على الأشهاد صداقتها التى لن تنفصم عراها مع « چين فيرفاكس » ، أو تعمل على الرجوع عما سبق أن ارتكبت من خطأ فى حقها ومن تحيز لا مبرر له ضدها بأكثر من أن

تقول لمستر « نيتلى » : « انها جميلة حقا ، انها أكثر من أن تكون جميلة » — كانت « چين » قد قضت أمسية مع جدتها وخالتها فى ضيافة « اما » فى « هارتفيلد » ، وكان كل شىء قد عاد الى ما كان عليه ، فبرز ما كان فى نفسها قديما مما كان يحز فى نفسها ، وبدت خالتها متعبة كعادتها بل وأكثر ، اذ أخذت تزيد على ما كانت تبديه من اعجاب بمواهب چين باظهار قلقها على صحتها . وكان عليهم أن يستمعوا اليها وهى تقص عليهم وصفا دقيقا للقدر اليسير من الخبز والزبد الذى تتناوله فى وجبة الافطار ، وكيف أنها أكلت شريحة صغيرة من لحم الضأن فى وجبة الغذاء . وكان عليهم كذلك أن يشاهدوا ما عرضته من قبعات جديدة ، وحقائب جديدة لحفظ أدوات الشغل ، لها ولأمها . وعادت بذلك مرة أخرى ذكريات الاساءات التى كانت تصدر عن چين .

لقد بدأوا يعزفون ، واضطرت « اما » للعزف ، وكان ضروريا أن تعقب « چين » على ذلك بالشكر والاطراء ، ولكن لاح لاما أن هـذا الاطراء لم يكن الا مجرد تأدب ، ومظهرا من مظاهر العظمة ، لا يقصد به الا القول بأسلوب مفرط فى الذوق بأن مواهبها هى تفوق ذلك بكثير . وكانت « چين » فوق هذا ، وهو أقبح مساوئها ، على درجة كبيرة من الفتور والحذر ، ولم يكن هناك من سبيل للوصول الى أفكارها عـلى حقيقتها ، وبدت كأنها لا تجازف ولا تبوح بشىء ، تحت ستار من التأدب ، وتحتفظ بمكنونات قلبها بدرجة تمجها النفس وتثير الشك .

لقد بلغت كل مساوئها الذروة الآن واذا كان هناك ما هو أكثر ، فهو ما كانت عليه من الحـذر الزائد فى موضـوع « ويموث » وأسرة « دكسون » ، أكثر من أى موضوع آخر ، فقد بدا أنها اعتزمت ألا تدلى بشىء يفهم منه أى شىء عن أخلاق « مستر دكسون » الحقيقية ، أو عن تقديرها لصحبته ، أو عن رأيها فى زواجه — فلم يكن حديثها فى ذلك

يزيد على أن يكون مجرد موافقة على ما يقال فى نعومة وأدب ، لا تكاد تقول شيئا مجردا أو واضحا . ولم يكن هذا ليفيدها قليلا أو كثيرا ، لأن « اما » رأت خداعها وضربت بحيطتها عرض الحائط وعادت الى سابق آرائها فيها .

بل ربما كان هناك غير الذى اختارت أن تخفيه أشياء أخرى ، ولعل « مستر دكسون » كان على وشك أن يستبدل احدى الصديقتين بالأخرى ، أو أنه ارتبط « بمس كامپبل » من أجل ما كان ينتظرها من ثروة تقدر باثنى عشر ألفا من الجنيهات .

وكانت موضوعات أخرى كثيرة تحيطها بهذا الستار الكثيف من الكتمان اذ حدث أن كانت فى نفس الوقت فى « ويموث » مع مستر « فرانك تشرشل » وكان معروفا أنهما تعارفا هنـــاك ، ولكن « اما » لم تفز منها بلفظ واحد يمكن أن تفهم منه شيئا عن حقيقته أو أخلاقه .

« هل كان وسيما ؟ » .

« انها تعتقد أنه يعتبر شابا ظريفا جدا » .

« وهل هو لطيف ؟ » .

« كان هذا الرأى السائد عنه بوجه عام » .

« وهل بدا ما يدل على أنه شاب ذو عقل راجح ، وأنه شاب واسع المعلومات ؟ » .

« ان من الصعب أن يدلى المرء برأى قاطع فى مثل هذه الأمور عندما يكون فى أماكن الاستحمام ، أو عندما يكون التعارف عاديا فى مدينة مثل لندن . وانما يحكم المرء على الأخلاق وهو مطمئن اذا قضى فترة أطول مع « مستر تشرشل » كى يلم بمعلومات أكثر ، ولكنها تعتقد بأن الناس جميعا كانوا يرون سلوكه مرضيا » .

ولم تستطع « اما » أن تغتفر لها هذا .

الفصل الحادى والعشرون

لم تقو « اما » على أن تتسامح معها ، غير أن « مستر نيتلى » ، وقد كان حاضرا ، لم ير فى الحديث استفزازا أو انتقاصا من الكرامة ، بل على النقيض من ذلك لاحظ من الطرفين معاملة كريمة ومجاملة فائقة ، حتى أنه عندما عاد الى « هارتفيلد » لأمر بينه وبين « مستر وودهاوس » ، فى صباح اليوم التالى ، عبّر عن استحسانه لكل ما رأى ، وان لم يعبّر عنه بالصراحة التى يمكن أن يعبر بها لو أن والدها لم يكن فى الحجرة ، ولكن عبارته مع ذلك كانت من الوضوح الى الحد الذى يجعل « اما » تدرك معناها كل الادراك ، وكان « مستر نيتلى » قد اعتاد الظن بأن « اما » غير منصفة لچين ، وقد سرّه الآن ما رآه من التحسن الملحوظ فى علاقتها بها .

وما كاد ينتهى من الافضاء الى « مستر وودهاوس » بما كان ضروريا ، ويستوثق من أنه قد أدرك ما حدّثه فيه ويزيح الأوراق جانبا ، حتى أخذ يقول : « لقد كانت أمسية ممتعة جدا ، ممتعة بصفة خاصة لأنك أنت و « مس فيرفاكس » أسمعتمانا موسيقى رائعة ، فليس أمتع يا سيدى ، فيما أعرف ، من أن يجلس المرء وهو مؤتنس بمثل هاتين الفتاتين وهما تروّحان عنه ، تارة بالحديث وتارة بالموسيقى ، — وأعتقد يا « اما » أن « مس فيرفاكس » وجدت فى تلك الأمسية ما راقها ، فأنت لم تدعى شيئا يعمل لم تعمليه من أجلها . وقد سرنى أنك جعلتيها تلعب كل هذا الوقت ، فقد كان ذلك متعة لها ولا شك نظرا لأ نجدتها لا تملك آلة للبيانو يمكنها أن تلعب عليها » .

وقالت « اما » وهى تبتسم : « يسرنى أن أراك راضيا ، ولكنى أرجو ألا أكون مقصرة فيما هو واجب نحو ضيوف « هارتفيلد » .

وتدخل والدها فى الحال : « لا يا عزيزتى ، وأنا واثق بأن هذا ليس من طبعك ، وما من أحد يصل الى نصف ما أنت عليه من رعاية وترحيب بالضيوف . ان عنايتك بكل شيء بالغة — ولو كنت قدمت فى الليلة الماضية أقراص الكعك مرة واحدة لكان فى ذلك الكفاية .

وقال « مستر نيتلى » فى الوقت نفسه تقريبا : « لا ، فما أنت بمقصرة عادة ، لا فى الفهم ، ولا فى معاملتك للناس ، وأظنك تدركين ما أعنيه » .

فحدجته بنظرة ماكرة وكأنما تقول له : « انى أفهمك تماما » ولكنها اكتفت بقولها : « ان « مس فيرفاكس » شديدة التحفظ » .

« طالما قلت لك انها على شيء من ذلك فعلا ، ولكنك لابد متغلبة على ما قد يكون عندها من تحفظ أساسه الخجل ، فالحرص الذى أساسه أصالة الرأى خليق بالاحترام » .

« انك تظنها خجولة بينما أنا لا أراها كذلك » .

فقال وقد انتقل من مقعده الى مقعد آخر بجوارها : « آمل يا عزيزتى « اما » ألا يكون قصدك أن تقولى انك أمضيت أمسية غير ممتعة » .

« لا ، أبدا ، فلقد سعدت بمثابرتى على توجيه الأسئلة اليها ، كما طاب لى ان أفكر فى أنى لم أفز من المعلومات الا بالنزر اليسير » .

ولم يجد ردا على ذلك الا أن يقول : « لقد خاب أملى » .

وقال « مستر وودهاوس » بطريقته الهادئة : « أرجو أن يكون الجميع قد أمضوا أمسية ممتعة ، ولقد استمتعت أنا بها ، وحدث أنى شعرت بارتفاع الحرارة المنبعثة من المدفأة ، ولكنى رجعت بمقعدى عنها قليلا ، فلم أعد أجد فى ذلك ما يضايقنى ، لقد كانت « مس بيتس » ثرثارة ،

بقدر ما كانت رقيقة المزاج مبتهجة كعادتها دائما ، ولو أنها تميل الى الكلام بسرعة ، ومع هذا فهى ظريفة ، وكذلك والدتها « مسز بيتس » وان كانت ذات طابع آخر . انى أحب أصدقائى القدامى ، وكذا مس « چين فيرفاكس » فهى من الفتيات الظريفات المفرطات فى ظرفهن ، فهى ولا شك فتاة فى منتهى الظرف وحسن الخلق ، ولابد أن تلك الأمسية صادفت هوى فى نفسها يا « مستر نيتلى » لأن « اما » كانت موجودة بين الجماعة » .

« صدقت يا سيدى ، وكذلك سرّت « اما » لأن « مس فيرفاكس » كانت بين الحاضرين » .

ولاحظت « اما » الضجر على وجهه وأرادت أن تخفف من حدّته وأن تهوّن الأمر عليه ، على الأقل فى تلك الآونة ، فقالت باخلاص لا سبيل الى الشك فيه : « انها مخلوق ظريف لا يمل المرء النظر اليه ، وأنا أرقبها دائما باعجاب ، كما أشعر بالاشفاق عليها من قرارة قلبى » .

وبدا « مستر نيتلى » وكأنما أغناه عن الرد ما شعر به من الرضى ، وقبل أن يرد عليها بشىء ، سبقه « مستر وودهاوس » الذى كان يفكر فى أسرة « بيتس » بقوله : « انه لشىء يوجب أشد الأسى أن تضيق حالتهم المالية الى هذا الحد ، يالها من مأساة !! ولطالما وددت — ولكن المرء لا يجد الا النزر اليسير ليعمله — تقديم بعض هدايا بسيطة من أشياء غير عادية . ولقد ذبحنا الآن خنزيرا سمينا ، وتفكر « اما » فى أن ترسل اليهن حقــوا أو فخذا منه . انه خنزير صــغير شهى اللحم ، وخنازير « هارتفيلد » ليست كبقية الخنازير ، وان كان هذا الخنزير لا يعدو أن يكون خنزيرا على كل حال ، واذا لم تتأكدى يا عزيزتى « اما » من أنهن سيقطعن حقوه الى شرائح ، ويجدن تحميرها كما نفعل ، دون اضافة أى دهن اليها ، أو شيّها ، لأن المشوى من لحم الخنزير عسير على المعدة

أن تحتمله ، فأظن أن الأحرى بنا أن نرسل اليهن الفخذ ، ألا ترين ذلك يا عزيزتى ؟ » .

« لقد أرسلت اليهن ربعه الخلفى بأكمله ، يا والدى العزيز ، لعلمى بأن هذا يسرك ، وسيكون لديهن الفخذ ليعملن منه قديدا مملحا ، وهو لطيف للغاية ، والحقو لاعداده فى الحال كما يشتهين » .

« هذا هو الصواب يا عزيزتى ، انه عين الصواب ، ولم يدر هذا بخلدى ولكن هذه هى الطريقة المثلى ، وعليهن ألا يزدن من تمليح الفخذ حتى اذا ما سلقت جيدا ولم تكن قد زاد تمليحها ، كما تسلق « سرل » اللحم لنا ، ثم أكل منها باعتدال مع مسلوق اللفت وبعض الجزر أو الفجل ، فلست أظنها الا أن تكون صحية » .

وقال « مستر نيتلى » فى الحال : « انى أحمل اليك يا « اما » خبرا ، فأنت شغوفة بسماع الأخبار . لقد وصل الى سمعى وأنا فى طريقى الى هنا خبر أظنه سيسترعى اهتمامك » .

« خبر !! انى أحب الأخبار دائما ، فما هو ذلك الخبر ؟ ولماذا تبتسم هكذا ؟ وأين سمعته ؟ وهل سمعته فى راندولز ؟

وسكت برهة ثم قال : « لا ، لم أسمعه فى « راندولز » ، بل لم أكن قريبا من «راندولز » .

واذا بالباب يفتح فجأة ، وتدخل الحجرة « مس بيتس » و « مس فيرفاكس » وكانت نفس « مس بيتس » تفيض بالشكر ، وجعبتها بالأنباء ، لا تدرى أيهما تبدأ به ، وأدرك « مستر نيتلى » فى الحال أن الفرصة قد أفلتت من بين يديه ، وأنه لن تتاح له فرصة ليقول كلمة .

« كيف حالك فى هذا الصباح يا سيدى العزيز ؟ لقد حضرت يا « مس وودهاوس » فأسرتينى بفضلك ، وما أجمل ربع الخنزير الخلفى !! كم أنت كريمة !! هل سمعت الأنباء ؟ ان « مستر التن » سيتزوج » .

ولم يكن لدى « اما » فسحة من الوقت لتفكر فى « مستر التن » ، وتملكتها الدهشة الى حد لم تتمالك نفسها معه من أن تبدو عليها بعض علامات الفزع ، وتحمر وجنتاها .

وقال « مستر نيتلى » وعلى ثغره ابتسامة تنم عن تأكيد بعض ما سبق أن دار بينهما : « هذا هو النبأ الذى عندى ، وكنت أظن أنك ستهتمين لسماعه » .

وصاحت « مس بيتس » تقول : « ولكن من أين استقيت أنت الخبر ؟ ومن أين أمكنك أن تسمعه يا مستر نيتلى ؟ اذ لم تمض خمس دقائق على وصول مذكرة بعثت بها « مسز كول » الى . لا ، لا يمكن أن يزيد وقت وصولها على خمس دقائق أو عشرة فى الكثير ، لأنى كنت ارتديت صديريتى وقبعتى ، وكنت على أهبة الخروج ، ونزلت لمجرد التحدث مع « باتى » عن الخنزير مرة أخرى ، وكانت « جين » واقفة بالممر ، ألم تكونى واقفة هناك يا جين ؟ وذلك لأن والدتى كانت تخشى ألا يكون لدينا وعاء يتسع للتمليح ، ولذا قلت أنى سأنزل لأرى بنفسى ، وقالت « جين » : « هل أنزل عوضا عنك ؟ لأنى أظن أن بك وعكة برد ، وكانت « باتى » تقوم بغسل المطبخ وتنظيفه فقلت : « نعم يا عزيزتى » واذا بالمذكرة تصل ، ان اسمها « مس هوكنز » ، وهذا كل ما أعلمه ، انها « مس هوكنز » وهى من أهالى « باث » ، ولكن كيف تمكنت يا « مستر نيتلى » من معرفة النبأ ؟ لأن « مسز كول » ما كادت تستقى الخبر من « مستر كول » حتى جلست وكتبت الى ، انها تدعى « مس هوكنز » .

« لقد كنت فى عمل مع « مستر كول » منذ ساعة ونصف ، وكان قد فرغ توا من قراءة رسالة « مستر التن » وقت دخولى ، فسلمها الى على الفور » .

« أجل ، هذا هو الوضع بالضبط ، وأظن أنه لم يكن هناك من نبأ كهذا يهتم له الجميع ، وأنت يا سيدى العزيز ، قد برهنت على أنك واسع العطاء ، ووالدتى تبعث اليك بأطيب التحيات وبعظيم التقدير المقرون بألف شكر ، وهى تقول انك غمرتها بفضلك » .

وأجابها « مستر وودهاوس » : « ان الخنازير فى « هارتفيلد » ممتازة ولا شك ، وهى تفوق غيرها من الخنازير ، حتى أن « اما » وكذلك أنا ، نجد فى لحمها لذة لا تدانيها لذة » .

« أجل يا سيدى العزيز ، ان أصدقاءنا كما تقول والدتى يأسروننا بفضلهم ، ولو كان هناك أناس قلّ مالهم ، ثم توفرت لهم كل مطالبهم — فنحن هؤلاء الناس ولا ريب ، ولنا أن نقول : « ان القدر قد هيأ لنا كنفا عظيما » أجل يا « مستر نيتلى » ، وعلى ذلك فقد اطلعت على الخطاب حقا » .

« لقد كان خطابه قصيرا ، ولا يبغى منه سوى إعلان الخبر ، ولكنه كان ولا شك باعثا على البهجة والسرور » .

ونظر الى « اما » نظرة ماكرة ثم قال : « لقد كان ميمون الطالع من ناحية — ، لقد نسيت الكلمات بنصها — ولكن ماذا يعنينا أن تتذكرها . ان النبأ كما تذكرين ، يتلخص فى أنه فى سبيل الزواج بواحدة تدعى « مس هوكنز » ، وقد فهمت من أسلوبه أن الموضوع قد تم الاتفاق عليه نهائيا » .

وقالت « اما » بمجرد أن استردت قدرتها على الكلام :

« عجبا أن يكون « مستر التن » قد أقدم على الزواج !! اننا جميعا نرجو له السعادة » .

وأبدى « مستر وودهاوس » رأيه قائلا : « انه صغير جدا على

الزواج ، وكان أحرى به ألا يتعجل ، ويبدو لى من مظهره أنه غنى ، ولقد كان وجوده فى « هارتفيلد » مبعث سرور لنا دائما .

وقالت « مس بيتس » وهى مغتبطة : « لقد أصبح لنا جميعا جار جديد يا « مس وودهاوس » ، وان والدتى فى منتهى السرور وهى تقول انها لا تحتمل أن ترى بيت راعى الأبرشية التليد بغير سيدة ، ولا شك أن هذا نبأ عظيم ، انك يا « چين » لم تر « مستر إلتن » من قبل ، ولا عجب ان كنت تتطلعينى الى رؤيته » .

ولم يبد على « جين » أنها كانت محبة الى الاستطلاع بدرجة كبيرة ، ومن ثم فقد ردّت عليها .

« لا ، لم أر « مستر التن » أبدا » ثم أخذت تسأل فى تلهف : « هل هو — هل هو طويل القامة ؟

فصاحت « اما » : « من سيجيب على هذا السؤال ؟ ان والدى سيقول « نعم » ، أما « مستر نيتلى » فسيقول « لا » ، وأما « مس بيتس » وأنا فسنقول انه ليس بالطويل ولا بالقصير ، واذا ما طال بك المقام هنا يا « مس فيرفاكس » فستعلمين أن « مستر التن » عنوان الكمال فى « هايبرى » جسما وعقلا » .

« لقد قلت حقا يا « مس وودهاوس » انهـا ستراه كما تقولين ولو تذكرت يا عزيزتى « مس چين » ما قلته لك بالأمس لرأيت أنه فى مثل طول « مستر پرى » تماما . وأعتقد أن « مس هوكنز » فتاة ممتازة ، وما أعظم اهتمامه بوالدتى ، اذ كان يبدى رغبته فى أن تجلس فى مقصورة الكنيسة الخاصة حتى تستطيع أن تسمع جيدا لأن والدتى كما تعلمين فى آذانها شىء من الصمم ، وما هو بالشديد ، ولكنها لا تسمع بسهولة ان « چين » تقول ان المقدم « كامپيل » به شىء من الصمم ، وكان يظن

أن استعمال الماء قد يصلحه ، وأعنى استعمال الماء الدافىء ، ولكنها تقول ان الفائدة من ذلك لم تدم طويلا وأنت تعلمين بأننا نعتبر « المقدم كامپبل » ملاكا ، وان مستر « دكسون » يبدو شابا فى منتهى الظرف ، وهو جدير بأن يرتبط به ، وانه لمن دواعى السرور أن يرتبط الأخيار بعضهم ببعض وهو ما يحدث دائما ، وسوف يكون هنا « مستر التن » و « مس هوكنز » كما أن هناك كذلك أسرة « كول » وهم من خيرة الناس ، وكذا أسرة « پرى » ، ويخيل لى أنه لم يوجد اثنان هما أسعد وأحسن من «مستر پرى» وزوجته » — ثم التفتت الى مستر «وودهاوس» وقالت : « وانى أقول يا سيدى أنى أظن بأنه من النادر أن توجد جهة بها مثل هذا الجمع الذى يعيش فى « هايبرى » ، وانى أقول دائما بأننا سعداء بجيراننا يا سيدى العزيز ، ان والدتى لا تجد شيئا أحسن الى نفسها من الخنزير ، وهى تحب حقو الخنزير المحمر » .

وقالت « اما » : « أظن ألا سبيل لأحد كى يعرف كم مضى من الوقت على تعرفه بها ، وان المرء ليشعر بأنه لا يمكن أن يكون قد عرفها منذ وقت طويل ، فهو لم يبرح هذا المكان الا منذ أربعة أسابيع » .

ولم يكن لدى أحد من الجالسين ما يفضى به فى هذه النقطة ، ثم بعد قليل من عبارات الدهشة قالت « اما » :

« أراك صامتة يا مس « فيرفاكس » ، ولكنى آمل أن يثير هذا النبأ من اهتمامك ، أنت التى سمعت ورأيت الكثير عن هذه المواضيع فى الأيام الأخيرة ، ولابد أنه كان ذلك اتصال كبير بموضوع « مس كامپبل » ، ونحن لا نسمح لك بألا تكترث بموضوع « مستر التن » و « مس هوكنز » .

وأجابت « چين » قائلة : « من الجائز أننى عندما أرى « مستر التن » سوف أهتم بالنبأ ، فهذه طبيعتى ، وبما أن زواج « مس كامپبل » كان منذ شهور ، فلعل أثره قد زال بعض الشىء » .

وقالت « مس بيتس » : « لقد ذهب كما لاحظت يا « مس وودهاوس » منذ أربعة أسابيع ، أربعة أسابيع منذ أمس ، أجل انها « مس هوكنز » أجل ، لقد كنت أتخيل دائما أنها ستكون فتاة من هنا وليست هذه الفتاة أبدا ، لقد أسرّت لى « مسز كول » مرة — ولكننى قلت فى الحال لا ، ان « مستر التن » رجل جليل الشأن — ولكن — وبالاختصار فانى أظن أنه ليس باستطاعتى سرعة كشف مثل هذه الأشياء ، ولست أدعى لنفسى هذه القدرة ، ولست أرى الا ما أجده أمامى — وفى الوقت نفسه ، ليس لمخلــوق أن يعجب اذا كان « مستر التن » طمــوحا ، — ان « مس وودهاوس » تجعلنى أسترسل فى الكلام بطيبة قلب ، وهى تعلم أنى لا أسيء الى أحد مهما كانت الأسباب — كيف حال « مس سمث » ؟ يبدو لي أنها عوفيت الآن تماما ، وهل وصلك خطابه مؤخرا من « مسز چون نيتلى » ؟ ما ألطف هؤلاء الصغار الأعزاء !! أتدرين يا « چين » بأنى أتخيل دائما أن « مستر دكسون » يشبه مستر « چون نيتلى » ؟ أعنى فى الشكل ، أعنى فى الطول والهيئة وفى أنه غير ثرثار » .

« أنت مخطئة تماما يا خالتى العزيزة ، انهما لا يشبهان بعضهما أبدا » .

ما أعجب هذا !! ولكن الانسان لا يمكنه أبدا أن يكوّن فكرة سليمة عن أى شخص مقدما ، ان الانسان يكوّن لنفسه فكرة ثم يتمسك بها ، وأنت تقولين ان « مستر دكسون » ليس جميلا بمعنى الكلمة » .

« جميل !! لا ، انه بعيد عن أن يكون جميلا ، فهو ولا شك شخص عادى ، وقد أخبرتك بذلك » .

« لقد قلت يا عزيزتى أن « مس كامپبل » لا تسمح بأن يقال عنه انه شخص عادى الملامح ، وانك أنت نفسك .. »

« أما من جهتى ، فان حكمى لا يساوى شيئا ، فأنا اذا قدرت شخصا

أراه دائما بهى الطليعة ، ولكنى قلت ما أعتقد أنه هو الرأى السائد عندما قلت انه عادى الملامح » .

« أجل يا عزيزتى « چين » ، وأعتقد أنه لابد لنا من الانصراف سريعا ، لأن الطقس يبدو سيئا ، وستقلق جدتك ، وأنت يا « مس وودهاوس » تأسريننا بفضلك ، ولكن لابد لنا من الاستئذان بالانصراف ، لقد كان هذا ولا شك خبرا سارا جدا ، وسوف أمر الآن بمنزل « مسز كول » ولكنى لن أمكث ثلاث دقائق كاملة ، وأنت يا « چين » أحرى بك أن تذهبى الى المنزل مباشرة لأنى لا أود أن أراك خارج المنزل وقت المطر ، اننا نعتقد أنها قد تحسنت فعلا على جو « هايبرى » ، ولا يسعنا الا أن نشكرك ، هذا ولن أحاول زيارة « مسز جدرد » لأنى لا أظن بأنها تعنى بشىء الا بلحم الخنزير المسلوق ، وعندما نطهو الفخذ سيكون لنا شأن آخر ، والآن عم صباحا يا سيدى العزيز — ها هو « مستر نيتلى » قادم معنا أيضا ، هذا شىء جميل جدا ، وأعتقد أنك ستتفضل بأن تجعل « چين » تتأبط ذراعك اذا شعرت بالتعب ، — « مستر التن » و « مس هوكنز » ! صباح الخير » .

وانفردت « اما » بأبيها ، ولم تكن بحاجة الى أكثر من نصف ما تخصه به من العناية عادة ، فقد كان مشغولا بالتعبير عن أسفه على زواج الشباب المبكر بهذه السرعة ، والزواج بالأغراب فوق ذلك ، وكان لاعفائها من نصف طلباته ما جعلها تخصص نصف جهدها الآخــر لتكوين رأيها فى الموضوع ، فلقد وجدت فى هذا النبأ ما جعلها تبتهج وتفسح له صدرها لأنه دل على أن « مستر التن » لم تطل آلامه ، ولكنها حزنت مع ذلك من أجل « هاريت » فقد كان لا مفر من أن تشعر « هاريت » بالألم ، وكل ما كانت ترجوه ، هو أن تكون البادئة بنقل الخبر اليها ، كى تجنبها سماعه

من غيرها ، وها هو قد قرب وقت احتمال مجيئها للزيارة !! وما أعجب أن تقابل « مس بيتس » وهى فى طريقها !!

فلما بدأ المطر يتساقط اعتقدت « اما » أن الطقس لابد أن يعطل « مس بيتس » فى بيت « مسنر جدرد » وأنه لا مفر من أن تفاجأ «هاريت» بسماع النبأ منها وهى أقل ما تكون استعدادا لتلقيه .

وهطلت الأمطار مدرارا ، ولكن هطولها لم يدم طويلا ، وما هى الا دقائق خمس ، حتى دخلت « هاريت » وعلى وجهها دلائل الاضطراب ، من أثر الاسراع فى المجىء ، وما كادت تدخل حتى قالت : « عجبا يا « مس وودهاوس » ، ماذا تظنينه قد حدث ؟ » فكان فى رنين صوتها ما يدل على مدى الاضطراب فى قرارة نفسها .

أما وقد نزلت النازلة فلم يكن أمام « اما » الا أن تستمع لتعبّر عن عظيم عطفها وحنانها ، وأخذت « هاريت » تسرد ما عندها من خبر فى لهفة وسرعة ، دون عائق يعوقها : « انها غادرت بيت « مسز جدرد » منذ نصف ساعة ، وكانت تخشى سقوط المطر وتخاف أن ينهمر بين لحظة وأخرى ، ولكنها فكرت فى أن تأتى الى « هارتفيلد » أولا ، وأسرعت ما أمكنها ، ولكنها وقد مرت بدار فتاة تخيط لها رداء ، رأت أن تدخل لترى ماذا تم فيه ، ورغم شعورها بأنها لم تمكث نصف لحظة ، فان المطر بدأ يسقط بعد خروجها ، ولم تدر ماذا تفعل ، ولذا واصلت الجرى بأقصى سرعتها ولجأت الى « متجر فورد » لتحتمى فيه وكان هذا هو المتجر الرئيسى لبيع الأقمشة الصوفية والتيلية والخردوات على أنواعها ، كما كان أكثر حوانيت الجهة اتساعا وأولها تمشيا مع الأذواق الحديثة — ولهذا جلست هناك ولم تكن تفكر فى شىء أبدا — ومضت عشر دقائق تقريبا ثم اذا — من تظنينه يدخل على حين غفلة ؟ ثقى بأنه كان شيئا غاية فى الغرابة ، ولكنهم كانوا دائما يتعاملون مع متجر « فورد » ، نعم من يكون الداخل

غير « اليزابث مارتن » وأخيهـا !! عزيزتى « مس وودهاوس » فكرى فى ذلك — لقد ظننت بأن اغماءة ستلحق بى ، ولم أدر ماذا أفعل ، لقد كنت أجلس قرب الباب ، فوقع بصر « اليزابث » علىّ فى الحال ، أما هو فلم يرنى لأنه كان مشغولا بمظلته ، وأنا واثقة من أنها رأتنى ، ولكنها حوّلت نظرها عنى فى الحال ولم تعرنى انتباها ، وتوغل الاثنان حتى وصلا الى نهاية الحانوت ، وبقيت أنا جالسة قرب الباب وكم كان شعورى بالشقاء يا عزيزتى !! ولابد أنى صرت شاحبة الوجه بلون ردائى ، ولم يكن فى استطاعتى الخروج كما تعلمين بسبب المطر ؛ لقد وددت وقتها لو كنت فى أى مكان غير هذا ، أجل يا عزيزتى « مس وودهاوس » ، ثم حدث بعد ذلك أن التفت نحوى ورآنى ، لأنهما بدلا من أن يخرجا بما ابتاعاه ، أخذا يتبادلان الحديث همسا ، وأنا واثقة بأنى كنت موضوع حديثهما . وتملكنى الظن بأنه كان يحاول اقناعها بالتحدث الىّ (أتظنين يا مس « وودهاوس » أنه كان يريد ذلك ؟) ، لأنها تقدمت فى الحـال وأتت نحوى ، وسألتنى عن صحتى ، وكانت على استعداد لمصافحتى لو أننى صافحتها ، ولكنها مع ذلك لم تسلك حيالى سلوكها الذى اعتادته من قبل ، وقد لاحظت أنها قد تغيرت نحوى ، ولكنها حاولت مع ذلك أن تظهـر بمظهر الصديقة الوفية ، فتصافحنا ، ولبثنا فترة نتبادل الحديث وان كنت لا أدرى ماذا قلت . لقد تملكتنى رعدة ، وأذكر أنها قالت انها تأسف لأننا لا نلتقى هذه الأيام ، ورأيت هذا عطفا كبيرا منها . وكم كان شـعورى بأنى تعسة يا عزيزتى !! وأخذ المطر يتوقف عن السقوط فى ذلك الوقت ، فعزمت على ألا يمنعنى شىء عن الخروج ، ولكن تخيّلى ماذا حدث عندئذ !! لقد رأيته يتجه نحوى على مهل ، وكأنه لا يدرى ماذا يفعل ، ثم أتى وتكلم وأجبته ، ووقفت دقيقة وأنا أشعر برهبة لا يمكننى أن أصفها لك . وتشجعت أخيرا وقلت ان المطر قد توقف ولابد لى من الذهاب ، ثم خرجت ، وما كدت

أبعد عن الباب ثلاث خطوات حتى لحق بى ليقول لى انى لو كنت ذاهبة الى « هارتفيلد » فانه يرى أن الأفضل لى أن أتخذ الطريق الذى يمر بحظيرة « مستر كول » ، لأن الطريق القريب قد غمرته الأمطار ، وشعرت يا عزيزتى وكأن المنية قد داهمتنى . قلت انى مدينة له بجزيل الشكر ، وما كنت لأقوم بأقل من ذلك كما تعلمين ، وعاد بعدها الى « اليزابث » ، وأتيت أنا عن طريق الحظائر — هذا ما أعتقد أنى فعلته — فقد كان من الصعب علىّ أن أعرف أين كنت ، أو أن أعرف أى شىء عن المكان ، وكم كنت أفضل يا « مس وودهاوس » أن يحدث لى أى شىء الا ما حدث ، ومع ذلك فقد ارتاحت نفسى عندما رأيته رقيق الشعور مغتبطا ، وكذلك كانت « اليزابث » — تحدّثى الىّ يا « مس وودهاوس » واشعرينى بالراحة مرة أخرى » .

وكانت « اما » تود مخلصة أن تفعل هذا ، ولكن ذلك لم يكن فى ميسورها حالا ، فقد وجدت نفسها مضطرة الى التريث والتفكير ، ولم تكن هى نفسها تشعر بالهدوء الكامل ، وكان يبدو أن مسلك الفتى وأخته ، كان صادرا عن شعور صادق ، ولذا لم تجد بدا من الاشفاق عليهما . وكما جاء فى وصف « هاريت » كان هناك مزيج من حب مكلوم ورقة صادقة فى سلوكهما ، ولكنها كانت تؤمن بما طبع عليه من طيبة القلب وكريم السجايا . ولكن ماذا يغير هذا من مساوىء مثل هذه الزيجة ؟ انه لغباء منها أن تنزعج لهذا . لقد كان طبيعيا أن يحزن لعدم الفوز بها من غير شك ، بل وأن يحزنوا جميعا لذلك فلقد طعن كل من الطموح والحب فى الصميم ، اذ ربما كانوا يأملون بأن ارتباطهم بهاريت قد يرفع من شأنهم . ثم ماذا يمكن أن يكون لوصف « هاريت » من قيمة ؟ انها تسر بسهولة ولا تميز بين الغث والسمين فماذا عسى أن يكون لمدحها من قيمة ؟

وبذلت قصارى جهدها وحاولت اراحتها بالتهوين من شأن ما حدث. واعتباره خليقا بالاغفال ، فقالت : « قد تتألمين لهذا الآن ، ولكن يبدو أنك تصرفت تصرفا حكيما ، ولقد انتهى كل شيء ، وقد لا يتكرر ذلك بل لا يمكن أن تتكرر تلك المقابلة ولذا فلا ضرورة للتفكير فى ذلك » .

وقالت « هاريت » : « هذا عين الصواب » وانها « لن تفكر فى ذلك » ، ولكنها مع ذلك تكلمت ، ولم يكن لها حديث غير ذلك ، ورأت « اما » لكى تصرفها عن التفكير فى « أسرة مارتن » ، أن تنقل اليها الخبر فورا بعد أن كانت تبغى التريث وأخذ الحيطة فى ابلاغه . وكان من العسير عليها أن تعرف هل هى ستفرح أم تغضب ، وهل ستخجل أم لا تجد فى ذلك الا ما يسرّى عنها وعقلية المسكينة « هاريت » على ما هى عليـــه فى تلك الفترة وهذه خاتمة ما كان لمستر التن من أهمية عندها .

وعاد الى هاريت تدريجا تفكيرها فيما لمستر التن من مزايا . واذا كانت لم تشعر بوقع الخبر كما كانت تشعر به لو أنها علمت به فى اليوم السابق ، أو حتى منذ ساعة واحدة ، فان اهتمامها بهذا الخبر لم يلبث أن ازداد ، حتى أخذت ، قبل أن ينتهى حديثهما الأول ، تفصح عما فى نفسها من لهفة وعجب ، ومن جزع وأسف ، ومن ألم وسرور ، من أجل مس هوكنز السعيدة مما قد يحملها على أن تصرف تفكيرها عن أسرة مارتن .

وسرّ « اما » أن تمت تلك المقابلة ، لأنها قضت على ما يكون للصدمة الأولى من وقع ، ولم يبق لها أى أثر للازعاج . وما دامت « هاريت » تعيش عيشتها الحالية ، فلن تتمكن أسرة « مارتن » من الوصول اليها الا اذا جدّوا فى البحث عنها ، وفى هذا سوف يعوزهم الاقدام ، ويحول شعورهم بالتنازل عن البحث عنها ، لأن الأخوات منذ رفضها لأخيهم لم يذهبوا الى بيت «مسز جدرد» وقد يمر عام بأكمله قبل أن يلتقوا أو تكون بهم حاجة الى الكلام ، بل أن تكون لهم طاقة على الكلام .

الفصل الثاني والعشرون

تبدى الطبيعة البشرية كرما نحو من كانوا فى مواقف تسترعى الاهتمام ، فالذى يتزوج أو يموت وهو فى ميعة الصبا لابد أن يلهج الناس بذكر محاسنه .

فلم يكد يمر أسبوع على تردد اسم « مس هوكنز » فى « هايبرى » حتى أخذ الناس يشيدون بما فيها من مزايا جسدية وعقلية ، ويتغنون بجمالها ورشاقتها ، بثقافتها العالية وظرفها الكامل ، فلما عاد « مستر التن » ليزهو بآماله السعيدة ويذيع على الملأ كريم صفاتها ، لم يجد شيئا يزيده على ما قيل اللهم الا أن يذكر اسمها الأول ، واسم الموسيقار الذى تغرم بعزف ألحانه .

فلقد عاد « مستر التن » وهو يشعر بأقصى مراتب السعادة ، بعد أن كان قد رحل والألم يحز فى نفسه بسبب رفضه وما أحسه من طعنة فى الصميم وبعد أن فشل فى تحقيق أمل كان يرجو منه كل السعادة ، بعد سلسلة من الشواهد خيل اليه معها أنها كانت مشجعات قوية . بل ولم يقف أثر رفضه عند حد حرمانه من الفتاة التى كان ينشدها ، فقد ألفى نفســه كذلك وقد هبط الى مستوى الرجل المخطىء الآثم . نعم لقد رحل عن هايبرى وهو مكلوم الفؤاد وعاد اليها مخطوبا لفتاة أخرى تفوق الأولى فى نظره بطبيعة الحال . ذلك أن المرء ينزع فى مثل هذه الظروف الى أن يرى ما ناله يفوق دائما ما عجز عن أن يناله . عاد وهو فرح قانع بنفسه ، عنده ما يشغله ويحفزه ، لا يفكر فى « مس وودهاوس » ويقف من « مس

سمث » موقف التحدى . فقد كان « لأوجستا هوكنز » الفاتنة ، علاوة على المزايا المألوفة من الجمال الرائع والمواهب ، ثروة خاصة تقدر بآلافه الجنيهات ، تبلغ العشرة عدّا ، وفى هذا ما يحفظ عليه كرامته ويوفر له راحته .

وقد تناقل الناس قصته على أحسن ما يتناقلونها به . فهو لم يخب فى مسعاه ولا ألقى بنفسه على أعتاب أحد . لقد فاز بسيدة تملك عشرة آلاف جنيه أو ما يقرب من ذلك ، فاز بها فى يسر وسرعة ، وما كادت تمضى ساعة على التعرف بها حتى أعقبتها الموافقة ، وكانت القصة التى رواها لمستر « كول » عن بداية الموضوع وتطوراته رائعة حقا ، فلقد تمت الخطوات بسرعة ، بدأت بمقابلة عن طريق الصدفة ، ثم أعقبها تناول الغذاء بمنزل « مستر جرين » ، وتلتها وليمة فى بيت « مسز براون » ، كثرت خلالها الابتسامات ، وعلت الوجنات حمرة الخجل ، ترتفع وتهبط بازدياد المشاعر والاضطراب النفسى . وقد أمكن التأثير على الفتاة بسهولة ، واستثارة حبها الى حد يمكن أن يقال عنه فى ايجاز انها كانت مستعدة لقبوله وان كبرياءها وعقلها وجدا فى حبها ما يرضيان عنه .

وهكذا فاز بالمادة وما وراء المادة ، فاز بالمال والحب ، وأصبح الرجل السعيد الذى كان خليقا به أن يكونه ، لا يتحدث الا عن نفسه ومهام أموره ، ينتظر التهانى ، ولا يعنيه أن يسخر الناس منه ، وأصبح لا يخشى مخاطبة كل شابات الجهة وهو باسم متودد ، بعد أن كان منذ أسابيع قليلة يتخذ الحيطة اذا ما أقدم على التحدث اليهن .

وما كان موعد الاقتران ليطول ، فقد كان الأمر بيديهما متى شاءا ، الا فيما تقتضيه بعض الاستعدادات التى لا غنى عنهـا . وما كان عليهما فى الواقع الا انتظار الضرورى من المعدات . فلما ارتحل ثانية الى « باث »

تطلع الكل الى ما سوف يكون بعد ذلك وأصبحت عينا « مسز كول » تنطقان بأنه سيعود الى « هايبرى » ومعه عروسه .

ولم تره « اما » خلال اقامته القصيرة الا نادرا ، فقد أحست بعد المقابلة الأولى بأنه ما زال متألما ، لما كان يبدو عليه الآن من مظهر هو مزيج من الكبرياء المكلوم والتفاخر ، بل لقد أخذت تعجب كثيرا من نفسها كيف أنها استملحته فيما مضى ، فقد كانت رؤيتها له الآن مقرونة ببعض الذكريات البغيضة ، ولولا ما كانت تجده فى ذلك من مغزى خلقى كتكفير عن خطيئتها ، ودرس تعلّمته ، ومصدر مفيد يقلل من اعتدادها بعقلها ، لحمدت الله لو أنها تأكدت بأنها لن تراه أبدا .

لقد كانت تتمنى له كل خير ، ولكن رؤيته كانت تؤلمها ، وودت راضية لو أنه عاش سعيدا ، بعيدا عنها بعشرين ميلا .

على أن ما ينجم عن اقامته الدائمة فى « هايبرى » من ألم لها لابد أن يقل بزواجه ، ويختفى كثير من القلق الذى لا طائل تحته ، ويزول كثير من المواقف الحرجة . وسوف تكون « مسز التن » عذرا لما قد يطرأ من تغيير فى علاقتها به ، وتتضاءل مودتها السابقة غير ملحوظة ، وتبدأ صلات جديدة بينهما على أساس مختلف .

ولم تكن « اما » تفكر الا قليلا فى السيدة ذاتها ، فقد كان لها ما يكفى حاجة « مستر التن » ولا شك ، مثقفة الى القدر الذى يكفى « هايبرى » ، على قسط من الجمال ، ولكنه جمال من الجائز أن يكون عاديا اذا قورن بجمال « هاريت » . وأما عن قيمة النسب نفسه ، فقد ارتاحت نفس « اما » فى هذه الناحية بعد أن أقنعت نفسها بأنه بعد كل ما ظهر منه من علو واستكبار ، وتقليل من مكانة « هاريت » لم ينل شيئا يذكر ، ولم يكن من الصعب تبين الوضع النسبى بين من خطبها لنفسه وبين « هاريت » .

فأما ما هي خطيئته ، فهذا مالم يكن من الممكن التحقيق منه ، وأما من تكون خطيئته فهذا مالا يصعب تبينه . فلو طرحنا العشرة آلاف من الجنيهات جانبا لما تفوقت على « هاريت » فى شىء ، فهى لا تحمل معها اسم عائلة عريقة ، ولا يجرى فى عروقها دم نبيل ، ولا عزوة لها . فلقد كانت « مس هوكنز » صغرى ابنتين لتاجر فى « برستول » ، ولما كانت كل أرباحه من التجارة طول حياته ، فهى لا تعدو أن تكون أرباحا متوسطة . ولن نكون متجنين عليه اذا ذهب بنا الظن الى أن السلع التى كان يتجر فيها ، كانت دون المتوسط من حيث نظرة الناس وتقديرهم . لقد كان من عادتها أن تقضى بعض أيام الشتاء من كل عام فى « باث » ولكن «برستول» هى موطنها ومسقط رأسها ، وعلى الرغم من أن والديها ماتا منذ بضع سنوات ، فقد بقى لها عم من زمرة المشتغلين بالقانون ظلت تعيش فى كنفه ولم يكن من المبرزين فى مهنته ، بل كان لا يعدو أن يكون مجرد رجل يحترف القانون ، وقد خالته « اما » محاميا عاديا ممن ينتصبون لكسب لقمة العيش ، وأنه على درجة كبيرة من الخمول لا تتيح له النهوض بنفسه . وكل مفخرة للعائلة انما ترتكز على أختها الكبرى التى ارتفع نجمها بالزواج من سيد ثرى بالقرب من « برستول » يملك سيارتين .

هذه هى كل قصة حياة « مس هوكنز » ، وهذا كل مجدها . وودت « اما » لو استطاعت أن تخبرها « هاريت » بكل ما خالج مشاعرها . لقد دفعتها بكلامها الى الحب ، ولكن واأسفاه ، فليس من السهل عليها أن تجنبها لوعة الحب بالكلام . لقد أحبت « هاريت » وشغل الحبيب كل قلبها ، ولن يبرئها الكلام من حبها ، ولكن قلبها مع ذلك قد يبرؤ لو جاءها من يحل محله ، ان ذلك هو أمر واضح ليس هناك ما هو أوضح منه ، بل حتى « روبرت مارتن » قد يكون كافيا لأن يفعل ذلك ، أما دون ذلك

فليس هناك ما يكفل برءها ، لأن « هاريت » من أولئك اللائى ان وقعن في شراك الحب ظللن فى شراكه الى الأبد ، وها هى هذه الفتاة المسكينة !! قد زادها رجوع « مستر التن » لوعة وأسى ، لأنها كانت تراه دائما أينما ذهبت .

لقد رأته « اما » مرة واحدة ، ولكن « هاريت » كانت دائما تصادفه فى الطريق مرتين أو ثلاثا فى اليوم ، أو تنجو بالكاد من مقابلته ، أو تسمع صوته ، أو تلمــح كتفه ، أو يحدث أى شىء يجعــله مقيما فى مخيلتها لا يبرحها ، فتأخذها نشوة المشدوه أو المستسلم للتكهنات . وكانت علاوة على ذلك تسمع دائما ما يقال عنه ، لأنها باستثناء الوقت الذى كانت تقضيه فى « هارتفيلد » ، كانت دائمة الاختلاط بمن لا يرون فى « مستر التن » عيبا ، ومن لا يلذ لهم حديث الا عنه ، فلم يخل الجو الذى يحيط بها أبدا من أخبار تدلى عنه ويعقب عليها المعقبون بما يتراءى لهم ، ومن ذكر لما حدث له وما عساه أن يحدث له فى مختلف شئونه . ولم يكن الحديث يخلو من اشارة الى دخله ، وخدمه ، وأثاث بيته . لقد زاد من تقديرها له ما كانت تسمعه عنه دائما من مديح ، وزاد من جذوة حسرتها وألهب مشاعرها ما كان يقال تكرارا ودواما عما تحس به « مس هوكنز » من سعادة ، وعما يلاحظ دائما من حبه لها ، وأنه ليس أدل على هيامه بها من مظهره وهو يسير بجوار البيت ، وطريقة وضعه لقبعته فوق رأسه . وربما كانت « اما » تجد فى تذبذب « هاريت » ما يسرّى عنهــا لو أن هذا التذبذب لم يكن فيه ألم لصديقتها أو لوم عليها هى نفسها . فلقد كانت المكانة الأولى فى عقل صديقتها أحيانا لمستر « التن » وأحيانا أخرى كانت لمارتن ، وقد أفاد ذلك فى بعض الحالات ، لأنه كان يحول دون طغيان احدهما على الآخر . لقد كانت خطبة « مستر التن » شافية لما لحقها من

اضطراب عند مقابلتها لمستر « مارتن » ، وكان لزيارة « اليزابث مارتن » لمسز « جدرد » بعد ذلك بأيام قليلة ما جعلها تطرح جانبا ما جره عليها علمها بخطبة « التن » من الأسى .

ولم تكن « هاريت » بالمنزل حين ذهبت « اليزابث مارتن » الى « مسز جدرد » ولكنها كانت قد أعدت لها رسالة تركتها لها ، كتبت فى أسلوب مؤثر هو مزيج من اللوم اليسير مع فيض من العطف والحنان ، والى أن ظهر « مستر التن » على المسرح شغلتها هذه الرسالة وملكت عليها حواسها ، تفكر فيما يتعين عليها أن تفعله ردا عليها وتتمنى لو فعلت مالا تطاوعها نفسها على الاعتراف به ، ولكن اما وقد عاد « مستر التن » بشخصه فقد قضى على كل هذا الاهتمام ، وطالما ظل يقيم فى « هايبرى » بقيت أسرة « مارتن » فى زوايا النسيان .

وفى صباح اليوم الذى رحل فيه ثانية الى « باث » ، رأت « اما » ، لكى تزيل بعض ما كان لهذا الحادث من قلق نفسى أنه قد يكون أحرى بهاريت أن تقوم برد الزيارة لا ليزابث مارتن .

لقد ساورها الشك فى كيف ستقابل « اليزابث » تلك الزيارة ، وفيما يجب عليها أن تقوله ، وفى أكثر السبل أمنا وسلامة ، فقد يكون اهمال الوالدة والأخوات اذا ما دعين ، جمودا ونكرانا للجميل ، وهذا ما لا يجب أن يكون ، ومع هذا فهناك خطر تجديد المعرفة .

وبعد تفكير عميق ، استقر رأيها على أن رد « هاريث » للزيارة هو أفضل ما يعمل ، على أن يكون ذلك بطريقة تجعلهم يعتقدون بأن هذا التعارف انما هو على سبيل الرسميات لا أكثر ولا أقل . ورأت أن تصحبها فى العربة ، ثم تتركها عند مساكن الرهبانية وتبعد بالعربة قليلا ، ثم تعود اليها لتأخذها معها بعد وقت قصير ، فلا تترك وقتا لعمل غير مستحب ،

أو للعودة الى الماضى الخطير ، وقد يكون فى هذا ، القول الفصل والبرهان القاطع على ما يجب أن تكون عليه العلاقة مستقبلا .

ولم يكن فى وسعها أن تفكر فى حل أحسن من هذا ، وعلى الرغم من أنها وجدت فى ذلك شيئا لا تستسيغه ، شيئا من نكران الجميل الأملس البراق ، الا أنهـا رأت أنه واجب الأداء ، والا فماذا عسى أن يحدث لهاريت .

الفصل الثالث والعشرون

لم تتحمس « هاريت » للزيارة ، فقد شاء سوء حظها أن يقودها قبل مجيء « اما » لزيارتها فى بيت « مسز جدْرد » بنصف ساعة أو أقل ، الى نفس المكان وفى نفس اللحظة التى رأت فيها حقيبة باسم « المحترم فيليب التن » — شارع هويت هارت باث — ترفع الى عربة القصاب لكى تحملها الى حيث تمر عربات نقل البضائع والركاب ، وغاب عن ذهنها كل شىء فى الوجود فى تلك اللحظة عدا تلك الحقيبة ووجهتها .

ورغم ذلك فقد ذهبت . فلما وصلتا الى الضيعة ، كان عليها أن تنزل عند آخر الممشى العريض النظيف المعبّد بالحصى ، تحفه من الجانبين أشجار التفاح المسندة على عُمد من خشب ، ويمتد بالسائر الى الباب الأمامى ، فأخذت رؤيتها للأشياء التى اعتادت أن تبعث فى نفسها سرورا عظيما أيام الخريف الماضى تحيى فى صدرها بعض ما كان لهذا المكان عندها من اضطراب نفسى .

ولاحظت « اما » عند افتراقهما أنها كانت تمعن النظر فيما حولها وهى واجفة ، فصحّت عزيمتها على ألا يزيد وقت الزيارة على ربع الساعة الذى اقترحته ، ثم سارت فى طريقها لتقضى هذه الفترة مع خادمة لها عجوز تزوجت واتخذت « دونول » مقاما لها .

وواظبت على الموعد ، وعادت الى البوابة البيضاء بعد ربع ساعة تماما ، وما كادت « مس سمث » تسمع نداءها حتى أتت اليها دون تمهل ، لا يرافقها أى فتى يخشى عليها منه ونزلت « مس سمث » بمفردها الى

الممشى المعبّد بالحصى ، وقد ظهرت عند الباب لحظتها احـدى أختى « مارتن » ، وكان يبدو عليها أنها تودعها فى حفاوة واحترام .

ولم تستطع « هاريت » أن تعطى بيانا سريعا عما حدث ، بسبب ما كانت عليه من شدة التأثر ، ولكن « اما » أمكنها أخيرا أن تستجمع منها ما يكفى لبيان طبيعة المقابلة ، ومدى الألم الذى تسبب عنها — انها لم تر غير « مسز مارتن » والفتاتين ، قابلتها وهن فى ريبة من أمرها ان لم يكن فى جفاء ، ولم يكن الحديث الذى دار بينهن فى معظم الوقت ، الا فى الأمور العادية البحتة ، الى أن قالت « مسز مارتن » آخر الأمر وعلى بغتة انها تظن أن « مس سمث » قد زاد طولها عما كان فتحول بذلك مجرى الحديث الى ما هو أشيق وأكثر حرارة ، فلقد سبق لها أن قيست هى وصديقاتها فى شهر سبتمبر الماضى ، وفى تلك الحجرة نفسها ، وجرت خطوط بالقلم-الرصاص تحمل علامات وعبارات للتذكرة على افريز الحائط الخشبى المجاور للنافذة . نعم انه هو نفسه الذى قام بها ، وبدا لهن جميعا الآن أنهن يتذكرون اليوم والساعة ، ومن كان حاضرا وقتهـا ، والباعث لهن على كل ذلك وعاد اليهن نفس شعورهن السابق وأخذن يتحسرن على ما مضى ، وبدا أنهن على استعداد للعودة الى نفس ما كان بينهن من حسن التفاهم ، ثم ما كدن يعدن كما كن قبلا ، حتى عادت العربة فانتهى بذلك كل شىء (وكانت هاريت كما كانت تتوقع « اما » أكثرهن استعدادا لكى يحل الصفاء وتزول الجفوة) .

وكان لطريقة الزيارة وقصر وقتها ، ما جعل « هاريت » يشعر بأنها سوف تكون الأخيرة ، لا زيارة بعدها . فما أعجب أن تقضى أربع عشرة دقيقة مع من أمضت معهن ستة أسابيع منذ ستة شهور لا تزيد ، وهى لهن شاكرة حامدة !!

لقد تخيلت « اما » كل هذا وشعرت بأن من حقهن أن يغضبن وأن يشعرن بالاساءة ، كما أحست بالألم الذى لا محالة لحق بهاريت من جراء ذلك . لقد كانت مهمة مؤلمة كلها ، وكم كانت « اما » تود لو كان فى وسعها أن تبذل النفس وأن تضحى ما أمكنها لترى أسرة « مارتن » وقد تبوأت منزلة اجتماعية أرفع ، فهم جديرون بذلك ولا يعوزهم الا قدر يسير من الارتفاع كان فيه كل الكفاية . ولكن ما دام هذا حالهم ، فماذا عساها أن تفعل غير ما فعلت ؟ لقد كان من المستحيل أن تعقل غير ذلك وما هى بنادمة على ما فعلت .

واذن فلابد من أن يفرق بينهم وبينها ، ولكنها عملية محفوفة بكثير من الألم لهاريت ولها نفسها ، وكان ألمها فى ذلك الوقت شديدا حتى لقد شعرت بأنه لابد من أن تجد شيئا يسرّى عنهما سريعا ، وصحّت عزيمتها على العودة الى بيتها عن طريق « راندولز » لتفرج عما بها من أسى . لقد تعبت من التفكير فى « مستر التن » ومن أسرة « مارتن » ، وأصبح كل ما تنشده من الترويح عن نفسها فى « راندولز » شيئا لابد منه . وكانت خطة طيبة منها بالفعل ، ولكنهما علمتا عند وصولهما بالعربة الى الدار ، أن رب البيت وزوجته قد خرجا منذ قليل ، وقال لهما الخادم انه يعتقد أنهما ذهبا الى « هارتفيلد » .

وصاحت « اما » وهما تهتمان بالانصراف : « ان هذا فى منتهى القبح ، وستفوتنا الآن فرصة اللقاء بهما ، انه لشىء مثير للغاية ولست أدرى أنى مُنيت يوما بمثل هذه الخيبة . ومالت الى الوراء فى ركن العربة لتتابع ما برمت به وضجرت منه ، أو لتحاول ازاحته عن عقلها ، ولعلها أخذت بنصيب من الحالتين ، شأنها فى ذلك شأن من طابت نفوسهم وحسنت نواياهم . ثم اذا بالعربة تقف ، فترفع بصرها لترى أن « مستر وستن »

وزوجته هما اللذان أوقفاها ووقفا ليتحدثا اليها . وسرّت عند رؤيتهما وازداد سرورها لما بادرها « مستر وستن » بقوله :

« كيف حالك ؟ كيف حالك ؟ لقد كنا نجالس والدك وسرّنا أن وجدناه بخير ، ان فرانك سيأتى غدا ، فقد وصلتنى منه رسالة هذا الصباح وأصبح وجوده بيننا غدا عند الظهر أمرا محققا ، وهو اليوم فى « اكسفورد » ، وسيقيم معنا أسبوعين ، ولقد كنت متأكدا من حقيقة الوضع ، فلو أنه كان حضر فى عيد الفصح لما مكث معنا غير ثلاثة أيام ، لقد فرحت لعدم مجيئه فى عيد الفصح ، والطقس الآن فى سبيل أن يكون مناسبا له ، وسيكون طقسا جميلا وجافا وغير متقلب ، وسنسعد به تماما . لقد أصبح كل شىء وفق ما نشتهى » .

وما كان فى وسع « اما » أن تقاوم وقع هذا النبأ أو ألا تلحظ البشر الذى طفح به وجه « مستر وستن » . وأمّنت « مسز وستن » على كل ما قاله زوجها بما بدا على محياها ، وبما همست به من كلمات قليلة ، ولكنها هادئة ومحققة للغرض . لقد كان يكفى أن تكون واثقة من حضوره لكى تثق « اما » نفسها بذلك ، ففرحت لفرحهم وطفحت النفوس بالبشر بعد أن أعياها الانتظار ، وانطوى الماضى الكليل أمام فرحة المستقبل ، وذهب بها تفكيرها فى سرعة خاطفة الى أن هناك أملا فى ألا يتطرق الحديث الى « مستر التن » بعد اليوم .

واستطرد « مستر وستن » يلقى عليها أخبار الأحداث التى جرت فى « أنسكومب » ، فسمحت لابنه بأن يكتب اليه يقول ان أمامه أسبوعين يقضيهما كيفما شاء ، وأن يرسم برنامج رحلته ، وهى تصغى اليه وتبتسم ، ثم هنأته .

وختم حديثه بقوله « وسآتى به سريعا الى هارتفيلد » .

وخيّل الى « اما » فى تلك اللحظة أن زوجته قد مسّت ذراعها بيدها وهو يقول ذلك :

ومالت « مسز وستن » : « هيا بنا يا « مستر وستن » فقد عطلنا الفتاتين » .

« أجل ، أجل ، وآنا على استعداد » ثم التفت الى « اما » ثانية وقال : « ولكن لا تنتظرى بأنك ستجدينه فتى مفرطا فى ظرفه ، واعلمى أن ما وصلك عنه ما هو الا ما أراه أنا فيه ، وهو قد لا يعدو فى الواقع أن يكون فتى عاديا » .

قال هذا على الرغم مما كان يبدو فى عينيه فى تلك اللحظة من بريق يؤكد غير ذلك .

وكان رد « اما » على ذلك رد البرىء المذهول الذى لا يهدف الى شىء .

وقالت « مسز وستن » فى صيغة الآمر وهى تهم بالانصراف : « فكرى فىّ غدا يا عزيزتى « اما » حوالى الساعة الرابعة » ، وكان كلامها موجها لها خاصة وفى شىء من القلق .

وأسرع « مستر وستن » يصحح هذا بقوله « عجبا !! الساعة الرابعة ! ثقى بأنه سيكون هنا فى الساعة الثالثة » — وانتهت بذلك مقابلة كانت تبعث على الرضى كل الرضى .

وشعرت « اما » بالسعادة تتملك كل مشاعرها ، وتغيّرت نظراتها الى الأشياء جميعا ، فلم يعد « چيمز » وخيوله فى نظرها ، فى نصف الكسل الذى كانوا عليه قبلا ، وعندما نظرت الى حواجز الشجيرات المصطفة ، خيّل اليها أن شجيرات العنّاب على الأقل ستزهر حالا وتخرج شطاها ، فلما التفتت الى « هاريت » رأت فى وجهها ما يشبه الربيع ، اذ كانت على ثغرها ابتسامة كذلك ، ابتسامة عذبة .

وخطر لها سؤال غير ذى بال ، ومر ولم يترك آثرا وهو :

« هل سيمر مستر « فرانك تشرشل » بباث كما يمر بأكسفورد ؟ » .

ولم تجد عندها ردا على هذا السؤال ، فلا الجغرافيا أسعفتها ولا الهدوء عاد اليها ، واستقر الرأى عند « اما » أن كلا سيكون فى حينه .

وأصبح الصباح فى ذلك اليوم المنشـــود ، ولم تنس تلميذة « مسز وستن » الوفية أن عليها أن تفكر فيها فى الساعة الرابعة ، فلم تغفل عن ذكرها فى الساعة العاشرة والحادية عشر والثانية عشرة . وقالت فى نفسها وهى تنزل من حجرتها :

« كم أنت قلقة يا أعز صديقاتى ، انك شديدة الاهتمام براحة الناس جميعا الا راحتك ، انى أكاد أراك الآن قلقة لا تستقرين على حال وتدخلين حجرته الحين بعد الحين ، كى تتأكدى من أن كل شىء على ما يرام » .

ودقت الساعة ، وكانت الثانية عشرة ، وهى تجتاز عتبة البهو فعادت تقول لنفسها : « انها الثانية عشرة ، ولن أنسى أن أفكر فيك أربع ساعات منذ الآن وقد أشغل غدا فى مثل هذا الوقت ، أو بعده بقليل ، بالتفكير فى أنهم سيأتون جميعا لزيارتنا ، فأنا متأكدة بأنهم لن يتوانوا فى احضاره » .

وفتحت باب الحجرة فرأت سيدين يجلسان مع أبيها ، انهما « مستر وستن » وابنه ، وكان لم يمض على وصولهما الا دقائق قليلة ، ولم يكن « مستر وستن » قد انتهى بعد من توضيح سبب مجىء « فرانك » قبل موعده بيوم ، كما أن والدها لم يكن قد فرغ من نصف ترحيبه بهما وتهانيه .

ودخلت عليهم تغمرها موجة من الدهشة ، وتم التعارف فى غمرة من السرور — لقد أصبح « فرانك تشرشل » الذى طالما تحدثوا عنه وكان مثار اهتمامهم ، ماثلا أمامها . وقدموه اليها ، فلم تر أنهم زادوا شيئا فى

مديحه . لقد كان فتى وسيما للغاية ، ليس فيه من مأخذ قط ، سواء فى حسن قامته أو مظهره أو حديثه ، وكان محبا يفيض بالكثير مما تفيض به نفس أبيه من حيوية ، كما بدا فوق ذلك متزنا ونشيطا .

وأحست فى الحال بأنها سوف تعجب به ، فقد آنست فيه من لين الجانب والاقبال على الحديث ، ما أكد لها بأنه حريص على التعرف بها ، وأن هذا التعارف لابد وأن يتم عاجلا . لقد وصل الى « راندولز » بالأمس مساء ، وسرّها تلهفه على الوصول حتى اضطر الى تغيير خطته فى السفر ، فيبدأه مبكرا ويستمر فيه الى ساعة متأخرة من الليل ، ويقطع المسافات بخطى أسرع كى يصل قبل موعده بنصف يوم .

وصاح « مستر وستن » يقول وهو فى غمرة من السرور : « لقد أخبرتك البارحة بأنه سيكون هنا قبل الموعد المحدد ، وانى لأذكر ما كان من عادتى أن أفعله ، فالمرء لا يبطىء اذا ما أزمع السفر ، ثم هو لا يجد مفرا من الاسراع فى سفره ، لأنه يجد من المتعة فى لقاء أصدقائه قبل الموعد الذى ينتظرون فيه قدومه ما يفوق كل ما يبذل فى ذلك من جهد مهما عظم فهو بسيط » .

وقال الفتى : « انه لسرور عظيم أن يجد الانسان مكانا يستمتع فيه ، ولو أنى لا أزعم حتى الآن وجود بيوت كثيرة أرى متعة فيها ، ولكنى شعرت بأنى سأوفق الى شىء من هذا بحضورى الى موطنى » .

وكان لذكر كلمة « موطنى » ما جعل والده ينظر اليه بالرضى من جديد ، وأيقنت « اما » فى الحال بأنه عرف كيف يحبب الناس فيه ، وزاد من يقينها ما حدث بعد ذلك . لقد كان سروره براندولز عظيما ، أما المنزل فقد بدا له على أحسن ما يكون من الترتيب والنظام ، وأبى أن يوافق على أنه متناه فى الصغير ، كما أعجب بموقعه ، وبالطريق المؤدى الى

« هايبرى » ، وهايبرى بالـذات ، وكان اعجابه بهارتفيلد أكثر من كل ذلك ، لقد استرسل يتحدث عما يشعر به دائما من جاذبية الريف له ، وريف موطنه بالذات الذى يهوى اليه فؤاده .

وساور « اما » الشك فى أنه لم تهيأ له فرصة الاستمتاع بهذا الشعور من قبل ، ولكن حتى لو كان ذلك غير حقيقى ، فقد وجدته منه مستعذبا ، وقد أبدع فى التعبير عنه ولم تكن تبدو على سلوكه أية مغالاة ، أو أنه يسير على غير سجيته وكان مظهره وحديثه يقطعان بأنه يشعر بمتعة غير عادية .

وكانت مواضيع الحديث بوجه عام مما يراد بها فتح باب للتعارف فكان هو من جانبه يوجه اليها الأسئلة : « هل هى فارسة تركب الخيل ؟ وهل هناك فى « هايبرى » ركوب للخيل يمكن أن يجد الانسان متعة فيه ؟ وهل هناك نزهات جميلة على الأقدام ؟ وهل الجوار فسيح الأرجاء ؟ ثم هل « هايبرى » بها عشيرة كافية ؟ ان بها بيوتا عديدة جميلة جدا ، كما أن هناك أخرى بجوارها . وحلبات الرقص ، هل يوجد لديهم فيها شىء ؟ وهل هو مجتمع مولع بالموسيقى ؟ ؟

ولما علم عن كل هذا ما أرضاه ، وزادت نسبيا صلة التعارف بينهما ، اغتنم فرصة خلا فيها الوالدان الى بعضهما ، ليتناول زوجة أبيه بالثناء المستفيض ، والاعجاب العظيم ، بما تقوم به لاسعاد أبيه كما حمد لها حسن لقائها له وترحيبها الكريم به ، فأضاف بذلك دليلا آخر على ما له من دراية فى كسب القلوب ، وعلى أنه أدرك حقا بأن من واجبه محاولة ارضائها . وهو لم يمتدح زوجة أبيه بكلمة تعدو ما كانت تعلمه « اما » عنها ، أو ما كانت تعرف أن « مستر وستن » جديرة به تماما ، ولكن مما لا ريب فيه مع ذلك ، أنه لم يكن يعلم عن ذلك الا النزر اليسير ، لقد

كان عليما بما يلقى ترحيبا عند الناس ، أما ما عدا ذلك فلم يكن له علم أكيد به ؛ ثم استطرد يقول :

« ان زواج والده فى نظره عمل ينطوى على الحكمة ، وكل صـديق محب لابد أن يبتهج له ، وان الأسرة التى نال منها هذه المِنّة يجب أن ينظر اليها على الدوام بأنها أسدت اليه أعظم ما يستوجب الشكر » .

ووصل فى مديحه حدا كان أقرب ما يكون الى شكر « اما » على ما تحلت به « مس تيلور » من حميد الصفات ، دون أن يبدو عليه أنه يتناسى أن الأصل فى طبيعة الأشياء ، أن تكون « مس تيلور » هى التى صقلت « مس وودهاوس » لا أن يكون الأمر على العكس . ثم أنهى حديثه ، وكأنما أراد أن يحدد فكرته التى ظل يضرب حولها بالتعبير عن دهشته لما كانت عليه زوجة أبيه من شباب وجمال فقال :

« لقد كنت أتوقع أن أرى شخصا لطيفا كريم الأخلاق ، هـذا كل ما كنت أتوقعه ، ولكنى أعترف من ناحية أخرى ، وأنا أقدر كل الظروف ، بأنى ما كنت أنتظر أكثر من أن أرى سيدة على درجـة متوسـطة من الوسامة وفى سن معقولة ، ولم أكن أعلم بأنى سأجد « مسز وستن » سيدة جميلة وشابة » .

وقالت « اما » : « انك لن تبالغ مهما قلت فى وصف كمال « مسز وستن » فى نظرى ، ولو أنك ظننتها فى الثامنة عشرة لما وجدتنى الا سعيدة بما تقول ، أما هى فلن تتأخر عن العراك معك لما تصوغه فى مديحها من هذه العبارات . وحذار أن تدعها تتخيل بأنك تحدثت عنها على أنها فتاة جميـلة » .

وأجابها : « أرجو أن أكون أحسن دراية فى المستقبل » ثم « وفى انحناءة لطيفة » استطرد يقول : « لا ، وكونى واثقة بأنى سوف أكون

فى حديثى مع « مسز وستن » مدركا لما يجوز أن يقال من مديح دون خطر من أن يظن بى اننى أسرفت فى القول » .

وفكرت « اما » أتكون الظنون التى استولت عليها عما عساه أن ينجم عن تعارفهما قد مرت بخاطره كذلك ؟ وهل ما أزجاه من المديح يؤخذ على أنه من دلائل الموافقة الكاملة ، أم على أنه من دلائل التحدى والمعارضة السافرة ، ورأت أنه يتعيّن عليها أن تراه أكثر وأكثر لكى تفهم عاداته وأساليبه .

ولم يساورها شك فيما كان يدور فى ذهن « مستر وستن » معظم الوقت ، وكثيرا ما لاحظته وهو يرمقها مغتبطا بنظراته الخاطفة ، كما كانت واثقة ، حتى وقت انصرافه عن النظر اليهما ، بأنه كان شديد الانصات الى ما يقولان .

ولقد شعرت بمنتهى الراحة لانصراف ذهن والدها التام عن كل تفكير من هذا النوع ، وعدم ميله الى التغلغل فى الأمور ، أو الشك فى شىء ، وكان من بواعث سرورها أن عدم تحبيذه للزواج كان لا يزيد عنده على توقع حدوثه ، اذ على الرغم من معارضته الدائمة لأى زواج يتم ، فانه لا يتألم سلفا اذا خشى عقد زيجة من الزيجات . فكان يبدو وكأن سوء الظن لم يبلغ معه حدا يحمله على الظن بأن شخصين يعتزمان الزواج لمجرد أن يرى بينهما ألفة وتفاهما ، الا أن يرى بالدليل القاطع ما يثبت عزمهما .

لقد حمدت « اما » هذه الغشاوة فى أبيها وقدرت ما ينطوى عليه ذلك من غنم . فلقد استطاع الآن ، وقد خلا عقله من كل ظن ممقوت ، وبرىء من كل وسواس يوسوس اليه بأن ضيفه سوف يغدر به ، أن يظهر ما طبع عليه من حسن الوفادة والترحيب ، فبدا ذلك منه فى لهفته وهو يسأل عن مدى ما لقيه « مستر فرانك » من راحة فى سفره وقد اضطر الى النوم

ليلتين فى الطريق ، وفى تعبيره عن فرحه الحقيقى وهو يراه قد أفلت من الاصابة ببرد كان لابد أن يصيبه .

وانتهت الزيارة فى وقت معقول ، وأخذ « مستر وستن » فى الانصراف وهو يقول : « انه لابد من ذهابه ، لأن له فى « كراون » أعمالا تتعلق بالكلأ الجاف ، كما أن عليه الذهاب عدة مرات الى « متجر فورد » لقضاء بعض حاجات لمسز وستن ، وهو مع ذلك لا يجد ما يدعو لتعجل الآخرين فى الانصراف » .

ونهض ابنه فى الحال ، لما كان عليه من نشأة طيبة جعلته يدرك هذا التلميح ، وهو يقول :

« نظرا لما تتطلبه أعمالك من ذهابك بعيدا ، فانى أغتنم الفرصة لكى أقوم باحدى الزيارات التى لابد من القيام بها يوما ما ، ومن الأفضل أن أقوم بها الآن ما دام ذلك ممكنا ، فلقد كان لى شرف التعرف باحدى جاراتكم (والتفت نحو اما) وهى فتاة تقيم فى « هايبرى » ، أو على مقربة منها ، ومن أسرة تدعى أسرة « فيرفاكس » ، وأظن أنى لن أجد صعوبة فى الاهتداء الى بيتها ، ولو أنى أعتقد بأن « فيرفاكس » ليس الاسم المضبوط ، وأنه أحرى بى أن أقول « بارنس » أو « بيتس » ، فهل تعرفين أسرة بهذا الاسم ؟ » .

وصاح والده قائلا : « من المؤكد أننا نعرفه ، لقد مررنا ببيت « مسز بيتس » ، وشاهدت « مس بيتس » تطل من النافذة ، ولا شك أنك عرفت « مس فيرفاكس » ، وأذكر أنك قابلتها فى « ويموث » ، وهى بنت ظريفة فاذهب لزيارتها بالتأكيد » .

وقال الفتى : « لا ضرورة لزيارتها فى هذا الصباح ، ويمكن أن أؤدى الزيارة فى يوم آخر ، ولكن درجة التعارف فى « ويموث » كانت — » .

« عجبا !! اذهب اليوم ، اذهب اليوم ولا تؤجل الزيارة ، ان ما يجب تنفيذه حالا لا يمكن أن تكون مبالغا فى التبكير بتنفيذه ، وثمة ملاحظة أخرى من واجبى أن أبديها لك يا «فرانك» وهى أنه لا ينبغى لك أن تقصّر فى شىء نحوها وهى هنا ، فانك حين قابلتها مع أسرة « كامپبل » كانت تقف من الجميع موقف الند ، أما هنا فهى الآن مع جدّة فقيرة عجـوز تعيش على الكفاف ، فان أنت لم تبادر بزيارتها كان ذلك اهانة منك » .

وبدا على الابن الاقتناع .

وقالت « اما » : « لقد سمعتها تتكلم عن لقائها بك ، وهى فتاة على درجة كبيرة من الرشاقة » .

ووافق على عبارتها موافقة فاترة بكلمة « نعم » ، مما جعلها تتشكك فى أنه يؤمن حقيقة بذلك ، ومع ذلك فلابد وأن تكون هناك معايير خاصة للرشاقة فى عالم « المودة » الحديثة ، اذا كانت « چين فيرفاكس » لا تبدو فى نظره فتاة عادية .

ثم استطردت تقول : « اذا كانت دماثة أخلاقها لم تلفت نظرك قبل الآن ، فلا أخالها الا ملفتة نظرك اليوم ، لأنك ستراها على أحسن ما تكون ، ستراها وستسمعها ، لكن لا ، فانى أخشى ألا تسمعها أبدا ، لوجود خالتها التى لا تكف عن الكلام » .

وقال « مستر وودهاوس » ، وكان آخر من اشترك فى الحديث : « هل تعرفت « بمس فيرفاكس » يا سيدى ؟ اذا كان هذا ، فاسمح لى اذن أن أؤكد لك بأنها فتاة ظريفة جدا ، وهى تقيم هنا ، وقد جاءت لزيارة جدتها وخالتها ، وهن جديرات بالاعجاب ، فأنا أعرفهن طول حياتى ، وأعتقد بأنهن سيفرحن كثيرا لرؤيتك ، وسيذهب معك أحد الخـدم ليريك الطريق » .

« لا يا سيدى ، مستحيل ، ووالدى قادر على توجيهى » .

« ولكن والدك لن يذهب بعيدا الى مسافة كهذه ، فهو لن يصل الا الى ناحية « كراون » ، وهى على الجانب الآخر من الطريق ، وهناك منازل كثيرة ، ويحتمل أن تضل الطريق ، وهو طريق فى غاية القذارة ، الا اذا التزمت السير فوق الافريز ، ولكن حوذى عربتى قادر على أن يرشدك الى أحسن مكان تعبر منه » .

واعتذر مستر « فرانك تشرشل » رغم كل هذا ، وبدا جادا فى اعتذاره ، وسانده والده بحماس وهو يقول : « صديقى الحميم ، ان هـذا غير ضرورى بالمرة ، وان « فرانك » يعرف الوحل حين يراه ، أما عن بيت « مسز بيتس » فانه قد يصل اليه من « الكراون » بوثبة ثم خطوة تتلوها قفزة » .

وسمح لهما بالذهاب بمفردهما ، وانصرف السيدان بعد أن أديت التحية بايماءة قلبية من أحدهما وانحناءة رشيقة من الآخر .

وبقيت « اما » ترفل فى حلل السعادة لبدء هذا التعارف ، وأصبح فى مقدورها الآن أن تفكر فى آل بيت « راندولز » جميعا ، فى كل ساعات النهار ، وهى واثقة كل الثقة بأنهم هانئون .

الفصل الرابع والعشرون

وعاد « مستر فرانك تشرشل » اليهم فى صبيحة اليوم التالى وكان بصحبته « مسز وستن » التى بدا وكأنه قد أحبها من أعماق قلبه بقدر ما بدا تعلقه بهايبرى . لقد ظل يجالسها فى بيتهم وهو مغتبط هانىء حتى حانت الساعة التى اعتادت أن تخرج فيها للتريض ، فلما طلبت اليه أن يختار الطريق الذى يسيران فيه ، حدده فى الحال بهايبرى ، ولم يكن يشك اطلاقا فى وجود طرق أخرى كثيرة فى كل اتجاه آخر يحلو فيها المسير ، ولكنه شعر بأنه اذا ترك له الاختيار فلن يختار فى كل مرة الا الطريق نفسه ، فما كان يستهويه دائما غير « هايبرى » ، تلك القرية المشرقة البهيجة ذات الهواء العليل . ولم تكن « هايبرى » فى نظر « مسز وستن » تعنى غير « هارتفيلد » ، وقد وثقت بأن هذا هو نفس ما يراه « فرانك » ، ولذا فقد سارا مباشرة اليها .

ولم تكن « اما » تتوقع مجيئهما ، ولم يكن « مستر وستن » ، الذى كان قد زارهم من قبل دون أن يمكث عندهم غير برهة استمتع خلالها بسماع الحديث عن ابنه وطرفه ، يعرف شيئا عن خطبتهما . وقد أدهشها كما سرّها أن تراهما يسيران معا الى البيت وقد تأبط كل منهمـا ذراع الآخـر .

لقد كانت تود رؤيته ثانية ، وخاصة أن تراه بصحبة « مسز وستن » ، فان رأيها فيه كان يتوقف على سلوكه نحوها ، فان هو قصّر فى شىء من ذلك فهى لن تغتفر له زلته ، ولهذا فقد رضيت عنه كل الرضى عندما رأتهما

معا ، ثم هو لم يؤد واجبه نحوها بالكلام العذب وحده ولا بالمغالاة فى المديح ، بل لم يكن هناك ما هو أبلغ فى التعبير ولا أثلج للصدر من طريقة معاملته لها بصفة عامة ، ولا أصدق من ذلك فى الدلالة على رغبته فى اتخاذها صديقة له ، وفى اكتساب محبتها . وقد توفرت « اما » فسحة من الوقت لكى تكون رأيا سليما عنه ، فقد امتدت زيارتهما بقية الصباح . ومشى ثلاثتهم سويا ساعة أو ساعتين ، تارة حول شجيرات التوت فى « هارتفيلد » وبعدها فى « هايبرى » ، وسرّه كل ما رآه ، وأعجب بهارتفيلد بالقدر الذى يرتاح « مستر وودهاوس » الى سماعه . فلما عزموا على مواصلة السير ، أبدى رغبته فى أن تتاح له فرصة معرفة كل أنحاء القرية ، ووجد فيها كثيرا مما أثار اهتمامه وجعله يلهج بالمديح ، على غير ما كانت تنتظره « امـا » .

وكان بعض ما أثار اهتمامه كفيلا بأن يجذبه الى قلوب الناس ، فقد رجا بأن يرى البيت الذى عاش فيه والده ردحا طويلا ، وكان من قبـل منزلا لجده . ولما تذكر أن هناك امرأة عجوزا كانت تقوم على تربيته ، وعلى أنها ما زالت على قيد الحياة ، سـار يجوب الطريق من أوله الى آخره بحثا عن كوخها .

وعلى الرغم من أنه لم تبد منه مواهب واضحة فى بعض ملاحظاته ، فقد أظهر شعورا رقيقا نحو « هايبرى » بوجه عام ، فكان ذلك بمثابة تحية منه لمن كان يسير فى صحبتهم .

وراقبته « اما » عن كثب ثم قررت أنه ليس من العدل أن يظن فيه ، وهو يمثل هذه المشاعر التى أظهرها ؛ أنه كان يتغيب بارادته ، أو أنه لم يعمل على المجىء ، أو أنه كان غير مخلص فيما كان يبديه من الأعذار لتخلفه عن المجىء ، واستقر رأيها على أن « مستر نيتلى » كان ولا ريب متجنيا عليه .

وكان أول وقوف لهم عند « نزل التاج » ، وهو مكان لا يستحق أى اهتمام ، وان كان المكان الرئيسى من نوعه فى الجهة . وكان به زوجان من الخيل المخصصة لعربات المسافرين ، وهى أكثر ما كانت لخدمة أهل الجيرة منها الى استعمالها فى السفر الطويل ، ولم تكن رفيقتاه لتتوقعا أن تجد أى شىء فيه يثير الاهتمام أو يدعو الى التوقف ، ولكنهما وقد مرا به ، أخذتا تسردان تاريخ الصالة الفسيحة التى أضيفت الى البناء ، وشيدت فى الأصل منذ سنوات عديدة لتكون صالة للرقص وظلت تستعمل لهذا الغرض بين الحين والحين عندما كان أهل الجيرة كثيرين ولهم ولع بالرقص . ولكن تلك الأيام الزاهرة قد ولّت منذ مدة ، وأصبحت الآن ولا غرض منها أكثر من أن تكون ناديا للعب الورق أسسه سادة المنطقة وأنصاف السادة .

وأثار هذا القول اهتمامه فى الحال ، واستهواه انها كانت صالة للرقص ، وبدلا من أن يواصل المسير توقف لبضع دقائق عند نافذتين عاليتين كانتا مفتوحتين ، لينظر الى داخل الصالة ويفكر فى مدى صلاحيتها ، ثم أبدى أسفه لتوقف استعمالها فيما خصصت له فى الأصل . ولم ير بالصالة عيبا ، ولم يقرهما على شىء مما رأتاه فيها من عيوب . قال ان فيها من العرض والطول والجمال ما يكفى ، وانها تكفى الراقصين وتوفر لهم كل الراحة ، ومن واجبهم اقامة حفلات راقصة فيها مرة كل أسبوعين طيلة الشتاء على الأقل ، ثم لماذا لم تستعد « مس وودهاوس » الأيام السعيدة السالفة التى كانت لتلك الصالة ، وهى القديرة على أن تقوم بأى شىء فى « هايبرى » ؟

وأشارت صاحبتاه الى النقص فى عدد الأسر اللائقة بالجهة ، والى أنه لا سبيل الى اغراء أحد ممن يعيشون بعيدا عن أطراف القرية على الحضور . ولكنه لم يقتنع بذلك ، بل لم يكن ليصدق بأن البيوت الجميلة

العديدة التى شاهدها حوله ، ليس فيها العدد الكافى من محبى الرقص . بل لقد أبى وهو يستمع الى التفاصيل ، والى حال الأسر ، أن يقر بأن مثل هذا الخليط من الناس فيه ما يضايق بأى حال ، أو بأن هناك أية مشقة فى عودتهم جميعا الى أماكن اقامتهم فى الصباح التالى .

وكان فى جداله كالفتى الذى ملك عليه الرقص كل جوارحه ولقد أدهش « اما » أن ترى ما فى أسرة « وستن » من صفات تطغى بهذا الوضوح على ما لأسرة « تشرشل » من عادات ، فقد انعكس فيه كل ما كان لوالده من حيوية وابتهاج وميول اجتماعية ، ثم لا شىء فيه مما كانت عليه أسرة « أنسكومب » من تحفظ وكبرياء ، نعم لم يكن فيه ولا شك القدر الكافى من الكبرياء ، بل ان عدم مبالاته بامتزاج الطبقات كان مرده تفكير غير سليم من ناحيته اذ لم يكن يقدّر نتيجة ما يستهين به من أضرار ، وكان ما يفعله لا يزيد على أن يكون فورة من فورات المشاعر الحسية .

وأمكن آخر الأمر استدراجه الى الابتعاد عن واجهة « نزل التاج » ، فلما أوشك أن يكون أمام البيت الذى تعيش فيه أسرة « بيتس » تذكرت « اما » الزيارة التى كان قد عقد العزم عليها بالأمس ، وسألته ان كان قد قام بها .

وأجابها : « أجل ، أجل ، وقد كنت على وشك أن أذكر ذلك . وكانت زيارة موفقة جدا ، فلقد رأيت السيدات الثلاث ، وشعرت بأنى مدين لك بالشكر لما أعددتينى للقياه ، فلو أن الخالة الثرثارة أخذتنى على غرة ، لكان فى ذلك هلاكى ، أما من ناحية الأمر الواقع فالأمر لا يعدو أن أكون قد تورطت فى زيارة هى أبعد ما تكون عن التفكير السليم ، فما كانت هناك ضرورة لأكثر من عشر دقائق أقضيها فى تلك الزيارة ، ولعل هذا كان أوفق ما يكون . لقد كنت أخبرت والدى بأنى سأعود الى البيت قبله

قطعا ولكنى لم أستطع الافلات ، بل لم أنعم بفترة سكوت ، وقد اكتشفت مع بالغ دهشتى أن والدى حين لم يعثر علىّ فى أى مكان آخر ، ثم لحق بى هناك أخيرا ، كنت قد مكثت معهن ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة وأن السيدة الطيبة لم تمكننى من الافلات قبل ذلك » .

« وماذا كان رأيك فى مظهر « مس فيرفاكس » ؟

« مريضة ، مريضة جدا ، هذا اذا كان يجوز أن تترك فتاة لتبدو مريضة ، على أن هذا تعبير غير مقبول بحال ، يا « مسز وستن » أليس كذلك ؟ ان السيدات لا يبدون مريضات أبدا ، ولست أمزح ان قلت بأن « مس فيرفاكس » بطبيعتها شاحبة اللون ، مما يجعلها تبدو معتلة الصحة ، وانه لمما يرثى له أن تكون بشرتها شاحبة » .

ولم توافقه « اما » على ذلك ، وأخذت تدافع عن بشرة « مس فيرفاكس » بمرارة ، « صحيح أنها لم تكن يوما ذات بشرة نضرة ، ولكنها لم تسمح أبدا بأن يبدو لون بشرتها كمن كانت بها علة ، ثم ان بشرتها ذات نعومة ورقة ، مما يكسب محياها جمالا له طابعه الخاص » .

وأصغى اليها بكل ما يجب من التقدير ، واعترف بأنه سمع الكثيرين يقولون مثل ما تقول ، ولكن لابد له من الاعتراف بأنه لا شىء عنده يعوّض ما للصحة من اشراقة جميلة ، وأن البشرة النضرة تضفى على القسمات غير المنسقة جمالا ، فاذا كانت القسمات منسقة كان الأثر — وانه لمن حسن الحظ أنه لم تكن به حاجة الى وصف ما يكون لديك من أثر » .

وقالت « اما » : « أجل ، فلا مجال للنقاش فى مسائل الذوق ، فأنت على الأقل معجب بكل ما فيها ماعدا بشرتها » .

وهز رأسه ضاحكا ثم قال : « لا أستطيع أن أفرق بين « مس فيرفاكس » وبين بشرتها » .

« وهل كنت تراها كثيرا فى « ويموث » ؟ وهل كنت كثير لاختلاط بنفس الجماعة ؟

وكانوا قد اقتربوا فى تلك اللحظة من « متجر فورد » فأسرع يقول :

« عجبا ، لابد أن يكون هو نفس الحانوت الذى يؤمه الناس جميعا فى كل الأيام ،كما أخبرنى بذلك والدى ، فهو يقول انه يأتى بنفسه الى « هايبرى » ستة أيام من أيام الأسبوع ، وان له دائما معاملات مع « متجر فورد » — فاذا لم يكن فى ذلك ما يضايقك ، فرجائى أن تسمحى لنا بالدخول حتى أبرهن بأنى من أبناء هذه الجهة ، أى من مواطنى «هايبرى» الأصليين ، نعم لابد لى من شراء شىء من متجر فورد فان من شأن ذلك أن يعيد الىّ حريتى ، هل ترين أنهم يبيعون القفازات ؟

« أجل ، انهم يبيعون القفازات وغيرها من الأشياء ، وانى لمعجبة بوظيفتك ، انك ستكون محبوبا للغاية فى « هايبرى » لقد ذاع صيتك قبل مجيئك ، لأنك ابن « مستر وستن » ولكنك لو صرفت نصف الجنيه فى « متجر فورد » لطغت شهرتك على فضائلك » .

ودخلوا الحانوت ، ولما أنزلت الربط التى أجيد حزمها ، فى قفازات الرجال الوبرية الناعمة ، والقفازات الجلدية التى تخرجها مصانع «يورك» ، وعرضت على الطاولة التى يبيعون عليها ، قال : « معذرة يا مس وودهاوس لقد كنت تكلميننى ، وكنت تقولين شيئا فى نفس اللحظة التى اعترتنى فيها نوبة من الوطنية ، فلا تدعى ما قلتيه يفوتنى ، وأؤكد لك بأنه مهما ذاعت شهرتى بين الناس ، فان ذلك لن يعوضنى شيئا عما أفقده من سعادة فى حياتى الخاصة » .

« لم أسألك الا اذا كنت تعرف الكثير عن « مس فيرفاكس » ؟ وعمن تخالطهم فى « ويموث » ؟

« الآن وقد فهمت ذلك وجب عليّ أن أقول انه سؤال بعيد عن القسط ، لأن من حق السيدة وحدها أن تحدد درجة التعارف ، ولا شك أن « مس فيرفاكس » قد قررت ما تريد فى هذا الصدد ، ولن أقدم على أن أقول شيئا أكثر مما قد سمحت به هى » .

« انى آجزم بأنك تتوخى الحيطة مثلها فى اجابتك ، غير أن ما تدلى به هى من أقوال يترك مجالا واسعا للظنون ، فهى شديدة التكتم ولا تميل الى الافضاء بأقل المعلومات عن أى انسان ، ولذا أراك فى حل من أن تقول ما يحلو لك عن درجة معرفتك بها » .

« وهل من حقى ذلك ؟ اذن فسأقول الحق ، فلا شىء يروقنى أكثر من هذا ، لقد تقابلت معها كثيرا فى « ويموث » وكان لى بالمدينة معرفة بسيطة بأسرة « كامپبل » ، وكنا كثيرا ما تتقابل فى « ويموث » فى مجتمع واحد يضمنا . و « المقدم كامپبل » رجل ظريف للغاية ،وعقيلته سيدة ودودة طيبة القلب ، وانى أحبهم جميعا » .

« اذن أستنتج من ذلك أنك على علم بمركز « مس فيرفاكس » فى الحياة ، وبما سيؤول اليه مصيرها » .

ورد عليها فى شىء من التردد : « أجل ، لا ريب انى أعلم ذلك » .

وقالت « مسز وستن » وهى تبتسم : « انك تطرقين مواضيع حساسة يا « اما » ، وتذكرى أنى هنا ، ان مستر « فرانك تشرشل » لا يدرى ما يقول حين تتحدثين عن « مس فيرفاكس » ومركزها فى الحياة ولذا فانى سأبتعد عنكما قليلا » .

وقالت « اما » : الحق أنى أنسى أن أفكر فيها ، على أنها لم تكن يوما الا صديقتى ، بل أعز صديقاتى » .

وبدا كأنه أدرك تماما ما تعنيه ، وقدّر هذا الشعور منها .

فلما فرغوا من ابتياع القفازات وغادروا الحانوت ، قال « فرانك » :
« هل سمعت اطلاقا هذه الفتاة التى كنا نتحدث عنها وهى تعزف ؟ » .

وأجابت « اما » : « سمعتها اطلاقا ؟ ، انك قد نسيت أنها من أهل « هايبرى » ، نعم لقد طالما سمعت عزفها منذ نشأنا معا ، انها تشنف الأسماع بعزفها » .

« هل تظنين هذا ؟ لقد كانت رغبتى أن أعرف رأى من يصدق حكمه ، لقد خلتها تجيد العزف ، وظننت أن لها فيه ذوقا سليما ، غير أنى لا أدرى فى الواقع شيئا من حقيقة ذلك ، وان لى بالموسيقى ولعا كبيرا ، ولكن ليست لى أدنى قدرة على العزف ، فلا يحق لى الحكم على ما يعزفه أى انسان . وانى لأذكر دليلا يرجح الظن بأنها تجيد العزف ، ذلك أن رجلا ذا خبرة عظيمة بالموسيقى ، كان يحب سيدة أخرى ، وخطبها لنفسه ، وأصبح على وشك أن يتم زواجه لها ، ومع ذلك فهو لم يطلب الى هذه السيدة الأخرى اطلاقا أن تجلس لتعزف له ، اذا كانت السيدة التى تتحدث عنها موجودة وقادرة على الجلوس أمام المعزف لتعزف له . ولم يكن يبدو عليه أنه يجب أن يسمع غيرها طالما هو يستطيع أن يسمعها . ذلك هو الدليل ، لأنه صادر عن رجل موهوب ، له اذن موسيقية » .

فقالت « اما » فى شىء من التسلية : « انه دليل وأى دليل !! و « مستر دكسون » خبير بالموسيقى ، أليس كذلك ؟ اننا سنعلم منك عنهم جميعا فى نصف ساعة أكثر مما تعترف به لنا « مس فيرفاكس » فى نصف عام » .

« أجل ، هما ! مستر دكسون » و « مس كامپبل » اللذان كنت أتحدث اليك عنهما ، نعم لقد ظننت هذا دليلا قاطعا » .

« لقد كان ولا شك دليلا قويا ، ولكننى لا أعدو الصدق اذا قلت انه كان أقوى بكثير من أن يكون محببا الى نفسى لو أننى كنت مكان « مس

كامپبل » فانى لا أتسامح قط مع رجل يغلّب الموسيقى على الحب ، ويجعل لأذنه مكانة أعلى من مكانة عينه ، ويستشعر عذوبة الأنغام بأكثر مما يستشعر جمال الأحاسيس . لعمرى كيف رضيت « مس كامپبل » بهذا ؟

« لقد كانت أخص صديقاتها كما تعلمين » .

فقالت « اما » ضاحكة : « ياله من عزاء سقيم !! ، وانه لأهون على المرأة أن ترى غريبة يتفضل عليها من أن ترى أعز صديقاتها تقدم عليها ، اذ لن يتكرر هذا السلوك مع المرأة الغريبة مرة أخرى ، ولكن ما أتعس أن يكون للانسان صديق عزيز لا يفارقه أبدا ثم يرى أنه يفضله فى كل شىء يعمله ، ما أتعسك يا « مس دكسون » ، انى لسعيدة أن أراها تذهب الى أيرلندة لتتخذ مقامها فيها » .

« انك لتقولين حقا فلم يكن فى هذا ما يطرى « مس كامپبل » وان لم يبد أنها شعرت به من قبل اطلاقا » .

« لست أدرى ان كان ذلك هو الأفضل لها أو الأسوأ ، وسواء أكان هذا رقة منها أم غباء ، أو تسرعا فى الصداقة أو تبلدا فى المشاعر ، فان هناك شخصا واحدا لابد أنه أحس بذلك ، انها « مس فيرفاكس » ولا أحد غيرها ، فهى لابد شعرت بذلك التمييز السقيم المحفوف بالخطر » .

« أما عن هذا فليست — » .

« لا تتخيل بأنى أنتظر منك أو من غيرك بيانا عن أحاسيس « مس فيرفاكس » لأنى لا أظن أحدا أدرى بها منها نفسها ، غير أنها اذا كانت فاستمرت تعزف كلما طلب اليها « مستر دكسون » فللمرء أن تذهب به الظنون حيثما شاء أن تذهب به » .

وبادر « فرانك » يقول مسرعا : « يبدو أنه كان هناك حسن تفاهم تام بينهم جميعا » ثم عاد فتراجع مكتفيا بأن يقول :

« ومع ذلك فانه يتعذر عليّ أن أقول كيف كانت العلاقة بينهم ومدى ما كان منها خافيا عن الأنظار ، وليس بوسعى الا أن أقول بأن المظاهر كانت تدل على وجود وئام كامل بينهم جميعا ولكن أما وأنك تعرفين « مس فيرفاكس » منذ نعومة أظفارها ، فلابد أن تكونى أقدر منى على معرفة أخلاقها وما قد يكون عليه سلوكها فى المواقف الحرجة » .

« لقد عرفتها منذ الطفولة ولا شك ، وكنا معا أطفالا وشابات ، وانه لمن الطبيعى أن يظن الناس أننا كنا على ألفة وثيقة ، وأننا كنا نلوذ ببعضنا كلما زادت أصدقاءها . ولكننا لم تفعل شيئا من ذلك أبدا ، وانه ليصعب عليّ أن أعرف كيف حدث هذا ، ولعل مرد ذلك شيء من الخبث من ناحيتى ، مما جعلنى أشعر بامتعاض من فتاة هى معبودة خالتها وجدتها ومن يلذن بها ، يمتدحنها جميعا فى غير انقطاع ، ثم هناك الى جانب ذلك ، ما فيها من تحوط فى القول ، ولا طاقة لى على الاتصال بشخص ممعن فى حيطته » .

فقال : « لا شـك انها خلة بغيضة كل البغض ، وهى فى كثير من الأوقات قد تجنّب صاحبها المتاعب ، ولكنها مع ذلك خلة غير مرضية ، فالحيطة سياج واق ، ولكنها لا تجلب محبة الناس ، وما من شخص يحب الحيطة فى القول » .

« الى أن يتوقف عن حيطته ، وفى هذه الحالة تزداد المحبة ، ولكن لابد أن أكون أكثر حاجة الى الصديق أو الرفيق الصالح مما أنا الآن كى أبذل جهدى لأتغلب على ما فى أى شخص من صفة الحيطة لأظفر به صديقا . على أن الألفة التى بينى وبين « مس فيرفاكس » ليست مجالا للنقاش ، وليس عندى أدنى ما يجعلنى أسيء بها الظن ، الا أن ما فيها من

حيطة مفرطة فى كل ما تقوله أو تفعله ، وخشيتها من اعطاء فكرة واضحة عن أى انسان ، كل ذلك قد يوحى بالشك فى أن هناك ما يجب اخفاؤه » .

ووافقها على كل ما قالته ، وبعد أن سارا وقتا طويلا ، تقاربت فيه أفكارهما ، شعرت « اما » بأنها قد عرفته حق المعرفة ، حتى كان من العسير عليها أن تصدق بأن هذه ليست الا المقابلة الثانية بينهما ، وقد وجدته على غير ما كانت تنتظر أن يكون . فقد دلت آراؤه على أنه كان بعيدا عن أن يكون فى مسلكه مسايرا للرجال الذين شغلوا بالحياة ، وأنه لم يكن كأولاد الأثرياء ، ومن ثم وجدته أحسن مما كانت تظن ، وبدت لها آراؤه أكثر اعتدالا وأرق شعورا ، وراقها خاصة رأيه فى بيت « مستر التن » ، ورغبته فى التوجه لرؤيته ورؤية الكنيسة ، وعدم مشاركته لهم فيما ذهبوا اليه بأن فى المنزل كثيرا من العيوب ، لا فهو لم ير معهم أنه بيت قبيح ، وأن من يقيمون فيه جديرون بالعطف والرثاء ، نعم ، فلو أنه تقاسمه مع السيدة التى يحبها ، لما كان هناك مجال للاشفاق عليه ، وأضاف أنه لابد أن يكون فيه من السعة ما يوفر كل أسباب الراحة ، وأن من يطلب أكثر منه لابد أن يكون غبيا » .

وضحكت « مسز وستن » وقالت انه لا يدرى شيئا عما يتحدث عنه ، اذ لما لم يكن قد اعتاد الاقامة الا فى منزل كبير ، دون أن يفكر فيما فيه من مزايا عديدة ، وما فى اتساعه من مرافق ، فهو ليس أهلا لأن يحكم على ما لابد أن يكون من نقص فى البيت الصغير ، بعكس ذلك كانت « اما » فقد أصرت فى نفسها على أنه يعلم ما يتحدث عنه ، وأنه قد أظهر ميلا جميلا الى التعجيل بحياة الاستقرار ، وأن هناك من الدوافع الطيبة ما يجعله يسارع الى الزواج ، ولعله كان لا يفطن الى ما يعكر صفو الهدوء المنزلى

أحيانا من جرّاء عدم وجود حجرة للمشرفة على شئون البيت : أو بسبب عدم ملاءمة الحجرة المعدة لخزن الأطعمة ، ولكن مما لا شك فيه أنه كان يشعر بأنه لا يجد ما يسعده فى « أنسكومب » ، وأنه حين يجد من تستهوى فؤاده ، سوف يتنازل عن طيب خاطر ، عن الكثير من الثروة فى سبيل الاستقرار والتبكير بالزواج .

الفصل الخامس والعشرون

وتزعزع حسن ظن « اما » بعض الشيء « بفرانك تشرشل » فى اليوم التالى عندما وصل الى سمعها أنه ذهب الى لندن لا لشيء الا لكى يقص شعره . فلقد استبدت به نزوة وهو يتناول الافطار فأرسل يطلب عربة وسافر وفى عزمه أن يعود على العشاء .

ولم يكن يبدو من سبب هام لذلك أكثر من رغبته فى قص شعره ، وصحيح أنه لم يكن هناك ثمة ضرر من قطعه ستة عشر ميلا مرتين فى سفره وعودته لسبب كهذا ، ولكن هذا العمل منه كان فيه من مظاهر الخيلاء والسخف مالا تقره ، ولا يتفق مع ما كانت تعتقده فيه حتى الأمس من أصالة فى الرأى واعتدال فى الانفاق ورقة فى الشعور مبرأة من حب الذات . لقد أصبح الآن فى نظرها معرضا لأن يوصف بالخيلاء والاسراف وعدم الاستقرار على حال وتقلب الأهواء ، مما قد يدفعه الى الاقدام على عمل أى شيء نافعا كان أم ضارا وعدم الاكتراث بما من شأنه أن يدخل السرور على قلب أبيه وزوجته « مسز وستن » ، وعدم المبالاة بما قد يبدو عليه مسلكه بوجه عام .

لقد كان أبوه لا يصفه الا بالمتحذلق ، ويطيب له الحديث فى ذلك كأنه يروى قصة ممتعة . غير أن «مسز وستن » لم يرقها ذلك منه ، وبدا شعورها واضحا كل الوضوح من السرعة التى كانت تمر بها مر الكرام بهذا الحديث وعدم التعليق عليه بأكثر من قولها : « كل شاب وله أهواؤه ونزواته » .

وبدا « لاما » باستثناء هذه النقيصة الصغيرة أن زيارته حتى تلك

الآونة لم تعط صديقتها الا كل رأى طيب عنه . وهكذا لم تكن « مسز وستن » لتتوانى عن وصفه بأنه رقيق ظريف مهذب ، أو عن التحدث عن المرات العديدة التى رأته فيها يعامل الناس برقة ورعاية . وقد تبينت « اما » فيه كذلك طبعا صريحا مكشوفا ، طبعا يتسم بالاشراق والحياة . ثم هى الى ذلك لم تلحظ عليه أى سخف فى آرائه ، بل رأتها على قسط كبير من الصواب . وكان يذكر خاله بعظيم التقدير ، ويولع بالتحدث عنه ، وكان يقول عنه انه لو ترك وشأنه لكان أعظم الرجال جميعا . وقد اعترف بما كان لزوجة خاله عليه من عطف وحنان ، وحمد لها حسن صنيعها ، وبدا دائما أنه يعمد الى التحدث عنها باحترام ، رغم أنه لم يبد شديد التعلق بها .

كان كل هذا خليقا بأن يجعله محط الآمال وموضع الرجاء ، ولولا ما بدا منه من هذه النزوة التعسة بشأن قص شعره ، لما كان هناك ما يحول بينه وبين المكانة المشرفة التى خصه بها خيال « اما » ، مكانة ان لم تكن مكانة من وقع فى حبها ، فهى على الأقل مكانة من كان على وشك أن يكون كذلك (وهو شرف كان لابد أن يكون من نصيبه لولا تصميمها على عدم الزواج) مكانة خصه بها دون غيره من الرجال كل معارفهما لأنهم رأوه أهلا لذلك .

وقد أضاف « مستر وستن » الى ذلك من جانبه فضيلة أخرى لابد أن يكون لها خطرها ، ذلك أنه أدخل فى روعها أن « فرانك » شديد الاعجاب بها ، وأنه يراها فائقة الجمال جذابة للغاية .

ووجدت « اما » لزاما عليها ، أمام كل ما زكوه به من أقوال كثيرة ، ألا تسىء الظن به ، وألا تبخسه شيئا من حقه ، فكل شاب على حد قول « مسز وستن » وله أهواؤه ونزواته » .

وكان من بين معارف « فرانك » الجدد فى « سرى » فرد واحد لا يميل اليه ، على حين كان سائر الناس فى أبراشيتى « دونول » و « هايبرى » بوجه عـام يعطونه حقه من التبجيـل ولا يتجنـون عليه فى حكمهم ، بل ويغضون الطرف عما قد يصدر من شاب بهى الطلعة مثله من هينات ، وهو الذى لا يفتر ثغره عن الابتسامة ويعرف كيف ينحنى احتراما أمام الناس ويغفرون له ما قد يقع منه من تصرفات يسيرة الا واحدة لم تنفع فيها انحناءاته ولا ابتساماته — ذلك هو « نيتلى » : فلقد وصـل اليه ما حدث من سفر « فرانك » الى لندن لهذا السبب وهو فى « هارتفيلد » فظل ساكنا ، ولكن « اما » ما لبثت أن سمعته بعد هذا بقليل يحدّث نفسه وهو يتطلع الى صحيفة كانت فى يده فيقول : « ها !! انه كما ظننته تماما ، شخص تافه وسخيف » .

وهمّت بأن تغضب لذلك ولكنها فكرت لحظة أقنعتها بأنه لم يقل هذا الا لينفس عما يحس به نحوه من مشاعر ، وأنه لم يكن يعنى اثارتها ، ولهذا تغاضت عما قال .

وكانت زيارة « مستر وستن » وزوجته لهارتفيلد فى صباح ذلك اليوم خير ما كانت ترتجيه فى تلك المناسبة خاصة ، رغم أنهما فى مناسبة سابقة أتيا يحملان اليها ما لا يسر من الأخبار .

فلقد حدث ساعة وجودهما فى « هارتفيلد » ما جعل « اما » فى حاجة الى استشارتهما والانتصاح برأيهما ، وكان من حسن الطالع أنهما أشارا بما كانت تريده تماما .

واليك ما حدث : « استوطنت أسرة « كول » أبرشية « هايبرى » منذ بضع سنين ، ورأى الناس فيها أسرة حميدة الخصال ، فيها ألفة وكرم وبعد عن التفاخر والادعاء ، ولكنها كانت من ناحية أخـرى من أرومة

تحترف التجارة ومن بيت عريق ، فلم تكن تلك الأسرة تتبوأ بين علية القوم الا مركزا وسطا .ولقد عاشوا فى مبدأ مجيئهم الى القرية فى حدود دخلهم هادئين ، ولم يكن يلوذ بصحبتهم الا عدد قليـــل لم تكن محبتهم لتكلفهم من الانفاق الا النزر اليسير ، غير أن مواردهم لم تلبث أن زادت فى العامين الأخيرين زيادة كبيرة ، فقد أتى متجرهم بالمدينة بأرباح وفيرة ، وابتسم لهم الحظ بوجه عام ، واتسع مجال نظرتهم الى الأشياء تمشيا مع ثرائهم ؛ وظهرت رغبتهم فى الاقامة فى بيت أكبر ، وزادوا خدمهم ، وأكثروا من الانفاق فى وجوه الصرف كافة ، حتى أصبحوا من حيث الثروة وأسلوب الحياة لا تسبقهم غير أسرة « هارتفيلد » . وسهّل من قدرتهم على اقامة ولائم العشاء فى بيتهم ما توافر لهم من روح اجتماعية ، وما تهيأ لهم من حجرة جديدة فسيحة للطعام ، واستطاعوا أن يقيموا فيها بالفعل بضـــع حفلات كان معظم من فيها من غير المتزوجين . وما كان ليجول بخاطر « اما » أنهم ستبلغ بهم الجرأة أن يتطاولوا على دعوة كرائم العائلات من مثيلات آل « دونول » و « هارتفيلد » و « راندولز » ، بل ما كان هناك من شىء يغريها على الذهاب لو أنها دعيت . وأسفت أن يكون ما طبع عليه والدها من عادات ، سببا فى التقليل مما تهدف اليه برفضها الذهاب . حقا ان آل « كول » لهم مكانتهم واحترامهم فى دائرتهم الخاصة ولكن لابد لهم أن يتلقنوا درسا بأنه ليس من حقهم وضع الشروط التى تقوم بمقتضاها الأسر الرفيعة بزيارتهم ، وما كان غير « اما » ليلقنهم هذا الدرس .

وكان أملها ضعيفا فى أن يتحقق ذلك عن طريق «مستر نيتلى» ومعدوما بالمرة عن طريق « مستر وستن » .

ولكنها كانت قد عقدت العزم على ما ستتخذه نحو تلك الجرأة قبل أن تأتى دعوتهم لها بأسابيع كثيرة ، فلما وقعت تلك الاهانة أخيرا ودعيت الى بيتهم كان أثرها عندها غير ما بيّتت عليه النية .

فلقد وصلت الدعوة الى أسرتى « دونول » و « راندولز » ، ولم تصل اليها ولا لأبيها . وما كانت لتقنع بتعليل « مسز وستن » لذلك بقولها : « أظن أنهم لم يستبيحوا لأنفســهم ذلك معــك ، لأنهم تعلمون أنكم لا تتناولون العشاء خارج البيت » . وودت « اما » لو أن الفرصة تهيأت لها لكى ترفض دعوتهم ، فلما أخذ يداعب تفكيرها بعد ذلك ، بين الحين والحين ، الاعتقاد بأن الجماعة التى ستنتظم فى هذا الحفل ستتكون ممن يطيب لها أن تكون بينهم ، أصبحت فى شك من أمر نفسها ، ولم تعد واثقة من أن الاغراء قد يستبد بها فتقبل هذه الدعوة .

وكانت « هاريت » مدعوة هى وأسرة « بيتس » للحضور فى المساء ، وكانت هذه الدعوة موضع الحديث وقت تجوالهم فى اليوم السابق ، فى أطراف « هايبرى » ، فأظهر « فرانك تشرشل » أسفه الشديد لافتقادها فى هذا الحفل ، وسأل :

« ألا ينتظر أن يكون هناك رقص فى المساء ؟ — وكان مجرد هــذا الاحتمال مثار المزيد من الانزعاج من نفسها ، ولم يعد بقاؤها فى عزلة العظمة ، حتى على فرض أن ذلك كان من باب التكريم لها ، الا مهدئا تافها .

ثم كان وصول تلك الدعوة حين كانت أسرة « وستن » فى زيارة لهارتفيلد داعيا الى اغتباط « اما » بوجود هذه الأسرة فى بيتهم وقتها ، اذ على الرغم من أنها قالت بادىء ذى بدء عندما قرأتها « لا شك أنه يجب رفضها » — فقد عادت تسألهما فى الحال عما يشيران به عليها ، وسرعان ما نصحاها بالذهاب . ولم تلبث أن قبلت الدعوة ، واعترفت بأنها وقد راعت كل الاعتبارات ، لم تجد نفسها زاهدة بالكلية عن تلك الحفلة ، ولا سيما أن أسرة « كول » كانت وضعت الدعوة فى صيغة كيِّسة ، وفى

أسلوب يدل على اهتمام حقيقى وتقدير كبير لأبيها . فقد جاء فيها أنه « كان بودهم أن يلتمسوا هذا الشرف فى وقت أسبق لولا أنهم كانوا فى انتظار وصول حاجز (پراڤان) قابل للطى ، من لنــدن ، أملا فى أن يقى « مستر وودهاوس » من أى تيارات هوائية ، وبذا يرغبونه فى ألا يضن عليهم بشرف حضوره » . وكان هذا بوجه عام ، عاملا قويا أغراها على القبول . واستقر الرأى فيما بينهم باختصار فى كيف يتم تلبية الدعوة دون اغفال لراحة « مستر وودهاوس » ، وفى كيف أنه يمكن الاعتماد ولا شك على « مسز جدرد » ، ان لم تكن « مسز بيتس » كذلك ليبقيا معه . ولم يبق بعد ذلك الا التحدث اليه لكى يوافق على خروج ابنته للعشاء فى يوم قرب موعده ، لتمضى طيلة المساء بعيدة عنه . أما ذهابه هو نفسه ، فلم تكن « اما » تود أن تفكر فى احتمال حدوثه . فقد يطول الوقت كثيرا بالجماعة ، فضلا عن أن الجماعة سوف يكون عددها كبيرا .

وسرعان ما استسلم « مستر وودهاوس » وهو يقول : « انى لست مولعا بدعوات العشاء ، ولم أكن مغرما بها يوما ، وكذلك « اما » فهى لا تقل عنى فى ذلك . فالسهر لا يوافقنا ، ويؤسفنى أن أرى « مستر كول » وزوجته يقومان بما يقومان به ، وأظن أنه كان أحرى بهما لو حضرا فى مساء أحد الأيام ، فى الصيف القادم ، لتناول الشاى معنا ، ثم يصحبانا معهما فى نزهتهما المسائية ، فهذا فى ميسورهما ولا شك ، فهو وقت معقول ، ويمكننا أن نعود بعده جميعا دون التعرض لرطوبة المساء ، فأنا لا أسمح بأن أعرض أحدا للندى الذى ينتشر فى أمسيات الصيف . ومع ذلك فما دامت لهما رغبة شديدة فى أن تتناول عزيزتى « اما » العشاء عندهما ، وبما أنكما ستكونان هناك ، وكذلك « مستر نيتلى » لترعوها ، فانى لا أحب أن أمنعها ، على شرط أن يكون الطقس على ما ينبغى ، لا هو

بالرطب ، ولا هو بالبارد ، ولا هو شديد الريح » ثم استدار الى « مستر وستن » ونظر اليها نظرة فيها تأنيب رقيق وقال : « آه يا مس « تيلور » ، لو أنك لم تتزوجي لكنت مكثت معي فى المنزل » .

وصاح « مستر وستن ؟ قائلا : « أجل يا سيدى ، وبما أنى أخذت « مس تيلور » ، فمن واجبى أن آتى بمن يقوم مقامها اذا أمكننى ذلك ، وسأذهب الى « مسز جدرد » فى خلال لحظة واحدة اذا رغبت » .

على أن فكرة عمل أى شىء فى خلال لحظة واحدة ، لم تقلل من أثر ما كان عليه « مستر وودهاوس » من اضطراب ، بل زادته . ولكن السيدات كن أدرى بما يخفف من اضطرابه ، فقد كان لابد أن يتوقف « مستر وستن » عن الكلام حتى يمكن ترتيب كل شىء فى تؤدة وعناية .

وبهذه الطريقة أمكن تهدئة « مستر وودهاوس » بسرعة الى درجة كافية سمحت له بالعودة الى الحديث كعادته .

قال : « انه ليسعده أن يرى « مسز جدرد » فهو يقدرها كثيرا ، ولابد أن تبعث لها « اما » بكلمة تدعوها فيها ، ويمكن « جيمز » أن يقوم بتوصيل الرسالة ، ولكن لابد قبل كل شىء أن يرسل رد الى « مسز كول » على دعوتها ، ثم استطرد : « اجعلى يا عزيزتى اعتذارى على قدر ما تستطيعين من عبارة مهذبة !! قولى انى مريض ، واننى لا أذهب الى أى مكان ، مما يضطرنى الى الاعتذار عن قبول دعوتهم الكريمة ، ثم لا شك أنك ستصدرين الرسالة بتحياتى ومع ذلك فأنت تقومين بكل شىء على خير ما يرام ، ولا أرانى فى حاجة الى أن أقول لك ما يجب أن تفعليه ، ثم لابد لنا أن تتذكر ابلاغ « جيمز » بأننا سنحتاج الى العربة يوم الثلاثاء ، فلن أخشى شيئا وأنت فى رعايته . اننا لم نذهب الى هناك أكثر من مرة منذ أن عبد الطريق الجديد ، ولكنى رغم هذا لا أشك فى أن « جيمز »

سيوصلك فى سلام ، وعندما تصلين يجب أن تخبريه عن موعد عودته اليك ثانية ، ويحسن أن تحددى له ساعة مبكرة ، فأنت لا تحبين المكث الى ساعة متأخرة ، وستشعرين بالتعب الشديد عند الفراغ من تناول الشاى » .

« ولكنك لا تود أن أعود قبل أن أشعر بالتعب يا أبتى » .

« لا يا حبيبتى ، ولكنك سوف تتعبين سريعا ، وسوف يكون هناك عدد كبير يتحدثون فى آن واحد ، وأنت لا تروق لك الضوضاء .

وصاح « مستر وستن » قائلا : « ولكن يا سيدى العزيز ، لو أن « اما » بكّرت بالخروج ، فان الجماعة سينفرط عقدها » .

« ورد عليه « مستر وودهاوس » : لن يكون هناك ضرر جسيم لو حدث هذا ، فكلما انفض الاجتماع سريعا كان ذلك أفضل » .

« ولكنك لا تقدّر أثر هذا فى نظرة أسرة « كول » وقد يكون فى خروج « اما » عقب تناول الشاى مباشرة اهانة لهم ، وهم أناس طيبو القلب ، ليس لهم ما يعتزون به ، ولكنهم على الرغم من ذلك لابد أن يشعروا بأن مبادرة أى شخص بالخروج ليس فيه تكريم كبير لهم ، وقيام « مس وودهاوس » بهذا العمل سيجعلهم يفكرون فى هذا أكثر مما لو قام به أى شخص آخر من الحاضرين ، وأعتقد يا سيدى أنه لا يرضيك أن تخيب أمل أسرة « كول » أو تجرح شعورها ، وهم من أكرم النـاس وأكثرهم مودة ، وقد لبثوا سنوات عشر ، وهم جيرانك » .

« قطعا لا ، مهما كانت الأسباب !! وانى لشاكر لك كثيرا يا « مستر وستن » أن تلفت نظرى الى ذلك ، ويحزننى ولا شك أن ألحق بهم أى شىء قد يسبب لهم ألما ، وأنا أعلم بأنهم أناس لهم منزلتهم ، وقد قال لى « پرى » ان « مستر كول » لا يمس الجعة قط ، وأنه لا يظن أنهـا تستهويه ، ولكنه مريض بالمرارة وهو يشكو منها كثيرا ، لا ، لن أرضى

أن أكون سببا فى ألم يلحق بهم ، وواجبنـــا يا عزيزتى « اما » أن نقدر هذا ، وأعتقد أن الأفضل منعا للمخاطرة بالحاق الألم بمستر كول وزوجته أن تطيلى المكث بعض الشيء أكثر مما قد ترغبين فيه ، فلا تضعى فى ذهنك أنك ستتعبين ، لأنك ســتكونين فى أمـــان تام كما تعلمين وأنت بين أصدقائك » .

« أجل يا والدى ، ولست أخشى شيئا من هذا على نفسى أبدا ، ولن أتردد فى التأخر بقدر ما تتأخر « مسز وستن » الا من أجلك ، ولست أخشى الا سهرك من أجلى ، وان كنت مطمئنة الى أنك سوف تشعر بمنتهى الراحة مع « مسز جدرد » ، وأنت تعلم أنها تهوى لعب الورق ، ولكننى أخاف اذا ما ذهبت الى بيتها ، أن تسهر وأنت بمفردك بدلا من أن تذهب الى فراشك فى وقتك الذى اعتدته ، ان هذه الفكرة سوف تعكر على صفوى ، فلابد اذن من أن تعدنى بأنك لن تسهر » .

ووعدها بذلك ، على أن تأخذ هى من جانبها على نفسها بعض العهود ، كتأكدها من تدفئة نفسها تماما اذا شعرت بالبرد عند عودتها ، وأن تأكل شيئا من الطعام اذا أحست بالجوع ، وأن تسهر خادمتها فى انتظارها ، وأن يستوثق كل من « سيرل » والخادم المنوط بالطعام والشراب من أن كل ما فى البيت ، فى حرز أمين كما هى العادة .

الفصل السادس والعشرون

وعاد « فرانك تشرشل » مرة أخرى . واذا كان قد تسبب فى تأخر موعد تناول العشاء فى بيت أبيه فقد ظل هذا خافيا على أهل « هارتفيلد » ، فقد كانت « مسز وستون » شديدة الرغبة فى أن يكون من المقربين عند مستر « وودهاوس » الى حد أنها كانت لا تكشف لهم عن نقيصة من نقائصه كان يمكن اخفاؤها .

لقد عاد بعد أن قص شعره وأخذ يضحك من نفسه فى رشاقة دون أن يبدو عليه ما يدل على خجله من فعلته ، فلم يكن لديه من سبب يجعله يطيل شعره ليخفى أى ارتباك قد يظهر على وجهه ، ولا من سبب يدعوه الى أن يمسك يده ويحتفظ بنقوده ليرفع من حيويته . لقد بدا غير هياب وعلى جانب كبير من المرح .

وانطلقت « اما » بعد أن رأته تفكر فى الفارق بين ما هو خطأ وما هو صواب ، وتسر الى نفسها : « لست أدرى ان كان هذا هو الذى يجب أن يكون ، ولكن من المؤكد أن السخافات تتجرد من صفة السخف ان هى صدرت من العقلاء فى غير استحياء . ان فعل الشر يكون على الدوام شرا ، أما السخف فلا يكون دائما سخفا ، وانما يتوقف ذلك على أخلاق من يصدر عنه — انه يا مستر « نيتلى » ليس بالشاب التافه السخيف ، ولو كان كما تقول لسلك مسلكا غير هذا ، واذن لكان أحد شيئين ، اما مزهوا بعمله أو متواريا من خجله ، ولن يعدو فى هذه الحالة أن يكون عمله أحد أمرين ، اما زهو المتحذلق المعجب بنفسه أو تحايل ضعاف

العقول حين يتسترون على ما فيهم من غرور . بل انى لواثقة تمام الثقة أنه ليس بالتافه ولا بالسخيف » .

وجاء يوم الثلاثاء وجاء معه الأمل المحبب برؤيته ثانية ولمدة أطول مما سبق حتى الآن ، حتى يمكنها أن تحكم على سلوكه العام وأن تستنتج من ذلك ما يرمى اليه من سلوكه الخاص نحوها ، ثم تحاول أن تقرر بعدها متى تشيع البرودة فى تصرفها معه ، وتتخيل ما قد يكون من ملاحظات لأولئك الذين يرونهما الآن لأول مرة مع بعضهما .

واستقر رأيها على أن تغترف من البهجة أقصاها على الرغم من أن الحفل كان فى بيت « مستر كول » ، وعلى الرغم من أنها لم تستطع أن تنسى أن من بين نقائص « مستر التن » حتى وقت أن كان مقربا عندها ، أنه لم يكن يقلقها منه أكثر من ميله الى تناول العشاء مع « مستر كول » .

وانتهت الترتيبات التى تكفل راحة « مستر وودهاوس » ، وتمكنت كل من « مسز بيتس » و « مسز جدرد » من الحضور ، وكان أسعد واجبات « اما » قبل أن تغادر المنزل الى الحفل ، ما قامت به من مظاهر الحفاوة والتكريم نحوهما وهما تجلسان الى والدها بعد العشاء ، وبينما كان والدها ينظر فى اعجاب الى جمال ردائها ، كانت مشغولة بتقديم شطائر سخية من الكعك وأكواب مليئة من النبيذ الى السيدتين رغبة منها فى أن تعوض عليهما أى تمنع عن الأكل مجاراة لأبيها فى حرصه على صحته . وهكذا قدمت لهما وجبة سخية ، وودت لو علمت بأنهما تمكنتا من أكلها .

وسارت عربتها خلف عربة أخرى كانت فى طريقها الى بيت « مستر كول » ، وسرها أن رأتها عربة « مستر نيتلى » ، وهو الذى لا يقتنى الخيل ولا يملك من فائض المال الا قليلا ، ويميل فى رأى « اما » لما كان

عليه من صحة ونشاط واستقلال الى السير على قدميه والاستغناء عن استخدام عربته مما لا يليق بصاحب « أبرشية دونول » . وقـد سنحت الفرصة لها الآن لتعبّر عن رضاها من قرارة قلبها قبل مضى وقت ، فقد توقف ليأخذ بيدها فى النزول من العربة .

وقالت له : « انه خليق بك أن تأتى بهذه الطريقة على نحو ما يفعل السادة ، وانى لسعيدة برؤياك » .

وشكرها قائلا : « ما أسعدنى حظا أن كان وصولنا فى نفس اللحظة ، فلو أن أول لقائنا كان فى حجرة الاستقبال لاعترانى الشك فى أنك كنت سترييننى على غير عادتى على نحو ما رأيتيننى أدنى الى أن أكون من السادة ، وربما غاب عنك أن تتعرفى من هيأتى وحركاتى على الطريقة التى أتيت بها » .

« لا ، بل كنت لابد مدركة ذلك ، وأنا واثقة من هذا ، اذ يحدث دائما لمن يأتون بطريقة يعلمون أنها لا تليق بهم أن يفضحهم مظهرهم ، فيبدون وقد أحسوا فى داخل نفسهم بأنهم قد أتوا عملا لا يتفق وكرامتهم ، وأعتقد أنه يخيل اليك بأنك قادر على حسن السبك ، ولكن ذلك وهم منك بل انى ألحظ ذلك عليك دائما كلما قابلتك فى مثل هذه المناسبات ، أما الآن فليس أمامك ما تحاول أن تخفيه ، فأنت لا تخشى أن يـُظن فيك ما يخجلك ، ولن تجهد نفسك كى تبدو أطول قامة من غيرك . وانه ليسـعدنى الآن حقا أن أدخل نفس الحجرة معك » .

وأجابها وهو أبعد ما يكون عن الغضب : « انك فتاة تتحدثين هراء » .

وصادف « اما » ما أرضاها ، سواء من « مستر نيتلى » أو من بقية الجمع ، فقد استقبلت باحترام قلبى لا يمكن الا أن يدخل السرور على قلبها ، ولا يترتب عليه الا كل ما كانت تصبو اليه ، وعندما أقبلت « أسرة

وستن » ، غمرها كل من الزوج والزوجة بأرق مظاهـر الحب وعظيم الاعجاب ، واقترب منها الابن فى شوق ووجه مشرق ، جعلها تبدو كما لو كانت هدفه ومحط اهتمامه ، ثم وجدته وقت العشاء يجلس بجوارها ، ولم يخل هذا من مهارة تأكدتها من جانبه .

وكانت الجماعة تضم عددا كبيرا ، فقد اشتملت كذلك على أسرة ريفية طيبة لا اعتراض عليها ، كان لأسرة « كول » شرف ضمها الى عداد معارفها ، وعلى الرجال من أفراد أسرة « مستر كوكس » ، وهو يعمل محاميا فى « هايبرى » . أما السيدات اللائى كن أقل منزلة ، فكان موعد حضورهن فى ساعة متأخرة من المساء ، وكان من بينهن « مس بيتس » و « مس فيرفاكس » و « مس سمث » . ومع ذلك فقد كان عدد الحاضرين على العشاء أكثر من أن يسمح بتناول أى موضـوع عام ، وعندما أخـذوا يتحدثون عن السياسة ، وعن « مستر التن » ، ألفت « اما » نفسها عاجزة عن توجيه كل انتباهها الى ما كان جارها يحبوها به من ظرف ومجاملة . وكان أول صوت يصل اليها عن بعد وتشعر برغبة ملحة فى الانصات اليه ، هو اسم « چين فيرفاكس » ، فقد بدا لها أن « مسز كول » كانت تتحدث عنها وان حديثها سيكون شيقا ومما يستحب الاستماع اليه جيدا ، واستمعت اليه بالفعل فوجدته جديرا بالاصغاء بما أشبع خيال « اما » ، وهو أبرز ما كان فيها . كانت « مسز كول » تقول انها كانت فى زيارة « لمس بيتس » ، وما أن دخلت الحجرة حتى أدهشتها رؤية « بيانو » غاية فى الجمال ، ولم يكن بالبيانو « الجراندى » ولكنه كان مع ذلك ذا حجم كبير ومربع .

ودل موضوع القصة وآخر ما انتهى اليه الحديث ما بين دهشة وأسئلة وتهنئة من جانبها ، وتوضيح من جانب « مس بيتس » على أن « البيانو »

كان قد وصل من متجر « برود وود » فى اليوم السابق ، وعلى غير انتظار ، مما كان موضع دهشة الفتاة وخالتها على السواء ، وان « چين » نفسها ، كما روت « مس بيتس » ، كانت فى حيرة من أمره وارتبك تفكيرها فيمن يكون الذى أمر بارسال البيانو ، ولكنهما الآن اقتنعتا تماما بأنه مرسل من ناحية لا يوجد سواها ، فهو لابد أن يكون من « المقدم كامپبل » .

وزادت « مسز كول » على ذلك قولها : « لا يمكن أن يظن أحد شيئا غير هذا ، والذى يدهشنى هو أن يكون هناك أدنى شك فى ذلك ، ولكن يبدو أن « چين » قد وصلها منهم مؤخرا خطاب وليس فيه كلمة عن البيانو ، على أنها خير من يعلم أساليبهم ، وأنا لا أعتبر سكوتهم عن ذكره دليلا على أنهم لم يفكروا فى تقديم الهدية ، بل لعلهم اختاروا أن يجعلوا منها مفاجأة لها » .

وأقرها الكثيرون من الحاضرين على ما قالته ، وأيقن كل من اشترك منهم فى الحديث فى هذا الموضوع ، بأن هذا البيانو قد أتى من المقدم « كامپبل » ، وسرّهم جميعا أن تقدم لها مثل هذه الهدية ، وكثر عدد المقبلين على الحديث ، مما أتاح « لاما » فرصة التفكير مع استمرارها فى الاصغاء الى « مسز كول » وهى تستطرد فتقول :

« وأصرح لكم بأنى لا أذكر وقتا وصل فيه الى سمعى خبر كان له وقع فى نفسى أحسن من هذا ، فلقد آلمنى دائما آن أرى « مس چين فيرفاكس » ، وهى التى تبدع فى العزف ، وليس لها معزف ، لقد كان هذا من المخجل حقا ، وخاصة اذا راعينا أن بيوتا عديدة لها معازف جميلة مهملة لا يلتفت اليها ، وأؤكد لكم بأن هذا كان أشبه بصفعة على وجوهنا جميعا ، وبالأمس فقط كنت أقول « لمستر كول » وأنا أنظر الى معزفنا « الجراند » الجديد فى حجرة الاستقبال ، اننى لا أكاد أميز بين لحن

ولحن ، وكذلك بناتنا الصغيرات المبتدئات فى العزف ، قد لا يستعملنه أبدا ، بينما « چين فيرفاكس » البائسة ، التى وصلت فى الموسيقى الى قمة المجد لا تملك شيئا يصح أن يوصف بأنه آلة للعزف ، حتى ولو كانت « الأسپينت » تلك الآلة التى عفا الزمان عليها ، لكى تتسلى بها . هذا ما كنت أقوله « لمستر كول » بالأمس ، ووافقنى عليه ، وهو شديد الولع بالموسيقى خاصة ، حتى أنه لم يتردد فى شراء معزفنا على أمل أن بعض جيراننا الطيبين قد يتكرمون علينا أحيانا بعزف يكون أشجى مما فى وسعنا ، بل هذا هو السبب الحقيقى فى ابتياعه ، وأعتقد أنه لولا ذلك ، لكان وجوده عنـدنا موجبا للخجل ، وأملنا كبير أن تستجيب « مس وودهاوس » لرجائنا فتجربه هذا المساء » .

واستجابت « مس وودهاوس » لما طلب منها . ولما لم تجد « اما » مزيدا من الأخبار يمكن أن تظفر بها من « مس كول » التفتت الى مستر « فرانك تشرشل » وقالت : « لماذا تبتسم ؟ » .

« ولماذا تبتسمين أنت ؟ » « أنا ؟ أظن أنى أبتسم لسرورى بأن المقدم « كامپبل » على مثل هذا الثراء وله مثل هذا الكرم ، انها لهدية جميلة حقا » .

« جدا » .

« بل انى لأعجب أنه لم يقدم هذه الهدية من قبل » .

« لعل مس « فيرفاكس » لم تطل مدة اقامتها هنا بهذا القدر من قبل » .

« أو أنه لم يترك لها فرصة استعمال معزفهم الذى لابد وأن يكون حبيسا الآن فى لندن ، لا يمسه أحد » .

« انه « بيانو » جراند ، وربما رآه كبيرا جدا لا يتسع له بيت « مسز بيتس » .

« من حقك أن تقول ما تشاء ، ولكن ملامحك تدل على أن أفكارك في هذا الموضوع شبيهة بأفكارى » .

« لست أدرى ، بل انى لأميل الى الاعتقاد بأنك تضفين علىّ من دقة الحكم أكثر مما أستحق ، وأنا أبتسم لأنك تبتسمين وقد أتشكك فى أى شىء تتشككين فيه ، ولكنى لا أرى الآن ثمة ما يدعو الى التشكك ، فاذا لم يكن هو المقدم « كامپبل » فمن عساه أن يكون ؟ » .

« وما قولك فى مسز دكسون ؟ » .

« عجبا ، مسز دكسون » !! انه رأى فى منتهى الصواب ولا ريب ، ان ذهنى لم ينصرف الى « مسز دكسون » اطلاقا ، انها لابد تعلم كما يعلم والدها ماذا يلقاه مثل هذا البيانو من قبول لديها ، بل ان ما يكتنف طريقة ارساله من غموض وما ينطوى عليه من مفاجأة يجعلها أقرب أن تكون خطة شابة منها خطة رجل مسن . انها « مسز دكسون » فيما أظن ، ألم أخبرك أننى سأنساق وراء ظنونك ؟ » .

« اذا كان الأمر كذلك ، وجب عليك أن تفسح المجال لظنونك وأن تجعل من بينها « مستر دكسون » كذلك » .

« أجل ، « مستر دكسون » : حسن جدا ، ولقد بدأت أتبين الآن أن الهدية آتية من « مستر دكسون » وزوجته معا ، وقد كنا نتحدث يوما كما تعلمين عن تحمسه واعجابه بعزفها » .

« أجل ، فان ما أدليت به الى فى ذلك الأمر ، أكّد لى فكرة راودتنى من قبل ، ولست أريد أن أتعرّض لحسن نوايا « مستر دكسون » أو « مس فيرفاكس » ، ولكنى لا أتمالك نفسى من الشك فى أحد أمرين ، فاما أنه بعد أن تقدم يطلب يد صديقتها أوقعه سوء الطالع فى شراك حبها ، أو أنه أحس بميل منها اليه . والظنون قد تصل بالانسان الى ما يبلغ العشرين

ثم لا يتحقق منها ظن واحد ، ولكنى أؤكد بأنه لابد من وجود سبب معين لاختيـارها المجىء الى « هايبرى » بدلا من الـذهاب مع أسرة « كامپبل » الى أيرلندة ، مع أنها هنا لابد أن تعيش عيشة الحرمان والتكفير ، بينما الحياة هناك بها كل المتع ، أما الادعاء بتجربة هواء الموطن الذى نشأت فيه ، فانى أعتبره مجرد ستار وتلمس للأعذار ، وقد يكون هذا معقولا وقت الصيف ، ولكن ماذا عسى أن يفعل هواء الموطن لأى انسان فى شهور يناير وفبراير ومارس ؟ فمواقد الدفء الجيدة والعربات أوفى بالغرض فى معظم حالات اعتلال الصحة ، وعلى الأخص فى حالتها ، ولست أريد منك أن تقتدى بى فيما يخامرنى من الظنون على الرغم من أنك تعترف فى نبل أنك تفعل ذلك . ولكنى مخلصة فيما أدلى به اليك من ظنونى » .

« انى أقول لك جازما ان ظنونك تنبىء عن احتمال كبير ، ويمكننى أن أقول ان تفضيل « مستر دكسون » لها على صديقتها فى العزف هو شىء مؤكد لا يحتمل التأويل » .

« ثم هو قد أنقذ حياتها ، هل علمت بذلك ؟ لقد كانت بين جمـاعة فى نزهة بحرية ، وحدث أن كادت تسقط من فوق السفينة ، فأمسك بها وأنقذها » .

نعم فعل هذا ، وقد كنت واحدا من الجماعة » .

« أحقا كنت معهم ؟ حسنا !! ولكنك بطبيعة الحال لم تلحظ شيئا ، فهى فكرة جديدة عليك ، وأظن أننى لو كنت هناك لاكتشفت بعض أشـياء » .

« أعتقد هذا ، ولكنى وأنا الشخص البسيط لم أر شيئا الا أن « مس فيرفاكس » أوشكت أن تهوى من السفينة ، وأن مستر « دكسون » أمسك

بها . تم كل هذا فى لحظة ، وعلى الرغم من أن الصدمة والفزع اللذين نجما عن هذا الحادث كانا بالغين وامتد اثرهما وقتا طويلا ، بل انى لأعتقد أنه لم يتيسر لأحد منا أن يسترجع هدوءه وسكينته قبل مضى نصف ساعة ، فقد كان هذا الحادث مثيرا للجميع الى درجة شغلتهم عن ملاحظة أى شيء له أهمية خاصة ، ولست أعنى بهذا أن أقول انك ما كنت توفقين الى استشفاف شيء من وراء هذا الحادث » .

وانقطع الحديث عندما طلب اليهما أن يشاركا الجماعة ، فى الفترة المملة الطويلة التى تتخلل أصناف الطعام ، مما اضطرهما الى مراعاة الرسميات والنظام كالآخرين ، ولكن عندما أصبحت المائدة حافلة مرة أخرى بأنواع الطعام ، ووضعت الصحون فى مواضعها الدقيقة فوق المائدة ، وانشغل كل واحد بتناول طعامه فى يسر ، قالت « اما » :

« ان وصول « البيانو » قد أوضح لى كل شيء ، لقد كنت أريد معرفة المزيد ، ولكننى وجدت فى هذا ما فيه الكفاية ، وكن واثقا بأننا سنسمع عما قريب بأنه هدية من « مستر ومسز دكسون » .

« وان هما أنكرا بالكلية أى علم لهما به ، كان علينا أن نستنتج أنه آت من قبل أسرة « كامپبل » .

« لا ، فأنا واثقة من أنه لم يأت من قبل بيت « كامپبل » ، و « مس فيرفاكس » نفسها تعلم أنه ليس من عندهم ، والا كانوا أول من يتجه الظن اليهم ، وما كانت تشعر بالحيرة لو أنها ركزت تفكيرها فيهم . لعلى لم أتمكن من اقناعك ، ولكنى أنا شخصيا مقتنعة كل الاقتناع بأن « مستر دكسون » عامل أساسى فى هذه العملية » .

« انك حقا تؤلمينني اذا ظننت بأنى غير مقتنع ، فان منطقك يجعل حكمى متمشيا مع حكمك تماما ، فعندما ظننت أول الأمر أنك مقتنعة بأن

المقدم « كامپبل » هو صاحب هذه الهدية ، أخذت الأمر على أنه مجرد حنان أبوى لا يعدو أن يكون شيئا طبيعيا ، ولكنك عندما ذكرت « مسز دكسون » أحسست بأن ذلك أقرب الى الاحتمال وأنه دليل على الصداقة الحارة من الجنس اللطيف ، وأنا لا أراه الآن الا هبة أساسها الحب » .

ولم تسمح الظروف بالاسترسال فى هذا الحديث ، وكأنما الاقناع قد أثمر ، فقد بدأ « فرانك » وكأنه قد اقتنع ، فاكتفت « اما » بما قالت ، وتحول مجرى الحديث الى مواضيع أخرى . وقدمت الحلوى بعد تناول العشاء ، ودخل الأطفال ، وتجاذب الضيوف معهم الحديث ، وأعجبوا بهم ، وسط ما كان يدور من حديث عادى ، جرى خلاله قليل مما يتسم بالذكاء ، وكثير مما يبرهن على مطلق الغباء . ولكن أكثر ما قيل ، كان بين هذا وذاك ، فهو اما كان يدور حول ما يحدث كل يوم ، واما كان تكرارا مملا ، أو أخبارا عفا عليها الزمن ، أو فكاهات ثقيلة على النفس .

ولم يطل مكث السيدات بحجرة الاستقبال ، حتى أقبلت السيدات الأخريات بمجموعاتهن المختلفة ، وراقبت « اما » دخول صديقتها الحميمة الصغيرة . واذا كانت لم تجد فى وقارها وجلالها ما يملأ قلبها سرورا ، فقد وجدت فى نضارتها وحركاتها غير المتكلفة ما ابتهجت له نفسها ، وفاض قلبها سرورا بما كان عليه مسلكها من رقة وبشر وعدم استسلام للعاطفة ، مما أعانها على أن تجد ما يسرى عنها من آلام الاخفاق فى الحب . وها هى قد جلست هناك — من ذا الذى يتكهن بما سكبت مآقيها من دموع فى الأيام الأخيرة ؟ ومع ذلك فكفاها سرورا فى هذه الساعة أن تكون الآن فى خير حللها وسط سيدات أخريات يرتدين حللا فاخرة ، وأن تجلس معهن تبتسم وتبدو جميلة ، ولا تقول شيئا . أما « چين فيرفاكس » فكانت تبدو متفوقة فى مظهرها وحركاتها — ولكن الشك داخل « اما » فى أنه

كان يسعدها فى تلك اللحظة أن تستبدل بمشاعرها مشاعر « هاريت » فتأخذ منها ما كانت تحس به من آلام الحب الفاشل ، أجل ، حتى ولو كان هذا الحب هو حب « مستر التن » الذى ذهب هباء ، وتتنازل لها عن سعادة محفوفة بالأخطار تنجم عن علمها بأن زوج صديقتها يحبها .

وفى حفل كبير كهذا ، لم يكن من الضرورى أن تتصل بها « اما » أو تتحدث اليها ، ولم تكن « اما » فوق ذلك تريد التحدث عن «البيانو» فلقد أحسّت بأن لها من العلم بسّره ما يجعل أى مظهر من مظاهر حب الاستطلاع أو الشغف بالاستماع الى حديثه ، لا يتفق ومقتضيات العدل . ولكن الآخرين لم يلبثوا أن تناولوا الموضـوع بالحديث ثانية ، ورأت ما انطبع على وجه « مس فيرفاكس » ، وهم يهنئونها ، من حمرة الخجل ووخز الضمير ، والشعور بالاثم التى اقترنت بعبارتها وهى تقول : «صديقى الحميم المقدم كامپبل » .

وكان الموضوع مثار اهتمام « مسز وستن » خاصة وهى الموسيقية ذات القلب الرحيم ، ولم يسع « اما » الا أن تشعر بشىء من التسلية وهى تراها تواصل الحديث فى هذا الموضوع ، وتكثر من التساؤل والقول ، فيما له صلة بالنغم واللمس والدؤاسة ، دون مراعاة لما رأته واضحا على محيا بطلتنا الحسناء من رغبة فى الاقلال من هذا الحديث قدر المستطاع .

وسرعان ما لحق بهن بعض السادة ، وكان من أوائل المبكرين بالدخول « فرانك تشرشل » ، فلقد دخل عليهن فكان أول الداخلين وأبهاهم طلعة ، وبعد أن حيا « مس بيتس » وابنة أختها عرضا ، قصد الى الناحية المقابلة للحلقة ، حيث جلست « مس وودهاوس » ، ولم يجلس حتى عثر على مقعد بجوارها .

وأخذت « اما » تتكهن بما يجول بخاطر جميع الحاضرين ، فلقد كانت

هدفه المقصود ، وبدا ذلك واضحا لكل ذى عينين . وقدمته « اما » الى صديقتها « مس سمث » ، وسمعت فى اللحظات المناسبة بعد ذلك ، ما كان يجول بخاطر كل منهما عن الآخر — أما هو فقد قال : « انه لم ير قط وجها بهذا الجمال ، وانه يعجبه منها ما هى عليه من عدم الكلفة — أما هى فقد قالت : « الواقع أنها قد تكون مبالغة منها فى مديحه ، أن تقول ان فيه من الملامح ما يشبه ملامح « مستر التن » ولكنَ بينهما شبها على كل حال » .

وكظمت « اما » غيظها واكتفت بأن أعرضت عنها فى سكون وتبودلت بينها وبين السيد بطل الحديث ، ابتسامات ذات معان عندما اتجهت أنظارهما لأول مرة نحو « مس فيرفاكس » ، ولكنها رأت من الحكمة أن تتجنب الحديث . لقد قال لها ، انه كان متلهفا على مغادرة حجرة الطعام ، فهو يكره طول الجلوس فيها ، وانه كان أول من خرج عندما تيسر له ذلك ، وأن والده ومستر « نيتلى » ومستر « كوكس » ومستر « كول » لا يزالون منهمكين هناك فى الحديث فى شئون « الأبرشية » ، وأنه سرّ كثيرا طول مدة وجوده معهم لما رآه فيهم بوجه عام من أنهم مجموعة من الرجال العقلاء وأشبه بالسادة فى سلوكهم ، ثم تناول « هايبرى » بالثناء من كل وجه فقال انه وجد فيها عددا كبيرا من الأسر الكريمة ، حتى بدأت « اما » تشعر بأنها كانت تغالى فى تحقيرها للقرية ، وسألته عن المجتمع فى « يوركشير » ، وعن أطراف الجهة التى لها صلة بأنسكومب ، ومن أى طبقة هم . وأمكنها أن تستنتج من اجابته أن التزاور فى « أنسكومب » قليل جدا ، وأن زياراتهم قاصرة على مجموعة من البيوتات ، لا يوجد منها ما هو قريب منهم ، وأنه حتى عندما تحدد مواعيد الزيارات وتقبل الدعوات ، تشاء الصدف أن تعتل صحة « مسز تشرشل » أو ينحرف

مزاجها فلا تقوى على الذهاب ، وأنهم قرروا فضلا عن ذلك ألا يتزاوروا مع أشخاص جدد ، وأنه على الرغم من أن له مواعيده وارتباطاته الخاصة ، كان لا يستطيع تلبيتها دون عناء كبير ، وأنه كان أحيانا يصعب عليه أن يخرج أو يأتى بأحد معارفه فى بعض الليالى .

وتبينت « اما » أن « أنسكومب » لا ترضى مزاج شاب يلوذ ببيته أكثر مما يجب ، على خلاف « هايبرى » وهى فى أحسن حللها . وكان واضحا كل الوضوح أن له فى « أنسكومب » منزلة عالية ، فقد كشفت منزلته فيها عن نفسها دون أن يبدو منه تظاهر بها ، وكان ينجح فى اقناع زوجة خاله فيما عجز عنه خاله نفسه — فلما ضحكت « اما » لهذه الملاحظة قال انه يعتقد (باستثناء موضوع أو موضوعين) أنه سوف يستطيع بمرور الأيام أن يقنعها بأى شىء يريده ، واستطرد بعد ذلك بذكر هذين الموضوعين اللذين فشل فيهما ، فقد كان يتوق الى مغادرة البلاد ، ويتلهف على السماح له بالسفر ، ولكنها لم تطق سماع شىء من ذلك — كان هذا فى العام الماضى ثم يقول : أما الآن فهو لا يبدو ميالا الى شىء من ذلك .

« أما الناحية الأخرى التى لم يذكرها فكانت كما راود خيال « اما » رغبته فى أن يسلك سلوكا مرضيا نحو أبيه ...

وقال بعد أن توقف قليلا : « لقد اكتشفت شيئا مؤسفا للغاية ، هو أننى سأكون باكر قد أمضيت هنا أسبوعا بأكمله وهو نصف ما حددته لى « مسز تشرشل » من الوقت ، وما كنت أدرى أبدا أن الأيام سوف تمر بمثل هذه السرعة ، عجبا !! سيكتمل الإسبوع فى الغد ، وأنا لم آكد أبدأ بالشعور بالمتعة بعد ، ولم آكد أتعرف « بمستر وستن » وآخرين غيرها ، انى لأكره أن أفكر فى ذلك »

« ولعلك بدأت تأسف الآن على قضاء يوم بأكمله ، من هذه الأيام القليلة ، فى قص شعرك » .

وقال مبتسما : « لا ، فليس هذا مما يوجب الأسف اطلاقا فأنا لا أحب أن أرى أصدقائي الا وأنا واثق من أنني جدير بأن يروني » .

ووجدت « اما » نفسها ، وقد حضر بقية السادة الى الحجرة ، مضطرة الى الانصراف عنه بعض الوقت ، والاستماع الى ما يقوله « مستر كول ». فلما ابتعد « مستر كول » ، وأصبح في وسعها أن تعاود انتباهها اليه ، أبصرت « فرانك تشرشل » يمعن النظر عبر الحجرة في « مس فيرفاكس » التي كانت جالسة في مواجهته تماما .

قالت له : « ما الخبر ؟ » .

واعتراه شعور بالفزع ثم أجابها : « أشكرك على ايقاظي ، وأعتقد أني لم أكن مهذبا ، ولكن حقيقة الأمر أن مس فيرفاكس قد صففت شعرها بطريقة غريبة ، ولغرابتها كان من العسير علي أن أغض طرفي عنها ولا أنظر اليها ، والواقع أني ما رأيت شيئا قد بولغ فيه مثل ذلك : ما أعجب تلك الخصل الملتوية !! انها لابد أن تكون من تصميم خيالها ، فأنا لا أرى مثيلها في واحدة أخرى . لابد لي من التوجه اليها وسؤالها عما اذا كانت هذه « التسريحة » مودة أيرلندية » فهل تتوجه اليها ؟ نعم سأتوجه ، نعم اني فاعل ذلك لا محالة ، وسترين كيف تتقبل ذلك مني وهل تحمر وجنتاها » .

وذهب على الفور ، وسرعان ما رأته « اما » واقفا أمام « مس فيرفاكس » يحدثها ، ولكنها لم تستطع أن تتبين ما كان لحديثه من أثر على الفتاة ، فقد تصادف أن وقف أمام « مس فيرفاكس » تماما فحال بينهما .

وقبل أن يعود الى مقعده كانت « مسز وستن » قد جلست عليه وهي تتمتم :

« هذه هي نعمة من نعم الحفل الكبير ، أن يدنو المرء ممن يريد ،

ويقول ما في جعبته ، واني يا عزيزتي « اما » متشوقة الى الكلام معك ، فلقد كنت أقوم باكتشافات وأرسم الخطط تماما كما تفعلين ، ولابد لي من أن أرويها لك وهي لا تزال غضة ، فهل تعلمين كيف جاءت « مس بيتس » وابنة أختها الى هنا ؟ » .

« كيف ؟ انهما دعيتا ، أليس كذلك ؟ » .

« أجل ، ولكن كيف جيء بهما الى هنا ؟ طريقة مجيئهما ؟ » .

« في استنتاجي أنهما جاءتا سيرا على الأقدام ، وما عساهما أن يفعلا غير ذلك ؟ » .

« هذا صحيح ، ولكنه خطر ببالي منذ فترة وجيزة كم يكون باعثا على الأسى أن ترى « جين فيرفاكس » ذاهبة الى بيتها سعيا على الأقدام بعد سهر طويل وفي مثل هذه الليلة الباردة . وعندما نظرت اليها أدهشني أنها على الرغم من أني لم أرها قبلا بمثل هذا الجمال كان وجهها يبدو متوقدا مما يجعلها عرضة للاصابة بالبرد بصفة خاصة . مسكينة هذه الفتاة ، نعم فما كنت لأحتمل مجرد التفكير في ذلك ، ولذا فما كاد يدخل « مستر وستن » الحجرة حتى كلمته عن العربة ، وأترك لك التفكير كيف استجاب الى رغبتي في الحال ، وما أن أظهر موافقته حتى ذهبت فورا الى «مس بيتس» كي أؤكد لها بأن العربة ستكون تحت تصرفها قبل أن تذهب» بنا الى بيتنا . فقد ظننت أن في هذا ما يكفل راحتها . ما أطيب هذه الفتاة !! كوني واثقة أنها شكرتني ما وسعها أن تشكر ، وقالت « ما من أحد له مثل حظها » وظلت تقدم من الشكر أوفره ، ثم قالت : « ليس هناك ما يدعو الى مضايقتكم ، فلقد أحضرتنا عربة « مستر نيتلي » وستعود بنا الى منزلنا » ودهشت لذلك ، بل أؤكد لك أن ذلك سرني كثيرا ، ولكن الدهشة تملكتني حقا ! انها لرعاية كريمة جدا من « مستر نيتلي » جاءت وليدة تفكير سليم ! وما أقل الرجال الذين يفكرون في مثل ذلك !! وقصارى

القول ، أنه يغلب على ظنى بما أعلمه من نزعاته ، أن عربته لم تستعمل الا من أجل نقلهما ، وأشك فى أنه كان يود أن يقتنى جوادين لنفسه ، ولكنه فعل هذا تبريرا لمعاونتهما »

وقالت « اما » : « هذا قريب الاحتمال جدا ، بل لا شىء أقرب الى الاحتمال منه ، ولست أعرف رجلا له ما « لمستر نيتلى » من خلق يدفعه الى مثل هذا العمل ، والى القيام بكل ما ينطوى على نبل ومنفعة وكرم ومراعاة لشعور الناس . انه ليس ممن يظهرون الشهامة نحو النساء ، ولكنه انسان رحيم ، ومراعاته لما عليه « چين فيرفاكس » من اعتلال الصحة ليس الا نبعا من فيض انسانيته ، بل لست أرى أحدا مثل « مستر نيتلى » فى بعده عن حب التظاهر بالشفقة ، وأنا أعلم بأنه جاء اليوم فى عربة لأننا وصلنا معا ، وقد أضحكنى هذا منه ، ولكنه لم يفه بكلمة تفصح عما فى نيته » .

وقالت « مسز وستن » وهى تبتسم : « أجل ، انك تضفين عليه فى هذه الحالة من صفات التنزه عن الغرض فى جوده أكثر مما أضفى عليه ، ذلك لأن فكرة طرأت على ذهنى وأنا أتحدث مع « مس بيتس » ، فأثارت الشك عندى ، ولم أستطع أن أتخلى عنها من وقتها ، وكلما فكرت فيها بدت لى قريبة الاحتمال ، وقصارى القول لقد دبرت مشروع زيجة بين « مستر نيتلى » و « چين فيرفاكس » ، أنظرى هاك ما آل اليه أمرى فى صحبتك ! فما تقولين فى هذا ؟ » .

وقالت « اما » متعجبة : « مستر نيتلى » ومس « چين فيرفاكس » !! كيف تفكرين فى ذلك يا عزيزتى « مسز وستن » ؟ !! « مستر نيتلى » !! لا ، يجب ألا يتزوج « مستر نيتلى » فأنت لا تحبين أن ترى « هنرى » ، الصغير يحرم من «رهبانيةدونول» لا ، لا لابد أن تؤول«دونولالىهنرى» ، ولن أوافق أبدا على زواج « مستر نيتلى »، بل أنا موقنة بأن ذلك بعيد الاحتمال ، ويدهشنى أن تفكرى فى شىء كهذا » .

وأنا لا أريد هذا الزواج ، ولا أود أن ألحق الضرر بعزيزى الصغير « هنرى » ولكنها الظروف هى التى أوحت الىّ بهذه الفكرة ، واذا صحّت عزيمة « مستر نيتلى » على الزواج ، فأنك لن تثنيه عنه من أجل «هنرى» ، وهو صبى فى السادسة من عمره ولا يدرى من الأمر شيئا » .

« نعم سوف أثنيه ، ولن أتحمل أن أرى « هنرى » يقتلعه غيره ليحل محله ، عجبا !! مستر « نيتلى » يتزوج !! لا ، ان هذا لم يطرأ على فكرى أبدا ، ولا يمكننى الآن أن أتبنى هذه الفكرة ، والعجب أن تكون هذه الزوجة « چين فيرفاكس » من بين النساء قاطبة !! » .

« بل ، لقد كانت كما تعلمين جيدا أولى المقربات اليه » .

« ولكن ما أخرق أن تتم زيجة كهذه » .

« اننى لا أتكلم عما تنطوى عليه من فطنة ، انما أردت أن أقول انها محتملة » .

« لست أرى أى احتمال لحدوثها الا اذا كان لديك أساس أقوى مما ذكرتيه ، ان دماثة خلقه ، وحنانه ، كما قلت لك ، يكفيان ليجود على الناس باستعمال خيوله ، وهو كما تعلمين ، وبصرف النظر عن « چين فيرفاكس » ، يقدّر أسرة « بيتس » عظيم التقدير ، ويسعده دائما أن يشملها برعايته . خير لك أن تقلعى يا عزيزتى « مسز وستن » عن فكرة تدبير الزيجات ، فأنت لا تحسنين ذلك ، عجبا !! أتصبح « چين فيرفاكس » سيدة « الأبرشية » ! لا ، لا ، ان هذا يثير مشاعر الناس جميعا ، ولن أجعله يتمكن من القيام بعمل جنونى كهذا ، مراعاة لصالحه » .

« عفوا ، قد يكون عملا أخرق ، ولكنه غير جنونى ، واذا ما تجاوزنا عن عدم التكافؤ فى الثراء ، وعما قد يكون من فارق بسيط فى العمر ، فأنى لا أرى فيه شيئا من عدم الملاءمة » .

« ولكن « مستر نيتلى » لا يريد أن يتزوج ، وأنا واثقة بأنه ليس لديه أى تفكير فى الزواج ، فلا تضعى هذه الفكرة فى رأسه ثم لماذا يتزوج ؟ فهو أسعد ما يكون وهو بمفرده ، وله ضيعته وغنمه ومكتبته ، وكل الأبرشية تحت تصرفه ، وهو مولع بأنباء أخيه ، واذن فليست به حاجة الى الزواج ، ليملأ فراغ وقته ولا ليملأ فراغ قلبه » .

« عزيزتى « اما » ، طالما هذا تفكيره ، فسيظل الحال على ما هو عليه . أما اذا كان يحب « چين فيرفاكس » حقيقة — » .

« هذا هراء ! ، ان « چين فيرفاكس » ليس لها مكان فى قلبه ، وأنا واثقة من هذا ، وهو لا يتأخر عن تقديم أية مساعدة لها أو لأسرتها ولكن ... » .

« وقالت « مسز وستن » ضاحكة : « أجل ، ولعل أعظم خدمة يقدمها لهن ، هى أن يهيىء لچين مثل هذا البيت المحترم » .

« اذا كان هذا فى صالحها ، فهو ولا شك « سيكون وبالا عليه ، وستكون زيجة تنقص من مكانته ، وتجلب عليه العار . كيف يتحمل انتماء « مس بيتس » اليه ؟ وأن يراها تغشى الأبرشية لتقدم له الشكر طول النهار على تعطفه الكبير بالزواج من « چين » وهى تقول : « ما أكرمه ، وما أوجب شكره !! .

ولكنه كان على الدوام جارا عظيم الجنان !!؟ » ثم تنتقل من ذلك سريعا ولا تكون قد استكملت بعد نصف الجملة لتتحدث عن قميص أمها العجوز وتقول : « انه ليس قميصا مهلهلا لأنه لا يزال صالحا للاستعمال وقتا طويلا ، وأنها لابد أن تكون شاكرة لأن ما لديهن من « قمصان فى غاية المتانة » .

« يا للعار يا « اما » !! لا تسخرى منها ، انك تؤلبيننى على ضميرى ،

وأؤكد لك بأنى لا أظن أن « مستر نيتلى » سيناله حرج من « مس بيتس » ، فضلا عن أن هذه الهينات لا تزعجه ، وقد تسترسل فى الكلام ، فاذا أراد أن يقول شيئا فما عليه الا أن يرفع صوته على صوتها . وليست المشكلة فى أنها ستكون زيجة غير موفقة ، ولكنها فى هل هو راغب فيها ، وظنى أنه كذلك ، فلقد سمعته يشيد « بچين فيرفاكس » ، ولابد أنك سمعتيه يشيد بها ، ثم اهتمامه بها وقلقه على صحتها ، وخوفه من ألا تكون فى المستقبل أسعد حالا . لقد سمعته وهو يتحدث بحماس عن كل ذلك ، ثم ما أكثر اعجابه بعزفها على « البيانو » وبصوتها الرخيم !! فقد سمعته يقول انه يستطيع الاستماع اليها فلا يمل سماعها ، آه !! كدت أنسى فكرة جالت بخاطرى . ذلك البيانو الذى أرسله اليها أحد الناس ، ألا يكون من « مستر نيتلى » ؟ واذا كنا اقتنعنا جميعا بأنه هدية من أسرة « كامپبل » ، فانى لست أشك أبدا فى أنه هو الذى أرسله . أظنه هو وليس غيره ، حتى دون أن يكون قد أحبها » .

« اذن فلن يكون ذلك حجة على أنه يحب ، ولكنى لا أظن أنه يتقدم على شىء كهذا أبدا ، ومستر « نيتلى » لا يفعل شيئا فى الخفاء اطلاقا » .

« لقد سمعته يبدى أسفه على عدم وجود « بيانو » لديها ، مرارا وتكرارا ، بأكثر فى ظنى مما يحدث لو أن الأمور كانت عادية » .

« حسن جدا ، ولو كان فى عزمه أن يهدى اليهـا « البيانو » لأخبرها بذلك » .

« قد تكون الكياسة حدت به الى التردد فى ذلك يا عزيزتى « اما » ، ولكنى أحس احساسا قويا بأن « البيانو » منه ، وأعتقد أنه التزم الصمت بشكل واضح عندما كانت « مسز كول » تحدثنا عن « البيانو » وقت أن كنا نتناول العشاء » .

« انك يا « مسز وستن » تحتضنين فكرة ما ، ثم تقتنعين بأنها حقيقة ، وكثيرا ما لمتينى من قبل على مثل ذلك ، وانى لا أرى أية بادرة لتعلقه بها ، ولا أؤمن بما قيل عن « البيانو » ، ولن أقتنع بأن « مستر نيتلى » يفكر فى الزواج بجين فيرفاكس الا أن أرى برهانا على ذلك » .

وطال الجدل بينهما حول تلك المسألة على هذا النحو ، واستطاعت « اما » أن تؤثر على صديقتها فى النهاية ، فقد كانت « مسز وستن » أكثر الاثنتين اعتيادا على الاستسلام ، ثم سرى فى الحجرة شىء من الهرج تبين على أثره أن الجمع قد انتهى من تناول الشاى ، وأن البيانو قد أصبح معدّا ، واقترب « مستر كول » فى الوقت نفسه يرجو من « مس ودهاوس » أن تشرفهم بالعزف عليه ، واقتدى به « فرانك تشرشل » وكانت قد شغلت عنه وقت انهماكها فى الحديث مع « مسز وستن » فلم تر أكثر من أنه كان قد وجد لنفسه كرسيا الى جوار « مس فيرفاكس » وتقدم ليلح عليها فى الرجاء . واستجابت « اما » غير متبرمة ، فقد كانت تود من كل الوجوه أن تكون هى المقدّمة بين العازفات .

وكانت تعلم جيدا حدود قدرتها ، ومن ثم فلم تحاول عزف شىء يزيد على ما يمكنها أن تحسن أداءه ، ولم يكن الحماس يعوزها ولا الذوق فى اختيار ما ينال من الجميع استحسانا ، وكان صوتها مع الموسيقى فى احدى الأغنيات لا يقل روعة ، مما أدهشها هى نفسها ، كما شاركها « فرانك تشرشل » فى أغنية أخرى فكان رقيقا وان لم يصل الى مستواها . وما أن انتهت الأغنية حتى طلب منها الصفح وسارت الأمور فى مجراها .

ولقد اتهمه الحاضرون بأنه ذو صوت رخيم ودراية تامة بالموسيقى ، ولكنه أنكر ذلك فى كياسة ، وأكد بأنه يجهل الموسيقى ، أو أن له صوتا يصلح للغناء — ثم اشتركا فى الغناء مرة أخرى ، وتنحت بعدها « اما »

لمس « فيرفاكس » عن مكانها ، وما كان بوسعها أن تحاول أن تخفى ما فى نفسها من الشعور بأنها تفوقها قطعا ، سواء فى رخامة الصوت أو فى العزف على البيانو .

واختلطت مشاعرها ، فاتخذت لنفسها مقعدا يبعد قليلا عن الذين أحاطوا بالبيانو ، لتشنف أسماعها ، وغنى « فرانك تشرشل » مرة أخرى ، وبدا لها أنهما لابد قد سبق أن غنيا مرة أو مرتين معا فى « ويموث » .

غير أن منظر « مستر نيتلى » وقد بدا أكثر الموجودين انتباها ، أطاح بنصف تفكير « اما » ، وتلاحقت الأفكار فى رأسها عما ساور « مسز وستن » من شكوك ، ولم يقطع عليها تفكيرها بضع لحظات الا تلك الأصوات الشجية المشتركة التى كانت تشنف الآذان .

ولم يتناقص اعتراضها على زواج «مستر نيتلى » ، بل ظلت تراه شرا ووبالا ، وترى فيه خيبة أمل كبيرة لمستر « چون نيتلى » وبالتالى « لايزابلا » وضررا محققا للأطفال ، وتغيرا مفجعا فى الأوضاع ، وخسارة فادحة لهم جميعا ، وانتقاصا شديدا لما كان ينعم به أبوها يوميا . أما من ناحيتها هى فهى لم تكن لتحتمل فكرة وجود « چين فيرفاكس » فى أبرشية « دونول » بوصفها « مسز نيتلى » ، مسز نيتلى التى يخلى الجميع السبيل لها . لا ، يجب ألا يتزوج « مستر نيتلى » أبدا ولابد أن يبقى « هنرى » الصغير وريثا لأبرشية « دونول » .

ونظر « مستر نيتلى » وراءه وقتئذ ، ثم أتى وجلس الى جوارها ، وأخذا يتحدثان ، أولا عن العزف ، فكان اعجابه به بالغا ، وحماسه له شديدا . وجال فى خاطرها وقتها أنه لولا « مسز وستن » لما لفت ذلك نظرها ، ثم أخذت على سبيل الاختبار تتحدث اليه عن تعطفه بنقل الفتاة وخالتها بالعربة . وعلى الرغم من أن اجابته كانت مختصرة ، فقد اعتقدت

بأنه أراد بها اظهار عدم ميله الى الخوض فى موضوع حنانه وشفقته .

وقالت : « كثيرا ما أشعر بالهم لعدم جرأتى على الاستفادة من عربتنا فى مثل هذه المناسبات ، لا لأننى لا أرغب فى ذلك ، ولكنك تعلم استحالة تفكير أبى فى تكليف « چيمز » اعداد العربة لمثل هذا الغرض » .

وأجابها : « لا جدال فى هذا اطلاقا ، فهى مسألة خارجة عن البحث ، ولكنى متأكد بأن هذه هى رغبتك فى معظم الأوقات » ثم ابتسم وبدا عليه الاقتناع حتى أصبح عليها أن تخطو خطوة أخرى ، فقالت :

« وهذه الهدية التى جاءت من أسرة « كامپبل » ، هذا البيانو ، انه هبة كريمة » .

وأجابها دون أن يبدو عليه حرج : « أجل ، ولكن كان أحرى بهم أن يخبروها بذلك . أما المفاجآت فأشياء سخيفة لأنها لا تزيد السرور ، بل تسبب غالبا مضايقات عظيمة ، وكنت أنتظر من المقدم « كامپبل » أن يكون أكثر حكمة » .

وأصبحت « اما » منذ هذه اللحظة تكاد تقسم على أن «مستر نيتلى » لا شأن له بالبيانو ، أما أنه لم يكن متعلقا بها ، أو انه لم يكن يفضلها حقيقة فقد ظل موضع الشك عندها .

ولما أوشكت « چين » أن تنتهى من أغنيتها الثانية كان صوتها قد بُح وقلّت عذوبته ، فرفع صوته عاليا عندما فرغت من الغناء وقال :

« كفى هذا ، وقد غنيّت بما فيه الكفاية فى أمسية واحدة ، فكُفّى الآن عن الغناء » .

ولكن الحاضرين ألحّوا فى أن تشجيهم بأغنية أخرى ، وهم ينادون : « شنّفى أسماعنا بواحدة أخرى ، ولن تتعب « مس فيرفاكس » من الغناء بحال ، ونحن لا نطلب الا أغنية واحدة » .

« وسمع « فرانك تشرشل » وهو يقول :

« أعتقد أنك لن تلاقى جهدا فى هذا ، والمقطوعة الأولى ليست صعبة ، أما قوة الأغنية فتتركز فى جزئها الثانى »

واستشاط « مستر نيتلى » غضبا وقال :

« ان هذا الفتى لا يفكر فى شىء غير الاعجاب بسماع صوته ، ولن نمكنه من هذا » .

وكانت « مس بيتس » قد مرت بقربه فى تلك اللحظة ، فلمسها بيده وهو يقول : « هل اعتراك يا « مس بيتس » خبل حتى تسمحى لابنة أختك بأن تجهد نفسها بالغناء الى أن يبح صوتها بهذه الدرجة ؟ هيّا وتدخلى فى الأمر ، فهم لا تأخذهم بها شفقة !!

ولم ينتظر « مس بيتس » ، وقد أصبحت جد قلقة على « جين » حتى تشكره ، قبل أن تتقدم وتوقف مواصلة الغناء ، وبذلك انتهى الطرب فى تلك الأمسية ، فان « مس وودهاوس » و « مس فيرفاكس » كانتا الوحيدتين بين الآنسات ، اللتين كانتا تستطيعان العزف .

ثم لم تمض دقائق خمس حتى تقدم اقتراح بالرقص ، وان لم يدر أحد من كان البادىء بالاقتراح . وأخذ « مستر كول » و « مسز كول » فى العمل على تنفيذه ، وسرعان ما رفعت الأشياء وأفسح المكان لكى يصبح مهيأ للرقص .

وجلست « مسز وستن » ، وهى التى لا تجارى فى رقصاتها الريفية وبدأت تعزف مقطوعة من « السوالتز » ، لا يمكن لأحد أن يقاوم اغراءها .

وأقبل « فرانك تشرشل » على « اما » فى أبلغ مظاهر الشهامة التى لا تصدر الا عن فارس مقدام ، وأخذ بيدها ، وسار بها الى قمة قاعة الرقص .

وبينما « اما » تنتظر ليأخذ كل زوجين مكانهما فى حلبة الرقص ، وجدت وقتا كافيا لتنظر فيه من حولها ، رغم ما كان يتصاغ لها من عبارات المديح على صوتها الرخيم وذوقها السليم ، لكى ترى ما آل اليه الحال مع « مستر نيتلى » ، فقد كان رأيها أن الرقص هو البرهان ، ذلك لأنه لا يرقص بوجه عام ، فان هو أقدم ، ورافق « چين فيرفاكس » الآن ، أمكن التكهن بشىء ما .

ولم يبد منه شىء فى الحال . لا ، انه يتحدث مع « مسز كول » ، وينظر دون اهتمام بأحد . وطلب غيره « چين فيرفاكس » للرقص ، واستمر هو فى حديثه مع « مسز كول » .

ولم تعد « اما » تخشى شيئا على « هنرى » ، فقد تأكدت أن مغانمه لا زالت فى حرز أمين . وتقدمت الرقص فى متعـة وحمـاس لا تشوبهما شائبة .

ولم يكن فى الامكان تكوين أكثر من خمسة أزواج من الراقصين والراقصات ، ولكن قلة العدد ، ومفاجأة الرقص دون إعداد سابق ، جعلاه أكثر متعة ، ووجدت « اما » نفسها ومعها رفيق يراقصها ، ويكون معها زوجا جديرا بأن يستلفت الأنظار .

ولم يسمح لسوء الحظ الا برقصتين اثنتين .

وزحف الوقت ، وأصبحت « مس بيتس » تتوق الى العودة الى البيت من أجل أمها . ولذلك فبعد محاولات للعودة الى الرقص مرة أخرى ، اضطر الجميع الى الاستئذان من مسز كول وهم يصطنعون الأسف ، وانتهى الحفل .

وقال « فرانك تشرشل » وهو يصحب « اما » الى عربتها : « لعل هذا مما يوجب الرضى ، فقد كان على أن أدعو « مس فيرفاكس » للرقص ، وأنا لا يوافقنى رقصها الفاتر بعد رقصى معك » .

الفصل التاسع والعشرون

لم تندم « اما » على تنازلها بالذهاب الى بيت أسرة « كول » ، فقد أمدتها الزيارة فى اليوم التالى بذكريات ممتعة . وكل ما يفترض أن تكون قد افتقدته فى ناحية الكرامة التى تتأتى من العزلة ، قد عوضته بما كسبته من جمال الشبهرة .

ثم أكثر من ذلك ان حضورها لابد كان باعثا على سرور « آل كول » وهى أسرة جديرة بأن يعمل الناس على اسعادها . وهكذا تركت « اما » أثرا لا يمحى سريعا .

على أن السعادة المطلقة حتى فى ذكريات الانسان ليست شيئا مألوفا ، ولهذا فقد كانت هناك نقطتان وجدت فيهما ما يضايقها . فلقد ساورتها الشكوك فيما لو كانت تجاوزت حدود المرأة نحو بنات جنسها ، فلم تكتم ما كان يخامرها من الظنون بشأن مشاعر « چين فيرفاكس » وذكرت هذه الظنون لفرانك تشرشل ، فقد كان هذا منها بعيدا عن جادة الصواب . غير أن هذه الظنون كانت قد استبدت بها فلم تستطع أن تمنع نفسها من التحدث اليه بشأنها ، فضلا عن أن انصياعه لكل ما قالته ، كان يزكى تدخلها ، مما جعل من الصعب عليها أن تعتقد بأنه كان من واجبها أن تمسك عن الكلام . وكان الموضوع الآخر الذى يحز فى نفسها يتعلق كذلك « بچين فيرفاكس » ، وان لم يراودها فى هذه الحالة أى شك أو ريبة ، فلقد كان أسفها شديدا لتفوق « فيرفاكس » عليها فى العزف والغناء ، وحز فى قلبها ما أظهرته من تراخ أيام طفولتها ، فجلست الآن تتدرب بنشاط ، ساعة ونصف .

وعطلتها « هاريت » بقدومها عن العزف ، ولو كانت عبارات المديح التى أطرتها بها « هاريت » تستطيع أن تقنعها لارتاحت وهدأ بالها من تلك الناحية .

قالت « هاريت » حبذا لو كنت أستطيع العزف مثلك ومثل « مس فيرفاكس » .

« لا تضعينا فى مستوى واحـد يا « هاريت » ، لأن عزفى اذا قورن بعزفها ، فانه لا يزيد على مقارنة المصباح بضوء الشمس » .

«عجبا يا عزيزتى ،بل انى أظنك أحسن منها فى العزف ، وأنت لا تقلين عنها فى ذلك ، وأنا ولا شك أفضل الاستماع اليك ، لقـد قال الجميع ليلة أمس انك أبدعت فى العزف » .

« ان الذين لهم أية دراية بالعزف ، لابد أن يشعروا بالفرق ، ولا شك يا « هاريت » ان عزفى فيه ما يستحق المدح ، ولكن عزف « فيرفاكس » يفوقه كثيرا » .

« حسنا ، ولكنى سأظل على الدوام أعتقد بأنك مثلها فى العزف ولو كان هناك أدنى فارق ، فانه أبعد عن أن يلحظه أحد ، ولقد أشاد « مستر كول » بحسن ذوقك ، وكذلك مستر « فرانك تشرشل » تحدث طويلا عن ذوقك ، وقال انه يقدر الذوق بأكثر مما يقدر الأداء » .

« آه !! ولكن جين فيرفاكس » جمعت الناحيتين يا هاريت

« وهل أنت واثقة من ذلك ؟ لقد وجدت أنها تجيد الأداء ، ولكنى لم أجد فيها شيئا من الذوق ، وما سمعت أحدا يتحدث عن ذوقها ، فضلا عن أنى أكره الغناء الايطالى ، فلست أفهم منه كلمة واحدة ، وعلاوة على ذلك ، فهى ان كانت تجيد العزف ، فاعلمى أن ذلك لا يعدو أن يكون شيئا هى مضطرة اليه ، لأنها ستعطى دروسـا فيه . ولقد كانت أسرة

« كوكس » تتحدث الليلة الماضية فيما اذا كانت سوف توفق الى العمل فى أسرة راقية — وكيف وجدتين أسرة كوكس ؟ » .

« انهم كما هم عليه دائما فى منتهى الابتذال » .

وقالت « هاريت » فى تردد : « لقد قالوا لى شيئا ولكنه عديم الأهمية » .

واضطرت « اما » الى سؤالها عما قالوه لها ، رغم أنها كانت تخشى ذكر « مستر مارتن » .

« قالوا لى ان « مستر مارتن » تناول معهم العشاء يوم السبت الماضى » .

« عجبا !! » .

« وانه أتى الى أبيهم فى عمل ما ، فطلب اليه أن يبقى معهم لتناول العشاء » .

« يا للعجب !! » .

« وقد تحدثوا عنه كثيرا ، وخاصة « آن كوكس » ، ولست أعلم ماذا كانت تعنى من ذلك ، ولكنها سألتنى فيما لو كنت أرى أن أذهب فى الصيف القادم وأقيم معهم » .

« انها كانت تعنى فضولا وقحا ، وهو ما طبعت عليه «آن كوكس» .

« قالت انه كان فى اليوم الذى تناول فيه العشاء ظريفا جدا معها وانه جلس الى جوارها وقت تناول الطعام ، وان مس « ناش » تظن أن أية واحدة من بنتى « آل كوكس » يسرها أن تقترن به » .

« هذا محتمل جدا ، وأظن أنهما بلا استثناء ، أكثر بنات « هايبرى » ابتذالا » .

وكانت « هاريت » تريد قضاء بعض الحاجيات من « متجر فورد »

ورأت « اما » أن من الحكمة أن تذهب معها ، فقد كان من الممكن أن تتقابل مع أسرة « مارتن » مرة أخرى ، ولن تخلو مقابلة كهذه من خطر وهى على هذه الحال .

ولما كانت « هاريت » سهلة الانقياد ، تكفى الكلمة الواحدة لتحملها على تغيير رأيها ، فقد اعتادت أن تظل وقتا طويلا فى عملية الشراء . وبينما هى بين أخذ ورد ، وعدول عن الرأى فى شراء الموسلين ، ذهبت « اما » الى باب المتجر للتسلية ، وما كان هناك من تسلية ترجى من مشاهدة حركة المرور حتى ولو كانت فى أكثر جهات « هايبرى » نشاطا وازدحاما ، وكان أعظم ما تأمل أن تراه من مظاهر الحركة والنشاط ، مرور « مستر پرى » وهو يسرع الخطى ، أو « مستر وليم كوكس » وهو يدخل باب المكتب ، أو خيول عربة « مستر كول » وهى عائدة من رياضتها ، أو صبى البريد وهو يهيم على ظهر بغل عنيد .

فلما وقع بصرها على القصاب بصينيته ، وعلى امرأة شمطاء متأنقة عائدة من الحانوت وميممة نحو بيتها بسلتهــا الممتلئة ، ثم على جروين يتقاتلان من أجل قطعة من العظم ، ومجموعة من الأطفال تتسكع حول واجهة دكان خباز وترمق خبز الزنجبيل بشغف — أدركت أن ليس لها ما تشكو منه فقد وجدت من ضروب التسلية ما فيه الكفاية ، وما جعلها تظل واقفة بالباب . والذهن الهادىء المستبشر يقنع عادة وهو لا يرى شيئاً ، وينظر الى كل شىء على أن له عنده جوابا .

وتطلعت « اما » الى نهاية الطريق المؤدى الى « راندولز » واتسعت رقعة المنظر أمامها ، ثم ظهر لها شــخصان ، همــا « مسز وستن » وابن زوجها ، وكانا يشقان طريقهما فى « هايبرى » لا شك أنهما يقصدان « هارتفيلد » ورأتهما بعد ذلك يقفان عند باب « مسز بيتس » ، وهو بيت

أقرب قليلا من « راندولز » عنه من متجر « فورد » . وهمّا بطرق الباب عندما أبصراها ، فعبرا الطريق فى الحال واتجها نحوها . وبدا كما لو كان سرور الأمس قد أضفى على لقاء اليوم سرورا جديدا . وأخبرتها « مسز وستن » بأنها كانت ذاهبة لزيارة أسرة « بيتس » لكى تسمع البيانو الجديد ، ثم قالت :

— «ذلك لأن رفيقى هذا يقول لى انى وعدت « مس بيتس » فى الليلة الماضية بزيارتها هذا الصباح قطعا وان كنت لا أذكر ذلك ، فلم أكن أعلم أنى حددت يوما ، ولكن أما وقد قال انى وعدتهم ، فهـا أنا ذاهبة الآن لزيارتهم » .

وقال « فرانك تشرشل » : « وما دامت « مسز وستن » ستقوم بزيارتهم ، فانى آمل أن يُسمح لى بمرافقتك ، وأن أنتظرها فى «هارتفيلد» ، ان كنت فى طريقك الى البيت » .

وشعرت « مسز وستن » بشىء من الخيبة وقالت : « ظننت أنك تريد الذهاب معى عند آل بيت « بيتس » فهو شىء يسرهن كثيرا » .

« أنا !! أظننى سوف لا يكون لى مكان عندهن . وقد لا يكون لى مكان هنا كذلك فان «مس وودهاوس» تبدو كما كانت لا تريد ، أن أكون معها . ان زوجة خالى تبعدنى دائما عندما تخرج لشراء ما تريد ، وتقول انى أضايقها بعصبيتى ، ويبدو أن « مس ودهاوس » على وشك أن تنحو نحوها ، فماذا عسانى أفعل ؟

فقالت « اما » : « أنا لا أقوم هنا بعمل يخصنى ، وانما أنتظر صديقتى ، ولعلها تفرغ من عملها حالا ، ثم نعود بعدها الى البيت ، ولكن أحرى بك أن تذهب مع « مسز وستن » وتستمع الى عزف البيانو » .

« أجل ، ان كان هذا ما تنصحيننى به » ثم استطرد وهـو يبتسم :

« ولكن ما حيلتى لو كان المقدم « كامپبل » قد استعان بصديق مهمل وتبين أن نغم البيانون لا طعم له . ماذا عسانى أن أقول فى مثل تلك الحالة ؟ انى لن أكون الى جانب « مسز وستن » فى الرأى ، وقد يكون من الأفضل أن تكون وحدها ، ان كلمة صدق مؤلمة تخرج من فمها قد تلقى تسامحا ، أما أنا فانى أكون مخلوقا تعسا اذا كذبت تأدبا » .

وردت « اما » تقول : « لا أعتقد شيئا من هذا ، وأنا أميل الى الظن بأن فى وسعك ألا تكون صادقا كجيرانك اذا اقتضت الضرورة ذلك ، ولكن ليس هناك ما يدعو الى الظن بأن البيانو لا طعم له ، بل الأمر على العكس ، اذا كنت قد فهمت رأى « مس فيرفاكس » فى الليلة الماضية » .

وقالت « مسز وستن » : « فلتأت معى اذا كنت لا ترى فى ذلك ضيرا ، ولن يكون فى ذلك تعطيل لنا ، وسنذهب بعد ذلك الى « هارتفيلد » ، والحق أنى أريد أن تصحبنى فى هذه الزيارة ، فسيشعرون بأن هذه لفتة كريمة منك ، ولا أخال الا أن هذه نيتك » .

فلم يزد على ما قاله شيئا ، وعاد أدراجه مع « مسز وستن » ، للتوجه الى بيت « مسز بيتس » ، والأمل يحدوه أنه سيجزى على ذلك بالذهاب الى « هارتفيلد » فيما بعد .

وراقبتهما « اما » وهما يدخلان ، ثم اشتركت بعدها مع « هاريت » عند منضدة البيع بالحانوت ، وحاولت بكل ما أوتيت من البيان أن تقنعها بأنها اذا كانت تريد حريرا غير منقوش فليس هناك فائدة من رؤية الحرير المنقوش ، وأن الشريط الأزرق مهما كان جميلا ، لن ينسجم مع قماش أصفر اللون ، واستقر الرأى أخيرا على كل شىء ، حتى الى أين ترسل ربطة المشتريات .

لقد سألتها « مسز فورد » : « هل أرسلها الى بيت « مسز جدرد »

يا سيدتى ؟ وأجابتها « نعم » ، لا ، نعم ، الى بيت « مسز جدرد » ولكن قماش ردائى فى « هارتفيلد » ، لا ، أرجوك أن ترسليها الى « هارتفيلد » — ولكن « مسز جدرد » سوف تود أن تراه — يمكننى أن آخذ قماش الرداء الى البيت فى أى يوم ، ولكنى سأحتاج الى الشريط الآن ، ولذا يحسن أن ترسل الربطة الى هارتفيلد — أو على الأقل الشريط — ويمكنك أن تحزمى الأشياء فى ربطتين يا « مسز فورد » ألا تستطيعين ؟

« انه لا يستحق يا هاريت أن تكلف « مسز فورد » عناء حزمه فى ربطتين » .

« لا شك أنه متعب » .

وقالت « مسز فورد » تحاول أن ترضى عملاءها :

« ليس هناك أدنى تعب يا سيدتى » .

« ولكنى أفضل حقا أن تكون ربطة واحدة ، ثم أرجو أن ترسل الأشياء جميعها الى بيت « مسز جدرد » . لعمرى لست أدرى ما الأصوب ، لا ، أظن يا « مس وودهاوس » أن ارسالها الى « هارتفيلد » قد يكون كذلك صوابا ، ثم آخذها معى الى البيت ليلا ، فبم تنصحيننى ؟ » .

« أنصحك بألا تضيعى نصف لحظة أخرى فى هذا الموضوع ، ورجائى يا « مسز فورد » أن ترسليها الى هارتفيلد .

وقالت « هاريت » وقد رضيت تماما : « أجل هذا هو الأفضل ولست أود أبدا ارسالها الى بيت « مسز جدرد » .

وسمعت أصوات على مقربة من المتجر ، أو بالأحرى صوت وسيدتان واذا « بمستر وستن » و « مس بيتس » ، تلتقيان بهما عند باب المتجر . وقالت « مس بيتس » : « عزيزتى « مس وودهاوس » لقد جئت الآن مسرعة كى أرجو أن تتفضلى بالمجىء عندنا ، وقضاء فترة قصيرة معنا ، تبذين فيها

رأيك فى البيانو الجديد ، أنت و « مس سمث » — وكيف حالك يا « مس سمث » ؟ أنا بخير وشكرا لك — ولقد رجوت « مسز وستن » أن تأتى معى لأكون واثقة من تحقيق رغبتى هذه » .

« آمل أن تكون « مسز بيتس » و « مس فيرفاكس » — » .

« على أحسن حال ، وأشكرك كثيرا ، ان والدتى تتمتع بصحة جيدة ، كما أن « چين » لم تصب بالبرد فى الليلة الماضية ، — وكيف حال « مستر وودهاوس » ؟ يسرنى أن أسمع عنه مثل هذه الأخبار الطيبة — لقد أخبرتنى « مسز وستن » أنك هنا ، فقلت عندئذ ، لابد أن أسعى اليها هنا جريا ، وأعتقد أن « مس وودهاوس » لا تأبى علىّ أن أعبر الطريق جريا وأرجوها أن تدخل عندنا — فان والدتى يسرها كثيرا أن تراها ، ونحن الآن نكوّن مجموعة لطيفة — ان « مس وودهاوس » لا يسعها أن ترفض . وقال مستر « فرانك تشرشل » : « أجل أرجو أن تذهبى اليها ، فان رأى « مس وودهاوس » عن البيانو له قيمته وقلت له انه لو ذهب معى أحد ، لكنت أكثر وثوقا من النجاح فى مهمتى ، فقال : « آه ، انتظرى هنيهة حتى انتهى مما فى يدى ، ثم هل تصدقين « يا مس ودهاوس » ! ها هو جالس هناك وقد أسرنا بفضله ودماثة خلقه ، فقد عكف على تثبيت مسمار نظارة والدتى ، ان مسمار البرشام خرج صباح اليوم من مكانه ، وانه لشىء يستوجب منا عظيم الشكر — ذلك لأن والدتى لم تكن قادرة على استعمالها ، بينما يجب على كل واحد أن يكون عنده نظارتان ، وهذا ولا شك من الضرورات ، وهو عين ما تقوله « چين » — وأول ما فكرت فيه أن أذهب بها الى « چون سوندرز » ، ولكن حدث ما عاقنى عن هذا طول الصباح ، فهذا شىء ، ثم هذا شىء آخر يليه ، ولا نهاية للمشاكل كما تعلمين ، فقد جاءت « پاتى » مرة تقول ان مدخنة المطبخ فى حاجة الى تنظيف ،

فقلت عجبا يا « پاتى » ، لا تأتى الىّ بأخبارك السيئة . ثم ها هو مسمار نظارة سيدتك قدخرج من مكانه ،ثم وصل التفاح المشوى ،لقد أرسلته« مسز والس » مع غلامها — وتلك الأسرة ، أسرة « والس » على أقصى ما تكون من دماثة الخلق ، وهى كثيرا ما تطوق عنقنا بمآثرها — ولقد سمعت بعض الناس يقولون ان « مسز والس » غير مهذبة ، وان لها ردودا جافة — ولكننا لم نر منها قط الا أعظم رعاية ، وليس هذا لما اعتدنا أن نشتريه منهم الآن ، هذا القدر الذى نستهلكه من الخبز — ونحن ثلاث فقط ، علاوة على العزيزة « چين » الآن ، وهى فى الحقيقة لا تأكل شيئا — ومقدار ما تأكله فى وجبة الافطار يثير الدهشة من قلته ولو أنك رأيت ما تأكله لاستولت عليك الرجفة ، ولست أجرؤ على جعل والدتى تعلم بما تتناوله من طعام قليل ، ولذا فانى أقول قولا ثم أقول قولا آخر حتى لا تعلم من الأمر شيئا ، ولكنها تشعر بالجوع وسط النهار ، وليس أحب اليها من هذا التفاح المشوى ، وهو مغذ الى درجة عظيمة — ذلك لأنى اغتنمت الفرصة فى اليوم السابق . وسألت « مستر پرى » عنه ، وكنت قد قابلته صدفة فى الطريق ، وما كنت أشك فى ذلك من قبل ، اذ كثيرا ما سمعت « مستر وودهاوس » يوصى بأكل تفاحة مشوية ، وأعتقد أن هذه هى الطريقة الوحيدة التى يظن « مستر وودهاوس » أنها تجعل الفاكهة مغذية تماما ، وغالبا ما يكون عندنا فطائر التفاح ، و « پاتى » ممتازة فى اعداد هذه الفطائر — وأرجو أن تكونى الآن يا « مسز وستن » قد تغلبت عليهما فتتكرما بالحضور » .

« ان « اما » يسرها كثيرا زيارة « مس بيتس » .

وخرجا آخر الأمر من المتجر ولم يعطلهما شىء غير كلام « مس بيتس » فقد انطلقت تقول لصاحبة المتجر : « كيف حالك يا مسز فورد ؟ عفوا لأنى

لم أرك قبلا ، ولقد سمعت بأن لديك مجموعة جميلة من الشرائط الجديدة ، أتيت بها من لندن ، ولقد عادت « چين » أمس وهى فرحة ، وانى أشكرك لأن القفاز كان مقاسها تماما لولا أنه واسع قليلا عند المعصم ، ولكن « چين » راضية به .

وعادت الى الحديث وهى فى الطريق الى المنزل قالت : « فيم كنت أتحدث ؟ ولم تدر « اما » أى شىء ستركز حديثها عليه فى هذا الخليط الغريب من الكلام .

« أؤكد بأنى غير قادرة على أن أتذكر ما كنت أتكلم عنه ، عجبا !! لقد كنت أتحدث عن نظارة والدتى ، وما أجمل صنيع مستر « فرانك تشرشل » !! لقد قال : أظن أنى قادر على تثبيت المسمار ، وأنا أهوى مثل هذا العمل كثيرا مما جعله كما تعلمين يبدو غاية — ولابد أن أقول انى وجدته على قدر ما سمعته عنه من قبل ، وعلى قدر ما كنت أنتظره منه ، بل انى أراه يفوق ذلك كثيرا ، وانى أهنئك يا « مسز وستن » بكل جوارحى ، اذ يبدو أنه يتصف بكل ما يرجوه الوالد الشغوف — لقد قال : عجبا !! أرانى قادر على تثبيت المسمار ، وانى أحب كثيرا مثل هذا العمل — ولن أنس أبدا دماثة خلقه ، وعندما أخرجت التفاح المشوى من خزانة المؤن ، على أمل أن يتكرم أصدقاؤنا بتناول بعضه ، قال على الفور : آه !! ليس هناك من الفاكهة ما هو فى نصف جودته ، وهذه أجمل ما شاهدته فى حياتى من التفاحات المشوية فى البيت — وهكذا كما ترين كان فى غاية — وأعتقد أن ذلك كما رأيت من تصرفه ، لم يكن اطراء منه ، فلا ريب أنها تفاحات لذيذة للغاية ، و « مسز والس » ماهرة فى شـيها ، غير أننا لا نقوم بشيها أكثر من مرتين ، وان كنا وعدنا « مستر وودهاوس » بشيها ثلاث مرات ، ولكننا نرجو من « مس وودهاوس » أن تتفضل

ولا تذكر هذا . ولا شك أن هذا التفاح هو أجود الأنواع التى تشوى ، فكله من « دونول » — وبعضه مما جاد به علينا « مستر نيتلى » فى سخاء وكرم ، فهو يرسل لنا جوالا ممتلئا كل عام ، ومن المؤكد أنه ليس هناك فى أى مكان من التفاح الذى يخزن مثل التفاح الذى تنتجه أشجاره ، وأعتقد أن لديه منه شجرتين ، وتروى أمى أن البستان كان أيام طفولتها ذائع الصيت ، ولكننى ذهلت حقا بالأمس ، لأن « مستر نيتلى » زارنا ذات صباح ، وكانت « چين » تأكل تلك التفاحات ، وتحدثنا عنها وقلنا انها تجد فيها متعة عظيمة ، وسألنا اذا كنا قد أتينا على آخر ما لدينا ثم قال : أعتقد أنكن قد أتيتن على آخرها ، ولذا سأرسل لكن كمية أخرى ، لأن عندى منها ما يزيد على حاجتى ، وقد جعلنى « وليم لاركنز » أختزن منها هذا العام كمية أكثر مما اعتدت أن أختزنه ، وسأرسل لكن مقدارا آخر قبل أن يفسد ويصير عديم الفائدة » .

وقد رجوته ألا يرسل شيئا ، ولكن الحق أنه وقد انتهى ما كان عندنا منه ، لم أستطع أن أقول له انه يبق لدينا منه الشىء الكثير ، اذ لم يتبق منه غير ست تفاحات ، ولكن يجب أن نحتفظ بها من أجل « چين » ، وما كنت أحتمل أبدا أن يرسل لنا مزيدا منه ، وكفانا ما غمرنا به فى سخاء — وقد قالت « چين » مثل ما قلته وعندما خرج ، كادت تتشاحن معى ، لا ، لا يجب ألا أقول تتشاحن ، لأنه لم يقم بيننا طول حياتنا شجار قط — ولكن ساءها اعترافى بأن التفاح أوشك أن ينفذ ، وكان بودها أن أجعله يعتقد بأنه ما زال يتبقى منه لدينا الكثير ، فقلت عجبا يا عزيزتى ، لقد قلت ما فيه الكفاية ، ومع هذا فقد حضر « وليم لاركنز » فى نفس المساء ، ومعه سلة كبيرة مملوءة بالتفاح ، وفيها قنطار على الأقل ، فاستحق منا جزيل الشكر — ونزلت وتكلمت مع « وليم لاركنز » ، وقلت كل ما يعن لى فى هذا الصدد ، كما تدركين ، ولا شك ، أن مستر «وليم لاركنز» معروف

لنا منذ عهد بعيد ، ويسعدنى دائما أن أراه — ولكنى مع هذا علمت بعد ذلك من « پاتى » أن « وليم » قال ان هذا هو كل التفاح الذى كان عند سيده من هذا النوع ، وانه قد أحضره كله ولم تبق منه تفاحة واحدة لسيده الآن كى تشوى أو تسلق ، ولم يبد على « وليم » أن هذا ضايقه ، فقد كان من دواعى سروره أن سيده باع مقدارا كبيرا منه ، وذلك لأن « وليم » كما تعلمين يهمه ما يجنيه سيده من ربح ، أكثر من أى شىء آخر — ولكنه قال ان مسز « هدچز » ساءها كثيرا أن يرسل كل هذا المقدار ، ولم تكن لتحتمل رؤية سيدها وليس فى استطاعته أن يحظى بفطيرة محشوة بالتفاح فى فصل الربيع ، وقد أخبر « پاتى » بذلك ، ولكنه طلب منها ألا تعير هذا اهتماما ، وألا تذكر لنا شيئا لأن مسز « هدچز » تغضب أحيانا ، وما دام قد بيع هذا العدد الكبير من الجوالات ، فليس بذى بال أن يعرف من الآكل للباقى — هذا ما قالته لى « پاتى » ، ولا شك أن هذا أزعجنى كثيرا جدا ، ولست أود أن يعلم « مستر نيتلى » أى شىء عن هذا مهما كانت الأسباب ، فهو لو علم سيكون شديد — ، وقد أردت أن أخفى هذا عن « چين » ولكنى لسوء الحظ ذكرته دون أن أتنبه الى ذلك » .

وكانت « مس بيتس » قد فرغت من حديثها عندما فتحت « پاتى » الباب ، وارتقى زوارها السلم دون أن يكون هناك حديث مرتب يستمعون اليه ، ولم يلقن الا كلّ ما يعبر عن طيبة قلب « مس بيتس » من عبارات غير مرتبطة وهى تقول : « رجائى يا « مسز وستن » أن تحتاطى ، فهناك درجة عند دوران السلم ، ورجائى يا « مس وودهاوس » أن تأخـذى حيطتك ، فسلمنا مظلم نوعا ما ، وهو أكثر ظلاما وضيقا عما قد يحب الانسان ، ورجائى يا « مس سمث » أن تحتاطى ، انى شديدة القلق يا « مس وودهاوس » ، وأعتقد أن قدمك قد اصطدم بالسلم ، حاذرى يا « مس سمث » من الدرجة الموجودة عند المنحنى » .

الفصل الثامن والعشرون

كانت حجرة الجلوس عندما دخلوا عنوانا على الهدوء والسكينة ، فقد كانت « مسز بيتس » قد تركت ما اعتادت القيام به ، واستسلمت للنعاس بجانب المدفأة ، وكان «فرانك تشرشل » على منضدة بالقرب منها وهو فى شغل شاغل بنظارتها ، بينما كانت « چين فيرفاكس » واقفة وقد أولتهم ظهرها وعكفت على البيانو تخصه بكل اهتمامها .

ورغم ما شغل به « فرانك » لم يغب عنه أن يبدو مشرق الوجه عندما رأى « اما » للمرة الثانية فى هذا اليوم ، وقال فى صوت خافت نوعا ما .

« انه لشىء سار أن تحضرى قبل الموعد الذى قدرته بعشرة دقائق على الأقل ، وها أنت تريننى أحاول أن أكون ذا منفعة ، هل أخبرتيننى اذا كنت تظنين أنى سوف أنجح فيما أنا بصدده » ؟ .

وقالت « مسز وستن » : عجيب !! ألم تنته منها حتى الآن ؟ انك لن تجد عيشا رغدا اذا كنت تعمل صائغا بهذه السرعة » .

وأجابها : « انى لم أكن أعمل عملا متواصلا ، لأنى كنت أعاون « مس فيرفاكس » فى محاولة تثبيت البيانو ، اذ كان غير ثابت فى مكانه تماما ، وأعتقد أن ذلك راجع الى عدم استواء أرضية الحجرة ، وها أنت ترين أننا كنا ندعم احدى أرجله بأسفين من الورق ، وانه لعطف منك أن تسمحى بأن يستميلوك لتأتى هنا ، وكنت أخشى أن تسرعى الخطى الى منزلك » .

وعمل على أن تجلس الى جواره ، وأخذ يجد فى البحث عن أحسن تفاحة مشوية يقدمها لها ، ويحاول أن يجعلها تعاونه فى عمله ، أو تقدم له

بعض النصح فيه ، الى أن أصبحت « چين فيرفاكس » عــلى استعداد للجلوس الى البيانو ثانية . وساور « اما » الشك فى أن عدم جلوسها اليه فورا انما كان مبعثه حالتها العصبية ، فهى لم تكن بعد قد طال بها الوقت على امتلاك البيانو حتى يمكنها العزف عليه دون أن تحس بالاضطراب . فكان لابد لها من أن تستوثق من قدرتها على العزف ، ولذا لم يكن فى وسع « اما » الا أن تشفق على ما كان ينتابها من مشاعر مهما كان الباعث عليها ، ووطدت العزم على ألا تكشف عن هذا الى جارها مرة أخرى .

وبدأت « چين » تعزف أخيرا ، وعلى الرغم من أن المقامات الموسيقية الأولى لم تكن قوية فقد أخذت قوة البيانو تظهر تدريجا الى أقصى درجاتها ، وكانت « مسز وستن » قد أخذتها نشوة الطرب من قبل ، فطربت الآن مرة أخرى ، وشاركتها « اما » فى كل ما كانت تكيله من عبارات المديح ، واستقر الرأى أخيرا ، بعد فحص البيانو فحصا دقيقا على أنه أحسن ما يكون .

وقال « فرانك تشرشل » وهو يبتسم نحو « اما » : « أيا كان الشخص الذى استخدمه المقدم « كامپبل » لشراء البيانو فهو قد أحسن الاختيار . وقد سمعت الكثير عن ذوق المقدم « كامپبل » وأنا فى « ويموث » وأعتقد أن رقة الألحان ذات الطبقة العالية هى بعينها التى كانت موضع تقديره وتقدير كل تلك الجماعة ، ولعله يا « مس فيرفاكس » لم يترك صغيرة ولا كبيرة من الأوصاف الضرورية الا ذكرها لصديقه ، أو أنه كتب الى « برود وود » مباشرة بنفسه ، ألست تظنين ذلك ؟ » .

ولم تلتفت « چين » حولها ، أو تجد ما يضطرها الى الاستماع اليه فقد كانت « مسز وستن » تتحدث اليها فى نفس الوقت .

وقالت « اما » همسا : « ليس هذا عدلا ، ان ما قلته لك كان رجما بالغيب فلا تضايقها » .

وهز رأسه مبتسما ، وبدا كما لم يكن لديه أدنى شك أو به أدنى رحمة ، ثم عاد يقول بعد ذلك بقليل : « ما أعظم ابتهاج أصدقائك فى أيرلندة بسرورك فى هذه المناسبة يا « مس فيرفاكس » وأعتقد أنهم يفكرون فيك فى معظم الأوقات ، ويتوقون الى معرفة اليوم الذى وصل فيه البيانو على وجه التحديد . هل تظنين أن المقدم « كامپبل » يعلم أن المهمة قد أنجزت فى الوقت الذى حدده ؟ وهل تظنين أنه مرسل من قبله مباشرة ، أو أنه بعث بتوجيهات عامة فقط مع طلب لم يحدد فيه الوقت ، وانما اعتمد على ما تجود به الصدف ويسهل معه التنفيذ ؟ » ثم توقف . ولم يسعها الا أن تستمع ، ولم يسعها الا أن تجيب .

قالت فى صوت المستمسك بهدوئه : « الى أن تصلنى رسالة ، فانى لا أظن شيئا لست متأكدة منه ، اذ لابد أن يكون كل هذا رجما بالغيب » .

« رجم بالغيب !! نعم ، ولكنه أحيانا يصيب ، وأحيانا يخطىء وبودى لو أتكهن متى أنتهى من تثبيت هذا المسمار ، فما أكثر مايقوله الانسان من هراء يا « مس وودهاوس » عندما يكون مكبا على عمل ما ، هذا اذا وجد فرصة للكلام ، وظنى أن العمال الحقيقيين لا يتكلمون ، ولكننا نحن السادة العمال نتكلم اذا حانت الفرصة . لقد تحدثت « مس فيرفاكس » عن الرجم بالغيب . وها هو قد ثبت هذا الرجم بالغيب وانى لمسرور يا سيدتى (مخاطبا بيتس) لاصلاح نظارتك ، فها هى قد التأمت مؤقتا » .

وشكرته الأم وابنتها شكرا جزيلا ، ولكى يتخلص قليلا من ثرثرة الثانية ، توجه الى البيانو ، ورجا « مس فيرفاكس » التى كانت لا تزال جالسة أمامه ، أن تعزف شيئا وقال : « انها لمنة كبرى لو أنك عزفت احدى مقطوعات « الفالز » التى رقصنا عليها فى الليلة الماضية ، دعينى أعيش فيها مرة أخرى ، انك لم تستمتعى بها كما استمتعت ، اذ كان يبدو عليك

أنك متعبة طوال الوقت ، وأعتقد أنك فرحت لأننا توقفنا عن الرقص ، ولكنى كنت أضحى بكل شيء وكنت لا أضن بشيء ، لو أن الرقص استمر نصف ساعة أخرى » .

وعزفت . أما هو فقال :

« ما أهنأ أن يسمع المرء لحنا طرب له مرة أخرى من قبل !! وان لم أكن مخطئا فهو اللحن الذى رقص عليه الناس فى ويموث .

فرفعت نظرها اليه لحظة وقد احمر وجهها ، ثم عزفت لحنا آخر ، وتناول قطعة موسيقية من فوق كرسى على مقربة من البيانو ، والتفت الى « اما » وقال : « هذا شيء جديد ، هل تعرفينه ؟ أنه « كرامر » ، وها هى مجموعة جديدة من الألحان الأيرلندية ، انها تأتى من هذه الجهة فيما أظن ، وقد أرسل كل هذا مع البيانو ، وهو تفكير سليم من المقدم « كامپبل » ، أليس كذلك ؟ فهو يعلم أن « مس فيرفاكس » لن تجد شيئا من الموسيقى هنا . وانى لأجل هذا الجانب من رعايته خاصه ، هو يدل على أنه صادر من القلب ، وليس فيه شيء وليد العجلة ، وليس فيه شيء ناقص غير مكتمل ، وانما حب صادق كان الدافع الى كل ذلك » .

وودت « اما » لو أنه كان أقل تحديدا ولكنها لم تتمالك نفسها من الشعور بالتفكهة ، وعندما وجهت نظرها صوب « چين فيرفاكس » رأت آثار ابتسامة على شفتيها . فلما رأت أنه مع كل هذه الحمرة التى طفح بها محياها من أثر يقظة الضمير ، كانت هناك ابتسامة منبعثة من سرور مكبوت ، قل ترددها فى التفكه بما رأت وصارت أقل أسفا وأقل تأنيبا لضميرها ، ذلك لأن « چين فيرفاكس » الجميلة النزيهة الكاملة ، كانت تبدو وكأنها تنعم بمشاعر دفينة كامنة فى أعماق نفسها .

وأحضر « فرانك » كل المقطوعات الموسيقية الى « اما » ، وفحصاها

معا ، واغتنمت « اما » الفرصة لتقول همسا : « انك تتكلم فى وضوح تام ، ولابد أنها فهمتك » .

« أرجو أن تكون قد فهمتنى ، وبودى لو أدركت ما أقوله ، فلست بمستح أبدا مما أعنى » .

ولكننى ولا شك أشعر بشىء من الخجل ، وبودى لو أن هذه الفكرة لم تخطر لى على بال » .

« انه لمن بواعث سرورى العظيم أن الفكرة خطرت لك ونقلتيها الىّ ، لقد أصبحت أدرك نظراتها وحركاتها الغريبة فدعى الخجل لها ، وهى ان أخطأت وجب أن تشعر بخطئها » .

« أظنها تشعر بالخجل » .

« لست أدرى شيئا يدل على ذلك ، وهى تعزف الآن لحن « روبن أدير » وهو أحب الألحان اليه » .

ولمحت « مس بيتس » بعد قليل وهى تمر قرب النافذة ، « مستر نيتلى » عن كثب ، وهو ممتط جواده ، فقالت : « أؤكد أنه « مستر نيتلى » !! ولابد أن أتحدث اليه اذا أمكننى ذلك ، لأنى أريد أن أشكره ، ولن أفتح النافذة هنا خشية أن يصبكم برد جميعا ، ولكن بوسعى أن أدخل حجرة والدتى ، وأعتقد أنه سيدخل عندما يعلم بالموجودين هنا ، وما أسعدنى أن أراكم جميعا تتقابلون هكذا !! وما أعظم ما نالت حجرتنا الصغيرة من شرف !!

ولم تكف عن حديثها حتى بعد أن وصلت الى الحجرة المجاورة ، وما أن فتحت نافذتها ، حتى استرعت انتباه « مستر نيتلى » ، ووصل الى أسماع الآخرين كل ما دار بينهما من حديث بوضوح ، كأنما كان يدور فى نفس الحجرة . « كيف حالك ؟ كيف حالك ؟ — على أحسن حال

وأشكرك — انى مدينة لك بالشكر من أجل العربة فى الليلة الماضية ، لقد وصلنا فى موعدنا ، وكانت أمى فى انتظارنا — أرجوك أن تدخل ، أدخل ، انك ستجد هنا بعض الأصدقاء » .

هكذا بدأت « مس بيتس » ، وكأنما أراد « مستر نيتلى » أن يسمع الحاضرون صوته كذلك ، فقال فى عزم وفى صيغة الأمر : « كيف حال ابنة أختك يا « مس بيتس » ؟ انى أسأل عن صحتكم جميعا ، وبصفة خاصة عن ابنة أختك ، كيف حال مس فيرفاكس ؟ أرجو ألا يكون قد أصابها برد ليلة أمس ، كيف حالها اليوم ؟ خبرينى كيف حال « مس فيرفاكس ؟ » .

واضطرت « مس بيتس » أن تجيبه على ذلك قبل أن يستمع الى شىء آخر منها ، ووجد المستمعون فى ذلك ما يسليهم ، ونظرت « مسز وستن » الى « اما » نظرة ذات معنى خاص . ولكن « اما » رغم هذا هزت رأسها وهى فى شك مقيم .

وعادت « مس بيتس » تقول : « كم أنا مدينة لك بالشكر ! وأشكرك شكرا جزيلا من أجل العربة » .

وقاطعها قائلا : « انى ذاهب الى كنجستون » فهل من خدمة أؤديها لك ؟ »

« عجبا يا عزيزى !! أذاهب أنت الى كنجستون ؟ ان مسز كول » كانت تقول بالأمس انها تريد شيئا من كنجستون »

« ان مسز كول عندها خدمها وتستطيع أن تبعث بهم ، فهل من خدمة أؤديها لكم ؟ »

« لا ، وشكرا لك ، ولكن ادخل ، فمن تظن أن يكون عندنا ؟ هنا مس « وود هاوس » و « مس سمث » وانها لمنة منهما أن يزورانا كى يسمعا البيانو الجديد ، اعقل جوادك فى « نزل التاج » وادخل »

فقال بعد ترو : « حسنا وليكن لخمس دقائق لا أزيد »

« وستجد هنا أيضا « مسز وستن » ومستر فرانك تشرشل .. حقا ما أبهج أن يجتمع عندنا هذا العدد الكبير من الأصدقاء !! »

« لا ، ليس الآن ، انى شاكر لك ، وليس بوسعى أن أمكث حتى دقيقتين ، فلا بد لى من التوجه الى « كنجستون » بأسرع ما يمكننى »

« عجبا !! ادخل ، انهم سيسرون جدا لرؤيتك »

« لا ، لا ، ان حجرتك قد امتلأت بمن فيهم الكفاية ، وسوف أزوركم يوما آخر وأسمع البيانو »

« كم أنا آسفة ! ما أبهج حفل الليلة الماضية يا « مستر نيتلى » وما أكثر متعتها !! هل رأيت رقصا كهذا ؟ ألم يكن بهيجا أن نرى مس « وود هاوس » وهى تراقص « مستر فرانك تشرشل » ؟ انى لم أر فى حياتى ما يضارعه »

« لا شك أنه كان سارا للغاية ، وأنا لا أستطيع أن أقول ماهو دون ذلك ، اذ أعتقد أن « مس وود هاوس » و « مستر فرانك تشرشل » يستمعان الى كل ما يدور بيننا الآن »

ثم رفع صوته وقال : « لست أدرى لماذا لم تذكرى «مس فيرفاكس» أيضا ، فأنا أظن أن « مس فيرفاكس » تجيد الرقص ، كما أن « مسز وستن » لا يدانيها أحد فى عزف مقطوعات الرقص الريفى فى انجلترا قاطبة .. والآن لو أراد أصدقاؤك أن يعترفوا لى بشىء من الجميل ، فعليهم أن يرفعوا أصواتهم بمديحك ومديحى ، ولكنى لن أنتظر حتى أسمعه .

« لحظة أخرى يا مستر نيتلى » ، انه شىء هام أذهلنا كثيرا ، فلقد حدث بشأن التفاح ما أذهلنى وأذهل « چين » .

« وما الذى حدث الآن ؟ »

« اننا نفكر فى أنك بعثت بكل ما تختزن من التفاح ، لقد قالت بأن عندك منه الشيء الكثير ، والآن لم تبق منه لك واحدة . اننا ولا شك فى دهشة ، وقد تكون « مسز هودچز » غاضبـــة ، بل لقد ذكر « وليم لاركنز » ذلك هنا ، وما كان يجدر بك أن تفعل هذا ، حقا ما كان يجب أن تفعل ، آه لقد انطلق ، انه لا يحتمل أن يسمع ثناء عليه ، على أننى ظننت أنه سيبقى معنا الآن ، وانه لأمر يرثى له لو أننى لم أذكر شيئا ، أجل (وهى تعود الى الحجرة) اننى لم أوفق فى مهمتى ، اذ لم يستطع « مستر نيتلى » أن ينتظر ، فهو ذاهب الى « كنجستون » ، وقد سألنى عما اذا كان يستطيع أن يؤدى لنا خدمة » .

وقالت « چين » : « أجل ، لقد سمعنا عرضه الكريم ، لقـــد سمعنا كل شيء » .

« أجل يا عزيزتى ، وأعتقد أنك سمعتيه ، فقد كان الباب كما تعلمين مفتوحا ، وكذلك النافذة ، وقد تكلم « مستر نيتلى » بصوت مرتفع ، ولابد أنك سمعت كل شيء دون شك . لقد قال : « هل من شيء أقضيه لكم فى كنجستون ؟ »

ولذا بادرت أقول له : عجبا ! ما هـــذا يا « مس وودهاوس ؟ » هل عزمت على الخروج . كأنى أراك قد حضرت حالا ، وانه لتفضـــل عظيم منك »

فقد وجدت « اما » أن الوقت قد حان لكى تعود الى بيتها ، وأن الزيارة قد استغرقت وقتا طويلا . وعندما ألقوا نظرة على ســـاعاتهم ، رأوا أنه قد مضى جزء غير يسير من النهار ، ولذا استأذنت «مسز وستن» كذلك ومن معها فى الخروج كى يجدا فسحة من الوقت يسيران فيهـــا مع الفتاتين حتى أبواب « هارتفيلد » قبل أن يسعيا الى « راندولز » .

الفصل السابع والعشرون

قد يكون فى الامكان الاستغناء عن الرقص كلية . بل لقد عرف عن أناس فى مقتبل العمر أنهم أمضوا الشهور العديدة المتوالية دون أن يغشوا صالة للرقص من أى نوع ، ولم يلحق بأجسامهم ولا بعقولهم أى ضرر من جراء ذلك ، أما حين يبدأون الرقص وينعمون بسرعة الحركة ولو قليلا ، فأن من العسير عليهم بعد ذلك ألا يطلبوا المزيد .

لقد رقص « فرانك تشرشل » مرة واحدة فى « هايبرى » فزاد حنينه الى الرقص منذ ذلك المساء . وقد أمضى هو « واما » فترة نصف الساعة الأخيرة من مساء يوم حبب فيه الى « مستر وود هاوس » الذهاب مع ابنته الى « راندولز » فى وضع خطة لحفل راقص آخر . وكان أول من فكر منهما فى ذلك ، هو « فرانك » ، كما كان أكثر الأثنين تحمسا للفكرة . ذلك أن المرأة هى خير من يقدر الصعوبات ويعنى بتهيئة الأثاث ويهتم بالمظهر . ولكن « اما » كانت مع ذلك شديدة الميل الى أن يرى الناس مرة أخرى كيف يرقص مستر « فرانك تشرشل » : و « مس وود هاوس » رقصا جميلا ، وأن تفعل ما لا يجعلها تحمر خجلا حين تقارن نفسها «بجين فيرفاكس» ، وأن ترقص من أجل مجرد الرقص ، دون الالتجاء الى وسائل الزهو المرذولة . لهذا أخذت تعاونه أولا فى قياس الحجرة التى هم فيها ، لمعرفة كم تسع من المدعوين ، ثم فى أخذ مقاييس حجرة التدخين ، لعلها تكون أوسع منها قليلا ، رغم كل ما قاله « مستر وستن » من أنهما متساويتان فى الاتساع . وكان أول اقتراح ، بل أول

رجاء له ، أن يتم الرقص الذى بدىء به فى بيت « مستر كول » فى هذه الحجرة ، وأن يكون المدعوون هم نفس الذين كانوا هناك ، وأن تكون الموسيقى هى نفسها بالذات . وقد قوبل هذا الرجاء منه بالموافقة فى الحال ، وساند « مستر وستن » الفكرة بابتهاج تام ، وتعهدت « مسز وستن » عن طيب خاطر بالعزف طالما هم تواقون الى الرقص ، ثم أعقب ذلك حصر من يدعون الى الحفل على وجه التحديد ، ومراعاة المسافة الضرورية لكل راقصين .

قال : « أنت ومس « سمث ».و « مس فيرفاكس » ثلاثة ، ومعكن آنستان من « أسرة كوكس » فيكون العدد خمسا » — وتكررت تلك العبارة منه عدة مرات — وهناك اثنان من أسرة « جلبرت » ، ثم « كوكس » الصغير ، ووالدى وأنا ، هذا علاوة على « مستر نيتلى » ، أجل ، ان فى هذا العدد مافيه الكفاية للاستمتاع ، أنت و « مس سمث » و « مس فيرفاكس » ثلاثة ، ومعكن آنستان من أسرة « كوكس » فيكون العدد خمسا ، وسوف يتسع المكان لخمسة أزواج فى يسر »

وسرعان ما قام اعتراضان من « اما » .. قالت : « وهل سيتسع المكان لخمسة أزواج ؟ أعتقد أنه لن يتسع لذلك العدد »

ثم استطردت فى اعتراضها الثانى . قالت : « ومع هذا فأن خمسة أزواج ليست بالعدد الذى يستحق الوقوف للرقص ، ان خمسة أزواج ، اذا فكر الانسان جديا ، ليست بالشىء الذى يذكر ، انه لن يكفى أن يدعى خمسة أزواج فقط ، وقد يجوز هذا لو أن الفكرة كانت بنت ساعتها » .

وقال قائل منهم : « ان « مس جلبرت » ينتظر أن تجىء الى بيت أخيها ، ولا بد اذن من دعوتها مع الباقين . وأعتقد آخر ، أن « مسز

جلبرت » ما كانت لتتأخر عن الرقص فى الأمسية الماضية لو أنها دعيت الى الرقص . وأشار ثالث الى ضرورة دعوة شاب آخر صغير من « أسرة كوكس » . وتقدم « مستر وستن » برأيه فقال « ان أسرة من أبنـــاء عمومته يجب ادراجها فى قائمة المدعوين ، وأخرى من معــارفه القدامى لا يمكن اغفالها ، حتى ارتفع العدد الى عشرة أزواج على الأقل بدلا من خمسة . ثم أخذوا يفكرون بعد ذلك فى كيف يوزعونهم .

لقد كانت أبواب الحجرتين متقــابلة ، ألا يمكن اذن أن يستعملوا الحجرتين ويرقصوا عبر الممر ؟ . وبدا هذا أحسن تدبير ممكن ، وان لم يكن مرضيا من كل الوجوه . واذن فلا بد من البحث عما هو أحسن منه.

وقالت « اما » : « ان هذا ترتيب سقيم » ، وشعرت « مسز وستن » بالقلق من ناحية العشاء ، كما عارض « مستر وود هاوس » ذلك بشدة من ناحية الصحة ، واغتم كثيرا لذلك ، حتى أنهم لم يسترسلوا فى بحثه بعد ذلك . قال :

« ان هذا يكون عملا فى منتهى الحماقة ، ولا أحتمل هذا على « اما » لأنها ليست بالقوية ، وستصاب بالبرد الشـــديد ، وسوف تتعرض له كذلك « هاريت » الصغيرة ، بل وأنتم جميعا . وأنت يا « مسز وستن » ستصبحين طريحة الفراش ، فلا تدعيهم يتحدثون فى هذا الشىء الفظيع ، أرجو ألا تتركيهم يتكلمون فى شىء جنونى كهذا . وهــذا الشـــاب (وبصوت خافت) عديم التفكير ، لا تخبرى والده بذلك ، ولكن هــذا الشاب ليس بالذى يعتمد عليه ، انه كثيرا ما كان يفتح الأبواب هــذا المساء ، ثم يتركها مفتوحة دون اكتراث ، انه لا يفكر فى تيارات الهواء ، ولست أقصد أن أثير حفيظتك عليه ، ولكنه ولا شك ليس كما يجب » .

واستاءت « مسز وستن » لهذا الاتهام الذى قد يترك أثره ، وحاولت

أن تقول ما وسعها أن تقوله لكى تدرأ عنه هذه التهمة ، ثم قامت وغلقت الأبواب جميعها . وقد تنحوا الآن عن فكرة استخدام الممر ، وعادوا الى ما رسموه أول الأمر ، من جعل الرقص فى الحجرة التى هم فيها ، كما أظهر « فرانك تشرشل » من حسن النية ماجعل الرقعة التى لم تكن منذ ربع ساعة كافية الا لخمسة أزواج، صالحة الآن ليرقص فيها عشرة أزواج. فقال :

« لقد كنا كرماء جدا وخصصنا للراقصين مساحة لا ضرورة لها . ان عشرة أزواج قد يقفون هنا فى يسر وسهولة » .

وتململت « اما » وهى تقول : « انه سيكون حشدا مزدحما ، حشرا مؤلما ، فماذا أقبح من الرقص فى مساحة لا سبيل فيها الى اللف والاستدارة »

وأجابها بصيغة جدية : « هذا صحيح ، انه شىء قبيح للغاية » واستمر مع ذلك يقيس الحجرة طولا وعرضا وانتهى بقوله :

« أظن أنه سيكون هنا متسع لا بأس به لعشرة أزواج »

وردت : « لا ، لا ، انك تقول كلاما غير معقول ، وسوف يكون الوقوف جنبا الى جنب شيئا مفزعا ، ولا شىء أبعد من أن يكون مصدرا للسرور ، من الرقص فى حشد مكتظ وفى حجرة صغيرة » .

فأجابها : « لا أنكر هذا ، وأنا متفق معك تماما ، حشد مكتظ وفى حجرة صغيرة !! انك يا « مس وود هاوس » قديرة على رسم صور بليغة فى كلمات قليلة . انها لقدرة عظيمة .. عظيمة جدا !! وعلى الرغم من هذا ، فان المرء لا يميل الى التخلى عن موضوع قطع فى بحثه شوطا بعيدا ، وسوف يغتم والدى لهذا ، وقد لا أكون مصيبا ، ولكن يغلب على ظنى مع ذلك أنه قد يتسنى لعشرة أزواج أن يقفوا هنا فى سهولة تامة »

ولاحظت « ااما » أن ما طبع عليه من كياسة ، يشوبه شيء من العناد ، وأنه يفضل أن يعارضها على أن يحرم من متعة الرقص معهـــا ، فرضيت بالمديح وصفحت عما سواه ، ولو أنها كانت تنوى أن تتزوجه لحق لها أن تتريث لتزن الأمور ، وأن تحاول فهم ما يرضيه ، وأن تتبين ما طبع عليه من مزاج . أما من حيث وضعهما الحالى فهو ظريف الى حد يكفى لأن يكون أحد معارفها .

وقبل أن ينتصف اليوم التالى ، كان فى « هارتفيلد » ، وقد دخـل عليها ، وعلى ثغره ابتسامة دلّت على أن الخطة لا زالت قائمة . وسرعان ما تبين لها أنه جاء ينبئها بأنه أدخل تحسينا على الخطة ، ثم أخذ يقول بعد قليـــل :

« أجل يا « مس وود هاوس » ، أرجو ألا تكون مخاوفك من حجرات أبى الصغيرة قد قضت على ما عندك من ميل للرقص ، وقـد جئت الآن باقتراح جديد فى الموضوع ، وهو من بنات أفكار أبى ، ولا ينقصــه الا موافقتك لكى نعمل على أساسه فهل لى أن أعقد الأمل على أن يكون لى شرف الرقص معك فى الرقصتين الأوليين فى هذه الحفلة الراقصة الصغيرة المزمع اقامتها ، لا فى « راندولز » بل فى « نزل التاج » .

« التـــاج !! »

« أجل ، ان لم يكن لك و « لمستر وود هاوس » اعتراض على ذلك ، وأعتقد أنكما لن تعارضا ، وان والدى لشـديد الأمل بأن أصـــدقاءه سيتكرمون بزيارته هناك ، وهو يعد بأنه سيوفر لهم مكانا أفضـــل من « راندولز » ينزلون فيه معززين مكرمين كما لو نزلوا عليه فى بيته . تلك هى فكرته ، وليس « لمسز وستن » اعتراض عليها مادمت أنت راضية ، بل هذا هو شعورنا جميعا ، وكم كان رأيك صائبا !! فان اجتماع عشرة أزواج

بأى الحجرتين فى « راندولز » شىء لا يحتمل ، انه فظيع !! ولقد شعرت طول الوقت بصواب رأيك ، ولكنى كنت أتلهف على أى شىء يحوز رضاك ، أليس هذا تغيير جميل ؟ فهل أنت موافقة ؟ هل لى أن آمل فى موافقتك ؟ »

« انه يبدو لى مشروعا ليس لأحد أن يعترض عليك اللهم الا أن يكون الاعتراض من جانب مستر وستن وزوجته بل ظنى أنها فكرة رائعة ، وأنا من ناحيتى سوف أكون فى منتهى السعادة . انه التحسين الوحيد على الخطة الأولى الذى كان فى الامكان . ألا تظن يا والدى أنه تعديل رائع ؟ »

واضطرت الى توضيح الفكرة مرة أخرى قبل أن يفهمها أبوها فهما تاما ، ثم لما كانت فكرة جديدة ، فقد كان من الضرورى أن تتوسل اليه قبل أن يوافق عليها .

قال فى خلال المناقشة : « لا ، بل هو يظن أنها فكرة أبعد ما تكون من أن تكون تحسينا ، وأنها فكرة رديئة جدا ، بل وأسوأ كثيرا من الفكرة الأولى ، فان حجرة فى « النزل » لا يمكن الا أن تكون خطرة ، لا تحظى بالتهوية الواجبة ولا تصلح لأن يأهلها الناس ، واذا كان لابد من الرقص فأحرى بهم أن يرقصوا فى « راندولز » . وهو لم يدخل صالة «نزل التاج» مرة فى حياته ، ولم ير أصحاب هذا « النزل » ، لا ، انه تدبير ردىء للغاية وسوف يصابون بالبرد فى « التاج » أكثر من أى مكان آخر »

وقال « فرانك تشرشل » : لقد كنت يا سيدى على وشك أن أقول ان أعظم ما يعزز هذا التغيير ، بعد المكان عن اصابة أى أحد بالبرد ، فالخطر من هذا أقل كثيرا فى « نزل التاج » منه فى « راندولز » . وقد يكون لدى « مستر پرى » من الأسباب ما يبرز أسفه لهذا التغيير ، ولكن ليس لأحد غيره أن يأسف لهذا »

ورد « مستر وود هاوس : « سيدى ، أنت مخطىء كل الخطأ اذا تصورت « مستر پرى » على هذا الخلق . فمستر « پرى » يشتد به القلق حين يصاب أحدنا بمرض ، ولكنى لا أدرى كيف تكون صالة « نزل التاج» أكثر أمانا لكم من بيت أبيك »

« ذلك لأنها أكبر يا سيدى ، ولن تكون هناك مناسبة لفتح النوافذ أبدا ، فسوف ينتهى المساء ولا يفتح مرة ، والضرر كما تعلم لا يتأتى الا من العادة القبيحة التى تجعلهم يفتحون النوافذ ، فيدخل الهواء البارد على الأجسام الساخنة » .

« يفتحون النوافذ !! من المؤكد يا « مستر تشرشل » أن أحدا لن يفكر فى فتح النوافذ فى «راندولز» ، فلن يكون من هو بهذه الحماقة !! وما وصل الى سمعى شىء كهذا . بل عجبى أن يكون هناك رقص والنوافذ مفتوحة !! وأعتقد أنه لا والدك ولا «مسز وستن» (المسكينة مس تيلور سابقا) يسمحان بذلك »

« سيدى ، ولكن قد يتسلل أحيانا فتى غر خلف الستار على غير انتظار ، ثم يفتح النافذة ، وكثيرا ما بلغنى نبأ مثل ذلك »

« أحقا بلغك ذلك يا سيدى ؟ رحماك يا ربى !! ماكنت أظن هذا أبدا ، ولكنى بعيد عن العالم ، وكثيرا ماتستولى علىّ الدهشة لما أسمعه ، ومع ذلك فان هناك فارقا فى هذه الحالة ، وربما حين تتحدث فى الموضوع — ولكن مثل هذه الأشياء تحتاج الى بحث مستفيض ، ولا يستطيع المرء أن يبت فيها فى عجلة ، ولو تكرم كل من « مستر وستن » و « مسز وستن » بزيارتنا صبيحة يوم ما ، فان من الممكن أن نتباحث فى هذا ونرى ماذا يمكن عمله »

« ولكن وقتى يا سيدى لسوء الحظ محدود »

فقاطعته «اما» قائلة : « عجبا ! ستكون هناك فسحة من الوقت لبحث كل شيء ولا داعي للعجلة أبدا ، ولو أمكن يا أبتي تدبير الأمور فى «نزل التاج » فان ذلك سيكون ملائماً جدا للخيل ، لأنها ستكون قريبة جـدا من حظيرتها » .

« انها ستكون كذلك يا عزيزتي ، وهذه ناحية هامة لأن « چيمز » لن يشكو أبدا ، ولكن من الصواب مع ذلك أن نريح خيولنا كلما أمكننـا ذلك ، وحبذا لو تأكدت أن الحجرات ستهوّى تماما ، ولكن هل يمكن الاعتمـاد على « مسز سـتوكس » ؟ انى أشـك فى ذلك ، وان كنت لا أعرفها ، ولا وقع عليها بصرى »

« يمكنني أن أجيب على كل شيء من هذا النوع يا سيدى لأن ذلك سيكون تحت اشراف « مسز وستن » ، ولقد تعهدت « مسز وستن » بمباشرة كل شيء »

« هاك يا أبى ! ولابد فى أن تقتنع الآن مادام الأمر فى يد عزيزتنـا « مسز وستن » ، فهى العناية مجسمة ، ألا تذكر ما قاله لك «مستر پرى» منذ سنوات عديدة عندما أصبت بالحصبة « مادامت « مسز تيلور » قد تعهدت بلف مس « اما » فليس لك يا سيدى أن تخشى شيئا » ؟ وكثيرا ما سمعتك تستعيد ذلك وتمتدحها »

« نعم لقد حدث ذلك فعلا ، فهذا ما قاله « مستر پرى » ولن أنساه ، مسكينة أنت يا صغيرتي « اما » لقد قاسيت كثيرا من الحصبـة ، ولولا عناية « پرى » العظيمة لسايرت حالتك كثيرا . لقد استمر أسبوعا وهـو يأتى لزيارتك أربع مرات كل يوم ، ولقد قال بادىء الأمر انها من النوع الخفيف ، وارتحنا لذلك كثيرا ، ولكن الحصبة مرض مخيف ، وأرجـو عندما يصاب أولاد « ايزابلا » بها أن تستدعى « پرى »

وقال « فرانك تشرشل » : « ان والدى و « مسز وستن » فى « نزل التاج » فى هذه اللحظة ، وهما يفحصان امكانيات الصالة ، وقد تركتهما هناك وأتيت الى « هارتفيلد » وأنا متلهف على أخذ رأيك ، وكلى أمل فى أن أقنعك بأن تلحقى بهما وتنصحيهما بما ترينه ، على الطبيعة . وقد طلبا منى أن أقول لك ذلك ، وانه ليسرهما كثيرا لو سمحت لى بأن أرافقك الى هناك ، فهما لا يستطيعان أن يؤديا عملا مرضيا بدونك »

وكان سرور « اما » بالغا ، أن تكون قد طلبت لتبدى رأيها . وخرج الاثنان معا دون توان الى « نزل التاج » وتركت والدها ليشغل نفســـه ببحث الموضوع بعد خروجها — وهناك التقيا « بمستر وستن » و «مسز وستن » ، وقد سرهما أن يرياها وأن يعلما بموافقتها ، وقد كانا مكبين على العمل ، لكل منهما ما يسره بطريقته الخاصة ، فبينما كانت هى على شىء يسير من القلق ، كان هو يجد كل شىء على أكمل ما يكون .

وقالت « مسز وستن » : « ان هــذا الورق الذى يغطى الجــدران يا « اما » أسوأ مما كنت أنتظر ، أنظرى !! انك ترينه فى بعض الأماكن قذرا الى أبشع حد ، وذلك الأفريز الخشبى الذى يحيط بالجدار قد أهمل واصفر لونه أكثر مما كان يدور بمخيلة أحد »

وقال زوجها : « انك يا عزيزتى تعنين بكل صغيرة وكبيرة ، وماذا يهم كل هذا ؟ انك لن ترى شيئا من ذلك فى ضوء الشموع ، ولن تقل نظافة عن « راندولز » فى ضوئها ، ونحن لا نرى أبدا شيئا من هذا فى الليـــالى التى يجتمع فيها نادينا »

وهنا تبادلت السيدتان النظرات بما يســتفاد منــه : « ان الرجال لا يعرفون أبدا متى تكون الأشياء قذرة ومتى تكون نظيفة » .

ولعل كلا من السيدين فكر فى نفســـه كذلك : « ان النســاء لهن سخافاتهن وهمومهن التى لا مبرر لها »

ونشأت مشكلة بعد ذلك ماكان للسيدين أن يغضا الطرف عنهـــا ، مشكلة الحجرة التى يتناول فيها المدعوون العشـــاء اذ لم يكن يحسب للعشاء حساب وقت أن بنيت صالة الرقص ، فلم يكن يجاورها الا حجرة صغيرة للعب الورق ، واذن فما العمل ؟ ان هذه الحجرة الخاصـة بلعب الورق سوف تخصص الآن لما أسست من أجله ، وحتى لو أجمع أربعتهم على أنها غير لازمة لهذ الغرض ، فأنها لا تزال مع ذلك أصغر من أن تسمح بتناول العشاء فى يسر . وقد يكون فى الامكان تدبير حجرة أكثر اتساعا لهذا الغرض ، ولكنها كانت فى نهاية الطرف الآخر من المبنى ، ، ولا بد من اجتياز ممر طويل ورديء للوصول اليها .

ونشأت فى ذلك صعوبة أخرى ، لقد كانت « مسز وستن » تخشى من تيارات الهواء فى هذا الممر على الشباب من المدعوين ولم تستطع « اما » ولا السيدان كذلك أن يتحملوا منظر التكدس الكريه وقت العشاء .

واقترحت « مسز وستن » عدم اعداد عشاء كامل ، ورأت أن يكتفى بالشطائر ، وأن يكون تقديمها فى الحجرة الصغيرة ، ولكن هذا الاقتراح رفض من أساسه ، باعتباره اقتراحا غير مقبول فى شكله ومبناه ، اذ كان من رأى المعترضين عليه ، أن حفلة رقص خاصة بغير عشـــاء تعتبر افتئاتا على حقوق الرجال والسيدات ، وخدعة مرذولة لا يجوز « لمسز وستن » أن تعاود الكلام فيها .

وفكرت « مسز وستن » بعد ذلك فى شيء آخـر قد يفى بالغرض ، وألقت نظرة على داخل الحجرة التى كانت موضع الجدل ، ثم قالت :

« لا أظن أنها كما تتصور من الضيق ؛ وعـددنا ليس بالكثير كمـا تعلمون »

وكان « مستر وستن » وقتئذ يخطر فى سرعة ونشـاط عبر الممـر وينادى :

« انك تتحدثين كثيرا عن طول هذا الممر يا عزيزتى ، وهو مع كل هذا ليس بالطول الذي يذكر ، وليست هناك أية تيارات من ناحية السلم »

وقالت « مسز وستن » : « بودى لو أعلم أى ترتيب يفضله ضيوفنا بوجه عام ، اذ لابد أن يكون هدفنا عمـــل ما يشيع أقصى السرور فى نفوسهم ، فلو أن أحدا دلنا على ما يمكن أن يحقق ذلك »

وصاح « فرانك » : « أجل ، هذا صحيح جـدا ، فانك تريدين أن تقفى على آراء جيرانك ، وليس هذا منك بعجيب ، فلو أن المرء تحقق من رأى أهم هؤلاء شأنا — فهناك مثلا أسرة « كول » ، وهم ليسو بعيدين عن هنا : فهل أذهب اليهم ؟ أو « مس بيتس » ؟ فهى أقل بعـدا منهم ، ولست أدرى ما اذا كانت « مس بيتس » قادرة كغيرها من النـاس على تفهم ميول الآخرين ، أظن أننا لسنا فى حاجة الى مجلس استشارة أكثر من هذا ، فما رأيكم فى ذهابى ودعوة « مس بيتس » لتشترك معنا ؟ »

وقالت « مسز وستن » فى تردد : « أجل ، وأرجـوك أن تذهب اذا كنت تظن أن ثمة فائدة ترجى من وراء ذلك »

وقالت « اما » : « لن تحصلوا من « مس بيتس » على شىء يحقق هدفا ، نعم سيفيض قلبها بالسرور ، ويلهج لسانها بالشـكر ، ولكنها لن تدلكم على شىء ، ولن تستمع حتى الى أسئلتكم ، ومن ثم فلست أرى أى كسب فى استشارة « مس بيتس »

« ولكنها مسلية ، ومسلية للغاية ! وانى مغرم بسماع « مس بيتس » وهى تتكلم ، واعلمى أنى لست فى حاجة الى احضار الأسرة بأكملها »

واشترك معهما « مستر وستن » الآن ، وعندما سمع بالاقتراح وافق عليه وقال :

« نعم ، قم بهـذا يا « فرانك » ، اذهب واحضر « مس بيتس » ،

ودعنا نفزع من هذه المسألة حالا ، وأنا موقن بأن الخطة ستسرها ، ولا علم لى بمن هو أصلح منها فى تبصيرنا بكيفيـــة التغلب على الصعوبات ، فلتذهب وتأت « بمس بيتس » ، فلقد ازددنا مراعاة لدقائق الأمور ، وهى أنموذج حى لمعرفة كيف يكون المرء مسرورا ، ولكن عليـــك باحضــــار الاثنتين ، أدعهما سويا »

« كلتاهما يا سيدى ! وهل فى وسع السيدة العجوز — ؟ »

« السيدة العجوز ؟ لا ، السيدة الصغيرة بالتأكيد ، ولسوف أظنــك غبيا كبيرا يا « فرانك » لو أنك أتيت بالخالة وتركت ابنة الأخت »

« معذرة يا سيدى فلم أتنبه الى ذلك على الفور ، وما دامت هـــذه رغبتك فانى ولا شك سأبذل جهدى فى التأثير عليهما » ثم انطلق .

وأعادت « مسز وستن » ، شأنها شأن السيدة دمثة الأخلاق والزوجة الصالحة ، فحص الممر قبل أن يعود «فرانك» بوقت طويل ، ومعه الخالة القصيرة النشيطة الأنيقة ، وابنة أختها الرشيقة ، فألفت مساوئه أقل بكثير مما كانت تظن من قبل ، بل هى لا تزيد على أن تكون هينات . وهـــكذا استقر رأيهم بلا صعوبة فى هذه المسألة ، وصار ما تبقى من المسائل بعد ذلك من الأمور الميسورة ، وأصبحت كل الترتيبات البسيطة ، من اعداد المائدة والكراسى والاضاءة ، والموسيقى والشاى والعشاء فى متنـــاول اليد ، فتركت على أنها من التوافه ، لتبت فيها « مسز وستن » و « مسز ستوكس » فى أى وقت .

وقد كان من الأمور المحققة أن يحضر من دعوا جميعا ، وكان «فرانك» قد بعث برسالة الى « أنسكومب » يقترح فيها البقاء لأيام قليلة زيادة على الأسبوعين ، ولم يكن من المنتظر أن يرفض طلبه ، وهكذا سوف تكون حفلة رقص ممتعة .

ووافقت «مس بيتس» من قرارة قلبها عند وصولها ، على أنها سوف تكون حفلة ممتعة . ان وجودها لم يكن مطلوبا للاستشارة، وانما للموافقة (فهذه ناحية مأمونة الجانب) ومن ثم كانت مطلوبة كل الطلب . ولقــد أعطت موافقتها فى الحال ، جامعة شاملة ، فى حماس لا ينقطع ، فأشاعت فى الحاضرين السرور .

وأمضى الجميع نصف ساعة وهم يسيرون جيئة وذهابا بين الحجرات، بعضهم يبدى اقتراحات ، والبعض الآخر يستمع ، والكل فى انتظـــار ما يأتى به المستقبل من متعة وسرور . ولم ينفرط عقدهم دون أن يظفــر بطل الأمسية بحجز الرقصتين الأولتين مع « اما » لنفسه ، ودون أن تسمع ما همس به « مستر وستن » لزوجته وهو يقول :

« لقد طلبها يا عزيزتى للرقص ، وهذا هو عين الصواب . لقــد كنت أعلم بأنه لابد فاعل ذلك » .

الفصل الثلاثون

لم يبق الا شيء واحد ليتم سرور « اما » بمشروع الحفلة الراقصة ، ذلك هو تحديد موعدها فى خلال الفترة التى سمح « لفرانك تشرشل » بقضائها فى « سرى » ، اذ على الرغم من ثقة « مستر وستن » من ذلك ، كانت لا تستبعد أن ترفض أسرة « تشرشل » السماح له بالمكث يوما واحدا بعد انقضاء الأسبوعين المحددين له ، أما تحديد الموعد قبل انقضاء الأسبوعين فلم يكن بالأمر المستطاع . فقد كان لابد من وقت كاف للاستعداد ، ولم يكن ممكنا اتمام هذه الاستعدادات حتى أوائل الأسبوع الثالث ، اذ كان عليهم أن يمضوا بضعة أيام فى التنسيق والترتيب ، والتنقل هنا وهناك ، وبناء الأمل على مالم يكن مؤكدا مع مافى ذلك من مخاطرة كانت فى رأيها مخاطرة كبرى — بأن كل هذه الترتيبات قد تضيع فى النهاية سدى .

على أن سادة « انسكومب » قد أثبتوا أنهم كرماء بالفعل ان لم يكونوا بالقول ، فلقد كان من الواضح أن رغبته فى المكث مدة أطول لم تلق منهم ترحيبا ، ولكنهم مع ذلك لم يعارضوها . وهكذا كان كل شيء مطمئنا ومبشرا بالنجاح . ولما كان كل تخلص من عقبة يفتح المجال عادة لعقبة أخرى ، فقد أخذ ينتاب « اما » ، وقد تحققت الآن من اقامة الحفل ، ضيق آخر ، مبعثه عدم اكتراث « مستر نيتلى » به ، لعل سببه أنه لا يرقص ، أو أن المشروع قد تم دون استشارته ، فبدا كأنه يعتقد بأنه لن يجد فيه متعة ، وأنه لن يكون فيه شيء يثير اهتمامه أو يروح عنه . ولم

تستطع « اما » أن تظفر برد منـــه على ماتطوعت به من معلومات بأكثر من قوله :

« أجل ، وما دامت أسرة « وستن » ترى أن هذا الحفل يستحق أن يقام مع كل هذه المتاعب ، من أجل ساعات قليلة تقضى فى متعة صاخبة ، فلا وجه لاعتراضى عليه بغير أنه ليس من حقهم أن يختاروا لى ما يسرنى. نعم لا بد من حضورى ، فليس بوسعى أن أرفض ، وسأظل لا أجفو ، على قدر استطاعتى ، ولكنى كنت أفضـــل أن أكون بمنزلى ، وأن أراجـــع حسابات الأسبوع مع « وليم لاركنز » ، وأعترف بأن هذا كان أفضل لى. أما السرور بمشاهدة الرقص ، فلست أنا الذى ينعم بمثـــل ذلك . فأنا لا أراقب الرقص أبدا ، ولا أعرف أحدا يميل الى ذلك ، وأعتقد أن الرقص الجميل مثل الفضيـــلة ، جـــزاؤه فى ممارسته ، أما أولئك الذين يقفون ليشاهدوا الراقصين ، فهم فى العادة يفكرون فى شىء يختلف عن الرقص كل الاختلاف »

وشعرت « اما » أن هذا الكلام موجه اليها ، وأغضبها ذلك منه ، اذ لم يكن عدم اكتراثه أو سخطه ، تملقا منه « لجين فيرفاكس » ولم يكن استنكاره للحفل ارضاء لمشاعرها ، فهى قد اغتبطت بالفكرة كل الاغتباط، وبلغ من سرورها بها أن فتحت قلبها لها لتقول :

« مرحا ، مرحا ، يا « مس وودهاوس » انى آمل ألا يحدث ما يمنع من اقامة الحفل ، اذ ما أتعس أن يحدث هـــــذا !! وانى لأترقبه بعظيم السرور »

واذن فهو لم يفضل أن يكون بصحبـــة « وليم لاركنز » لمجـــرد أن يرضى « جين فيرفاكس » ، لا ، أبدا !! وزاد اقتناع « اما » بأن « مسز وستن » قد أخطأت فى تكهناتها ، وأن علاقته بجين لم تكن بدافع الحب ، بل وليدة الشعور بالعطف والحنان .

ولكن وا أسفاه !! فلم تكن لها فسحة من الوقت للتشاحن مع « مستر نيتلى » . لقد مضى يومان فى بهجة ولدها الشعور بالاطمئنان ، ثم اذا بكل شيء يصبح فى خبر كان . لقد وصل خطاب من «مستر تشرشل» يستنهض فيه ابن أخته العودة ، لأن « مسز تشرشل » مرضت واشتد بها المرض ، فلم تعد فى غنى عنه ، وقد كانت فى آلام مبرحة (هكذا قال زوجها) عندما كتبت اليه منذ يومين ، ولكنها لم تشأ أن تخبره بذلك ، رغبة منها فى عدم ايلامه ، ونظرا لما طبعت عليه من نكران الذات . على أن المرض قد اشتد بها الآن حتى أصبحت لا تستطيع أن تستهين به ، ومن ثم فهى تلحف بالرجاء ، أن يبرح الى « انسكومب » دون ابطاء .

وبعثت « مسز وستن » بمذكرة الى « اما » فى الحال متضمنة ماجاء بالرسالة ، تقول فيها : وهكذا لم يعد هناك مفر من ذهابه ، بل لابد له من أن يبرح فى غضون ساعات معدودات ، رغم أنه لم يبد عليه أى فزع حقيقى من أجل زوجة خاله لكى يقلل من امتعاضه ، فلقد كان عليما بأمراضها التى كانت لا تحدث الا لتلائم أغراضها . ثم أضافت « مسز وستن » تقول فى مذكرتها :

« انه سيستقطع لنفسه عقب الأفطار وقتا يكفى لأن يسرع فيه الى « هايبرى » ليودع الأصدقاء القلائل الذين يرى فيهم شعورا بالاهتمام به ، وأنه من المنتظر أن يصل الى « هارتفيلد » حالا »

واستلمت « اما » المذكرة المشئومة عقب تناولها طعام الافطار مباشرة ، وما كانت لتستطيع أن تفعل شيئا عندما قرأتها ، الا أن تعبر عن الأسى على عدم اقامة الحفل ، وعلى فراق الفتى ، وعلى كل ما قد ينتابه من الألم بسبب ذلك . حقا ما أتعس هذا !! وما أبهجها من أمسية تلك التى كنا سنقضيها والكل فيها سعيد ، وهى وهو أسعدهم جميعا . « لقد قلت ان ذلك سيحدث » — كانت هذه كل سلواها الآن .

وظهرت المشاعر التى انتابت والدها واضحة جليــة . لقــد كان أهم ما شغل باله ، مرض « مسز تشرشل » ، وقد ود لو علم كيف تعالج . أما الحفلة الراقصة ، فقد أفزعه أن يرى « اما » حزينة مكتئبــة ، ولكنهم فى نظره سوف يكونون أكثر أمنا واطمئنانا فى بيوتهم جميعا .

واستعدت « اما » للقاء الزائر قبل مجيئه بوقت طويل . واذا كان لم يبد عليه شىء من مظاهر التبرم والضجر ، فقد كان مابدا على محياه من دلائل الحزن العميق ، ومظاهر الغصة فى قرارة نفسه ، ماكان شفيعــا له عندها .

لقد أخذت مشاعره بالرحيل ، منه مأخذا عقل لسانه عن التحدث فيه ، وكان امتعاضه منه جليا واضحا . فجلس الدقائق الأولى وهــو غارق فى بحر أفكاره ، ولم يستطع بعد أن استعاد وعيه ، أكثر من أن يقول :

« ان الوداع هو أفظع شىء فى الوجود »

وقالت « اما » : « ولكنك ستعود ، ولن تكون هذه زيارتك الوحيدة الى « راندولز » .

فأجابها (وهو يهز رأســه) : « آه ، ان قدرتى على العودة ليست مؤكدة !! وسأحاول جهدى أن أعود ، وسيكون هذا هــو هدفى الذى أوجه اليه كل تفكيرى وعنايتى !! لو أن خالى وزوجته يذهبان الى المدينة هذا الربيع !! — ولكنى أخشى ألا يذهبا ، لأنهما لم ينتقلا الربيع الماضى، وتلك عادة مضت ولن تعود » .

« ان حفلتنا الراقصة لابد أن يصرف عنها النظر »

« واحسرتاه على تلك الحفلة . لماذا انتظرنا هكذا ؟ لماذا لم نمســك بتلابيب السعادة فى وقتها ؟ فما أكثر ما يقضى على السعادة باعداد العدة لها ، وياله من اعداد سخيف !! لقد قلت لنا ان هذا سوف يحدث . غريب يا « مس وود هاوس » لماذا أنت على الدوام صائبة ؟ »

« انه ليحزنني كثيرا أن أكون صائبة فى هذه المناسبة ، فلقـد كنت أفضل أن أكون مرحة من أن أكون حكيمة »

« اذا تسنى لى أن أعود ، فأننا سنقيم الحفـل ، ووالدى مصر على هذا ، فلا تنسى ارتباطنا »

ونظرت «اما» اليه فى حنان ورقة ، ثم استمر يقول :

« ما أعظمهما من أسبوعين قضيتهما !! لقد كان كل يوم فيهما أثمن وأجمل من سابقه ، كل يوم يجعلنى أقل تحمـلا لأن أعيش فى مكان غير هذا ، فما أسعد أولئك الذين يستطيعون البقاء فى « هايبرى » .

وقالت « اما » ضاحكة : « الآن وقد وفيتنا حقنا ، فانى سأجرؤ على أن أسألك اذا كان لم يراودك شك فينا فى بادىء الأمر ؟ ألم تجدنا خيرا مما كنت تنتظر ؟ أعتقد أننا كذلك ، بل انى متأكدة بأنه ماكان يخطر لك ببال ، أنك سوف تميل الينا ، ولو كانت فكرتك عن « هايبرى » طيبة لما تباطأت فى المجىء اليها »

فضحك وقد أدرك قصدها . وتأكدت « اما » بأن هذا كان شعوره ، ولو أنه أنكره .

« وهل لابد من رحيلك هذا الصباح بالذات ؟ »

« أجل ، وسيلحق بى أبى هنا لنعود سويا ، ثم أرحل فى الحال . انى أنتظر مجيئه بين لحظة وأخرى »

« ألا تجد خمس دقائق لتخص لها أصـدقاءك : « مس فيرفاكس » و « مس بيتس » ؟ ما أبأس ذلك !! فأن عقل « مس بيتس » بمـا له من قدرة كبيرة على الجدل قد يقوّى من عقلك » .

« أجل ، لقد ذهبت لزيارتهن . فقد كنت أمر ببابهن ، ورأيت أنه قد يكون من الأفضل أن أدخل لزيارتهن ، بل كان من الصواب أن أفعـل

ذلك ، ولقد دخلت لأقضى ثلاث دقائق ، ولكنى تأخرت لأن «مس بيتس» لم تكن موجودة . كانت قد خرجت ، وشعرت أنه من المستحيل ألا أنتظر حتى تعود ، فهى سيدة لا يتمالك الانسان نفسه من الضحك منها ، بل هو لابد أن يضحك منها ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يستخف بهـا . لقد كان من المستحسن أن أقوم بهذه الزيارة ، ثم ... »

وتردد وهم واقفا ، ثم سار نحو نافذة وقال :

« يخيل الى يا « مس وود هاوس » بايجاز ، أنك لابد تشعرين بشىء من الريبة » ثم نظر اليها كأنما يريد أن يستطلع أفكارها

ولم تدر ماذا تقول ، وبدا كأن هذا كان مقدمة لشىء خطير كانت فى غنى عن سماعه . ولذلك استجمعت كل قواها لتتكلم أملا فى تأجيـــل الافصاح عنه ، وقالت فى هدوء :

« لقد كنت محقا تماما فى رأيك ، وكان أمرا طبيعيا أن تقـوم بهذه الزيارة ، ولذا ... »

فسكت ، وأيقنت أنه كان يتأملها ، ولعله كان يفكر فيما قالته،ويحاول أن يعرف مداه ، وسمعته يتنهد ، وكان من الطبيعى أن تشعر بأن هنـاك سببا لتنهده . وما كان له أن يعتقد بأنها تشجعه . ومرت لحظـات قليلة حرجة ، ثم جلس ثانية وقال بطريقة أكثر حزما :

« لقد أفدت من شعورى بأنى أستطيـع أن أعطى ما تبقى من وقتى لهارتفيلد ، فان « هارتفيلد » لهـا فى نفسى منزلة عزيزة » ثم توقف عن الكلام مرة أخرى ووقف ثانية وبدا عليه الارتباك ... لقد كان حبه لهـا أكثر ممـا كانت تظن ، ومن ذا الذى كان يمكن أن يتكهن كيف كانت ستكون خاتمة هذا الموقف ، لو أن والده لم يحضر فى تلك اللحظـــة ؟ وسرعان ماجاء « مستر وود هاوس » فى أعقابه . وبذل « فرانك » جهده ليستعيد هدوءه .

ومضت بعد ذلك دقائق قليلة ، انتهى بعدها هذا الامتحان القاسى .

ولما كان « مستر وستن » دائما يقظا اذا عنا له أمر يجب أداؤه ، وكان لا يحب أن يؤجل وقوع شر لابد من وقوعه ، بقدر ماكان عاجزا عن أن يتنبأ بحدوث شر هناك شك فى حدوثه ، فقد قال :

« لقد حان الوقت للرحيل »

ولم يسع الفتى الا أن يوافق ، وأن ينهض واقفــا ليستأذن رغم أنه تنهد وقال :

« سوف تصلنى أخباركم جميعا ، وسيكون فى هذا أعظم سلوى لى ، وسأعلم بكل ما يدور بينكم ، فلقد أخذت على « مسز وستن » عهدا أن تراسلنى ، وقد تكرمت فوعدتنى بذلك ، فما أسعد أن يكون المراســل سيدة عندما يكون المرء مهتما بمن هو غائب عنه .. انها ستخبرنى بكل شىء ، وسأشعر من رسائلها أنى فى « هايبرى » العزيزة ثانية »

وختم الحديث بمصافحة تفيض ودا ، وهو يقول « مع السلامة »

وسرعان ماخرج واحتجب عن الأنظار . لقد كان سفره مفاجئا ، وكانت الفترة التى قضاها معها قصيرة . وقد ذهب الآن ، وشعرت « اما » بمــا للفراق من أسى ، وتنبأت بما سيحل بجماعتهم الصغيرة من خسارة كبرى لغيابه عنها ، مما جعلها تخشى على نفسها أن يستبد بها الحــزن ويتفاقم احساسها بهذه الخسارة .

لقد كان تغييرا محزنا ، اذ ظلا يلتقيان منذ وصوله كل يوم تقريبا ، ولا ريب أن وجوده فى « راندولز » قد بث فيها فى الأسبوعين الأخيرين حيوية عظيمة ... حيوية لا توصف . حقا ما أحلاها فترة : تفكيرها فيه ، وترقب رؤيته مع كل صباح ، وثقتها بأنه ســوف يغمرها بعنايته ومرحه وحيويته ، ومسلكه وأسلوبه ! لقد كانا أسبوعين هنيئين يفيضان سعادة ،

وانه لمن البؤس أن تتردى بعدهما الى أيام « هارتفيلد » بما فيها من حياة رتيبة . لقد كاد أن يقول لها انه يحبها ، فاستكمل بذلك كل مامن شأنه أن يزكيه عندها . أما مدى قوى هذا الحب ، ومدى متانته ومقارعته للزمن ، فهذا شيء آخر ، ولكنها ماكانت فى تلك الآونة لترتاب فى حبه الجارف لها ، وفى تفضيله لها على كل من عداها . وقد دفعها هذا التفكير، بالاضافة الى غيره من الملابسات والظروف ، الى أن تظن فى نفسها أنها لابد أن تكون قد أحبته على الرغم من كل اصرار من جانبها عكس ذلك .

وقالت لنفسها : « لابد أنى أحببته ، مافى ذلك شك ، فهذا الاحساس بالقلق وعدم الاستقرار ، هذا الاحساس بالوهن وبلادة الذهن ، هذا العزوف عن الجلوس لأشغل نفسى بشيء أعمله ، هذا الشعور بأن كل مافى البيت كئيب وتافه ... كل ذلك انما يدل على أنى قد وقعت فى شراك الحب ، فاذا لم يكن هذا ... فأنى أكون أعجب مخلوقة فى الوجود ، ولو لأسابيع قليلة على الأقل . حقا ان مصائب قوم عند قوم فوائد ، فلسوف أجد لى شركاء كثيرين يحزنون من أجل الحفلة ، ان لم يكن من أجل « فرانك تشرشل » ، ولكن « مستر نيتلى » سيفرح ، وله الآن أن يقضى المساء مع عزيزه « وليم لاركنز » اذا أراد » .

على أن « مستر نيتلى » لم يظهر أى سرور بانتصاره ، وفى الوقت نفسه لم يستطع أن يقول انه آسف هو نفسه ، فقد كانت مظاهر البهجة التى كانت تنتشر فوق وجهه تنفى ذلك ، ولكنه قال فى جد وصدق انه آسف لخيبة آمال الآخرين ، ثم زاد على ذلك فى رقة بالغة :

« انك يا « اما » ، وفرص الرقص لا تأتيك الا نادرا ، قد خانك الحظ ولا شك . لقد كان سوء طالعك بالغا أقصاه ! »

ومضت بعض أيام لم تر فيها « چين فيرفاكس » لتحكم على ما لحقها

من أسى بسبب هذا التغيير المحزن ، فلما تقابلتا ، رأتهـا تبدو فى هدوء عجيب . لقـد كانت مريضـة تقاسى من الصـداع ، ممـا جعل خالتها تصرح بأن « چين » لم يكن بوسعها أن تحضر الحفـل لو أنه أقيم . وانه لحسن منها أن تعزو ماكان يبدو على « چين » من عدم اكتراث لا يليق ، الى اعتلال صحتها .

الفصل الحادي والثلاثون

ظلت « اما » لا يخامرها الشك فى أنها تحب ، وانما اختلفت فى تقدير مدى ماوصلت اليه فى مدارج الحب . لقـد ظنت فى بادىء الأمر أنه كان بالغا ، ثم رأت بعد ذلك أنه كان يسيرا . لقد كان يسرها كثيرا أن تستمع الى ما يقـال عن « فرانك تشرشـل » ، وزاد من أجله ، سرورها برؤية « مستر وستن » وزوجته . كانت تفكر فيه معظم الأحيان ، وتتلهف على على وصول رسالة منه تقف منها على أحواله ، وعلى ماكان عليه مزاجه ، وتعرف منها صحة زوجة خاله ، والفرصة التى تتهيأ لمجيئه الى «راندولز» فى هذا الربيع مرة أخرى . ولكنها من ناحية أخرى كانت لا تعترف بأنها غير سعيدة ، ولا بأنها كانت أقل ميلا الى العمل من عادتها بعد اليوم الأول، لقد كانت لا تزال دائبة العمل مبتهجة النفس . وقد تبينت الآن أنه على ما كان عليه من ملاحة لا يخلو من عيوب ، وزيادة على ذلك ، فانها على الرغم من كثرة تفكيرها فيه ، ورسم آلاف الخطط اللطيفة وقت جلوسها للرسم ، أو العمل لدعم حبها أو لوقفه ، فان كل ما ساورها من تخيلات ، وصل فى النهاية الى أنها ترفضه . فلقد رأت أن حبهما لابد أن يتضاءل الى صداقة . ولم يكن افتراقهما ليتسم الا بكل ماهو رقيق وبهيج ، ولكن مع ذلك كان لابد من فراقهما . ولما أحست بذلك ، خطر لها أنها لا يمكن أن تكون قد بلغت درجة كبيرة من الحب ، اذ على الرغم من عزمها الأكيد فيما مضى ، على ألا تترك أباها ، وألا تتزوج أبدا ، فان الحب العنيف قد يثير فى نفسها أكثر من صراع لا يمكنها التكهن بعاقبته ومن ثم فقد قالت:

« أراني لا أفيد قط من كلمة التضحية ، فليس فى ردودى الحصيفة كلها ، ولا فى رفضى الرقيق ما ينبىء بأية تضحية . ويخيل الى أن ارتباطى به ليس فى الواقع شيئا تستوجبه سعادتى ، وفى هذا كل الخير . ولن أحمل نفسى فوق ما حملتها من مشاعر ، وكفانى ما أشعر به من حبه ، فانه ليسوءنى أن يزيد على ذلك »

لقد كانت بصفة عامة قانعة برأيها فى عواطفه نحوها

« انه ولا شك يهيم بحبها — كل شىء يدل على ذلك — انه مولع بها دون ريب — ولا بد لى أن أكون على حذر فلا أعمل على اذكاء حبه اذا عاد ثانية وكان لا يزال على حبه ، فهو شىء لا يغتفر ان فعلت غير هذا ، وقد عقدت العزم على ذلك ، لا لأنى أتخيل أنه قد يتبادر الى ذهنه أنى كنت أشجعه ، لا ، فهو لو كان يعتقد بأنى أشاركه عواطفه ، لما شعر بمثل هذه التعاسة ، ولو كان يظن من جهة أخرى أنه كان يلقى تشجيعا ، لاختلفت نظراته وعباراته ساعة الفراق ، ومع هذا فلابد لى من الحيطة ، هذا على فرض أنه سيدوم على حبه ، ولكنى لا أنتظر ذلك ، فلست أراه من هذا الطراز من الرجال ، بل لست واثقة من أنه سيستمر ويثبت على حبه . ان مشاعره حارة ، ولكن يبدو لى أنها متقلبة ، وقصارى القول ، انى اذا نظرت الى الموضوع من جميع زواياه ، رأيت أن مما يستوجب الحمد ألا تكون سعادتى معرضة للخطر ، وأن حالى سينصلح بعد قليل ، وأعود كما كنت وأنسى كل شىء . والناس يقولون ان كل انسان يحب فى حياته مرة ، ومن ثم فأنى أكون قد نجوت من الحب بسهولة »

ولما وصلت رسالة منه الى « مسز وستن » ، أعطيت « لاما » كى تتصفحها ، فقرأتها فى شىء من السرور والاعجاب ، وهزت رأسها لأول وهلة ، دهشة من أحاسيسها ، وانطلقت تفكر فى أنها لم تقدر قدرتها حق

قدرها . كانت رسالة مستفيضـــة ، كتبت فى أسلوب رصين ، وتضمنت وصفا لتفاصيل رحلته ، ومشاعره . عبر فيها عن حبه وامتنانه واحترامه فى نبل ودون تكلف ، ووصف كل شيء فى بيئته وخارجها ، مما رآه مشوقا ، بحماس ودقة ، وفى بعد عن كل تنميق أو اعتذار أو قلق . كانت لغته لغة من يحس باحساس صادق نحو « مسز وستن » ، ولم يمس موضـــوع انتقاله من « هايبرى » الى « أنسكومب » ، ويقارن بين المكانين من حيث بعض نعم الحياة الاجتماعية فيهما الا مسا خفيفا ، الى القدر الذى يسمح له بأن يبين مدى شعوره ، وأنه لولا مراعاة اللياقة لأفاض وأطنب : ولم يغفل عن ذكر اسمها المحبب ، فقد وردت كلمة مس « وود هاوس » أكثر من مرة فى خطابه ، مقرونة فى كل مرة بمناسبة من المناسبات السارة التى تشيد بحسن ذوقها أحيانا ، أو تستعيد بعض كلماتها أحيانا أخرى . وفى آخر مرة وقع نظرها على اسمها فى الخطاب ، لم يكن مزدانا بمثل هـــذه الأكاليل العريضة من المديح ، ولكنها مع ذلك تبينت من الملابسة ، ماكان لها من تأثير عليه ، ورأت فيه ماهو أعظم من كل ماذكره من مديح . لقد كانت الكلمات الآتية مضغوطة فى زاوية بأسفل الرسالة :

« لم يكن وقتى يوم الثلاثاء كما تعلمين ليجود بلحظـــة أقضيهـــا مع الصديقة الصغيرة الجميلة مس وود هاوس ، فأرجو أن تبلغيها معـــذرتى وتمنياتى الطيبة »

ولم تشك « اما » فى أن هذه العبارة كتبت من أجلهـــا ، وأنه لم يتذكر « هاريت » الا لأنها صديقتها . أما كل ماقاله عن « أنسكومب » وما يعقده عليها من آمال ، فلم يكن أسوأ ولا أحسن مما كانت تتوقع . لقد كانت«مسز تشرشل» تتماثل للشفاء ، وهو لا يجرؤ حتى ولا فى الخيال، على أن يحدد وقتا يعود فيه الى « راندولز » .

وعلى الرغم من أن صلب الرسالة كان مرضيا ومثيرا لعواطفها فانها لم تجد وهى تطريها وتسلمها « لمسز وستن » ، أنها قد أذكت من مشاعرها فتيلا ، بل وجدت أن فى وسعها أن تضرب صفحا عمن سطرها ، ورأت أن من واجبه أن يوطن نفسه على أن يعيش بدونها . انها لم تتراجع عن عزمها ، ولم يكن اصرارها على الرفض الا ليزيد اثارتها بما كانت ترسمه من خطط لتهيىء له الهناءة والسلوى .

فقد أثار ذكر « هاريت » وتلك الكلمات التى قرن بهـا اسمها حين وصفها بأنها الصديقة الصغيرة الجميلة ، ما أثار فى خاطرها فكرة توجيه حبه الى صديقتها بدلا منها . وهل فى ذلك استحالة ؟ لا ، ان « هاريت » ولا شك أقل ادراكا منه بدرجة كبيرة ، ولكنه أعجب بجمال محياها ، وبما هى عليه من البساطة وعدم التكلف فى تصرفاتها ، كما أن مايحيط بها من ملابسات من ناحية عائلتها ، فيه احتمالات كلها فى صالحها ، ... وهـذا العمل فيه ولا شك كسب لهاريت ومسرة على السواء .

وقالت لنفسها : « لا ، يجب ألا أولى هذه الفكرة شيئا من اهتمامى ، بل يجب أن أطرحها من ذهنى كلية ، فأنا أعلم الخطر الذى يتأتى من تبنى مثل هذه الأفكار . ومع ذلك لقـد تحقق ما هو أغرب من ذلك . وعندما لا يعود أحدنا يهتم بالآخر ، كما نحن الآن ، فسوف يكون فى ذلك تدعيم لصداقتنا المنزهة عن الغرض التى أصبو اليها الآن وأنا سعيدة »

لقد كان جميلا منها أن تعمل حسابا لراحة « هاريت » ، وان كان من الحكمة ألا تتيح لخيالها فرصة التفكير فى ذلك الا نادرا ، لأن الشر الذى قد ينجم عن ذلك قريب الاحتمال ، فالناس فى « هايبرى » كانوا قد جعلوا خطبة « مستر التن » موضوع حديثهم أياما ، ثم كان وصـول « فرانك تشرشل » ، فشغلوا عن ذلك ، وانتقلوا الى الحديث عن هذا ، فقد أطاح

اهتمامهم بمجىء « فرانك » ماكان لهم من اهتمام بخطبة « التن » . والآن وقد غاب « فرانك تشرشل » عن أعينهم ، أصبح لا محيص من أن يعود اهتمامهم بالحديث عن « مستر التن » ، فلقد حدد يوم زفافه ، وسيكون بينهم ثانية هو وعروسه عما قريب .

وهكذا لم يكد الناس يفرغون من التحدث عن الرسالة الأولى التى وصلت من « أنسكومت » حتى كان الحديث عن « مستر التن » وعروسه يجرى على ألسنتهم جميعا ، وانتقل « فرانك تشرشل » الى زوايا النسيان. وعافت « اما » سماع تلك الأحاديث ، واستراح فؤادها ، وطابت نفسها ، لتخلصها من مستر « التن » ثلاثة أسابيع كاملة ، كما تمنت أن يكون قد عاد الى « هاريت » صوابها كذلك ، بعد أن أخذ يذهب عنها أخيرا ما كانت عليه من بلبلة واضطراب ، وأزاح تطلعها الى حفلة « وستن » الراقصة ، كثيرا من حساسيتها السابقة ، غير أنه تبين الآن بوضوح أنها لم تكن قد بلغت من السكينة مبلغا تقوى به على مواجهة قرب الزواج ، ورؤية العربة الجديدة ، وسماع الأجراس فى تلك المناسبة ، وما الى ذلك . فلقد كانت « هاريت » المسكينة فى لجة من المشاعر المتضاربة الآن ، فى حاجة الى ما تجود به قريحة « اما » من نصيحة وما تقوم به لها من رعاية وتهدئة .

وشعرت « اما » أنه ليس بوسعها بذل الكثير من أجل صديقتها بقدر ما شعرت بأن من حق « هاريت » عليها أن تعينها بحسن تدبيرها وأناتها ، غير أنه كا يشق عليها أن تظل تتوسل اليها بالحجج ، ثم هى لا تجد أثرا لذلك اطلاقا ، وأن تعمل على اقناعها ، ثم لا ترى ما تراه .

واستمعت « هاريت » اليها وهى صاغرة وقالت :

« لقد كان هذا عين الصواب ، وتماما كما تصفه « مس وود هاوس »، فما كانا يستحقان أن أفكر فيهما ، ولن أفكر فيهما بعد ذلك »

ولكن تغيير مجرى الحديث لم يجد نفعا ، اذ لم تكد تمر نصف ساعة حتى عادت سيرتها الأولى ، واعتراها القلق والضجر من أجل « التن » وعروسه . وهاجمتها « اما » أخيرا من معقل آخر ، اذ قالت لها :

« انك يا « هاريت » باستسلامك للتفكير والهم من أجـل « مستر التن » انما توجهين لى أقوى ماعندك من سهام اللوم ، وما كنت تستطيعين أن تؤنبيني بأعظم من ذلك على ما ارتكبته من خطأ فى حقك . فلقد كانت غلطتى من البداية ، وأؤكد لك أنى لم أنس ذلك أبدا ... لقـد خدعت ، ولسوء حظى خدعتك ، وسوف تؤرقنى تلك الذكرى دائمـا . اياك أن تتخيلى أنى سأنسى ذلك أبدا »

وكان وقع هذا على « هاريت » شديدا ، فلم تنطق بغير كلمات قليلة أودعتها كل حبها نحو صديقتها .

وواصلت « اما » الحديث :

« انى لم أقل لك يا « هاريت » تذرعى بالصبر من أجلى ، أو قللى من التفكير ومن الحديث عن « مستر ألتن » من أجلى ، ولكنه من أجلك أنت وددت أن يكون كل هذا ... ومن أجـل ماهو أهم من راحتى ، وهـو اعتيادك ضبط النفس ، وتقديرك لواجبك ، ومراعاتك لمقتضيات الكياسة ، ثم محاولة تجنب اثارة ظنون الآخرين ، كى تحافظى على صحتـك وعلى ثقة الناس فيك ، ثم لتعـود اليك سكينتك . تلك هى الدوافع التى كنت ألح من أجلها عليك ، وهى دوافع كلها هامة ، وانى آسفة لأنك لم تشعرى بهذه الدوافع الى حد يجعلك تعملين بما تقتضيه منك . وان نجـاتى من الألم هى شىء ثانوى فى نظرى ، ولكنى أريدك أن تنجى بنفسك من آلام أعظم وأشد . لقد شعرت أحيانا بأن « هاريت » لن تنسى واجبها ، ولن تنسى ماقمت به نحوها بدافع من الحنان »

لقد كان هذا الالتجاء الى وجدانها أبلغ أثرا مما عداه ، فلبثت فترة وهى تشعر بالتعاسة لما جال فى فكرها من أن « مس وود هاوس » ، وهى التى تحبها كل الحب ، كانت فى حاجة الى رعايتها والى عزفانها بجميلها .

ولما هدأ حزنها ، أخذ وجدانها ، وكان مايزال مندفعا قويا ، يحفزها الى عمل مافيه الصواب ، ويشد من أزرها فيما هى فيه .

« أنت يا من أعز من صادفته طوال حيـــاتى ، تريدين منى اعترافا بالجميل !! لست أرى فى الوجود من هو مثلك !! وليس فى الوجود من له عندى منزلة كمنزلتك !! كم كنت أنا جاحدة يا « مس وود هاوس » ! »

وكانت هذه العبارة وما صحبها من نظرات ، ومن طريقة الأداء ، كافية لأن تجعل « اما » تشعر بأنها لم تحب « هاريت » يوما بمثل ما أحبتهـــا الآن ، ولم تحمل لها فى الحب والتقدير ماحملته لها فى تلك اللحظة .

وقالت لنفسها بعد ذلك : « ما من شيء يعادل فى بهجته ، رقة القلب . فليس هناك مايقارن بها ، وان مايكون عليه القلب من رقة ومودة وحنان وصراحة ، يفوق كل شيء ، فى اجتذاب الناس . انى لواثقة من ذلك . رقة القلب هى التى تجعل أبى العزيز محبوبا من الناس جميعـــا ، وهى التى أكسبت « ايزابلا » شهرة بينهم ، وهى التى تعوزنى أنا ، ولكنى أعلم كيف أقدر هذه الصفة وأحترمها . وان « هاريت » لتفوقنى فى كل ما تضفيه تلك الخلة من سعادة وبهجة . عزيزتى « هاريت » !! انى لن أرضى بأصفى السيدات ذهنا ، وأبعدهن نظرا ، وأصدقهن حكما ، بديلا عنك . وما أكثر ماعليه « جين فيرفاكس » من جمود !! ان « هاريت » لتساوى مائة من أمثالها ... وهى كزوجة ، خليقة بأن تكون زوجة رجـــل رقيق الشعور ، وهى أكثر من أن تقدر ، ولست أذكر اسما ، ولكن الســـعيد هـــو من يستعيض عن « اما » بهاريت ! »

الفصل الثاني والثلاثون

شاهد الناس « مستر التن » لأول مرة فى الكنيسة ، وقد ينصرف الناس عن التعبد الى التطلع اليها ، ولكن حب الاستطلاع فيهم لن تروى غلته بنظرات تختلس نحو عروس تجلس فى أحد مقاعد الكنيسة ومن ثم كان لابد من أن يرجئوا ذلك الى زيارات يقومون بها حتى يحكموا اذا كانت حقا جميلة جدا ، أم أن بها بعض الجمال ، أو أنها ليست لها مسحة من الجمال اطلاقا .

واستقر رأى « اما » على ألا تكون آخر من يقوم بالتهنئة ، بدافع من الكبرياء واللياقة أكثر منه حبا للاستطلاع . ورأت أن تصطحب «هاريت» معها ، كى تعجل ما أمكنها بالانتهاء من هذه المهمة الشاقة ، اذ لم يكن فى وسعها أن تدخل بيته ثانية ، وأن تجلس فى نفس الحجرة التى لجأت اليها منذ ثلاثة شهور ، متظاهرة بحجة كاذبة ، هي اصلاح رباط حذائها ، دون أن تستعيد ذكريات الماضى ، ودون أن تعاودها ألف فكرة مؤلمة ... عبارات المديح ، الأحاجى « الفوازير » والأخطاء الشنيعة .

وما كان لها أن تظن أن « هاريت » المسكينة لن تذكر هى الأخرى شيئا مما مضى . ومع ذلك فقد سلكت « هاريت » مسلكا حميدا ، وان ظلت صامتة شاحبة خلال الزيارة . لقد كانت بطبيعة الحال زيارة قصيرة ، فقد كان هناك الكثير مما يشغل بال « اما » ، والكثير من الحرج الذى يثقل عليها ويساعد على سرعة الانتهاء من هذه الزيارة ، الى حد لم تستطع « اما » معه أن تكون فكرة عن العروس ، أو تتحدث عنها بأكثر من

العبارات التى لا تنطوى على أى معنى ، من أمثال « انها أنيقة » أو « انها لطيفة » .

أما فى الواقع فانها لم تعجب « اما » واذا كانت « اما » لم تر أن تتعجل فى اظهار عيوبها ، فقد شكت فى أن يكون لها أى قسط من الرشاقة، وقد تكون فيها نعومة ، ولكنها لا حظ لها من الرشاقة ، بل لقد جزمت بأن نعومتها كانت أكثر مما ينبغى لشابة غريبة وعروس فى الوقت نفسه . لقد كان قوامها لا بأس به ، ووجهها لم يكن قبيحا ، ولكن تقاسيم وجهها، ومظهرها وصوتها ، ومسلكها مع الناس ، كلها كانت بعيدة عن الرشاقة . هذا على الأقل ماكانت « اما » تتوقع أن تكون عليه .

أما « مستر التن » نفسه فلم يكن واضحا فى سلوكه ، ولكن لا ، انها لا تحب أن تتعجل بابداء رأيها فى مسلكه بكلمة سريعة ، فضلا عن أن استقبال الزائرين الذين يأتون للتهنئة بالزواج ، فى أى وقت من أوقات النهار أو الليل ، هو شىء محرج فى ذاته ، يحتاج فيه الرجل الى كثير من الكياسة لكى يجتازه فى يسر ، أما المرأة فهى أحسن وضعا فى ذلك من الرجل ، فلها من حسن هندامها ، ومن خفرها ، ما يعينها ، فى حين أنالرجل ليس له الا حسن ادراكه ليعتمد عليه .

ولما راعت « اما » كيف لازم النحس « مستر التن » المسكين حتى جمعه فى حجرة واحدة وفى وقت واحد مع من تزوجها حديثا ، ومن كان يريد زواجها ، ومن كان ينتظر منه أن يتزوجها ... أدركت أن من حقه أن يبدو أقل حكمة وأكثر تكلفا ، وأقل ما يمكن هدوءا .

وقالت « هاريت » وهى تتنهد فى رفق ، بعد أن غادرتا البيت ، وبعد أن انتظرت عبثا لتبدأ صديقتها بالكلام :

« أجل يا « مس وود هاوس » ، ما رأيك فيها ؟ أليست خلابة للغاية ؟

وترددت « اما » بعض الشىء فى الرد ثم قالت :

« نعم — للغاية — انها شابة لطيفة جدا »

« أظنها جميلة ، وجميلة تماما »

« انها ولا شك حسنة الهندام جدا ، والفستان رائع »

« لا يدهشنى أبدا أنه وقع فى شباك حبها »

« لا ، لا ، فليس هناك مايدعو الانسان لِلدهشة : ثروة لا بأس بها ، ثم صادفته فى طريقه »

وردت « هاريت » تقول وهى تتنهد ثانية :

« أظن أنها أحبته من كل قلبها »

« ربما كان الأمر كذلك ، ولكن ليس حتما أن يتزوج كل امرىء بمن هى أكثر الناس تعلقا به . ولكن « مس هوكنز » كانت تود أن يكون لها بيتها ، ورأت هذا أحسن عرض يمكن أن يتقدم به أحد اليها »

وقالت « هاريت » وهى جادة :

« أجل ، وخيرا فعلت ، فلن يتسنى لأحد أن يظفر بأحسن من ذلك ، وانى أود لهما السعادة من كل قلبى ، ولست أرى الآن يا « مس وود هاوس » أنى سوف أهتم بزيارتهما مرة أخرى . انه رائع كعهدى به، ولكنه وقد تزوج كما ترين فقد تغير الوضع تماما . لا وأيم الحق يا «مس وود هاوس » لا تخشى شيئا ، وبوسعى أن أجلس الآن وأبدى اعجابى به ، ولا ينتابنى من وراء ذلك بؤس كبير ، وانه لعزاء جميل لى أن أعلم بأنه قد أحسن الاختيار ولم يخطىء، فهى تبدو شابة جميلة ، وهو جدير بها تماماً . ما أسعدها من مخلوقة !! لقد كان يناديها « أوجستا » ، ما أبهج ذلك ! »

وعندما ردت العروس الزيارة ، صممت « اما » على استجلاء حقيقتها ، فهى سوف تراها الآن مدة أطول ، ويكون حكمها عليها أدق . وقد أتيحت

« لاما » بالفعل خمس عشرة دقيقة انفردت خلالها بالحديث مع هـــذه السيدة . فقد تصادف أن تغيبت « هاريت » عن « هارتفيلد » ، فى حين انشغل والدها بالحديث مع « مستر التن » ، فتمكنت من أن تستمع اليها فى هدوء ، واقتنعت كل الاقتناع فى خلال هذه الفترة بأن « مسز التن » امرأة مغرورة ، راضية عن نفسها كل الرضى ، وأنهـــا تبالغ فى تقـدير أهميتها ، لا يعنيها الا أن تبدو متألقة ، وأن تستعلى على الجميع ، وبطريقة لا بد أن تكون قد اكتسبتها فى مدرسة سيئة . فكانت جريئة فى قحة ، تميل الى رفع الكلفة ، وتستقى أفكارها من أناس على شاكلة واحدة ولهم أسلوب واحـد فى الحياة . وهى ليست غبيـة ولكنها جاهلة ، ولن يفيد « مستر التن » من معاشرتها .

فلو أنه تزوج من « هاريت » لكان هذا أفضل له وأزكى ، فهى اذا لم تكن عاقلة أو مهذبة : فقد كانت متصـلة بمن يتوافر فيهم الذكاء ودماثة الخلق ، ولكن أقرب مايظن المرء فى « مس هوكنز » من ظواهر خيلائها ، أنها كانت أحسن من فى وسطها . ولقد كان زوج أختها الثرى ، المقيم قرب « برستول » موضع فخار العائلة ، بقدر ماكان بيته وعربته موضع فخاره.

وبالفعل كان أول موضوع تحدثت فيه بعد أن جلست الى « اما » ، هو موضوع « ماپل جروف » ، مقر أخى مستر « سكلنج » ، وتلته مقارنة بين « هارتفيلـد » و « ماپل جـروف » ، لاحظت خـــلالها أن مروج «هارتفيلد» وحدائقها صغيرة ، ولكنها منسقة ولطيفة ، وأن البيت عصرى وجميل البناء . ويبدو أن « مسز التن » أعجبت أيما اعجاب بالحجـرة الفسيحة ، وبالمدخل ، وبكل ما وقع عليـــه نظرها ، أو جال بخاطرها . فكانت تقول :

« ما أشبه هذا أو ذاك ، بما فى « ماپل جروف » !! لقد راعنى مابين

البيتين من تشابه ، فهذه الحجرة فى شكلها واتساعها مثل حجرة الجلوس فى « مايل جروف » تماما ، وهى أحب حجرة لدى أختى » ، ثم سـألت « مستر التن » : « ألا تشبهها بدرجة مدهشة بل انها لتكاد تتخيل نفسها فى « مايل جروف » .

واستطردت : « ثم السلم ، ثق أنى عندما دخلت لاحظت أنه يشبه السلم هناك ، ومكانه فى نفس المكان فى المنزلين ، والحق أنى لم أتمالك نفسى من الدهشــة ، وأؤكد لك يا « مس وود هاوس » أن من دواعى سرورى العظيم ، أن أجد هنا مايذكرنى بمكان له فى نفسى منزلة عظيمة مثل « مايل جروف » فكم من شهور أمضيتها هناك وأنا سعيدة !! »

(وتنهدت نهدة صغيرة فيها عاطفة) ثم قالت :

« ان مايل جروف ولا شك مكان بهيج ، وكل من يراه لابد يؤخـذ بجماله . لقد كان بمثابة موطن لى تماما ، وأنت يا « مس وود هاوس » لن تشعرى بالفرحة عند رؤية شىء يشبه شيئا خلفتيه وراءك ، الا اذا نقلت مثلى فى موطنك الى مكان آخر ، ولطالما قلت ان هــذا الشعور هو أحد مساوىء الزواج »

وقللت « اما » من ردودها ما وسعها ذلك ، فكان فى ذلك ما يرضى « مسز التن » ، فقد كانت تميل الى الاستئثار بالحديث وحدها .

« نعم ، ما أعظــم الشبه « بمايل جروف » ، وأؤكد لك أن الشــبه لا يقتصر على البيت وحده ، ولكنه كما لاحظت يشمل المروج بدرجــة مدهشة ، بل وأشجار الغار فى « مايل جروف » مثل ماهى عليه هنا أيضا من الكثرة ، وفى نفس الوضع ، بعرض المروج . ولقد لمحت دوحة جميلة تحيط بها صفة ، جعلتنى أتذكر مثيلتها فى « مايل جروف » ، ان هــذا المكان سوف يأخذ بلب أخى وأختى ، فليس غير من عندهم مروج مترامية الأطراف يسرهم أن يروا شيئا على نفس النمط »

ولم تأخذ « اما » بصحة تلك الفكرة ، لأنها كانت تؤمن بأن أولئك الذين لهم مروج فسيحة قلما يهتمون بها عند غيرهم من مروج ، ولكنها لم تر فائدة أن تهاجم سقطة مزدوجة كهذه ، واكتفت بأن تقول :

« أخشى بعد أن ترى الكثير من هذه الجهة أن تظنى بأنك أسرفت فى الحديث عن محاسن « هارتفيلد » . ان « سرى » مليئة بالمناظر الجميلة »

« أجل ، انى أعلم ذلك كل العلم ، فهى بحق حديقة انجلترا وروضتها اليانعة »

« نعم ، ولكن لا ينبغى لنا أن نقيم حججنا على هذا الاعتبار وحده ، وأظن أن هناك جهات كثيرة يسميها الناس روضة انجلترا مثل « سرى » .

وأجابتها « مسز التن » فى ابتسامة المقتنعة :

« لا ، لا أظن ، وما سمعت أبدا بأن اقليما غير « سرى » يسمى بهذا الاسم »

وكفت « اما » عن الكلام .

وواصلت « مسز التن » الحديث :

« لقد وعدنى أخى وكذلك أختى بأن يزورانا فى الربيع أو الصيف على الأكثر ، فهذا هو الوقت الذى تتجول فيه لارتياد الأماكن المختلفة ، ولا شك فى أننا سنرتاد جهات كثيرة عندما يحضران ، وستكون معهما بطبيعة الحال « بروشتهم » (عربتهم) ، وهى تتسع لأربعة أشخاص فى راحة كاملة ، وبذلك ، وبصرف النظر عن عربتنا ، سيمكننا أن نرتاد مواطن الجمال المختلفة بمنتهى السهولة ، وأظن أن من الصعب عليهما أن يأتيا فى عربتهما الصغيرة فى ذلك الفصل من السنة ، ومن ثم فسأوصيهما عندما يقترب الوقت بأن يحضرا بالبروشة ، فهى أفضل بكثير ، وأنت تعلمين يا « مسز وود هاوس » أن الانسان يود حين يأتى بعض الناس الى قرية

جميلة كهـذه ، أن يريهم كل ما يمكن رؤيته . و « مستر سكلنج » مولع بالتجول وارتياد الأماكن ، ولقد خرجنا مرتين فى فصـل الصيف الماضى لنجوب « كنجز وستن » بنفس الأسلوب ، على أثر ابتيـاع البروشـة مباشرة ، وكم كان هذا بهيجا !! أظن يا « مس وود هاوس » ان جماعات كثيرة من السياح تأتى الى هنا كل صيف ؟ »

« لا ، فهم لا يأتون الى هذا المكان بالذات ، فنحن بعيدون هنا عن مواطن الجمال التى تجتذب مثل هـذا النوع من النـاس الذين تتحدثين عنهم ، ونحن قوم طبيعتنا الهدوء ، وأعتقـد أننـا أميـل مانكون الى الاستقرار فى البيت من أن تشغلنا مشاريع الاستمتاع »

« حقـا ، فليس هناك ما يعـدل الاستقرار فى البيت ابتغـاء الراحة الحقيقية ، وما من واحدة تتعلق ببيتها أكثر منى ، بل لقـد كنت فى ذلك مضرب الأمثال فى « مايل جروف » ، فكم من مرة قالت « سيلينا » وهى ذاهبة الى « برستول » :

« لا قبل لى بتحريك هذه الفتاة من البيت ، ولا بد لى من الذهاب بمفردى رغم أنى أكره أن أكون فى البروشة بغير رفيق ، أنا واثقة من أن « أوجستا » لن تبرح سياج الحديقة برغبتها » .

كم من مرة قالت ذلك ، ومع ذلك فأنى لست من محبذى العزلة التامة، فأنا أعتقد على النقيض من ذلك أن احتجاب الناس وعـدم اختـلاطهم بالجماعات شىء ممقوت للغاية ، وأنه أحرى بهم أن يختلطوا بدرجة معقولة دون اسراف أو اقـلال . انى أقدر موقفك تمـاما ، ومع ذلك يا « مس وود هاوس » (موجهة نظرها نحـو مستر وود هاوس) لابد أن تكون حالة والدك الصحية عائقا كبيرا ، فلماذا اذن لا يجرب الذهاب الى «باث»؟ نعم يجب أن يجرب الذهاب اليهـا ولا شك . انى أوصيك « بباث »

وأؤكد لك أنه لا يساورني شك في أن « مستر وود هاوس » سيفيد منها كثيرا »

« لقد جربها والدى قبل ذلك أكثر من مرة ، ولكنه لم يفد منها أبدا ، وان مستر « پرى » الذى أظن أنك لا تجهلين اسمه ، لم يعد يرى أنها قد تأتي بأية فائدة له »

« عجبا ! ان هذا لمما يدعو الى عظيم الأسف ، لأنى أؤكد لك يا « مس وود هاوس» بأن المياه اذا كانت تتفق مع الشخص فانها تقضى على علته بطريقة مدهشة . وقد رأيت في المدة التى قضيتها في « باث » أمثلة عجيبة على ذلك ، وهى مكان بهيج ، ولابد أن « مستر وود هاوس » سيجد فيه ما يشرح صدره ، ويزيل عنه انقباضه ، وهو كما أعلم ينتابه الانقباض أحيانا بدرجة كبيرة ، أما عن شخصك أنت فيخيل الى أنى لست في حاجة الى توكيد فوائدها لك فأن « باث » لها من المنافع للشباب ماهو معروف للناس جميعا ، وستجدين فيها ، وقد عشت حياتك في عزلة ، مجالا لطيفا للتعارف ، وفي وسعى أن أعرفك ببعض العائلات الكريمة هناك ، وان سطرا واحدا منى سيجمع حولك حشدا من المعارف . ان صديقتى الحميمة « مسز پاتردج » وهى التى كنت أقيم معها طوال مدة وجودى في «باث»، يسرها غاية السرور أن تعنى بك ، وستكون أنسب من يرافقك الى المجتمعات »

لقد كان في هذا ما يكفي ، مما يمكن أن تحتمله « اما » دون أن تخرج على حدود الأدب . ثم فكرة أنها سوف تكون مدينة « لمسز التن » بما تعارف الناس على تسميته « التقديم » وأن اختلاطها بالمجتمعات سيكون تحت رعاية صديقتها التى قد لا تعدو أن تكون أرملة جريئة من السوقة ، تكسب أودها ممن ينزلون عندها من السكان . لقد حط ذلك من كرامة

« مس وود هاوس » وأنقص من قدر سليلة بيت هارتفيلد ولا شك

وكبحت « اما » جماحها عن الرد عليها بما كانت تستطيع أن ترد عليها به ، وأن تضمنه كل ما تحصه فى نفسها من لوم وتقريع ، واكتفت بشكرها فى فتور ، وأن تقول لها :

« أما مسألة ذهابنا الى « باث » فهى خارجة عن نطاق البحث ، وأنها لا تدرى ، فقد يكون هذا المكان لا يتفق معها ، كما لم يتفق مع أبيها ، ثم حولت مجرى الحديث لكى تتجنب كل ما من شأنه أن يثير النفوس ، أو يحط من الكرامة فقالت :

« لم أسألك يا « مسز التن » اذا كنت بارعة فى الموسيقى ، فأن سمعة السيدة فى هذه المسائل تسبقها عادة ، وطالما بلغ أهالى « هايبرى » أنك رائعة فى العزف »

« لا ، أبدا ، ولا يسعنى الا أن أحتج على هذه الفكرة ، عازفة رائعة!! أؤكد لك أنى بعيدة عن هذا كل البعد . أية جهة متحيزة تلك التى استقيت منها معلوماتك ؟ انى مولعة بالموسيقى حقا ، شغوفة بها كل الشغف ، ويقول أصدقائى بأنى لا أعدم الذوق الموسيقى أما ماعدا ذلك ، فأنى أقسم بشرفى أن عزفى عادى بكل مافى هذه الكلمة من معنى ، وأنا أعلم تماما بأنك تجيدين العزف يا « مس وود هاوس » ، وأؤكد لك بأنه كان من دواعى سعادتى وراحتى وسرورى ، ما وصل الى سمعى بأنى سأكون فى وسط موسيقى ، فأنا لا أستطيع أن أستغنى عن الموسيقى ، فهى عندى من ضرورات الحياة . ونظرا لاختلاطى الدائم بالأوساط الموسيقية فى « مايل جروف » وفى « باث » على السواء ، فأن مجيئى هنا كان يكون تضحية كبيرة ، بل لقد قلت مثل هذا صراحة لمستر « التن » عندما كان يتحدث عن بيتنا المنتظر ، ويبدى مخاوفه من أن يكون الانزواء فيه

لا يرضينى ، ومن أن يكون بيتنا دون مستوى بيتى ، لعلمه بما اعتدت عليه ... ولا شك أنه لم يخل من مخاوف فى هذا الصدد ، وعنـدما كان يتحدث بتلك الطريقة ، قلت له مخلصة ، بأن كل مافى الوجود لا يعنينى ، من مجتمعات وحفلات راقصة ومسرحيـات . وذلك لأنى لا أخشى على نفسى من العزلة ولأن لى من الوسائل الكثيرة ما يجعلنى فى غنى عن العالم، بل قد أعيش سعيدة بدون هـــذا كله . أما أولئـك الذين حرموا تلك الوسائل ، فلهم شأن آخر لأن ماعندى من الموارد يجعلنى أعتمـد على نفسى . أما تلك الحجرات الصغيرة التى هى دون ما اعتدته ، فأمر لا يشغل بالى ، وآمل فى نفسى أن أكون كفؤا لمثل هذه التضحية . ومما لا شـك فيه ، أننى اعتدت كل أنواع النعيم والراحة فى « ماپل جروف » ، ولكنى أكدت له بأنه لا ضرورة لعربتين ، ولا لحجرات فسيحة لكى أكون سعيدة، ولكنى مـع ذلك قلت له انى لا أظن نفسى قادرة على أن أعيش دون أن أكون فى وسط موسيقى ، ولا شرط لى غير هذا ، لأن حياتى بغير الموسيقى تصبح فراغا لا نهاية له »

وقالت « اما » : « لا نعتقد أن « مستر التن » يتردد فى أن يكفل لك وسطا موسيقيا عظيما فى « هايبرى » ، وأرجو ألا تجديه قد تجاوز حدود الصدق بأكثر مما يمكن الصفح عنه اذا ما روعى الدافع الى ذلك »

« لا ، ولست أشك فى شىء أبدا من هذه الناحية ، وانى لسعيدة بأن أجد نفسى فى وسط كهذا ، وآمل أن تجمعنا حفلات موسيقية بسيطة لطيفة متعددة ، بل ظنى أن من واجبنا يا « مس وود هاوس » أن نؤسس ناديا للموسيقى وأن نلتقى أسبوعيا بانتظام فى داركم أو فى دارنا . أليست هذه فكرة طيبة ؟ ولو أننا بذلنا جهدنا ، فلا أظن أنه سيمضى وقت طويل دون أن نجد من ينتظم فى جماعتنا ، وان شيئا كهذا سيلائم رغبتى أنا خاصة

لأنه سيشجعنى على التدرب على العزف . وهناك كما تعلمين أقاويل يؤسف لها عن المتزوجات ، ذلك أنهن ينزعن الى اهمال الموسيقى »

« ولكنك من المؤكد فى مأمن من هذا ، فأنت مولعة بالموسيقى »

« أرجو ألا أقع فى هذا المحظور ، ولكنى عندما أنظر الى من حولى من المعارف أشعر برجفة ، وها هى « سيلينا » قد تركت الموسيقى كلية حتى أصبحت أناملها لا تلمس البيانو أبدا ، على الرغم من أنها كانت تجيد العزف يوما ما . كذلك كان الحال مع « مسز چفريز » أو « كلارا پارتردچ » كما كان اسمها قبل الزواج ، والأختين « ميلمان » واسمهما الآن « مسز بيرد » و « مسز چيمز كوپر » ، وكثيرات غيرهن ، لا عداد لهن ، وأقسم لك بأن هذا كاف لأن يلقى الذعر فى قلبى ، وكثيرا ماأغضبنى ذلك من « سيلينا » ، ولكنى بدأت الآن أفهم تماما أن المتزوجة أمامها أشياء كثيرة تتطلب عنايتها ، وها أنا ذا قد قضيت نصف ساعة صباح اليوم وأنا سجينة مع المشرفة على ادارة بيتى »

وقالت « اما » : « ولكن كل شىء من هذا القبيل سوف يسير قريبا فى نظام رتيب »

وقالت « مسز التن » ضاحكة : « أجل ، سنرى »

ولما وجدت « اما » أنها مصممة على ترك الموسيقى ، لم تقل لها أكثر مما قالت ، واختارت « مسز التن » بعد لحظة موضوعا آخر للحديث فقالت :

« لقد كنا فى زيارة لبيت « راندولز » ووجدنا الاثنين هناك ، ويبدو أنهما فى غاية الظرف ، وقد أحببتهما للغاية ، ويخيل الى أن «مستر وستن» رجل ممتاز ، وأؤكد لك أنه أصبح الآن أول أصفيائى ، وهى كذلك طيبة فعلا ، فيها شىء من الأمومة ورقة القلب ، ولذا جذبتنى اليها فى الحال ، أظنها كانت مربيتك ؟ »

وعقدت الدهشة لسان « اما » فلم تحر جوابا ، ولكن « مسز التن » واصلت الحديث دون انتظار لرد من « اما » فقالت :

« ولما علمت بهذا ، أدهشنى أنى وجـدتها تشبه كرائم السيدات فى مسلكها . على أنها مع ذلك سيدة فاضلة حقا »

وقالت « اما » : « ان « مسز وستن » كانت تمتاز دائما بدماثة الخلق، وان فيها من الكياسة والبساطة والظرف ما يجعل منها انموذجا صالحا لأية شـــابة »

« ومن تظنينه حضر فى أثناء وجودنا هناك ؟ »

فارتبكت « اما » لأن النغمة التى تكلمت بها أوحت بأنه أحد المعارف القدامى . وأنى لها أن ترجم بالغيب » ؟ .

وواصلت « مسز التن » حديثها تقول :

« نيتلى » انه « نيتلى » نفسه ، ألم يكن ذلك من حسن الحظ ؟ ذلك لأننا لم نكن بالمنزل عندما جاء لزيارتنا فى اليوم السابق ، وكنت لم أره من قبل . وبما أنه كان من خواص أصدقاء « مستر التن » فقد كنت أتطلع كثيرا الى رؤيته ، وكثيرا ما سمعته يتحدث عنه فيقول : « صديقى « نيتلى » حتى أصبحت أتشوق الى رؤيته . ومن العدل لزوجى العزيز أن أقول انه ليس بالصديق الذى يخجل منه .

« فنيتلى » أشبه بالسادة تماما ، وانى أشعر نحوه بعظيم المودة ، ولا ريب أنى أراه أشبه ما يكون بالسادة » .

ولحسن الحظ كان قد آن وقت الأنصراف ، فخرجا ، هى وزوجها ، وتنفست « اما » الصعداء .

وقالت فى دهشة على الفور : « يا لها من امرأة لا تطاق » انها أسوأ مما كنت أنتظر ، فهى لا تحتمل أبدا . « نيتلى » ! ما كنت لأصدق هذا ،

« نيتلى » حقا — انها لم تره قبلا ثم هى تدعوه « نيتلى » ، وتكتشف انه من السادة !! بل هى التى من العامة حديثات النعمة ، ثم هى تدعو زوجها مستر « ا » ؛ وتتحدث عنه ، بزوجها العزيز ، ثم حديثها عن ثروتها ، ومظهرها ، وصفاقتها ، ورقتها المصطنعة التى تخفى وراءها وضاعة الأصل، ثم اكتشافها بأن « مستر نيتلى » من السادة حقيقة . ولعمرى هل سيرد لها التحية بأحسن منها ، ويكتشف بأنها من كرائم السيدات كذلك . حقا ما كنت لأصدق شيئا من ذلك ، ثم اقتراحها بأن أشترك معها لنكون ناديا للموسيقى !!

ويحى !! قد يتبادر للرائى أننا صديقتان حميمتان !! والأدهى والأمر كلامها عن « مسز وستن » ، ودهشتها من أن التى تعهدت بتربيتى من كرائم السيدات !! انى لم أر فى حياتى مثيلا لهذه المرأة ، وهى أكثر مما كنت أنتظر ، وانه لمن العار أن نقارن « هاريت » بها . ترى ماذا عسى أن يقول « فرانك تشرشل » لها لو كان هنا ؟ ما أعظم ما كان يثير هذا من غضبه ويغير من رأيه !! ولكن عجبا لى !! ها أنا ذا أفكر فيه وفى شخصه مرة أخرى ، انه على الدوام أول من أفكر فيه ، هاقد ضبطت نفسى متلبسة .. ان « فرانك تشرشل » يخطر ببالى بغير انقطاع » .

ومرت تلك الأفكار فى خاطرها سريعا حتى أن والدها وقد استجمع على استعداد للكلام ، وكانت هى قد استعدت للاستماع اليه .

وبدأ يقول فى تؤدة : « أجل ياعزيزتى ، لوراعينا أننا لم نرها من قبل ، لتبين لنا أنها شابة لطيفة جدا ، وظنى أنها سرت بك كثيرا ، وهى تسرع فى الحديث بعض الشىء ، وارتفاع صوتها مع سرعة كلامها يؤلم الأسماع ، ولكنى شديد التدقيق ، وأكره الأصوات الغريبة ، ولست

أجد أحدا يتكلم مثلك ، ولا مثل « مس تيلور » الوديعة ، ومع هذا فهى تبدو شابة فاضلة كريمة الخلق ، ولا ريب أنه سيجد فيها مثال الزوجة العظيمة ، رغم ظنى بأنه كان من الخير له ألا يتزوج ، ولقد قدمت له ما وسعنى من المعاذير لعدم تمكنى من زيارته هو وزوجته فى هذه المناسبة السعيدة ، وقلت له انى آمل أن أقوم بواجب هذه الزيارة فى فترة الصيف . لقد كان من الواجب أن أذهب قبل ذلك ، فأن عدم المبادرة بزيارة العروس من قلة الذوق ، وهى برهان على أنى مريض بائس غير أنى أكره ذلك الدوران المؤدى الى زقاق الأبرشية » .

« أظن يا سيدى أن أعذارك حازت القبول . ومستر « التن » أدرى بحالتك » .

« أجل ، ولكنها سيدة شابة ، ثم هى كذلك عروس ، وكان من واجبى أن أؤدى لها واجب الاحترام ، ولكنى قصرت فى ذلك أيما تقصير » .

« ولكنك يا والدى العزيز ضد الزواج ، فلماذا اذن تتوق هكذا الى أداء واجب الاحترام للعروس ؟ ان هذا لا يشفع لمبادئك ، فلو أنت أوليتهما عظيم اهتمامك كان معنى ذلك تشجيعك على الزواج » .

« لا ياعزيزتى ، انى لم أشجع أبدا أى انسان على الزواج ولكنى أود دائما أن أوجه للسيدة كل ما هو لائق بها من الاهتمام ، وخاصة العروس ، التى لا يجوز اهمالها أبدا ، ومن حقها أن تلقى كل عناية ؛ ثم ان العروس كما تعلمين يا عزيزتى يجب أن تأتى دائما فى المقدمة ، ثم يليها غيرها مهما عظم شأنهم » .

« ما هذا يا والدى ؟ فاذا لم يكن هذا تشجيعا على الزواج فلست أدرى ما هو التشجيع ؟ وما كنت أنتظر منك أبدا أن توافق على استدراج الشابات البائسات عن طريق الالتجاء الى غرورهن »

« انك لاتفهمينني ياعزيزتي ، وليس هذا الا مراعاة مني للآداب العامة ومقتضيات النشأة الطيبة ، ولا شأن له بتشجيع الناس على الزواج » .

وسكتت « اما » وأخذت أعصاب والدها تزدادتوترا ، فلم يعد يقوى على فهم مرادها . وعادت تفكر فى اساءات « مستر التن » التى ظلت تشغل بالها وقتا طويلا .

الفصل الثالث والثلاثون

لم تكن « اما » بحاجة الى اكتشاف شيء بعد هذا لتغير من فكرتها السيئة عن « مسز التن » فقد ظلت فكرتها الأولى ثابتة لا تتغير ، سواء بعد أن قابلتها فى المرة الثانية أو فى كل مرة أخرى قابلتها فيها بعد ذلك ، فقد وجدتها هى هى : مغرورة دعية ، متطفلة ، جاهلة ، لم تنشأ نشأة طيبة ، حظها من الجمال كحظها من الثقافة ضئيل ، وقدرتها على الحكم على الأشياء من الضعف بحيث جعلتها تتخيل أنها أتت اليهم مزودة بمعلومات واسعة عن الدنيا وما فيها لكى تبعث الحياة والنشاط فى القرية وما حولها ، وأن « مس هوكنز » كانت لها منزلة قبل الزواج لا تعلوها الا منزلتها بعد أن أصبحت « مسز التن » .

ولم يكن هناك ما يحمل « اما » على الظن بأن « مستر التن » كان يرى فى زوجته غير ما كانت تظنه هى فى نفسها ، فهو لم يكن سعيدا بها فحسب ، بل كان فخورا بها كذلك يدل مظهره على الامتنان لما كان له من حظ الظفر بسيدة كهذه يأتى بها الى « هايبرى » ، سيدة لم تكن حتى « اما » نفسها لتتساوى معها .

أما معظم معارفها الجدد فقد كانوا يميلون الى امتداحها أو على الأقل يسيرون على منوال « مس بيتس » طيبة القلب ، حين لم يجدوا فى أنفسهم القدرة على الحكم عليها ، فيسلمون جدلا بأن العروس لابد أن تكون ذكية ولطيفة ، كما تقول هى عن نفسها . ولهذا حازت من لدنهم كل الرضى ، وأصبحت ألسنة الجميع تلهج بالثناء عليها لا يثنيهم رأى « مس

وود هاوس » التى ظلت تتمسك بما قالته عنها أول الأمر ، حين وصفتها بأنها ظريفة جدا وفى غاية الأناقة »

بل لقد جد ما جعل « مسز التن » تبدو أسوأ مما ظهرت عليه قبلا ، بعد أن تغيرت مشاعرها نحو « اما » ولعل مرد ذلك ما شعرت به من مهانة بسبب مالقيته اقتراحاتها لتوطيد الألفة والمودة بينها وبين « اما » من تشجيع فاتر ، مما جعلها تتراجع بدورها وتنقلب شيئا فشيئا أكثر فتورا وتباعدا . وعلى الرغم مما كان لهذا من أثر محمود فى نفس « اما » ، فقد كان الشعور السيىء الذى ولده هذا الموقف ، سببا فى زيادة كراهية « اما » لها .

وزاد من هذه الكراهية مسلكها ، ومسلك « مستر التن » كذلك من « هاريت » ، وهو مسلك كان ينطوى على الاستخفاف والاهمال . واذا كانت « اما » رأت فى هذا السلوك من جانبهما ما يرجى أن يكون عاملا على سرعة خلاص « هاريت » ، مما ألم بها ، فان المشاعر التى دفعتهما الى سلوك مثل هذا المسلك ، نزلت بهما فى تقدير « اما » الى الحضيض . فلم يعد هناك مجال للشك فى أن حب « هاريت » المسكينة كان مجالا للزوجين كى يطلقا العنان لمزاجهما وسخريتهما ، ولعل نصيبها هى نفسها من تلك القصة كان كذلك موضعا لمزاحهما فى غير رادع ، بعد أن أضفيا عليه بطبيعة الحال لونا فيه اجحاف بها وتسلية لهما ، اذ لابد أنها كانت موضع الكراهية منهما معا . وقد كان من السهل عليهما دائما ، اذا لم يعد لهما مايتحدثان فيه ، أن يأخذا فى تناول « مس وود هاوس » بالاساءة وأن ينفثا ما فى صدريهما من عداوة لم يجدا فى نفسيهما الجرأة على الافصاح عنها بالتحقير السافر ، فانقلبا يظهرانها عن طريق معاملة « هاريت » بالازدراء المكشوف .

وتعلقت « مسز التن » فى الوقت « بچين فيرفاكس » تعلقا شديدا من البداية ، ولم يكن ذلك تفضيلا منها لواحدة على واحدة كما يظن اذا كانت هناك خصومة مع الأخرى ، بل كان ميلها اليها منذ اللحظة الأولى ، فلم تقنع باظهار اعجابها بها بطريقة طبيعية معقولة ، بل اندفعت تبدى رغبتها فى مصادقتها والأخذ بيدها فى غير الحاف أو رجاء ، وفى غير مقابل . وعلمت « اما » بذلك قبل أن تفقد ثقتها ، حين التقت بها للمرة الثالثة وسمعتها تقول :

« ان « چين فيرفاكس » ظريفة للغاية يا « مس وود هاوس » انى أحبها حبا شديدا ، فهى لطيفة محببة الى النفس بقدر ما هى وديعة مهذبة ، ثم ما أعظم مواهبها !! بل انى أعتقد أن لها مواهب خارقة ، ولست أشك فى أنها تعزف ببراعة ، فلى من الدراية بالموسيقى ما يكفى لأن أبدى فى ذلك رأيا قاطعا . كم هى ظريفة حقا .. ستضحكين لتحمسى ، ولكنى أؤكد لك بأنه لا حديث لى الا عن « چين فيرفاكس » ، وما لها من تأثير فى النفوس بسبب وضعها ، فلابد لنا يا « مس وود هاوس » من أن نبذل جهدنا ، وأن نحاول القيام بشىء من أجلها ، يجب أن نبرزها ، اذ لا يجوز أن تظل مواهبها مجهولة ، وأعتقد أنك سمعت بتلك الأبيات الجميلة من الشعر :

كم زهرة بين الرمال	أو فوق رابية التلال
لم تدر عينى أنها	فى الحسن كاملة الجمال
وأريجها كجمالها الـ	ـمدفون ، مجهول المآل
ذهبت به ريح الصحا	رى بين طيات الزوال

نعم ، لا يجوز لنا أن نجعل هذا الشعر ينطبق على « چين فيرفاكس » الحبيبة »

وردت « اما » تقول فى هدوء : « لا أظن أن هناك ضررا من هذا ، وعندما تصبحين أكثر معرفة بحالة « مس فيرفاكس » وتدركين كيف كانت تقيم فى بيت المقدم « كامبيل » وزوجته ، فلست أرى أنه سيخامرك أى شك يجعلك تفترضين أن مواهبها كانت مجهولة »

« عجبا يا « مس وود هاوس » !! ولكنها الآن فى عزلة ، ولا علم لأحد بها ، وكأنها من سقط المتاع ، ولقد أصبح غير خاف أن كل ما حظيت به من مكاسب وهى فى أسرة « كامبيل » قد صار الآن فى خبر كان ، وأظن أنها شاعرة بذلك ، بل أؤكد لك أنهـا شـاعرة به . وهى خجولة جدا ، لا تتكلم حتى ليشعر الانسان أنها فى حاجة الى التشجيع . على أن تلك الصفات مما يزيد من محبتى لها ، وانى أصرح بأن ذلك من الصفات التى أمتدحها من أجلها ، لأنى ممن يحبذون الخجل كثيرا ، وأعتقد أن الخجل ليس من الصفات التى يشاهدها الانسان كثيرا ، وهو فى غير الأذلاء صفة مستحبة جدا . انى أؤكد لك أن « جين فيرفاكس » شخصية لطيفة جدا ، وأن حبى لها يفوق الوصف »

« يبدو أن شعورك نحوها فياض ، ولكنى لست أدرى كيف يكون لها منك أو من أحد من معارفها ، أولئـك الذين عرفوها من قبلك ، أى اهتمام أكثر من ... »

« من الممكن يا « مس وود هاوس » أن يقـوم من لهم جرأة على العمل ، بالشىء الكثير ، ولا حاجة بنا أنا وأنت ، أن نخشى من ذلك شيئا ، فلو أننا ضربنا المثل لاقتفى الكثيرون أثرنا على قدر ما فى مكنتهم ، ولو أنهم ليسوا جميعا فى مثل مركزنا ، اذ لدينا عربات تحملها الى بيوتنا ، ولنا فى عيشنا ما لا يجعلنا نشعر بأقل ضيق اذا زاد عددنا واحـدا بوجود « جين فيرفاكس » بيننا فى أى وقت ، وانه ليسوءنى كثيرا اذا ما أعد لنا

« رايت » عشـــاء يجعلنى أشـــعر بالأسف لأنى دعوت آكثر من « چين فيرفاكس » لمشاركتنا فيه ، فليست لى أية فكرة عن مثل هذا الشيء ، ولا يحتمل أن أفكر فيه ، اذ ما راعينا ما نشأت عليه ، ولعل أخطر ما فى ، فيما يتعلق بتدبير المنزل ، هو على نقيض ذلك ، لأنى أعمل الكثير ، ولا أهتم بالأنفاق ، ولعل « مايل جروف » هى مثلى الذى أهتدى به فى ذلك أكثر مما يجب ، فنحن لا نزعم أننا ند لأخى « مستر سكلنج » فى الدخل ، ومع ذلك فانى عقدت العزم على أن أرعى « چين فيرفاكس » ، ومن المؤكد أنى سأستضيفها فى بيتى معظم الأحيان ، وأعرفها بالناس كلما كان ذلك فى امكانى ، وسوف أقيم ندوات موسيقية حتى تستطيع أن تظهر مواهبها، وسنترقب على الدوام وجود وظيفة تلائمـــها ، فان لى معارف كثيرين ، ولذلك لا يخامرنى شك فى أنى سأسمع بعـــد قليـــل عن شيء يناسبها . وسوف أقدمها للمجتمع ولا شك وعلى الأخص لأخى وأختى عنـــــدما يجيئان لزيارتنا ، وأنا واثقة أنهما سيحبانها كثيرا ، وعندما تتعرف بهما قليلا ستذهب عنها مخاوفها كلية ، فليس من طبع أى منهما الا ما يجذب اليـــه القلوب ويحبب فيه الناس . نعم سوف أستضيفها كثيرا خلال وجودهما معى ، وأعتقد أننا سنهيىء لها مقعدا فى « بروشتنا » فى بعض جولاتنا »

وفكرت « اما » : « مسكينة أنت يا « چين فيرفاكس » فأنك ماكنت تستحقين كل هذا !! قد تكونين أخطأت فى حق « مستر دكسون » ، ولكن هذه العقوبة فوق ما تستحقين ، وذلك العطف وتلك الوصاية من « مسز التن » !! وما تقوله وتعيده : « چين فيرفاكس » رباه !! لا تجعلنى أتخيل أنها تجرؤ على الذهاب هنا وهناك وتتحدث عنى بهذا الأسلوب ، ولكنى أقسم بشرفى على أن لسان هـــذه المرأة لا يعرف لاستباحة ســـير الناس حـــدا »

غير أن « اما » لم تعد مضطرة الى الاستماع لمثل هذا التظاهر مرة أخرى ، ولا الى أى شيء من التلميحات التى توجه اليها مستترة وقد نمقت بعبارات ممجوجة : « عزيزتى مس وود هاوس » . فقد تغير مسلك « مسز التن » نحوها بعد ذلك سريعا ، وبقيت « اما » تنعم بالهدوء ، فلا يفرض عليها أن تكون صديقة « مسز التن » المصطفاة ولا أن تكون تحت اشراف « مسز التن » وارشادها . هذه المرأة التى أقامت نفسها نصيرة « لچين فيرفاكس » وحاميتها النشيطة ، فتكتفى بمشاركة الآخرين بوجه عام فى معرفة ما يشعرون به ، وما يفكرون فيه وما يؤدونه من أعمال .

وأخذت « اما » تتأمل فى شيء من الغبطة .

لقد كان امتنان « مس بيتس » للرعاية البادية من « مسز التن » نحو « چين » امتنانا منزها عن المراءاة ، وفى براءة وحماس ، وأصبحت « مسز التن » واحدة من ذوى الفضل فى نظرها .. سيدة غاية فى الظرف ، فيها وداعة ورقة ، تحب وتحب ، فيها من التهذيب والتواضع ما كانت « مسز التن » تود أن يراه الناس جميعا فيها .

ولم يدهش « اما » فى كل ذلك سوى أن « چين فيرفاكس » نفسها قد رضيت بهذه الرعاية ، واحتملت « مسز التن » على نحو ماكان يبدو منها . فلقد وصل الى سمع « اما » انها تخرج للرياضة مع « مستر التن » وزوجته ، وتجالسهما ، وتقضى معهما اليوم بأكمله . لقد كان هذا مما يبعث على الدهشة ، اذ لم تكن تتصور أن « مس فيرفاكس » مع مافيها من حسن الذوق والكبرياء تستطيع أن تتحمل معاشرة أهل بيت راعى « الأبرشية » ومصادقتهم .

وقالت « اما » لنفسها : « انها لغز ، انها غامضة تماما لاختيارها

المكث هنا الشهر تلو الشهر ، وهى تقاسى الحرمان من كل نوع ، ثم هى الآن ترتضى عطف « مسز التن » عليها بما ينطوى عليه ذلك من جرح لمشاعرها . وتحتمل حديثها وما فيه من ايلام ، بدلا من أن تعود الى من كانت فى رحابهم ، وكانوا يغمرونها بخالص حبهم »

لقد جاءت « چين » الى « هايبرى » ، على حد قولها ، على أن تقيم ثلاثة شهور ، وذهبت أسرة « كامپبل » الى أيرلنده لتقضى الشهور الثلاثة فيها ، ولكن « مستر ومسز كامپبل » ، وعدا ابنتهما الآن بالمكث حتى منتصف الصيف على الأقل ، ودعيت « چين » من جديد لتلحق بهما هناك ... أو على حد قول « مس بيتس » ، كانت كل الدعوات تأتى منها ، من الأبنة « مسز دكسون » ، التى كانت تكتب وتلح وتقول :

« لو أن « چين » وافقت على المجىء ، لأعدت الوسائل ، وأرسل الخدم ، وهيىء لها الأصدقاء ، وأزيلت عنها متاعب السفر » ... ولكنها مع ذلك اعتذرت ولم تقبل .

واستنتجت « اما » أنه لابد أن يكون لرفض تلك الدعوة دافع أقوى تطويه فى خبايا نفسها ، وأنها تقاسى تكفيرا عن خطيئة ارتكبتها فى حق نفسها ، أو فى حق أسرة « كامپبل » . انها تكشف عن خوف شديد ، وحيطة بالغة وتصميم أكيد . انها تريد أن تجتمع مع « مستر دكسون » وزوجته ، انه قرار صدر عن شخص ما ولكن لماذا مع ذلك ترضى بأن تكون فى صحبة أسرة « التن » ؟ ان فى هذا لغزا قائما بذاته »

فلما جهرت بما كان يراود فكرها فى تلك الناحية ، وعبرت عن دهشتها أمام القلة من الأصدقاء الذين كانوا يعرفون رأيها فى « مسز التن » ، انبرت لها « مسز وستن » تلتمس لمس « چين » العذر وتقول :

« لسنا نظن يا عزيزتى « اما » بأنها تجد متعة كبيرة فى بيت راعى

الأبرشية ، ولكنه أفضل من المكث فى بيتها دائما . وخالتها طيبة ولكن لابد أن يضيق بها صدر المرء لو لازمها باستمرار ، ثم يجب أن نأخذ فى حسابنا ما تخلت عنه « مس فيرفاكس » ، قبل أن نستقبح منها ماذهبت اليه »

وقال « مستر نيتلى » متحمسا : « صدقت يا « مسز وستن » ، فأن « مس فيرفاكس » ، كأى واحد منا ، قادرة على أن تكون لنفسها فكرة صحيحة عن « مسز التن » ، ولو كان لها الخيار فيمن تخالطه لما اختارتها»، ثم قال وهو يلتفت الى « اما » وعلى ثغره ابتسامة الملامة : « ولكنها تلقى من « مسز التن » رعاية لم ترها من أحد غيرها »

وشعرت « اما » بأن « مسز وستن » قد ألقت اليها بنظرة خاطفة وأنها فى دهشة من تحمسه . ثم أجابت فى الحال وقد احمر وجهها :

« لقد كنت أتصور أن تلك الرعاية من جانب « مسز التن » تحنق « مس فيرفاكس » أكثر مما ترضيها ، وانى قد أتخيل كل شىء الا أن تكون دعوات « مسز التن » مغرية »

وقالت « مسز وستن » : « بل انى لا أعجب اذا كانت « مس فيرفاكس » قد انساقت ، متجاوزة فى ذلك ميولها الخاصة ، الى قبول رعاية « مسز التن » تحت تأثير لهفة خالتها على قبول مجاملات « مسز التن » لها بصدر رحب وفى غير تمهل . وأغلب الظن أنها أقحمت ابنة أختها ودفعتها لأن تكون أكثر ألفة معها مما لو كان الأمر ترك لحسن ادراكها ، هذا عدا رغبتها الطبيعية فى شىء من التغيير فى حياتها » .

وتشوقنا لسماع « مستر نيتلى » يتكلم مرة أخرى ، فقال بعد أن ساد السكون بضع دقائق :

« هناك شىء آخر يجب أن يحسب له حساب ، وهو أن «مسز التن» لا تتحدث مع « مس فيرفاكس » بمثل ما تتحدث به عنها ، وكلنا نعلم

الفرق بين الضمائر : هو ، وهى ، وأنت — فهذا أوضح مافى كلامنا ، وكلنا يشعر بما يخرج عن الآداب المرعيــة فى أحاديثنـا من الأثر ، وهو شىء مغروس فى نفوسنا منذ سن مبكرة ، فنحن لا نقـذف أى انســان بشىء ضايقنا قبل ذلك بساعة ، ونختلف فى احســـاسنا بالأشياء . وعلاوة على ذلك فان « مس فيرفاكس » ترهب « مسز التن » بتفوقها عليها عقـلا وخلقا ، مما يدفع « مسز التن » كمبدأ عام ، الى معاملتها بكل الاحترام الذى يؤهلها له تفوقها ، حين تتقابلان وجها لوجه . ومن الجائز ألا تكون « مسز التن » قد صادفت امرأة من نوع « چين فيرفاكس » فى حياتها من قبل . ومهما أوتيت « مسز التن » من غرور ، فلن يحول ذلك دون اعترافها بضآلتها نسبيا — بالفعل ان لم يكن بالادراك الكافى فى قرارة نفسها »

وقالت « اما » : « انى أعرف رأيك الرفيع فى « چين فيرفاكس »

وكان « هنرى » الصغير يجول فى خاطرها وهى تقول ذلك ، وانتابها فى تلك اللحظة مزيج من الفزع والحنان ، جعلها تتردد فيما عساها تقول بعد ذلك .

فأجابها : « أجل ، وفى وسع كل واحد أن يعرف مقدار رأيى فيها »

وقالت « اما » مسرعة وقد رفعت حاجبيها وحدجته بنظرة ماكرة لم تلبث الا لحظة أو بعض لحظة :

« ومع ذلك فقد كان أحرى بك أن تعرف الجانب الأســوأ من أول الأمر » . ثم زادت فى سرعة كلماتها :

« ومع هذا فقد يصعب عليك أن تدرك عمق هـذا الجانب ، وقـد تدهش يوما لما أنت عليه من اعجاب شديد بها » .

وكان « مستر نيتلى » مكبا على الأزرار السفلى للجيتر الجلدى الذى يرتديه ، وقد احمر وجهه ، اما بسبب مابذله من جهد فى تثبيتها فى عراويها ، واما لسبب آخر ، حين أجاب قائلا :

« عجبا ، أتعنين هذا ؟ ولكنك تأخرت كثـيرا جـدا ، فلقد لمح لى « مستر كول » بذلك منذ ستة أسابيع »

ثم توقف ، وأحست « اما » « بمسز وستن » تضغط على قدمها ولم تدر ماتفعل ، ثم ان هى الا لحظة حتى استطرد يقول :

« لن يحدث شيء من هذا ، بل أؤكد لك أن « مس فيرفاكس » لن ترضى بى لو أنى طلبتها ، وأنا واثق بأنى لن أطلبها »

وقابلت « اما » ضغط صديقتها على قدمها بضغط مثله وصاحت تقول وهى مسرورة :

« انك لست بغرّ يا « مستر نيتلى » ، هذا ما أقوله عنك دائما » .

وبدا وكأنه لا يكاد يسمع قولها ، فقد كان غارقا فى بحر من الأفكار ، ثم عاد يقول فى الحال وبلهجة دلت على شيء من الغضب :

« اذن كنت رتبت نفسك على أنى سأتزوج « چين فيرفاكس ؟ »

« لا ، وأؤكد لك أنى لم أفعل ، فأنت كثـيرا ماعدت على باللائمـة لتوسطى فى أمور الزواج ، حتى لم أعد أجرؤ على مثل ذلك معك ، ولم أقصد مما قلته الآن شيئا ، والانسان كثيرا ما ينطق بأشياء وهو لا يعنى منها أى شيء بالذات . لا !! كن واثقا بأنى لا أرغب أبدا فى أن تتزوج من « چين فيرفاكس » ولا من أى « چين أخـرى ، فأنك اذا تزوجت ، لن تأتى وتجالسنا بهذه الطريقة التى لا تكلف فيها »

وأخذ « مستر نيتلى » يفكر مرة أخرى ، وخرج من أحلامه بقوله :

« لا يا « اما » ، لست أظن أن اعجابى بهـا مهما بلغ ، قادر على أن يجرفنى أمامه . وأؤكد لك بأنى مافكرت فى مثل هـذا أبدا » ثم أردف يقول :

« ان « چين فيرفاكس » فتاة لطيفة جدا ، ولكنها لا تصل الى درجـة

الكمال ، فأن بها عيبا — فهى تنقصها الصراحة التى يريدها الرجـل فى الزوجة »

ولم تتمالك « اما » نفسها من الفرحة عندما سمعت بأن شيئا يعيبها ، وقالت :

« أجل ، وأظنك قد أحرَصت « مستر كول » على الفور . »

« نعمَ وفى الحال ، فلقــد لمح لى بذلك تلميحا خفيفـا ، فقلت له أنه مخطىء واستسمحنى ولم يزد شيئا . ان « كول » لا يود أن يبــدو أكثر حكمة ولا ذكاء من جيرانه »

« انه من هذه الناحية يخالف العــزيزة « مسز التن » ، التى تود أن تبز الناس جميعا فى عقلها وذكائها . ترى ماذا تقول عن « أسرة كول » ، وماذا تنعتهم به ، وكيف تجد لهم أسماء تسميهم بها ؟ ان فيها القدر الكافى من النذالة المستهجنة ، فهى تدعوك « نيتلى » مجردا من كل لقب ، فماذا هى فاعلة « بمستر كول » ؟ لذلك لا يدهشنى أن تقبل « جين فيرفاكس » مجاملاتها ، وأن ترضى الاختلاط بها ، وان حجتك يا « مسز وستن » هى أكثر ما تكون فى جانبى ، فأنا قد أكون أكثر استعدادا لأن أغرى عــلى التخلى عن « مس بيتس » من أن أصدق بأن « مس فيرفاكس » يمكن أن يتغلب عقلها على « مسز التن » ، بل أنا لا أعتقد بأن « مسز التن » تعترف بأنها أقل منها فى التفكير ، أو القول ، أو العمــل . ولا أؤمن بأن « مسز التن » تتقيد بأية قيود تكبحها أكثر من القاعدة الغثة التى تلتزمها بشأن النشأة الأصيلة ، ولن أتصور الا أنها ستظل تهين ضيفتهــا بالمديح والتشجيع وتقديم الخدمات . وستظل تتحدث باسهاب عن نواياها الجليلة ، ما بين الحصول لها على وظيفة ثابتة ، الى اشراكها فى الرحــلات المحترمة التى سوف ينتقلون فيها فى بروشتهم » .

وقال « مستر نيتلى » : « ان « چين فيرفاكس » حية المشـاعر ، وأنا لا أتهمها بأنها مجردة منها ، بل أظن أن احساساتها مرهفة ، وأنهـا على درجة ممتازة من قوة التحمل والصبر وضبط النفس ، ولكنها لا ينقصها غير الصراحة ، فهى منطوية على نفسها ، بل لعلها أكثر انطواء مما كانت عليه من قبل . وأنا أحب من الناس من لا يكتنفه الغموض ، لا ، انها لم تخطر على بالى أبدا ، الى أن لمح لى « كول » بعلاقتى المزعومة — لقد رأيت « مس فيرفاكس » وتحدثت معها فى اعجاب كبير وسعادة لا تنقطع ، ولا شىء أكثر من هذا » .

وعندما تركهما ، قالت « اما » وهى مزهوة بانتصارها :

« أجل يا « مسز وستن » ، ما قولك الآن فى موضوع زواج «نيتلى» من « چين فيرفاكس » ؟

« أجـل يا عزيزتى « اما » ، ان ما أقوله هو أنه مشبع بفكـرة أنه لا يحبها ، حتى لا أعجب اذا ما انتهى الأمر بوقوعه فى حبها ، فلا تحاولى أن تنتصرى علىّ » .

الفصل الرابع والثلاثون

كان كل من سبقت له زيارة « مستر التن » من أهالى « هايبرى » وما جاورها ميالا الآن الى الاحتفاء بزواجه ، فأقيمت مآدب العشـــاء ، وعقدت اجتماعات مسائية له ولعقيلته ، وتكاثرت الدعوات يتلو بعضهــا بعضا من غير ابطاء ، حتى خشيت « مسز التن » ، يخالجها شعور بالغبطة، بأنه لن يمر يوم يخلوان الى نفسيهما ، قالت :

« لقد فهمت الأوضاع ، وأدركت نوع الحياة التى سأعيشها بينكم . لعمرى ان حياتنا فيما يبدو ستكون حياة لهو وبهجة حيــاة الأكابر من الناس . واذا كانت هذه هى المعيشة فى القرى ، فليس هناك ما يخيف أبدا ، وأؤكد لكم بأننا ابتداء من يوم الاثنين حتى يوم السبت القادم ، لا نجد يوما لم نرتبط فيه بدعوة ، وان سيدة مواردها أقل من مواردى لن تكون فى حيرة من أمرها » .

ولم تفتها فى الواقع دعوة من هذه الدعوات ، وقد ساعدتها عاداتها التى كانت لها فى «باشه» ، على أن تكون هذه الندوات المسائية بالنسبة لها أمرا طبيعيا ، كما أضفت عليها « مابل جروف » ذوقا فى اعداد مآدب العشاء . وقد أزعجها بعض الشىء الا تجد فى بيتها حجرتين للاستقبال ، وألا يكون مطبخها معدًا كل الأعداد لعمل الفطائر الحلوة الدسمة ، وأن ينعدم الثلج فى حلقات لعب الورق « بهايبرى » ، ان « مستر بيتس » « ومسز پرى » « ومسز جدرد » وغيرهن ، متخلفات فى معلوماتهن عن أمور الدنيا ، ولكنها ستريهن عما قريب كيف تنظم الأشياء ، ولابد أن ترد لهن حفاوتهن خلال

أيام الربيع ، فتجمعهن فى ندوة هى غاية من العظمة ، تمد فيها موائد اللعب، كل بشموعها الخاصة ، ومن فوقها أوراق اللعب غير المستعملة ، كل ذلك بطريقة سليمة ، ويستخدم فيها عند المساء عدد أكبر من الخدم ليس بوسعهن استخدام مثله ، ليقدموا المرطبات فى أوقاتها الصحيحة وفى دورها الدقيق .

وما كانت « اما » فى الوقت نفسه لتهدأ أو تقر عينا الا اذا دعت « مستر التن » وزوجته لتناول العشاء فى بيت « هارتفيلد » اذ لا يجوز أن يتخلفا عن الركب ، والا تعرضت للقيل والقال ، وظن بها الناس الظنون ، ورموها بأنها تقصد الايلام وجرح الشعور . وهكذا أصبح لا مناص من مأدبة عشاء تقيمها . وأمضت « اما » عشرة دقائق وهى تبحث أمر هذه المأدبة مع أبيها ، فلم يبد اعتراضا غير أنه اشترط الا يكون على رأس المائدة . وترتب على هذا الشرط ما جرت به العادة دائما من قيام المصاعب عمن يقوم مقاومة فى الجلوس عند صدر المائدة .

ولم يحتج الأمر بعد ذلك الى تفكير طويل فيمن يكون المدعوون اذ رؤى أن يكون فى مقدمتهم — بعد « أسرة التن » ، « مستر وستن » وزوجته ، وكذلك « مستر نيتلى » . كان هؤلاء هم كل من رؤى توجيه الدعوة اليهم . ولم يكن بد كذلك فى أن تدعى « هاريت » الصغيرة المسكينة الى هذه المأدبة ، فتكون بذلك ثامنة المدعوين ، وان لم تكن دعوتها بنفس راضية كما كان الحال مع غيرها . وقد سرّ « اما » بصفة خاصة أن تلتمس « هاريت » قبول اعتذارها لاعتبارات عديدة ، منها أنها تفضل الا تجتمع معه أكثر مما يجب ، وأنها لا تقدر أن تراه مع زوجته الجميلة السعيدة دون أن تشعر بشىء من الضيق ، وأنها كذلك تفضل أن تبقى فى البيت ، هذا اذا لم يكن فى ذلك ما يسىء الىّ فى « وودهاوس »

وكان هذا عين ما تبتغيه «اما» لو كان فى وسعها أن تعبّر عما كان يجول فى

نفسها . وقد سرها أن ترى مثل هذه الشجاعة فى صديقتها الشابة ، فان تخلّيها عن الوجود معه ، وتفضيلها المكث بالبيت ، كان دليلا على ما فيها من قوة العزيمة . ورأت « اما » أن فى امكانها الآن دعوة من كانت تحب أن تكون ثامنتهم ، ألا وهى « چين فيرفاكس » . فلقد ظل ضميرها يؤرقها من ناحيتها منذ أن كانت مدار حديثها مع « مسز وستن » و «مستر نيتلى»، وظلت كلمات « مستر نيتلى » تتوارد على خاطرها منذ ذلك الوقت ، حين قال ان « چين فيرفاكس » لقيت من « مسز التن » رعاية لم تلقهـــا من أحد غيرها .

وقالت لنفسها : « تلك هى الحقيقة بعينها ، على الأقل من ناحيتى ، بل ان هذا هو ماكان يعنيه ، وهو شىء مخجل جدا ، فلقد كان من واجبى ، وأنا فى مثل عمرها ، وأعرفها منذ الصغر ، أن تزداد صداقتى بها . وهى لن تميل الى الآن أبدا لأنى أغفلتها وقتا طويلا ، ولكنى مع ذلك سوف أكون أكثر اهتماما بها مما كنت من قبل » .

واستجاب المدعوون جميعا الى الدعوة ، واغتبط كل واحد منهم لأنه لم يكن قد ارتبط بغيرها ، ولكن حادثا مؤسفا طرأ على « اما » ولما تنته من اعداد الترتيبات الأولى لهذا العشـــاء ، ذلك أن الطفلين ، أكبر أبناء « نيتلى » ، كان تقرر أن يقوما بزيارة جدهما وخالتهما خلال فصل الربيع ، وأن تستغرق الزيارة بضعة أسابيع ، ورأى والدهما أن يأتى بهما ليقضى يوما كاملا فى « هارتفيلد » ، وشاءت الظروف أن يكون هذا اليوم هو يوم المأدبة ، ولم يكن ارتباطه بأعماله ليسمح له بتأجيله الى يوم آخر . وكان لهـــذا الحـــادث أثر أزعج الأبنـــة ووالدها على الســـــواء ، ذلك لأن « مستر وودهاوس » كان يرى أن اجتمـــاع ثمانية أشخاص على مأدبة العشاء هو أقصى ما تحتمله أعصابه ، ثم ها هو الآن يجد شـــخصا تاسعا

بينهم . وأدركت « اما » أنه ليس مجرد الشخص التاسع فحسب ، بل هو شخص جبِل بطبعه على العبوس والجد ، حتى أنه لم يكن موفقا حين اختار أن يقضى ثمانى وأربعين ساعة فى «هارتفيلد» فى نفس اليوم المخصص لحفل العشاء .

ولكنها مع ذلك طمأنت أباها أكثر مما طمأنت نفسها ، الى انه سيكون شخصا تاسعا حقا ، ولكنه قليل الكلام ، حتى أنه لن يزيد على ضوضاء الثمانية وجلبتهم شيئا يذكر . ولكن هذا لم يمنعها من أن تشعر بأنه وهو على ما هو عليه من نظرات جافة ، والتزام للسكوت ، كان فى عدم انسجامه معها بديلا سيئا لأخيه .

على أن هذا الحادث كان أكثر حظا بالنسبة لمستر وودهاوس منه بالنسبة « لاما » ، ففى حين أقبل « چون نيتلى » ، كان « مستر وستن » وقد استدعى على غير انتظار الى المدينة ، وكان لابد من تغيبه فى ذلك اليوم . واذا كان من المحتمل أن يستطيع مشاركتهم فى ساعة متأخرة من المساء ، فقد كان تغيبه عن مأدبة العشاء أمرا محققا . وهدأت نفس «مستر وودهاوس» كل الهدوء ، وذهب عن « اما » ما كانت تشعر به من ضيق ، بسبب ما رأته من هدوء أبيها ، ثم وصول الولدين الصغيرين ، ثم ما بدا على زوج اختها من ارتياح لا يخلو من فلسفة عند سماعه بما سيؤول اليه مصيره .

وحل اليوم واجتمع شمل الجماعة فى الموعد المحدد ، وبدا كأن مستر « چون نيتلى » قد أخذ على نفسه عهدا بأن يكون محببا الى النفوس ، وبدلا من أن يبتعد بأخيه ، وينتحى به الى النافذة وهما ينتظران العشاء ، كما هى عادته ، شوهد وهو يتحدث الى « مس فيرفاكس » ثم يتأمل « مسز التن » فى سكون وقد بدت أنيقة بما عليها من لآلىء ودانتل ، لا هم له الا أن يلحظ فيها مايكفى من المعلومات التى ينقلها الى « ايزابلا » .

على أن « مس فيرفاكس » كانت له بها معرفة سابقة ، وكانت فوق ذلك فتاة هادئة رزينة يستطيع أن يتحدث اليها . وكان قد التقى بها فى ذلك اليوم قبل موعد الافطار عندما كان عائدا من نزهته مع ولديه الصغيرين ، وكان المطر قد أخذ يتساقط ، فكان من الطبيعى الآن أن يتبادل معها بعض العبارات التى تفرضها المجاملات . قال لها :

« أرجو ألا تكونى قد بعدت كثيرا عن بيتك فى هــذا الصباح يا « مس فيرفاكس » ، والا فلابد أن يكون البلل قد لحقك ، أما نحن فقد وصلنا الى البيت فى الوقت المناسب بشق الأنفس . وأملى أن تكونى قد عدت الى بيتك فى الحال »

قالت : « لقد ذهبت الى مكتب البريد ، ثم وصلت الى البيت قبل أن تهطل الأمطار بغزارة ، وهى جولة أقوم بهـا كل يوم ، اذ أذهب دائمـا لاحضار رسائلى مادمت هنا ، وفى هذا توفير للمتاعب ، فضـلا عن أنه وسيلة للخروج ، وأنا أفيد من السير قبل الافطار »

« على ألا يكون هذا السير وقت سقوط الأمطار »

« لا ، ولكنها لم تكن تمطر اطلاقا وقت أن خرجت »

وابتسم مستر « چون نيتلى » وقال :

« أفهم من ذلك أن نزهتك كانت باختيارك ، لأنك لم تكونى قـد بعدت ست خطوات عن دارك حين سـعدت بلقـائك وكان « هنرى » و « چون » قد شاهدا حبات كثيرة من الأمطار تتساقط قبل ذلك بوقت طويل . على أن مكتب البريد يصادف هوى فى نفوسنا فترة ما من فترات حياتنا ، وعندما تكونين فى مثل عمرى ، فأنك سترين أن الرسائل لا تستحق السير من أجلها فى المطر اطلاقا »

واحمر وجهها قليلا ثم أجابت :

« انى لا آمل أبدا أن أكون فى مثل مركزك ولا أن يكون لى مالك من هذه الاتصالات القيمة ، ولذلك فلن أكون عديمة الاكتراث بما يصلنى من رسائل مهما امتد بى العمر »

« عديمـــة الاكتراث !! لا ، أنا لم أفكر أبدا فى أن تكونى عديمـــة الاكتراث ، فالرسائل ليست مجالا لعدم الاكتراث وان كانت بوجه عام لعنة كبرى » .

« انك تتحدث عن رسائل العمل ، أما رسائلى فهى تتصل بالصداقة »

وأجابها فى جفوة :

« كثيرا ماظننتها أسوأ النوعين ، لأن العمل كما تعلمين قد يأتى بالمال ، ولكن الصداقة قد لا تأتى بشىء من هذا أبدا »

« آه !! انك لست جادا فى قولك الآن ، وأنا أعرف « جون نيتلى » تمام المعرفة ، وأنا واثقة بأنه أدرى بقيمة الصداقة ، مثله مثل أى انسان آخر . انه ليسهل على أن أدرك أن اهتمامك بالرسائل أقل كثيرا جدا من اهتمامى بها ، ولكن هذا ليس مبعثه أنك تكبرنى بعشر سنوات ، فالعبرة ليست بالسن ، ولكن بفارق المركز فى الحياة ، ثم أنت تجد أعز النـــاس اليك بجوارك ، أما أنا فقد لا أوفق الى هذا مرة أخرى ، ولذا فأنى أظن أن مكتب البريد سيظل دائما عاملا قويا يدفعنى الى الخزوج فى طقس قد يكون أسوأ من طقس اليوم ، الى أن يحين الوقت الذى تزول فيـــه كل أسباب التعاطف عن طريق الرسائل »

وقال « جون نيتلى » : « انى حين قلت ان الزمن كفيل بتغيير حالك ، كنت أعنى أن التغيير سيشمل مركزك كذلك ، فان الوقت كفيـــل بذلك عادة ، فأحدهما كما أرى شامل للآخر ، والوقت عادة يقلل من الاهتمـــام بكل علاقة خارجة عن نطاقنا اليومى . ولكن هذا ليس بالتغيير الذى كنت

أتمناه لك . أرجو يا « مس فيرفاكس » أن تسمحي لى كصديق قديم بأن أتمنى تحقيق أملى فيصبح لك بعد مضى عشرة أعوام مثل مالى من أهداف مركزة »

قال هذا فى رقة وحنان وهو أبعد مايكون عن أن يمسها بسوء ، وكأنما أرادت أن تضرب صفحا عما قال ، وكأن شيئا لم يكن ، فضحكت وقالت فى عذوبة :

« أشكرك »

غير أن الحمرة التى علت وجهها ، وارتعاش شفتيها ، والدمعة التى جرت فى مقلتيها ، دلت على أن الضحكة تخفى وراءها مشاعر أخرى .

وتدخل هنا « مستر وود هاوس » يريد أن يحظى بحديثها ، فقد كان من عادته فى مثل هذه المناسبات أن يرحب بضيوفه وأن يبدى نحو السيدات حفاوة خاصة ، وجاء دورها فى آخر المطاف ، فقال لها فى رقة وعذوبة :

« لقد ساءنى كثيرا ما وصل الى سمعى يا « مس فيرفاكس » خرجت هذا الصباح وقت سقوط المطر ، وواجب الشابات أن يحافظن على أنفسهن لأنهن أشبه بالنباتات الغضة ، وعليهن أن يعنين بصحتهن وبشرتهن ، وهل استبدلت يا عزيزتى الجوارب بغيرها »

« أجل يا سيدى ، لقد أبدلتها ، وانى أشكرك كثيرا على اهتمامك بأمرى »

« ان الشابات ياعزيزتى « مس فيرفاكس » يجب أن يتأكدن بأنهن موضع العناية ، وآمل أن تكون جدتك وخالتك بخير ، فهما من أصدقائى القدامى ، وبودى لو أن صحتى كانت تسمح لى بأن أكون جارا خيرا مما أنا ، وأؤكد لك بأنك قد أوليتينا اليوم شرفا عظيما ، ونحن كلانا ، أنا

وابنتى ، تقــدر غاية التقــدير حسن صنيعك ، ويسعدنا أن نراك فى « هارتفيلد » .

وشعر الرجل المسن ، ذو الأدب الجم ، والقلب الرحيم ، بأنه قد أدى واجبه ، وجعل كل حسناء تحس فى بيته أنها قد جاءت على الرحب والسعة.

وعلمت «مسز التن» فى تلك اللحظة بما كان من سير «مس فيرفاكس» فى المطر ، فأخذت تنهال عليها احتجاجا وتقول :

« ما هذا الذى أسمعه يا عزيزتى « چين » ، عجبــا لك ! تذهبين الى مكتب البريد فى المطر !! أؤكد لك بأن هذا ماكان ينبغى أن يحدث ، ثم كيف تفعلين شيئا كهذا أيتها الفتاة المتعبة ؟ ان هذا دليل على أنى لم أكن هناك لأحافظ عليك »

وأكدت لها « چين » فى صبر وأناة بأنها لم تصب بشىء من البرد .

واستطردت « مسز التن » :

« عجبا ! أتقولين هذا لى ؟ انك ولا شك فتاة متعبة جدا ، لا تعرفين كيف تعنين بنفسك ، عجبا !! الى مكتب البريد !! هــل سمعت يا « مستر وستن » بمثل ذلك ؟ لابد لى ولك من استعمال نفوذنا »

وقالت « مسز وستن » فى رقة واقناع : « انى لأجد حقيقة ما يغرينى على اسداء النصح ، فأن عليك يا « مس فيرفاكس » ألا تخاطرى بنفسك على هذا النحو . وبما أنك عرضة لو عكات البرد ، كما حدث لك من قبل، فأن من واجبك أن تكونى أكثر حيطة ، وخاصة فى مثل هذا الوقت من أيام السنة ، وأنا أرى دائما أن فصل الربيع يتطلب منا أن نكون أكثر حيطة ، وقد كان أجدى بك أن تنتظرى ساعة أو ساعتين ، أو حتى الى منتصف اليوم ، قبل استلام رسائلك ، من أن تخاطرى بنفسك ثم يعاودك السعال مرة أخرى . ألا تشعرين الآن بأنك جازفت بصحتك ؟ نعم ، فأنا واثقــة

بأنك على درجة كبيرة من التعقل ، ويبــدو لى بأنك لن تقدمى على شيء كهذا مرة أخرى »

وعادت « مسز التن » تشترك فى الحديث فقالت :

« انها قطعا لن تفعل شيئا كهذا مرة أخرى ، بل نحن لن نسمح لها بأن تعمل مثل هذا ثانية »

ثم أومأت برأسها ايماءة لها معناها واستطردت :

« لا بد من اتخاذ بعض الاجراءات ، لا بد من ذلك وسوف أتحدث مع مستر التن » فى هذا . ان الرجل الذى يحضر لنا رسائلنا كل صباح ، وهو واحد من بين خدمنا لا أذكر اسمه ، سوف يسأل أيضا عن رسائلك ويأتى بها اليك ، فمن شأن ذلك أن يزيل كل الصعوبات ، وأعتقد يا عزيزتى « چين » أنك لن تجدى سببا يحول بينك وبين قبولك هذه المساعدة » .

فقالت « چين » : « ان هذا لهــو منتهى العطف منك ، ولكنى لن أتنحى عن التبكير بالمشى ، فلقد نصحوا لى بالخروج كلما أمكننى ذلك ، ولا بد لى من المشى الى أى مكان ، ومكتب البريد هو أحد الأمكنة التى أسعى اليها ، وثقى أنه لم يصادفنى صباح أغبر ، قبل اليوم » .

« لا تزيدى على ما قلتيه شيئا يا عزيزتى « چين » لقــد قضى الأمر (ثم أردفت ذلك بضحكة متكلفة) هذا فى الحدود التى يجــوز أن أبرم فيها أمرا دون موافقة زوجى . ان واجبنا أنا وأنت يا « مسز وستن » كما تعلمين أن نحتاط فى تعبيراتنا ، وان كنت يا عزيزتى « چين » أعتز بأن أقول انى لا زلت على شيء من النفوذ ، وهــكذا اذا لم تعترضنى صــعاب لا سبيل الى التغلب عليها ، فاعتبرى هذا الموضوع منتهيا » . .

وقالت « چين » بصيغة جدية :

« معذرة ، فلست أوافق بحال من الأحوال على اجراء كهذا فيه مشقة

على خادمك لا داعى لها ، ولو لم يكن فى تلك الجولة ما يسرنى لتركتها لتقوم بها خادمة جدتى كما هى عادتها فى غيابى »

« ان « پاتى » يا عزيزتى عندها من العمل ما يشغلها وانه لعطف منك أن تستخدمى رجالنا »

وبدا على « چين » أنها لا تريد الاذعان ، ولكنها استعاضت عن الرد بمعاودة الحديث مع مستر « چون نيتلى » ، قالت :

« ان مكتب البريد مؤسسة مدهشة ، وما أعجب نظامها وتوزيعها للرسائل ، ولو فكر الانسان فيما يقع على عاتقها من مهام ، وما تؤديه على أحسن وجه من أعمال ، لوجدها تثير الدهشة حقا »

« لا شك أنها منظمة أحسن نظام » .

« ونادرا ما يبدو منها اهمال ، أو تبدو منها هفوة ، وقلما تضل رسالة من بين آلاف الرسائل التى تطوف بلا انقطاع فى أرجاء المملكة فلا تصل الى صاحبها ، وظنى أن ما يفقد من كل مليون منها لا يعدو أن يكون رسالة واحدة ، ثم اذا راعينا تباين الخطوط ، وما هو ردىء منها يتعين عليهم فك رموزه ، لزادت دهشتنا » .

« ان الاعتياد يكسب الموظفين خبرة ، اذ عليهم أن يبدأوا بتدريب العين واليد بسرعة . وبالمران يزدادون قدرة » ثم استطرد يقول وهو يبتسم :

« وان أردت مزيدا فى الايضاح ، فهم يوفون أجورهم على هذا ، فذلك هو السبيل الوحيد لشحذ همم الكفايات ، فالشعب يدفع ، ولا بد أن يجد أحسن الخدمات » .

واستمر الحديث فى اختلاف الخطوط ، وما صحب ذلك من ملاحظات معهودة ، فقال « چون نيتلى » :

« لقد سمعت ما يؤكد بأن نوع الكتابة يسود العائلة بأسرها ، وطبيعى أن يكون هذا صحيحا حين يكون المدرس واحدا ، غير أنه يخيل لى من تلك الناحية ، أن التشابه فى الخط لابد أن يكون قاصرا على الاناث ، لأن الأولاد قلما يتعلمون شيئا جديدا بعد سن مبكرة ، فهم ينتهجون بعد ذلك أى نهج يحلولهم من الخطوط . وأظن أن هناك تشابها كبيرا جدا فى خط كل من « اما » و « ايزابلا » ، حتى أنى لم أكن أستطيع دائما التمييز بين خطيهما » .

وقال أخوه مترددا : « نعم ، هناك بعض التشابه ، وأنا أعرف ما تعنيه ، ولكن خط « اما » أكثر ضغطا » .

وقال « مستر وودهاوس » :

« ان خط كل من « ايزابلا » و « اما » جميل ، وقد كان دائما جميلا » ثم قال وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة بسيطة ، وتنهد نهده قصيرة : « وهذا هو الحال كذلك مع « مسز وستن » البائسة » .

وبدأت « اما » تقول وهى تنظر كذلك الى « مسز وستن » :

« ما رأيت قط ، خط رجل ..!! ولكنها توقفت عن الكلام عندما لاحظت أن « مسز وستن » كانت منشغلة بالاستماع الى غيرها . وهيأت لها فترة السكوت ، فرصة لكى تقول لنفسها : « ترى كيف أذكره للناس الآن ؟ ألست أهلا لأن أذكره بالاسم على هذا الملأ من الناس فى غير تردد ؟ وهل من الضرورى أن أستعمل عبارة توحى باسمه من طرف خفى ؟ كأن أقول مثلا : صديقك المقيم فى « يوركشير » أو مراسلك فى يوركشير ، — تلك هى الطريقة فى ظنى لو أننى كنت امرأة سوء ، — لا ان من حقى أن أنطق باسمه ولا حرج ، لا شك أنى فى تحسن من يوم الى يوم ، وها أناذا أقدم الآن على ذكر اسمه »

وكانت « مسز وستن » قد فرغت من الكلام مع محدثها فعادت «اما» تقول :

« ان خط مستر « فرانك تشرشل » من أحسن خطـوط الرجال التى وقع عليها نظرى » .

وقال « مستر نيتلى » : « ان خطه لا يروق لى ، فحروفه صغيرة جدا وغير واضحة ، وخطه أشبه بخط النساء »

ولم توافقه السيدتان على رأيه : فقد بدا لهما بعيد عن الصواب — « لا ، انه لا ينقصه الوضوح بحال ، وهو ليس بالخط الكبير ، ولكنـه واضح وظاهر من غير شك ، أفلا يوجـــد لدى « مسز وستن » خطاب لتبرزه ؟ لا ، لقد وصلها منه خطاب مؤخرا ، ولكنها وقد بعثت بالرد طرحته جانبـا »

وقالت له « اما » بعد ذلك :

« لو أننا كنا فى الحجرة الأخرى ، أو لو أننى ذهبت لمكتبتى ، لكنت واثقة من ابراز نموذج لكتابته ، فلدى مذكرة منه . ألا تذكرين يا « مسز وستن » أنك استخدمتيه ليكتب الى نيابة عنك يوما ما ؟ » .

« انه هو الذى اختار أن يقول انها استخدمته »

« أجل ، أجل ، وهذه المذكرة عندى ، ويمكننى اظهارها عقب تناول العشاء لأقنع مستر « نيتلى »

وقال « مستر نيتلى » بغير اكتراث :

« نعم ، فعندما يكتب شاب فيه شهامة مثل مستر « فرانك تشرشل »، الى آنسة حسناء مثل « مس وود هاوس » ، فأنه ولا شك يقـدم أحسن ما عنده »

وكان طعام العشاء قد أعد فوق المائدة ، فتأهبت له « مسز التن » قبل

أن تدعى اليه ، وأخذت تقول قبل أن يصـلها « مستر وود هاوس » ليطلب منها السماح له بأن يصحبها الى حجرة الطعام :

« هل من الواجب أن آكون فى المقدمة ؟ انى لأخجل حقـا من أن آكون دائما فى المقدمة » .

ولم يخف على « اما » تلهف « چين » على احضار رسائلها بنفسها ، فلقد سمعت ورأت كل ماحدث ، وشعرت بالميل الى معرفة ما اذا كانت مسيرة هذا الصباح الممطر قد تمخضت عن شيء ، وذهب بها الظن الى أن شيئا قد حدث ، وأنهـا ماكانت لتتعرض لما تعرضت له من بلل ، فى احتمال وعزم ، لولا أنها كانت تأمل أن تصلها أخبار من عزيز مفضـل عندها ، وأن ماتحملته فى سبيل ذلك لم يذهب سدى ، بل لقد رأتهـا تبدو أكثر اغتباطا مما هى عليه عادة ، وجهها مشرق وتفيض بشرا .

وكان بوسعها أن تتقدم بسؤال أو سؤالين عن سرعة وصول البريد الايرلندى ، وما عساه يتكلفه ، بل كانت قاب قوسـين أو أدنى من أن تفعل ذلك ، ولكنها أحجمت ، وحـزمت أمرها على ألا تفوه بلفظ لمس « چين فيرفاكس » تجرح به مشاعرها .

وخرجتا فى أثر السـيدات الأخريات من الحجرة وقد تأبطتـا ذراعى بعضهما فى مظهـر من الود يتفق وما كان عليه كل منهما من جمـال ورشـاقة .

الفصل الخامس والثلاثون

ولما عادت السيدات الى حجرة الاستقبال عقب تناول العشاء ، لاحظت « اما » أنه كان من المستحيل عليها أن تحول بينهن وبين أن ينقسمن الى فريقين متباينين كل التباين ، فقد استحوذت « مسز التن » بما جبلت عليه من اصرار على الحكم على الأشياء ، وبعد عن الكياسة ، على انتباه « چين فيرفاكس » بطريقة فيها اهانة « لأما » ، حتى لم يعد أمام « اما » ومسز وستن الا أن تتحدثا الى بعضهما ، أو تظلا صامتتين . وكانت « چين فيرفاكس » كلما استمهلتها فترة ، عادت الى استئناف الحديث معها مرة آخرى .

واذا كان الحديث بين « مس فيرفاكس » و « مسز التن » قد جرى همسا ، لا سيما من جانب « مسز التن » ، فلم يكن خافيا ما كان يدور حوله حديثهما — مكتب البريد ، وعكات البرد ، احضار الرسائل من مكتب البريد ، الصداقة — فقد كانت كلها موضوعات استغرقت معظم حديثهما ، وزاد عليها موضوع آخر كان ولا شك لا يقل عنها ايلاما لنفس « چين » — ذلك هو استفسار « مسز التن » عما اذا كانت قد وفقت الى عمل ملائم ، وتوكيدها لها بأنها لا تنقطع عن التفكير فى تدبير شىء من أجلها .

وقالت « مسز التن » :

« ها هو شهر ابريل قد أتى وأصبحت قلقة من أجلك وعما قريب يحل شهر يونيو »

« ولكنى لم أحدد لنفسى شهر يونيو ولا أى شهر آخر موعدا ، ولم آكن أتطلع الا الى قضاء فصل الصيف هنا »

« ولكن ألم يبلغك شىء حقيقة ؟ »

« بل ما تحريت عن شىء أبدا ، ولست أود أن أتقدم بأى طلب الآن »

« عجبا يا عزيزتى ، فأنك كلما بكرت كان ذلك أدعى الى توفيقك الى عمل ، وأنت لا تدرين ما ينطوى عليه الحصول على الشىء الذى تريدينه من صعوبة »

وهزت « چين » رأسها وقالت :

« يا عزيزتى « مسز التن » ، ومن ذا الذى يمكن أن يكون قد فكر فى ذلك مثل مافكرت فيه ؟ »

« ولكنك ليس لك مالى من دراية بالحياة ، ولا علم لك بما يتقدم من طلبات كثيرة للفوز بأحسن الوظائف ، فلقد رأيت الكثير من ذلك فى المنطقة المحيطة « بماپل جروف » فقد وصل الى « مسز براج » وهى ابنة عم « مستر سكلنج » طلبات لا حصر لها ، وكانت كل صاحبة طلب ، شديدة اللهفة على أن تكون من بين أفراد أسرتها ، فهى من أرقى الأوساط ، وحجرة الدرس فى بيتهم تضاء بالشموع ، ولك أن تتصورى الاقبال على مثل هذه الوظيفة . ان أعظم ما أرجوه لك ، أن يكون لك حظ العمل فى بيت « مسز براج » دون سائر بيوت المملكة جميعا »

وردت « چين » : « سيعود « المقدم كامپبل » وزوجته الى المدينة فى أواسط الصيف ، ولا بد لى من قضاء بعض الوقت معهما ، وأنا واثقة من أنهما يريدان هذا ، وقد يحلو لى بعدها أن أتصرف فى نفسى ، ولست أريد أن تتعبى نفسك فى البحث عن شىء لى فى الوقت الحاضر »

« أتعب نفسى ؟ لا ، وأنا أعلم بما يساورك من ظنون ، انك تخشين

أن تكونى مصدر تعب لى ، ولكن أؤكد لك يا عزيزتى « چين » بأن أسرة « كامپبل » لا تهتم بأمرك بأكثر من اهتمامى بأمرك ، وسأكتب الى « مسز پارتردج » فى غضون يوم أو يومين ، وأكلفهـــا البحث عن أى شىء مناسب لك » .

« شكرا لك ، ولكنى أفضل ألا تذكرى لها شيئا عن هذا الموضوع ، الى أن يقرب الوقت ، لأنى لا أريد أن أكلف أى شخص تعبا »

« ولكن الوقت يا ابنتى العزيزة يقترب ، وها هو شهر ابريل ، وأصبح شهر يونيو ، بل وحتى يوليو على الأبواب ولا زال أمامنا هذا الأمر لنتمه. ان عدم خبرتك ولا شك يضحكنى ، فالوظيفة التى تليق بك ، ويريدها لك أصدقاؤك ، ليست مما يتحقق وجودها فى كل وقت ، ولن يتسنى الحصول عليها فى لحظة ، فيجب أن نسعى اليها حالا » .

« معذرة يا سيدتى ، ولكن ليس هذا هو مابيت عليه النية ، ولست أبحث عن شىء أنا بنفسى ، ويسوءنى أن يتولى عنى أصدقائى هذا البحث . والى أن يحين الوقت الذى تصح فيه عزيمتى ، فأنى لا أخشى أن تطـول بطالتى ، وهناك مكاتب بالمدينة ، يجد فيها المرء عملا بمجرد أن يسأل عنه، مؤسسات ، لا لبيع الأجساد البشرية ، بل المواهب البشرية »

« عجبا يا عزيزتى ، الأجساد البشرية !! انك تهزين كيانى هزا ، أما اذا كنت تنوهين بتجارة الرقيق فأنى أؤكد لك بأن « مستر سكلنج » كان دائما يساند الغاءها »

وأجابتها « چين » : « ما قصدت هذا ، وما فكرت فى تجارة الرقيق ، وأؤكد لك بأنى ماكنت أفكر الا فى تجارة المربيات ، وهى ولا شك تختلف كثيرا عن الجرائم التى يرتكبها القائمون بتجارة الرقيق . أما عن ضحاياهم وما هن فيه من بؤس ، فلا علم لى بشىء منه ، ولكنى قصـدت فقط أن

أقول ان هناك مؤسسات تقوم بالاعلان ، وانى اذا تقدمت اليها بطلب ، فلا شك أنى سأوفق فى الحال الى شىء لا بأس به »

وأجابتها « مسز التن » :

« شىء لا بأس به !! أجل قد يلائم ذلك فكرتك المتواضعة عن نفسك، فأنا أعلم مقدار تواضعك ، ولكن أصدقاءك لا يرضيهم أن تقنعى بأى شىء يعرض عليك أو بأى وظيفة عادية لا تناسبك ، وفى أسرة ليست لها مكانتها الخاصة ، أو هى لا تمرح فى رغد من العيش ، ولا تتوافر لها كل أسباب النعيم » .

« انك لواسعة الفضل ، ولكنى لا أعبأ بكل هذا . وليس هدفى أن أعيش فى رحاب الأغنياء ، لأنى أظن أن هذا يزيد عذابى . فالمقارنة تضاعف الألم وتحز فى نفسى ، وكل ما أشترطه أن أكون فى أسرة واحد من السادة »

« أنا أدرى بك ، أنا أدرى بك من نفسك ، انك قد ترحبين بأى شىء ، ولكنى أكثر منك تدقيقا ، وأعتقد أن أسرة « كامپبل » الطيبة ستساندنى، لأنك وانت على ما أنت عليه من مواهب ، من حقك أن يكون مكانك بين أكرم الأسر ، وفى أحسن الأوساط ، بل ان درايتك بالموسيقى وحدها لكفيلة بأن تجعلك تملين شروطك ، وأن يكون لك من الحجرات ما تشائين، وأن تختلطى بالأسرة حسبما تختارين ، ثم اذا كان لك دراية بالعزف على القيثار ، وهو ما لا أعلمه ، فانى أعتقد بأنك ستحققين كل هذا . على أنك تغنين وتعزفين ، أجل ، انى واثقة تماما بأنه سيتسنى لك أن تملى شروطك حتى بغير أن تكون لك دراية بالقيثار . ولن يهدأ بالنا أنا وأسرة « كامپبل » الا بعد أن تستقرى فى مركز تكرمين فيه وتشعرين فيه بالغبطة والعزة والهناءة »

وأجابت « چين » : « حسنا أن تجمعى بين الغبطة والعزة والهناءة فى وظيفة كهذه ، فهى لابد أن تتوافر فيها بقسط متكافىء . ومع ذلك فانى جادة فى ألا تبذل أية محاولة الآن من أجلى ، وعاجزة عن شكرك يا « مسز التن » ، بقدر ما أنا مدينة بالشــكر لأى شخص يبدى شعوره نحوى ، ولكننى جادة فى ألا يحدث شىء من هذا الى أن يحين فصــل الصيف ، وسأبقى حيث أنا ، وكما أنا ، شهرين أو ثلاثة شهور »

وأجابت « مسز التن » بشعور من الفرحة : « أؤكد لك بأنى كذلك جادة تماما فيما عزمت أن أكون عليه دائما من يقظة لانتهــاز الفرص ، وسأكلف أصدقائى مثل ذلك أيضا ، حتى لا يفوتنا شىء فيه غنم » .

وظلت « مسز التن » تضرب على هذه النغمة ، لا يثنيها عنها شىء ، الى أن دخل « مستر وود هاوس » الحجرة ، فدفعها غرورها الى أن تغير مجرى الحديث ، وسمعتها « اما » وهى تقول لچين همسا :

« ها هو عزيزى الهرم الأنيق يأتى ، انى أحتج ! يكفيك أن تفكرى فى شهامته اذ خرج قبل بقية الرجال ليأتى الينا . كم هو حبيب الى النفس!! أؤكد لك بأنى معجبة به كل الاعجاب . انى أحب آداب السلوك القديمة ، فهى أقرب الى نفسى من آداب السلوك الحديثة التى تمجها نفسى غالبا ، وكم كنت أود أن تسمعى عبارات المديح التى كان يطرينى بها هذا العجوز الطيب « مستر وودهاوس » على العشاء ، حتى أخذت أفكر فى أن زوجى العزيز ستتملكه الغيرة . ويخيل الى بأنى كنت المفضلة على الجميع ، فقد لفت فستانى أنظاره . وبهذه المناسبة ، ما رأيك فى فستانى ؟ انه من اختيار « سيلينا » وأظنه جميــــل ، وان كنت لا أدرى اذا لم يكن قد بولغ فى زركشته ، وأنا أبغض كل البغض فكرة الزركشة ، كما تزعجنى الملابس التى تجذب الأنظار اليها ، وان كان لابد لى من أن أزيد من زينتى قليلا ،

فان هذا هو ماينتظر منى ، فالعروس كما تعلمين يجب أن تظهر بمظهر العروس . غير أنى أميل بطبيعتى الى البساطة ، وأفضل الرداء البسيط على الرداء الخلاب . على أنى من القليلات اللائى يفضلن ذلك . نعم ، فان من يقدرن البساطة فى الزى قليلات ، لأن المظاهر ، وارتداء الملابس الأنيقة هى كل شىء فى نظرهن ، وأنا أفكر فى تنميق قطعة الحرير البيضاء الفضية على نحو مافعلت بردائى هذا ، فهل تظنين بأنه سيكون أنيقا ؟ »

وما كاد الجمع يكتمل شمله بحجرة الاستقبال ، حتى حضر « مستر وستن » ، وكان قد عاد الى بيته لتناول عشائه فى ساعة متأخرة ، ثم سار بعد انتهائه منه مباشرة الى « هارتفيلد » ، فكان لقدومه دهشة كبيرة عند البعض ، وفرحة عظيمة عند البعض الآخر . فلقد فرح «مستر وود هاوس» لرؤيته فى تلك اللحظة ، بقدر ماكان يسوؤه لو أنه حضر قبل ذلك ! وعقدت الدهشة لسان « مستر نيتلى » أن يرى رجلا كان فى وسعه أن يقضى أمسيته وهو هادىء فى داره ، بعد يوم أمضاه فى مباشرة أعماله بلندن ، فاذا هو يخرج مرة أخرى ويسير مسافة نصف ميل الى بيت غيره ، ليظل بين جماعة متباينة ، الى أن يحين وقت نومه ، فيختتم يومه المضنى بما يبذله من جهد فى الحفاوة بالناس والاستماع الى ضجيجهم ، نعم فلقد كان لهذا فى نفس « مستر نيتلى » دهشة بالغة الأثر ، أن ترى رجلا كان دائب الحركة من الثامنة صباحا وفى استطاعته أن يستريح الآن ، وأمضى يومه فى نقاش متواصل ، وفى قدرته أن يهدأ الآن ، وأن يكف عن الحديث ، وظل طول نهاره يختلط بأكثر من جماعة من الناس ، وفى مكنته أن يخلو الآن الى نفسه ، فاذا به يترك الهدوء والدفء الى جانب مدفأة بيته ، ويخرج ثانية فى مثل هذه الأمسية من شهر ابريل ، بما فيها من برد وأمطار — قد يكون له مايدفعه الى ذلك لو أنه جاء ليعود بزوجته الى البيت فورا ، أما مجيئه

على هذا الحال ، فقد كان فيه احتمال لاطالة أمد الاجتمـاع بدلا من أن ينفرط عقده .

ونظر مستر « چون نيتلى » اليه فى دهشة ، ثم هز كتفيه وقال لنفسه : « ما كنت أصدق هذا حتى منه » .

ولم يساور « مستر وستن » أى شك فيما أثاره من سخط ، بل على العكس من ذلك بدا سعيدا منشرح الصدر كعادته ، وكان من حقـه أن يتصدر الحديث بعد أن أمضى يوما بأكمله خارج منزله ، وما هيأه ذلك له من أسباب الحديث .

وقد ظل يعمل على الاندماج فى الموجودين ، وبعد أن أجاب على كل ما وجهته اليه زوجته من أسئلة عن عشائه ، واقناعه لها بأن الخـدم لم ينسوا شيئا من كل توجيهاتها الحكيمة اليـوم ، وبعـد أن أذاع على الحاضرين ما وصله من أخبار عامة ، أخذ يمهد لرسالة عائلية كانت موجهة الى « مسز وستن » بصفة خاصة ، ولكنه لم يكن يشك قط فى أنها ستقابل بعظيم الاهتمام ممن فى الحجرة جميعا . وأعطاها رسالة مرسلة اليها من « فرانك » ، وكان قد تسلمها وهو فى طريقه ، فاستباح لنفسه أن يفضها ، وقال وهو يعطيها لها :

« اقرئيها ، اقرئيها ، فلسوف تجدين فيها مايسرك ، وهى قليلة السطور ولن تستغرق قراءتها منك وقتا طويلا ، واقرئيها « لاما » كذلك » .

وتصفحتها الاثنتان معا ، بينما جلس هو يبتسم ، ويبادلهما الحديث طول الوقت فى صوت خافت نوعا ما ، ولكنه مسموع من الجميع ويقول :

« أجل ، انه قادم كما ترين ، وأظنه خبرا سارا ، فما قولكما ؟ لقـد قلت لكما دائما بأنه سيعود الى هنا قريبا ، ألم أقل ذلك ؟ ألم أخبرك بهذا دائما يا عزيزتى آن ولم تصدقينى ؟ سيكون بالمدينة فى الأسبوع القـادم

على أكثر تقدير ، ألا ترين ؟ فهى لا صبر لها عندما يكون لديها عمل تعمله ، ومن المحتمل جدا أنهم سيكونون هناك غدا أو يوم السبت . أما عن مرضها ، فليس بها شيء . انه لشيء عظيم للغاية أن يكون « فرانك » بيننا ثانية وقريبا منا ، لقرب المدينة ، وسوف يمكثون وقتا طويلا عندما يأتون ، وسيقضى هو نصف وقته معنا ، وهو ماكنت أتمناه ، أجل انها أخبار سارة جدا ، أليست كذلك ؟ هل انتهيت من قراءتها ؟ وهل قرأتها « اما » بأكملها ؟ دعيها ، دعيها ، وسوف نتحدث عنا كثيرا فى وقت آخر ، فليس هذا أوانها ، وسأكتفى بذكر الموضوع للباقين بوجه عام »

وسرت « مسز وستن » بهذا النبأ غاية السرور ، وبان سرورها فى ملامحها ومن كلامها . لقد سرت به وأدركت أنها مسرورة ، وأن من واجبها أن تكون مسرورة ، فكانت تهانيها لزوجها فى حماس وانطلاق ، أما «اما» فقد كانت مشغولة بسبر غور مشاعرها ، ومحاولة ادراك مدى اضطرابها لسماع هذا النبأ ، وكان اضطرابا كبيرا فى نظرها .

ولما كان « مستر وستن » شديد الملاحظة ، ميالا الى الكلام فى تلك اللحظة حتى لم يدع غيره يتكلم ، فقد رضى كل الرضا بما قالته ، وانتقل فى الحال ليدخل السرور على قلوب أصدقائه الآخرين بإذاعة بعض النبأ الذى لابد وأن يكون كل من كانوا بالحجرة قد استمعوا اليه . ولعله من الخير أنه افترض لنفسه أن اغتباط الكل بهذا النبأ أمر مسلم به ، والا لما ظن بأن « مستر وودهاوس » و « مستر نيتلى » سرا لهذا سرورا خاصا . وقد كان يرى أن من حقهما بعد « مسز وستن » و « اما » أن يسرا له ، ثم « مس فيرفاكس » من بعدهما ، ولكن « مس فيرفاكس » كانت منهمكة فى الحديث مع « چون نيتلى » ولم يرد أن يقطع الحديث عليهما ، فلما وجد نفسه قريبا من « مسز التن » وأنها ليست مشغولة بأحد ، أخذ يدلى اليها بالخبر .

الفصل السادس والثلاثون

قال لها « مستر وستن » : « آمل أن أسعد قريبا بتقديم ابنى لك » وابتسمت « مسز التن » مغتبطة لما لاح لها من أنه يخصها بمثل هذا الأمل.

واستمر يقول لها : « أظنك قد سمعت عن شخص اسـمه « فرانك تشرشل » وانك تعلمين أنه ابنى ، ولو أنه لا يحمل اسمى »

« أجل ، ويسعدنى كثيرا أن أتعرف اليه ، وأعتقد أن « مستر التن » لن يتأخر عن زيارته ، وسيسعد كلانا برؤيته فى قصر الأبرشية »

« ما أكرمك ، وأنا واثق بأن « فرانك » سيكون فى منتهى السعادة . وهو سيكون فى المدينة فى الأسبوع القادم ان لم يكن قبل ذلك ، وقـد وصلتنا اليوم رسالة منه بهذا المعنى ، وقد التقيت بحامل الرسائل وأنا أسير فى طريقى هذا الصباح ، وعندما تبينت خط ابنى ، جرؤت على فض الرسالة رغم أنها كانت معنونة باسم « مسز وستن » لا باسمى ، بل أؤكد لك أنه يخصها بالرسائل ، وأنه قلما يبعث الى برسالة » .

« اذن فقد فضضت رسالة موجهة اليها ، عجبا لك يا « مستر وستن »» (وضحكت ضحكة متكلفة) ثم قالت : « يجب أن أحتج على ذلك ، فهذه سابقة خطيرة ولا شك ، وأرجو ألا تصبح مثلا يحتذيه جيرانك . ويحى !! لو أن على أن أنتظر حدوث مثل هذا ، لكان من واجبنا نحن المتزوجات أن نقاومه بشدة ، يا له من عمل يا « مستر وستن » ! بل ما كنت أعتقـد فيك هذا »

« أجل ، اننا معشر الرجال سبب المتاعب ، ويجب أن تأخذى حذرك

يا « مسز التن » ، لقد جاء فى هذه الرسالة ، وهى رسالة قصيرة كتبت على عجل ولمجرد الاخطار ، أنهم جميعا آتون الى المدينة فى الحال من أجل « مسز تشرشل » ، لأنها كانت معتلة الصحة طيلة فصل الشتاء ، وهى تظن أن شدة البرودة فى « أنسكومب » لا تناسبها ، ولهذا فلن يضيعوا وقتا ، وسيرحلون الى الجنوب جميعا » .

« نعم ، أظنهم فى يوركشير ، فأنسكومب فى « يوركشير » فيما أعتقد »

« نعم ، وهم على بعد مائة وتسعين ميلا من لنـدن ، وهى مسـافة طويلة »

« نعم طويلة جدا ، وهى تزيد على المسـافة مابين « مابل جروف » ولندن بخمسة وستين ميلا ، ولكن ماذا على ذوى اليسار يا «مستر وستن» من طول المسافة ؟ وانك لتأخذك الدهشة اذا سمعت كيف يتنقـل أخى « مستر سكلنج » أحيـانا من مكان الى مكان بسرعة ، انه لمن الصعب عليك أن تصدقنى ، ولكنه ذهب ورجع ، هو و « مستر براج » الى لندن مرتين فى أسبوع واحد بأربعة جياد »

وقال « مستر وستن » : « ان ما تخشـاه من طول المسـافة من «أنسكومب» ، انما مرده فيما علمنا ، الى أن « مسز تشرشـل » لبثت أسبوعا بأكمله وهى لا تقوى على مغادرة مقعدها . لقد قال « فرانك » فى رسالته الأخيرة ، انها كانت تشكو ضعفا شديدا لم تكن تقوى معه على دخول صوبتها الزجاجية دون الاعتماد على ذراعه وذراع خاله ، وهـو كما ترين ، دليل على منتهى الضعف ، ولكنها الآن ، كما كتب « فرانك » تتلهف على الاقامة بالمدينة ، ومعنى ذلك أنها ستقضى ليلتين فى الطريق ، ولا شك يا « مسز التن » أن السيدات الرقيقات لهن تكوين غير عادى ، وأرجو أن تسلمى لى بذلك »

« لا ، أبدا ، لن أسلم لك بشيء وأنا دائمـا أهب للدفاع عن بنات جنسي ، وأحذرك بأنك ستجدني خصما صعب المراس في هذه الناحيـة ، فأنا على الدوام أقوم بالدفاع عن النسـاء ، وأؤكد لك بأنك لو علمت شعور « سيلينا » بشـأن المبيت في « النزل » لما عجبت لاصرار « مسز تشرشل » على عمل كل ما من شأنه أن يجنبها النزول في واحد منها . ان « سيلينا » تقول ان ذلك شيء يفزعها ، وأعتقد أني لست شيئا ممـا هي عليه من دقة التعبير في ذلك ، وهي دائما تسافر ومعها ملاءاتها ، وهي حيطة واجبة ، فهل تفعل « مسز تشرشل » مثلها ؟ »

« كوني واثقة بأن « مسز تشرشل » تفعل مثـل مايفعله غيرها من السيدات الفضليات ، وما من سيدة في الدولة تفوقها في ذلك لأن ... »

فقاطعته « مسز التن » :

« عجبـا يا « مستر وستن » لا تخطيء فهم ماقلت ، وأؤكد لك أن « سيلينا » ليست من السيدات المرهفـات ، وينبغي ألا يذهب بك الظن الى ذلك » .

« أليست من السيدات المرهفات ؟ اذن فهي لا يمكن أن تكون قدوة « لمسز تشرشل » التي لم تقع عيني على سيدة في مثل كمالها »

وبدأت «مسز التن» تفكر في أنها أخطأت في الحط من شأن «سيلينا» بهذا الحماس ، وأنها لم تكن تقصد بحال أن يعتقد بأن أختها ليست من أكرم السيدات ، ولعله كان ينقصها التحمس لو أنها زعمت ذلك . وبينما هي تفكر في أنسب الطرق للتراجع ، استطرد « مستر وستن » يواصـل حديثه :

« ليس « لمسز تشرشل » عنـدي مكانة عظيمـة كما قد يتبادر الى ذهنك ، وهذا شيء لا أبوح به لغيرك ، وهي شديدة الولع « بفرانك »

ولذا فأنى لا أذكرها بسوء ، وهى علاوة على ذلك معتـلة الصحة الآن ، وان كانت دائما ، على حد قولها هى نفسها معتلة شـاكية ، أنا لا أقول ما أقول يا مسز التن لكل الناس ، غير أنى لا أثق كثيرا فى مرض « مسز تشرشل » .

« ولماذا لا تذهب يا « مستر وستن » الى « باث » أو « كلفتون » ان كانت مريضة حقا ؟ »

« لقد ثبت فى ذهنها أن شدة البرد فى « أنسكومب » لا تلائمها ، أما حقيقة الأمر كما أظن ، فهو أنها قد سئمت الاقامة فى « أنسكومب » ، فلقد مكثت بها الآن مدة أطول مما اعتادته من قبل ، وبدأت تتوق الى التغيير .. انها مكان هادىء متعزل ، مكان جميل ولكنه منعزل جدا »

« أجل ، ولعله مثل « مايل جروف » ، فليس هناك مكان أكثر عزلة عن الطـــريق ، من « مايل جروف » ، وما أكثر ما حولهـا من مزارع شاسعة ، حتى ليبدو لك أنك قد انقطعت عن كل شىء وأنك فى عـزلة تامة . وقد لا تكون « مسز تشرشل » فى مثل صحـة « سيلينا » ولا فى حيويتها ، مما يجعلها قادرة على الاستمتاع بهذه العزلة ، وقد لا تتوافر لها المقومات الكافية لأن تحيا حياة الريف . اننى أقول دائمـا ان المرأة لا يتوافر لهـا كثير من تلك المقـومات ، وانى لكثيرة الحمد على كثرة ما يتوافر لدى من هذا ، مما يجعلنى فى غنى عن المجتمعات »

« لقد أمضى « فرانك » هنا أسبوعين فى شهر فبراير »

« أذكر أنى سمعت هـذا ، وسوف يجد عند عودته ، أن العشيرة فى « هايبرى » قد زادت واحدة ، هذا اذا أبحت لنفسى أن أكون أنا هـذه الزيادة ، ولعله لم يبلغه شىء عن وجود شخص مثلى » .

كان هذا استدرارا صريحا للثناء لم يغب عن فطنة « مستر وستن » فقال على الفور فى كياسة بالغة :

« سيدتى العزيزة ، ما من أحد غيرك يتصور أن هــذا ممكن ، ألم نسمع عنك ؟ انى أعتقد بأن خطابات « مسز وستن » الأخيرة ، كانت فى معظمها تفيض أكثر ما تفيض بالحديث عن « مسز التن » .

وشعر « مستر وستن » أنه قد أدى واجبه ، فعاد يتحدث عن ابنــه ويقول :

« لم نكن حين تركنا « فرانك » متأكدين من الوقت الذى نراه فيــه ثانية ، ولذا فقــد قوبل نبأ اليـــوم بترحيب مزدوج ، لأنه لم يكن فى الحسبان ، وان ظللت أجد ما يدفعنى الى الاعتقاد بأنه سيعود الينا سريعا ، نعم كنت على يقين بأن شيئا طيبا سيحدث لنا ، ولكن أحدا لم يصدقنى ، لقد كان هو و « مسز وستن » ، كلاهما فى منتهى اليأس ، لا يدريان كيف يرسم الخطة لعودته ، وكيف يمكن أن يتصور أن خاله وزوجة خاله سيخليان سبيله مرة أخرى ، وهكذا ... وكنت دائما أشعر بأن شيئا طيبا سيحدث ، وقد تم هذا كما ترين . بل لقد لاحظت يا « مسز التن » على مر الأيام أن الأمور اذا تعقدت وسارت على غير ما نشتهى شهرا ، فانهــا حتما تنصلح فى الشهر الذى يليه »

« ان ما تقول هو عين الصواب يا « مستر وستن » ، عين الصواب تماما ، وهذا ما كنت أقوله دائما لأحد السادة الذين كانوا معنــا وقت الخطوبة ، عندما كانت الأمور تتعثر ولا تسير بالسرعة التى يتمناها ، حتى صار أميل الى اليأس ، يؤكد بأنه لو استمر الحال بهذا البطء ، فان شهر مايو سيحل قبل أن تلبس العروس ثوبها البرتقالى الذى أخرجته محلات « هايمن » . وما أعظم ما كابدته لأزيل تلك الأفكار المقبضـــة عنــه ، واستبدل بها ماهو أكثر بهجة للنفس ، ثم ناهيك بالعربة وما أصابنا منها ، وانى لأذكر أنه جاءنى ذات صباح وهو يائس »

واانتابتها نوبة خفيفة فتوقفت ، واغتنم « مستر وستن » الفرصة وأخذ يواصل حديثه فيقول :

« لقد كنت تتحدثين عن شهر مايو ، وشهر مايو هو الشهر الذى أمرت فيه « مسز تشرشل » ، أو هى أمرت فيه نفسها بتمضيته فى لندن ، وهكذا يتحقق أملنا الجميل فى تكرار الزيارات من « فرانك » طوال الربيع ، وهو عين الفصل من فصول السنة الذى يجب أن يختار لمثل تلك الزيارات ، فالنهار فيه طويل ، والطقس بديع ممتع يغرى على الخروج ، وحرارته لا تشتد أبدا فتعوق الرياضة . وعندما كان « فرانك » هنا لم تفتنا فرصة للاستماع الا اغتنمناها ، ولكن الأمطار وقتها كانت غزيرة ، والطقس رطبا ومقبضا ، فهذا هو الحال دائما فى فبراير كما تعلمين ، وقد فوت علينا الجو نصف ماكنا قد عقدنا العزم على عمله ، وها قد حان الوقت الآن للاستمتاع ، ولن ينقصنا شىء من أسباب المتعة . على أننى لست أدرى يا « مسز التن » هل نحن أكثر غبطة لأننا غير متأكدين من موعد لقائه ، لأننا نترقب مجيئه ولا ندرى أيكون ذلك اليوم أو غدا ، أو فى أى ساعة من ساعات اليوم ، ... أو أننا نكون أكثر غبطة حتى يكون بيننا بالفعل . أظن أن الأمر كما أقول ، وأرى أن الحالة الذهنية هى التى تبعث على الانتعاش والسرور . على أنى آمل أن تجدى فى ابنى ما يسرك ، وان كان يجمل بك ألا تنتظرى العجائب ، فالناس ينظرون اليه عادة على أنه شاب ظريف ، ولكن لا تنتظرى شيئا خارقا للمألوف . ان افراط « مسز وستن » فى التحيز اليه كما قد يتبادر الى ذهنك ، يغمرنى بالسرور ، انها تظن أنه ليس له نظير » .

« أؤكد لك يا « مستر وستن » أنى أرجح أن تكون فكرتى عنه فى صالحه ، فلقد سمعت الكثيرين يثنون عليه ، ومن حقى أن تعرف فى

الوقت نفسه أننى دائما من هؤلاء الذين يحكمون بآرائهم ، ولا ينقادون الى رأى غيرهم دون أن يتحروا بأنفسهم ، وأن تدرك من الآن بأننى سوف أحكم على ابنك بعد أن أراه ، فلست أنا ممن يطرون الناس تزلفا » .

وكان « مستر وستن » غارقا فى أفكاره ، ثم لم يلبث أن قال :

« أرجو ألا أكون قد قسوت على «مسز تشرشل» المسكينة ويؤسفنى اذا كانت مريضة أن أكون قد تجنيت عليها ، غير أن فى خلقها بعض النواحى التى تجعل من العسير على أن أتحدث عنهـا بالأناة التى كنت أودها ، وليست صلتى بتلك الأسرة لتخفى عليك ، ولا أنت تجهلين المعاملة التى لقيتها ، وانى لأسر اليك بأنها وحدها الملومة على كل ماحدث ، فلقد كانت هى الرأس المفكرة فى كل ذلك ، وما كانت أم « فرانك » لتلقى الاهانات التى لقيتها لولاها . ان « مستر تشرشل » فيـه كبرياء ، ولكن كبرياءه لا يذكر بجانب كبرياء زوجته ، وهو فى كبريائه كالسـادة ، شامخ الأنف متعفف عن الاساءة ، ليس منه ضرر لأحد ، وان بدا عديم الحيلة متعبا . أما كبرياؤها ففيه غطرسة وغلظة . ومما يجعل الانسان يضيق بها ذرعا ، أنها لا يمكن أن تدعى الانتماء الى أسرة عريقة ، فهى ليست كريمة المنبت ، ولم تكن وقت اقترانه بها شيئا يذكر ، فيما عدا أنها كانت ابنـة أحـد السادة . ولكنها منذ أن اندمجت فى أسرة « تشرشل » بزتهم جميعـا فى مباهاتها بأمجادها وعلو شأنها ، وأؤكد لك أنها فى ذاتها كانت من محدثى النعمة »

« يا للعجب !! ان هذا يكفى لأن يخرج المرء عن شعوره ، انى أمقت محدثى النعمة كل المقت ، ولقد جعلتنى « مايل جروف » أمج هذا الصنف من الناس ، ذلك لأن فى تلك الناحية أسرة تنغص العيش على أخى وأختى لما عليه أفرادها من تعاظم واستعلاء ، ولقد جعلنى وصفك «لمسز تشرشل»

أفكر فيهم فى الحال ، ويطلق على هذه الأسرة اسم « تاپمان » ، وقد استوطنوا تلك الجهة منذ عهد قريب ، وهم يمتون بالقرابة الى عدد كبير من حثالة الناس ، ولكنهم يشمخون بأنوفهم ويتعالون ، ظنا منهم بأنهم على قدم المساواة مع الأسر العريقة ، ولما يمض على اقامتهم فى «وستهول» سنة ونصف على أكثر تقدير . وما من أحد يعرف كيف آلت اليهم أموالهم . لقد أتوا من « برمنجهام » وهى كما تعلم يا « مستر وستن » بلدة لا تعقد عليها آمال جسام وانى ، أقول دائما فى اسمها وقرا على الاسماع ، ولكن لا أحد يعلم أكثر من هذا عن أسرة « تاپمان » ، ولو أنى أؤكد لك بأن هناك أشياء كثيرة يذهب اليها الناس فى ظنونهم عن هذه الأسرة ، وهم مع ذلك يتخيلون كما يتضح من مسلكهم ، أنهم على قدم المساواة مع أخى « مستر سكلنج » ، الذى شاءت الأقدار أن يكون من أقرب جيرانهم . انه لشىء قبيح وزعم سخيف منهم — أن « مستر سكلنج » قد استوطن « ماپل جروف » احدى عشرة سنة ، وكان والده مقيما بها من قبله ، كما أعتقد بل وأؤكد أن «سكلنج» الكبير كان قد انتهى من شراء البيت قبل أن يموت » .

وحدث ما قطع عليهما الحديث ، اذ كانت أقداح الشاى توزع على الحاضرين . ولما كان « مستر وستن » قد أفرغ كل ما فى جعبته ، فقد اغتنم الفرصة لكى ينصرف عنها .

فلما انتهوا من تناول الشاى ، جلس كل من « مستر وستن » وزوجته، و « مستر التن » ، مع « مستر وودهاوس » يلعبون الورق ، بينما بقى الخمسة الباقون يفعلون ما يحلو لهم .

وساور « اما » الشك فى انسجام جماعتهم ، فقد بدا « مستر نيتلى » أقل ميلا للحديث ، بينا كانت « مسز التن » تود أن تكون موضع الاهتمام،

فى حين لم يرد أحد أن يظهر اهتمامه بها ، فضلا عن أنها هى نفسها لم تكن منشرحة الصدر فآثرت السكوت .

أما مستر « چون نيتلى » فقد أثبت أنه كان أكثر كلاما من أخيه ، وكان موعد سفره فى باكورة اليوم التالى ، فأخذ يقول :

« أجل يا « اما » انى أعتقد بأنه لا حاجة بى الى مزيد من الحديث عن الأولاد ، ولديك خطاب أختك ، كل شىء دون فيه باسهاب ، أما مهمتى اليك فهى أكثر تركيزا ، وتختلف فى روحها عما جاء فى خطاب أختك . ان كل ما أوصى به هو ألا تدلليهما ، أو تعطيهما دواء » .

فقالت « اما » : « آمل أن أرضيكما معا ، وسأبذل قصارى جهدى لاسعادهما ، وفى هذا مافيه الكفاية « لايزابلا » ، فالسعادة والسرور يبعدان عنهما الحاجة الى الدواء ، ويجنبانهما الميل الى التدليل »

« وان وجدتيهما سببا للمتاعب ، فعليك أن ترسليهما الى بيتهما ثانيا » .

« هذا محتمل جدا ، انك تظن ذلك ، أليس كذلك ؟ »

« انى أشعر أنهما قد يكونان مبعث ضجيج وجلبة لأبيك وربما كانا سببا فى تعطيلك ، اذا كانت زياراتك ستستمر على هذه الزيادة كما هو الحال أخيرا » .

« الزيارة ؟ » .

« بالتأكيد ، ولا بد أنك تشعرين بأن هناك اختلافا عظيما فى تصرفاتك فى غضون السنة الأخيرة » .

« اختلاف !! لا وأيم الحق ، ما اختلفت فى شىء »

« لا شك أنك أصبحت أكثر ميلا الى المجتمعات عما كانت عادتك ، وما عليك الا أن تتأملى الآن ما نحن فيه ، لقد جئت هنا لأقضى يوما

واحدا ، فاذا بى أجدك قد ارتبطت بوليمة عشاء . متى كان يحدث هـذا أو يشبهه من قبل ؟ ان سكان المنطقة فى تزايد ، وبالتالى سيزداد اختلاطك بالناس ، وكل خطاب يصل منك الى « ايزابلا » فى الفترة الأخيرة فيـه وصف لمباهج جديدة ، ومآدب عشاء بدار « مستر كول » ، وحفـلات راقصة فى « نزل التاج » ، ثم هذا الاختلاف الذى طرأ عليك ، وتجلى فى كثرة خروجك والذى لم يأت الا عن طريق « راندولز » .

وأسرع أخوه يقول : « أجل ، ان « راندولز » هى السبب فى كل ذلك » .

« حسنا جدا ، وما دام يوجد احتمال كما أظن ، فى أن يقـل سلطان « راندولز » عما هو الآن ، فمن الممكن يا « اما » أن يكون « هنرى » و « چون » عقبة فى طريقك أحيانا ، فان كان هذا ، أرجو أن ترسليهما الى بيتهما ».

وصاح « مستر نيتلى » : « لا ، ليس ثمة ما يدعو الى أن تصـل الأمور الى هذه النتيجة ، وليرسلا الى « دونول » ، فلن يكون عنـدى ما يشغلنى عنهما » .

وصاحت « اما » : أؤكد لك أنك تدفعنى الى الضحك ، وأود أن أعلم كم من ارتباطاتى العديدة تتم دون أن تكون أنت بين الجماعة . ثم لماذا يظن بأن هناك خطرا من عدم وجود فراغ عندى لأرعى الأولاد الصغار ؟ وما هى تلك الارتباطات العجيبة التى كانت لى ؟ هل هى مأدبة العشاء التى كانت فى بيت « كول » ؟ أم هى ما تحدثنا عنه لاقامة حفلة راقصة لم تتم ؟ ثم أومأت برأسها الى مستر « چون نيتلى » وقالت :

« انى أفهمك ، لقد كنت سعيد الحظ لالتقائك بأصدقائك العديدين هنا ، ولقد غمرك هذا بالسرور فلم ترد أن يمر هذا دون ملاحظة » .

والتفتت هنا الى « مستر نيتلى » وقالت :

« ولكنىَ لا أكاد أتخيّل لماذا وأنت تعلم أنى من نادر النادر أن أبتعد عن « هارتفيلد » ساعتين كاملتين ، تتنبأ بمثل هذه المباذل التى أمضى فيها الوقت عبثا . أما عن الصغار الأعزاء ، فلا بد لى أن أقول انه اذا لم يتسع لهما وقت خالتهما « اما » ، فلن يكونا أسعد حالا مع عمهما « نيتلى » ، الذى يغيب عن بيته ما يقرب من خمس ساعات ، بينما هى لا تغيب عن بيتها ساعة واحدة ، وحتى اذا ظل فى البيت فهو منصرف اما الى القراءة ، واما الى تسوية حساباته » .

وبدا كأن «مستر نيتلى» يحاول ألا يبتسم ، وقد نجح فى ذلك بالفعل دون مشقة ، عندما أخذت « مسز التن » تتحدث اليه .

الفصل السابع والثلاثون

كان قليل من التفكير الهادىء كافيــا لتعلم « اما » كنه الاضطراب الذى أصابها عند سماعها أنباء « فرانك تشرشل » ، وسرعان ما تأكد لها أنها لم تكن تخشى على نفسها أو تقلق ، وإنما كان خوفا وقلقها من أجله . لقد تضاءل تعلقها به حتى أصبح وكأنه لا شيء يستحق أن يشغل تفكيرها. أما ماكان يؤرقها فهو أن يعود ، وهو الذى ولا شك أكثر الاثنين حبا ، وهو يحمل نحوها نفس المشاعر الملتهبة التي كان يحملها لها وقت سفره . فاذا كان فراقهما شهرين لم يذهب بلواعج حبه ، اذن فالمكاره تتربص بها والخطر لابد محيق بها ، ولابد من الحيطة من أجلها ومن أجله معا . فلقد كانت مصممة على ألا تقع فى حبائل حبه مرة أخرى وترى أن من واجبها ألا تعمل على تشجيعه .

وودت لو تمكنت من الحيلولة دون افصاحه عن كوامن مشاعره ، فان ذلك سيكون خاتمة مؤلمة لتعارفهما . ومع هذا فلم يكن فى وسعها الا أن تترقب شيئا حاسما ، وشعرت بأن الربيع لن يمر بغير أزمة أو حادثة تقلب هدوءها الخالى وتحيل سكينتها اضطرابا »

ولم يمض وقت طويل ، ولو أنه كان أطول مما كان « مستر وستن » يتوقع ، قبل أن تتمكن من تكوين فكرة عما يعتمل فى نفسى «فرانك تشرشل» من المشاعر . ولم تأت أسرة « أنسكومب » الى المدينة فى وقت قريب كما رسم لهم خيالهم . ولكنه لم يلبث أن قدم الى « هايبرى » بعد مجيئه الى المدينة بقليل ، أتى ليقضى فيها ساعتين ، فلم يكن فى وسعه أن يقضى فيها أكثر من ذلك فى تلك الرحــلة . ولمــا كان قد حضر من « راندولز » الى

« هارتفيلد » مباشرة فقد كان فى استطاعة « اما » أن تتفحصه ، وأن تقرر بسرعة ما عليه حالتــه ، وما عليها أن تفعلــه . وكانت المقابلة على أعظم ما يكون من المودة ولم يكن هناك أقل شك فى سروره البالغ لرؤيتها ، ولكن الشك خالجها فى الحال ، فى أن اهتمامه بها لم يكن كسابق عهــده وأن مشــاعره نحوها لم تكن بنفس العــذوبة والرقة التى كانت عليه . وراقبته بدقة فاتضح لهــا أنه أقل هياما بهــا مما كان قطعا ، ولعل غيابه واعتقاده بعدم اكتراثها به ، كان لهما هذا الأثر الطبيعى الذى كانت ترجوه .

لقد بدا مبتهجا للغاية ، مقبلا على الحديث والضحك كما كان دائما ، وكان يحلو له أن يردد الحديث عن زيارته السابقة ويستعيد ما مضى من حوادثها . ولكن حديثه لم يكن خلوا من الانفعال . ولم يكن اكتشافها بأنه أصبح أقل اهتماما بها نتيجــة هدوئه ، كلاّ فهو لم يكن هادئا ، بل كان قلقا مضطرب لا يستقر على حال . كان مبتهجا ، ولكن ابتهاجه بدا وكأنه غير صادر من أعماق نفسه . أمّا ما الذى جعلها تقطع برأيها فى الأمر ، فهو بقاؤه عندهم ربع ســاعة لا تزيد ، ثم خروجه مسرعا ليقوم بزيارات أخرى فى « هايبرى » : فلقد صادفه فى طريقه جماعة من المعارف القدامى ، فلم يقف الاّ ليتبادل معهم كلمة أو كلمتين ، ولكن غروره جعله يظن بأنهم سيشعرون بخيبة أمل ان لم يقم بزيارتهم ، وأنه لابد لذلك فى أن يسرع بالخروج ، مع أنه كان يود أن يمكث فى « هارتفيلد » وقتا أطول .

ولم تشك « اما » فى أنه قد أصبح أقل تعلقا بها ولم تكن مشــاعره المضطربة ، ولا اسراعه بالخروج ، تبدو أنها خلّصته كلية من حبه ، ومن ثم فقد كانت تميل الى الظن بأن مرد ذلك ما كان يخشاه من عودة تأثيرها عليه، وأنه كان قد عقد العزم على أن يكون حذرا ، وألايجعل زمامه بين يديها بعد الآن .

وكانت هذه الزيارة هي الوحيدة التى قام بها « فرانك تشرشل » فى غضون عشرة أيام ، وكان دائما يعتذر لمن فى « راندولز » بأنه كان « يأمل الحضور » أو أنه كان « عازما على الحضور » ولكنه « كان يجد دائما ما يمنعه من ذلك » وأن « زوجة خاله لم تكن تحتمل أن يبتعد عنها » . على أنه اذا كان مخلصا فيما يقول ، أو أنه حاول المجىء حقا ، كان لنا أن نستنتج بأن انتقال « مسز تشرشل » الى لندن لم يكن ذا أثر فعال فى برئها من مرضها العصبى ، أو مرضها الذى تزعمه .

لقد قال فى « راندولز » بأنه متأكد من مرضها ، وانها حقا مريضة جدا ، وانها على الرغم من أن الكثير من أمراضها كانت أمراضا وهمية وبعيدة عن الحقيقة ، الا أنه أصبح لا يشك الآن ، وقد عاد بفكره الى الماضى ، فى انها صارت أضعف مما كانت عليه منذ نصف عام ، وان كان لا يعتقد أنها مريضة بعلة لا يمكن برؤها منها بالعناية والدواء ، أو يشك فى أنها لن تعمر طويلا . ولم تستطع كل ظنون أبيه أن تحمله على الاعتراف بأن أمراضها ليست الا من صنع الخيال أو أنها لا زالت قوية البنيان كما كانت .

ولم يمض غير وقت طويل حتى ظهر بأن لندن ليست بالمكان الذى يوافقها ، فهى لم تقو على تحمل ضجيجها ، فتوترت أعصابها باستمرار ، وزادت آلامها . وسرعان ما وصل الى « راندولز » فى نهاية الأيام العشرة ، من ابن أخت زوجها ما يفيد تغيير خطتها ، وأنهم سيرحلون حالا الى « ريشمند » حيث يتولى علاجها طبيب ذائع الصيت هناك ، فضلا عن أن ذلك المكان يستهويها وأنهم من أجل ذلك استأجروا بيتا مؤثثا ، فى بقعة جميلة ، وأن من المنتظر أن تستفيد من هذا التغيير كثيرا .

وبلغ « اما » أن « فرانك » كان يبدو مغتبطا كل الاغتباط وهو يشير

فى خطابه الى هذا الاجراء ، وأنه يقدر كثيرا نعمة بقائه شهرين قريبا من أصدقائه الأعزاء العديدين . فلقد استأجروا البيت لشهرى مايو ويونيو . كذلك علمت « اما » بأنه كتب الآن يقول انه واثق كل الثقة من أنه سيكون معهم فى « راندولز » كثيرا ، بل وكلما أراد .

وأدركت « اما » ما كان لهذه الآمال الجميلة من أثر فى نفس « مستر وستن » ، وأنه كان يعتبرها مصدرا لكل ما أتت به هذه الآمال من سعادة، وودت لو أن هذا لم يكن . على أن فترة الشهرين كانت كفيلة بوضع ظنونه موضع الاختبار .

نعم فلم يكن هناك شك فى فرحة « مستر وستن » ، فقد كان مغتبطا الاغتباط كله ، لقد كان ذلك هو كل مايرجوه ، اذ أصبح وجود «فرانك» بالقرب منهم أمرا محققا . وماذا على شاب من مسافة أميال تسعة ؟ انها لا تستغرق الا ركوب ساعة واحدة ، وسوف يتردد عليهم دائما ، والفرق بين المسافة وهو فى لندن ، وبينها وهو فى « ريشمند » ، هو الفرق بين رؤيته دائما أو عدم رؤيته أبدا . لقد كانت المسافة ستة عشر ميلا ، بل هى لابد أن تكون ثمانية عشر ميلا الى شارع « منشستر » ، وهى عائق كبير فى سبيل حضوره ، واذا هو تمكن من الرحيل ، فأنه سوف يقضى يومه فى المجىء والرجوع . ومن ثم فلم يكن لوجوده فى لندن أية فائدة لهم ، ووجوده فيها أو فى « أنسكومب » سيان . ولكن المسافة من « ريشمند » تسهل عليه الاتصال بهم ، وهى أسهل عليه مما لو كان فى مكان أقرب من ذلك .

وقد تحقق بهذا الانتقال شىء جميل جاء سريعا وعاجلا ، ذلك هو الحفل الذى يقام فى « نزل التاج » ، وهو حفل لم ينسه أحد ، وان كان من العبث محاولة تحديد يوم لاقامته قبل الآن ، أما الآن فقد صار من

الممكن تحديد موعــده . واستؤنفت الاستعدادات .ولم يمض غير وقت قليل على انتقال أسرة « تشرشل » الى « ريشمند » حتى وصل خطــاب موجز من « فرانك » يقول فيه ان زوجة خاله قد شعرت بتحسن كبــير نتيجة لهذا التغيير ، وأنه أصبح لا يشك فى أن بوسعه أن يقضى معهم أربعا وعشرين ساعة فى أى وقت ، وشجعهم ذلك على تحديد اليوم ، وجعله فى وقت قريب بقدر الامكان . لقد أصبحت الحفلة الراقصة التى سيقيمهــا « مستر وستن » أمرا محققا ، ولم تبق الا أيام قلائل لكى يسعد شباب « هايبرى » .

واستسلم « مستر وودهاوس » ولم يعارض ، فقد خفف عنه هــذا الفصل من السنة بعض ماكان يخشاه ، فأن شهر مايو أفضل من شهر فبراير فى كل شىء .

واتفقــوا على أن تمضى « مسز بيتس » الأمسية فى « هارتفيلد » وأخطر الحوذى « جيمز » بالاستعداد ، وكان أمل مستر وودهاوس عظيما فى أنه لن يلحق « هنرى » ولا « جون » الصغيرين أى ضرر فى غياب«اما» عن البيت..

الفصل الثامن والثلاثون

لم يحدث هذه المرة ما يكدر الصفو أو يمنع الحفلة الراقصة ، واقترب اليوم ، ثم حان موعده ، وبعد صباح ساده شيء من قلق الانتظار وصل « فرانك تشرشل » الى « راندولز » بنفسه وبعينه قبل العشاء . وأمنوا كل شيء .

ولم يكن حتى الآن قد قابل « اما » مرة أخرى . فقد كان من نصيب قاعة « نزل التاج » أن تشهد هذه المقابلة ، وأن تكون مقابلة تفوق مجرد مقابلة عادية وسط جمهرة من الناس . فلقد ألحف « مستر وستن » فى رجائه « لاما » بأن تبكر بالحضور قبل غيرها لاستشارتها فى مدى صلاحية الحجرة ، ومدى ماتهيئه للمدعوين من أسباب الراحة . وقد بلغ به الحاحه والحافه حدا لم تكن تستطيع معه الا أن تستجيب لرجائه . ومن ثم كان عليها أن تمضى بعض الوقت فى هدوء مع الفتى . وكان على « اما » أن تصحب « هاريت » معها ، فسارت العربة بهما الى « نزل التاج » ، ووصلتا فى الوقت المناسب عقب وصول أسرة « راندولز » مباشرة .

وبدا عند وصولهما أن «فرانك تشرشل» كان يترقب فى قلق ، وعلى الرغم من أنه لم يكثر من الحديث ، فقد كانت عينـــاه تنطقان بعزمه على قضاء أمسية ممتعة ..

وأخذ الجميع يجوبون أرجاء المكان ليروا أن كل شيء كان كما يجب ، وانضم اليهم فى غضون دقائق قليلة ، راكبو عربة أخرى ، كان لسماع صوت عجلاتها دهشة عظيمة عند « اما » ، وأوشكت أن تقول متعجبة :

« ما أبعد تبكيرهم بالحضور عن الحكمة ! » لولا أنها وجدتها أسرة من قدامى الأصدقاء ، جاءوا كما جاءت هى ، استجابة لرغبة « مستر وستن » فى الاستعانة برأيهم . وجاءت فى اثر هؤلاء عربة أخرى ، فيها بعض أبناء العمومة كانت وصلتهم دعوة تحمل نفس الرجاء بأن يبكروا بالحضور للغرض نفسه ، حتى بدا كأن نصف المدعوين سيجتمعون بعد قليل لابداء رأيهم فى الاستعدادات .

ولاحظت « اما » أنها ليست هى وحدها التى رأى « مستر وستن » الاعتماد على سلامة ذوقها . وشعرت بأن كبرياءها لن يتحقق لمجرد أنها السيدة المفضلة عند رجل يصطفيها لتكون موضع ثقته . لقد كانت تحب فيه الصراحة ، ولكنها كانت ترى فى الوقت نفسه أنه لو قلل من طيبة قلبه لكان على خلق أفضل ، فأن ما يجعل الانسان مثاليا ، هو أن يكون عطوفا على الجميع ، لا أن يكون صديقا للجميع . هذا هو الرجل الذى يظفر بأعجابها .

وانطلق الجماعة يجوبون أرجاء المكان ، ويتأملون ، ويكررون الثناء مرة بعد مرة ، فلما فرغوا من كل شىء ، انتظموا فى نصف حلقة حول المدفأة ليبدى كل منهم ما يعن له من الملاحظات ، الى أن أثير موضوع جديد ، هو أن الشهر قد يكون شهر مايو ، ولكن اشعال المدفأة فى المساء كان مع ذلك لا يزال مستحبا .

واكتشفت « اما » أن الذنب لم يكن ذنب « مستر وستن » اذا كان عدد المستشارين الخصوصيين قد وقف عند هذا العدد ولم يزد عليه ، اذ كانتا قد وقفتا عند بيت « مسز بيتس » ليقولا ان العربة تحت أمرهن ، فعلمتا أن الخالة وابنة الأخت سوف تأتيان فى عربة أسرة « التن » .

وكان « فرانك تشرشل » يقف بجوارها ، ولكنه لم يكن مستقرا ، بل

كان قلقا ، مما دل على أنه كان يفكر فى شيء يؤرقه ، وكان ينظر حوله ، ويتجه ببصره نحو الباب يترقب قدوم عربات أخرى . فهل كان قلقه لأنه لم يعد قادرا على الصبر حتى يبدأ الحفل ، أم لأنه كان يخشى وجوده الى جوارها دائما .

وجاء ذكر « مسز التن » فقال : « أظنها ستكون هنا بعد قليل ، فأنا شديد اللهفة على رؤيتها ، فقد سمعت عنها الكثير ، فظنى أنها ستأتى بعد فترة وجيزة » .

وسمع صوت عربة آتية ، فتحرك فى الحال ، ولكنه عاد وقال : « لقد نسيت أننى لم يسبق لى التعرف بهـا ، وأنى لم أر « مستر التن » ولا « مسز التن » من قبل ، ولا يليق بى أن أكون فى المقدمة » .

وأقبل « مستر التن » وعقيلته ، وارتسمت على الأفواه الابتسامات كما تبودلت التحيات . ونظر « مستر وستين » حوله وقال : « ولكن أين « مس بيتس » و « مس فيرفاكس » ، لقد كنا نعتقد أنكما ستحضرانهما معكما » ؟ .

لقد كانت هفوة ، ولكنها هفوة بسيطة ، وسرعان ما أرسلت اليهمـا العربة على الفور .

وتاقت « اما » الى معرفة أول رأى يكونه « فرانك » لنفسـه عن « مسز التن » ، وكيف يكون تأثير أناقتها المدروسة عليه — بملابسـها الأنيقة وابتساماتها المستعلية . وقد استعد بالفعل ليكون لنفسه رأيا فيها ، فوجه كل انتباهه اليها بعد أن انتهى من التعرف بها .

وعادت العربة بعد دقائق قليلة ، وكان البعض يتحـدث عن سقوط بعض الأمطار ، فقال « فرانك » لأبيه : « سأرى يا سيدى ان كانت هناك مظلات للوقاية من الأمطار ، فلا ينبغى أن ننسى « مس بيتس » . »

ثم خرج ومن ورائه ســار « مستر وستن » ، ولكن « مسز التن » استوقفت « مستر وستن » لتقول له عن ابنه ما يرضى نفسه ، وسرعان ما أخذت تدلى برأيها ، فبدأت بصوت جعل حديثها مسموعا من الفتي ، رغم أنه لم يكن يتمهل فى مشيته ، فسمعها وهى تقول : « لا شك أنه شاب ظريف جدا يا « مستر وستن » ، ولقد أخبرتك صراحة بأنى سأكون عنه فكرة مستقلة ، ويسرنى أن أقول انى شعرت بعظيم السرور لرؤيته . كن واثقا من قولى هذا ، فلست ممن يطرون الناس أبدا ، نعم انى أراه شابا ظريفا للغاية ، فيه من جميل الخصال ما يعجبنى ويلقى هوى فى نفسى ! انه ولا جدال أنموذج للسيد الكامل ، وليس به أثر من الغرور ، ولا فى دلال الشبان الذين أمقتهم كل المقت . وما من أحد فى « ماپل جروف » يحتملهم ، فلا « مستر سكلنج » ولا أنا نستطيــع أن نحتملهم ، وكنـــا نرميهم أحيانا بأقذع كلام يمكن أن يجرح شعورهم . أما « سيلينا » وهى على ما هى عليه من الوداعة المعيبة أحيانا ، فكانت أكثر منا تحملا لهم » .

وكان « مستر وستن » يوليها كل انتباهه وهى تتحدث عن ابنه ، فلما أخذت تتحدث عن « ماپل جروف » ، تذكر أن هناك سيدات قد أقبلن ، وأن عليه أن يعنى بهن ، ووجد لزاما عليه أن يسرع بالانسحاب فى ابتسامة عذبة .

والتفتت « مسز التن » الى « مسز وستن » تقول :

« لا شك أنها عربتنا وفيها « مس بيتس » و « چين » . ان خوذينـــا وخيولنا كلها فى منتهى السرعة ، وأعتقد أنه ليس هناك ما هـــو أسرع منها ، ثم ما أعظمه من سرور أن يبعث المرء بعربته الى صديق !! لقـــد فهمت بأنكم تكرمتم بتقديم عربتكم ، ولكن لا ضرورة لذلك أبدا مرة أخرى ، وكونوا واثقين بأنى سأرعاهما دائما» .

ودخلت « مس بيتس » ومعها « مس فيرفاكس » الى الحجرة يصحبهما السيدان ، وبدت « مسز التن » كما لو كانت يظن أن من واجبها ، بقدر ما هو من واجب « مسز وستن » تماما ، أن تتقدم لاستقبالهما . ولم تكن ايماءاتها ولا حركاتها لتخفى على واحدة مثل « اما » بعينها الفاحصة ، غير أن كلامها وكلام غيرها ، سرعان ماغاب عن الأسماع فى الحال تحت وابل من حديث « مس بيتس » ، التى دخلت وهى تتكلم ، ولم تنته من كلامها الا بعد وقت طويل من جلوسها معهم حول المدفأة . اذ ما كاد يفتح الباب حتى سمعت وهى تقول :

« ما أكرمكم !! وليس هنـاك مطر اطلاقا ، انه ليس بالمطـر الذى يؤبه له ، وأنا لست قلقة على نفسى ، والحذاء سميك تماما — لقد قالت « چين » (حالما دخلنا من الباب) : « شىء جميل ، شىء جميل !! هـذا ولا شك شىء فخم ، انه جدير بالاعجـاب !! انه ولا ريب فائق التنسيق ولا ينقصه شىء . نعم ، ما كان يجول بخاطرى شىء من هذا ، والاضاءة عظيمة . چين ، ! چين ! چين ! أنظرى ، هل رأيت شيئا كهذا ؟ — آه مستر وستن ! لابد أنك تملك مصباح علاء الدين ، ان « مسز ستوكس » الطيبة لن تعرف حجرتها بعد الآن . لقد شاهدتها ساعة دخولى ، وكانت واقفـة بالمدخل فقلت : « أهلا مسز ستوكس » ! ولكن لم يكن لدى من الوقت ما يسمح لى بأن أقول أكثر من ذلك »

والتقت فى تلك اللحظة « بمسز وستن » فانطلقت تقول : « جميـل جدا وأشكرك يا سيدتى ، وأرجـو أن تكونى بخير ، ويسرنى أن أسمع ذلك ، انى أخشى أن يكون قد ألم بك صداع ، لأنى أراك تتنقلين هنـا وهناك كثيرا ، وأنا أعلم ما أنت فيه من متاعب كثيرة . انه يسعدنى سماع ذلك ولا شك ، آه !! ها أنت يا عزيزتى « مسز التن » كم أنا شاكرة لك

من أجل العربة ! لقد جاءت فى أنسب وقت ، وكنت أنا و « چين » على أتم استعداد ، ولم نعطل الخيل لحظة ، وهى عربة مريحة للغاية ، ولا شـك يا « مسز وستن » أننا مدينون لك بالشكر على حسن صنيعـك . ان « مسز التن » كتبت لچين بذلك ، والا كنا جئنا فى عربتك ، ما أجمل أن يقدم لنا فى يوم واحد عرضان كهذين !! أؤكد لك يا سـيدتى أنى قلت لوالدتى انى لم أجد جيرانا مثل هؤلاء — أشكرك ، ان والدتى تتمتـع بكامل الصحة ، انها ذهبت الى بيت « مستر وودهاوس » ، وقد جعلتها تأخذ شالها معها لأن الطقس لا يكون دافئا فى المساء . وهو شالها الكبير الجديد ، وقد أهدته لها « مسز دكسون » بمناسبة عقد قرانها ، وكم كان كريما منها أن تفكر فى والدتى !! انها اشترته من متجر فى « ويموث » وهو من اختيار « مستر دكسون » ، وتقول « چين » انه كان هناك ثلاثة شيلان غيره ، وانهم ترددوا بعض الوقت فى أيها يختارون ، وفضل المقدم « كامپبل » الشال الزيتونى اللون ، هل أنت متأكدة يا عزيزتى « چين » بأن قدميك لم تبتلا ؟ انها كانت قطرة أو قطرتين فقط ، ولكنى شـديدة الخوف ، غير أن مستر « فرانك تشرشل » كان عظيما ، فقد كان هنـاك حصـير لنخطو فوقه ، ولن أنس أبدا أدبه الجم . ولا بد لى أن أخبرك يا مستر « فرانك تشرشل » بأن نظارة أمى لم يطرأ عليهـا أى خلل من وقتها ، ولم يخرج المسمار من مكانه ثانية ، ووالدتى تتحـدث فى معظم الأوقات عن دماثة خلقك ، « أليس كذلك يا « چين » ؟ ألا تتحدث غالبا عن مستر فرانك « تشرشل » ؟ آه !! ها هى « مس وودهاوس » كيف حالك يا عزيزتى « مس وودهاوس » ؟ — على أحسن حال ؟ أشكرك وأنا بصحة جيدة — هذا اجتماع عقد فى فردوس الخيال ، ما أعظم التغيير من حال الى حال ! » (ونظرت الى « اما » نظرة تحمل كل معـانى الرضى)

وقالت : « يجب ألا ألهج بالمديح ، لأنى أعلم بأن ذلك ليس من أدب السلوك ، ولكن ثقى يا « مس وودهاوس » بأنك تبدين — لكن ما رأيك فى شعر « چين » ؟ انى أكل لك الحكم على ذلك ، انها عملت كل ما فيه بنفسها ، ما أدهش تصفيفها لشعرها !! ولا أظن أن حلاقا من لندن يقدر على مثل ذلك ، ثم ها هو الدكتور « هيوز » وعقيلته قد أقبلا ، ولا بد لى من التوجه لأتحدث معهما لحظة — كيف حالكما ؟ — وكيف حالك ؟

أين العزيز « مستر رتشارد » ؟

آه !! ها هو هناك لا تزعجاه ، وأفضل له أن يشغل بالحديث مع الشابات » .

كيف حالك يا « مستر رتشارد » ؟ لقد رأيتك بالأمس وأنت تجوب المدينة بعربتك .

وها هى « مسز أوتواى » و « مستر أوتواى » الرجل الطيب ، وكذلك « مس أوتواى » و « مس كارولين » ، ما أجمل هذه الطائفة من الأصدقاء !! وها هو « مستر چورچ » و « مستر آرثر » !! كيف حالكما ؟ وكيف حالكن جميعا ؟ .

نحن بخير ، وأنا شاكرة جزيل الشكر ، وما كنا أحسن مما نحن عليه الآن أبدا — صه !! ألست أسمع عربة أخرى ؟ من يا ترى يكون هؤلاء ؟ — يحتمل جدا أن تكون عربة أسرة « كول » الأجلاء — الحق أن وقوفى بين أصدقاء كهؤلاء شيء يملأ القلب بهجة وسرورا ، وما أعظم تلك النار التى نستدفىء حولها !! ان حرارتها تكاد تشوينى تماما — لست أريد قهوة وشكرا لأنى لا أتناول القهوة أبدا ، وان تفضلت يا سيدى فليكن قليل من الشاى ، وأمامك الوقت فيه متسع ، فليس هناك ما يدعو الى العجلة آه !! ها هو الشاى قد حضر ، ان كل شيء على ما يرام ! » .

وعاد « فرانك تشرشل » الى مكانه بجانب « اما » التى وجدت نفسها عندما سكتتت « مس بيتس » ، مضطرة الى الاصغاء الى حديث « مسز التن » و « مس فيرفاكس » ، وكانتا تقفان خلفها على مسافة قصيرة منها . أما هو فكان سابحا فى بحر من التفكير ، فلم تدر اذا كان هو كذلك منصتا للحديث الذى يجرى خلفه .

وبعد أن أسهبت « مسز التن » فى امتداح مظهر « چين » وجمال ردائها ، وتقبلت «چين» ذلك منها قبولا حسنا ، بدا واضحا أن«مسز التن» كانت تريد أن تكون هى الأخرى موضع المديح والاعجاب ، فأخذت تسأل :

« ما رأيك فى فستانى ؟ وما رأيك فى التطريز ؟ وماذا ترين فى تسريحة « رايت » لشعرى ؟ ، وتلقت على هذه الأسئلة وعلى كثير غيرها اجابات تتسم بالأناة والأدب .

ثم قالت « مسز التن » :

« ما من أحد أقل منى تفكيرا فى الملابس بوجه عام ، ولكننى فى مثل هذه المناسبات ، وأنظار الناس جميعا تتجه الى ، وكذلك اكراما لأسرة « وستن » التى لا أشك أنها أحيت هذه الحفلة الساهرة خاصة لتكريمى ، فأنى لا أريد أن أكون أقل من غيرى ، وأنا لا أرى فى الحجرة باستثناء ما على من اللآلىء ، الا عددا قليلا منها . لقد فهمت أن « فرانك تشرشل » راقص ممتاز ، وسوف نرى ان كانت طريقتنا فى الرقص متوافقة . ان « فرانك تشرشل » ولا شك شاب ظريف ، وانى معجبة به كثيرا »

وأخذ « فرانك تشرشل » يتحدث بقوة فى تلك اللحظة حتى خطر ببال « اما » انه لابد قد سمع اطراءه ، وأنه لا يريد أن يستمع الى مزيد منه . وخفت صوت السيدتين فى تهلك اللحظة حتى علا صوته على صوتهما

فترة من الوقت الى أن كفّ عن الكلام مرة ثانية ، فظهر صوت « مستر التن » واضحا ، وانضم اليهما فى تلك اللحظة « مستر التن » ، فقالت زوجته متعجبة » .

« آه !! لقد عثرت علينا أخيرا ونحن فى عزلتنا . لقد كنت فى تلك اللحظة أقول لجين بأنك ستكون فى اشتياق الى سماع أخبارنا » .

وانطلق « فرانك تشرشل » يردد قولها وعلى وجهه مظاهر الدهشة وعدم الرضى :

« جين !! جين !! انه لأمر هين أن تناديها هكذا ، ولكنى أرى أن « مس فيرفاكس » لا تعارض فى ذلك »

وقالت « اما » همسا : « كيف وجدت « مسز التن ؟ »

« لا شىء أبدا »

« انك جاحد »

« جاحد ؟ وماذا تعنين ؟ »

ثم انبسطت أسارير وجهه ، وانقلب عبوسه ابتساما .

وقال : « لا ، لا تقولى شيئا لى ، أنا لا أريد أن أعلم ما تعنين ... أين والدى ؟ ومتى سيبدأ الرقص ؟ »

ولم يسهل على « اما » أن تفهمه ، اذ بدا لها متقلب الأهواء مضطرب المزاج ، ثم انصرف ليبحث عن والده ، ولكنه عاد مسرعا ومعه « مستر وستن » وزوجته . لقد التقى بهما وهو فى شىء من الحيرة ، ورأى ضرورة بسط حيرته لهما أمام « اما » . فلقد طرأ على بال « مستر وستن » فجأة أنه لابد من دعوة « مسز التن » لتفتتح الرقص ، وأن « مسز التن » نفسها تنتظر ذلك . الأمر الذى يتعارض مع رغبتهم فى أن تكون الصدارة فى ذلك « لاما » . واستمعت « اما » لهذه الحقيقة المرة بجلد .

ثم قال « مستر وستن » : « وماذا نحن فاعلون لكى نهيىء لها زميلا يناسبها ؟ انها سترى أن من واجب « فرانك » أن يطلبها لترقص معه » .

والتفت « فرانك » فى الحال الى « اما » يستنهضها الوفاء بما وعدته به من قبل ، وأعلن مزهوا بأنه قد ارتبط بشريكته فى الرقص ، وبدا على والده أنه موافق على ذلك كل الموافقة . ثم تبين أن « مسز وستن » كانت تود أن يرقص « مستر وستن » نفسه مع « مسز التن » ، وأن عليهم اقناعه بذلك . واستجاب الى رغبتها فى الحال . وتقدم « مستر وستن » ومعه « مسز التن » ، ومن بعدهما « مستر فرانك تشرشل » ومعه « مس وودهاوس » الى حلبة الرقص . وهكذا كان على «اما» أن تقنع بأن تكون التالية لمسز « التن » على الرغم من أنها كانت تعتبر أن الحفلة قد أقيمت من أجلها خاصة . وكاد هذا أن يكون كافيا ليجعلها تفكر فى الزواج .

وما من شك فى أن « مسز التن » كانت فى تلك اللحظة صاحبة المكانة الأولى ، وأنها حظيت بما يشبع كبرياءها اذ على الرغم من أنها كانت تود أن تبدأ رقصها ومعها « فرانك تشرشل » ، فأنها لم تخسر بذلك التغيير شيئا ، بل ربما كان « مستر وستن » أفضل من ابنه مقاما . ورغم مافى ذلك من مساس بشعور « اما » ، فقد ظلت هانئة مبتسمة وهى ترى هذه المجموعة المحترمة تنتظم فى صف واحد ، وسرها أن تشعر بأنه ما زال أمامها ساعات طويلة تقضيها فى مرح غير عادى . ولم يكن يضايقها شىء أكثر من عدم اشتراك « مستر نيتلى » فى الرقص ، فقد اتخذ مكانه بين الواقفين . وما كان له وهو فى ميعة الصبا أن يفعل ذلك ، بل كان عليه أن يرقص ، وألا يضع نفسه فى مصاف الأزواج والآباء ، ولاعبى الورق ، الذين كانوا يتظاهرون بأنهم يهتمون بالرقص ، الى أن يحين وقت الجولة الفاصلة فى اللعب . ولعله لم يكن يستطيع أن يتخذ لنفسه مكانا أفضل من المكان

الذى وقف فيه ، لكى تظهر محاسنه فى أجلى صورها . فلقد اصطف بين المسنين ، وذوى الأجسام البدينة من أصحاب الأكتاف المتدلية ، فبدا بينهم فارع الطول قويا معتدل القامة ، مما جعل « اما » تشعر بأنه لابد أن يكون محط أنظار الجميع ، وأنه باستثناء زميلها فى الرقص ، ليس له بين كل الشبان من هو ند له .

وخطا بضع خطوات دلت دلالة كافية على أنه لو كان حاول الرقص لأبلى فيه بلاء حسنا ، ولأظهر من الرشاقة فيه ما هو جدير بالسادة . وكان كلما التقت أنظارهما ، وجدته وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة ، ولكنه كان بوجه عام يبدو مهموما . وودت فى تلك اللحظة لو كان أكثر حبا للرقص ، وأكثر ميلا الى « فرانك تشرشل » ، وقد بدا لها انه كان فى حالات عديدة يوجه أنظاره اليها ، وما كانت لتخدع نفسها بأنه كان مهتما برقصها . أما اذا كان يقصد نقد سلوكها ، فلم يكن لها فى ذلك ما تخشاه ، ذلك لأنه لم يكن بينها وبين زميلها فى الرقص شىء من المغازلة ، بل كان مظهرهما أدنى الى أن يكون مظهر صديقين مبتهجين ، منهما الى حبيبين . وقد تحقق لها الآن بما لا يدع مجالا للشك ، أن « فرانك تشرشل » لم يعد كسابق عهده من حيث عواطفه نحوها .

واستمر الرقص فى مرح وبهجة ، ولم يضع اهتمام « مسز وستن » بالمدعوين ، ولا حفاوتها المتواصلة بهم ، سدى ، فقد بدا كل واحد منهم سعيدا مغتبطا ، وانطلقت الألسن تلهج بالثناء على الحفلة ومباهجها منذ بدايتها ، مع أن من النادر أن يأتى المديح الا فى ختام الحفلة . ولم تكن الحفلة من حيث الحوادث الهامة التى تستحق التسجيل ، تختلف عن غيرها من الحفلات المماثلة ، الا حادثة واحدة شغلت فكر « اما » . فقد بدأت الرقصتان الأخيرتان قبل موعد العشاء ، ولم تجد « هاريت » زميلا

يراقصها فكانت السيدة الشابة الوحيدة التى جلست دون أن ترقص . لقد كان عدد الراقصين والراقصات متساويا منذ البداية فكيف تأتى اذن أن تكون واحدة منهم دون زميل يراقصها ، ولكن عجب « اما » سرعان ما تلاشى عندما أبصرت « مستر التن » يتمشى ولا يطلب « هاريت » الى مراقصته ، كلما أمكنه أن يتجنب ذلك . ووثقت « اما » من أنه لن يقدم على طلبها ، وكانت تنتظر فى كل لحظة أن يهرب الى الحجرة التى يلعبون فيها الورق ، ولكن الهرب لم يكن جزءا من خطته فيما يبدو ، فقد أتى الى حيث يجتمع الجالسون بحجرة الرقص ، وأخذ يتحدث معهم ، وصار يروح ويغدو أمامهم ، كأنما يريد توكيد حريته وعزمه على الاحتفاظ بها ، لا يبالى أحيانا أن يمر أمام « مس سمث » مباشرة ، أو أن يتحدث الى من كانوا بالقرب منها .

ورأت « اما » ذلك ، ولم تكن حتى الآن قد بدأت ترقص ، وكانت تشق طريقها من مؤخرة القاعة ، فكان أمامها من الوقت ما يسمح لها بأن تتلفت حولها . وما كادت تدير رأسها قليلا حتى أبصرت كل شىء . فلما بلغت منتصف القاعة ، كانت الجماعة قد أصبحت خلفها ، فكفت عن المراقبة. غير أن « مستر التن » كان على مقربة منها ، فسمعت كل مادار بينه وبين « مسز وستن » من حديث ، كما لاحظت أن زوجته التى كانت تقف أمامها مباشرة ، لم تكن تستمع للحديث فحسب ، بل كانت تشجع زوجها على المضى فيه بنظرات لها دلالتها . وكانت « مسز وستن » ذات القلب الرقيق قد تركت مكانها لتقول له :

« أراك لا ترقص يا مستر التن » فكان جوابه على الفور :

« أنا على أتم استعداد يا « مسز وستن » اذا كنت ترقصين معى »

وأجابته : « أنا ! ، لا ، وانما سآتى لك بمن تجيد الرقص أكثر منى ، فأنا لا أجيد الرقص » .

فقال : « أعتقد بأنى سأكون سعيدا جـدا لو أن « مسز جلبرت » أرادت الرقص ، على الرغم من أنى بدأت أشعر بأنى رجل متزوج ومتقدم فى السن ، وأن أيام الرقص قد ولت بالنسبة لى . الا أنه يسعدنى جدا أن أقف للرقص فى أى وقت مع صديقة قديمة مثل « مسز جلبرت »

« ان « مسز جلبرت » لا تنوى أن ترقص ، ولكن هنـاك فتـاة لم يطلبها أحد للرقص ، ويسرنى جدا أن أراها ترقص ، انها « مس سمث » .

« أوه ! مس سمث ! انى لم ألحظ ذلك ، ما أعظم كرمك ! ولولا أنى رجل متزوج وقد تقدم بى السن — ومع ذلك فأن أيام رقصى يا « مسز وستن » قد ولت ، فمعذرة ، وانى طوع أمرك ، وعلى استعداد لعمل أى شىء آخر بمنتهى السرور ، أما أيام رقصى فقد انتهت » .

ولم تزد « مسز وستن » على ماقالته شيئا ، وقدرت « اما » ما لابد قد اعتراها من دهشة وشعور بالخذلان وهى تعود الى مقعدها . اذن فهذا هو «مستر التن» ، مستر التن الظريف الرقيق ، صاحب الأيادى البيضاء. هذا هو « مستر التن » الرقيق الحاشية — ونظرت حولها لحظة ، فرأته يقف مع « مستر نيتلى » على مسافة قريبة منها ، وأخـذ يتأهب لتبادل الحديث معه ، بينما تبودلت بسمات الغبطة بينه وبين زوجته . ولم تنظر « اما » مرة أخرى ، فقد تأجج فؤادها بالغيظ ، وخشيت أن يظهر ذلك على محياها .

ومضت لحظة ، لفت نظرها بعدها منظر أدعى الى الغبطة ، فقد رأت « مستر نيتلى » يأخذ بيد « هاريت » الى المرقص !! انها لم تصـادف فى حياتها ماهو أعظم دهشة ، ولا أدعى الى راحة النفس ممـا رأته فى تلك اللحظة . لقد أصبحت كل جوارحها تنطق بالسرور وعرفان الجميل ، لمـا شـمل به « هاريت » وشـملها هى من فضـل ، وتاقت نفسـها

تشكره . وعلى الرغم من بعد المسافة بينهما ، مما كان يحول دون الحديث، فقد أعربت ملامح وجهها عن الكثير ، عندما وقع نظرها عليه مرة أخرى .

لقد دل رقصه على أنه كان بارعا كما اعتقدت ، وكانت « هاريت » ولا شك تكون أسعد حظا لولا التجربة القاسية التى مرت بها ، على أن ملامحها مع ذلك كشفت الآن عن مدى شعورها بالمتعة التى صادفت هوى فى نفسها ، فصارت تقفز أعلى مما كانت تقفز فى أى وقت مضى ، وتثب الى أبعد من وسط الصالة دون أن تتوقف لحظة عن الابتسامة .

وانزوى « مستر التن » فى حجرة لعب الورق وهو أدعى ما يكون الى السخرية (كما اعتقدت اما) ، وان كانت لم تجده فى مثل قسوة زوجته ، ولو أنه آخذ فى أن يكون على شاكلتها — وقد عبرت زوجته عن بعض مشاعرها لزميلها فى الرقص ، فأبدت ملاحظات مسموعة كان من بينها :

« ان « نيتلى » قد أخذته الشفقة « بمس سمث » الصغيرة المسكينة ، انه ولا ريب رجل دمث الأخلاق الى أقصى حد » .

وأعلن للحاضرين أن موعد تناول العشاء قد حل ، فأخذوا يتحركون صوب المائدة ، وهكذا سيظل صوت « مس بيتس » يطرق الآذان منذ هذه اللحظة ، وما من أحد يستطيع أن يقطع عليها حديثها الى أن تجلس الى المائدة وتمسك بملعقتها وان هى الا لحظة حتى انطلقت تقول :

« چين ، چين عزيزتى چين ، أين أنت ؟ ها هى لفافة رقبتك ، ان « مسز وستن » ترجوك أن ترتديها ، انها تقول بأنها تخشى التيارات الهوائية بالممر ، ولو أنهم قد احتاطوا لكل شىء ، ولقد سمر أحد الأبواب، ووضعت عليه أغطية كثيرة من الحصير ..

عزيزتى « چين » ، يجب أن ترتديها ولا شك ..

أهلا مستر « تشرشل » ، انك عظيم الأريحية ، وما أحسن وضعك للتلفيعة حول رقبتك !

ان رقصك رائع ولا شك ..

أجل يا عزيزتى ، لقد ذهبت الى المنزل جريا كما قلت بأنه لابد من ذلك لكى أساعد جدتك وقت ذهابها الى فراشـها ، ثم عدت ثانيـة ولم يشعر أحـد بغيابى ، فقد خرجت دون أن أتفوه بكلمة كما أخبرتك ، ووجدتها عـلى أحسن حال ، وقد أمضيت أمسية بهيجة مـع « مستر وودهاوس » وشمل حديثهما نواحى شتى ، كما لعبا النرّد ، وتناولا الشاى بالطابق الأرضى ، وأكلت البسكوت والتفاح المشوى ، وتناولت النبـيذ قبل أن تخرج ، ولقد كانت سعيدة الطالع فى بعض رمياتها « لزهر النرد » ، وقد سألت عنك كثيرا ، وسألت عن مقدار متعتك ، وعمن رقص معـك ، فقلت أوه !! انى لن أسبق «چين» بالاخبار ، وقد تركتها وهى ترقص مع مستر « چورچ أوتواى » ، وهى تحب أن تخبرك عن كل شىء بنفسـها غدا ، وان أول من رقص معهـا كان « مستر التن » ، ولست أدرك من سيطلبها لترقص بعد ذلك ، وربما يكون « مستر وليم ويلكوكس » ... سيدى العزيز ، انك واسع الفضل ، أليس من أحـد غيرى تعاونه ؟ فأنا لست عديمة الحيلة ، سيدى ، انك فى منتهى العطف ، فلتمسك « چين » بأحد ذراعيك ، وأنا بذراعك الآخر ... قف ، قف ، ولنرجع الى الوراء قليلا ، ان « مسز التن » ذاهبة — عزيزتى « مسز التن » ، ما أظرفهـا ! وما أجمل الدانتل التى ترتديها !! اننا جميعا نمشى الآن فى ركابها ، انها ملكة الأمسية ، أجل ، ها نحن عند الممر ، هنـاك درجتان يا « چين » ، احترسى من الدرجتين ، لا ، انها درجة واحدة فقط ، أجل ، لقـد كنت أعتقد أنهما درجتان . ان هذا لشىء عجيب جدا ، لقد كنت واثقة من أن

هناك درجتين ، ولكنى أرى درجة واحدة ... لم أر شيئا كهذا فى التنسيق والراحة ... والشموع فى كل مكان — لقد كنت أحدثك عن جدتك يا « چين » ، لقد كانت هناك مسألة بسيطة أزعجتها .. ثقى بأن التفاح المشوى والبسكوت كانا على أحسن مايكون ، ولكن جىء أولا بصحن من « الحلويات » بالصلصة وكشك ألماظ لم يسلق تماما فأرجعه — وليس هناك من شىء أشهى من « الحلويات » بكشك ألماظ عند جدتك ، ولذا لم تنل ماكانت تشتهيه ، ولكننا اتفقنا على ألا نقول هذا لكائن من كان ، خوفا من أن يتسرب الخبر الى العزيزة « مس وودهاوس » التى لابد أن تستاء لذلك كثيرا ... أجل ان هذا شىء فخم جدا ، وانى فى غاية الدهشة وما كنت أتخيل شيئا كهذا ... لقد اجتمع الجمال والسخاء معا !! ما رأيت شيئا مثله قبلا ، أجل ، وأين سنجلس ؟ أين سنجلس ؟ ليكن ذلك فى أى مكان لا تتعرض فيه « چين » لتيار الهواء ، أما أنا فلا يهمنى أن أجلس فى أى مكان ، نعم ، هل تحبذ هذا الجانب ؟ أؤكد لك يا « مستر تشرشل » أنه حسن ، لولا أنه أكثر مما أستحق ، ولكن لك ماتريد ، ان توجيهاتك فى هذا البيت لا يمكن أن تخطىء ... كيف سنتذكر يا عزيزتى « چين » نصف هذه الصحون لنقولها لجدتك ؟ هناك حساء كذلك ، رحماك !! ان الطعام لن يقدم لى حالا ، ولكن الرائحة عظيمة جدا ، ولا يسعنى الا أن أبدأ بالأكل » .

ولم تسنح الفرصة « لأما » كى تتحدث الى « مستر نيتلى » الا عقب تناول العشاء ، فلما انتظموا جميعا فى صالة الرقص مرة أخرى ، أومأت اليه بعينيه تدعوه اليها لكى تشكره ، ولم يسعه الا أن يستجيب لها ، وقد كان شديدا فى استهجانه لمسلك « مستر التن » ، فقد كان فظا بدرجة لا تغتفر ، وكذلك نظرات « مستر التن » لم تسلم من لومه واستنكاره ... قال :

« انهما عمدا الى تجريح أكثر من « هاريت » ، ولكن خبريني يا «اما» لماذا هم أعداؤك ؟ »

ونظر اليها نظرة ابتسام فاحصة ، فلما لم يفز منها برد قال :

« أما هى فلا يجوز أن تكون غاضبة عليك مهما كان حاله هو ، وأظنك ليس عندك ماتقولينه فى ظنى هذا ، ولكن يجب أن تعترفى يا « اما » أنك كنت تريدين أن تزوجيه من « هاريت » .

وأجابت « اما » : « نعم أردت ذلك ، وهما لن يغتفراه لى »

« وهز رأسه وابتسم ابتسامة التشفى واكتفى بقوله : « لن أعود عليك باللائمة ، وسأتركك لأفكارك »

« وهل تعهد بى الى أفكارى التى تتملقنى وتغرر بى ؟ وهل أنبأتنى نفسى المغرورة يوما بأنى مخطئة ؟ »

« انها ليست نفسك المغرورة ، ولكنها نفسك الجادة فلو قادتك الأولى الى الضلال ، فانى واثق بأن الأخرى ستدلك على أنه خطأ » .

« انى أعترف بأنى أخطأت الظن تماما فى « مستر التن » فهو شخص فيه صغار ، وقد اكتشفته أنت ولكنى لم أكتشفه . لقد كنت واثقة بأنه يحب « هاريت » وكانت تلك الثقة نتيجة لسلسلة من أخطاء عجيبة متتالية»

« وأنا فى مقابل هذا الاعتراف ، سأكون منصفا وأقول ان اختيارك كان أحسن له من اختياره لنفسه ، فأن « هاريت سمث » فيها من الصفات العالية ما حرمت منه «مسز التن» كلية ، فهى فتاة غير دعية ، مخلصة وغير ماكرة ، والرجل العاقل ذو الذوق السليم ، يفضلها على امرأة مثل « مسز التن » . لقد وجدت « هاريت » حلوة الحديث أكثر مما كنت أظن » .

وشعرت « اما » بمنتهى السرور ، ثم قطع حديثهما ضوضاء أشاعتها دعوة « مستر وستن » للحاضرين جميعا كى يبدأوا الرقص ثانية .

« هلمى يا « مس وودهاوس » و يا « مس أوتواى » ويا « مس فيرفاكس » : ماذا تفعلن جميعكن ؟ هيا يا « اما » وكونى قدوة لزميلاتك انى أراكن جميعا متكاسلات نائمات ؟ »

وقالت « اما » : « أنا على استعداد كلما دعيت »

وسألها « مستر نيتلى » : « ومع من سترقصين ؟ »

وترددت لحظة ثم أجابت : « معك اذا طلبت منى ذلك »

فقال وقد مد يده اليها : « هل تراقصيننى ؟ »

« نعم أراقصك . لقد أظهرت بأنك تجيد الرقص ، وأنت تعلم بأننا لسنا بالأخ والأخت حقيقة حتى يكون رقصنا شيئا مموجا »

« أخ وأخت !! لا ، قطعا لا » .

الفصل التاسع والثلاثون

كان هذا التفاهم البسيط مع « مستر نيتلى » من دواعى سرور «اما» العظيم كما كان واحدا من بين الذكريات الجميلة للحفلة الراقصة التى كانت تستعيدها وهى تسير فى المروج فى الصباح التالى . وبلغت فرحتها الذروة لأنهما تلاقيا معا فى ادراك حقيقة « مستر التن » وزوجته ، وأن آراءهما كانت متفقة سواء فيما يتعلق بالزوج أو زوجته ، وأثلج صدرها بصفة خاصة مديحة لهاريت . بل لقد كانت القحة التى بدت من « التن » وزوجته ، والتى كانت تهدد بتعكير صفو بقية الأمسية ، من بين العوامل التى جعلت الأمسية مرضية لها ، فقد انتظرت أن تؤدى الى نتيجة أخرى سعيدة ، وهى تخلص « هاريت » من حبها « لمستر التن » كلية حتى لا يبقى منه شيء . وزاد أملها فى ذلك من طريقة حديث « هاريت » قبل مغادرتها صالة الرقص ، عن هذه الحادثة ، اذ بدت وكأنها كانت مغمضة العينين ثم فتحتهما بغتة ، فرأت أن « مستر التن » ليس بالرجل الممتاز الذى كانت تتصوره ، لقد زال ولعها به ولم تعد « اما » تخشى أن يعود قلب « هاريت » فينبض بالحب مرة أخرى بما يوجه اليها من عبارات المجاملة المؤذية . وكان اعتماد « اما » فى كل ذلك على مافى قلب « التن » وزوجته من ضغينة تجعلهما ينظمان الخطة لاشعارها دائما بأنها كمية مهملة ، وهو كل ما تطلبه الآن . نعم ، ما أعظم ما تنتظره « اما » من هناءة فى الصيف القادم ، بعد أن صارت « هاريت » أكثر تعقلا ، و « فرانك تشرشل » أقل حبا ، وغدا « مستر نيتلى » غير ميال الى التشاحن معها .

ولم تكن تنتظر أن ترى « فرانك تشرشل » فى ذلك الصباح ، فقد أخبرها بأنه لن يسعد بالمجىء الى « هارتفيلد » ، اذ كان لابد له من العودة الى مقره ظهرا . ولم تأسف « اما » على ذلك .

فلما انتهت من ترتيب كل هذه المسائل ، ثم عادت ففحصتها ، وتحققت أخيرا من سلامتها ، استدارت لتعود من نزهتها الى بيتها وهى سعيدة بأنها تستطيع الآن أن تلبى مطالب الولدين الصغيرين ومطالب جدهما ، فاذا بالبوابة الحديدية الكبرى المؤدية الى البيت تفتح ، ويدخل فيها شخصان كانا آخر من تتوقع أن تراهما معا ... « فرانك تشرشل » ، « هاريت » وقد تعلقت بذراعه ... « هاريت » نفسها وبعينها ولا أحد غيرها . وتأكدت « اما » فى الحال أن شيئا غير عادى لابد قد حدث .

وكانت « هاريت » تبدو شاحبة خائفة ، بينما كان « فرانك » يحاول بث الطمأنينة فى نفسها ، ولم يكن يفصل البوابة الحديدية عن الباب الخارجى للبيت غير عشرين خطوة ، وسرعان ماكان ثلاثتهم فى البهو ، وارتمت « هاريت » فى الحال على مقعد وفقدت وعيها .

وكان لابد لفتاة فاقدة الوعى من معاونتها على أن تفيق من اغماءتها ، ومن أسئلة يجاب عليها ، ومن استفسارات توضح : ان مثل هذه الحوادث تثير اهتماما بالغا ، ولكن أثرها لا يمكن أن يستمر طويلا ، ولذا فلم تمض الا دقائق معدودة حتى أضحت « اما » ملمة بكل شىء .

فلقد حدث أن « مس سمث » و « مس بكرتون » ، وهى احدى نزيلات بيت « مسز جدرد » ، وكانت مدعوة الى الحفلة ، خرجتا معا ، وسلكتا طريق « ريشمند » . ومع أنه طريق عام ، بعيد عن المخاوف ، فقد سبب لهما فزعا ، ذلك أنهما بعد أن بعدتا عن « هايبرى » بما يقرب من نصف ميل ، انعطف بهما الطريق فجأة الى منعطف تظله أشجار الدردار

على الجانبين ، ويمتد مسافة طويلة فى بقعة منعزلة . فلما أوغلا السير فى الطريق ، أبصرا على حين بغتة ، وعلى مسافة قصيرة أمامهما ، فوق رقعة عريضة من الأرض يكسوها الكلأ ، جماعة من الغجر الرحل ، واذا بطفل يخرج من بين هؤلاء ويتقدم نحوهما مستجديا . فهلعت « مس بكرتون » وصرخت صرخة مدوية ، ونادت على « هاريت » لتسير فى اثرها ، ثم أسرعت بصعود مرتفع من الطريق ، وفتحت فرجة فى سياج من الشجيرات تقع عند ذروته ، واتخذت منه أقصر الطرق لتعود الى « هايبرى » . أما المسكينة « هاريت » فلم تقو على اقتفاء أثرها ، اذ كانت تشكو من تقلصات عضلاتها من أثر الرقص ، وشعرت وهى تحاول ارتقاء المرتفع بعودة التقلصات اليها ، مما أعجزها عن الصعود فاضطرت الى البقاء فى مكانها وهى على هذه الحالة ، وكان الخوف قد بلغ بها أشده .

وما كان أحد يستطيع أن يجزم بما قد يكون من مسلك المتسولين ، لو أن الفتاتين كانتا أشجع من ذلك ، ولكن ما حدث ، جعل احتمال الاعتداء أقوى وأكثر احتمالا ، فقد هجم على « هاريت » ستة أولاد على رأسهم امرأة ضخمة وصبى كبير ، وكان الكل يصيحون ، وكان مظهرهم يفوق ألفاظهم فى الدلالة على مافيهم من وقاحة ، فازداد خوفها . ووعدتهم فى الحال بأن تعطيهم نقودا ، ثم أخرجت كيس نقودها وسلمتهم شلنا ، وتوسلت اليهم ألا يطلبوا مزيدا ، وألا يسيئوا اليها . وأمكنها بعد ذلك أن تسير فى طريقها ، وان كانت تسير فى بطء ، وبعدت عنهم قليلا . ولكن كيس نقودها ، وهلعها ، كان فيهما اغراء شديد لهم ، فساروا خلفها ، وأحاطت بها العصابة كلها ، وطلبوا منها مزيدا من النقود .

ووجدها « فرانك تشرشل » وهى على هذه الحالة . هى فى خوف ترتعد فرائصها ، وهم يملون عليها شروطهم ، وينهالون عليها سبابا

وصراخا . فلقد شاء حسن الحظ أن يتأخر «فرانك» فى مغادرة «هايبرى»، مما جعله يأتى لنجدتها فى تلك اللحظة الحرجة . فلقد أغراه جمال الطقس فى ذلك الصباح على ان يسعى ماشيا على قدميه ، وأن يترك الخيل ليلتقى بها فى طريق آخر ، يبعد عن « هايبرى » مسافة ميل أو ميلين . وكان قد استعار من « مس بيتس » فى الليلة السابقة مقصا ، ونسى أن يعيده اليها ، فاضطر الى الوقوف ببابها ، ودخل ليمضى عندهن دقائق قليلة ، ومن ثم فقد تأخر عما كان يقدر . ثم لما كان يسير على قدميه ، فأن العصابة لم تره حتى صار على مقربة منها ، فرد الى قلب كل من المرأة والصبى ما كانا قد أوقعاه فى قلب « هاريت » من هلع ، وتركهما وهما على أشد ما يكونان من الرعب .

وتعلقت « هاريت » به وهى عاجزة عن الكلام ، لا تقوى على ما هو أكثر من مجرد الوصول الى « هارتفيلد » قبل أن تنهـار بالكلية . وكان « فرانك » هو الذى رأى أن يأتى بهـا الى « هارتفيلد » ، ولم يفكر فى مكان غير هذا . تلك كانت القصة التى رواها وروتهـا « هاريت » حالما أفاقت وقويت على الكلام . ولم يجسر « فرانك » على البقـاء معهم الا بمقدار ما اطمأن على سلامتها ، فأن المعطلات العديدة لم تترك له دقيقة واحدة يضيعها . وبعد أن أخذت « اما » على عاتقها مهمة طمأنة « مسز جدرد » على سلامتها ، وابلاغ « مستر نيتلى » عن وجود مثـل هؤلاء الناس فى الجهة ، بدا فى الرحيل ، مودعا من « اما » بكل مافى وسعها من الشكر والتمنيات الطيبة ، نيابة عن صديقتها وعن نفسها .

ان مغامرة كهذه ، يلتقى فيها شاب ظريف وفتاة جميلة وبمثل هـذه الطريقة قلما تقصر عن الايحاء بأفكار معينة ، مهمـا كان للمرء من اتزان العقل وثبات القلب — هذا ما ذهب اليه تفكير « اما » ، وهل هنـاك من

لغوى أو نحوى أو حتى رياضى ، يرى ما رأته ، ويشاهدهما ســويا ، ويسمع قصتهما ، ثم هو لا يشعر بعد ذلك بأن الظروف قد تضافرت على أن تجمع بينهما برباط من الألفة ، فاذا كان الأمر كذلك بالنسبة لهؤلاء ، فهو بالنسبة لها ، وهى المرأة الخيالية ، أشد وأقوى ، حتى ليحفزها ذلك الى الحدس والتنبؤ بما سيكون ، ولا سيما أن عقلها كان ممهدا بما وضعته من أساس لخطة كانت قد عقدت عليها آمالا واسعة .

لقد كان الأمر كله عجيبا للغاية ، فلم يسبق أن جدث للفتيات فى تلك الجهة شىء كهذا اطلاقا ، وهى لا تذكر أن معركة طارئة نشبت ، أو فزعا فى هذا النوع وقع ، ولكن ها هو يحدث الآن لشخص بذاته ، وفى الوقت ذاته ، الذى يمر فيه شخص آخر بذاته ، وبطريق المصــادفة البحتة لكى يخلصها . انه ولا شك شىء خارق للغاية ، وزاد من دهشتها ما كانت تعلمه عن حالة كل منهما النفسية . أما هو فقـــد كان يود التغلب على شعوره نحوها هى نفسها ، وأما الأخرى فقد كانت أخذت تبرأ من جنونها بمستر « التن » . وهكذا بدا كأن كل الظروف قد تضــافرت لكى تحقق أعظم النتائج أثرا . فقد كان من المستحيل ألا يقرب هذا الحادث بينهمــا بقوة وبشدة .

وحدث فى أثناء الدقائق القليلة التى دار فيهــا الحديث بينهما وبينه خلال الفترة التى راحت فيها « هاريت » فى شبه غيبوبة ، أن تحــدث عن ذعرها وعن سذاجتها ، وكيف أنها تعلقت بذراعه بشدة ، وهو فى دهشة وفرحة . ثم كيف انهال بالسخط على « مس بكرتون » ، ووصف سلوكها بأنه سلوك يتسم بالغباء والجنون ، بعــد أن انتهت « هاريت » من سرد قصتها .

وكان لابد للأمور أن تسير فى مجراها الطبيعى دون أن يكون هنــاك

مايدفعها أو يعمل على مساعدتها ، وهى من ناحيتها لن تخطو خطوة أو تبدر منها ايماءة — لا ، فقد كفاها تدخلا . غير أنه لا ضير مع ذلك من وجود خطة ، مجرد خطة سلبية ، لا تزيد على أن تكون مجرد أمنيـة — أما أن تتجاوز هذا الحد ، فهذا لن يكون مهما كانت الأسباب .

وكان أول ما عقدت العزم ألا يعلم أبوها بما حدث ، فقد كانت تعلم مقدار ما يسببه له ذلك من قلق وجزع ، ولكنها سرعان ماشعرت بأن اخفاء الأمر عليه ، هو من المستحيلات ، اذ لم تمض نصف ساعة حتى كان الخبر قد ذاع فى أرجاء « هايبرى » جميعها وأصبح موضوعا يتشدق به الثرثار ، ويلوكه لسان الصغير والوضيع ، وينقله شباب المنطقة وخدمها فى متعة من ينقل النبـأ الخطـير . وغطت أنبـاء الغجـر على أنبـاء حفـلة الليلة السابقة ، وجلس « مستر وودهاوس » المسكين يرتجف خيفـة ، وكمـا تنبأت « اما » لم يكن ليقنع الا اذا وعدوه بأنهم لن يبتعـدوا عن خميلة شجيرات التوت ثانية . وقد شعر بشىء من الراحة لسؤال الكثيرين عنـه وعن « مس وودهاوس » وكذلك عن « مس سمث » بقيـة اليوم (فقد كان جيرانه يعلمون أنه يجب أن يسأل الناس عنه) .

وقد سره أن يرد على المستفسرين ، بأنهم جميعا « بين بين » . وعلى الرغم من أن هذا الوصف ، كان بعيدا كل البعد عن الحقيقة — فقد كانت ابنته بخير ، ولم تكن « هاريت » أقل منها صحة فأن « اما » لم تشأ أن تتدخل أو تعترض عليه . فلقد كانت بوجه عام ، فى نظر رجل هذا شأنه ، فى حالة بائسة من اعتلال الصحة ، مع أنها لا تكاد تعرف ماهو المرض ، وهو اذا لم يختلق لها الأمراض ، فأنها لن تبرز فى أخباره .

ولم ينتظر الغجر ما تتخذه العـدالة نحوهم من اجـراءات حاسمة ، فأسرعوا بالرحيل ، وأصبح فى وسع فتيـات « هايبرى » أن يسرن مرة

أخرى وهن فى أمان ، وسرعان ماتضاءل الحادث حتى صار قليل الأهمية ، الا لدى « اما » وابنى أختها ، فقد ظل خيالهم محتفظا به ، واستمر «هنرى» و «چون» كل يوم يسألان عن قصة « هاريت » مع الغجر ، ويصححان فى اصرار ، أبسط ما تذكره فى روايتها للحادث من اختلاف عما سبق لها روايته .

الفصل الأربعون

مضت على تلك المخاطرة أيام قلائل ، واذا بهاريت تأتى ذات صباح الى « اما » وفى يدها ربطة صغيرة ، ثم جلست وبدأت تقول فى تردد :

« لو كان لديك يا « مس وودهاوس » متسع من الوقت ، فان عندى شيئا أود أن أدلى به اليك . انه نوع من الاعتراف ، وبعدها ينتهى الأمر» .

واعترت « اما » دهشة بالغة ، ورجتها أن تتكلم ، وبدا على «هاريت» بالاضافة الى ماقالته ، مظهر من الجد جعل « اما » تتوقع أن تدلى اليها بشىء أكثر من أن يكون عاديا .

واستطردت « هاريت » تقول :

« انه لمن واجبى ، بل هى رغبتى كذلك ، ألا أكتمك شيئا عن هذا الموضوع . فلقد أصبحت من حسن الحظ مخلوقا غير ماكنت ، فى ناحية معينة ، ومن ثم فأن من حقك أن تعرفى ما طرأ على من تغيير وأن تقرى به عينا . ولست أريد أن أقول أكثر مما هو ضرورى ... فانى أذوب خجلا من أنى استسلمت بمثل ما استسلمت ، وأظن أنك تدركين ما أعنيه » .

فقالت « اما » : « أجل ، وآمل أن أكون قد فهمت »

وصاحت « هاريت » تقول فى حرارة : « ما أعجب أنى كنت طوال هذا الوقت أعيش فى عالم الخيال !! لقد كان هذا منى أشبه بالجنون ، ولم أعد الآن أرى فى هذا الشخص شيئا غير عادى ، وسيان عندى أن أقابله أو لا أقابله ، ولولا مالى من عينين ، لفضلت عدم رؤيته . والحق أنى أفضل أن أقطع المسافات الطويلة لكى أتجنبه . انى لا أحسد زوجته

اطلاقا ، لا أعجب بها ولا أحسدها كما كنت أفعل . انها ولا شك جـذابة جدا ، ولكنى أظنها بعيدة عن الكياسة وحسن الخلق ، سمجة ممقوتة . وان أنس فلا أنسى نظرتها فى تلك الليـلة ، ومـع هـذا فأنى أؤكد لك يا « مس وودهاوس » بأنى لا أتمنى لها سوءا ، لا ، وليكونا دائمـا فى سعادة ، فلن أشعر لحظة واحدة بعد الآن بأى ألم . ولكى أؤكد لك بأنى صادقة فيما أقول ، فسأقضى الآن على ما كان يجب أن أقضى عليه من أمد بعيـد ، بل ما كان يجوز لى أن أحتفظ به يوما ، وأنا أعلم ذلك تمـاما (واحمر وجهها خجلا وهى تتكلم) ومع ذلك فأنى سآتى عليها الآن جميعا، وأود بصفة خاصة أن أقوم بهذا العمل فى وجودك كى ترين كيف أصبحت عاقلة » ثم نظرت الى « اما » نظرة ذات معنى وقالت :

« أليس فى وسعك التكهن بما فى هذه الربطة ؟ »

« لا ، لست أعرف أى شىء — فهل كان قد أعطاك شيئا يوما ما ؟ »

« لا ، بل ولا يمكننى أن أسميها هدايا ، ولكنها أشياء كنت أعتز بها كثيرا » .

ومدت يدها تحمل اليها الربطة ، فقرأت «اما» عليها هذه الكلمات : « أنفس الكنوز »

وأثار فيها ذلك ، غريزة حب الاستطلاع الى درجة كبيرة

وفتحت « هاريت » الربطة ، فنظرت « اما » اليها فى لهفـة وشغف ، ورأت داخل لفافة من الأوراق الفضية العديدة ، علبـة جميلة صغيرة من الخشب المطعم . وفتحتها « هاريت » وكانت بها غلالة من أنعم القطن ، ولم تر « اما » علاوة على القطن الا قصـاصة صغيرة من شريط لصاق غير مستعملة .

وقالت لها « هاريت » : « الآن يجب أن تتذكرى » .

« لا ، والحق أنى لا أتذكر شيئا »

« عجبا ! ما كنت أظن أنك قد نسيت ما حدث فى هذه الحجرة بالذات بشأن شريط اللصق فى احدى المرات الأخيرة التى تقابلنا فيها ، كان ذلك قبل اصابتى بالتهاب الحلق بأيام قلائل ، وقبل مجىء « مستر ومسز چون نيتلى » مباشرة ، وأظنه كان فى نفس الأمسية . ألا تتذكرين جرحه لأصبعه بمبراتك الجديدة ، ونصيحتك له باستعمال شريط اللصـق ؟ — ولما لم يكن لديك شىء منه ، ولعلمك بوجوده عندى ، فأنك أردت أن أمده به ، ولذا أخرجت ما معى ، وقطعت له قطعة منه ، ولكنها كانت كبيرة جدا ، فقطع منها جزءا صغيرا ، وأخذ يعبث بعض الوقت بما تبقى قبل أن يعيده الىّ ، وعندئذ دفعنى سخفى الى أن أجعل منهـا كنزا ، واحتفظت بها لا أستعملها أبدا ، وجعلت أنظر اليها الفينة بعد الفينة على أنها متعـة كبرى » .

ووضعت « اما » يدها فوق وجهها ، وهمت واقفة ، ثم صاحت قائلة : « عزيزتى هاريت » ، لقد جعلتينى أخجل من نفسى الى درجـة لا أطيق احتمالها — ألا أتذكر ؟ أجـل ، انى أتذكر كل ذلك الآن ، الا احتفاظك بهذه البقية من اللصاق ، ولكنى لم أعرف شيئا من ذلك حتى هذه اللحظة. جرح أصبعه ، وتوصيتى باستعمال شريط اللصق ، وقولى بعدم وجود شىء منه عندى !! ما أعظم خطيئتى !! لقد كان فى جيبى الكثير منـه ! ولكنها احدى حيلى التى لا معنى لها ! بل انى لأستحق أن أظل طول حياتى خجلة من تصرفى ، ثم جلست ثانية وقالت : « أجل ، واصلى حـديثك ، وماذا غير هذا ؟ »

« وهل كان لديك حقا شىء منه ؟ أنا واثقة بأن هذا لم يخطر ببالى أبدا ، لأنك فعلت ما فعلت بطريقة طبيعية »

وقالت « اما » بعد أن زال عنها الخجل وهدأت نفسها ، وقد تنازعها الشعور بالدهشة والرغبة فى التسلية :

« اذن فقد احتفظت بهذه القطعة من شريط اللصق من أجـله !! ثم أضافت تحدث نفسها : « رحماك يا ربى !! متى كنت أفكر فى الاحتفاظ بقطعة من شريط اللصق التى كان يعبث بها « فرانك تشرشل » ، وأضعها داخل قطعة من القطن ، — اننى لا أعتقد بأنى قادرة على أن أفعل شيئا كهذا » .

وعادت « هاريت » تقول وهى تنظر الى علبتها مرة أخرى :

« ها هو شىء آخر أكثر قيمة ، لأنه كان فى وقت ما ملـكا له ، بينما شريط اللصق لم يكن ملكه »

وتشوقت « اما » لرؤية هذا الكنز النفيس . لقد كان بقيـة من قلم رصاص قديم خالية من الرصاص .

وقالت « هاريت » : « هذه كانت ملكا له بالفعل ، ألا تتذكرى ذات صبـاح ؟ لا ، لا أظنك تتذكرين ذلك ، ولكن ذات صبـاح — لقـد نسـيت أى يوم كـان بالضبط ، يوم الثـلاثاء أو يوم الأربعـاء السابق على ذلك المساء . فقد أراد أن يكتب مذكرة فى نوتته ، وكانت عن صناعة الجعة من الصنوبر ، فقـد كان « مستر نيتلى » يحدثه عن تخمير أوراق الصنوبر لصنع الجعة ، فأراد أن يدونها ، ولكنه عندما أخرج قلمه الرصاص لم يجد له الا رأسا صغيرة ، وسرعان ما براه عن آخـره حتى أصبح عديم المنفعة ، ولهذا أعرتيه قلما آخر . أما هذه البقية ، فقد تركها فوق المنضدة لأنها كانت لا تصلح لشىء ، ولكنى ظللت أرقبها ، وحالما وجدت فى نفسى الجرأة ، التقطتها ولم أفرط فيها منذ تلك اللحظة » .

وصـاحت « اما » قائلة : « انى أتذكر ذلك ، وأتذكر تماما ذلك

الحديث عن الجعة المصنوعة من الصنوبر ، أجل ، وقد قلت أنا ، وكذلك قال « مستر نيتلى » بأننا نحبها — وبدأ « مستر التن » مصمما على أن يتعودها . انى أتذكر ذلك تماما ، انتظرى ، لقد كان « مستر نيتلى » وقتها واقفا هنا فى هذا المكان بالضبط ، أليس كذلك ؟ أظنه كان يقف هنا تماما » .

« لست أدرى ، وليس بوسعى أن أتذكر ذلك ، انه لشىء عجيب جدا ألا أتذكره . لقد كان « مستر التن » جالسا هنا حيث أنا الآن تقريبا »

« أجل أكملى حديثك » .

« هذا كل شىء ، وليس عندى أكثر منه لأرويه لك ، أو لأزيده على ما قلت ، عدا أنى سألقى الآن بهذه الأشياء فى النار ، وأريد أن تشاهدينى وأنا أفعل ذلك » .

مسكينة أنت يا عزيزتى هاريت ! « وهل كنت حقا سعيدة باكتناز هذه الأشياء ؟ »

« أجل ، لأنى كنت بلهاء !! ولكنى الآن أخجل من نفسى ، وبودى لو يسهل على نسيان ذلك ، بقدر ما يسهل علىّ حرقها الآن ، ثقى بأنى كنت مخطئة جدا لاحتفاظى بأية ذكريات بعد أن تزوج . لقد كنت أعلم أنى مخطئة ، ولكن لم يكن لى من العزيمة ما يكفى ليجعلنى أتخلى عنها » .

« ولكن هل من الضرورى يا « هاريت » أن تحرقى شريط اللصق ، فقد تكون له منفعة » .

وأجابتها « هاريت » : « انى أكون أسعد حالا اذا أحرقته ، فأنى أشعر بامتعاض كلما رأيته ، ولا بد لى أن أتخلص من كل شىء ، ها هى كلها فى النار ، وها أنا ذا قد انتهيت من « مستر التن » والحمد لله »

وفكرت « اما » : « ومتى يا ترى تكون البداية مع « مستر

تشرشل » ؟ » ولم تلبث أن اكتشفت بعد ذلك بقليل ما يحملها على الاعتقاد بأن البداية قد حدثت بالفعل . ولم يسعها الا أن تأمل أن تكون الغجرية ، على الرغم من أنها لم تتكهن لهاريت بمستقبلها ، قد نجحت فى تقرير هذا المستقبل . فقد حدث بعد العدوان على « هاريت » بأسبوعين تقريبا أن وصلتا عفوا الى ما يكشف عن حقيقة الأمور ، ولم تكن « اما » فى تلك اللحظة تفكر فى ذلك ، مما زاد من قيمة ما استطاعت أن تستقيه من المعلومات . فقد قالت عفوا ، وفى سياق حديث عادى : « أجل يا هاريت ، أنصحك بأن تفعلى كذا وكذا عندما تتزوجين » قالت هذا ولم تفكر بعد ذلك فيما قالته ، ولكنها بعد صمت لا يزيد على دقيقة واحدة ، سمعت « هاريت » تقول بنغمة فيها جد :

« لن أتزوج أبدا » .

ورفعت « اما » نظرها فقرأت فى الحال ما دلت عليه معالم وجهها ، وبعد لحظة تأرجحت فيها أفكارها بين أن تضرب صفحا عن هذه العبارة أو تناقشها ، أجابت :

« عجبا ! لن تتزوجى أبدا !! ان هذا قرار جديد »

« بل هو قرار لن أحيد عنه أبدا » .

وقالت « اما » بعد فترة تردد قصيرة : « آمل ألا يكون الباعث على ذلك — آمل ألا يكون هذا اكراما « لمستر التن » .

وصاحت « هاريت » غاضبة : « مستر ألتن » ! من يكون ؟ لا ، لا »

واستطاعت « اما » بعد ذلك أن تسمع تمتمة « هاريت » :

« انه يفوق « مستر التن » بكثير »

وتمهلت « اما » هنا وقتا أطول لتزن ماتقول ، هل تكف عن الحديث؟ أم تمر بهذه العبارة مر الكرام ، متظاهرة بأنها لا ترتاب فى شىء ؟ — ربما

تظن « هاريت » بأنها فظة أو غاضبة ان هي فعلت ذلك ، وربما لا يترتب على صحتها الا اندفاع « هاريت » لترجوها أن تستمع الى المزيد ، وهي قد وطدت نفسها على ألا تكون صريحة وتفصح عن كل مافي سريرتها . واستقر رأى « اما » على أن من الأصوب أن تدعها تقول ماتريد الآن ، وأن تقف على كل ما تحب أن تدلي به ، فأن أفضل الأشياء دائما ، ما كان يتسم بالصراحة . لقد قررت من قبل الى أى مدى قد تسمح لنفسها بأن تسير فى أى موضوع من هذا النوع ، وأن من الخير لكليهمـــا أن تبادر بأبداء رأيها الحكيم — كان هذا قرارها النهائى ، ومن ثم فقد قالت :

« انى لن أدعى يا هاريت بأنى لست متأكدة مما تعنين ، ان ما عقدت العزم عليه ، أو بالأحرى ما تفكرين فيه من عدم الزواج ، انما ينجم عن اعتقادك أن من تفضلينه من الرجال قد يكون أعلى منك منزلة ، فهو لن يفكر فيك ، أليس كذلك ؟ »

« مس وودهاوس !! صدقينى انى لا أجـرؤ على التفكير فى ذلك ، ولا شك أنى لست بمجنونة الى هذا الحد ، ولكنى أجد متعة فى الاعجاب به عن بعد ، والتفكير فى أنه يفوق الناس جميعا ، وأنا كلى شكر واعجاب واحترام »

« انى لا أعجب منك أبدا يا « هاريت » ، لأن ما أداه لك من خدمة كان يكفى لأن يلهب مشاعرك »

« خدمة ! خدمة ! انها مكرمة لا يمكن التعبير عنها » ان مجرد ذكرى لها ، وذكرى لما شعرت به وقتئذ ، عندما رأيته آت ، وما كان عليـــه من نبل ، وما كنت فيه من محنة قبل ذلك ، — يا له من تغيير !! لقد انقلب الوضع فى لحظة واحدة !! من تعاسة تامة الى سعادة كاملة »

« وأنه لشىء طبيعى جدا ، طبيعى ومشرف ، اذ يشرفك أن تكونى

أحسنت الاختيار وأنت جامدة شاكرة ، ولكنى لا أستطيع أن أعدك بأنه سيكون تفضيلا ميمونا ، ولست أشـــير عليك بأن تستسلمى لهـذا يا « هاريت » ، فأنى لست متأكدة من أنه سيبادلك حبا بحب . فكرى فيما أنت مقبلة عليه ، ولعلك تكونين أكثر تعقلا لو أنك كبحت جمـاح مشاعرك وأنت لا تزالين بعــد قادرة على ذلك ، وعلى كل حال لا تدعى مشاعرك تشتط بك بعيدا الا اذا وثقت من أنه يحبك . راقبيه ، واجعلى سلوكه هو الذى يوجه مشاعرك ، وانى أحذرك الآن ، لأنى لن أتكلم معك فى هذا الموضوع بعد ذلك أبدا ، وقد عقدت العزم على ألا أتدخـل فى شيء ، وسأطرح منذ هذه اللحظة عن ذهنى كل شيء عن هذا الموضوع . ولنكف من الآن عن ذكر أى أسماء على الاطلاق . لقد ضللنا الطريق من قبل ، أما الآن فسنكون على حذر . انه أعلى منك مكانة ولا شك ، وقد تكون هناك اعتراضات وعراقيل على جانب كبير من الخطـورة . ولكن حدث يا « هاريت » على الرغم من ذلك أن تحققت أشياء أعجب من هذا . فلقد تمت زيجات أكثر من هذه من حيث عدم التكافؤ ، ولكن خـذى حذرك مع ذلك ، ولا أود أن تكوني واسعة الأمل . ومهما كانت النتيجة فثقى بأنك وقد سموت بأفكارك اليــه ، قد قدمت الدليـل على حسن ذوقك ، وهو ما سوف أقدره فيك دائما » .

وقبلت « هاريت » يدها فى صمت واعتراف بالجميل ، وتأكدت «اما» أن مثل هذا الحب لن يضر صديقتها ، وأنه سيرفع من عقليتها ويصقلها ، وسوف يحميها من خطر المهانة والتحقير .

الفصل الحادي والأربعون

حل شهر يونيو فى « هارتفيلد » وهم على هــذا الحال من الخطط والآمال ، واغضاء العين . أما فى «هايبرى» بوجه عام فلم يكن هناك تغيير ملحوظ ، وكان « مستر التن » وزوجته ما زالا يتحدثان عن زيارة « مستر سكلنج » وعقيلته ، وعن استعمال «بروشتهم» (عربتهم) فى تجوالهم ، وكانت « چين » لا تزال فى بيت جدتها . ولما كانت عودة أسرة « كامپبل » من أيرلنده قد تأجل موعدها ، وتحدد لها شهر أغسطس بدلا من أواسط الصيف ، فقد أصبح من المحتمل أن تبقى فى « هايبرى » شهرين كاملين . هذا اذا تمكنت من مقاومة نشاط « مسز التن » من أجلها ، واستطاعت أن تتخلص من رغبتها الملحة فى أن تهيىء لها وظيفة حسنة على الرغم منها

أما « مستر نيتلى » الذى كره « فرانك تشرشل » فى مرحلة مبكرة ، من تعارفهما لسبب هو أدرى به من غيره ، فقد ازداد كرها له يوما بعــد يوم ، وبدأ يشك فى أنه يخدع « اما » ، فما من شك فى نظره فى أن « اما » كانت هدفه ومطلبه ، بل الشواهد كلها تدل على ذلك — اهتمامه بها ، تلميحات أبيه ، التزام زوجة أبيه الصمت ، ثم العبارات التى تصدر عنه ، وسلوكه ، ما كان منه حصيفا أو غير حصيف ، كلها كانت تنطق بذلك . غير أنه فى الوقت الذى كان فيه الكثيرون يخصون به «اما» ، بينما «اما» تتنازل عنه بدورها الى « هاريت » ، أخذ « مستر نيتلى » يتهمــه ببعض النزوع الى مداعبة « چين فيرفاكس » . ولم يستطع « نيتلى » أن يدرك كنه ذلك ، ولكن كان هناك من الظواهر ما يدل على أن بينهما انسجاما

وتفاهما . وكان أقل ما ذهب اليه تفكيره ، أنه كان يبدو معجبا بها — وما أن لاحظ ذلك مرة حتى أصبح غير قادر على أن يقنع نفسه بأن مسلكه نحوها يخلو من المغزى ، مهما كان يود أن يتحاشى الوقوع فى خطأ من تلك الأخطاء التى تنجم عن خيال «اما» . ولم تكن « اما » حاضرة حين بدأ الشك فى سلوكه نحو « چين فيرفاكس » يساوره . لقد كان وقتها يتناول العشاء هو وآل « راندولز » و « چين » فى بيت آل « التن » ، ولاحظ نظرة ، بل أكثر من نظرة ، توجه الى « مس فيرفاكس » ، وبدا صدوز ذلك من الشخص الذى يعجب « بمس وودهاوس » شيئا فى غير موضعه . فلما اجتمع بهم فى مناسبة أخرى ، لم يتمالك نفسه من ذكر ما سبق له مشاهدته ، ولا أن يتحاشى ملاحظة أشياء ، ان لم تكن كما قال « كوپر » عندما رأى الشفق فظنه نارا :

« ان ما شاهدته هو من صنع خيالى »

فقد أيدت ظنه بأن بين « فرانك تشرشل » و « چين » ودا ، بل وتفاهما .

وكان « نيتلى » قد سار ذات يوم بعد تناول العشاء ، كما كان يفعل كثيرا ، ليمضى أمسيته فى « هارتفيلد » ، وكانت « اما » و « هاريت » فى سبيل الخروج للتريض ، فاشترك معهما فى السير ، وعند عودتهم ، التقوا فى طريقهم بجماعة تفوقهم عددا ، وكان هؤلاء قد وجدوا مثلهم ، أن الحكمة تقضى بالتريض فى ساعة مبكرة ، لأن الطقس كان ينذر بالمطر . وكان الفريق مكونا من « مستر وستن » وزوجته وابنه ، و «مس بيتس» وابنة أختها اللتين التقيا بهم بطريق المصادفة . واندمجوا جميعا معا ، فلما وصلوا الى بوابات « هارتفيلد » ألحت « اما » عليهم جميعا بأن يدخلوا ويتناولوا الشاى مع والدها ، لأنها كانت تعلم بأنه يرحب بمثل هذه الزيارات .

ولقيت الدعوة قبولا من آل بيت « راندولز » فى الحـال ، وكذلك « مس بيتس » رأت هى الأخرى أن فى وسعها قبول دعوة العزيزة « مس وودهاوس » الكريمة جدا ، بعد حديث طويل خرج يتدفق على لسـانها دون أن يستمع اليه الا نفر قليل .

وبينما كانوا يعرجون على الحدائق المحيطة بالبيت ، مر بهم « مستر پرى » يركب جواده ، وتحدث الرجال عن مطيته . فقال «فرانك تشرشل» « لمسز وستن » على الفور : ان الشىء بالشىء يذكر ، ماذا تم فيما اعتزم عليه مستر پرى من اصلاح عربته ؟ »

وبدت على « مسز وستن » الدهشة وقالت : « ما كنت أعلم أبدا أنه كان يفكر فى مشروع كهذا » .

« لا ، لقد عرفت ذلك منك ، وقد كتبت لى كلمة عن ذلك منذ ثلاثة شهور » .

« عجيب !! أنا !! هذا مستحيل » .

« بل أنت بالتأكيد ، وأنا أذكر ذلك تماما ، فلقد ذكرت أن من المؤكد أن يتم هذا قريبا جدا ، وقد أخبرت « مسز پرى » أحد الناس بذلك ، وكانت سعيدة به للغاية ، وقالت ان ذلك نتيجة اقناعها له ، وانهـا كانت ترى أن خروجه فى الطقس الردىء يصيبه بضرر بليغ — لابد أنك تتذكرين ذلك الآن »

« ثق بأنى ما سمعت حتى هذه اللحظة شيئا من هذا أبدا »

« أبدا !! أبدا !! رحماك يا الهى ! كيف حدث هذا ؟ اذن لا بد وأن أكون قد رأيت ذلك فى منامى ، فأثر علىّ كل التأثير — وأنت يا « مس سمث» ، أراك تمشين وكأنك متعبة . انك لن تأسفى على أن تجدى نفسك فى بيتك »

وصاح « مستر وستن » يقول : « ما هذا ؟ ما هـذا الذى تقولون عن « پرى » وعربته ؟ هل سيصلح « پرى » عربته يا فرانك ؟ ، يسرنى أن يكون قادرا على ذلك ، وهل سمعت هذا الخبر منه ؟ »

فأجابه ابنه ضاحكا : « لا يا سيدى ، ويبـدو أنى لم أعلم ذلك من أحد ، وهو شيء فى غاية الغرابة !! لقد أدخل فى روعى أن « مسز وستن » ذكرت لى ذلك فى أحد خطاباتها الى « أنسكومب » منذ أسابيع عديدة ، وكان بالخطاب كل هذه التفصيلات ، وبما أنها تعلن الآن بأنها لم تسمع شيئا من ذلك قبلا ، فلا بد وأن يكون حلما ، فأنا كثير الأحلام ، وأحلم بكل من فى « هايبرى » عندما أكون بعيـدا عن هنا ، فلمـا أنتهى من أصدقائى الأعزاء أبدا أحلم بمستر « پرى » وزوجته »

وقال والده : « ومع ذلك فهو أمر عجيب أن ترى باتنظام ، مثل هذه الأحلام المتصلة ، التى تتعلق بأناس لا يحتمل أبدا أن تفكر فيهم وأنت فى « أنسكومب » . عجيب أن ترى « پرى » يصلح عربته ، وترى زوجته تحضه على ذلك مراعاة لصحته وهو ما سيحدث حتما فى يوم من الأيام ، وان كنت عجلت به قليلا . حقا ما أعجب أن نرى أحيانا فى الأحلام شيئا يكون محتمـل الوقوع !! وما أكثر ما نراه من سخافات فى أحلامنـا الأخرى !! أجل ، يا « فرانك » ، ان علمك يدل ولا ريب على أنك تفكر فى « هايبرى » عندما تغيب عنها . وأنت يا « اما » أظنك كثيرة الأحلام كذلك ؟ »

وكانت «اما» بعيدة عن أن تسمع ماقال، فقد أسرعت أمام ضيوفها لتخبر والدها بقدومهم ، ولذا لم تصل الى أسماعها ملاحظة مستر وستن .

وصاحت « مس بيتس » ، وكانت تحاول عبثا أن يستمعوا اليها فى آخر لحظة : « لماذا ؟ الحق أنى اذا كان لا بد لى من الكلام فى هـذا

الموضوع ، فانى لا أنكر أن مستر « فرانك تشرشل » يجوز أن يكون قد رأى حلما — ولست أعنى أنه لم يحلم بذلك — وأعتقد أنى أرى أحيانا أعجب الأحلام ، ولكنى لو سئلت رأيى فى الموضوع ، لكان من واجبى أن أعترف بأنه كانت هناك فكرة كهذه فعلا ، فى فصل الربيع الماضى ، وذلك لأن مسز « يرى » نفسها ذكرت هذا لوالدتى ، وقد علمت بذلك « أسرة كول » كما علمنا ، ولكن هذا كان سرا لا يعلم به أحد غيرنا ، ولقد فكرنا فى ذلك منذ ثلاثة أيام تقريبا ، وكانت « مسز يرى » تتلهف على أن يكون له عربة ، وجاءت الى والدتى ذات صباح وهى مبتهجة جدا لأنها ظنت بأنها نجحت فى ذلك — ألا تتذكرين يا « چين » أن جـدتك أخبرتنـا بذلك عندما عدنا الى البيت ؟ لقد نسيت الى أين كنا ذاهبين ، ومن المحتمل جدا أننا كنا فى طريقنا الى « راندولز » ، ولقد كانت « مسز يرى » دائمـا مغرمة بوالدتى بصفة خاصة ، والحق أنى لا أعرف أحدا لا يغرم بها ، وقد أسرت لها بذلك ، ولا شك أنها لم تجد مانعا من أن تخبرنا ، على ألا يعلم به غيرنا ، ومنذ ذلك اليوم الى يومنا هذا ، ما ذكرت ذلك لأحد أعرفه ، وفى الوقت نفسه لن أقطع بأنى لم أبح بشىء من ذلك لأحد ، لعلمى بأنه يبدر منى أحيانا أشياء قبل أن أتنبه اليها — والمعروف أنى كثيرة الأحلام، ولذا يفرط منى بين الحين والحين بعض أقوال كان من الواجب ألا أتفوه بها — وأنا لست مثل « چين » وكان بودى أن أكون مثلها ، وأشهد أنها لم تفش سرا أبدا ، أين هى ؟ ها هى خلفى — انى أذكر تماما مجىء «مسز يرى » وقتها . يا له من حلم عجيب !! »

وكانوا يدخلون الصالة فى تلك اللحظـة . وسبق « مستر نيتلى » « مس بيتس » فى النظر الى وجه « چين » فأشاح ببصره ، بطريقة لا ارادية فى وجـه « فرانك تشرشل » ، الذى كان يبـدو عليـه بعض الاضطراب

المكتوم ، الى وجهها ، ولكنه وجدها متخلفة عنهم الى الوراء ، وقد شغلت بشالها . وكان « مستر وستن » قد دخل ، أما السيدان الآخران ، فقد انتظرا عند الباب ليفسحا لها حتى تمر . وشك « مستر نيتلى » فى أن فرانك تشرشل كان يريد اجتذاب أنظارها نحوه ، اذ كان باديا عليه أنه كان يمعن النظر فيها . فان كان هذا قصده فقد خاب مسعاه . ومرت « جين » من بينهما ودخلت الصالة دون أن تنظر الى أحد منهما .

ولم يكن هناك متسع من الوقت للاحظات أو توضيحات أخرى ، فكان لا بد أن يؤخذ الحلم على علاته ، كما كان على « مستر نيتلى » أن يأخذ مكانه مع الباقين حول المائدة الكبيرة المستديرة التى أتت بها « اما » الى « هارتفيلد » حديثا ، وما كان غيرها ليستطيع أن يضعها هناك ، وأن يؤثر على أبيها لكى يستعملها عوضا عن المائدة الصغيرة التى استمرت معهم أربعين عاما يتناول عليها وجبتين من وجبات طعامه فى كل يوم . وعلى هذه المائدة الجديدة تناولوا الشاى الآن فى هناءة دون أن يبدو من أحد منهم أنه كان يتعجل الانصراف .

وقال « فرانك تشرشل » بعد أن فحص منضدة كانت موضوعة وراءه وفى متناول يده :

« هل أخذ أبناء أختك يا « مس وودهاوس » الحروف الأبجدية التى كانت هنا ، أعنى الصندوق الذى يحوى الحروف الأبجدية ؟ لقد كان هنا دائما فأين هو ؟ ان هذه الأمسية من الأمسيات الخاملة التى يحسن اعتبارها من أمسياء الشتاء أكثر منها من أمسيات الصيف . ولقد استمتعنا ذات صباح باللعب بتلك الحروف ، وكنت أود أن أحيركم بها مرة أخرى »

وسرت هذه الفكرة « اما » فأحضرت الصندوق ، وسرعان ما نثرت الحروف فوق المائدة ، ولم يبد أن أحدا غيرهما كان يميل الى استعمالها ،

وأخذ كل منهما فى الحال يكون منها كلمات للآخر ، أو لأى واحـد من الباقين ممن لهم اهتمام بالألغاز . وصادفت اللعبة هوى فى نفس « مستر وودهاوس » بصفة خاصة لما فيها من هدوء ، اذ كثيرا ما كان يتضايق من الألعاب الصاخبة التى كان « مستر وستن » يقترحها أحيانا . وجلس مستر وودهاوس الآن تارة يبدى أسفه فى حنـان واكتئاب على سفر الصـغار الأعزاء ، وتارة ليتغنى ، بعد أن يلتقط أحد الحروف القريبة منـه ، بأن « اما » قد أجادت كتابة الحروف .

ووضع « فرانك تشرشل » كلمة أمام « مس فيرفاكس » فنظرت نظرة بسيطة حول المائدة ، ثم شغلت باستجلاء مرماها ، وكان « فرانك » يجلس بجوار « اما » ، ومن أمامهمـا كانت تجلس « چين » بينما كان « مستر نيتلى » فى مكان يمكنه من رؤيتهم جميعا ، وقد تعمد أن يرى كل ما فى استطاعته أن يراه ، دون أن يلحظ عليه ذلك أحـد ، وأدركت « چين » ما تعنيه الكلمة ، وفى ابتسامة خافتة دفعت بالحروف بعيدا . وهنا اذا كان قصدها من ذلك أن تختلط حروف هـذه الكلمة بسـائر الحروف حتى لا يتبينها أحد ، فقد كان عليها أن تركز نظرها على المـائدة بدلا من أن تجول ببصرها عبرها . أما وهى لم تفعل ، فقـد بقيت الحروف دون أن تختلط بغيرها . والتقطتها « هاريت » فى لهفتها على أية كلمة جديدة ، بعد أن فشلت فى أن تكون أية كلمة بنفسها . وعكفت على حل طلاسمها — وكانت تجلس بجوار « مستر نيتلى » ، فالتفتت اليه كى يعاونها ، وكانت الكلمة « هفوة » ، فلما نطقت بها « هاريت » وهى فرحة ، احمرت وجنتا « چين » ، ودل هذا على أن الكلمة كانت ذات مغزى عندها — وربط « مستر نيتلى » ذلك بموضوع الأحلام ، والمنام الذى كانوا يتحدثون فيه منذ فترة قصيرة ، ومع ذلك فقد ظل فحوى كل هذا خافيا عليه ، ولكن

كيف تظل الدقة وأصالة الرأى اللتين عرفت بهما السيدة التى كانت مفضلة عنده ، على هذه الحالة من السبات وعدم اليقظة !! ، وأوجس خيفة من أن يكون هناك خداع مدبر ، وبدا له أن عدم الأخلاص والخداع يكاد يقابله عند كل ركن وفى كل خطوة ، وأن هذه الحروف ما هى الا وسيلة للتحبب والتضليل — كانت لعبة يتلهى بها الأطفال ، فاختارها « فرانك تشرشل » ليخفى بها لعبة أكثر عمقا ومكرا .

واستمر يراقبه وهو أكثر ما يكون سخطا ، ويراقب رفيقتيــه اللتين ضربت على عينيهما غشاوة ، وهو أشد مايكون ذعرا وعدم اطمئنان ، ورأى بعــد ذلك كلمة صغيرة تعد « لاما » ثم تعطى لها بنظرة ماكرة خبيثة ، ولاحظ أن « اما » عرفتها فى الحال وسرت لها كثيرا على الرغم من أنهــا دلت على شىء رأت أنه أحرى بأن يكون عتابا ، فقد قالت : « هذا سخف. يا للعار !! » .

وسمع « مستر نيتلى » ، « فرانك تشرشل » يقول بعد ذلك وهو ينظر ناحية « چين » : « سأعطيها اذن لها ، هل أفعل ذلك ؟ » كما سمع بوضوح معارضة « اما » له بشدة وهى تضحك وتقول :

« لا ، لا ، لا يجوز ، لن تعطيها لها أبدا »

ولكنه مع ذلك أعطاها لها — نعم ان هذا الفتى المولع بالنساء ، الذى يسلك مسلك المحب وهو مجرد من المشاعر ، ويزكى نفسه أمامهن فى غير حياء ، قد سلم الورقة الى « مس فيرفاكس » ، ورجاها فى أدب وخشوع أن تفحصها .

ودفع حب الاستطلاع الشديد « مستر نيتلى » الى معرفة كنه هذه الكلمة ، فعمد الى اغتنام الفرصة ليلقى عليها نظرة خاطفة . ولم يمض غير قليل حتى استطاع أن يراها ، واذا بها « دكسون » ، وبدا كأن ادراك

« چين فيرفاكس » للكلمة يتفق مع ادراكه لها ، بل ان فهمها كان قطعا أكثر ادراكا للمعنى المستتر ، المعنى البعيد لتلك الحروف الخمسة بهذا الترتيب .

وظهر على « چين فيرفاكس » الاستياء ، ورفعت رأسها ، فلما وجدت العيون ترمقها ، زادت حمرة وجنتيها بدرجة لم يرها قبلا ، واكتفت بقولها : « ما كنت أعلم أن أسماء الأشخاص يباح استعمالها » ثم دفعت بالحروف بعيدا وهي غاضبة ، وبدت وكأنها عقدت العزم على ألا تشغل نفسها بكلمة أخرى تقدم اليها ، وأشاحت بوجهها عن هؤلاء الذين هاجموها والتفتت نحو خالتها .

وصاحت خالتها رغم أن « چين » لم تنطق بكلمة تقول :

« أجل ، انه عين الصواب يا عزيزتى ، وكنت على وشك أن أقول الشيء نفسه ، فقد حان وقت انصرافنا ولا شك ، وأوشكت الشمس أن تغيب ، وستكون جدتك فى انتظارنا . والآن ، سيدى العزيز ، ما أكرمك وتتمنى لك مخلصين قضاء ليلة سعيدة »

ودل تحفز « چين » للانصراف على أنها كانت على استعداد لذلك ، كما أدركت خالتها ، فوقفت فى الحال ، وأرادت الابتعاد عن المنضدة ، ولكن الكثيرين أخذوا كذلك يتحركون ، فتعذر عليها الخروج ، وخيل لمستر « نيتلى » أنه رأى فى تلك الفترة مجموعة أخرى من الحروف تجمع ويدفع بها نحوها فى لهفة ، ورآها تنحيها عنها فى عزم دون أن تفحصها . ثم أخذت بعد ذلك تبحث عن شالها ، و « فرانك تشرشل » يبحث معها . وكان الظلام قد أخذ يخيم عليهم ، وساد الحجرة هرج ، فلم يعرف«نيتلى» كيف كان انصرافهما .

وبقى « نيتلى » فى « هارتفيلد » بعد انصرافهم جميعا ، وكانت كل

أفكاره متجهة الى ما رآه ، وكان غارقا فى أفكاره حتى أنه ، وقد جيء بالشموع التى تساعده على الملاحظة ، وجد لزاما عليه كصديق ، وكصديق غيور على مصلحة صديقه ، أن ينوه بشيء عن ذلك « لاما » وأن يوجه اليها بعض الأسئلة ، فما كان يسعه أن يراها فى موقف خطير كهذا ثم لا يحاول المحافظة عليها ، فهذا واجب لا مناص منه : قال لها : « هل تسمحين لى يا « اما » أن أسأل على أى أساس كانت تلك التسلية العظيمة، بل هذا الوخز المؤلم لتلك الكلمة الأخيرة التى سلمت اليك والى « مس فيرفاكس » ؟ لقد رأيت الكلمة ، وانى لأعجب كيف تكون فيها تسلية لواحدة ، ومضايقة شديدة للأخرى »

وارتبكت « اما » غاية الارتباك ولم تجد فى نفسها الجرأة على الايضاح ، اذ على الرغم من أنها لم تتخلص من ظنونها ، فقد كانت تشعر ولا شك بالخجل لأنها أذاعت تلك الظنون ، فصاحت قائلة :

« أوه ! لم نقصد أى شيء بهذا ، وما تلك الا دعابة بيننا »

فأجابها جادا : « يبدو أن الدعابة كانت قاصرة عليك وعلى « مستر تشرشل » .

وكان يأمل أن تتكلم ثانية ، ولكنها التزمت الصمت ، وفضلت أن تشغل بأى شيء آخر عن أن تتكلم . وجلس برهة قصيرة والظنون تساوره ، ومرت بخاطره أوضار كثيرة . فلقد تدخل فكان تدخله غير مثمر ، وبدا فى ارتباك « اما » من اعترافها بالصلة الوثيقة بينها وبينه ، أنها قد وقعت فى حبه ، ومع هذا فقد تكلم ورأى أنه مدين لها بما يحمله على المخاطرة بأى شيء قد ينجم عن تدخل غير مرغوب منه ، فهذا خير من أن يعرض مصلحتها للخطر ، فأن من الأفضل أن يواجه أى شيء ، عن أن يتذكر فى المستقبل أنه أهمل فى موضوع كهذا .

وقال لها أخيرا فى حنان : « عزيزتى « اما » ، أتظنين أنك على علم تام بدرجة التعارف بين السيد والسيدة اللذين كنا نتحدث عنهما ؟ »

« بين مستر فرانك تشرشل ، ومس فيرفاكس ؟ نعم أعرف ذلك تماما ، ولماذا تشك فى هذا ؟ »

« أما كان هناك من سبب يجعلك تفكرين فى أنه معجب بها وأنها معجبة به ؟ »

فصاحت لتقول فى تلهف وصراحة : « أبدا أبدا ، وما خطر على بالى ذلك مثقال ذرة ، وكيف يتأتى لك أن تفكر فى هذا ؟ »

« خيل لى أخيرا أنى رأيت دلائل على المحبة بينهما ، وكانت هناك نظرات بينهما لها دلالتها ، ولست أرى الا أنهما يعنيان اخفاءها على الناس كافة »

« عجبا ! انك تسليني الى درجة بالغة ، ويسرنى أن أجدك تفسح لخيالك المجال الى هذا الحد ، ولكنه لن يصل الى شىء . ويؤسفنى جدا أن أحد من خيالك وانت فى أولى محاولاتك ، فهو لن يسعفك بشىء ، على أنى أؤكد لك أنه ليس هناك بينهما غرام ، وأن الظواهر التى استلفتت نظرك نشأت فى بعض ظروف خاصة ، فهي نتيجة مشاعر من نوع آخر يختلف عن هذا تماما ، ومن المستحيل ايضاحها ، اذ فيها سخافات كثيرة ، ولكن الجزء الذى يمكن أن يقال عنها ، وفيه شىء من التعقل ، هو أنهما بعيدان كل البعد عن أى اعجاب أو محبة ، وهما كأى شخصين آخرين ، وأنا أسلم بهذا من ناحيتها ، ويمكنني أن أؤكد ذلك من ناحيته أيضا ، وأنا زعيمة بأنه لا يعيرها اهتماما »

كان كلامها عن ايمان جعل « مستر نيتلى » يتردد ، وعن اقتناع جعله يسكت ، وكانت مبتهجة ، وودت لو طال الحديث ، لأنها كانت تريد أن

تسعة وهو يسترسل فى ظنونه ، ويصف لها كل النظرات ، وتستمع الى تساؤله أين حدث هذا ومتى ، وغير ذلك من الأسئلة التى قد تجد فيهـا متعة عظيمة . ولكنه لم يشاركها ابتهاجها ، ووجد نفسه غير قادر على أن يشبع رغبتها ، فلقد أثيرت مشاعره الى درجة كبيرة فمنعته عن الكلام .

وحتى لا يضيق ذرعا بنار الموقد المتوهجـة التى اعتـادها « مستر وودهاوس » معظم أمسيات السنة ، فقد أسرع بالخروج ، وسار الى بيته حيث لابد أنه واجد فى رهبانية « دوتول » هدوء الوحدة ولطف الجو .

الفصل الثانى والأربعون

كان على أهالى « هايبرى » بعد أن طال بهم الأمل فى انتظار زيارة يقوم بها « مستر سكلنج » وزوجته الى قريتهم فى القريب ، أن يتحملوا الوجيعة التى ألمت بهم عندما علموا بأنهما لن يتمكنا من المجىء قبل فصل الخريف ، وهكذا لم يكن هناك جديد يمكن أن يضيفوه الى معلوماتهم حتى ذلك الوقت ، وكان عليهم أن يكتفوا بما يتبادلونه كل يوم من أنباء الموضوعات الأخرى التى توافقت وقتا ما مع أخبار مجىء أسرة «سكلنج» المرتقبة . من هذه الأنباء آخر البيانات التى كانت تأتيهم عن « مسز تشرشل » ، وما كان يصلهم عن حالتها الصحية فى تقارير تبدو متباينة كل يوم ، وحالة « مسز وستن » وما ينتظر لها من سعادة متزايدة بمجىء مولود لها كانت لا تقل عن سعادة جيرانها جميعا لهذا الحدث المنتظر .

وشعرت « مسز التن » بخيبة نتيجة لتأجيل ما كانت تترقبه من فرصة للسرور والتفاخر ، وكذلك أصبح على التوصيات التى كانت تعتزم القيام بها ، والتعارف الذى كانت تريد أن تقوم به بين أهل « هايبرى » وبين « مستر سكلنج » وقرينته مما كانت رسمته لنفسها ، أن تنتظر . وأن تتأجل جميع الحفلات التى كانت تزمع اعدادها ، فتظل مجرد فكرة يتحدث عنها الناس — هكذا كان تفكيرها بادىء ذى بدء ، ولكنها اقتنعت بعد تفكير بسيط بأنه ليس ثمة ما يدعو الى تأجيل أى شىء . اذ لماذا لا يقومون برحلة الى « بكس هل » على الرغم من عدم مجىء « سكلنج » وزوجته ؟ وفى وسعهم الذهاب معهما مرة أخرى فى الخريف . واستقر الرأى على أن

يذهبوا الى « بكس هل » . ولبث الجميع وقتا طويلا وهم يعرفون أن رحلة كهذه سوف تتم ، بل ان هذه الرحلة تولدت عنها فكرة أخرى ، ذلك أن « اما » لم تكن قد ذهبت الى « تكس هل » فى حياتها ، وقد ودت الآن أن ترى ما يتحدث عنه الناس جميعا ويصفونه بأنه جدير بالمشاهدة . فاتفقت هى ومستر وستن على اختيار صباح يكون الطقس فيه لطيفا ، للذهاب هناك ، على ألا يسمح لأكثر من اثنين أو ثلاثة من النخبة المصطفاة بمصاحبتهم ، وأن تتم الرحلة فى هدوء ، وبطريقة مهذبة ، لا تظاهر فيها ، وبأسلوب يختلف عن رحلات آل « التن » وآل « سكلنج » بما فيها من جلبة وضوضاء ، واستعداد وتظاهر ، وطعام وشراب .

واختمرت الفكرة عندها حتى أنها لم تتمالك نفسها من الدهشة والشعور بشيء من الضيق عندما سمعت من « مستر وستن » بأنه قد اقترح على « مستر التن » ، وقد فقدت الأمل فى مجيء أختها وزوج اختها، أن تشترك الجماعتان وتذهبا معا ، وأن مسز التن لم تتردد فى الموافقة ، وأن الرحلة لذلك ستتم ، الا اذا كان عند «اما» اعتراض على ذلك . ولما كان لا اعتراض لها على شيء سوى أنها تشعر بكراهية شديدة نحو « مسز التن » ، كراهية لا بد وأن « مستر وستن » نفسه يعرفها كل المعرفة ، فقد آثرت ألا تثير الموضوع مرة أخرى ، فهى لا يمكن أن تثيره دون أن يكون فى ذلك تأنيب له ، مع ما يستتبعه ذلك من ايلام لزوجته . ولهذا وجدت نفسها مضطرة الى الموافقة على ترتيب لو كان فى وسعها لبذلت أقصى ما يمكنها لكى تتجنبه حتى لا يعرضها لمهانة تلحقها بسبب ما قد يقوله الناس عنها من أنها ذهبت فى ركاب « مسز التن » .

وأحست « اما » بأن كل مشاعرها قد جرحت ، وكان لتظاهرها بالرضى عن أمر تكرهه أثر كبير على تفكيرها ، جعلها تحس فى قرارة نفسها بنزعة قاسية نحو طيبة « مستر وستن » التى أفلت زمامها

وقال « مستر وستن » وقد اطمأن كثيرا :

« يسرني أنك وافقت على ما قمت به ، بل كنت أرى أنك ستوافقين ، فان مثل هذه الجماعات لا تكون ممتعة الا اذا زاد عددها ، فان الانسان لا يمكن أن يعتبر مبالغا مهما زاد من عدد أفراد مثل هــذه الجماعات ، فالجماعات الكبيرة فيها عناصر تسليتها ، وهى على كل حال سيدة طيبــة القلب ولم يكن فى وسعنا أن نغفلها »

ولم تنكر « اما » شيئا من ذلك جهارا ، ولم توافق على شيء منه فى قرارة نفسها .

حدث هذا فى أواسط شهر يونيو ، وكان الطقس لطيفا ، وصــارت « مسز التن » تتعجل تحديد اليوم لتتفق مع « مستر وستن » على فطائر الحمام ، ولحم الضأن البارد — واذا بحصــــان العربة يصاب بالعرج ، فيزعزع كل هذا الترتيب بدرجة محزنة . وقد تمضى أسابيع طويلة ، أو قد تكون أياما قليلة ، قبل أن يصبح الحصان أهلا لاستخدامه .

وتوقف كل شيء ، وساد الجماعة ركود كئيب ، فقد كان الموقف أكثر مما يمكن أن تحتمله مواهب « مسز التن » .

وصاحت تقول : « أليس فى هــذا يا « مستر نيتلى » ما ينغص على الانسان حياته ، خاصة والطقس جميل يسمح بالرحــلات ؟ ان هــــذه التأجيلات وضياع الأمل على هذا النحو لشيء كريه على النفس ، فمــاذا نحن فاعلون ؟ فلسوف ينقضى العام على هذا المنوال ونحن لم نفعل شيئا ، وأؤكد لك أننا فى وقت أسبق من هذا فى العام الماضى كونا جماعة لطيفة ، خرجت فى نزهة من « مابل جروف » الى « كنجز وستن » .

وأجابها « مستر نيتلى » : « يمكنكم أن تذهبوا الى « دونول » ، فهى رحلة يمكن القيام بها دون حاجة الى الخيل ، هيا اذهبوا هناك وكلى من « شليكى » فهو قد أخذ ينضج بسرعة »

واذا لم يكن « مستر نيتلى » جادا فى دعوته فى أول الأمر ، فقد اضطر بعد ذلك الى أن يكون جادا فيها ، بعد أن رآها تقبل على عرضه وتتقبله فى غبطة .

ولم تكن حركاتها أقل وضوحا من كلماتها عندما قالت :

« آه !! ان هذا أشهى ما أشتهيه »

كانت « رونول » تشتهر بمزارع الشليك ، وكان هذا مبررا للدعوة ، ومع ذلك فلم يكن هناك من ضرورة لوجود مبرر ، فلو أنها لم تكن مزارع شليك ، بل مزارع كرنب ، لكان ذلك كافيا لأن يغريها على قبول الدعوة ، فقد كان كل ما تريده أن تذهب الى أية جهة . وقد عادت فوعدته المرة بعد المرة بأنها لابد آتية — وتكررت وعودها أكثر مما كان ينتظر — فقد كان سرورها عظيما بهذا البرهان الذى أقامه على صداقته الوثيقة بهـا ، وهذا الدليل على أنه — فيما ذهب اليه تفكيرها — يخصها بالتكريم .

قالت له مرة : « يمكنك أن تعتمد على كل الاعتمـاد ، وتأكد بأنى سأحضر . وما عليك الا أن تحدد اليـوم لترانى معكم . ثم هل تسمح لى باحضار « چين فيرفاكس » معى ؟ »

قال : « لا يمكننى أن أحدد يوما حتى أنتهى من التحدث الى آخرين أود أن تتعرفى بهم » .

« أوه ! أترك كل هذا لى ، ويكفى أن تعطينى تفويضا ، فأنا وليـة الأبرشية ، وتلك وليمتى ، وسآتى بالأصدقاء معى »

قال : « آمل أن تحضرى « التن » معك ، ولكننى لا أكلفك عناء دعوة أحد غيره »

« آه .. انك تبدو الآن ماكرا جدا ، ثم لاحظ أن لا ضير عليك من تفويضى ، فلست فتاة غير ناضجة ، وأعلم أن المرأة المتزوجة يمكنـك أن

تسلمها زمامك وانت آمن ، وهذه وليمتى ، فاترك كل شيء لى ، وسوف أتولى عنك دعوة ضيوفك »

وأجابها فى هدوء : « لا ، فليس هناك الا زوجة واحـدة فى الدنيـا يمكننى أن أسمح لها بدعوة من ترتاح اليهم من الضيوف الى «دونول» ، هذه هى .. » .

فقاطعته « مسز التن » وهى أقرب ما تكون الى التوجع :

«.. « مسز وستن » فيما أظن ؟ »

« لا ، انها « مسز نيتلى » ، والى أن يحين الوقت لأن تكون هنـاك « مسز نيتلى » فسأعالج مثل هذه المسائل بنفسى »

وصاحت وقد اطمأنت الى عدم وجود من هو مفضل عليها :

« انك انسان مدهش ، فيك دعابة ، كما أن لك قدرة على أن تقول ما يحلو لك ، علاوة على حبك للمزاح . أجل سوف أحضر « چين » معى « چين » وخالتهـا ، وسأترك الباقين لك ، وليس لى اعتراض أبدا على مقابلة أسرة « هارتفيلد » ، فلا ترتاب فى ذلك لأنى أعلم أن لك بهم صلة وثيقة » .

« ولا شك أنك ستقابلينهم اذا كانت الكلمة لى ، وسوف أذهب الى منزل « مس بيتس » وأنا فى طريقى الى منزلى »

« لا ، لا ضرورة لذلك أبدا ، لأنى أرى « چين » كل يوم ، ولكن أنت وما يحلو لك ، وليكن القيام بهذا المشروع صبـاحا يا « نيتلى » ، وهذا شيء بسيط جدا ، وسوف أرتدى قبعة كبيرة ، وسأحمل فوق ذراعى سلة صغيرة من سلالى ، ومن المحتمـل أن تكون السلة ذات الشريط الأحمر ، ولا شيء أبسط من ذلك كما ترى ، وسيكون مع « چين » سلة أخرى مثلها ، ولن تكون هناك رسميات ولا تظـاهر ، بل ستكون أشبه

بجماعة الغجر الرحل ، وسنتجول فى حدائقك ، ونجمع الشليك بأنفسنا ، ونجلس تحت الشجر ، وكل شىء آخر ترى تقديمــه لنا يجب أن يكون كله طبيعيا وبسيطا ما أمكن ، ألا ترى ذلك ؟ »

« ليست هذه فكرتى بالضبط ، ان فكرتى فيما هو بسيط وطبيعى ، هو أن تمد المائدة فى حجرة الطعام ، وأظن أن أحسن الظروف التى يرى فيها السادة والسيدات ، بخدمهم وأثاث بيتهم ، على الطبيعة ودون تكلف ، هو فى تناولهم وجبات الطعام داخــل المنــازل ، فأن أنتم تعبتم من أكل الشليك فى الحديقة ، فأمامكم اللحم البارد داخل البيت »

« أجل ، ليكن ما تحب ، انمــا لا تعد لنا أصنافا كثيرة ، وبهــــذه المناسبة ، ألا يمكننى أنا أو مديرة بيتى أن نساعدك بآرائنا ؟ أرجــو أن تكون صريحا يا « نيتلى » ، فاذا أردت أن أكلم « مسز هدچز » أو أردت أن أشرف بنفسى على أى شىء ... »

« لا أريد شيئا من هذا وأشكرك »

« أجل ، ولكن لو صادفتك أية صعوبات ، فأن مديرة بيتى فى منتهى المهارة » .

« وأنا زعيم بأن مديرة بيتى ترى أنها ليست أقل منها مهارة ، وهى تأنف أن يساعدها أحد » .

« وددت لو كان لدينا حمار ، وأن نأتى جميعا وقد ركب كل منــا حمارا ... « چين » و « مس بيتس » وأنا ، بينما يسير زوجى بحذائنا . نعم ، لا بد أن أتحدث معه بشأن ابتياع حمار لنا ، ففى رأيى أن هذا من الضروريات فى حياة القرى ، لأن السيدة التى لها موارد كثيرة لا يمكنها أن تقبع فى عقر دارها دائما ، كما أن المشى الى مسافات طويلة ، يعترضه التراب زمن الصيف ، والأوحال فى الشتاء » .

« لن يصادفك شيء من هذين ما بين « دونول » و « هايبرى » فأن منعطف « دونول » لا يوجد به تراب اطلاقا ، وهو الآن فى منتهى الجفاف ، ويمكنك المجيء على حمار ان كنت تفضلين ذلك ، كما أن فى امكانك استعارة حمار « مسز كوى » ، وبودى أن يكون كل شيء وفق مزاجك ما أمكن »

« أنا واثقة بأن هذه هى رغبتك ، والحق أنى لا أنكر عليك ذلك يا صديقى المخلص ، فأنى أتبين من تلك الصراحة المطلقة التى تتميز بها أن لك قلبا فى منتهى الطيبة ، وأنت على حد قولى « لمستر التن » فكه تحب الدعابة . أجل ، وكن واثقا يا « نيتلى » بأن شاعرة تماما باهتمامك بى فى كل هذا ، ولقد وضعت يدك على الشيء الذى يسرنى » .

لقد كان هناك سبب آخر هو الذى جعل « مستر نيتلى » يتحاشى وضع المائدة فى الظل ، وهو أنه يريد اقناع مستر وودهاوس وكذلك « اما » بالاشتراك فى هذه الجماعة ، وكان يعلم بأنه لو جلس أحدهما فى العراء ليأكل ، فهو لابد أن يمرض حتما ، فضلا عن أنه لا يجوز أن يغرر بمستر «وودهاوس» الى مافيه تعاسته ، تحت ستار ركوب العربة فى الصباح لقضاء ساعة أو ساعتين فى « دونول » .

لقد كان أساس دعوته الى هذه الرحلة ، الثقة ، ولم تكن هناك ثمة مخاوف فى الأفق تجعل مستر «وودهاوس» يندم على قبولها ، ولهذا فقد استجاب للدعوة ، ولم يكن قد ذهب الى « دونول » منذ سنتين .

قال وهو يقبل الدعوة : « انه لشيء جميل جدا أن يذهب ومعه «اما» و « هاريت » فى أحد الأيام الجميلة ، فى الصباح ، وأن يستطيع الجلوس فى هدوء مع « مستر وستن » ، بينما تمرح البنات العزيزات فى الحدائق ، ولا يجدن الجو رطبا فيما يظن ، فى مثل هذا الفصل وفى وقت الظهيرة ، بل لقد تاقت نفسه كثيرا الى رؤية البيت القديم ثانية ، ويسره أن يتقابل مع

« مستر التن » وزوجته وغيرهما من جيرانه ، وليس له أى اعتراض على الذهاب ، هــو أو « اما » أو « هاريت » ، فى يوم يكون فيــه الطقس جميلا ، وأنه كان شيئا جميلا من « نيتلى » فى نظـره أن يدعوهم ، بل وتعطفا كبيرا منه أن يدعوهم الى هذه الزيارة ، فهى خــير من دعوة الى وليمة عشاء خارج البيت ، فهو لا يحب مثل هذه الولائم .

وسعد « مستر نيتلى » اذ رآهم يلبون دعوته فى غير توان ، وأنهـا لقيت فى كل مكان صدرا رحبا ، حتى خيل اليه أنهم كانوا جميعا ، شأنهم شأن « مسز التن » ، يعتبرونها تكريما خاصا لكل واحد منهم . فقــد صرحت كل من « اما » و « هاريت » بأنهما تأملان أن تجــدا فى تلك الرحلة سرورا عظيما . وقطع « مستر وستن » على نفسه عهدا ، ولم يكن قد طلب منه ذلك ، أن يأتى بفرانك لكى يشاركهم اذا أمكن ذلك ، ليبرهن على موافقته وامتنانه ، وان لم يكن هناك به حاجة الى أن يبرهن على ذلك. واضطر « مستر نيتلى » الى أن يقــول بأنه ســـوف يسعد برؤيته ، وآلى « مستر وستن » على نفســه ألا يضيع وقتا ، وأنه سيسرع بالكتابة اليه ، وأنه لن يترك أية حجة يغريه بها على الحضور الا استعان بها .

وشفى الحصان من عرجه فى الوقت نفســه بسرعة ، حتى أن مشروع ذهاب الجماعة الى « مكس هل » عاد يبحث من جديد بغبطة وسرور ، واستقر الرأى أخيرا على أن يكون الذهاب الى « رونول » يوما ، ثم الى « بكس هل » فى يوم آخر ، ودلت الدلائل على أن الطقس سيكون جميلا فى كلا اليومين .

وسار « مستر وودهاوس » فى عربته آمنا ، فى شمس حارة متألقة ، فى يوم من أيام أواسط الصيف ، وقد فتح أحد نوافذ العربة وهو فى طريقه لكى يسهم فى تلك الرحلة الخلوية . وما أن وصــل هناك حتى وجد له

مكانا باحدى حجرات دار « الرهبانية » التى توفرت فيهـا كل أسباب الراحة ، وكانت قد أعدت خصيصا له منـذ الصباح ، وزودت بالمدفأة . واستقر فيها وهو قرير العين مطمئنا ، مستعدا للتحدث فى غبطة عما تم ، ولابداء النصح للجميع ليجلسوا بعيدا عن حرارة الشمس .

وكانت « مسز وستن » قـد تعمدت المشى الى « الرهبانية » على قدميها لكى تتعب نفسها ، ثم تجلس معه طول الوقت . وهكذا تخلفت عن الجمع وبقيت معه تستمع اليه دون ملل ، وتبدى عطفها على ما يقول .

ولم تكن « اما » قد رأت « دار الرهبانية » منذ وقت طويل ، حتى أنها بمجـرد أن اقتنعت بأن والدها قـد استراح ، رأت أن تتركه وهى مسرورة ، وأن تذهب لتستطلع ما حولها ، لتجدد وتنقح ما علق بذاكرتها بما تراه الآن ، ولتكون أكثر وأدق فهما للبيت والحدائق المحيطة به ، التى سوف تظل دائما موضع اهتمامها واهتمام كل عائلتها .

فقد شعرت « اما » أن العلاقة التى تربطها بالمالك الحالى والمالك فى المستقبل سوف تكفل لها الاعتزاز والاطمئنان ، عندما شـاهدت المبنى المنيف الفخم ، بطرازه الجميل وموقعه الفريد ، وقيامه فى منخفض يجعله فى مأمن من عوامل الجو ، وحدائقه الفسيحة وقد امتدت فى منحدر يصل الى المراعى التى يحف بها مجرى من الماء ، مما جعـل المنظـر فريدا فى الرهبانية ، ثم هذه الأشجار الكثيرة المصطفة على الجانبين ، التى لم يعمل البذخ ، ولا مجاراة العصر الحديث على اقتلاعها . أما البيت فقـد كان أكبر من بيت « هارتفيلد » ، كما كان يختلف عنه كل الاختلاف ، اذ كان مقاما على رقعة فسيحة من الأرض متباعدة الأطراف غير منتظمة ، وكانت به حجرات كثيرة مريحة ، فضلا عن حجرة أو حجرتين كانتا عنوان الفخامة. وبدا البيت كما يجب أن يكون ، بدا كما هو لا اصطناع فيـه ، وزاد

تبجيل « اما » له أنه كان مقام أسرة عريقة لا تشوبها شـائبة ، سواء فى الادراك أو النسب . نعم لقد كانت هناك بعض العيوب فى نزعات « چون نيتلى » ، ولكن « ايزابلا » استطاعت أن تندمج فيـه ، وكانت فى ذلك بارعة ، وما كان زواجها منه ليضيف اليهم رجالا ولا أسماء ، ولا أماكن تجعلهم يتوارون منها خجلا — وسعدت « اما » بهـذه المشاعر كلهـا وانطلقت تتجول ، وترى وتسمع ، الى أن أصبح لزاما عليها أن تفعـل ما يفعله الآخرون .

فتجمعوا جميعا حول مزارع الشليك الا « فرانك تشرشل » ، فقد كان حضوره من « ريشمند » مرتقبا فى أية لحظة . ووقفت « مسز التن » بكل ما يعتمل فى نفسها من سعادة ، وعلى رأسها قبعتها الكبيرة ، وفى يدها سلتها ، على استعداد للسير فى الطليعة لتجمع أو تتقبل ما طاب من الشليك، أو لتتحدث عنه ، فقـد أصـبحت الآن ولا تفكير لها ولا حديث الا عن الشليك ، أو على حد قولها :

« انه أحسن الفواكه فى انجلترا طرا ، انه أحبها عند الناس جميعا انه صحى دائما — ان هذه المجموعة هى أحسن مجموعة وأجودها أنواعا — ما ألذ أن يجمعه الانسان بنفسه — فهذه هى الطريقة الوحيدة للاستمتاع به حقا ، ولا شك أن أحسن الأوقات لجمعه تكون فى الصباح — وهذا شىء لا يتعب الانسان أبدا — انها كلها أنواع طيبة — والنوع المسمى « هوت بوى » هو أرقاها ولا يقارن به نوع آخر — أما الأنواع الأخرى فتؤكل بصعوبة — وشليك « الهوت بوى » نادر جدا — أنا أفضـل الشليك « الشيلى » — أما « الهويت وود » فهو أحسنهما نكهة وطعما — وأسعار الشليك فى لندن — انه يكثر حول « برسـتول » وفى « مايل جروف » — البستانيون يختلفون فى رأيهم عن وقت تجديد زراعته —

انهم لا يتبعون طريقة واحدة فى ذلك — انهم لا يتزحزحون عما اعتادوه — ان الشليك فاكهة لذيذة ، وعيبه أنه مغذ جـدا فلا يؤكل منه كثير — والشليك أقل فى المرتبة من الكراز — العنب البناتى أكثر منه أنعاشا — وليس من عيب فى جميع الشليك سوى كثرة الانحناء » . ثم انتقلت من ذلك لتقول : « ان الشمس متوهجة ، وكدت أموت من التعب — لايمكننى أن أتحمل آكثر من هذا — لابد أن أذهب وأجلس فى الظل » .

على هذا النحو جرى الحديث نصف ساعة ، لم ينقطع خلالها الا مرة واحدة ، عندما خرجت « مسز وستن » وهى قلقة على ابن زوجها ، لتسأل اذا كان قد حضر ، وكانت على شىء من الانزعاج ، لأنها كانت توجس خيفة من حصانه .

وكانت هناك مقاعد لا بأس بعددها فى الظل ، ووجدت « اما » نفسها الآن مضطرة الى استراق السمع للحديث الذى يدور بين « مسز التن » و « چين فيرفاكس » . كان الحديث عن وظيفة ممتازة أخطرت بها « مسز التن » فى هذا الصباح ، وسرت لها كثيرا . ولم تكن تلك الوظيفة عند « مسز سكلنج » ولا عند « مسز براج » ، ولكنها فى أسرة لا تأتى فى المنزلة الا دون هاتين الأسرتين وحدهما . انها عند ابنة عم « مسز براج » ، وهى من معارف « مسز سكلنج » ، سيدة معروفة فى « مايل جروف » ، لطيفة وجميلة ، ممتازة ، من أرقى الأوساط والدوائر ، من طبقة عالية ، كل ما فيها راق — وكانت « مسز التن » جد شغوفة بأن تسمع الموافقة على هذا العرض فى الحال ، وكانت متحمسة نشيطة ، تتحدث حديث المنتصر ، ومن ثم فقد أبت أن تقبل اعتذار صديقتها واصرارها على أنها لن ترتبط بأى عمل فى هذه الآونة ، لنفس الأسباب والدوافع التى سبق أن أبدتها لها . وعلى الرغم من هذا ، فان « مسز التن » صممت على أن تأخذ منها

تفويضا بأن تكتب الرد بالموافقة ، فى بريد اليوم التالى . ودهشت « اما » كيف تتحمل « چين » كل هذا ، لقد بدا عليها الغيظ ، وكان فى كلامها حدة ، وأخيرا وعلى غير عادتها ، اتخذت قرارا عمليا ، فاقترحت أن تتحركا من مكانهما ، قالت :

« ألا يتمشون ؟ ألا يريهم « مستر نيتلى » الحـدائق ، الحـدائق جميعها ؟ » — نعم فلقد كانت صفاقة صديقتها أكثر مما يمكنها أن تتحمله.

وساروا زمرا زمرا ، وكان الطقس حارا ، لا تكاد تزيد أية زمرة منهم على الثلاثة الا ما ندر ، ثم أخذوا بعد ذلك يسيرون الواحد يتلو الواحد اعتباطا ، نحو ظل ظليل ، فى طريق متسع قصير ، تحفه على الجانبين أشجار الليمون ، ويمتد الى منتصف المسافة بين النهر والحديقة حتى خيل اليهم أنه منتهى المطاف ، اذ كان لا يوصل الى شئ ، لا شئ الا منظر فى النهاية ، يتخلله جدار حجرى غير مرتفع ، له أعمدة عالية ، كأنما أريد منها أن تعطى مظهر الاقتراب من بيت لم ترفع قواعده أبدا .

واذا كان الذوق الذى أملى تلك الخاتمة على هذا المنظر مما تختلف فيه الرأى ، فلقد كان السير فى ذاته ممتعا ، وخاتمته جميلة للغاية .

وأخذ المنحدر العظيم الذى أقيمت الرهبانية قرب سفحه يزداد انحدارا شيئا فشيئا بعد المروج والحدائق ، وتلا ذلك على مسافة نصف ميل ، ربوة عظيمة وعرة المنحدر ، تكسوها الأشجار ، وتمتد عنـد قاعدتها مزرعة الرهبانية فى مكان آمن من فعل الرياح ، ومن أمامها المراعى التى يحف بها النهر فى شكل قوس جميل .

كان المنظر جميلا تقر له العين ويهدأ له الفكر ، جمـع بين الخضرة الانجليزية والهدوء الانجليزى فى يوم سطعت شمسه وأشرقت دون أن تلفح الوجوه .

ووجدت « اما » و « مستر وستن » أن الكل قد تجمعــوا فى ذلك الممشى ، وأبصرت من بينهم فى الحال « مستر نيتلى » و « هاريت » وهما يسيران بهدوء فى الطليعة ، وقد تميزا عن بقية القافلة .

نعــم « مســتر نيتــلى » و « هاريت » !! لقــد كانا يتبــادلان الحــديث بشكل يستلفت النظــر . وقد سرها أن ترى ذلك ، فلقــد أتى وقت كان يأنف فيه أن يكون رفيقــا لهــا ، وكان يشيح بوجهــه عنها فى غير مجاملة ، ثم ها هما الآن قد انشغلا فيما يبدو فى حديث شيق . كذلك أتى وقت كانت فيه « اما » نفسها تبتئس لو أنها رأت « هاريت » تشرف على ضيعة الرهبانية فى مكان يبرز روعتها ، ولكنها الآن أصبحت لا تخشى شيئا من ذلك ، وصار لا ضير عليها من رؤية الضيعة بكل ما فيها من مظاهر الرخاء والجمال ، والمراعى الفنية وقد انتشرت فوقها الأغنام والبساتين المزهرة ، وعمود الدخان الخفيف الذى يتصاعد فى أجوائها .

ولحقت بهما « اما » عند الجدار فوجدتهما أكثر انهماكا فى الحديث من أن يلتفتا حولهما ، فقد كان مشغولا بأعطاء « هاريت » بعض المعلومات عن طريق الزراعة ، كما شمل الحديث أشياء أخرى . وابتسم الى « اما » وكأنما كان يقول لها :

« تلك الأشياء تخصنى ، ومن حقى أن أتناول مثل هــذه المواضيع بالحديث دون أن يظن بأنى أتحــدث عن « روبرت مارتن » . ولم يكن يساورها فى الواقع مثل هذا الشك ، فهى قصــة عفا عليها الزمن ، ومن المحتمل أن « روبرت مارتن » نفسه لم يعد يفكر فى « هاريت » . وساروا جميعا فى بعض منعطفات الطريق ذات الظلال المنعشة ، ووجدت « اما » أن تلك الفترة كانت ألذ أوقات النهار .

وانتقلوا بعد ذلك الى البيت ، اذ كان لابد من دخولهم جميعا لتناول

طعامهم . وأخذ كل منهم مجلسه ، وكان « فرانك تشرشل » لا يزال غائبا ، ونظرت « مسز وستن » وأعادت النظر وهى تترقبه فى قلق دون جدوى ، فى حين أن والده أبى أن يعترف بأنه يشعر بالقلق ، بل ضحك لمخاوفها . وظلت زوجة أبيه تتمنى لو أنه تخلى عن مهره الأسود . فلقد أكد لهم بصورة قاطعة لا يتسرب اليها أدنى شك بأنه سيأتى ، وأضاف :

« ان صحة زوجة خاله قد تحسنت كثيرا حتى أصبح لا يشك فى مجيئه اليهم » . ولم يتوان عدد كبير من الحاضرين عن تذكيرها بأن حالة « مسز تشرشل » عرضة للتقلبات المفاجئة التى قد تخيب أمل ابن أخت زوجها فيما قدر لنفسه بأنه لابد أن يتحقق . ومالت « مسز وستن » أخيرا الى أن تصدق هذا الرأى وأن تقول انه لابد وأن تكون « مسز تشرشل » قد اعتراها مرض فمنعه ذلك عن المجىء ، وتطلعت « اما » الى « هاريت » وقت أن عرضت هذه النقطة على بساط البحث فألفتها هادئة تملك زمام مشاعرها .

وانتهت وجبة الطعام الباردة ، وحان وقت خروجهم ثانية ليشاهدوا ما لم يكونوا قد شاهدوه حتى الآن — برك الأسماك ، القديمة بالرهبانية، وقد يمتد بهم المسير كذلك حتى حشيش المرعى الذى كان سيبدأ بقطعه فى اليوم التالى .

أما مستر « وودهاوس » وقد انتهى من جولته القصيرة بأعلى مكان فى الحدائق ، حيث لا يخطر ببال أحد ، حتى هو ، أن الرطوبة يمكن أن تصل اليه من النهر ، فانه لم يخرج ثانية ، وقررت ابنته أن تبقى معه حتى يتسنى « لمستر وستن » أن يقنع زوجته بالخروج كى تقوم بشىء من التريض والتنويع كانت نفسيتها فى أشد الحاجة اليهما .

وكان « مستر نيتلى » قد بذل ما فى وسعه لتسلية «مستر وودهاوس»

فأعد لهذا الصديق العجوز مجلدات بها رسوم ونقوش محفورة ، وأدراجا بها نياشين ، وأحجارا كريمة ذات نقوش بارزة ، وقطعا من المرجان ، وأصدافا ، وكل ما اشتملت عليه خزانات الأسرة من المقتنيات القديمة الأخرى ، فكان لذلك أثره فى الترويح عن « مستر وودهاوس » بقية الصباح . وتولت « مسز وستن » عرض هذه الأشياء جميعها عليه ، وهو بدوره سيريها كلها الآن لابنته « اما » — وكان من حسن الحظ أنه لم يكن له من صفات الطفولة أكثر من عدم تذوقه لما يراه . فقد كان يتسم بالبطء والثبات فى التفكير . وقبل أن يبدأ عرض هذه التحف مرة أخرى ، خرجت « اما » الى البهو لتمضى فيه بضع لحظات بمفردها ، لكى تلقى نظرة على مدخل البيت ، وعلى ما يحيط به من الحدائق التى تقع عند مشارفه ، وما كادت تدلف اليه حتى ظهرت أمامها « جين فيرفاكس » وهى تدخل من الحديقة مسرعة وعلى وجهها مظهر الهاربة ، ولما لم تكن تنتظر أن ترى « مس وودهاوس » بهذه المفاجأة ، فقد ارتاعت لأول وهلة على الرغم من أن « مس وودهاوس » هى نفس الشخص الذى كانت تبحث عنه .

وقالت « مس فيرفاكس » : « هل تتكرمين اذا افتقدونى أن تقولى انى عدت الى البيت ؟ فها أنا ذاهبة فى هذه اللحظة ان خالتى لا تتنبه الى أن الوقت قد أزف ، ولا تدرى كم من الوقت تغيبنا ، ولكنى واثقة بأنهم فى انتظارنا ، وقد قررت أن أذهب حالا ، وأنا لم أذكر شيئا عن هذا لأحد غيرك ، لأنى لو فعلت فأنما أعمل على اثارة المتاعب والقلق . لقد ذهب بعضهم الى البرك وذهب البعض الآخر الى طريق تحف به أشجار الليمون ، ولن يفطنوا الى عدم وجودى حتى يعودوا جميعا الى البيت ، فاذا أحسوا بغيابى وقتها ، فهل تتكرمين بأن تقولى انى عدت الى بيتى ؟ » .

« بكل تأكيد ، اذا كانت رغبتك — ولكن هل ستذهبين الى «هايبرى» سيرا على الأقدام وأنت بمفردك ؟ » .

« أجل ، وماذا يصيبني اذا فعلت ؟ انى أسير بسرعة ، وسأصل الى البيت بعد عشرين دقيقة » .

« ولكن المسافة بعيدة جدا ، ولا شك أنك ستشعرين بطول المسافة وأنت تسيرين بمفردك ، فخذى معك خادم أبى ، ودعينى أطلب العربة ، وفى الامكان وصولها بعد خمس دقائق » .

« شكرا ، شكرا ، لا تطلبى العربة بأى حال ، أرجوك ، فأنى أفضل المشى . وهل أنا التى تخاف من السير بمفردها ؟ أنا التى قد يتعهد اليها بحراسة غيرها عما قريب ! » .

قالت هذا وهى فى شدة الاضطراب ، وردت عليها « اما » بحنان تقول: « لن يكون هذا مبررا لتعريض نفسك الآن للخطر ، ولابد أن أطلب العربة، وحتى حرارة الجو نفسها لا تخلو من الخطر ، وها أنت تشعرين بالتعب من الآن » .

وأجابت قائلة : « نعم أنا متعبة ، ولكنه ليس بالتعب الخطير وسوف ينعشنى المشى السريع ، وكلنا نعلم يا « مس وودهاوس » ما يحس به المرء اذا استولت عليه الهموم أحيانا ، وانى لأعرف بأن مشاعرى وصلت الى درجة الاعياء ، وان أعظم مكرمة تسدينها الى الآن هى أن تتركينى أذهب، ويكفى أن تقولى انى ذهبت اذا ما دعت الضرورة الى ذلك » .

ولم تعترض « اما » عليها بكلمة أخرى ، فقد أدركت كل شىء ، فلما أحست باحساسها استنهضتها الى مغادرة البيت فى الحال . وودعتها بسلام، وداع الصديق الوفى . ونمت نظرات « مس فيرفاكس » وهى ترحل ، عن شعورها بالامتنان ، وكانت كلماتها وقت الانصراف : « آه يا « مس وودهاوس » ما أعظم ما يجده الانسان من الراحة اذا ما خلا الى نفسه أحيانا ! » . وبدت تلك الكلمات وكأنها تنبعث من قلب أثقلته الهموم ،

وأنها تصف بعض ما كانت تعانيه من الآلام التى لا تنقطع ، حتى من بعض أولئك الذين يكنون لها منتهى الحب .

وقالت « اما » وهى تعود الى البهو ثانية :

« يا له من بيت ويا لها من خالة !! انى لمشفقة عليك ، وكلما أظهرت احساسك بما تلاقينه من أهوال لا شك فيها ، زاد حبى لك » .

ثم ما كاد يمضى على ذهاب « چين » ربع ساعة ، وما كادوا ينتهون من رؤية بعض مشاهد لمقام « القديس مارك » بمدينة البندقية ، حتى دخل « فرانك تشرشل » الحجرة ، ولم تكن تفكر فيه لحظتها . بل لقد نسيت أن تفكر فيه ولكنها مع ذلك سرت لرؤيته . وهدأ روع « مسز وستن » ، فقد أثبت المهر الأسود ألا لوم عليه ولا تثريب ، وتحقق ظن من قالوا ان « مسز تشرشل » هى السبب ، فلقد تأخر لأنها أحست فترة باشتداد وطأة المرض عليها ، اذ تعرضت لاضطراب عصبى استمر معها بضع ساعات ، مما جعله يطرح عن ذهنه فكرة المجىء حتى وقت قريب جدا ، ولو كان يعلم ما سيلقاه وهو راكب ، من الحر ، وما لابد أن يكون عليه من التأخير ، مع أنه سار بأقصى سرعة ، لكف عن المجىء بالكلية » .

فلقد كان الحر شديدا لم يقاس مثله من قبل ، وود وهو فى الطريق لو كان مكث فى عقر داره ، فما كان شىء أقسى على نفسه من الحر . ان فى وسعه تحمل البرد مهما كانت درجته ، أما الحر فلا قبل له باحتماله . فلما انتهى من حديثه معها جلس على أبعد مسافة ممكنة من بقايا بار المدفأة التى أشعلت من أجل مستر وودهاوس وهو فى حالة يرثى لها .

وقالت « اما » : « ستشعر بشىء من الترطيب حالا ، ان أنت جلست هـادئا » .

« انى سأعود حالما يقل شعورى بالحرارة ، فلم يكن من السهل أن

يستغنوا عنى ، ولكنى صممت على المجيء ، وأظن أنكم سترحلون من هنا قريبا ، وأن الجماعة سينفرط عقدها سريعا . لقد قابلت واحدة منهم وأنا فى طريقى ، انه جنون منها فى مثل هذا الجو ، منتهى الجنون » .

واستمعت « اما » ونظرت اليه ، وأدركت فى الحال أن خير ما توصف به حالة « فرانك تشرشل » أنه كان مضطرب المزاج ، فان من الناس من يكتئبون دائما عندما يشعرون بالحر ، وقد يكون هذا هو تكوينه . ونظرا لأنها كانت تعلم بأن الطعام والشراب غالبا ما يزيلان أثر بعض التوعكات الطارئة ، فقد اقترحت عليه أن يتناول بعض المرطبات ، وقالت له : « ستجد فى حجرة الطعام من كل شيء قدرا كبيرا » ، وأشارت الى الباب فى رقة وعطف ، غير أنه رفض أن يتناول شيئا .

« لا ، يجب ألا آكل وأنا غير جائع ، فسوف لا يكون من وراء الأكل الا زيادة الاحساس بالحرارة » .

وبعد دقيقتين لانت عريكته وقلت خشونته ، وبدرت منه بعض كلمات عن الجعة التى تصنع من الصنوبر ، ثم انصرف ، وعادت « اما » تولى والدها كل عنايتها ، وتقول فى نفسها :

« انى لسعيدة بأن أكون قد تخلصت من حبى له ، فما يجوز لى أن أهوى رجلا لا يتمالك نفسه اذا صادفه يوم حار . على أن حلم « هاريت » ووداعتها ، يجعلانها أهلا لأن تتغاضى عن ذلك » .

وكان قد تغيب وقتا يكفى لأن يأكل وجبة شهية ، ثم عاد بعد ذلك وهو أحسن حالا مما كان ، اذ ذهب عنه ما كان يشعر به من أثر الحرارة ، وعادت اليه دماثة الخلق ، وأمكنه أن يسحب كرسيا بقربهم ، وأن يظهر اهتمامه بما شغلوا به ، وأن يعبر بطريقة معقولة عن أسفه لأنه اضطر الى مثل هذا التأخير .

كان يبدو مهموما ، ولكنه حاول أن يرفع من معنويته ، وأخذ يتكلم

هراء بطريقة شيقة . وكانوا وقتها يتأملون بعض مناظر من سويسرة فقال :

« سوف أغادر أرض الوطن حالما تشفى زوجة خالى ، فلن يهدأ لى بال حتى أرى بعض هذه الأماكن ، وسوف تصلك رسومى من وقت لآخر لتتصفحيها ، أو وصف رحلتى لتقرئيه ، أو شعر من أشعارى لتتسلى به ، سأعمل أى شىء لأعلن عن نفسى » .

« قد يحدث هذا ولكنه لن يكون برسوم من سويسرة ، لأنك لن تذهب اليها أبدا ولن يسمح لك خالك وزوجته بمغادرة انجلترا » .

« بل هما قد يقتنعان بالذهاب اليها كذلك ، فقد يوصف لها المناخ الدفىء ، بل انى لشديد الأمل فى أننا سنسافر جميعا الى الخارج ، وأؤكد لك أنى أكاد أتوقع ذلك . وانى لأشعر فى هذا الصباح بما يوحى الىّ بأنى سأكون فى الخارج عما قريب ، فلا بد لى من السفر ، وقد سئمت عدم العمل ، وأريد شيئا من التغيير ، وأنا جاد فيما أقول يا « مس وودهاوس » مهما أوحت به نظراتك الفاحصة ، فلقد سئمت انجلترا ، وبودى لو تركتها غدا ان أمكننى » .

« انك سئمت الرخاء والانغماس فى المتع ألا يمكنك أن تخلق لنفسك بعض المتاعب وتقنع نفسك بالبقاء ؟ » .

« عجبا ! أنا أسأم الرخاء والانغماس فى المتع !! لقد أخطأت تماما يا « اما » ، بل لست أرى أنى أعيش فى رخاء أو أنى منغمس فى الملذات ، فأنا مغلوب على أمرى فى كل شىء له قيمة فى الحياة ، ولست أعتبر نفسى محظوظا أبدا » .

« ومع ذلك فأنت لست بالكآبة التى كنت عليها وقت مجيئك ، فاذهب الآن واستزد من الطعام والشراب ، فسوف يصلح حالك ، ان شريحة أخرى من اللحم البارد ، وجرعة أخرى من نبيذ ماديرا الممزوج بالماء سيجعلانك مثلنا تماما » .

« لا ، لن أتحرك من هنا ، وسأجلس بجانبك ، فأنت أحسن علاج لى ».

« اننا ذاهبون الى « بكس هل » غدا ، وسوف تكون معنا ، انهـا ليست سويسرة ، ولكن لا بأس بها لشاب فى حاجة ماسة الى التغيير ، فهل تبقى وتذهب معنا ؟ » .

« لا ، لا بالتأكيد ، فسأذهب الى بيتى عندما تخف وطأة الحـر فى المســاء » .

« ولكن فى امكانك أن تعود باكر صباحا حين يكون الطقس باردا » .

« لا ، وما أغنانى عن ذلك ! فان أنا أتيت معكم فأنى سأكون مكتئبا ».

« أرجو اذن أن تبقى فى ريشمند » .

« ولكنى ان بقيت هناك ، سأكون أكثر اكتئابا ، وسوف لا أحتمل أبدا أن أفكر فى أنكم هناك جميعا وأنا لست معكم » .

« هذه صعوبات يجب عليك أن تتغلب عليها بنفسك ، وعليك أن تختار أية درجة تريدها من الكآبة ، ولن أضغط عليك بعد الآن » .

وكان الباقون فى طريقهم عائدين ، وسرعان ما تجمعوا ، وتهلل بعضهم فرحا عندما رأوا « فرانك تشرشل » ، وقابله فريق آخر بفتور ، ولكن القلق والاضطراب سادهم جميعا عندما علموا بعدم وجود «مس فيرفاكس».

ولما كان هذا هو وقت انصرافهم جميعا ، فقد انتهوا من الحديث ، وانصرفوا بعد أن أعدوا برنامجا موجزا للترتيبات النهائية لخطة سيرهم فى اليوم التالى . وزاد ميل « فرانك تشرشل » الى عدم الانفصال عن زمرتهم، الى درجة كبيرة ، حتى قال « لاما » آخر الأمر :

« أجل ، ان كنت تريدين بقائى لأكون معكم ، فأنى سأبقى » .

وابتسمت ابتسامة الموافقة ، وما كان من شيء بعد ذلك ليعود به قبل أمسية اليوم التالى ، الا أن يستدعى الى « ريشمند » .

الفصل الثالث والأربعون

كان يوما جميل الطقس للغاية كي يقوموا برحلتهم الى « بكس هل » ، كما دل كل شيء آخر من المظاهر الخارجية ، كالتنظيم ، واعداد الأماكن والمحافظة على المواعيد ، على أن الجماعة ستنعم بهذه الرحلة .

وأشرف « مستر وستن » على كل شيء ، وتولى توجيه سير الجماعة كلها ما بين « هارتفيلد » والأبرشية . وجاء كل واحد فى موعده . وذهبت « اما » بصحبة « هاريت » ، أما « مس بيتس » وابنة أختها فقد ذهبتا مع « مستر التن » وزوجته ، وذهب السادة على متون الخيل ، بينما بقيت « مسز وستن » فى صحبة « مستر وودهاوس » . ولم يكن ينقصهم شيء الا أن ينعموا بيومهم عند وصولهم الى « بكس هل » . فلقد قطعوا فى رحلتهم مسافة سبعة أميال ابتغاء المتعة ، فلما وصلوا اليها هللوا فرحا واعجابا ، ولكن معظم أوقات النهار كانت مع ذلك فاترة شملها الخمول والوجوم ، وكانت تعوزها الوحدة والترابط ، ولم تجد كل الوسائل فى التغلب على ذلك . فتفرقوا زمرا متناثرة ، فسار « التن » وزوجته معا ، وصحبت كل من « مس بيتس » و «چين » — « مستر نيتلى » — وكانت « اما » و « هاريت » من نصيب « فرانك تشرشل » .

وحاول « مستر وستن » عبثا أن يجعلهم أكثر التئاما وانسجاما . وكان يبدو فى أول الأمر أن هذا الانقسام كان وليد المصادفة ، ولكنه لم يتغير أبدا تغيرا ملحوظا .

صحيح أنه لم يبد من « مستر التن » أو زوجته أية رغبة فى عدم الاختلاط أو المجاملة ما أمكنهما ، غير أن الفرقة سادت الجماعة فى غضون الساعتين اللتين قضتهما فوق الربوة ، حتى أصبحت الفرقة هى المبدأ ، الى درجة أصبح من العسير معها على « مستر وستن » ببشاشته المعهودة أن يتغلب على الفرقة ، أو تستطيع أية مناظر خلابة أو أية مرطبات منعشة أن تخفف من وطأتها . وبدت « اما » بادىء الأمر مكتئبة مغتمة ، ولم تكن رأت « فرانك تشرشل » بهذا السكوت ، وهذا التبلد أبدا ، فهو لم يقل شيئا يستحق أن يسمع ، وكان ينظر وهو لا يرى ، ويبدى اعجابه بغير ادراك ، ويستمع اليها وهو لا يعى ما تقـول ، ـ ولا عجب أن تكون « هاريت » فى أثناء وجومه هى الأخرى واجمة ، حتى أصبح الاثنان لا يطاقان .

فلما جمع الكل مجلس واحد ، تحسن الحال ، وشعرت « اما » بهذا التحسن ، فانقلب « فرانك تشرشل » يتحدث فى بشر وبهجة ويخصها بكل عنايته ، حتى بدا وكأنه لم يعد يعنيه الا أن يدخل السرور على قلبها ، وأن يتقرب اليها . وانعكس ذلك على « اما » ، فقد أسعدها أن تنتعش نفسها ، ولم يغضبها أن تستمع الى مديحها ، وأصبحت هى الأخرى مرحة جذلة الفؤاد ، فأفسحت له صدرها ، وسمحت له بأن يجرؤ على التودد اليها كما كان يفعل قبلا عندما كان ودهما على أشده . واذا كان هذا فى مقيـاس تقديرها للأمور لم يعن شيئا ، فقد كان فى نظر الأغلبية التى كانت ترقبهما ، غزلا ، ولا شىء غير الغزل . وتعرضا بذلك الى قول الناس : ان « فرانك تشرشل » و « مس وودهاوس » قد أفرطا فى غزلهما » .

وهكذا جعلا من نفسهما هدفا لأن يتقول عليهما الناس بألسنتهم ، وأن تبعث بذلك احدى السيدات فى خطاب الى « مابل جروف » ، وتبعث به

أخرى الى أيرلندة . ولم يكن هذا لأن « اما » فرحت ، فشغلتها سعادة حقيقية عن التفكير ، بل لأنها شعرت بأنها أقل سعادة مما كانت تنتظر . فلقد ضحكت لأن أملها لم يتحقق ، وعلى الرغم من أنه أعجبها منـــه أنه أولاها كل عنايته ، وعلى الرغم من ايمانها بأن كل هذه الرعاية ، ســـواء أكانت مظهرا للصداقة أم الاعجاب ، أم مجرد مداعبة ، كانت فى منتهى الحكمة ، فان ذلك لم يكتسب قلبها ثانية . فقد كانت مصممة على أن تتخذه صديقا لا أكثر .

وقال لها : « كم أنا مدين لك بالشكر اذ أشرت على بالحضور اليوم ، ولولاك لكان من المؤكد أن أحرم من كل ما شعرت به من سعادة وسط هذه الجماعة ، فقد كنت قررت بالفعل أن أعود الى « ريشمند » .

« نعم لقد كنت مكتئبا جدا ، وان كنت لا أدرى لم كان كل هذا ، الا اذا كان لأنك تأخرت كثيرا عن تذوق ثمرات الشليك الممتازة ، ومع ذلك فقد كنت صديقة أكثر عطفا عليك مما تستحق ، أما أنت فقد كنت خانعا تستجدى الأمر بالمجىء » .

« لا تقولى انى كنت مكتئبا ، لقد كنت متعبا من أثر الحر الشديد » .

« ان الطقس اليوم أشد حرارة » .

« ولكنى لا أشعر بها ، وأنا فى تمام الراحة اليوم » .

« أنت مستريح لأنك طوع الأمر » .

« أمرك أنت ؟ أجل » .

« ربما قصدت أن تقول لى هذا ، ولكن الذى أعنيه هو حكم النفس ، وأنت بطريقة ما كسرت القيود بالأمس وهربت من حكم نفسك ، ولكنك اليوم عـــدت الى طبيعتك ، وبما أنه لن يتسنى لى أن أكون معك دائما ، فأحرى بك أن تثق بما تمليه عليك نفسك من أن تخضع لأمرى » .

« ان النتيجة فى الحالين سواء ، اذ لن يكون لنفسى سلطان علىّ دون أن يكون هناك دافع ، فأنت تأمرينني سواء تكلمت أم لم تتكلمى ، ويمكنك أن تكونى معى دائما ، بل أنت على الدوام معى » .

« ان مبدأ ذلك يرجع الى الساعة الثالثة بالأمس ، اذ لا يمكن أن يكون نفوذى الدائم قد بدأ قبل ذلك ، والا ما كان مزاجك يضطرب ويستولى عليك الغم قبل ذلك » .

« عجبا !! الساعة الثالثة مساء أمس ، أهذا هو تاريخك ؟ أظن أننى رأيتك أول ما رأيتك فى فبراير » .

« ان شهامتك لا تنكر حقا ، ولكن (قالتها فى صوت خافت) لا أحد غيرنا يتكلم ، وانه لكثير جدا أن نظل نقول كلاما سخيفا لكى نروح على سبعة يجلسون صامتين » .

وأجابها فى جرأة مثيرة : « انى لا أقول شيئا أخجل منـه ، ان أول رؤيتى لك كانت فى فبراير ، وليسمعنى جميع من يجلسون الآن فوق الربوة ان أمكنهم ، ولتصل كلماتى من « دوركنج » الى « مكلهام » ، ان أول رؤيتى لك كانت فى فبراير » ثم قال همسا :

« ان رفاقنا فى منتهى الخمول ، فماذا نفعل لتنشيطهم ؟ ان أى كلام سخيف سيؤدى الغرض ويدفعهم الى الكلام . سيداتى سادتى ! لقـد أمرتنى « مس وودهاوس » (وهى الزعيمة أينما حلت) ، بأن أقول انها تريد أن تعلم فيم تفكرون جميعا ؟ » .

وضحك البعض ، وأجابوا فى دعابة مستعذبة ، وتكلمت «مس بيتس» طويلا ، وشمخت « مسز التن » بأنفها اعتراضـا على زعامـة « مس وودهاوس » ، وكان رد « مستر نيتلى » أكثر الردود وضوحا ، فقد قال :

« هل « مس وودهاوس » متأكدة من أنها تريد سماع ما نفكر فيه جميعنا ؟ » .

فصاحت « اما » تقول وهى تضحك ملء شدقيها دون اكتراث :

« لا ، لا ، ليس هناك ما يدعو الى ذلك أبدا ، وهذا آخر شيء أقوى الآن على مجابهته ، دعونى أسمع أى شيء آخر غير ما تفكرون فيه جميعا ، ولا أقول جميعا ، فربما كان بينكم واحد أو اثنان (ونظرت الى مستر وستن وهاريت) لست أخشى معرفة فكرهما » .

وصاحت « مسز التن » تقول فى شيء من العنف :

« هذا شيء ما كنت أظن أن من حقى أنا نفسى أن أسأل عنه ، على الرغم من أنى قد أكون القيمة على الموجودات ، نعم لم أفكر يوما فى مثل ذلك أيا كان الوسـط أو كانت الجمـاعة التى كنت معهم ، جمـاعات الاستكشاف ، الشابات ، سيدات متزوجات » .

وكان كلامها موجها لزوجها خاصة ، فأجابها فى همهمة :

« هذا عين الصدق يا حبيبتى ، انه عين الصدق ، فما سمعنا شيئا كهذا أبدا ، ولكن بعض السيدات يقلن أى شيء يخطر ببالهن ، والأفضل أن تتركى هذا يمر على أنه فكاهة ، والناس جميعا يعلمون ما يجب بازائك » .

وقال « فرانك » « لاما » همسا : « ان هذا لن يجدى ، ان معظمهم يشعرون بالاهانة ، وسأهاجمهم بحديث أحول : « سيداتى سادتى ، لقد أمرتنى « مس وودهاوس » بأن أقول انها قد تنازلت عن حقها فى أن تعرف بالضبط ما يجول بخاطركم ، ولا تطلب من كل واحد منكم بصفة خاصة الا شيئا يكون مسليا جدا ، وأنتم هنا سبعة خلافى أنا ، (أنا الذى يسرها أن تقول عنى من الآن بأنى مسل جدا) وهى تطلب من كل واحد منكم اما أن يأتى بشيء واحد يدل على منتهى الذكاء ، سواء أكان نثرا أو نظما ، مبتكرا أو معادا ، واما أن يأتى بشيئين على درجة متوسطة من الذكاء ، أو بثلاثة من منتهى الغباء . وهى تتعهد بأن تضحك عليها جميعا من كل قلبهـا » .

وقالت « مس بيتس » : « هذا شيء جميل جدا ، واذن فلا داعى لأن أقلق ، ثلاثة أشياء فى منتهى الغباء ، هذا يناسبنى ولا شك ، وأعتقد أنى أستطيع أن أقول ثلاثة أشياء تدل على الغباء حالما أفتح فمى ، أليس كذلك ؟ » .

(ونظرت حولها وهى فى منتهى البشاشة معتمدة على موافقة الجميع) — قالت : « ألا تظنون جميعا أنى قادرة على أن أفعل ذلك ؟ » .

فلم تتمالك « اما » نفسها وقالت :

« نعم يا سيدتى ، ولكن قد تكون هناك صعوبة ، ومعذرة اذا قلت بأنك لا يجوز أن تتجاوزى العدد ، أى ثلاثة فقط فى وقت واحد » .

وخدعت « مس بيتس » بما قوبلت به هذه العبارة من الضحك ، ولم تفطن فى الحال الى ما كانت تعنيه « اما » ولكنها عندما أدركته لم يثر غضبها على الرغم من أنه صبغ وجنتيها بحمرة دلت على أنه آلمها .

« آه ! هذا حسن ولا شك ، أجل انى أفهم ما تعنيه (والتفتت الى مستر « نيتلى ») ، وسأحاول أن أصون لسانى عن الكلام ، ولا بد أنى جعلت نفسى مرذولة ، والا ما كانت قالت شيئا كهذا لصديقة قديمة » .

وصاح « مستر وستن » قائلا : « لقد أعجبتنى الفكرة . موافق ، موافق ، وسأبذل جهدى ، ها أنا ذا أعد أحجية ، فما حساب الأحجية عندكم ؟ » .

وأجاب ابنه : « أخشى أن يكون حسابها ضئيلا يا سيدى ، ضئيلا جدا ، ولكننا سنكون كرماء ، وخاصة مع من يكون فى الطليعة » .

وقالت « اما » : لا ، لا ، انها لن يكون حسابها ضئيلا ، وان أحجية من « مستر وستن » ، سوف توفى بما عليه وبما على جاره ، تكلم ياسيدى ، وأرجوك أن تسمعنى اياها » .

وقال « مستر وستن » : « أنا نفسى أشك فى أنها تدل على قسط وفير من الذكاء ، ولكنها مسألة حقيقية جدا ، وها هى : « ما هما الحرفان الهجائيان اللذان يدلان على الكمال ؟ » .

« ما الحرفان الدالان على الكمال !! لا شك أنى لا أعرف » .

« آه !! لا يمكنك التكهن أبدا ، وأنا واثق من أنك (مخاطبا « اما ») لن تعرفى ذلك عن طريق الحدس أو التخمين ، وسأخبرك بهما يا « اما » : « انهما : ا ، م (ام — ما) ، أتفهمين ؟ » ، وفهم الجميع وارتاحوا لها . نعم انها قد تكون أحجية تنقصها المسحة الشخصية ، ولكن « اما » وجدت فيها ما يسرها ويضحكها كثيرا ، وكان الحال كذلك مع « فرانك » و « هاريت » . أما الآخرون فلم يبد عليهم أنهم تأثروا بها جميعا بدرجة واحدة ، فقد خفى مغزاها على بعضهم ، وكان البعض الآخر لا يزال حائرا فى فك طلاسمها ، وقال « مستر نيتلى » جادا :

« هذا يبين لنا نوع الذكاء المطلوب ، ولقد أحسن « مستر وستن » كثيرا الى نفسه ، ولكنه ولا شك قد أطاح بالآخرين فما كان يجب أن يأتى هذا الكمال هكذا سريعا » .

وقالت « مسز التن » : « وأنا عن نفسى أعترض ، وأرجو أن أعفى من ذلك ، فأنا لا يمكننى أن أحاول ، فأنا لست مغرمة بشىء من هذا النوع اطلاقا . لقد وصلتنى مرة قصيدة صغيرة باسمى ، وكانت من تلك القصائد التى تدل أول حروف أبياتها وأواخرها على كلمات معينة ، فلم أرتح اليها أبدا ، وعرفت مرسلها ، وهو شاب سخيف كالجرو !! (وأومأت الى زوجها برأسها ثم قالت) :

« أتعرف من هو الذى أعنيه ؟ » ان مثل هذه الأشياء تصلح جدا فى حفلات الكريسماس « عيد الميلاد » ، عندما يجلس المرء حول المدفأة ،

ولكنها ليست مستساغة كما أرى عندما يكون الانسان فى رحلة فى الريف أيام الصيف ، فلتعفنى « مس وودهاوس » فلست أنا ممن يقولون الأشياء الذكية عند الطلب ، ولست أدعى لنفسى بأنى أجيد فن الأحجية ، وأنا أجد الكثير من المرح بطريقتى الخاصة ، ولكن لابد أن يسلم لى بأن من حقى أن أقرر متى أتكلم ، ومتى أمتنع عن الكلام ، فأرجو أن تتخطانا ان سمحت يا « مستر تشرشل » ، تخطانى أنا و « مستر التن » ثم «نيتلى» و «چين»، فليس لدى أى واحد منا شىء يقوله فيه براعة » .

وأضاف زوجها فى سخرية : « أجل ، أجل ، أرجو أن تتخطانى فليس عندى شىء أقوله يكون من ورائه تسلية « لمس وودهاوس » أو لأية فتاة آخرى ، وأنا رجل عجوز ومتزوج ولا آصلح لشىء . هلا قمنا لنتمشى يا « أوجستا » ؟ » .

« بكل سرور ، والحق أنى سئمت اطالة التجول فى بقعة واحدة هيا يا « چين » ، وأمسكى بذراعى الآخر ! » .

ورفضت «چين» ، فمشى الزوج وزوجته ، وقال مستر «فرانك تشرشل» فى مكان عام ، وأظن أنهما تعرفا ببعضهما بعد ذلك لأسابيع قليلة فى «باث»، ما أعجب حظهما وأن يوافق شن طبقة ! . فلا « باث » ولا أى مكان عام آخر يمكن أن يؤدى الى معرفة حقيقية بطباع الشخص وميوله . وانما تكون هذه المعرفة برؤية النساء فى بيوتهن ، وبين أترابهن ، وفى ظروفهن العادية كما هن دائما ، فى غير اصطناع أو تكلف . أما ما عدا ذلك ، فهو رجم بالغيب ومسألة متروكة للحظ ، وهو يؤدى الى الفشل بوجه عام ، وكم من رجل استسلم بعد تعارف قصير ، ثم ندم بقية العمر ! » .

وتكلمت « مس فيرفاكس » الآن ، وندر ما تكلمت من قبل الا أن يكون مع بطانتها الخاصة ، فقالت :

« لا ريب أن مثل هذه الأشياء تحدث » -- ثم منعها سعال عن مواصلة الكلام . والتفت « فرانك تشرشل » نحوها ليستمع وقال :

« انك كنت تتكلمين » — وعاودتها القدرة على الكلام فقالت :

« ما كنت أريد الا أن ألفت النظر الى أنه على الرغم من أن ظروفا سيئة كهذه قد تصادف بعض الرجال والنساء أحيانا فانى لا أظن أنها كثيرة الوقوع ، وقد تنعقد أواصر المحبة بسرعة ودون تبصر ، ولكن غالبا ما تكون هناك فرصة للخلاص فى الوقت المناسب . وأود أن أفهم على أنى أقصد أن الشخصيات الضعيفة خائرة العزيمة (تلك التى تكون سعادتها دائما تحت رحمة الصدفة) هى وحدها التى تسمح لتعارف جانبه الحظ أن يظل مصدرا للمتاعب ، وأن يبقى كابوسا جاثما على صدورهم الى الأبد » .

ولم يحر « فرانك » جوابا ، واكتفى بالنظر ، ثم انحنى صاغرا ، وقال بعد ذلك مباشرة ، وصوته ينم عن الارتياح .

« أجل ، انى قليل الثقة بحكمى على الأشياء ، حتى أننى أرجو عندما أتزوج ، أن يختار لى شخص آخر زوجتى ، فهل تقومين أنت بهذا ؟ (والتفت الى « اما ») هل تختارين زوجة لى ؟ أنا واثق بأننى سأحب أية واحدة يقع عليها اختيارك ، وأنت كما تعلمين ، موردة الزوجات للعائلة (ونظر الى أبيه مبتسما) ابحثى لى عن واحدة ، وأنا لست متعجلا ، تبنيها وثقفيها » .

« وأجعلها مثلى » .

« بكل تأكيد ان أمكنك » .

« حسنا جدا ، وسوف أؤدى رسالتى وتكون لك زوجة ظريفة » .

« يجب أن تكون مرحة ، وأن تكون لها عينان عسليتان ، ولا يهمنى غير ذلك ، وسأذهب الى الخارج وأقضى سنتين ، وعندما أعود سوف آتى اليك لأطلب زوجتى ، فتذكرى هذا » .

وما كانت « اما » لتخشى النسيان ، فهو تكليف يمس أحب المشاعر اليها . ألا تكون « هاريت » هى نفس الزوجة التى وصفها ؟ واذا استثنينا العيون العسلية ، فان زيادة سنتين قد تجعل « هاريت » الزوجة التى يريدها . ومن يدرى فقد تكون هى التى يعنيها . بل ان حديثه عن تثقيفها على يدى ، ليشير الى ذلك ضمنا » .

وقالت « جين » لخالتها : « والآن يا سيدتى هل يلحق بمسز « التن » ؟

« كما ترين يا عزيزتى ، وبكل جوارحى ، وأنا على أتم استعداد . لقد كنت مستعدة للذهاب معها ، ولكن يمكننا أن نكون معها الآن ، وسندركها حالا ، ها هى هناك — لا ، انه شخص آخر ، انها احدى سيدات المجموعة التى بالعربة الايرلندية ، لا ، انهـا لا تشبهها ، أجـل ، انى أعلن على الاشهاد — .

وانصرفا وفى اثرهما « مستر نيتلى » بعد نصف دقيقـة ، ولم يبق الا « مستر وستن » وابنه ، و « اما » و « هاريت » . وزاد انتعاش الفتى الى درجة تكاد تكون غير مستحبة حتى أن « اما » نفسها سئمت أخيرا من اطرائه لها ومن مرحه ، وودت لو أنها كانت تسير فى هدوء ، مع أى فرد آخر من الباقين ، أو أن تجلس بمفردها لا يرافقها أحد مطلقا ، تتأمل المناظر الجميلة التى تحتها وهى هادئة .

وكان لحضور الخدم للبحث عنهم ، واخبارهم بأن العربات قد أعدت فرحة فى نفسها وأى فرحة — وحتى تلك الضجة التى صـحبت جميع الأشـياء ، والاستعداد للمسير ، وذلك القلق الذى كانت عليه « مسز التن » ، لكى تكون عربتها فى المقدمة ، أمكن تحملها عن طيب خاطر ، أملا فى انتقالهم بعرباتهم الى بيوتهم فى هدوء ، وبذا ينتهى يوم كانت متعته أمرا مشكوكا فيه ، وتمنت ألا يغرر بها أبدا مرة أخرى ، فى مشروع آخر كهذا ، عناصره من أفراد متباينين ، لا وئام بينهم ولا انسجام .

وبينما كانت تنتظر العربة ، وجدت « مستر نيتلى » بجانبها ينظر حوله كأنما يريد ألا يكون أحد قريبا منه ، ثم قال :

« لا بد لى يا « اما » أن أتحدث معك مرة أخرى كما اعتدت أن أتحدث ، وربما كان هذا امتيازا لى تحتملينه أكثر مما تسمحين به ، ولكن لابد لى مع ذلك من أن أستغله ، بل أنا سأستغله ، فأنا لا يسعنى أن أراك تخطئين ثم لا أعتب عليك . كيف لا تأخذك الشفقة بمس بيتس ؟ وكيف تكونين بمثل هذه الجرأة فى فكاهتك مع سيدة على هذا الخلق ، وفى مثل سنها وظروفها ؟ ما كنت أظن يا « اما » أن هذا يحدث » .

وتذكرت « اما » ما حدث ، واحمر وجهها خجلا ، وأسفت ، ولكنها حاولت أن تهون الأمر وتتناساه ، وأجابت :

« ولكن كيف كنت أحجم عن قول ما قلته ؟ فلم يكن أحد ليستطيع أن يتمالك نفسه ، فضلا عن أن كلامى لم يكن بهذا القبح الذى ذكرته ، بل لعلها لم تفهمه » .

« أؤكد لك أنها فهمته ، وشعرت بكل ما تعنين منه ، فلقد عادت فأشارت اليه بعد ذلك ، وكان بودى لو سمعت كيف تحدثت عن هذا الموضوع — بأية صراحة وبأى كرم ! بودى لو أنك استمعت اليها وهى تمتدح اصطبارك ، وتطنب فى الرعاية التى لقيتها منك ومن أبيك دائما ، ثم لا تعرف كيف توفق بين هذا وبين أن تكون صحبتها متعبة لك بهذا القدر » !

وصاحت « اما » : « عجبا !! أنا أعلم أنه ليس هناك مخلوق يفضلها ، ولكن يجب عليك أن تعلم أن الطيب والمضحك قد اجتمعا فيها معا لسوء الحظ الى أقصى حد » .

فقال : « انى أعترف بأنهما يجتمعان فى شخصها ، ولكن لو أنها كانت

غنية لتجاوزت كثيرا عما يطغى أحيانا من مضحكاتها على محاسنها . ولو أنها كانت ذات ثراء ، لكنت أبحث لكل سخافة غير ضارة فيها ، أن تجد لها منفذا ، وما كنت أتشاحن معك الآن لأى اسراف أو خروج عن اللياقة فى سلوكك نحوها لو أنها كانت نظيرتك فى المكانة . ولكن قدرى يا « اما » ما هنالك من بون شاسع بينكما ، فهى فقيرة ، وكانت فى صغرها منعمة ، ثم هوت الى الحضيض ، واذا هى قدر لها أن تعمر طويلا ، فمن المحتمل جدا أن تنحدر الى ما هو أفظع مما هى فيه . ان ظروفها يجب أن تنـال عطفك واشفاقك ، ولا شك أن ما بدر منك كان فيه اساءة لها ، أنت التى عرفتك منذ نعومة أظفارك ، أنت التى رأتك تشبين فى وقت كانت فيه اللفتة منها تشريفا ، ثم هى تجدك الآن ، وأنت فى نشوة جامحـة . وفى كبرياء الساعة ، تضحكين منها ، وتحطين من قدرها ، وتفعلين ذلك أمام ابنة أختها ، وأمام غيرها ، ومنهم الكثيرون (ومن المؤكد أن بعضهم) يسيرون على منوالك فى معاملتها . ان هذا لا يسرك يا « اما » ، وهو كذلك بعيد جدا عن أن يسرنى ، غير أن من واجبى أن أقول لك الحقائق ما دمت قادرا ، بل أنا مصمم على أن أقولها ، وأنا قانع بأنى انما أبرهن لك بأســداء نصيحتى المخلصة على حسن صداقتى ، كما أنى واثق بأنك سوف تكونين يوما ما أكثر انصافا لى منك الآن » .

وبينما كانا يتحدثان ، كانا يقتربان من العربة ، فكانت قد أعدت وهيئت للركوب ، وقبل أن تتمكن من الكلام ثانية ، أخذ بيدها وأركبها العربة . لقد أساء فى تلك اللحظة فهم حقيقة مشاعرها التى جعلتها تشيح بوجهها عنه ، وجعلت لسانها ينعقد عن الكلام . فلقد كانت مشاعرها مقـرونة بالسخط على نفسها ، وبالألم والقلق الشديدين ، فلم تقو على الكلام . وعندما دخلت العربة ، اضطجعت الى الوراء ، ولبثت لحظة وهى منهارة ،

ثم أخذت تؤنب نفسها لأنها لم تودعه ، ولأنها لم تعترف له بغلطتها ، أو تذكر له حسن صنيعه بكلمة طيبة .

وانصرفت والكآبة بادية على وجهها ، ثم أطلت من العربة ونادته ولوحت له بيدها ، كى تبدو على عكس ما كانت عليه ، ولكن الفرصة كانت قد أفلتت ، اذ كان قد استدار وابتعد عنها . وجرت الخيل فى السير بها بسرعة خالتها فوق عادتها . واستمرت تنظر خلفها على غير جدوى ، ووصلت العربة بهما بسرعة لم تعهدها ، الى منتصف المنحدر ، وبعدت « اما » بذلك عن كل ما وراءها . وبلغ بها الغيظ مبلغا يصعب الافصاح عنه ولم تستطع اخفاء غيظها ، ولم تشعر فى حياتها بمثل ما كانت تشعر به من اضطراب وهموم وألم فى أية مناسبة أخرى . لقد كان وقع الصدمة عليها عنيفا للغاية ، وكان قوله حقا لا سبيل الى نكرانه ، وأحست بكل ذلك فى قرارة نفسها . ويحها ، كيف عاملت مس « بيتس » بهذه الوحشية وبتلك القسوة !! كيف عرضت نفسها لتكوين فكرة سيئة عند شخص تجله وتقدره !! ثم كيف تؤلمه وقت انصرافه ولا تنبس بكلمة تعبر بها عن شكرها له وموافقتها على ما قاله ، وتشاركه حنانه وعطفه على « مس بيتس » .

ولم يفلح الوقت فى التهدئة من روعها ، وكانت كلما فكرت بدت أكثر تأثرا ، وأحست بضيق لم تشعر به من قبل ، ولم يكن هناك لحسن الحظ ما يضطرها الى الكلام ، فلم يكن معها فى العربة الا « هاريت » وكانت هى الأخرى تبدو مهمومة مجهدة ، عازفة عن الكلام . وأحست « اما » بالدموع تنحدر فوق وجنتيها ، على طول الطريق وهى متجهة الى بيتها ، ولم تكلف نفسها عناء كفكفتها وهى تسيل بغزارة .

الفصل الرابع والأربعون

ظلت « اما » طيلة المساء تفكر فيما أحاط برحلة « بكس هل » من تعاسة ، لا تدرى ما يكون رأى سائر الجماعة فى تلك الرحلة . فقد يكونون وهم فى بيوتهم المتباينة ، وبما يختلفون فيه من نظرة الى الأشياء ، ، ينظرون اليها على أنها كانت رحلة ممتعة . أما هى فقد رأت أن الصباح الذى أمضوه فيها قد أسىء استخدامه ، وأنه كان خلوا من أية متعة نفسية أو عقلية وهم هناك ، فلما عادوا ، كانت ذكراه أشد سوءا من أى يوم آخر من أيام حياتها . وأن أمسية كاملة تقضيها فى لعب النرد مع أبيها ، كانت تكون السعادة مجسمة اذا قورنت بذلك الصباح ، السعادة الحقة ، لأنها فى تلك الحالة كانت تضحى بأحلى ساعات اليوم من أجل راحته ، ولأنها وهى تشعر بهذه السعادة ، وتشعر بأنها لا تستحقها بجانب ما يضيفه عليها أبوها من تقدير وثقة وحب ، لا تتعرض للوم أو تأنيب . لقد كانت تأمل ، باعتبارها ابنته ، ألا تكون مجردة من الحنان ، وأن أحدا لن يستطيع أن يقول عنها : « كيف تجردت من الشعور نحو أبيك ؟ » أو أن يقول : « ان من واجبى أن أتحدث اليك بصراحة ، بل انى متحدث اليك بصراحة ما دمت أستطيع ذلك » ، ولن يتكرر ماحدث مع «مس بيتس» ، لا ، أبدا !! ولو كانت الرعاية والحدب فى المستقبل تمحو ما سلف ، فقد يكون هناك أمل فى العفو . ان ضميرها يحدثها بأنها كثيرا ما كانت تهملها اهمالا لعله كان فى الفكر أكثر منه اهمالا فى الواقع . انها تشعر فى قرارة نفسها بأنها كانت فظة معها ، مزدرية لها . ولكن شيئا من هذا لن يحدث بعد الآن . انها لابد أن تذهب لزيارتها فى

صباح الباكر ، ندما منها على ما فرط منها ، وأن تجعل هذه الزيارة من جانبها فاتحة لصلة ودية منتظمة تقوم على قدم من المساواة بينها وبينها .

وكانت « اما ؟ على عهدها فيما اعتزمته عندما أصبح الصباح ، فبكرت بالذهاب الى « مس بيتس » قبل أن يعوقها شيء ، وخطر لها أن من المحتمل أن ترى « مستر نيتلى ؟ فى طريقها ، أو أنه قد يأتى وهى هناك . وما كان لها اعتراض على هذا ، بل ما كانت لتخجل من أن تبدو نادمة ما دام ندمها صحيحا وتوبتها نصوحا ، واتجهت بأنظارها وهى تسير الى « دونول » . ولكنها لم تره .

فلما كانت فى بيت « مس بيتس » ، علمت أن السيدات جميعا فى البيت . ولم تبتهج نفسها لسماع مثل هذا الخبر فى يوم من الأيام ، ولا سارت عبر الطرقة أو ارتقت السلم فى بيت هذه السيدة بمثل ما كانت تشعر به الآن من رغبة صادقة فى ادخال السرور على قلوبهن . فلم تكن زياراتها من قبل الا قياما بواجب ، أو تنازلا واستعلاء .

وحدث عند اقترابها ، هرج ومرج ولغط ، وسمعت صوت « مس بيتس » ، كما لو كان هناك ما يردن سرعة انجازه ، وبدا الخـوف على الخادمة وارتبكت وقالت لها لو تفضلت لانتظرت لحظة واحدة ، ثم أدخلتها بعد ذلك سريعا ، وبدا « لاما » أن الفتاة وخالتها قد هربتا معا الى الحجرة المجاورة ، بل لقد رأت « چين » بالفعل ، فبدت لها مريضة جدا ، وقبل أن يحجبهما الباب عنها ، سمعت « مس بيتس » تقول : « أجل يا عزيزتى ، سأقول انك طريحة الفراش ، وأنا واثقة بأن فيك من المرض ما يكفى » .

وكان يبدو على مسز « بيتس » ، تلك السيدة التى لم تتخل عن كرمها وتواضعها يوما ، أنها لا تدرى تماما ما كان يجرى :

قالت : « أخشى ألا تكون « چين » موفورة الصحة ، ولكنى لا أعلم ،

انهم يقولون انها فى صحة جيدة ، وأظن أن ابنتى ستكون هنا حالا يا « مس وودهاوس » ، وأرجو أن تكونى قد عثرت على كرسى تجلسين عليه ، وكان بودى ألا تكون « پاتى » قد خرجت ، فأنى قليلة الجهد ، هل وجدت يا سيدتى كرسيا ؟ وهلا جلست حيث تشائين ؟ انى متأكدة بأنها ستكون هنا حالا » .

وترقبت «اما» مجيئها فى شغف ، وخشيت لحظة أن تكون «مس بيتس» قد توارت عنها عمدا ، ولكن مس بيتس « سرعان ما أتت وهى تقول : « انى لسعيدة جدا وشاكرة » .

ولكن « اما » شعرت بأنها لم تكن ثرثارة أو مبتهجة كعادتها ، وأنها كانت أقل هدوءا فى مظهرها وحركتها . ولاح « لاما » أنها لو سألتها عن صحة « فيرفاكس » فقد تفسح الطريق أمام عواطفها القديمة لكى تعود كما كانت ، وظهر أثر السؤال فى الحال .

« ما أكرمك يا « مس وودهاوس » !! أظنك سمعت بالخبر وحضرت لتسعدينا بالتهنئة ، ولا شك أن هذا مما أفرح له (ومسحت دمعة أو دمعتين من عينيها) ، ولكننا سنشعر بالألم لبعدها عنا ، بعد أن لبثت معنا طويلا ، وهى الآن تشكو صداعا عنيفا ، ولقد أمضت الصباح كله فى الكتابة ، فما أطول الخطابات التى تكتبها الى المقدم « كامپبل » « ومسز دكسون » ، وقد قلت لها :

« يا عزيزتى انك ستفقدين بصرك ، فأن الدموع لم تفارق عينيها ، ولا عجب فى ذلك ، لا عجب فى ذلك . انه تغيير عظيم بالنسبة لها ، ولكنها محظوظة الى درجة مدهشة ، وأظن أن وظيفة جميلة كهذه ، لم تحظ لها فتاة من قبل لأول مرة تخرج فيها للعمل — ولا تظنين أننا غير حامدين لمثل هذا الحظ المدهش (وعادت تنثر الدموع عن عينيها) — ما أبأس

المخلوقة العزيزة ! لو أنك رأيت ما تشكوه من الصداع — والانسان كما تعلمين اذا كان يشكو ألما ممضا ، فأنه لا يقدر النعمة ولا يغتبط لها بمثل ما تستحقه لقد أثقلتها الهموم الى أقصى حد ، وما من أحد يستطيع أن يتبين اذا نظر اليها ما تحس به من غبطة وسعادة لنيلها مثل هذه الوظيفة ، اغتفرى لها عدم مجيئها لمقابلتك ، لأنها معتلة ، وقد دخلت حجرتها ، لأنى أريد منها أن ترقد فى الفراش ، وقلت لها : « انى سأقول يا عزيزتى بأنك طريحة الفراش ولكنها مع ذلك ليست بالفراش ، انها تتمشى فى الحجرة ، على أنها وقد فرغت من كتابة الخطابات تقول ان صحتها ستتحسن حالا . انها ستأسف أشد الأسف يا « مس وودهاوس » لحرمانها من رؤيتك ، ولكن عطفك كفيل بالصفح عنها ، لقد وقفت بالباب تنتظرين ، وأخجلنى ذلك جدا . لقد كان هناك شىء من الهرج ، فلم نسمع طرقك على الباب ، ولم نعلم بقدوم أحد حتى سمعنا وقع أقدامك على السلم فقلت : « لابد أن تكون « مسز كول » ثقوا انه لا أحد غيرها يأتى مبكرا هكذا ، فقالت :

« أجل ، وعلينا أن نتحملها فى أى وقت جاءت ، ومن الخير أن يكون ذلك الآن » . ولكن « پاتى » دخلت بعد ذلك وقالت انك أنت القادمة ، فقلت : « عجبـا ! انها « مس وودهاوس » ، وأنا متأكدة بأنك تودين رؤيتها » فقالت : « لا يمكننى رؤية أحد » ثم همت واقفة وخرجت من الحجرة ، وهذا ما دفعنا الى أن نجعلك تنتظرين . ونحن فى غاية الأسف ومنتهى الخجل لذلك ، وقد قلت لها : « اذا كان لابد من ذهابك يا عزيزتى ، فاذهبى ، وسوف أقول لها انك طريحة الفراش » .

واهتمت « اما » بذلك غاية الاهتمام ، لأن حنانها نحو « چين » كان قد أخذ يزداد منذ بعض الوقت ، وقد محت الصـورة التى وصفت بها « مس بيتس » آلامها الآن ، كل ما سبق من سوء الظن بها ، ولم تترك

وراءها غير الاشفاق والعطف . ورأت « اما » وهى تستعيد مسلكها ازاءها ، ذلك المسلك الذى كانت تعوزه الرقة والعدالة ، أن من الطبيعى أن تصمم « چين » على رؤية « مسز كول » أو أية صديقة أخرى غير متقلبة ، بينما لا تقوى على تحمل رؤيتها فى ظرفها الحالى . وتحدثت « اما » فترجمت كل مشاعرها فى أسلوب يتسم بالأسف والاستعطاف ، وعبرت عن أملها الخالص بأن يكون ما تجمع لديها من حديث « مس بيتس » عن خطة المستقبل ، من مصلحة « مس فيرفاكس » وسعادتها ما أمكن ، واستطردت تقول :

« لابد أنها تجربة قاسية لهن جميعا ، بعد أن كانت تعلم أن مشروعها سيؤجل الى أن يعود المقدم « كامپبل » » .

وأجابتها « مس بيتس » : « ما أكثر عطفك ، ولكنك دائما عطوفة » .

ولم تحتمل « اما » كلمة دائما ، وأرادت أن توفر عليها عبارات العرفان بالجميل ، فعمدت الى سؤال مباشر وضعته لمس « بيتس » :

« هل لى أن أسأل الى أين تذهب « مس فيرفاكس » ؟ .

« الى سيدة تدعى مسز « سمول ردچ » ، وهى سيدة لطيفة وممتازة للغاية ؛ ليوكل اليها الاشراف على بناتها الثلاث الصغيرات ، وهن بنات ظريفات . ومن المستحيل أن توجد أية وظيفة أخرى تكون الراحة فيها أكثر وفرة ، اذا ما استثنينا أسرة « مسز سكلنج » نفسها ، وأسرة مسز « براج » ، ولكن مسز « سمول ردچ » صديقة للأسرتين ، وفى نفس الجيرة ، اذ تقيم على بعد أربعة أمال من « ماپل جروف » ، وهكذا ستكون « چين » على بعد أربعة أميال لا أكثر من « ماپل جروف » .

« أظن أن « مسز التن » هى التى تدين لها « مس فيرفاكس » » .

« أجل ، انها « مسز التن » طيبة القلب ، وهى الصديقة المخلصة التى لا تتأخر عن أداء أية خدمة ، انها لم تقبل منها رفضا ، ولم تدع « چين »

تقول « لا » . فأن « چين » عندما سمعت بذلك لأول مرة (وكان ذلك أول أمس ، وفى نفس الصباح الذى كنا فيه فى دونول) قررت أن ترفض العرض ، لنفس الأسباب التى تذكرينها . وكما تقولين تماما ، انها كانت قررت ألا توافق على شىء حتى يعود المقدم « كامپبل » ، ولم يكن هناك من شىء يحملها على الارتباط بأى شىء فى هذه الآونة — وأخبرت « مسز التن » بذلك مرارا وتكرارا ، وأنا واثقة أنه لم يكن يخطر ببالى أنها يمكن أن تغير رأيها — ولكن « مسز التن » ، تلك السيدة الطيبة التى لا تبدى من الرأى الا ما كان دائما حصيفا ، كانت أبعد منى نظرا ، ولم يكن أحد من الناس يستطيع أن يقاوم « چين » برقة كما فعلت ، أو يمتنع عن قبول رفضها بمثل هذا العطف ، لقد قالت أمس صراحة ، انها لن تكتب بأى رفض كما كانت « چين » تريد ، ورأت أن تنتظر . وأمس مساء على وجه التحديد ، استقر الرأى على ذهاب « چين » ، وقد أدهشنى ذلك تماما ، فلم تكن عندى أية فكرة ، اذ انتحت « چين » « بمسز التن » جانبا ، وأخبرتها أنها بعد أن فكرت فى مزايا الوظيفة التى وجدتها لها « مسز سكلنج » ، استقر رأيها على قبولها ، وما كنت أعلم شيئا عن ذلك حتى بت فى الأمر نهائيـا » .

« وهل قضيتم المساء مع مسز التن ؟ » .

« أجل ، جميعنا ، فقد طلبت « مسز التن » منا أن نذهب الى بيتها ، واتفقنا على ذلك ونحن فوق الربوة حين كنا نتجول مع « مستر نيتلى » ، اذ قالت :

« لا بد وأن تقضوا المساء عندنا جميعكم ، وأنا أصر على حضوركم جميعا » .

« وهل كان « مستر نيتلى » معكم كذلك ؟ » .

« لا ، لم يكن معنا ، فقد اعتذر من أول الأمر ، ومع أني كنت أظن أنه سيأتي ، لأن « مسز التن » قالت انهـا لن تتركه ، فانه لم يحضر ولكن والدتي و « چين » وأنا ، كنا جميعا هناك ، وقد أمضينا أمسية جميـلة عندها . ان المرء يا « مس وودهاوس » لابد وأن يجد دائما عند أمثال هؤلاء الأصدقاء العطوفين ما يسره ، على الرغم من أن كل واحد منهم كان يبدو متعبا ، بعد رحلة الصباح ، حتى المتعة كانت متعبة — ولست أدعى أن أحدا منهم استمتع بهذه الرحلة كثيرا ، ومع ذلك فأني سأظل دائما أرى أنها كانت جماعة لطيفة جدا ، وسأشعر دائما بأني مدينة بجزيل الشكر للأصدقاء الكرماء الذين أدمجوني معهم » .

« ظني أن « مس فيرفاكس » كانت تفكر طول النهار لتصل الى رأى دون أن تفطني الى ذلك » .

« أظن هذا » .

« لابد أنها لن ترحب بهـذا اليوم الموعـود اذا حـان ، لا ، هي ولا أصدقاؤها جميعا . ولكني آمل أنها ستجد في عملها ما يهون عليها ، وأعني بهذا ، حالة الأسرة من حيث كيانها ومعيشتها » .

« شكرا عزيزتي « مس وودهاوس » ، نعم ان هنـاك ولا شك كل ما تجد فيه هناءها . وفيما عدا أسرتي « سكلنج » و « براج » لا يوجد من بين معارف « مسز التن » حضانة أخرى للأطفال لها مثل هذه البحبوحة من العيش ، وتلك العظمة . ان مستر « سمول ردچ » سيدة غاية في الظرف ، وهي على مستوى من المعيشة يكاد يعادل مستوى « مايل جروف » ، أما عن الأطفال ، فاننا اذا استثنينا أطفال « سكلنج » وأطفال « براج » ، فليس هناك من هم ألطف منهم في أي مكان آخر ، وسوف تعامل « چين » بينهم بكل رعاية وحنان ، ولن تكون حياتها الا سرورا في سرور . ثم ما أعظم

مرتبها !! الحق أنى لا أجرؤ على ذكر مرتبها لك يا « مس وودهاوس » ، وحتى أنت يا من اعتدت سماع المبالغ الضخمة ، سيصعب عليك أن تصدقى أن مرتبا كبيرا كهذا ، يمكن أن يعطى لفتاة مثل « چين » .

وصاحت « اما » قائلة : « آه يا سيدتى !! لو أن أطفالا آخرين كانوا مثل ما كنت أنا ، وكما أتذكر عن نفس ، فأنى أظن أن خمسة أضعاف ما سمعت عنه من مرتبات حتى الآن لن يعتبر الا كسبا حلالا » .

« كم أنت نبيلة فى أفكارك ! » .

« ومتى تترككم مس فيرفاكس ؟ » .

« قريبا جدا ، فى القريب العاجل قطعا ، وهذا هو أسوأ ما فى الأمر ، سوف يكون ذلك فى غضون أسبوعين ، اذ أن مسز « سمول ردچ » تتعجل حضورها ، ووالدتى المسكينة لا تدرى كيف تصبر على فراقها ، ولذا فانى من وقتها وأنا أحاول ابعاد الموضوع عن تفكيرها ، وأقول لها : « هلم يا سيدتى لا تجعلينا نفكر فى هذا بعد الآن » .

« لابد وأن أصدقاءها جميعا سيحزنون لفراقها . ثم ألا يستاء المقدم « كامپبل » وزوجته عندما يجدان أنها التحقت بعمل قبل رجوعهما ؟ »

« آجل ان « چين » تقول انها متأكدة من ذلك ، ولكنها تشعر رغم هذا أن وظيفة كهذه لا يجوز لها أن ترفضها . ولقد دهشت كثيرا عندما قالت لى فى بادىء الأمر ما كانت تقوله وتردده لمسز « التن » ، ثم جاءت « مسز التن » فى اللحظة نفسها لتهنئنى على ذلك ! كان ذلك قبل موعد تناول الشاى ، ولكن لا ، انتظرى على ، لا يمكن أن يكون ذلك قبل موعد تناول الشاى ، لأنى أذكر — آه ، ها قد تذكرت الآن ، لقد حدث شىء ما قبل أن تتناول الشاى ، ولكنه لم يكن ذلك . لقد نودى وقتها على « مستر التن » ، وخرج من الحجرة قبل تناول الشاى — اذ كان ابن « چون

أبدى » العجوز يريد أن يتحدث معه . ان « چون » العجوز رجل مسكين ، وأنا أجله كثيرا ، فقد اشتغل كاتبا لأبى سبعا وعشرين سنة كاملة ، وهذا الرجل العجوز المسكين طريح الفراش الآن ، وهو مصاب بمرض النقرس ، الذى يسبب له ألما شديدا فى مفاصله ، ولابد أن أذهب لزيارته اليوم ، وأنا متأكدة أن « چين » ستذهب لزيارته كذلك اذا غادرت البيت اطلاقا .
لقد جاء ابن « چون » المسكين ليتكلم مع « مستر التن » عن معونة من الأبرشية . وابنه كما تعلمين ميسور ، لأنه رئيس الخدم فى « نزل التاج » فضلا عن أنه يسوس الخيل ،وما الى ذلك ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يعول أباه دون معونة من الخارج . فلما عاد « مستر التن » ، قص علينا ما قاله له السايس « چون » ، ثم تبين بعد ذلك أن العربة الصغيرة كانت قد ذهبت الى « راندولز » لتنقل مستر « فرانك تشرشل » الى «ريشمند». هذا ما حدث قبل تناول الشاى ، ولذا فلا بد أن كلام « چين » مع « مسز التن » كان بعد تناول الشاى » .

ولم تترك « مس بيتس » ثمة وقتا لكى تقول لها « اما » ان هـذه أخبار جديدة عليها بالكلية ، وانه لا علم لها بها من قبل ، بل استطردت ، وهى لا تفترض أن من الجائز ألا تكون « اما » ملمة بتفاصيل رحلة مستر « فرانك تشرشل » ، تسرد هذه التفاصيل فى اسهاب . ومن ثم فان اتاحة الفرصة « لاما » لتقول ما كانت تريد أن تقوله ، لم تعد ذات موضوع .

ان ما سمعه « مستر التن » من السايس عن هذا الموضوع ، وكله من المعلومات التى جمعها السايس بنفسه ، ومما يعلمه الخدم فى «راندولز» يتلخص فى أن رسولا كان قد أتى من « ريشمند » عقب عودة الجماعة من « بوكس هل » مباشرة ، وكان وصول هذا الرسول أمرا مرتقبا ، وأن « مستر تشرشل » بعث معه برسالة قصيرة الى ابن أخته ، وصف فيها بوجه عام حالة « مسز تشرشل » ، وطلب منه ألا يؤخر عودته الى أكثر من باكورة

اليوم التالى ، وأن « مستر فرانك تشرشل » قرر العودة فورا دون تأخير . ولكن لما كان يبدو على حصانه أنه مصاب بالبرد ، فقد أرسل « توم » فى الحال ليأتى بعربة « نزل التاج » الصغيرة . وقد رآها السايس بنفسه وهى تمر بجانبه ، وشاهد الجوذى وهو يدفع الخيل الى الجرى بأقصى سرعة .

ولم يكن فى كل هذا ما يثير الدهشة أو الاهتمام ، ولم يجذب انتباه « اما » فى شيء الا لأنه كان مرتبطا بموضوع كان يشغل بالها فى ذلك الوقت . فلقد لفت نظرها التناقض بين أهمية « مسز تشرشل » ، وأهمية « چين فيرفكس » فى الحياة ، احداهما كل شيء ، بينما الأخرى لا شيء — ثم جلست تفكر فى الفارق بين مصير النساء عامة ، وانشغلت بتفكيرها فى ذلك عن كل ما حولها ، الى أن تنبهت الى « مس بيتس » وهى تقول :

« أجل ، انى أرى ما تفكرين فيه ، انك تفكرين فى البيانو ، وماذا يكون مصيره ؟ وأنت على حق فى ذلك . لقد كانت المسكينة « چين » تتحدث عن البيانو الآن ، وقالت تخاطبه : « يجب أن تذهب ! يجب أن نفترق عن بعضنا ، ولن يكون لك عمل هنا بعد الآن — ومع هذا فليبق حيث هو ، وليخصص له مكان بالمنزل الى أن يعود « المقدم كامبل » ، وسوف أتكلم معه بشأنه ، وسوف يجد له حلا ويساعدنى على التخلص من متاعبى » — انى أعتقد أنها لا تعرف حتى يومنا هذا ان كان البيانو هدية منه أو من ابنته » .

واضطرت « اما » الآن الى التفكير فى البيانو ، وضايقها بعض الشيء أن تتذكر ظنونها السابقة التى أوحى لها بها خيالها الظالم ، فكان اثما وعدوانا . وبلغ من ضيقها بنفسها أنها أخذت تعتقد أن زيارتها قد استغرقت من الوقت ما فيه الكفاية ، فاستأذنت فى الانصراف وهى تكرر من عبارات التمنيات الطيبة الصادرة من القلب ما وسعها .

الفصل الخامس والأربعون

لم تصادف « اما » وهى فى طريقها الى بيتها ما يقطع عليها خيط أحلامها وتأملاتها ، ولكنها عندما دخلت حجرة الاستقبال وجدت فيها من كان لابد أن يوقظها من هذه الأحلام ، فلقد جاء « مستر نيتلى » ومس « هاريت » فى أثناء غيابها عن البيت ، وكانا يجلسان مع أبيها . فلما دخلت عليهم توقف « مستر نيتلى » على الفور وقال بطريقة أكثر جدا مما اعتاد :

« لم أسمح لنفسى بأن أخرج دون أن أراك ، ولكن ليس لدى مع ذلك من الوقت ما يسمح لى بالبقاء الآن ، ولهذا وجب أن أخرج على الفور . اننى ذاهب الآن الى لندن لتمضية بضعة أيام مع « چون » و « ايزابلا » ، فهل لديك ما تحبين أن تبعثى به ، أو ما تقولينه غير الحب ، وهى بضاعة لا يحملها أحد ؟ » .

« لا شىء أبدا ، ولكن أليست هذه مفاجأة ؟ » .

« نعم ، انها لكذلك ، ولكنى كنت أفكر فى ذلك منذ أيام » .

وتأكدت « اما » أنه لم يصفح عنها بعد ، فقد بدا على غير طبيعته ، ولكن الوقت مع ذلك كان كفيلا بأن يظهر له أن من الواجب أن يعودا صديقين كما كانا . فلما وقف يتأهب للذهاب ، دون أن يذهب ، أخذ والدها يمطرها بوابل من أسئلته :

« حسنا يا عزيزتى ، هل وصلت الى هناك فى أمان ؟ وكيف كان حال صديقتى القديمة وابنتها ؟ أظن أنهما أثنتا لذهابك اليهما . لقد ذهبت عزيزتى « اما » يا « مستر نيتلى » لزيارة « مسز بيتس » و « مس بيتس » كما قلت لك قبلا ، وهى تهتم بهما دائما » .

واحمر وجه « اما » لهذا المديح الذى لا يتفق مع الحقيقة ونظرت الى مستر « نيتلى » بابتسامة تصحبها ايماءة بالرأس كان فيها كل ما أرادته من معنى ، وظهر وقع ذلك فى تحول الموقف الى صالحها على الفور ، فبدا وكأنما رأى بعينيه الحقيقة تشع من عينيها ، وأحس بكل ما كان فى مشاعرها من نبل فى تلك اللحظة ، وأكبر ذلك منها ، ثم نظر اليها نظرة تألق منها كل ما كان يجول بنفسه من تقدير لها . وطابت نفسها لذلك . ثم صدرت منه حركة بسيطة غمرتها بالسعادة ، حركة لا تصدر الا من شعور يزيد على مجرد الصداقة العادية . فلقد أمسك بيدها . أتكون هى التى تقدمت بالخطوة الأولى ؟ انها لا تدرى ، فلعلها هى التى قدمت له يدها . لقد أمسك الآن بيدها وضغط عليها ، ومن المؤكد أنه كان على وشك أن يرفعها الى شفتيه ثم اذا به لسبب ما يتركها فجأة . ولم تدر لماذا أحس بمثل هذا التردد ، ولماذا رأى أن يغير فكره بعد أن كاد يلثم يدها — ولو أنه لم يتوقف عما كان يزمع أن يفعله ، لكان ذلك منه أصدق حكما . ومع ذلك فلم يكن هناك أقل شك فيما كان ينوى أن يفعله . وسواء أكان تردده مرده قلة جرأته أو أى سبب آخر ، فقد بدا لها ساعتها فى أجمل مظهر وأكمله ، بدا فى كل بساطته ونبله ، وعبر عن وده وصداقته خير تعبير .

لقد تركهم بعد ذلك مباشرة واختفى عن أنظارهم فى لحظة . لقد كان من عادته دائما اذا خرج أن يسير بنشاط من لا هو بالمتعجل ولا هو بالمتراخى ، ولكن خروجه الآن كان على غير عادته أقرب أن يكون بغتة .

ولم تأسف « اما » على ذهابها الى «مس بيتس» ، ولكنها ودت لو أنها كانت بكرت بالخروج من عندها عشر دقائق . فلقد كان يسعدها أن تستمتع بالحديث مع « مستر نيتلى » عن وظيفة « چين فيرفاكس » ، ولم تأسف كذلك على ذهابه الى « ميدان برنزويك » بلندن ، فقد كانت بعلم مقدار

ما تنطوى عليه زيارته من سعادة ، ولكنها كانت تفضل أن تكون هـذه الزيارة فى وقت آخر ، ، وأن تخطر بها قبلها بمدة أطول .

لقد افترقا مع ذلك وهما صديقان حميمان ، فلم يخف عليها ما كانت تدل عليه نظراته ، ولا جرأته التى لم يتمها . لقد فعل كل هذا ليؤكد لها أنها قد استعادت حسن ظنه بها ، وتبين لها أنه ظل عندهم نصف ساعة ، فأسفت على أنها لم تبكر بالعودة من زيارة « مس بيتس » .

وعلى أمل أن تحول أفكار أبيها عما قد يضايقه من ذهاب « مستر نيتلى » الى لندن ، ورحيله اليها بغتة ، وعلى متن جواد — لما تعلمه عن الأثر السىء الذى كان ذلك لا بد محدثه فى نفسه — أخذت تنقل اليـه أخبار « جين فيرفاكس » ، فتحقق لها ما كانت ترجوه من وراء ذلك ، اذ أفادت تلك الأخبار كثيرا فى الحد من أفكاره الأخرى ، وأثارت اهتمامه دون تعكير لصفوه . فقد كان عقله مهيأ منذ فترة طويلة لذهاب « جين فيرفاكس » للعمل مربية للأطفال بأحد المنازل ، فأخذ يتحدث عن ذلك الآن وهو مبتهج النفس . أما ذهاب « مستر نيتلى » الى لندن فقد كان صدمة له غير متوقعة » .

« لاشك أنى سعيد جدا يا عزيزتى لسماعى بأنهـا وفقت الى ما فيه راحتها ، ان « مسز التن » دمثة الأخلاق ، وهى لطيفة جدا ، وأظن أن معارفها على أحسن ما يجب أن يكون عليه المعارف ، وانى آمل أن يكون المكان جافا ، وانهم سيعنون بصحتها ، اذ يجب أن تكون صحتها فى المقام الأول بقدر ما كانت صحة « مس تيلور » المسكينة موضع عنايتى من غير شك ، واعلمى يا عزيزتى أنها ستكون مع تلك الأسرة الجديدة ، كما كانت « مس تيلور » معنا ، وان كنت أرجو أن تكون أسعد من « مس تيلور » الآن ، من ناحية واحدة ، ألا يغرر بها فتخرج من عندها وقت أن يصبح المنزل منزلها بعد أن تكون قد قضت مدة طويلة فيه » .

ووصلت الى « راندولز » فى اليوم التالى ، أخبار من « ريشمند » طغت على كل شىء آخر . فقد جاءت رسالة عاجلة تعلن وفاة « مسز تشرشل » !! وعلى الرغم من أن ابن اخت زوجها لم يكن لديه سبب خاص يدفعه الى الاسراع بالعودة من أجلها ، فانا لم تعش أكثر من ست وثلاثين ساعة بعد عودته ، اذ انتابتها نوبة مفاجئة تختلف فى طبيعتها عن أى شىء كانت تبرره حالتها العامة ، فقضت نحبها بعد نزع لم يستغرق الا وقتا قصيرا ، أصبحت « مسز تشرشل » العظيمة بعده أثرا بعد عين .

وشعر الناس بهذا الحادث شعورهم بمثله ، وان تفاوتوا فى درجات الحزن والأسى . وترحموا على الراحلة ، وقلقوا على الأصدقاء من الأحياء ، ثم أخذوا يتساءلون فى الوقت المناسب عن مكان الدفن . لقد قال لنا « جولد سمث » : « ان المرأة الجميلة اذا انحدرت الى حمأة الحماقة ، فليس لها بعد ذلك الا أن تموت ، وان هى انحدرت حتى أصبحت بغيضة، فأحرى بها كذلك أن تموت لتتخلص من سوء سمعتها » وكذلك « مسز تشرشر » بعد أن لبثت مكروهة خمسا وعشرين سنة على الأقل ، أخذ الناس يترحمون عليها ، ويتحدثون عنها الآن باشفاق . فلقد كانت من ناحية واحدة على الأقل على حق . انهم لم يعترفوا قبلا بخطورة مرضها ، فأبرأها الموت من مظنة الناس بأنها كانت واهمة ، وأن أمراضها كانت كلها من نسج الخيال . وهكذا كنت تسمع الناس يقولون :

« مسكينة « مسز تشرشل » !! ، لا شك أنها كانت تقاسى كثيرا ، وأكثر مما كان يظن — ان الآلام المستمرة تجهد الأعصاب ، وتضجر المشاعر — كان حادثا محزنا بقدر ما كان صدمة كبيرة ، على الرغم مما كان فيها من عيوب — وماذا سيفعل « مستر تشرشل » بدونها ؟ لا شك أن

موتها خسارة فادحة لمستر تشرشل ، وهو لن يقوى على التغلب عليها » .

وحتى « مستر وستن » هز رأسه وبدا عليه الحزن وقال :

« آه ! مسكينة تلك السيدة ، من ذا الذى كان يظن هذا !! » وعاهد نفسه على أن يجعل حزنه أكرم ما يكون ، كما جلست زوجته تتنهد ، وتعدد محاسن طيات ردائها العريضة ، وتبدى من عبارات المواساة ومظاهر الترحم أصدقها .

وكان من أول ما خطر على بالهما ، هو وقع هذا الحادث على « فرانك تشرشل » ، وهو نفس ما فكرت فيه « اما » كذلك . فقد اتجهت أفكارها ، وهى جزعة مشفقة ، أولا الى موت « مسز تشرشل » ، وحزن زوجها عليها ، ثم ركزت تفكيرها فيما عساه أن يكون أثر هذا الحادث على « فرانك » وفيما قد يعود عليه منه بالنفع ، وكيف أنه سيصبح بعده طليقا . ورأت فى لحظة واحدة كل فائدة ممكنة فى موت « مسز تشرشل » ، كما رأت أن ارتباطه بمس « هاريت سمث » أصبح الآن ولا شىء يعوقه ، وأن « مستر تشرشل » وقد تخلص من اعتماده على زوجته ، قد أصبح لا يخشاه أحد ، وأضحى وديعا سهل القيادة ، يستطيع ابن أخته أن يقنعه بأى شىء ، وأن كل ما تبقى ، وكل ما ترجوه له ، هو أن يعقد صلات الحب التى لم تكن واثقة رغم أمانيها الطيبة ، من أنها قد بدأت بالفعل . أما مسلك « هاريت » فى هذه المناسبة فقد كان رائعا . فقد تمالكت نفسها بدرجة عظيمة . ومهما كان يلوح أمامها فى الأفق من آمال براقة ، فأنها لم تكشف عن شىء من هذا . وابتهجت « اما » وهى تلحظ هذا الدليل الذى تقيمه على ازدياد رباطة جأشها ، ورأت أن تكف عن أية الماحة بسيطة قد تعرض ضبطها لشعورها الى الخطر . ومن ثم فقد ظل حديثهما عن موت « مسز تشرشل » محاطا بسياج من التحفظ وضبط النفس .

ووصلت الى « راندولز » خطابات موجزة من « فرانك » وصف فيها أحوالهم ، وخططهم العاجلة الهامة ، تبين منها أن « مستر تشرشل » كان أحسن حالا مما كان يظن ، وأن أول انتقال لهم بعد تشييع الجنازة الى « يوركشير » ، سيكون الى بيت صديق قديم لهم فى « وندسور » ، كان « مستر تشرشل » قد ظل يعده بالزيارة خلال السنوات العشر الأخيرة. وهكذا لم يكن هناك من شيء يمكن أن تقوم به من أجل « هاريت » فى الوقت الحاضر ، وكل ما يمكن عمله من جانبها لا يعدو حدود تمنياتها لها بمستقبل زاهر . ومن ثم فان ما كان يشغل بال « اما » بالحاح فى هـذه اللحظة ، هو العناية بأمر « چين فيرفاكس » التى كانت آمالها تأفل فى الوقت الذى كانت تشرق فيه آمال « هاريت » ، والتى أصبح ارتباطها بالعمل لا يسمح لكائن من كان فى « هايبرى » بأن يتوانى عن اظهار عطفه عليها . نعم لقد أصبح العطف على « چين فيرفاكس » ، هو ما يشغل بال « امـا » .

ولم تأسف « اما » على شيء الآن قدر أسفها على فتورها نحوها فيما مضى ، فاذا بمن كانت تهملها الشهور الطوال ، تصبح هى نفسها التى تتوق الى أن تغمرها الآن بكل تقدير وعطف . لقد كانت تريد أن تكون ذات منفعة لها ، وأن تظهر لها اعتزازها بصحبتها ، وأن تثبت لها احترامها وتقديرا لها . وعقدت عزمها على اقناعها بأن تقضى يوما كاملا فى « هارتفيلد » ، فكتبت لها رسالة ، ألحت فيها عليها أن تقبل دعوتها ، ولكن الدعوة رفضت، وكان رفضها شفويا بحجة : « ان صـحة « مس فيرفاكس » لا تسمح بالكتابة » .

وعندما زار مستر « پرى » « هارتفيلد » فى الصباح نفسه ، ظهر من حديثه « لاما » أنه كان قد ذهب ليعودها ، وأن صحتها لم تكن تسمح

بأن يزورها أحد ، ولكنه سمح له بالدخول عندها على غير رغبتها . وقال انها كانت تشكو صداعا أليما ، وحمى عصبية ، الى درجة جعلته يشك فى قدرتها على الذهاب الى بيت مسز « سمول ردج » فى الموعد المحدد . لقد كانت صحتها فى تلك الفترة معتلة خائرة ، ولا شهية لها للأكل على الاطلاق، وعلى الرغم من عدم وجود أعراض خطيرة لها ، وليس بها ما تشكو منه فى جهازها التنفسى ، وهو أخوف ما كانت تخافه الأسرة ، فان مستر « پرى » كان قلقا عليها ، وكان يظن بأنها حملت فوق طاقتها ، وأنها تشعر بذلك ولو أنها لا تعترف به ، وأنه يلاحظ أن مسكنها الحالى لا يصلح لمن كان يشكو من اضطراب الأعصاب ، ولا سيما اذا لازم دائما حجرة واحدة . لقد كان يود لها شيئا غير هذا . انه يجد لزاما عليه أن يعترف بأن خالتها الطيبة وأن كانت صديقته منذ وقت بعيد ، فهى ليست خير أنيس لمن كان مريضا بهذه الحالة . ان رعايتها لها واهتمامها بها لا يمكن أن يكونا عرضة لأى شك ، بل هما فى الحقيقة يفوقان كل حد ، ولكنه يخشى مع ذلك أن تضار مس « فيرفاكس » بأكثر من أن تنتفع .

واستمعت « اما » اليه باهتمام بالغ ، وازداد حزنها من أجلها وأخذت تبحث علها تجد وسيلة لكى تمد لها يد المساعدة ، كأن تستأثر بها من خالتها ولو لمدة ساعة أو ساعتين تنتقل بها فى خلالهما الى جو مختلف ومناظر مختلفة ، وتتحدث اليها حديثا معقولا هادئا — وكتبت اليها فى صباح اليوم التالى تقول لها بكل ما وسعها من قدرة على التعبير ، بأنها ستعرج بالعربة على باب بيتها فى أى ساعة تحددها ، وأن مستر « پرى » يقطع بأن مثل هذه الرياضة ستكون فى صالحها — وجاء ردها فى هذه العبارة الموجزة : « تحيات « مس فيرفاكس » وشكرها ، ولكن حالتها لا تسمح لها بأى رياضة » .

وشعرت « اما » بأن رسالتها اليها كانت تستحق أكثر من هـذا ، ولكنها رأت مع ذلك أن من العبث أن تغضب من كلمات مقتضبة كانت فى ذاتها دليلا على المرض واعتلال المزاج ، ولم يعد يهمها الا أن تتخذ خطة مضادة تقاوم بها هذا العزوف من جانبها عن رؤيتها أو قبول مساعدتها ، ولذلك فقد أمرت على الرغم من هذا الرد المقتضب ، بأعداد العربة ، فلما أعدت ركبتها الى بيت « مسز بيتس » أملا فى أن تستطيع اقناع « چين » بمصاحبتها ، ولكنها باءت بالفشل الآن ، كما باءت به من قبل — اذ أقبلت « مس بيتس » الى باب العربة لتعبر لها عن جزيل الشكر ، وتقول لها انها متفقة معها من قرارة قلبها فى الرأى بأن تنسم الهواء الطلق قد يعود عليها بأعظم فائدة — وحاولت « اما » بكل الأساليب التى فى مكنتها أن تقنعها ، ولكن جهودها ضاعت سدى ، فقد ذهبت « مس بيتس » ثم عادت لتعلن بأن « چين » تتشبث برأيها ولا تحيد عنه ، وأن مجرد اقتراح خروجها يزيد حالتها سوءا .

وودت « اما » لو تمكنت من رؤيتها لتحاول بنفسها أن تقنعها ، ولم تكد تبدى هذه الرغبة حتى تبين لها من رد « مس بيتس » أنها وعدت ابنة أختها بأنها لن تسمح بدخول « مس وودهاوس » عليها بأى حال ، فقد قالت :

« الحق أن عزيزتى المسكينة « چين » لا تطيق رؤية أحد ، لا أحد مطلقا — أما « مسز التن » فهى قطعا مسموح لها بالمقابلة ، وكذلك الحال مع « مسز كول » و « مسز پرى » — أما غير هؤلاء فان « چين » لا تريد أن ترى منهن أحدا » .

ولم تشأ « اما » أن توضع فى صف واحد مع « مسز التن » و « مسز پرى » و « مسز كول » ، وهن اللائى يقحمن أنفسهن فى كل مكان .

ولكنها شعرت فى الوقت نفسه بأنه ليس من حقها أن تفضل عليهن ، ومن ثم فقد استسلمت ، واكتفت بعد ذلك بسؤال « مس بيتس » عن غذاء ابنة أختها ، وعن قابليتها للطعام ، فقد كانت ميالة الى تقديم المساعدة لها فى تلك الناحية .

وأثار الحديث فى هذا الموضوع أحـزان المسكينة « مس بيتس » فانطلقت تتحدث عنه بأفاضة ، قالت : « ان « چين » تكاد لا تأكل ، وقد أوصى « مستر پرى » بتناول الأطعمة المغذية ، ولكنها لا تستسيغ شيئا مما عندهم (فليس هناك من له مثل ما لنا من جيران كرماء) .

وعادت « اما » الى بيتها فطلبت الى مديرة البيت فى الحال أن تفحص مخازنها ، ثم أرسلت على جناح السرعة الى « مس بيتس » بعض السميد الفاخر ، مقرونا برسالة تحمل كل معانى المودة والحب . وما هى الا نصف ساعة حتى أعيد السميد مقرونا بألف شكر من « مس بيتس » ، وقالت فى ردها :

« ولكن عزيزتى « چين » لا يرضيها الا أن يرد ، فهى لا يمكن أن تأخذه ، وهى علاوة على ذلك تصر على القول بأنها ليست فى حاجة الى أى شىء اطلاقا » .

فلما سمعت « اما » بعد ذلك بأن « چين فيرفاكس » شوهدت وهى تتجول فى المراعى على مسافة من « هايبرى » فى مساء ذلك اليوم الذى اعتذرت فيه عن الخروج بحجة أن حالتها لا تسمح بالتريض ، وأبت أن تخرج معها فى العربة ، استطاعت أن تربط الخيوط ببعضها ، ولم تشك فى أن « چين » قد حزمت أمرها على ألا تقبل منها مجاملة ، وأسفت على ما وصلت اليه الأمور معها ، أسفت كل الأسف ، وحزنت على وضع يدعو الى الرثاء بما يكتنفه من توتر فى الأعصاب واضطراب فى التقدير وضعف

فى الحكم على الأشياء ، وآلمها ألا تلقى حمدا على شعورها النبيل ، وأن تنظر اليها على أنها ليست أهلا للصداقة . على أنها مع ذلك وجدت لنفسها عزاء فى نواياها الطيبة ، وفى قدرتها على أن تقول لنفسها : لو أن « مستر نيتلى » اطلع على خفايا محاولاتها العديدة لمساعدة « چين فيرفاكس » ، أو لو أنه اطلع حتى على ما تكنـه لها فى قلبها من حب ، لما وجـد فيها ما يستحق لوما .

الفصل السادس والأربعون

وذات صباح عقب وفاة « مسز تشرشل » بعشرة أيام تقريبا ، نودى على « اما » لمقابلة « مستر وستن » بالطابق الأرضى ، اذ كان يريد أن يحدثها حديثا خاصا ، ولم يكن فى وسعه أن يمكث غير خمس دقائق — والتقى بها عند باب حجرة الاستقبال ، وما كاد يسألها عن صحتها بصوته العادى ، حتى أخذ يقول لها فى صوت خافت ، حتى لا يسمع والدها كلامه:

« هل تستطيعين المجىء الى « راندولز » فى أى وقت هذا الصباح ؟ فلتأت ان كان ذلك فى امكانك . ان « مسز وستن » تود أن تراك ، بل هى يجب أن تراك » .

« هل هى مريضة ؟ » .

« لا ، لا ، أبدا ، وانما تشعر بشىء من الاضطراب ، وهى ولا شك كانت تطلب اعداد العربة وتأتى اليك بنفسها لولا أنها لابد أن تراك على انفراد (ثم أومأ برأسه نحو أبيها) ، فهل فى وسعك المجىء ؟ » .

« بالتأكيد ، بل وفى هذه اللحظة ان أردت ، فمن المستحيل أن أرفض شيئا تطلبه بمثل هذه الطريقة ، ولكن ماذا حدث ؟ أحقا انها ليست مريضة ؟ » .

« كونى واثقة مما أقول ، ولكن لا تسألى أكثر من ذلك ، وستعرفين كل شىء فى حينه ، وهى مسألة لا يمكن الافصاح عنها الآن !! ولكن صه ، صه !! » .

وكان من المستحيل حتى على من كان فى ذكاء « اما » التكهن بشىء ،

فقد بدا فى نظراته أن شيئا هاما قد حدث ، ولكن ما دامت صديقتها فى صحة جيدة ، فقد حاولت ألا تقلق ، واتفقت مع والدها على أن تخرج للتريض ، وخرجت فورا من المنزل هى و « مستر وستن » ، وسارا فى طريقهما الى « راندولز » بخطوات سريعة .

وقالت « اما » عندما بعدا بعض الشىء عن أبواب الممشى المؤدى الى البيت :

« خبرنى الآن يا « مستر وستن » ماذا حدث ؟ » .

وأجابها فى لهجة من الجد : لا ، لا ، لا تسأليني ، فقد وعدت زوجتى، بأنى سأترك كل شىء لها ، وسوف تفضى لك بالنبأ خيرا منى ، فكونى صبورة يا « اما » وستعرفين كل شىء حالا » .

وصاحت « اما » وهى واقفة ، ولا زالت جزعة : « قل لى ماذا حدث ، رباه !! قل لى فى الحال يا « مستر وستن » ، هل حدث شىء فى « ميدان برنزويك » ، انى أحس بأن شيئا قد حدث ، خبرنى ! أستحلفك أن تقول لى الآن ماذا حدث » .

« لا ، وثقى بأنك أخطأت الظن » .

« لا تتلاعب بى يا « مستر وستن » ، وقدر مالى من أصدقاء أعزاء فى « ميدان برنزويك » ، من ذا يكون من هؤلاء ؟ أستحلفك بكل ما هو مقدس ألا تحاول اخفاء شىء عنى » .

« ثقى بكلمتى يا « اما » .

« بكلمتك ! ولماذا لا يكون بشرفك ! لماذا لم تقل بشرفى ان الأمر لا يتعلق بأحد منهم ؟ يا الهى !! وأى نبأ يمكن أن يحمل الىّ ولا تكون له علاقة بواحد من أفراد هذه الأسرة ؟ » .

فقال بصيغة بالغة فى جدها : « أقسم لك بشرفى أن الأمر لا يتعلق بأحد منهم ، وليست له أدنى صلة بأحد من أفراد أسرة « نيتلى » .

وذهب عن « اما » فزعها ، وواصلت السير ، بينما استطرد هو يقول :

« لقد أخطأت حيث تحدثت عن نبأ ينقــل اليك ، فما كان يجب أن أستخدم هذا التعبير ، والحق ان الأمر لا يعنيك ، وانما يعنينى أنا وحدى ، على الأقل هذا ما نرجوه ، وقصارى القول يا عزيزتى « اما » ليس هناك ما يدعو الى القلق . ولست أقول انها مسألة ليست كريهة ، ولكن قد يكون ما هو أسوأ منها بكثير . ولو أسرعنا فى السير ، فسنكون فى « راندولز » حــالا » .

ورأت « اما » أنه لابد من أن تنتظر ، وأن انتظارها لا يتطلب منها جهدا كبيرا ، ولهذا لم تسأل أكثر مما ســألته ، واكتفت بأن تدع خيالها يسبح بها ، فأوحى اليها باحتمال أن تكون المسألة متعلقة ببعض الشئون المالية ، مسألة كريهة ظهرت فوق الأفق فورا ، فى الظروف العائلية الراهنة ونجمت عما حدث أخيرا فى « ريشمند » ، لقد نشط خيالها الى أقصى حد ، ورسم لها احتمال وجود ستة أطفال غير شرعيين واســتبعاد « فرانك » المسكين من الميراث . وهو أمر على الرغــم من أنه يكون غير مرضى ، لا يجوز أن يسبب لها أشجانا ، ولا ينبغى أن يزيد أثره على أكثر من اثارة حب الاستطلاع فيها .

وقالت وهما لا زالا يسيران : « من هذا السيد الذى يمتطى حصانا ؟ » . قالتها لكى تساعد « مستر وستن » على الاحتفاظ بسره ، لا لشىء أكثر من هذا .

فقال : « لست أدرى ، انه أحد أفراد أسرة « اتواى » — انه ليس « فرانك » ، فهو الآن فى منتصف الطريق الى « وندسور » .

« وهل كان ابنك معك الآن ؟ » .

« نعم ، ألا تعلمين ذلك ؟ أجل ، أجل ، دعيك من هذا » ولبث لحظة وهو لا يتكلم ، ثم قال وهو أكثر حيطة :

« أى نعم ، لقد حضر « فرانك » هذا الصباح لمجرد أن يسأل عن أحوالنا » .

وجدّا بعد ذلك فى السير فوصلا الى « راندولز » بعد قليل . وقال عندما دخلا الحجرة : « أجل يا عزيزتى ها قد جئت بها وآمـل الآن أن تصبحى أحسن حالا بعد قليل ، وسأترككما معا ، اذ لا فائدة من التسويف، وان احتجتما الىّ فأنى لن أكون بعيدا عنكما » .

وسمعته « اما » وهو يقول فى صوت خافت ولكنه واضح ، قبل أن يغادر الحجرة :

« لقد بررت بما وعدت ، وليست عندها أية فكرة » .

وكان يبدو على « مسز وستن » أنها مريضة ، وبلغ بها الارتباك حدا زاد « اما » قلقا .

وما أن انفردتا معا حتى قالت « اما » فى لهفة :

« ما الخبر يا صديقتى العزيزة ؟ انى أرى مكروها قد حدث . دعينى أعرف ما حدث فورا . لقد سرت هذا الطريق بطوله وأنا فى شدة القلق ، وكلانا يمقت القلق ، فلا تتركينى على هذه الحالة وقتا أطول ، وخير لك أن تفصحى عن مأساتك مهما كانت » .

وقالت « مسز وستن » فى صوت متهدج : « أليست لديك فكرة عن النبأ حقا ؟ ألا تستطيعين يا عزيزتى « اما » — ألا تستطيعين أن تتكهنى بما توشكين أن تسمعيه ؟ » .

« انى أتكهن بأنه شىء يتعلق بمستر « فرانك تشرشل » .

« أصبت الحقيقة ، فهو يتعلق به ، وسأنبئك حالا » . (وعادت الى شغلها ، كأنما كانت مصممة على ألا ترفع بصرها اليها) .

« لقد جاء هنا فى هذا الصباح فى مهمة غير عادية ، وانه لمن المستحيل

علينا أن نعبر عن دهشتنا ، انه أتى ليتكلم مع أبيه فى موضوع — ليعلن عن غرامه » .

ثم توقفت لتأخذ نفسها ، واتجه فكر « اما » أول الأمر الى نفسها ثم الى « هاريت » .

وعادت « مسز وستن » تقول : « الحق انه أكثر من غرام ، انه خطبة ، خطبة مؤكدة . فما قولك يا « اما » ، وماذا يقول الناس جميعا عندما يعلمون أن « فرانك تشرشل » و « مس فيرفاكس » قد عقدت خطبتها . والأمر لا يقف عند هذا الحد ، فقد تمت خطبتهما منذ أمد بعيد !! » .

وكادت « اما » تقفز من أثر الدهشة ثم قالت وقد أفزعتها الصدمة :

« چين فيرفاكس » !! يا الهى !! لا يمكن أن تكونى جادة ؟ انك لا تعنين ما تقولين » .

وأجابتها « مسز وستن » وهى لا تزال تشيح ببصرها عنها ، وتواصل الحديث فى تؤدة حتى تجد « اما » من الوقت ما تهدىء فيه من روعها :

« من حقك أن تدهشى ، نعم من حقك أن تعجبى ، فلقد كانت بينهما خطبة حقيقية من أكتوبر ، تمت فى « ويموث » ثم بقيت سرا مكتوما لا يعلم بها أحد غيرهما ، لا أسرة « كامپبل » ولا أسرتها ، ولا أسرته . انه خبر غريب جدا ، حتى أنى مع تأكدى منه أكاد لا أصدقه ، ولن أستطيع أن أصدقه الا بشق الأنفس ، لقد كنت أظن فى نفسى أنى أعرف « فرانك » .

ولم تسمع « اما » ما قيل الا لماما ، فقد كان عقلها موزعا بين فكرتين : أحاديثها السابقة معه عن « مس فيرفاكس » ، ثم تفكيرها فى المسكينة « هاريت » — وظلت بعض الوقت لا تستطيع أن تفعل أكثر من أن تبدى دهشتها وتطلب ما يؤكد الخبر ، المرة بعد المرة .

وقالت أخيرا وهى تحاول أن تستعيد هدوءها :

« أجل ، هذا حادث لابد لى من أن أفكر فيه نصف يوم على الأقل قبل أن أستطيع فهمه . عجبا ، مخطوبين طيلة الشتاء — وقبل مجىء أحد منهما الى « هايبرى » ؟ » .

« انهما مخطوبان منذ أكتوبر ، مخطوبان سرا . لقد جرحنى سماع هذا النبأ يا « اما » ، جرحنى وآذانى فى شعورى كثيرا ، كما آذى والده فى شعوره . ان فى بعض مسلكه ما لا يمكن أن نغتفره له » .

وفكرت اما لحظة ثم أجابت : « لن أدعى بأنى لا أفهمك ، ولكى أخفف عنك قدر استطاعتى ، كونى واثقة بأن ما كان يظهره من اهتمام بى ليس له أى أثر فى هذه الناحية مما قد تخافينه » .

ورفعت « مسز وستن » بصرها اليها وهى تكاد تكون خائفة من تصديق ما تقول ، ولكن ملامح « اما » كانت من القوة والثبات بقدر ما كانت كلماتها .

واستطردت « اما » تقول :

« ولكى لا تجدى مشقة كبيرة فى تصديق ما أفخر به من عدم الاكتراث بهذا النبأ ، أحب أن أزيدك علما بأنه كانت هناك فترة فى أوائل تعارفنا كنت أعجب به خلالها فعلا ، وكنت شديدة الميل الى الارتباط به ، بل تعلقت به فعلا . اما كيف توقف هذا الميل ، فهو ما يصح أن يكون موضع الدهشة . وقد توقف هذا الاحساس بالفعل من حسن الحظ . والحق أنه قد مضى على بعض الوقت — ثلاثة شهور الآن على الأقل — لم أعد أهتم فيها به . صدقينى يا « مسز وستن » فهذه هى الحقيقة المجردة » .

وقبلتها « مسز وستن » ودموع الفرحة فى عينيها ، وعندما عاودتها القدرة على الكلام ، أكدت لها أن تصريحها قد أراحها أكثر من أى شىء آخر ، وقالت :

« ان « مستر وستن » سوف يزول كربه الآن بقدر ما زال عنى كربى ،

فلقد كانت هذه النقطة مثار بؤس وحزن لنا . فلقد كانت أعز أمانينا أن ترتبطا ببعضكما ، بل لقد خدعنا بأن هذا قد تم بينكما — فتصورى كيف كان شعورنا الآن من أجلك » .

« لقد نجوت بنفسى ، وكانت نجاتى أمرا يستحق منكم ومنى الدهشة والحمد ، ولكن هذا لا يعفيه مع ذلك يا « مسز وستن » ، بل يجب أن أقول انه ملوم كل اللوم ، فبأى حق يأتى بيننا وقد ارتبط بأواصر الحب والخطبة ، ثم يكون سلوكه سلوك من لم يكن خاطبا ؟ وبأى حق كان يحاول أن يسامرنا ، وأن يخص أية فتاة بالرعاية الدائمة كما كان يفعل ، بينا هو فى الحقيقة مرتبط بغيرها ؛ ثم كيف يفسر ما كان يمكن أن يترتب على عمله من سوء ؟ وكيف يدرى بأنه لم يكن يستدرجنى بما فعل الى الوقوع فى شراك حبه ؟ انه خطأ بين ، خطأ فاحش ولا شك » .

« لقد قال شيئا يا عزيزتى « اما » جعلنى أميل الى الظن بأن .. » .

« وكيف تحملت هى مثل هذا السلوك منه ؟ وأية رباطة جأش منها هذه ، وأمامها شاهد على سلوكه ! تنظر فتراه يولى سيدة أخرى اهتمامه أمام عينيها المرة بعد المرة ، ثم لا تشعر بالمهانة ، ولا تعترض ، انها رباطة جأش لا أفهمها ولا أحترمها » .

« كان بينهما سوء تفاهم وقتها يا « اما » . لقد قال هذا صراحة ولم يكن لديه متسع من الوقت ليوضح أكثر من ذلك ، فقد مكث هنا ربع ساعة لا تزيد ، وكان فى حالة من الاضطراب حالت بينه وبين الاستفادة الكاملة من هذه الفترة التى مكثها معنا ، ولكنه أكد سوء التفاهم الذى كان بينهما ويبدو أن سوء التفاهم هذا كان السبب فى الأزمة الحالية ، ومن المحتمل جدا أن يكون سوء تصرفه هو الذى أوجد سوء التفاهم بينهما » .

« سوء التصرف !! عجبا يا «مسز وستن» !! ان هذا لوم هين للغاية

ان الأمر أكثر بكثير من أن يكون مجرد سوء تصرف !! لقد ألقى به عماله في الهاوية ، وأراني عاجزة عن أن أعبر لك الى أى مدى أسقطته فعلته من نظرى . لقد كان أبعد ما يكون عما يتصف به الرجال !! من الطهر والأمانة، والتمسك بالصدق والمبادىء ، والبعد عن الخداع والوضاعة — هذه هى الصفات التى يجب أن يتصف بها المرء فى كل ما يقوم به من الأعمال مدى حيـاته » .

« لا يا عزيزتى « اما » فلا بد الآن من أن أدافع عنه ، فهو على الرغم من خطئه فى هذه الحالة ، فقد عرفتـه زمنا يكفى لأن أؤكد بأنه يتصف بكثير من الصفات الحميدة ، و .. » .

فصاحت « اما » وهى لا تستمع اليها :

« يا الهى !! وهذه مسألة « مسز سمول ردج » أيضا !! « وجين » وهى على وشك أن تذهب لتعمل مربية !! ماذا يعنى بمثل هـذا التنطع الفظيع ، أن يجعلها تتجشم الصعاب لتلتحق بعمل ، بل حتى مجرد التفكير فى مثل هذا ؟ » .

« انه لم يعلم شيئا عن هذا يا « اما » ويمكننى أن أبرئه من هـذه التهمة تماما ، فهى التى قررت ذلك بنفسها دون أن يكون له علم به ، أو على الأقل ان الخبر لم يبلغ اليه بطريقة مؤكدة ، وأنا أعلم على حد قوله ، أنه لم يكن يدرى شيئا عن خططها حتى أمس ، وأنه قد فوجىء بها ، وان كنت لا أدرى كيف كان ذلك . فربما وصلته رسالة كشفت له عما كانت تعتزمه ، عن هذا المشروع بالذات ، ولعل هذا ما دفعه الى أن يحزم أمره ويتقدم فى الحال ليعترف بكل شىء لخاله ، ويضع نفسه بين يديه يستجدى عطفه وحنانه ، وبالاختصار ، لكى يضع خاتمة لحالة التستر اللعينة ، التى ظلت قائمة وقتا طويلا » .

وأخذت « اما » تعيرها أذنا واعية .

وواصلت « مسز وستن » حديثها :

« ستصلنى منه أخبار سريعا ، فقد أخبرنى عند رحيله بأنه سيكتب لى قريبا ، وبدا لى من طريقته فى الكلام ، ما جعلنى أترقب أن أسمع منه تفاصيل كثيرة قد لا يمكنه الافصاح عنها الآن ، فلننتظر اذن حتى يصل خطابه ، وقد يأتينا بما يبرر الصفح والمغفرة ويلقى ضوءا على نواحى كثيرة، تجعل سلوكه أكثر وضوحا ، وأدعى الى الغفران ، فى حين أن سلوكه الآن غير مفهوم . فلا تجعلينا نقسو عليه ، أو نتعجل الحكم بادانته ، ولنتذرع بالصبر ، فلا مندوحة لي من أن أظل أحبه . والآن وقد اقتنعت من ناحية واحدة ، وهى النقطة الهامة فى الموضوع ، فأنى أود من صميم قلبى أن تنتهى الأمور على أحسن وجه ، وهو ما آمل أن يكون ، فلا بد أنهما قاسيا كثيرا من وراء هذا التستر » .

وأجابت « اما » فى خشونة : « يبدو أن ما قاساه لم يضره كثيرا . ولكن كيف كان وقع ذلك على مستر « تشرشل » ؟ » .

« كان راضيا كل الرضى عن ابن أخته ، ووافق دون أدنى مشقة — أنظرى ماذا صادف تلك الأسرة من الأحداث فى خلال أسبوع واحد !! وأظن أنه ما كان هناك أمل أو فرصة ، أو حتى مجرد احتمال لحدوث مثل ذلك ، وقت أن كانت « مسز تشرشل » على قيد الحياة . ولكنها ما كادت تهدأ فى مثواها ، حتى عمل زوجها النقيض مما كانت تقره ، ما أجلّها من نعمة ألا تبقى السلطة الغاشمة بعد موت صاحبها !! فلقد وافق دون الحاح» .

وفكرت « اما » فى قرارة نفسها : « آه !! لقد كان مستعدا لأن يقوم بمثل ذلك من أجل ! هاريت » .

ثم كل ذلك فى الليلة الماضية ، وسافر « فرانك » مع شروق الشمس.

فى هذا الصباح وانتظر بعض الوقت فى « هايبرى » ، أظن فى بيت « مس بيتس » ، ثم أتى هنا ، ولكنه كان يتعجل لكى يعود الى خاله ، فهو أشد ما يكون حاجة اليه الآن منه فى أى وقت مضى ، حتى أنه لم يستطع أن يمكث معنا أكثر من ربع ساعة ، كان خلالها فى شدة الاضطراب ، الى درجة جعلته يبدو شخصا يختلف كل الاختلاف عمن عرفته ، وعلاوة على كل ذلك ، فقد صدم عندما وجدها فى شدة المرض ، وهو ما لم يكن يعرف عنه شيئا اطلاقا ، وقد دل كل مظهره على أنه تأثر بمرضها تأثرا بالغا » .

« وهل تعتقدين حقا أن الموضوع كان بمثل هذه السرية التامة ؟ هل أسرة « كامپبل » وأسرة « دكسون » لم يكن لهما علم بهذه الخطوبة ؟ » .

وما كانت « اما » لتذكر اسم « دكسون » دون أن يعلو وجهها شىء من الحمرة .

« لا أحد منهم قط ، فقد أكد لى بأن الأمر ظل يخفى على الناس جميعا ما عدا شخصيهما » .

وقالت « اما » : « أجل ، أظن أننا سنقتنع تدريجا بالفكرة ، وأرجو لهما كل سعادة ، ولكنى سأظل دائما أرى سلوكه أمرا قبيحا للغــاية ، وماذا عساه أن يكون سوى أنه نفاق وخداع وتجسس وخيانة ؟ أن يأتى بيننا مرتديا مسوح الصراحة والبساطة وهو مرتبط بهذا الرباط الخفى ليتحكم فينا جميعا . لقد ظللنا طيلة الشتاء والربيع ونحن نستغفل ، ويغرر بنا ، تتخيل أننا جميعا سواء من حيث الصدق والشرف ، بينما يوجد بيننا اثنان يجريان المقارنات ويحكمان على ما يصدر منا من مشاعر وأقــوال ما كانت تلقى على مسامعهما . فعليهما أن يتحملا النتائج ان كان سمعا ما لا يرضيهما » .

وأجابت « مسز وستن » : « ان ضميرى مرتاح من هذه الناحية ، وأنا

واثقة كل الثقة بأنى لم أقل لأحدهما شيئا عن الآخر لم يسمعه منى كلاهما » .

« أنت محظوظة ، فلقد كانت هفوتك الوحيدة قاصرة على أذنى لا تتعداهما ، عندما تخيلت صديقا لنا قد وقع فى غرام هذه السيدة » .

« صحيح ، ولكنى كنت دائما أحسن الظن « بمس فيرفاكس » فلم أذكرها بسوء مهما ارتكبت من الهفوات ، أما أن أذكره هو بسوء ، فانى مطمئنة من هذه الناحية كل الاطمئنان » .

وظهر « مستر وستن » فى تلك اللحظة قرب النافذة ، وكان من الواضح أنه كان يراقبهما — وأومأت اليه زوجته بنظرة لكى يدخل ، وبينما هو يقبل نحوهما قالت :

« دعينى الآن يا عزيزتى « اما » أتقدم اليك برجاء أن تكونى فى كلامك ونظرتك الى الأشياء ، باعثة على اطمئنانه ، وعلى رضائه عن هذه الزيجة ، اذ علينا أن نأخذ بالأحسن ، ثم ان معظم ما قد يقال عنها انما هو فى صالحها — انها ليست بالمصاهرة المرضية ، ولكن ما دام « مستر تشرشل » لا يشعر بهذا ، فلماذا نشعر به نحن ؟ وقد يكون من حسن حظه — أقصد « فرانك » أن يرتبط بفتاة على مثل هذه الأخلاق القويمة وأصالة الرأى ، وهو ما كنت دائما ولا زلت أمتدحه فيها ، على الرغم مما ارتكبته من انحراف عن جادة الصواب ، وما أكثر ما يمكن أن يقال دفاعا عنها حتى بالنسبة لهذه الغلطة ! » .

وصاحت « اما » تقول عن احساس صادق :

« ان الكثير قد يقال ولا شك ، هذا اذا اغتفرنا لسيدة أن تفكر فى نفسها فقط اذا كانت فى موقف مثل موقف « مس فيرفاكس » ان المرء ليكاد يقول فى مثل هذا الموقف أن الدنيا ليست دنياهم وحدهم ، ولا قوانينها ملك لهم دون سواهم » .

واستقبلت « مستر وستن » عند دخوله بوجه مبتسم وقالت :

« صدقنى بأنك قمت نحوى بحيلة لطيفة للغاية ، وأظنها كانت خطة أريد بها اثارة غريزة حب الاستطلاع عندى ، وتقوية قدرتى على التكهن ، ولكنك أزعجتنى حقا حتى ظننت أنك فقدت نصف ما تملك يداك على الأقل ، ثم ها هى المسألة بدلا من أن تكون مسألة يرثى لها ، هى مسألة توجب التهنئة — وانى أهنئك يا « مستر وستن » من قرارة قلبى ، على أن هذه الفتاة ، وهى من أجمل فتيات انجلترا وأكثرهن ثقافة وتهذيبا ، ستكون زوجة ابنك » .

وأكدت النظرات التى تبادلها هو وزوجته أنها تعنى ما تقول ، وكان لهذا من الأثر المباشر ما جعله يبتهج ويستعيد ما كان عليه من حيــوية انعكست فى مظهره وصوته . وصافحها بحرارة معبرا عن امتنانه لهــا ، وتناول الموضوع بطريقة دلت على أنه لا يريد الا فسحة من الوقت ليقتنع بأن الزيجة ليست رديئة الى هذا الحد . وما كان زميلاه ليقترحا عليه الا أن يهون عليه أثر هذا النزق ، أو يزيل عن فكره بعض ما كان يصادفه من اعتراضات ، وظلوا يتناولون الموضوع ويقلبونه على وجوهه ، فترة من الوقت . ثم عاود الحديث فيه مع « اما » مرة أخرى وهما فى طريقهما الى « هارتفيلد » ، حتى اقتنع تماما بأنه ليس فى الامكان أبدع مما كان ، وأنه ما كان بوسع « فرانك » أن يفعل خيرا مما فعل .

الفصل السابع والأربعون

« هاريت ، مسكينة أنت يا هاريت ! » . كانت هذه كلمات « اما » ، كانت كلماتها التى ضمنتها كل ما كان يجول بخاطرها من أفكار مؤلمة لم تستطع التخلص منها ، بل كانت أصل تعاستها الحقيقية فى كل هذا الموضوع . لقد تصرف « فرانك تشرشل » بأزائها تصرفا معيبا — معيبا من عدة وجوه — ولكنها لم تكن ساخطة عليه بسلوكه نحو « هاريت » بقدر ما كان غضبها بسبب سلوكها هى نفسها نحوها ، ذلك أن الورطة التى أوقعها فيها من أجل « هاريت » ، هى التى ضخمت من اساءته فى نظرها . مسكينة « هاريت » ! لقد خدعت للمرة الثانية بسبب تفكيرها الخاطىء وغرورها الزائف . لقد كان « مسترنيتلى » يكاد يتنبأ حين قال مرة :

— « اما » انك لا تسلكين سلوك الصديقة قبل « هاريت سمث » —

نعم انها لم تكن موفقة فى خدمتها . ومع ذلك فقد كانت على حق فى ألا تتهم نفسها ، لا فى هذه الحالة ، ولا فى الحالة السابقة بأنها هى دون سواها ، السبب فيما أصاب « هاريت » ، أو بأنها هى التى أوحت بهذه المشاعر الى « هاريت » ، وأنه لولاها لما وجدت هذه المشاعر طريقها الى نفسها . فلقد اعترفت « هاريت » نفسها باعجابها بفرانك تشرشل ، وتفضيلها اياه ، حتى قبل أن تشير عليها بشىء من ذلك . ولكن هذا لم يمنع « اما » من أن تشعر بأنها ملومة فى تشجيعها لشىء كان فى امكانها أن توقفه وأن تحول دون التمادى فى مثل هذه العواطف ، فقد كان لها من النفوذ ما يحقق لها ذلك . لقد شعرت الآن بأنه كان من واجبها أن تمنع

ذلك ، وأحست بأنها جازفت بسعادة صديقتها على أسس غير كافية . فلقد كان حسن الادراك يقتضيها أن تقول لهاريت ان من واجبها ألا تسمح لنفسها بالتفكير فيه ، وان فرص تعلقه بها كانت لا تزيد على واحد في الخمسمائة . ولكنها اكتفت الآن بأن قالت لنفسها : « ولكنى أخشى أن يكون حظى من حسن الادراك قليلا » .

نعم لقد كانت ساخطة على نفسها كل السخط ، ولولا أنها كانت ساخطة على « فرانك تشرشل » كذلك لكان فى ذلك الطامة الكبرى . أما عن «چين فيرفاكس » فقد أصبح فى استطاعتها على الأقل أن تزيح عن نفسها الشعور بالقلق من أجلها ، ويكفيها ما لديها من قلق من أجل « هاريت » بل ليس هناك ما يدعوها الى تحمل هم « چين » بعد الآن ، فان متاعبها واعتلال صحتها ، وكلاهما ولا شك مصدره نفس السبب ، فى طريقهما الى البرء ، فلقد انتهت أيام البؤس والاهمال التى كانت تعيشها ، وعما قريب سوف تعاودها الصحة والهناءة والسعادة . لقد أصبح الآن فى وسع « اما » أن تتصور لماذا كانت رعايتها لها ترد وتزدرى ، وكشف ذلك لها عن أمور أخرى كثيرة أقل من ذلك شأنا ، اذ لاشك أن سلوك « چين » كان وليد الغيرة ، فقد كانت « چين » تنظر اليها على أنها منافسة ، ومن ثم كان مصير كل مساعدة طيبة تقدمها ، أو عرض تعرضه ، الرفض . فكان التريض فى عربة هارتفيلد يبدو لها كأنها تركب فوق آلة من آلات التعذيب ، وكان السميد الذى يأتيها من مخزن هارتفيلد كأنه السم الزعاف . لقد أدركت « اما » الآن كل شىء ، ورأت بقدر ما سمحت لها قدرتها على التخلى عن مشاعر الغضب وعدم الانصاف والأنانية التى كانت تحسها أحيانا ، أن « چين فيرفاكس » لن يكون لها من السعادة ولا من علو المكانة أكثر من دنياها التى تعيش فيها ، أما « هاريت » فكانت أحق بكل عنايتها ، فليس

هناك الا القليل من العطف الذى تستطيع أن تشمل به أحدا غيرها . لقد كانت « اما » تخشى فى حزن ومرارة أن تكون خيبة أمل « هاريت » فى هذه المرة أقسى منها فى المرة الأولى . فلما فكرت فيما يتطلبه الموقف من عناية فائقة وما سيكون له من أثر أشد فى نفس « هاريت » ، رأت أن كل ذلك يتطلب منها الحيطة وضبط النفس ، وأنه لابد من اطلاعها على الحقيقة المؤلمة ، وبأسرع ما يمكن . لقد طلب منها « مستر وستن » من بين ما طلب، وهى تهم بالانصراف ، أن يظل الموضوع سرا ، اذ قال لها :

« يجب الآن أن يبقى الموضوع بحذافيره سرا مكتوما ، فهذه رغبة « مستر تشرشل » ، احتراما منه لذكرى الزوجة التى فقدها منذ وقت قريب ، وقد اعترف كل واحد بأن هذا أكثر من أن يكون مجرد كياسة يجب مراعاتها » .

ووعدته « اما » بمراعاة ذلك ، ولكنها رأت مع هذا وجوب استثناء « هاريت » ، لأن هذا هو أوجب الواجبات عندها .

وعلى الرغم من حنقها وضيقها ، لم تتمالك « اما » نفسها من الشعور بأن المسألة أقرب أن تكون مهزلة مضحكة ، أن ترى نفسها تؤدى بالنسبة الى هاريت نفس المهمة الدقيقة المؤلمة التى انتهت « مسز وستن » من أدائها حالا نحوها هى ، وأن يكون عليها أن تعلن فى تلهف الى سيدة أخرى نفس النبأ الذى أعلن لها فى مثل هذا التلهف . وزادت دقات قلبها عندما سمعت وقع أقدام « هاريت » وصـوتها ، وفكرت اذا كانت المسكينة « مسز وستن » قد شعرت يا ترى بمثـل ما شعرت به عنـدما اقتربت هى من « راندولز » ، وهل سيكون للافضاء بالنبأ نفس الأثر عند « هاريت » مثلما كان عندها . وشعرت بأنه من حيث هذه النقطة الأخيرة لا يوجد أى احتمال البتة .

وصاحت « هاريت » عند دخولها الحجرة فى لهفة :

« أجل يا « مس وودهاوس » ، أليس هذا أدهش الأخبار جميعها ؟ ».

وأجابتها « اما » وقد عجزت عن التكهن بشيء ، لا من مظهرها ولا من صوتها ، ولم تدر اذا كانت « هاريت » حقا قد وصلها أى تلميح .

« أى خبر تعنينه ؟ » .

« الخبر الخاص « بچين فيرفاكس » ، فهل سمعت فى حياتك شيئا أغرب من هذا ؟ لا داعى لأن تخافى من افشائه الى ، فقد أخبرنى به « مستر وستن » بنفسه ، اذ التقيت به منذ برهة ، وطلب الى أن أحرص على كتمانه ، وما كنت لأفكر فى ذكره لأحد سواك . على أنه قال انك على علم به » .

وقالت « اما » وكانت لا تزال فى حيرة : « وما الذى أخبرك به مستر وستن ؟ » .

« أوه ! لقد أخبرنى بكل شيء ، أن « چين فيرفاكس » ومستر « فرانك تشرشل » سيتزوجان ، وأن الخطبة ظلت معقودة بينهما سرا طوال هذه المدة ، أليس هذا عجيب ؟ » .

« نعم كان عجيبا ولا شك ، فلقد كان مسلك « هاريت » عجيبا إلى حد جعل « اما » تعجز عن فهمه ، وبدا لها كأن شخصيتها تغيرت كلية ، وأنها لا تريد أن يبدو عليها مظهر من مظاهر الارتباك أو الخيبة ، أو دليل على اهتمامها الخاص بما اكتشفت . ونظرت اليها « اما » وقد عجزت عن الكلام .

وصاحت « هاريت » تقول : « وهل كانت لديك أية فكرة عن غرامه بها ؟ ربما كنت تعلمين أنت — (واحمر وجهها وهى تتكلم) ، أنت التى فى قدرتك أن تستشف ما فى قلوب الناس جميعا ، ولكن لا أجد غيرك .. » .

وقالت « اما » : « ثقى بأنى قد بدأت أشك فى أن لى أية موهبة كهذه. وهل أنت جادة يا « هاريت » حين تسألينني اذا كنت تخيلته على علاقة مع سيدة أخرى فى نفس الوقت الذى كنت فيه — ضمنا أو صراحة — أشجعك على الاستسلام لمشاعرك نحوه ؟ لا ، لم يكن عندى أدنى ظن حتى آخر ساعة بأن « فرانك تشرشل » كان له أدنى شغف « بجين فيرفاكس ». وتأكدى بأنه لو كانت لدى فكرة عن ذلك ، لكان من واجبى تحذيرك » .

وصاحت « هاريت » وقد احمر وجهها من الدهشة :

« أنا ! ولماذا تحـذريننى ؟ انك لا تظنين أن مسر فرانك تشرشـل يهمنى ؟ » .

وأجابت « اما » وهى تبتسم : « يسرنى أن أسمعك تتكلمين بهذه الشجاعة ، ولكنك قطعا لا تعنين انكار انك كنت قد جعلتينى فى وقت ليس ببعيد على أن أفهم بأنك كنت تهتمين به » .

« هوه !! أبدا ، كيف تخطئين فهمى يا عزيزتى مس وودهاوس » . (واستدارت وهى متضايقة) .

وصاحت « اما » بعد أن سكتت لحظة تقول :

« هاريت ! ماذا تعنين ؟ رباه !! ماذا تعنين ؟ أخطىء فهمك ؟ هل لى أن أفترض اذن — ؟ » وعجز لسان « اما » عن أن ينطق بكلمة أخرى ، وانحبس صوتها ، ثم جلست تنتظر فى هلع الى أن ترد عليها « هاريت » .

أما « هاريت » التى كانت تقف بعيدا ، وقد أشاحت بوجهها عنها ، فلم تقل شيئا على الفور ، فلما تكلمت أخيرا ، كان صوتها يقرب من صوت « اما » فى اضطرابه وبدت تقول :

« ما كنت أظن من الممكن أن تخطئى فهمى ! اننى أعلم بأننا اتفقنا على ألا نذكره بالاسم اطلاقا — ولكنى بالنظر الى تفوقه الكبير على أى شخص

غيره ، ما كنت أظن أن من الممكن أن يتطرق الى ذهنك أى شيء آخر ..
« مستر فرانك تشرشل » حقا ؟ ! ما أعجب ما تظنين ! فلست أعرف أحدا من الناس يمكن أن ينظر اليه وهو فى صحبة الآخر ، ثم يراه شيئا ، بل انى لأرجو أن أكون أحسن ذوقا من أن أفكر فى « مستر فرانك تشرشل » فهو لا شيء بجانبه . وانه ليدهشني أن تكوني قد وقعت فى مثل هذا الخطأ، وأنا واثقة أنه لولا اعتقادى بأنك كنت موافقة تماما على تعلقى به وقصدت تشجيعى على ذلك ، لكنت اعتبرت أول الأمر أنها وقاحة عظيمة منى أن أجرؤ حتى على مجرد التفكير فيه . ولولا أنك قلت لى أول الأمر ، ان أشياء أكثر غرابة من ذلك حدثت ، وان زيجات أخرى تمت ، كان فيها الزوجان أشد تفاوتا (وهذه هى نفس كلماتك) ما كنت جرؤت على أن أستسلم بعواطفى الى — اننى لم أكن أفكر أن ذلك ممكن ، ولكن اذا كنت أنت التى تعرفينه من زمن — » .

وقاطعتها « اما » وقد استجمعت قواها وضبطت أعصابها :

« ليفهم كل منا الآخر الآن يا هاريت ، حتى لا يكون هناك مجال للخطأ فيما بعد — هل أنت تتحدثين الآن عن — مستر بنتلى ؟ » .

« نعم انه هو ، ولم أستطع أن أفكر فى شخص آخر غيره ، وهو ما كنت أظن أنك تعلمينه . لقد كان الأمر واضحا كل الوضوح عندما كنا نتكلم عنه » .

وردت « اما » فى هدوء مغتصب : « لم أفهم ذلك تماما ، ولكن حديثك وقتها بدا لى كأنه يتعلق بشخص آخر ، انى لأكاد أؤكد أنك ذكرت مستر « فرانك تشرشل » بالاسم ، وأنا واثقة بأن الحديث كان عن الخدمة التى أداها لك مستر فرانك تشرشل بحمايتك من الغجر » .

« عجبا « يا مس وودهاوس » كيف تنسين بسرعة ؟ » .

« عزيزتى « هاريت » انى أذكر الكلام الذى قلته فى تلك المناسبة تماما ، لقد أخبرتك وقتها انى لم أدهش لعلاقتك به ، واننا اذا راعينا الخدمة التى أداها لك لكانت هذه العلاقة أمرا طبيعيا للغاية ، وقد وافقت أنت على ذلك ، وعبرت عن شعورك بهذه الخدمة بحمية وحماس ، حتى لقد وصفت مشاعرك حينما رأيتيه يتقدم نحوك لتخليصك . ان ما ذكرتيه لا يزال أثره قويا فى ذاكرتى » .

وصاحت « هاريت » : « آه !! الآن أتذكر يا عزيزتى ما تعنين ، فلقد كنت أفكر فى ذلك الوقت فى شىء يختلف عن هذا كل الاختلاف ، فلم أكن أعنى الغجر ، ولا مستر فرانك تشرشل ، لا ! (ثم فى شىء من الحيوية) لقد كنت أفكر وقتها فى مناسبة أغلى من هذه بكثير ، كنت أفكر فى مجىء « مستر نيتلى » ليطلبنى لأراقصه عندما تنحى مستر « التن » عن صحبتى ، ولم يكن هناك غيره فى الحجرة ليراقصنى ، فلقد كان هذا العمل منه عطفا كريما ، وكان ينطوى على نبل وكرم . تلك كانت الخدمة التى جعلتنى أبدا أشعر بما له من تفوق على الناس قاطبة » .

وصاحت « اما » : « يا الهى !! لقد كانت هذه أنحس وأتعس غلطة !! فما العمل اذن ؟ » .

« اذن فما كنت تشجعيننى لو أنك فهمتينى ؟ اننى على الأقل كنت أكون أقل عذابا الآن مما لو كان الأمر يتعلق بالآخر ، والآن — ان فى الامكان — » .

وسكتت لحظات قليلة لم تقو « اما » خلالها على الكلام . وعادت « هاريت » تقول : « لا يدهشنى يا « مس وودهاوس » ما تشعرين به من الفارق العظيم بين الاثنين سواء بالنسبة لى أم بالنسبة لأى شخص آخر ، ويجب أن تفكرى بأن تفوقه على يزيد خمسمائة مليون مرة على

تفوق الآخر ، ولكنى آمل يا « مس وودهاوس » أنه على فرض ... أنه اذا ... أنه حتى لو كان ذلك غريبا كما يبدو — ولكنك تعلمين أن هـذه كانت كلماتك ، لقد حدث ما هو أكثر غرابة ، وان زيجات ثمت ، كانت الفوارق فيها أشد مما بينى وبين مستر « فرانك تشرشل » !! ولذلك يبدو لى وكأن أشياء مثل هذه قد حدثت قبلا ، واذا قدر لى أن يكون لى مثل هذا الحظ الذى يعلو على كل وصف ، أى أنه اذا كان « مستر نيتلى » حقيقة — اذا كان لا يهتم بالفوارق ، فانى آمل يا عزيزتى «مس وودهاوس» أنك لن تعارضى فى ذلك ، أو تحاولى وضع العراقيل فى طريقى ، ولكنى واثقة بأنك أعظم من أن تفعلى ذلك » .

وكانت « هاريت » واقفة بجانب أحد النوافذ ، فاستدارت « اما » لتنظر اليها فى دهشة وجزع ، وقالت على عجل :

« وهل تظنين أن « مستر نيتلى » يبادلك الحب ؟ » .

وأجابت « هاريت » فى تواضع لا يشوبه خوف :

« أجل ، ولا بد أن أقول بأنى أظنه يبادلنى مشاعرى » .

وغضت « اما » الطرف عنها فى الحال ، وجلست تفكر فى سكون ، وجمدت فى مكانها بضع دقائق ، فقد كان قليل من الدقائق يكفيها لتقف على مكنونات قلبها ، فأن عقلا مثل عقلها ، اذا ساورته الشكوك مرة فلا حد لقدرته على التفكير والنشاط . وهكذا استطاعت أن تلمس الحقيقة كلها وأن تكشفها وتعترف بها — لماذا كان غرام « هاريت » « بمستر نيتلى » أسوأ بكثير من غرامها « بفرانك تشرشل » ؟ ولماذا زاد الموقف سوءا الى درجة مخيفة بوجود بعض الأمل عند « هاريت » ، بأنه يبادلها الحب ؟ فلقد خطر لها فى تلك اللحظة فى سرعة السهم ، أن مستر « نيتلى » يجب ألا يتزوج غيرها ، وتكشف أمام عينيها فى تلك الدقائق القليلة مسلكها

وقلبها على السواء ، فتبينتهما بجلاء ووضوح لم يتاحا لها من قبل ، وبدا لها كيف أنها كانت غير حكيمة فى مسلكها نحو هاريت ! كيف أن مسلكها كان خلوا من كل تفكير فى مصلحتها ، بعيدا عن كل كياسة ، مجردا من الشعور ومن الفعل ، فأى عمل وأى جنون هذا الذى تملكها وقادها فى هذا الطريق ؟

لقد صدمها كل ذلك صدمة قوية مخيفة ، وكانت على استعداد لأن تصف سلوكها بأقذع ما هناك من ألفاظ . ومع ذلك فعلى الرغم من كل هذه العيوب التى كشفتها فى نفسها ، فقد رأت أن بقية باقية من الاحترام الذاتى ، وأن قلقها على مظهـــرها ، واحساسها القوى بالعدالة نحـــو « هاريت » (اذ لا حاجة الآن للاشفاق على فتاة آمنت بأن مستر نيتلى يحبها ، وان كان العدل يقتضيها ألا تسىء اليها الآن بأى فتور من جانبها) كل ذلك جعل « اما » تقرر الجلوس والتحمل فترة أطول وهى هادئة ، بل وهى تتظاهر بالشفقة . فلقد كان من مصلحتها بالذات ولا شك أن تتبين أقصى آمال « هاريت » ، فان هاريت لم تفعل فى الواقع ما يجوز أن يفقدها التقدير والاهتمام اللذين لم تفتأ تسبغهما عليها عن طيب خاطر ، أو يجعلها جديرة بالهوان ، على يد واحدة لم تنجح يوما فى توجيهها الوجهة السليمة. ولذلك التفتت الى « هاريت » مرة أخرى عندما استيقظت من ســباتها وكبحت عواطفها ، وعادت تستأنف الحديث بنغمة فيها ترحيب ، فلقد كان الموضوع الذى استأنفا الحديث فيه ، هو قصة « جين فيرفاكس » العجيبة، التى كانت قد تضاءلت واختفت حتى الآن لأنهما كانتا لا تفكران فى شىء الا فى نفسيهما وفى مستر « نيتلى » .

وعلى الرغم من أن « هاريت » كانت سابحة فى أحلام بعيدة عن أن تكون محزنة ، فقد سرها كثيرا الآن أن تطرح أحلامها جانبا تحت تأثير

التشجيع الذى لقيته ساعتها من حكم وصديق مثل « وودهاوس » فلقد كان لا ينقصها الا أن تدعى ، فتدلى بقصة آمالها وأحلامها ، وهى فى غمرة من السرور المشوب بالخوف . وكانت « اما » وهى تسأل وتستمع ، أكثر من « هاريت » قدرة على اخفاء مخاوفها ، مع أنها لم تكن أقل منها خوفا — كان صوتها ثابتا أما عقلها فقد كان يهتز اضطرابا بما يثيره هذا الحديث عن النفس ، وهذا السر المتدفق الذى ينذر بالخطر ، وهذا الخليط المفاجىء من المشاعر المحيرة ، فاستمعت وهى تتوجع فى قرارة نفسها ، بينا فى مظهرها الخارجى كانت تبدو صابرة على ما كانت تدلى به « هاريت » من تفصيلات — وهى تفصيلات اذا وضعت فى أسلوب منطقى ، أو أحسن ترتيبها والقاؤها ، كانت آخر ما تنتظره .

أما اذا جردت مما فيها من زخرف ومن ركاكة وتكرار لا داعى له ، فلن يكون فيها الا ما ينغص عليها نفسها ، ولا سيما اذا أيدتها الظروف والقرائن التى استعادتها ذاكرتها الآن لتؤيد التحسن الذى كان قد طرأ على رأى « مستر نيتلى » فى « هاريت » .

وها هى تفاصيل القصة كما روتها « هاريت » بالتغيير الذى طرأ على مسلكه نحوها منذ هاتين الرقصتين الهامتين ، وكانت « اما » نفسها تعلم بأنه ألفاها أفضل بكثير مما كان يتوقع ، ومنذ ذلك المساء ، أو على الأقل منذ أن شجعتها « مس وودهاوس » على التفكير فيه ، أخذت هاريت تشعر بأنه يكثر من حديثه معها أكثر مما اعتاد ، وأنه ولا شك قد تغير فى معاملته لها وفى سلوكه نحوها ، فبدا رقيقا عطوفا عليها ، ثم أخذ هـذا الشعور يزداد يوما بعد يوم فى الفترة الأخيرة ، فلما كانوا يسيرون جميعا ، كان كثيرا ما يأتى ليمشى الى جوارها ، ويحادثها وهو مبتهج كل الابتهاج ، وكأنه يريد أن يعقد صلة التعارف الوثيق بها . ان « اما » نفسها تدرك أن

هذا كان ما يحدث بالفعل ، وهى نفسها كثيرا ما لاحظت هذا التغيير الى حد يقرب مما تقوله صديقتها . وظلت « هاريت » تكرر ما كانت تلقاه منه من عبارات الاطراء والمديح . وشعرت « اما » أن هـذا يتفق تمـاما مع ما كانت تعلمه من رأيه فى « هاريت » ، فلقد كان يمتدحها لعدم تكلفها ، ولما هى عليه من بساطة وشرف ونبل فى المشاعر . نعم لقد كانت تعلم بأنه يرى كل هذه المزايا فى « هاريت » ، وأنه كان يتحدث عنها فى استفاضة أكثر من مرة . على أن كثيرا ممـا علق بذاكرة هاريت من تلك الدقائق الصغيرة العديدة التى كانت تبدو من رعايته لها ، فى نظرة أو حـديث ، أو انتقال من مقعد الى مقعد آخر ، أو فى مرح مستتر ، أو استنتاج عابر بأنه يفضلها على غيرها ، كل ذلك مر على « اما » دون أن تلحظه ، لأنها لم تكن تتشكك فى شىء من هذا . بل كانت هناك حوادث امتد بعضها الى نصف الساعة ، وكان فيها لمن رأتها بعينها ساعتها ، الكثير من الأدلة التى مرت كلها على « اما » دون أن تلحظها — ثم ها هى الآن تستمع اليها من جديد . على أن آخر حادثين يمكن ذكرهما ، وكان فيهما ما قوى أمـل « هاريت » ، لم يفت « اما » أن تلحظهما بنفسها فشهدت بنفسها الآن على صحتهما . أما أولهما ، فكان سيره معها بعيدا عن الآخرين وقت التجول بين أشجار الليمون فى « دونول » حيث سارا معا وقتا ما قبل أن تلحق « اما » بهما ، وكان قد بذل جهده (كما أقنعت نفسها) لكى يستأثر بها لنفسه ، وكان يتكلم معها بادىء الأمر بطريقة شخصية تختلف عما كان يفعل قبلا ، طريقة كانت ولا شك بعيدة جدا عن أن تكون عادية ! (ولم تكن هاريت تذكر ذلك دون أن تعلو وجهها حمرة) وبدا لها وقتها كما لو كان يريد أن يسألها اذا كانت تحب غيره . ولكن ما كاد يبدو احتمال وجود « مس وودهاوس » معهما حتى غير مجرى الحديث وأخذ يتكلم عن

الزراعة . أما الحادث الثانى فكان جلوسه وحديثه معها ما يقرب من نصف الساعة قبل عودة « اما » من زيارتها فى صباح آخر يوم زارهم فيه فى « هارتفيلد » ، رغم أنه قال عند دخوله ، انه لا يستطيع أن يمكث الا أقل من خمس دقائق ، ثم ما ذكره فى أثناء حديثهما حين قا لاته وان كان عليه أن يذهب الى لندن ، فقد كان بوده ألا يترك بيته أبدا ، وهو اعتراف (شعرت به « اما » كذلك) فاق كل اعتراف منه لها من قبل ، بل لقد آلمت هذه الثقة الفائقة التى أبداها نحو هاريت وقتها احساس « اما » .

وبعد أن فكرت « اما » قليلا فى موضوع أول الحادثين ، أقدمت على توجيه السؤال الآتى لهاريت :

« ألا يجوز أنه — ، أليس من الممكن — أنه عندما كان يسأل ، كما تظنين ، عن علاقاتك العاطفية ، ربما كان يشير الى « مستر مارتن » ، وأن « مستر مارتن » هو الذى كان فى ذهنه وقتها ؟ » .

ولكن « هاريت » رفضت هذا الرأى بشدة وهى تقول :

« لا ، « مستر مارتن » ؟ كلا ولا شك ! فلم يكن هناك أى تلميح عن « مستر مارتن » ، وأرجو أن أكون الآن أكثر ادراكا فلا أهتم بمستر « مارتن » ، أو حتى يظن بأنى أهتم به » .

فلما انتهت « هاريت » من بسط قصتها ، جعلت تستحلف عزيزتها « مس وودهاوس » ، اذا كانت لا ترى ما يعزز الأمل عندها ، وقالت :

« ما كنت أجرؤ على التفكير فى ذلك أول الأمر لولاه ، انك أشرت على بأن أراقبه بعناية ، وأن أجعل سلوكه نبراسا أسير على هدية ، وهذا بالضبط هو ما فعلته ، ولكن يخيل الى الآن أننى أصبحت جديرة به ، وأنه اذا ما اختارنى فلن يكون فى ذلك ما يثير دهشة كبيرة » .

وكان لما أثاره هذا الكلام من المشاعر المريرة ، المشاعر المتعددة

القاسية ، ما جعل « اما » تبذل كل ما عندها من جهد ، لكى تقوى على أن تقول ردا عليها :

« لن أستطيع يا « هاريت » أن أصرح الآن بشيء سوى أن « مستر نيتلى » هو آخر من يحاول عامدا أن يجعل أية سيدة تفكر فى أنه يتجه اليها بعواطفه بأكثر مما يخالجه من عواطف نحوها بالفعل » .

ونظرت « هاريت » الى صديقتها كأنها تريد أن تضعها فى مكانة القديسات لهذه الجملة التى صادفت هوى فى نفسها ، ولم ينقذ « اما » مما كانت ستقاسيه من انطلاقات الفرح والتدليل ، الا سماعها وقع أقدام أبيها ، اذ كان يجتاز البهو فى طريقه اليهما . وأحست هاريت باضطراب شديد جعلها تخشى مقابلته ، فهى لا تستطيع أن تتمالك نفسها ، وفى هذا ما قد يزعج « مستر وودهاوس » ، ومن الأفضل خروجها الآن ، وبتشجيع من صديقتها خرجت من باب آخر . وكانت لحظة خروجها هى اللحظة التى تركت فيها « اما » العنان لعواطفها ، فانطلقت تقول :

« رباه !! ليتنى لم أرها أبدا » .

واستبدت بها أفكارها بقية اليوم ، والليلة التالية ، وظلت فى حيرة من أمرها بسبب ما تكاثر عليها من أحداث مربكة فى خلال الساعات القليلة الماضية ، فقد كان لها فى كل لحظة دهشة جديدة وكان لابد أن تأتى كل واحدة منها بما يجرح كرامتها — ، كيف يتأتى لها أن تفهم كل هذا ! كيف تدرك الخداع الذى كانت تمارسه هى نفسها ولا تزال تعيش فيه ؟ وكيف تفهم الأغلاط التى وقعت فيها ، الغشاوة التى نزلت على عينيها ، والوقر الذى أصاب أذنيها ؟ وتجولت هنا وهناك ، ولاذت بحجرتها ، وهرعت الى شجيرات التوت ، ولكنها فى كل محاولة من هذه المحاولات ، فى كل مكان ، وفى كل وضع ، أدركت أن سلوكها كان مستضعفا للغاية ، وأن الآخرين

خدعوها خداعا يحز فى نفسها ، وأن خداعها لنفسها كان أكثر الخداع ايلاما للنفس ، وأنها كانت تعسة ، وقد لا يكون يومها هذا الا بداية لتعاسة مستمرة .

وكان أول ما اتجهت اليه فى محاولاتها أن تفهم حقيقة قلبها وأن تقف على كنهه ، وكرست لهذا الغرض كل لحظة وجدت نفسها فيها فى حل من مطالب أبيها ، وكل لحظة شرد فيها تفكيرها تلقائيا .

وعجبت كم من الزمن مضى عليها وهى تحتفظ لمستر « نيتلى » بهذا الاعزاز فى قلبها ، الذى تنطق به كل مشاعرها الآن ؟ متى بدأ سلطانه عليها ؟ هذا السلطان الجارف ، ومتى نجح فى الوصول الى هذه المكانة من حبها ، التى كانت بعض الوقت ، ولمدة قصيرة « لفرانك تشرشل » ؟ . وعادت « اما » الى الماضى تحاول أن تقارن بين الاثنين ، قارنت بينهما بمقياس تقديرها كما بديا لها منذ أن تعرفت بثانيهما ، وكما كان يجب أن تقارن بينهما فى أى وقت مضى لو أن هذه المقارنة قد خطرت على بالها . فلو أن الحظ واتاها لكانت قامت بتلك المقارنة — ولكنها بقيت ترى « مستر نيتلى » أفضل الاثنين بكثير ، فى أى وقت ، وتعتز بتقديره لها أكثر من اعتزازها بتقدير الآخر . وتكشف لها الآن أنها انما كانت تخدع نفسها حين كانت تحاول أن تقنع نفسها بغير ذلك ، وأنها كانت لا تعرف من أمر قلبها شيئا . ومجمل القول انها لم تتعلق « بفرانك تشرشل » حقيقة فى يوم من الأيام .

هذه هى الخلاصة التى وصلت اليها نتيجة لتفكيرها الذى انصرفت اليه فى هذه المرحلة ، وهذا مبلغ علمها عن نفسها ردا على أول استفسار من الاستفسارات التى وضعتها نصب عينيها ، دون أن يستغرق منها ذلك وقتا طويلا . لقد بلغ بها الأسى والغضب مبلغا ، وأخجلتها مشاعرها جميعا

الا واحدة ، هى شعورها بأنها تحب « مستر نيتلى » — أما كل ما عدا ذلك مما شغل بالها ، فقد كان فى نظرها شيئا ذميما تمجه النفس .

لقد كانت تؤمن فى زهو لا يحتمل ، بأنها عليمة بخفايا مشاعر الناس جميعا ، وكانت لها جرأة لا تغتفر على اقحام نفسها فى شئونهم بغية تنظيم مصائرهم ، وقد أثبتت الآن فشلها فى كل ذلك . بل لم يقف الأمر عند مجرد الفشل فى تحقيق شىء ، فقد أثمرت خططها شرا بدلا من أن تثمر خيرا ، فأساءت الى « هاريت » ، بقدر ما أساءت الى نفسها ، ويخشى أن تكون على وشك الاساءة الآن الى « مستر نيتلى » . فلو أن هذه الزيجة غير المتكافئة تمت ، لوقع اللوم على كاهلها دون سواها — لأنها هى التى تكون قد مهدت لها ، لأن حبه لها ما كان يمكن أن يتأتى الا استجابة لشعوره بأنها تعلقت به . وحتى اذا لم يكن هذا هو الوضع ، فهى المسئولة أولا وآخرا عن معرفته بها فلولاها لما كانت له فرصة مقابلته مستر « نيتلى » وهاريت سمث ! عجبا !! انها الزيجة تحمل من عناصر الدهشة ما لا تحمله غيرها . لقد صار ارتباط « فرانك تشرشل » « بجين فيرفاكس » ، اذا قورن بذلك ، شيئا عاديا لا جدة فيه ، شيئا لا يثير قيــلا ولا قالا ، ولا ينبىء باتساع الشقة بين الزوجين . « مســتر نيتلى » و « هاريت سمث » !! ما أعظم ما تنطوى عليه هذه الزيجة من رفعة لقدرها وحط لقدره . نعم لقد أفزع « اما » مجرد التفكير فيما سيحل به من سقوط فى أعين الناس ، فيتلقونه وابتسامات السخرية على وجوههم ، ويودعونه وعبارات الاستهزاء على أفواههم ، ويتحدثون عنه فيجعلونه موضع تهكمهم . أضف الى ذلك ما يلحق بأخيه من عار وذلة ، وبه نفسه من آلاف المتاعب » .

« أيكون هذا ؟ لا ، لا ، انه مستحيل ، ومع ذلك فهو يبدو بعيدا جدا عن أن يكون مستحيلا .. وهل من الحقائق المستحدثة فى الحياة أن

يقع رجل له من القدرات ما يعد فى المرتبة الأولى ، أسيرا لقوى أدنى منه بكثير ؟ وهل من المستحدثات أن رجلا كثرت أعماله ، فشغلته عن البحث عن المرأة التى تناسبه ، تظفر به فتاة قادرة على أن تبحث عنه ؟ هل من المستحدث على أى شىء فى الوجود ، أن يكون الانسان غير متكافىء ، أن يكون متباينا مختلفا عن غيره ، أو أن تكون الفرص والمناسبات (كأسباب ثانوية) هى التى توجه مصير الانسان ؟ » .

« آه ! لو أنها لم تعمل أبدا على الارتفاع بهاريت !! لو أنها كانت تركتها حيث يجب أن تكون ، وحيث أخبرها هو نفسه أين يجب أن تكون!! لو أنها لم تمنعها بغباء لا يمكن لانسان أن يتصوره ، عن الزواج من ذلك الشاب الذى لم يكن له ما يضيره ، وكان خليقا بأن يسعدها ويجعلها محترمة فى الوسط الذى يجب أن تظل تنتسب اليه . فلو أن شيئا من ذلك تم ، لكان كل شىء الآن فى أمان ، ولما وقع شىء من هذا الموقف المزعج » .

عجبا ! كيف تطاولت « هاريت » فجرؤت على أن تسمو بأفكارها الى « مستر نيتلى » ! كيف جرؤت على أن تتصور أن رجلا من هذا الطراز قد اختارها ، الا أن تكون واثقة من ذلك ! ولكن « هاريت » كانت الآن أقل شعورا بالوضاعة ، وأقل انصياعا لوخز الضمير عن ذى قبل ، ولم يعد خنوعها السابق ، سواء فى العقلية أو فى المكانة شيئا ملموسا . بل لقد جاء وقت كانت تشعر فيه بأن تنازل « مستر التن » الى الزواج بها فيه تصغير لشأنه ، بأكثر مما تشعر به الآن اذا تزوجها « مستر نيتلى » . واأسفاه !! ألم يكن هذا كذلك من غرس يديها ؟ اذ من غيرها تجشم المتاعب ليجعل « هاريت » تفكر فى أنها ذات أهمية ؟ من غيرها ؟ نعم ، من الذى علمها أن تعلو بنفسها ولقنها بأن لها من الصفات ما يؤهلها لمرتبة عالية فى الحياة الا هى نفسها . فاذا كان الغرور قد استولى الآن على « هاريت » بعد ذلة ومسكنة ، فلم يكن ذلك الا من عملها .

الفصل الثامن والأربعون

ظلت « اما » وهى المهددة الآن بفقد سعادتها ، لا تعلم حتى هـذه اللحظة مدى توقف هذه السعادة على أن تكون هى المفضلة لدى « مستر نيتلى » ، وأن تكون أكثر من تحظى باهتمامه ومحبتـه . ولما كانت قد ظلت طيلة حياتها وهى مقتنعة بأنها المفضلة عنده ، وأن من حقها أن تكون كذلك ، فقد نعمت بهـذا الاقتناع دون تفكير ، ولم تدرك أهمية ذلك الا حين رأت الخطر يهدد سعادتها ، وبان لها أن من المحتمل أن تحـل غيرها محلها . نعم لقد ظلت وقتا طويلا ، وطويلا جدا ، وهى تشعر بأنها هى المقربة الأولى اليه ، فهو لم يكن له معارف من السيدات ، وكانت الوحيدة التى كانت له صلة بها غيرها هى « ايزابلا » التى كانت تقف منها موقف الند ، فى أية مقارنة تعقد بينهما لتكون احداهما المفضلة عنده . وقد كانت تعلم بالضبط مدى حبه واحترامه لايزابلا ، بقدر ما كانت تعلم أنها هى نفسها ظلت سنوات عديدة وهى صاحبة الحظوة عنده ، رغم أنها لم تكن جديرة بهذه الحظوة ، فهى كثيرا ما أهملته ، وخالفته ، واستخفت بنصحه ، أو تعمدت معارضته ، وهى فوق ذلك لا تكاد تشعر بنصف ما له من مواهب ، وتتشاحن معه لأنه كان لا يقرها على رأيها ولا يستسيغ منها مبالغتها فى قدر مواهبها . ومع ذلك فقد كان بحكم العادة وبحكم الصلة العائلية التى تربطهما ، وبحكم تحيزه العقلى ، يحبها ويرعاها منذ طفولتها ، محاولا اصلاحها — قلقا عليها كى يحملها على انتهاج طريق الصواب . ولم يكن يشاركها فى هذه الرعاية أحد اطلاقا . وكانت تعلم أنه على الرغم

من كل أخطائها يعزها . بل لعلها تستطيع أن تقول انه كان يعزها جدا — ومع هذا ، فلما أخذت بواعث الأمل التى كان لابد أن تثمر بعد ذلك ، تبدو فى الأفق أمامها ، لم تستبح لنفسها أن تسايرها أو تمسك بزمامها . وقد تظن « هاريت سمث » بأنها المفضلة عنده دون سواها ، وأنها جديرة بأن يهيم بها « مستر نيتلى » حبا ، أما هى فلا تستطيع أن تزعم لنفسها شيئا من ذلك ، ولا يمكنها أن تخدع نفسها فتزعم أنه يحبها حبا أعمى — ولقد ظهر لها مؤخرا ما يدل على أن صلته بها كانت بعيدة عن التحيز أو الممالأة . وكم كان وقع سلوك « اما » نحو « مس بيتس » شديدا عليه ! كيف أنه تحدث اليها فى ذلك . واذا لم يكن فيما قاله لها وقتها غلظة ، اذا قيس بعظم الجرم الذى ارتكبته ، فقد كان ولا شك كلاما قاسيا فى عرف العواطف الرقيقة التى تسمو على مجرد العدالة المنزهة ، والطيبة التى تقوم على صفو النفس . ولم يكن لها أمل ، بل ولا ما يشبه الأمل ، فى أنه يكن لها من الحب ما يجوز أن يشغل بحثه بالها الآن ، الا أمل واحد (ضعيف أحيانا وقوى أحيانا أخرى) هو أن تكون « هاريت » قد خدعت نفسها فبالغت فيما يوليها من تقدير ، وفسرته على أنه قد أغرم بها . وكان لابد « لاما » أن ترجو ذلك ، لا من أجلها ، بل من أجله هو ، حتى واذا لم يعد عليها هذا بفائدة اذا هو ظل دون أن يتزوج . فلو أنها ضمنت ذلك ووثقت من أنه سيظل عزبا طول حياته لطابت نفسها لذلك ورضيت به كل الرضى . ليبق اذن كما كان : « مستر نيتلى » كما هو ، بالنسبة لها ولأبيها ، وبالنسبة للعالم أجمع ولتستمر الصلة الغالية بين « دونول » و « هارتفيلد » على حالها دون أن تفقد شيئا من أواصر الصداقة والثقة التى تشـدهما الى بعضهما . اذن لضمنت منتهى الطمأنينة والراحة النفسية . أما الزواج منه فلن يجديها شيئا ، فهو لا يتفق مع ما هى مدينة به لأبيها ، ولا مع ما تشعر

به نحوه من واجب ، وهى لن تتزوج حتى ولو كان « مستر نيتلى » هو الذى يطلب زواجها . بل ان أمنيتها الملحـة يجب أن تكون فى أن ترى « هاريت » وقد باءت بالفشل فيما كانت ترجوه . وراودها الأمل فى أنها قد تستطيع اذا رأتهما معا مرة أخرى ، التأكد على الأقل من فرص هذا الفشل ، واذن فلا بد من تشديد الملاحظة عليهما من الآن واذا كان شعورها بالبؤس قد اشتد بها لفشلها حتى الآن فى أن تلحظ حتى أولئك الذين كانت تجعلهم موضع رقابتها ، فقد عز عليها أن تعترف لنفسها أنها يمكن أن تكون قد بقيت مغمضة العين فى هذه الحالة . لقد كانت عودته مترقبة يوما بعد يوم ، وعما قريب ستلعب قوة الملاحظة دورها ، وما أسرع ما كانت قوة الملاحظة فيها تظهر عندما تتركز أفكارها فى مجال واحد . وقد عولت فى الوقت نفسه على ألا ترى « هاريت » ، فليست لاحداهما فى رؤية الأخرى منفعة الآن وليس من المصلحة أن يثار الحديث فى الموضوع أكثر من ذلك، وصممت على ألا تقتنع حيث يمكن أن تتشكك ، ومع ذلك فلم يكن لها من السلطان ما تقاوم به ثقة « هاريت » بنفسها ، ورأت أنه لن يكون من وراء الكلام الا الاثارة ، ومن ثم فقد كتبت اليها ترجوها فى عطف مقرون بالحزم ، ألا تأتى الى « هارتفيلد » فى الوقت الحاضر ، وأكدت لها رأيها الجازم بأن من الأفضل تجنب كل المناقشات الخاصة بينهما فى موضوع معين ، وأبدت أملها أنه اذا ما انقضت أيام قلائل لا يلتقيان فيها — الا أن تكون المقابلة وسط جماعة — فلن يكون لها اعتراض الا على أن يكون الحديث بينهما على انفراد — فقد يكون فى استطاعتهما أن يتناسيا ما دار بينهما من حديث بالأمس . وانصاعت « هاريت » لذلك ووافقت وهى شاكرة .

وما كاد الاتفاق يتم على ذلك حتى أقبل زائر ليبتعد بأفكار « اما »

بعض الشيء عن الموضوع الوحيد الذى ظل يشغل أفكارها فى نومها وفى يقظتها طوال الأربع والعشرين ساعة التى انقضت . ولم يكن هذا الزائر سوى « مسز وستن » التى كانت قد انتهت من زيارة لمن اختارها ابن زوجها لتكون حليلته ، ورأت وهى فى طريقها الى بيتها أن تمر بهارتفيلد استجابة لواجبها نحو « اما » من جهة ، ولأنها من جهة أخرى وجدت فى ذلك ما يسرها ، ولكى تروى لها جميع تفاصيل تلك المقابلة الهامة .

وكان « مستر وستن » قد صحبها الى بيت « مسز بيتس » وأدى نصيبه من الرعاية الضرورية بمنتهى الرقة ، واستطاعت « مسز وستن » بعد ذلك أن تقنع « مس فيرفاكس » بالخروج معها لتشم الهواء ، ومن ثم فقد عادت الآن وفى جعبتها الكثير لتقوله « لاما » مما جمعته خلال نزهتهما فى الهواء ، مما كان لا يتاح لها ، لو أنها أمضت ربع ساعة فى حجرة استقبال « مسز بيتس » بكل ما كان يعترضها من المشاعر الثقيلة المحرجة .

وأثار ذلك شيئا من غريزة الاستطلاع فى « اما » فاستغلتها الى أقصاها بينا كانت صديقتها تقص عليها أخبارها . لقد خرجت « مسز وستن » لتقوم بزيارة مس « فيرفاكس » وهى تشعر باضطراب كبير داخل نفسها ، وما كانت تود فى بادىء الأمر أن تذهب اطلاقا فى الوقت الحاضر ، بل كانت ترى أن يسمح لها بدلا من ذلك بالكتابة الى « مس فيرفاكس » لا أكثر ، وأن تؤجل زيارة المجاملة حتى يمضى بعض الوقت ويوافق «مستر تشرشل» على اعلان الخطبة — اذ لما كانت تنظر الى الشيء من جميع جوانبه ، فقد رأت أن مثل هذه الزيارة لا يمكن أن تتم دون أن تثير الأقاويل — ولكن « مستر وستن » كان يخالفها فى هذا الرأى ، ويتوق الى اظهار موافقته الكاملة لمس « فيرفاكس » وأسرتها ، ولم يرفى مثل هذه الزيارة ما يثير الظنون ، وحتى اذا كان فيها ما يثير الظنون ، فقد كان يرى مع ذلك أنه

ليس هناك ما يضير فى أدائها . فان مثل هـذه الأشياء على حد قوله : « لابد أن تتداول بين النـاس » ، وابتسمت « اما » وقد شـعرت بأن « مستر وستن » كان محقا فيما قال . وبالاختصار توجها للزيارة معا ، وبلغ ارتباك الفتاة درجة كبيرة حتى عجز لسانها عن الكلام ، ودلت نظراتها وأفعالها على عمق ما كانت تعانيه من المشاعر . لقد كان منظرا يبعث على الرضى ، أن يريا السيدة العجوز وهى راضية القلب هادئة ، بقدر ما غمرت ابنتها الفرحة واشتد بها السرور ، حتى منعها عن الثرثرة كعادتها . ومع ذلك فقد كانتا — الأم والابنة — وقورتين فى سرورهما ، مبرأتين من كل أنانية ، لا تهتمان بنفسهما الا قليلا ، بينا تهتمان « بچين » وبكافة الناس كل الاهتمام حتى أجمعت القلوب على حبهما وشمولهما بكل مشاعر العطف والحنان .

وقد أتاح مرض « مس فيرفاكس » فرصة طيبة « لمسز وستن » كى تدعوها للتريض فى الهواء الطلق ، فلم تقبل فى أول الأمر واعتـذرت ، ولكنها رضخت بعد الحاح . وبينما كانتا تسيران بالعربة ، تغلبت « مسز وستن » بشىء من التشجيع الرقيق على كثير من الحرج الذى كان يضايق « مس فيرفاكس » حتى جذبتها الى الحديث فى الموضوع الهام ، وانطلقت « مس فيرفاكس » تعتذر عما بدا منها من صمت غير كريم فى أول مقابلتهما ، وتعبر بحرارة عما ظلت تشعر به دائما نحوها ونحو « مستر وستن » من الاعتراف بالجميل ، فكان ذلك عذرا لفتح طريق الحديث بينهما فيما هو أهم ، فما كادت تنتهى من التعبير عن المشاعر المتدفقة حتى أخذتا تتحدثان عن الخطبة حالا ومستقبلا ، فقد كانت « مسز وستن » على يقين من أن حديثا كهذا لا بد أن يخفف كثيرا عن رفيقتها التى ظلت تكبت كل شىء فى نفسها فترة طويلة ، وسرها كثيرا ما قالته فى ذلك الموضوع .

وواصلت « مسز وستن » كلامها تقول : ! لقد تحدثت الىّ طويلا وبحرارة عما قاسته من ألوان البؤس من جراء اخفاء نبأ هذه الخطبة كل هذه الشهور الطويلة . واليك تعبيرا من تعبيراتها فى هذا الصدد : « لن أقول انى لم أهنأ فى بعض اللحظات بعد أن بدأت هذه الخطبة ، ولكن يمكننى أن أقول انى لم أتذوق نعمة الهدوء ساعة واحدة ، — وكان فى ارتجاف شفتيها وهما تنطقان بهذه العبارة برهان على ما كانت تشعر به فى قرارة نفسها .

وقالت « اما » : « ما أبأس الفتاة !! اذن فهى ترى أن موافقتها على الخطبة فى جو من السرية كانت خطأ » .

« خطأ !! أعتقد أنه ليس هناك من يقدر على لومها بأكثر مما تجنح اليه هى من لوم نفسها ، لقد قالت :

« وقد ترتب على ذلك أنى أصبحت أعانى حالة مستمرة من الألم ، بل هذا ما يجب أن أتحمله ، ولن يجدى الألم ولا العقاب الذى يحل بالمرء لابتعاده عن الطريق القويم فى التقليل من هذا ، فالألم لا يكفر عن الخطيئة. وأنا لا يمكن أن أكون غير ملومة ، فلقد سلكت طريقا يتجافى مع ما أشعر بأنه الصواب ، بل ان ضميرى ليحدثنى بأن ما أسفر عنه هذا الخطأ من توفيق وعطف سابغ ، ما كان يجب أن يكون ، وواصلت حديثها تقول : « ولا تتصورى يا سيدتى أننى لم تحسن تربيتى ، أو تعودى علىّ باللائمة على المبادىء التى لقننى اياها الأصدقاء الذين تولوا تنشئتى ، ولا على الزعاية التى حبونى بها ، فلقد كان الخطأ كله خطئى : وأؤكد لك أنه مع كل ما قد يبدو من الأعزار فى الظروف الحالية فانى لا زلت أخشى أن يعلم المقدم « كامبيل » بهذه القصة » .

وعادت « اما » تقول : « ما أبأس الفتاة ! أظنها اذن تحبه حبا جارفا ،

ولابد أنها انساقت الى الخطبة بدافع من حبها وحده ، ولابد أن الحب تغلب على العقل فى حالتها » .

« أجل ولست أشك فى أنه ملك عليها فؤادها » .

وعادت « اما » تقول وهى تتنهد : « أخشى أن أكون قد أسهمت فى زيادة تعاستها فى حالات عديدة » .

« ان ما فعلتيه يا حبيبتى انما فعلتيه من ناحيتك ببراءة وحسن نية ، وربما يكون قد دار فى ذهنها شىء من ذلك عندما أشارت الى سوء التفاهم الذى ألمح لنا به « فرانك » من قبل ، فقد قالت هى نفسها ان من النتائج الطبيعية للشر الذى زجت بنفسها فيه ، أن فقدت قدرتها على الفهم المنطقى السليم ، فقد عرضها شعورها بأنها أخطأت ، الى تيار جارف من بلبلة الفكر ، وجعلها سريعة الانفعال الى درجة كان من العسير عليه فعلا أن يتحملها. وهكذا على حد قولها « عجزت عن أن أبدى ما يجب علىّ من التسامح بازاء مزاجه ومشاعره — مشاعره المبتهجة ومرحه وميله الى الدعابة ، تلك المشاعر التى أعتقد أنها كانت فى ظروف أخرى تأسر فؤادى ، كما كانت تأسره فى بداية الأمر » — ثم أخذت تتحدث عنك ، وعما أسبغت عليها من العطف والحنان فى أثناء مرضها ، وأبدت لى رغبتها ، وعلى وجهها حمرة دلت على أن كل هذه الأحداث كانت مرتبطة بعضها ببعض ، فى أن أشكرك اذا ما أتيحت لى الفرصة لأفعل ذلك — ولا يسعنى أن أكيل لك الشكر على كل ما بدا منك من رغبة طيبة ، وكل محاولة لاسداء الخير لها . لقد كانت تشعر بأنها لم توفك حقك من الاعتراف بالجميل بالمرة » .

وقالت « اما » وهى جادة : « ما كنت لأتحمل مثل هذا الشكر لولا أننى أعلم بأنها سعيدة الآن . وهو ما يجب أن تكون عليه ، على الرغم من كل النقائص التى يسببها لها ضميرها الحى — آه يا « مسز وستن » ،

لو أن هناك قائمة تسجل ما قدمت لمس فيرفاكس من خير وشر ! — أجل (وكبحت جماح نفسها وحاولت أن تكون أكثر حيوية) يجب أن ننسى كل هذا الآن ، وانه لكرم عظيم جدا منك أن تأتيني بهذه التفاصيل الهامة ، فهى تظهرها فى أسمى صورة ، وأنا واثقة بأنها طيبة جدا ، وأرجو لها كل سعادة ، وما من شك فى أنه هو السعيد ، فهى فى نظرى قد حوت كل الفضائل » .

وما كانت تلك الخاتمة لتمر على « مسز وستن » دون أن تلقى منها جوابا — فلقد كانت تحسن الظن « بفرانك تشرشل » من كل ناحية من نواحيه ، وهى علاوة على ذلك تحبه من أعماق قلبها ، ومن ثم كان دفاعها عنه يتسم بالجدية . كانت تتكلم الآن كلاما منطقيا لا يضارعه الا حبها له ، على أن انتباه « اما » كان قد شرد فى نواح أخرى ، فسرعان ما انتقل الى ميدان « برنزويك » ، والى « دونول » ، فلم تحاول الاصغاء اليها — فلما ختمت « مسز وستن » كلامها بقولها : « لم يصلنا حتى الآن الخطاب الذى ننتظره بفارغ الصبر ، ولكنى آمل أن يصل سريعا » — وجدت « اما » نفسها مضطرة الى السكوت فترة قبل أن تجيب ، وأخيرا وجدت أنه لا مناص من الاجابة كيفما كان ، قبل أن تتذكر أى خطاب هذا الذى كانوا يتشوقون الى وصوله .

وسألتها « مسز وستن » وهى تهم بالانصراف :

« هل أنت بخير يا « اما » ؟ » .

« أجل ، وعلى أحسن ما يجب أن أكون ، وأنا بخير على الدوام ، وأرجو ألا تنسى اخطارى عن الخطاب بأسرع ما يمكنك » .

لقد أذكت الأخبار التى أتت بها « مسز وستن » ما كان يراود « اما » من أفكار غير سارة ، لأنها رفعت من قدر « مس فيرفاكس » فى نظرها بقدر

ما زادتها اشفاقا عليها ، وأذكت شعورها بأنها لم تكن منصفة لها فيما مضى. وحز فى قلبها أنها لم تبحث من قبل عما يقوى صلتها بها ، واحمر وجهها خجلا لما كانت تشعر به نحوها فى ذلك الوقت من حسد ، كان ولا شك السبب فى ذلك الى حد ما — فلو انها اتبعت ما كانت تعلمه من رغبات « مستر نيتلى » وأولت « مس فيرفاكس » الرعاية التى هى جديرة بها من كل الوجوه ، لو أنها حاولت أن تكون أحسن فهما لها ، أو لو أنها قامت بما من شأنه أن يوثق الألفة بينها وبينها ، أو حاولت أن تجعل منها صديقة بدلا من « هاريت سمث » ، فمن المرجح أنها كانت توفر على نفسها الألم الذى يلاحقها الآن ، فلقد كان لاحداهما من حيث المنبت والقدرة والتعليم ما يؤهلها لأن تكون رفيقة لها وأن تلقاها وهى شاكرة ممتنة ، أما الأخرى فما عساها أن تكون ؟ وحتى على فرض أنهما لم تصبحا صديقتين حميمتين، وأن « مس فيرفاكس » لم تجعلها موضع ثقتها ومستودع سرها فى هــذه المسألة الهامة — وهو أكثر الأشياء احتمالا — فان تعرفها اليها كما يجب ، وكما كان فى مكنتها ، كان لابد أن يعصمها من الظنــون الكريهة التى راودتها عن وجود علاقة غير مستحبة بينها وبين « مستر دكسون » وهى ظنون لم تتصورها وتحتضنها عن جهالة فحسب ، ولكنها نقلتها الى غيرها من الناس بما لا يمكن أن يغتفر لها . وارتعدت « اما » لما يمكن أن يكون قد نال من مشاعر « جين » الرقيقة بسبب ذلك ، وما يتسم به « فرانك تشرشل » من نزق وخفة . واسترسلت « أما » فى تفكيرها حتى أصبحت تؤمن بأنها أسوأ مصادر الشر التى أحاطت « بجين فيرفاكس » منذ أن جاءت الى « هايبرى » قاطبة ، وأنها لابد كانت العدو الدائم لها ، وأنه ما اجتمع ثلاثتهم يوما ، الا وكانت « اما » تعكر على « جين فيرفاكس » صفوها فى أكثر من ألف مناسبة ، وأن الكيل طفح بسلوكها نحوها فى يوم « بكس هل » .

وطالت أمسية ذلك اليوم وخيمت عليها الكآبة فى « هارتفيلد » ، وزادت حالة الطقس ما أمكنها من تلك الكآبة . فهطلت الأمطار فى جـو عاصف بارد ، ولم يبد من مظاهر شهر يوليو الا ما كان يتوج الأشـجار والشجيرات من ثمار وأزهار عبثت الرياح به ، وعملت على اغتصابه منها ، والا ما كان من طول النهار ، مما جعل رؤية مثل هذه المناظر القاسية أكثر وضـوحا .

وكان للطقس أثره على « مستر وودهاوس » ، ولم يحفظ عليـه هدوءه وسكينته الا عناية ابنتـه به ، التى تكاد لا تتوقف ، وما كانت تبذله من أجله من جهد لم تكابد نصفه من قبل ، وقد دفعها ذلك الى أن تذكر أول مرة كانا فيها على انفراد فى مساء ذلك اليوم الذى تزوجت فيه « مسز وستن » ، حين دخل عليهما « مستر بنتلى » عقب تناول الشاى مباشرة فبدد ما كان يخيم على جوهما من كآبة . واستبد بها تفكيرها الآن فى كل اتجاه . واحسرتاه !! ان مثل هذه البراهين البهيجة التى تدل على ما فى « هارتفيلد » من جاذبية وكانت تجعلها محط مثل هذه الزيارات قد تصبح قريبا أثرا بعد عين . لقد كانت الصورة التى رسمتها فى تلك الليلة البعيدة عن الحرمان الذى سوف يأتى به اليهم الشتاء المقترب صـورة لا أساس لها وسرعان ما ظهـر خطؤها ، فلا الأصـدقاء تخلوا عنهم ، ولا المسرات كانت تنقصهم . أما الآن فقد كان أخشى ما تخشاه ألا تؤدى تكهناتها بالمستقبل الى مثل هذه النتيجة العكسية ، فقد كان المستقبل الذى يواجهها الآن مليئا بالنذر ، الى درجة لا يمكنها أن تطرحها وراء ظهرها ، بل قد لا تحمل فى طياتها بارقة أمل واحدة . فلو أن ما يحتمل حدوثه فى محيط الأصدقاء حدث بالفعل ، فان هارتفيلد لابد أن تصبح مكانا منسيا نسبيا ، وأن تترك « اما » لتروح عن أبيها بمشاعر لا تعدو أن تكون قائمة على أنقاض سعادة محطمة .

وان الطفل الذى سوف يولد فى « راندولز » لآبد أن يكون رابطة أعز وأقوى عندهم ، حتى منها هى نفسها ، ولسوف يستحوذ على قلب « مسز وستن » ويشغل كل وقتها ، ولابد أن يحرموا منها فى النهاية ، ومن زوجها كذلك . وكذلك « فرانك تشرشل » ، فهو لن يكون بينهم بعد الآن ، ومن المنطق ألا تعـود « مس فيرفاكس » الى « هايبرى » سريعا فلسوف يتزوجان ويستقران فى « أنسكومب » أو على مقربة منها . وهكذا سوف تحرم « هايبرى » من كل ما هو حسن فيها ، فاذا أضيف الى هذه الخسائر ضياع « أبرشية دونول » فمن ذا الذى يبقى بعد ذلك من ذوى الوجوه المشرقة أو العقول الراجحة فى مجموعتهم ؟ ان « مستر نيتلى » لن يأتى بعد ذلك لينعم بالراحة عندهم فى أمسياته ! ولن يدخل بيتهم فى أية ساعة من ساعات النهار ، كأنما يود لو استبدل بيته ببيتهم ! كيف يمكن تحمل هذا ؟ فاذا هم حرموا الآن منه من أجل «هاريت» ، أو اعتقدوا أنه وجد فى صحبة « هاريت » كل ما يبتغيه ، أو اذا كانت « هاريت » زوجته المختارة ، السيدة الأولى والصـديقة العزيزة والزوجـة المحبوبة التى يرى فيها كل ما فى الوجود من النعم ، فأى شىء يمكن أن يزيد من تعاسة « اما » سوى ما يراود فكرها ولا يبارحه اطلاقا بأن كل هذا كان من غرس يديها ؟

وعندما وصل بها تفكيرها الى مثل هذه الدرجة ، لم تتمالك نفسها من أن تفزع وتتنهد بقوة ، أو أن تتجول بضع ثوان فى الحجرة . ولم يعد أمامها من ينبوع تلتمس منه شيئا من السلوى أو الصـبر على بلواها الا تصميمها على أن تحسن من سلوكها ، وأملها فى أنه مهما كان الأمر فى الشتاء القادم وفى كل شتاء يأتى بعده ، من نقص فى المسرات ، وشعور بالضجر ، فانها ستكون مع هذا أكثر تعقلا وأكثر معرفة بنفسها وأقل أسفا عليه اذا انقضى .

الفصل التاسع والأربعون

استمر الطقس على حاله طوال الصباح التالى ، وظل نفس الشعور بالوحدة والكآبة يخيم على « هارتفيلد » — ولكن الجو صفا وقت الأصيل ، وخفت شدة الرياح ، وانقشعت السحب فظهرت الشمس ، وعاد الطقس طقس صيف مرة أخرى . وكان من أثر ذلك التبدل من جو الى جو ، أن زادت الرغبة فى نفس « اما » فى الخروج ، وعزمت على أن تبارح البيت بأسرع ما يمكنها . ولم يبد المنظر الخلاب ، ولا النسيم العاطر ، ولا الاحساس بجمال الطبيعة وما فيها من هدوء ودفء وتألق ، مما يأتى عادة فى أعقاب العاصفة ، أكثر جاذبية لها فى أى وقت مضى . وتاقت نفسها الى ما قد يهيئه لها كل ذلك من السكينة شيئا فشيئا . وما كاد « مستر پرى » يدخل عليهم عقب تناول العشاء مباشرة ، ويعقبها من ساعة تلازم فيها أباها ، حتى أسرعت الى خميلة شجيرات التوت . هناك أخذت تتجول تارة ذات اليمين وتارة ذات الشمال ، وقد انتعشت روحها وتحللت بعض الشىء من وطأة أفكارها ، واذا بها تبصر « مستر نيتلى » يجتاز باب الحديقة ، ويتجه نحوها . كان هذا أول علمها بعودته من لندن . لقد كانت تفكر فيه قبل ذلك بلحظة واحدة ، وتراه بعيدا عنها بستة عشر ميلا ، ومن ثم لم يكن أمامها من الوقت الآن الا ما يتسع للاسراع بجمع شتات أفكارها ، اذ كان عليها أن تهدىء من روعها وأن تضبط أعصابها . ثم ما هى الا نصف دقيقة حتى كانا معا . فلما انتهيا من تبادل عبارات التحية التقليدية ، وكانت تحية مقتضبة من الطرفين ، سألته عن أصدقائها

المشتركين — انهم جميعا بخير — ومتى تركهم ؟ فى هذا الصباح فقط — لابد أن الأمطار كانت تهطل خلال سفره — ، نعم — .

وأدركت « اما » أنه يقصد السير معها .

وتطلع الى داخل حجرة الطعام ، فلما وجد ألا حاجة اليه هناك فضل أن يخرج . ولفت نظرها أنه لم يكن فى مظهره ولا فى حديثه منشرح الصدر ، وأوحت اليها مخاوفها أن أول ما يكون من أسباب ذلك انه ربما قد أخبر أخاه بخطته التى يعتزمها ، وأن الطريقة التى قوبلت بها تلك الخطة آلمته .

وسارا معا وهو يلتزم الصمت ، ولاحظت أنه كان فى معظم الوقت ينظر اليها محاولا أن يرى من وجهها أكثر مما كانت تريد أن يرى منه . وقد نجم عن اعتقادها هذا خوف آخر . فلعله كان يريد أن يتحدث اليها عن علاقته « بهاريت » ، بل لعله كان يترقب منها تشجيعا ليبدأ الحديث فى ذلك ، ولكنها لم تر فى نفسها الرغبة ولا القدرة على أن تمهد للحديث فى موضوع كهذا . فاذا كان يريد أن يبدأ الحديث فيه ، فعليه أن يفعل كل هذا بنفسه . على أنها لم تقو على تحمل هذا الصمت طويلا . فلقد كان الصمت بينهما أبعد ما يكون عما جبلا عليه — وقلبت الأمر على وجوهه ، واستقر رأيها أخيرا ، ثم بدأت تقول وهى تحاول أن تبتسم :

« الآن وقد عدت ، فأن لدى من أخبارك ما سوف يدهشك » .

فقال فى هدوء وهو ينظر اليها :

« أحقا ما تقولين ؟ ومن أى نوع هذه الأخبار يا ترى ؟ » .

« أحسن الأنواع فى الدنيا ، انها أخبار عن زواج » .

وبعد أن انتظر لحظة ، وكأنما أراد أن يتأكد بأنها قصدت ألا تقول أكثر من هذا ، أجاب :

« ان كنت تقصدين بذلك « مس فيرفاكس » و « فرانك تشرشل » فقد سمعت بهذا الخبر الآن » .

وصاحت « اما » تقول :

« كيف يكون هذا ممكنا ؟ » . قالت هذا وقد أدارت خديها المشرقين نحوه ، فقد خطر لها وهى تتكلم أنه ربما زار « مسز جدرد » وهو فى طريقه الى هنا .

« لقد وصلتنى من « مستر وستن » فى هذا الصباح رسالة مختصرة تتعلق بمهام الرهبانية ، وقد سطر فى نهايتها خبرا موجزا عما حدث .

وزال عن « اما » ما كان يثقل كاهلها ، وأمكنها أن تقول فى الحال وقد زادت طمأنينتها قليلا :

« لعلك كنت أقل دهشة من أى واحـد فينا ، لأن الظنـون كانت تساورك . اننى لم أنس أنك حاولت مرة أن تحذرنى وكان بودى لو أننى أخذت بتحذيرك (ثم بصوت خافت وتنهد مكتوم) :

« ولكن يبدو أنه قد قدر على أن أعيش دائما فى الظلام » .

وساد السكوت برهة ، ولم تخالجها الظنون بأنها قد أثارت بذلك اهتمامه بشىء خاص ، حتى وجدته يتأبط ذراعها ويضمه الى مكان قلبه ، وسمعته وهو يقول فى صوت خافت ونغمة تفيض شعورا :

« ان الوقت يا عزيزتى « اما » سوف يدمل الجرح ، وأنت ذات العقل الراجح والفكر الثاقب ، أنت التى تبذلين كل هذا الجهد من أجل والدك ، اننى أعلم بأنك لن تنساقى بنفسك الى .. » ، ثم ضغط على ذراعها ثانية وهو يقول فى كلمات أكثر تباعدا ، وأخف صوتا : « الى الشعور بالصداقة الجارفة ، ولا الى المهانة وجرح الكرامة ، والوعود البغيضة المبتذلة ! » ثم ختم كلامه وهو يقول فى صوت أعلى وأكثر انطلاقا : « انه سيرحل من

هنا قريبا ، وسوف يكونان فى « يوركشير » بعد قليل ، والحق انى لحزين من أجلها ، فهى جديرة بمصير أفضل » .

وأدركت « اما » ما يعنيه ، وما كادت تفيق من غمرة السرور التى بعثها هذا التفكير الرقيق فى نفسها حتى أجابت :

« انك شديد الحدب والعطف ، ولكنك قد أخطأت ، ولا بد أن أردك الى الصواب . فأنا لست فى حاجة الى مثل هذا الاشفاق ، وغفلتى عما كان يحدث جعلتنى أتنهج معها طريقا لابد أن أظل أخجل منه دائما ، فقد انسقت بحماقة بالغة الى أن أقول وأفعل الكثير مما قد يجعلنى ولا شك هدفا للظنون البغيضة ، ولكن ليس هناك من أسباب أخرى تجعلنى آسف على أننى لم أقف على السر فى وقت أكثر بكورا » .

فصاح وهو ينظر اليها فى تلهف : « أحقـا أنك تخجلين مما فعلت يا « اما » ؟ — ولكنه تدارك نفسه وقال على الفور : « لا ، لا ، لقـد فهمتك — سامحينى ، وأنا سعيد لقدرتك على أن تبوحى حتى بمثل هذا القدر ، وهو ولا شك ليس ممن يؤسف عليه ! وانى لآمل أنه لن يمضى وقت طويل قبل أن يجد هذا القول تأييدا من عقلك وجوارحك ، وانه لمن حسن حظك أنك لم تتورطى فى حبك الى ما هو أبعد من ذلك ، وأنا أعترف بأنه ما كان يمكننى أن أتأكد من تصرفاتك ومن مدى شعورك نحوه ، فلم أكن موقنا من شىء سوى أنك كنت تفضلينه على غيره ، وهو تفضيل لم أعتقد أبدا أنه جدير به ، فانه لمن العار أن ينسب هذا الفتى للرجال ، وغير معقول أن يجزى على ذلك بمثل هذه الشابة الجميلة ؟ « چين » ، انك ستكونين مخلوقة تعسة يا « چين » .

وقالت « اما » وهى تحاول أن تبدو مبتهجة ، بينما كانت فى الحقيقة فى حالة من الحيرة والارتباك : « انى يا « مستر نيتلى » فى الحقيقة فى

موقف شاذ للغاية ، ولا أستطيع أن أدعك تسترسل فى خطئك ، ولكن ما دمت قد فهمت من سلوكى أنى أحبه ، فان من الطبيعى أن أخجل من اعترافى بأنى ما أحببت أبدا ذلك الشخص الذى تتحدث عنه بقدر ما هو من الطبيعى أن تخجل السيدة اذا اعترفت بشعور على عكس ذلك — ولكننى ما أحببته أبدا » .

وأصغى اليها فى سكون تام ، وودت لو تكلم ، ولكنه لزم الصمت ، وظنت بأن عليها ألا تكون ضنينة بالكلام حتى تكون خليقة بأن تنال منه الصفح . لقد كان من العسير عليها أن تجد نفسها لا زالت مضطرة الى التصغير من شأنها فى نظره — ورغم هذا واصلت حديثها تقول :

« ليس لى ما أقوله من سلوكى الا القليل ، فلقد كان فى اهتمامه بى ما أغرانى وجعلنى أرخى العنان لنفسى كى أبدو سعيدة . انها القصة القديمة ، القصة المألوفة ، وهى لا تخرج عما حدث لمئات من بنات جنسى من قبل . ومع ذلك فقد لا يكون هذا خليقا بالغفران اذا صدر ممن تدعى الفهم مثلى . لقد تدخلت ظروف عديدة فساعدت على الاغراء ، فهو ابن « مستر وستن » ، وكان يأتى هنا باستمرار ، وكنت أجده على الدوام ظريفا للغاية وبالاختصار — » (ثم استطردت وهى تتنهد) : « ان فى امكانى أن أتوسع فى الأسباب ، وأن أغالى فيها ببراعة ، ولكنها تتركز جميعها فى نهاية الأمر فى أننى كنت أريد أن أشبع غرورى ، فسمحت له بالاهتمام بى ، ومع هذا لبثت بعض الوقت فى الأيام الأخيرة وأنا لا أجد لتلك الرعاية أى معنى ، وظننتها شيئا على سبيل العادة ، أو الخداع ، وأنه ليس فيها ما يدعونى لأن أفكر فيها جديا . انه خدعنى ، ولكنه لم ينلنى بأذى ، اننى لم أتعلق به يوما ، ولذلك فقد أصبحت الآن قادرة على فهم سلوكه ، انه لم يرد أبدا أن يوقعنى فى حبائله ، وان ما فعله لم يرد منه

الا أن يكون ستارا يخفى وراءه علاقته بسيدة أخرى . لقد كان هدفه أن يعمى كل من حوله . وأعتقد أنه ما من أحد كان يسهل أن تجوز عليه الحيلة أكثر منى ، غير أن كل شيء كان مكشوفا لى ، وهذا من حسن حظى ، وبالاختصار فأنى لسبب ما قد نجوت منه » .

وكانت تأمل عند هذه النقطة أن تحظى منه برد على ما قالته ، وأن يقول بضع كلمات يعبر بها عن اقتناعه بأن سلوكها كان على الأقل معقولا ، ولكنه لاذ بالصمت ، ورأت على قدر ما وصل اليه ذهنها أنه كان غارقا فى بحر من الأفكار ، وأخيرا قال بنبرات صوته العادية :

« انى لم أحسن الظن « بفرانك تشرشل » أبدا ، بل ولعلنى أكون قد قللت من قدره ، فان معرفتى به لا تعدو أن تكون بسيطة جدا ، وحتى اذا كنت لم أقلل من قدره فقد يبرهن على أنه غير ما ظننت ، فالمجال أمامه متسع لذلك وهو مع سيدة كهذه ، وليس هناك ما يدفعنى الى أن أرجو له سوءا ، بل أنا ولا شك أرجو له الخير من أجلها ، لأنى أجد سعادتها مقرونة بحسن سلوكه ودماثة خلقه » .

وردت « أما » : « لا شك عندى بأنهما يشعران بالسعادة معا وأعتقد بأنهما يخلصان لبعضهما ، وأن بينهما حبا متبادلا » .

ونشط « مستر نيتلى » يقول : « انه رجل سعيد الحظ !! انه يخطب وهو فى مقتبل العمر ، فى الثالثة والعشرين ، فترة العمر التى اذا اختار الرجل فيها زوجته أساء الاختيار عادة ما أعجب أن يجزى بمثلها وهو فى الثالثة والعشرين من عمره !! وما أكثر الأيام التى سيقضيها فى حياته منعما!! واثقا من حب سيدة مثلها !! حب منزه عن الأغراض . فان أخلاق « چين فيرفاكس » كفيلة بأن تثبت تنزهها عن الغرض وبعدها عن الأنانية . لقد كان له الغنم من كل جانب : هناك المساواة فى المكانة — أعنى فى الوسط

وفى العادات والتصرفات التى لها أهميتها . انها مساواة فى كل ناحية عدا ناحية واحدة ، وما دام لا يتطرق الشك فى طهارة قلبها ونقاء سريرتها ، فأن تلك الناحية التى لابد أنها ستزيد من سعادته هى التى عليه أن يمدها بها ليكمل ما ينقصها من المزايا — فالرجل يود دائما أن يهىء للسيدة بيتا أفضل من البيت الذى أخـذها منه ، فمن اسـتطاع ذلك ، وهو عارف بقدرها ، لابد فى رأيى أن يكون أسـعد المخلوقات طرا . ان « فرانك تشرشل » ولا شك ميمون الطالع ، وكل شىء ينقلب الى ما فيه مصلحته ، يقابل شابة فى احدى مدن الينابيع المائية فيكسب ودها ، ثم لا يجد فى نفسه القدرة حتى على مضايقتها بالمعاملة الجافة ، ولو أنه كان طاف أطراف المعمورة ، هو وكل أسرته بحثا عن الزوجة الكاملة لما عثروا على واحدة تفوقها — وتقف زوجـة خاله فى طريقـه ، ولكنها لا تلبث أن تموت ، ولا يبقى عليه الا أن يتكلم ، ثم ها هم أصدقاؤه جميعا يودون أن يعملوا كل ما فيه سعادته . لقد أساء الى الناس جميعا ، ولكن الكل يسعدهم أن يصفحوا عنه ، لا شك أنه رجل سعيد الحظ » .

« انك تتكلم وكأنك تحسده » .

« بل أنا أحسده يا « اما » أحسده من ناحية واحدة » .

ولم تقو « اما » على أن تقول أكثر مما قالت ، فقد بدا قاب قوسين أو أدنى من الحديث عن « هاريت » ، وشعرت فى الحال بضرورة تحاشى الحديث فى ذلك الموضوع ما أمكنها . ورسمت الخطة التى تسير عليها . انها ستتكلم فى شىء يختلف عن هذا كل الاختلاف ، انها ستتحدث عن الأطفال فى « ميدان برنزويك » ، وانتظرت لكى تستعيد أنفاسها وتعود الى الحديث معه مرة أخرى ، فاذا « بمستر نيتلى » يبدأها بقوله :

« انك لم تسأليننى عما أحسده عليه ؟ — وعزمت على ألا تستطلع

الأخبار ، وأراك مصممة على ألا يبدر منك ما ينبيء بشيء من حب الاستطلاع . انك عاقلة ، أما أنا فليس بوسعي أن أكون عاقلا ، واذن فلا بد من أن أذكر ما لم تسأليني عنه يا « اما » ، رغم أني بعد لحظة قد أود ألا أكون قلته » .

وصاحت تقول في لهفة : « أوه ! اذن لا تنطق به ، لا تنطق به ، تمهل قليلا وفكر مليا ! لا تورط نفسك » .

فقال بصوت ينم عن ألم ممض : « أشكرك » .

ولم يزد شيئا .

ولم تحتمل « اما » أن تكون سببا في ايلامه . لقد كان يريد أن يستودعها سره ، ولعله أراد أن يستشيرها فقررت أن تستمع اليه مهما كلفها ذلك ، فقد تعاونه فيما اعتزمه ، أو قد تجعله يرضى بما اتخذه من قرار ، وقد تمتدح « هاريت » بما هي أهل له ، أو تؤكد أنه حر التصرف فتزيح عن كاهله عبء الشعور بالتردد وعدم البث ، وهو لابد أن يكون أشق عليه مما يحتمله عقل كعقله .

ووصلا الى البيت فقال :

« أظن أنك ستدخلين الآن » .

وأجابته وقد تأكدت بأنه ما زال يتكلم وهو مهموم :

« لا ، بل أحب أن أقوم بجولة أخرى ، فان « مستر پری » لم يخرج بعد » — ثم أردفت بعد أن خطت بضع خطوات :

« لقد كنت فظة الآن فمنعتك عن الكلام يا « مستر نيتلي » ، وأخشى أن أكون آلمتك ، ولكن لو كانت لك أية رغبة في أن تحدثني بصراحة كصديق ، أو أن تسألني عن رأيي في شيء تفكر فيه ، فمن حقك علي أن تأمرني بهذا كصديق ، وسوف أستمع الى كل ما تود أن تقوله ، وسوف أخبرك تماما بما أراه » .

وردد « مستر نيتلى » كلمتها « كصديق » ! ثم استطرد يقول :

« انها يا « اما » كلمة أخشى — لا !! لست أريد أن أقول شيئا . ولكن مهلا ! ولماذا أتردد ؟ لقد أفرطت حتى الآن فى التكتم . اننى أقبل ما عرضتيه يا « اما » ، أقبله على الرغم مما قد يبدو فيه من غرابة . ها أنا ذا ألجأ اليك كصديق ، فقولى لى اذن ، أليست لى فرصة للنجاح بالمرة ؟

وتوقف وهو ينتظر فى قلق وقع السؤال عليها ، وكان فى نظراته من المعانى ما غلبها ثم قال :

« اما » يا أعز عزيز ، انك ستكونين أعز الناس عندى دائما ، مهما كانت نتيجة حديثنا هذه الساعة ، يا أعز أعزائى وأحب الناس الى قلبى يا « اما » ، قولى لى نورا ، قولى « لا » اذا كان لابد أن تقوليها » .

« أراك صامتة ، انك فى صمت مطبق !! انى لا أطلب أكثر من هذا فى هذه اللحظة » .

وكادت تخور قواها بسبب ما لحقها من اضطراب فى تلك اللحظة ، ولعل أبرز مشاعرها كان الخوف من أن تستيقظ من أحلى أحلامها .

وعاد يقول فى الحال بنبرات صوت يفيض رقة وحزما واخلاصا وتوكيدا : « انى لا أملك عنان الكلام يا « اما » ، ولو أن حبى لك كان أقل ، لكنت قادرا على أن أكون أكثر حديثا عن الحب ، ولكنك تعلمين ما أحسه . انى لم أعتد أن أقول لك غير الحقيقة ، ولقد عدت عليك باللوم أحيانا وأغلظت لك القول ، فتحملت ذلك منى بما لا قبل لسيدة أخرى فى انجلترا أن تحتمله . فهلا تحملت الآن يا « امتى » يا أعز الأعزاء ما سوف أقوله لك من الحقائق بمثل ما تحملت اللوم وقارس الكلام من قبل . ولعلى لم أكن موفقا فى طريقة تعبيرى عن حبى . علم الله لقد كنت أبدو غير مكترث فى حبى ، ولكنك تفهميننى حقا . أجل انك تعرفين مشاعرى

وسوف تستجيبين لها ان أمكنك ، وأنا لا أطلب الآن سوى أن أسمع صوتك مرة أخرى » .

وكان عقل « اما » ، وهو يتحدث ، غارقا فى لجّة من التفكير ، ولكنه مع ذلك استطاع بكل ما أوتى من سرعة ألا تغيب عنه كلمة واحدة ، وأن يفهم حقيقة كل شىء ، وأن يستوعب ويتبين أن كل آمال « هاريت » لم يكن لها أساس مطلقا ، وأنها كانت خطأ وأوهاما ، كأى شىء خدعت به هى نفسها ، وأن « هاريت » لم تكن له شيئا يذكر ، وأنها هى كل شىء عنده ، وأن كل ما كانت تقوله عن « هاريت » ، انما كان اللغة التى ترجمت بها عن مشاعرها ، وأن ما انتابها من اضطراب ، وما ساورها من ظنون ، وما هد من عزيمتها وثبط من همتها ، انما كان من غرس يديها ومنبعثا منها هى نفسها . ولم يتسع الوقت أمامها لتستعرض كل هذه الأفكار ، مع كل ما كانت تشعه فى نفسها من سعادة ، بل وجدت من الوقت كذلك ما تغتبط فيه لأن سر « هاريت » لم يفتها ، وما يجوز أن يفوتها ، ولن يفوتها ، فقد كان هذا كل ما يمكن أن تؤديه لصديقتها المسكينة من خدمة فلم يكن لدى « اما » من حماس العاطفة ما يحفزها للتوسل اليه أن يتخلى عن حبها ، وأن يحب « هاريت » بدلا منها لأنها أحق منها — ولا من علو الهمة ما يدفعها الى رفضه فى الحال ، والى الأبد ، دون أن تبدى سببا لذلك ، أو دافعا ســوى أنه لا يمكنه أن يتزوج الاثنتين معا . لقد كانت تحس بالوجيعة والندم من أجل « هاريت » ، لكنها لم تفكر بعاطفة جامحة غاشمة تجعلها تعارض الممكن أو المعقول . بل أضلّت صديقتها الطريق السوى ، وفى هذا ما ستظل تلوم نفسها عليه دائما ، ولكن رأيها كان كمشاعرها ، قويا ، وكان فى قوته الآن كما كان قبلا ، لا يقر مثل هذه الزيجة له ، لما تنطوى عليه من عدم التكافؤ ، والحط من منزلته . لقد كان الطريق

أمامها واضحا ، وان لم يكن ممهدا كل التمهيد ، لقد تكلمت الآن عندما توسل اليها أن تتكلم . فماذا قالت يا ترى ؟ قالت بالطبع ما يقال ، وما تفعله النساء دائما ، وقالت ما فيه الكفاية لتبين له أنه ليس هناك ما يدعو لليأس ، ولتستدرجه كي يفصح عما هو أكثر . لقد كان يائسا فى وقت ما وقد رأى ما يوحى بالسكوت والحذر ، حتى ضاع كل أمل عنده فترة ما — لقد بدأت برفض الاستماع اليه ، ثم جاء التحوّل فكان مفاجأة الى حد ما ، وقد يكون فى اقتراحها القيام بجولة أخرى الآن ، وفى تجديدها لأطراف الحديث الذى كانت قد أنهته منذ قليل ، بعض الغرابة ! لقد شعرت بما فى ذلك من تضارب ، ولكن « مستر نيتلى » كان كريما فتغاضى عنه ولم يبحث عن تفسير له .

وانه لمن النادر ، بل النادر جدا أن يتحرى الانسان قول الصدق كاملا فيما يقوله ، كما أن من النادر حدوث شىء لا يخلو من بعض الخطأ أو التخفى ، ولكنه قد يكون شيئا تافها لا يذكر ، كما هو الشأن فى هذه الحالة بالذات ، حيث كانت المشاعر صادقة ، وان لم يكن السلوك فيها سليما ، واذن ما كان « مستر نيتلى » ليستطيع أن ينسب الى « اما » أنها أصبحت أرق قلبا عما كانت ، أو أنها صارت أكثر قبولا لما يبديه من المشاعر . لقد كان فى الواقع لا يرتاب اطلاقا فيما له من تأثير ، بل هو لم يفكر حين تبعها الى الخميلة فى محاولة التأثير عليها ، بل حضر وهو قلق ليرى كيف كان وقع خطبة « فرانك تشرشل » عليها ، دون أن يكون له غرض خاص ، أو حتى غرض على الاطلاق ، سوى أن يحاول ، اذا أذنت له بأن يبدأ الحديث ، تهدئتها أو اسداء النصح اليها فى تلك المسألة . أما الباقى فكان وليد ساعته ، كان الأثر المباشر الذى أحدثه ما سمعه منها ، على مشاعره ، نعم فلقد كان من أثر توكيدها السار بأنها لا تكترث اطلاقا

« بفرانك تشرشل » ، وبأنه لا يحتل أى مكان فى قلبها ، ما أمده بالأمل فى أنه هو نفسه قد يظفر بودها مع الزمن — ولكن أمله مع ذلك لم يكن يسمو الى محاولة الظفر بودها فى تلك اللحظة ، فقد كان كل ما يأمله فى لحظة تغلّب فيها شوقه على سلامة حكمه ، أن تقول له انها لا تحظر عليه أن يحاول كسب ودها . وكان فى تفتح الآمال الواسعة أمامه رويدا رويدا ، ما جعلها أكثر سحرا ، وغدا الآن وفى متناول يده ذلك الحب الذى كان لا يرجو من قبل أكثر من أن يسمح له بخلقه ان أمكنه ، فتحوّل فى غضون نصف ساعة من حالة الوجوم والهم ، الى ما يشبه السعادة الكاملة ، فليس هناك وصف غير هذا يمكن أن يوصف به شعوره فى تلك اللحظة .

ولم تكن هى أقل منه تغيرا ، فلقد أكد نصف الساعة الذى انقضى ، الحقيقة ، الحقيقة الغالية وهى أن كلاهما يحب الآخر ، وأزال عنهما بقدر متساو الشعور بالجهل والغيرة وعدم الثقة . فلقد بدأ حبه « لاما » وبدأت غيرته من « فرانك تشرشل » فى نفس الوقت تقريبا ، وربما كان فى احدى العاطفتين ما جعله يتعرف على الأخرى ، فقد كانت الغيرة من « فرانك تشرشل » التى استولت عليه ، هى التى أبعدته عن القرية ، وكان اجتماع « بكس هل » السبب المباشر الذى دفعه الى اتخاذ هذا القرار ليكون فى مأمن من أن يشاهد مرة أخرى مثل تلك الرعاية التى سمحت لفرانك بأن يديها نحوها وشجعته عليها .

لقد ذهب من القرية ليتعلم عدم الاكتراث ، ولكنه أخطأ فى انتقاء المكان ، فلقد ألفى السعادة المنزلية ترفرف على بيت أخيه ، وبدت المرأة فيه على أبهى ما تكون . لقد كانت « ايزابلا » تشبه « اما » كثيرا ولا تفترق عنها الا بقدر ما كانت تقل عنها فيما كان يلفت نظره ، مما كان يجعل « اما » تبدو له متألقة دائما . وقد مكث هناك اليوم تلو اليوم الى أن حمل اليه

يريد ذلك الصباح قصة « چين فيرفاكس » ، فلم يقو على المكث أكثر من ذلك . ففى غمرة الفرحة التى لابد أن يكون قد شعر بها ، بل الفرحة التى لم يتردد فى الاعتراف باحساسه بها ، وجد نفسه وقد استبد به الاهتمام « باما » والقلق عليها — فهو لم يعتقد أبداً بأن « فرانك تشرشل » يستحق « اما » — لقد ركب عربته ، وجعل يشق طريقه الى بيته وسط الأمطار ، ثم سار مباشرة عقب تناول طعام العشاء ، ليرى كيف كان وقع هـذا الاكتشاف على أحلى وأحسن المخلوقات جميعا ، تلك التى لا عيب فيها رغم كل أخطائها .

لقد وجدها مضطربة ومهمومة . حقا لقد كان « فرانك تشرشل » وغدا ، وسمعها وهى تعلن بأنها لم تحبه أبدا . لقد أصبحت « اما » له ، وتعاهدا على ذلك ، قبل أن يدخلا الى البيت ، ولو أنه كان فكّر وقتها فى « فرانك تشرشل » فلربما بدا له من أفاضل الناس .

الفصل الخمسون

ما أبعد المشاعر التى عادت بها « اما » الى بيتها ، عن تلك التى خرجت بها منه !! انها لم تكن تطمع حين خرجت الا فى مسكن وقتى لما كانت تعانيه من آلام نفسية ، فاذا بها تعود وهى فى نشوة من السرور ، وأى سرور ، سرور كانت تؤمن بأنه لابد أن يزداد ويقوى حين يزول عنها أثر هـذه الانتفاضة السارة .

وجلسوا لتناول الشاى ، والتفت نفس الجماعة حول نفس المائدة — وما أكثر المرات التى وقعت فيها أنظارها على نفس الشجيرات التى تقوم فوق المروج ، وما أكثر ما لاحظت نفس الجمال الذى تضفيه شمس الغروب عليها !! ولكنها لم تشعر فى يوم من الأيام بمثل ما كانت تشعر به الآن من نشوة وحياة حتى عز عليها أن تجمع ما يكفى من حيويتها العادية لتكون سيدة البيت المهيمنة عليه ، ولا حتى ما يكفى لتكون الابنة المعنية بأبيها ، الا بشق الأنفس . أما « مستر وودهاوس » المسكين فلم يساوره أقل شك فيما كان يعتمل ساعتها من تآمر فى صدر ذلك الرجل الذى كان يرحب به الآن من قرارة نفسه ، وكان قلقا عليه ، يرجو ألا يكون قد أصيب بالبرد فى سفره . على حين أنه لو أتيح له أن يطلع على ما فى قلبه فى تلك اللحظة ، لما عنى بما عليه رثتاه . أما وقد بعد خياله عن توقع أى شر ، وعجز عن أن يستشف شيئا غير عادى فى نظراتهما أو سلوكهما ، فقد أخذ يعيد على سمعهما وهو مبتهج كل الأنباء التى كان قد سمعها من « مستر پرى » ، وصار يتحدث وهو أعظم ما يكون صفاء ، لا يساوره أدنى شك فيما كان فى قدرتهما أن يقولاه له بدورهما .

وظلت « اما » في حمى متقدة من المشاعر طالما كان « مستر نيتلى » معهما ، ولكنه عندما خرج ، أخذت تهدأ قليلا ، وتخف حرارتها — ورأت في هذه الليلة التي ذهب فيها الكرى عن جفونها ، وهي الضريبة التي كان عليها أن تدفعها في مقابل أحداث الأمسية ، أن هناك نقطة أو نقطتين جديرتين بأن تكونا موضع اعتبارها ، مما جعلها تشعر بأن حتى سعادتها لا تخلو من المكدرات : والدها و « هاريت » . فما كادت تخلو الى نفسها حتى شعرت بوطأة ما لكل منهما عليها من حقوق ، فقد كان أهم ما يشغل بالهـا ، هو كيف تستطيع أن توفر أقصى ما يكون من الراحـة لكليهما — ووجدت في الحال حلا لمشكلة أبيها . ولم يكن قد تسنى لها أن تعرف حتى الآن ماذا عسى أن يطلب « مستر نيتلى » ، ولكنها رجعت الى قلبها تناجيه ، فهداها الى قرار حاسم لا تحيد عنه وهو أنها لن تفارق أباها بحال من الأحوال ، بل لقد بكت لمجرد التفكير في احتمال البعد عنه ، واعتبرت التفكير في ذلك اثما لا يغتفر ، واذن فما دام حيًّا ، فلن يتعدى الأمر مرحلة الخطبة ، ولكنها طمأنت نفسها الى أنه لو زال خطر ابتعادها عنه ، فان ذلك سوف يزيد من راحته . أما مسألة « هاريت » فقد كانت أشق الأمرين لتتخذ فيه قرارا — كيف تعفيها مما لا ضرورة له من الآلام ، كيف تقدم لها ما يمكن من الأسف والندم ، كيف تبدو لها وهي أقل ما تكون عداوة ؟ وبلغت حيرتها وضيق صدرها بهذه الأمور حدا بعيدا ، وانطلق عقلها يستعيد ما مر به من تأنيب مرير ، وأسف مضن في الأيام القليلة السابقة ، ومع ذلك فلم تستطع أن تقرر أخيرا سوى المضى في اجتناب مقابلتها ، والاتصال بها في كل ما تريد ابلاغه عن طريق الخطابات . وكان أقصى ما تتمناه الآن ابعادها عن « هايبرى » فترة من الوقت ، واتجه تفكيرها الى مشروع آخر كاد أن يصل الى مرتبة التصميم ، وهو أن تحصل لها على دعوة

للذهاب الى « ميدان برنزويك » . لقد كانت « ايزابلا » تعجب بها ، وان أسابيع قليلة تمضيها عندها فى لندن لكفيلة بأن تضفى عليها شيئا من الترويح النفسى . ولم يكن من طبيعة « هاريت » ، فى رأيها ، أن تهرب مما قد تجد فيه تجديدا أو تنويعا ، بما فى ذلك مشاهدة الشوارع والحوانيت والأطفال — ولسوف يكون هذا ، على أى حال ، دليلا على ما لها من عطف ورعاية ، فى نفس من تدين لها بكل شىء ، وفترة انفصال وقتى بينهما ، وتجنب لليوم المشئوم الذى لابد أن يلتقى فيه الجميع مرة أخرى .

واستيقظت مبكرة وكتبت خطابها لهاريت ، وكانت مهمة تركتها فى وجوم شديد ، وزاد من حزنها أن « مستر نيتلى » وهو فى طريقه الى « هارتفيلد » لتناول الافطار معهما ، لم يصل فى موعده لقد كانت تشعر أن اقتناص نصف ساعة بعد ذلك ، لتسير معه فى نفس المكان ثانية ، أمر ضرورى ، حرفا ومجازا ، لكى تستعيد قسطا من سعادة الأمسية الماضية ، ويطمئن قلبها الى حلاوتها .

ولم يتركها « مستر نيتلى » تنتظر وقتا طويلا الى الحد الذى يجعلها تنصرف الى أقل تفكير فى غيره ، واذا بخطاب يأتيها من « راندولز » فى مظروف سميك . وفكرت فيما لابد أن يكون بداخله ، ولعنت الضرورة التى تضطرها الى قراءته الآن ، فلقد كانت تشعر بأنها قد أصبحت الآن على وئام مع « فرانك تشرشل » ، وأنها ليست فى حاجة الى مزيد من الايضاحات . انها لا تريد أن تتفرغ لأفكارها الخاصة . بل هى لن تستطيع أن تفهم شيئا مما كتبه . ومع ذلك فقد كان لابد أن تتصفحه . وفضت المظروف ، وتأكدت كل التأكد بأن فيه خطابا من « فرانك تشرشل » الى « مسز وستن » ، وقد أرفقت به « مسز وستن » مذكرة كتبت لها فيها :

« انى لأشعر يا عزيزتى « اما » بمنتهى السعادة وأنا أرسل اليك الخطاب المرفق بهذا ، اذ أنى أعلم مقدار ما سيناله من انصافك ، ولا أكاد أشك فيما سيكون له من أثر سار فى نفسك — وأظن أننا لن نختلف اختلافا بيّنا فى رأينا فى كاتبه مرة أخرى — ولكنى مع ذلك لن أعطلك بمقدمة طويلة — اننا جميعا بخير — لقد كان هذا الخطاب علاجا شافيا لكل ما كنت أشعر به أخيرا من اضطراب عصبى طفيف — ان نظراتك يوم الثلاثاء لم تعجبنى ، ولكنه على أية حال كان صباحا عبوسا ، وعلى الرغم من أنك لن تعترفى بأثر الطقس عليك ، فان جميع الناس يشعرون بوطأة الرياح الآتية من الشمال الشرقى — وكنت شديدة القلق على والدك العزيز فى أثناء العاصفة وقت الأصيل ، يوم الثلاثاء ، وبالأمس صباحا . ولكنى شعرت بالراحة لما سمعته فى الليلة الماضية من « مستر پرى » بأن العاصفة لم تصبه بضرر » .

المخلصة دائما

ا . و

(الى « مسز وستن »)

وندسور — يوليو

سيدتى العزيزة ، ان كنت قد أوضحت موقفى بالأمس ، فان وصول هذا الخطاب سوف يكون مرتقبا ، وسواء أكان وصوله مرتقبا أم غير مرتقب ، فانى أعلم بأنه سيقرأ باخلاص وامعان . فأنت سيدة طيبة كاملة ، وأعتقد بأنى فى حاجة الى كل ما فيك من طيبة كى تتجاوزين عن بعض سلوكى فيما مضى ، ولكنى قد نلت صفح من كان من حقها أن تشعر بالكثير من الأسى . على أنى أزداد شجاعة وأنا أكتب ، وانه لمن أشق الأمور على من يصادفه التوفيق أن يطأطىء الرأس ، فلقد صادفنى التوفيق

حتى الآن فى مرتين التمست فيهما الصفح ، حتى أصبحت لا أخشى خطر الوثوق من أننى سأنال الصفح منك ، ومن أولئك الأصدقاء الذين كان لهم من الأسباب ما من شأنه أن يحنقهم علىّ » .

ان عليكم جميعا أن تحاولوا فهم موقفى بالضبط عندما وصلت أول مرة الى «راندولز» ، وأن تذكروا بأنى كنت أحمل سرا كان لابد من المحافظة على سريته مهما كلفنى ذلك . تلك كانت الحقيقة . أما أن لى الحق فى أن أضع نفسى فى موقف يحتاج الى مثل هذا التكتم ، فموضوع آخر لا مجال لبحثه الآن . وأما أن أنساق الى الأخذ بأن هذا من حقى ، فلا يسعنى الا أن أحيل كل مكابر فى ذلك ، الى بيت فى « هايبرى » مشيد من الطوب ، وجعلت له نوافذ لها شرائح زجاجية فى أسفلها ، واطارات مثبتة فى أعلاها . اننى لم أجرؤ على طلب يدها علانية ، فان الصعوبات التى كانت تعترضنى نتيجة للحالة التى كانت سائدة فى « أنسكومب » وقتئذ لا يمكن أن تخفى على أحد ، بل ولا هى فى حاجة الى بيان . وقد واتانى الحظ وكانت لى الغلبة قبل أن نفترق فى « ويموث » وتمكنت من التأثير على أنزه عقل نسائى فى الوجود ، كى يكون كريما فيخضع لقبول خطبة تظل سرا مكنونا ، ولو أنها رفضت لكنت جننت .

وقد تتساءلين : وماذا كنت ترجو من عملك هذا ؟ ما الذى كنت تصبو اليه ؟ لقد كنت أصبو الى شئ ، والى كل شئ ، الى الوقت والى الفرصة والى المناسبات ، والى النتائج البطيئة ، الى المفاجآت ، والمثابرة ، والكلل والصحة والمرض . لقد كان أمامى كل ما أنتظره من خير ، وكانت أولى بشائر النعم ، أنى حصلت على وعد منها بأن تظل وفيّة لى ، وأن تظل تراسلنى ، أما اذا أردت مزيدا من الايضاح فلى الشرف يا سيدتى العزيزة أن أكون ابن زوجك ، وقد ورثت منه الميل الى توقع الخير ، وهو ميراث

لا يعدله فى القيمة ميراث البيوت أو الأرض . تخيّليني اذن فى ضوء هذه الظروف وأنا أصل الى « راندولز » فى أول رسالة لى . وهنا أشعر بالخطأ ، فقد كان فى الامكان أن أبكّر بتلك الزيارة . ثم عودى الى الماضى بذاكرتك يتبيّن لك أنى لم أحضر حتى جاءت « مس فيرفاكس » الى « هايبرى » . وما دمت أنت التى لحقتك الاساءة ، فانك لابد صافحة عنى فورا . ثم أعود فألجأ الى عطف أبى لأذكره بأنى ظللت طوال تغيبى عن منزله محروما من نعمة التعرف اليك ، وأملى ألا يكون سلوكى فى فترة الأسبوعين اللذين قضيتهما معكما أنعم بالسعادة ، قد جعلنى عرضة الى اللوم ، اذا ما استثنينا نقطة واحدة .

وأصل من ذلك الى الشىء الأساسى ، الشىء الهام فى مسلكى حين كنت بينكم ، الشىء الذى يقلقنى ويحتاج منى الى ايضاح عاجل . انى أذكر « مس وودهاوس » بأجل الاحترام وأخلص الصداقة ، ولعل والدى يرى كذلك أن من واجبى أن أزيد على هذا فأقول : وبمنتهى التواضع . فان كلمات قليلة بدرت منه بالأمس كشفت لى عن رأيه ، وأنا أعترف بأنى ملوم بعض اللوم . فلقد بدا من سلوكى نحو « مس وودهاوس » فيما أعتقد ، أكثر مما كان ينبغى ، فلقد دفعتنى رغبتى فى تكتم سر كان لابد من أن أحرص على كتمانه الى استغلال ذلك التعارف الذى دفع اليه كلانا على الفور ، بأكثر مما كان يجب أن أسمح به لنفسى . ولست أنكر أن « مس وودهاوس » كانت هدفى الظاهر ، ولكنى أعتقد بأنك ستصدقيننى حين أقول انه لولا تأكدى من عدم اكتراثها بى ، لما كان هناك قدر من الأنانية مهما عظم ، كان يمكن أن يغرينى على الاستمرار فى ذلك . وان « مس وودهاوس » على ما هى عليه من جمال وظرف ، لم توح الىّ أبدا بأنها فتاة يحتمل أن تقع فى شباك حبى ، بل انها لعقيدتى أنها كانت مبرّأة من احتمال

التعلق بى اطلاقا ، بل كانت رغبتى أيضا أن تكون كذلك . فلقد كانت تتقبل اهتمامى بها بالترحيب والود والدعابة الفكهة ، مما يتفق مع هدفى كل الاتفاق ، وكان يبدو أن كل واحد منا يفهم الآخر . لقد كان اهتمامى بها حقا لها علينا ، لما بيننا من صلة ، وهذا ما كانت تفهمه هى نفسها ، وان كنت لا أستطيع أن أجزم اذا كانت « مس وودهاوس » قد فهمتنى حقيقة قبل انقضاء الأسبوعين أم لا — وانى لأذكر أننى عندما زرتها مودعا قبل سفرى ، كنت على وشك الاعتراف لها بالحقيقة ، ثم خطر لى وقتئذ أنها قد تكون عندها فكرة عن الموضوع ، وأيا كان الحال ، فانى لا أشك فى أنها قد كشفت أمرى منذ ذلك الوقت ، على الأقل الى درجة ما . وقد يحتمل أنها لم تتكهن بكل شىء ، ولكن يقظتها لابد أن تكون اخترقت بعض حجبه على الأقل . هذا ما لا أشك فيه ، وسوف تجدين عندما يتحرر الموضوع من القيود المفروضة عليه ، أنها لم تؤخذ على غرة بالمرة ، فكثيرا ما لمحت لى به ، وأنا أذكر أنها أخبرتنى فى الحفلة الراقصة ، بأنى مدين « لمسز التن » على اهتمامها بأمر « مس فيرفاكس » .

وانى لأطمع الآن فى أن تسمحى لى ، وأن يسمح لى أبى ، بأن يكون هذا الذى رويته عن سلوكى نحوها مخففا لما بدا فى نظركما نزقا منى ، فطالما تعتبراننى آثما فى حق « مس وودهاوس » ، فلن أستحق منكما صفحا — أبرآنى مما علق بذهنكما ، حتى اذا سمحت الظروف ، أخذتما لى البراءة بأطيب الأمانى من « اما » وودهاوس التى أحبها حب الأخ لأخته ، الى حد يجعلنى أتوق الى أن أراها وقد أحبت وسعدت بحبها كما سعدت بحبى . لقد أصبح فى يدكما الآن سر موقفى فى كل شىء غريب قلته أو فعلته خلال هذين الأسبوعين .

لقد كان قلبى فى « هايبرى » ، فكان حقا على أن أنتقل اليها بجسمى

كلما أمكننى ذلك ، دون أن أثير أى شك أو مظنة ، فاذا تذكرت بعد ذلك أى خروج منى عن المألوف ، فخذيه على محمل حسن . أما عن البيت فوالدى دار حوله لغط كثير ، فانى أشعر أن من واجبى أن أقول ان مس « ف » كانت تجهل تماما الظروف التى أرسل اليها فيها ، فهى ما كانت لتسمح لى بارساله أبدا لو أن الخيار كان متروكا لها . ان مراعاتها لشعور الناس طوال أيام الخطبة يا سيدتى العزيزة ، كان فوق ما يمكننى أن أوفيه حقه ، وانى آمل جادا ، أنك ستعرفينها على حقيقتها بنفسك فى القريب ، فان أى وصف مهما بلغ لن يوفيها حقها فلابد أن تدلك هى عن نفسها بنفسها — وهــذا لا يكون بالقول . على أن من يتعمد اخفاء ما لها من مزايا ، لم يوجد بعد .

وقد وصلنى منها خطاب منذ بدأت أسطر رسالتى هذه التى ستكون أطول مما قدرت لها ، بعثت فيها بأخبار وافية عن صحتها ، ولكن لما كان من طبيعتها ألا تشكو أبدا ، فانى لا أعتمد على ما ذكرت فى رسالتها ، وأود أن أقف على رأيك فى حالتها الصحية ، وأنا واثق من أنك ستذهبين لزيارتها دون تباطؤ . انها تعيش فى رعب من زيارتك لها ، ولكن لعلك قد أديت هذه الرسالة بالفعل الآن ، فلا تتوانى فى موافاتى بأخبارها ، فانى أتلهف على سماع الكثير من تفاصيل ذلك . وتذكرى كم كانت الدقائق التى أمضيتها فى « راندولز » قليلة ، وكيف كنت فيها حائرا كالمجنون ، على أن حالتى لم تتحسن كثيرا حتى الآن ، ولازلت فى حالة من الجنون ، قد يكون مردها الى الشعور بالسعادة أو الى الشعور بالبؤس . فعندما أفكر فيما لقيته منها من العطف والحنان ، وما وجدته فيها من صبر وكمال ، وما أضفاه على خالى من الكرم ، أكاد أجن من الفرح . أما حين أتذكر كل ما سببته لها من قلق ، وأتبين أننى لا أستحق الا القليل من العفو ، فانى أجن من الغضب ، آه لو أننى كنت أستطيع أن أراها ثانية !! ولكن

لا ينبغى لى أن أقترح ذلك الآن ، فلقد كان خالى كريما كل الكرم معى ، فلم يشأ أن يعتدى على ما لى من حقوق .

ولا زال علىّ أن أسترسل فى خطابى هذا على طول ما كتبته حتى الآن ، فأنت لم تعلمى بعد كل ما يجب أن تعلميه ، ذلك أننى لم أكن قادرا على أن أعطى أية تفاصيل مترابطة بالأمس ، ولكن المفاجأة التى انكشف بها الموضوع ، وظهوره فى وقت غير مناسب ، قد يحتاج الى ايضاح ، فان ما وقع فى السادس والعشرين من الشهر الماضى قد فتح لى الباب فى الحال لتحقيق أسعد الآمال ، كما يمكنك أن تستخلصى ، وانى ما كنت أجرؤ على مثل هذه الاجراءات المبكرة لولا الظروف الدقيقة للغاية التى لم تترك لى ساعة أضيعها سدى ، رغم أننى كنت أشعر بأن من واجبى أن أحجم عن عمل أى شىء بهذه العجلة . وكانت هى الأخرى ولا شك ستحس فى هذه الحالة بأحساسى وبترددى ، فتقابل ذلك برقة مضاعفة من جانبها ، ولكن لم يكن فى ذلك خيار ، فلقد كان هذا الاتفاق السريع على شغل الوظيفة ، الذى اتفقت عليه مع تلك المرأة — لقد وجدت نفسى عند هذه المرحلة من خطابى هذا يا سيدتى العزيزة ، مضطرا الى الكف عن الكتابة فورا ، حتى استجمع قواى وتهدأ نفسى ، لقد جبت القرية الآن وآمل أن أكون أكثر منطقا وبعدا عن الخيال بالقدر الذى يكفى لكى أجعل بقية خطابى كما أحب أن يكون عليه فلا شك أن الرجوع الى الماضى يقض مضجعى ويؤرقنى . فلقد كان سلوكى مخجلا ، ويمكننى أن أعترف هنا بأن معاملتى لمس « و » وغلظتى فى معاملة مس « ف » تجعلنى خليقا بأن أتعرض للوم الشديد ، انها لم توافق على هذه المعاملة ، وكان من الواجب أن يكون فى ذلك ما يكفى لأن يردعنى . أما الاعتذار بأننى كنت أبغى من وراء ذلك اخفاء الحقيقة ، فهو مالم تقتنع به مس « ف » فامتعضت ،

وظننت أن امتعاضها كان أكثر مما يبرره الموقف ، فقد خيّل الى ّ في كثير من المناسبات ، أنها مترددة ، حذرة فى غير ضرورة ، وأحسست بعض الفتور فيها أحيانا ، ولكنها كانت دائما على حق . ولو أننى كنت أخذت برأيها ، وأخضعت مشاعرى الى المستوى الذى ظنته هى لائقا ، لنجوت من أقصى همّ صادفني طوال حياتى ، فلقد تشاحنا ، هى وأنا — هل تذكرين ذلك الصباح الذى قضيناه فى « دونول » ؟ لقد تحوّل كل ما سبق أن حدث بيننا من مضايقات بسيطة فى ذلك اليوم الى أزمة . جئت أولا متأخرا ، ثم قابلتها وهى متجهة الى البيت بمفردها ، وأردت أن أسير معها ، ولكنها لم تسمح لى بذلك ورفضت رفضا باتا ، وظننت هذا وقتئذ تصرفا أبعد ما يكون عن التعقل ، ومع ذلك فانى لا أزى فى ذلك شيئا الآن ، الا أن يكون ذلك حرصا طبيعيا منها ، فهل يعقل وأنا أخص سيدة أخرى برعاية منتقدة ، ساعة من الزمن ، لكى أخفى خطبتى عن الناس جميعا ، أن توافق هى فى نفس الساعة التى تليها ، على اقتراح قد يجعل كل حيطة سابقة عديمة الجدوى ؟ ولنفرض أن أحدا قابلنا ونحن نسير معا ، ما بين « دونول » و « هايبرى » ، لكانت هذه الخطبة تصبح مظنة الناس . ولهذا فقد كان جنونا منى أن أغضب — لقد شككت فى حبها يومها ، وزاد شكى فى اليوم التالى ونحن فى « بكس هل » عندما استثرتها بسلوكى ، فأهملتها اهمالا معيبا ، اهمالا مخجلا ، اهمالا وقحا ، بينا اختصصت « مس وودهاوس » بكل رعاية ظاهرة ، مما لا يمكن لأية سيدة ، أن تتحمله ، وعبّرت عن سخطها بمجموعة من الكلمات كانت مفهومة عندى كل الفهم . وقصارى القول يا سيدتى ، كانت مشاحنة لا لوم فيها عليها ، بينما كان موقفى فيها كريها مذموما . وعدت فى نفس المساء الى « ريشمند » ، وكان من الأوفق أن أبقى معكم الى صبيحة اليوم التالى : وما كانت عودتى الا لأنى وددت

أن أظهر غضبى منها ما أمكننى ، ومع ذلك فلم أكن بالحماقة التى لا تجعلنى أقدر بأن الأيام سوف، تصلح ما بيننا ، ولكننى كنت الطرف الذى لحقته الاساءة بسبب فتورها ، ومن ثم فقد سافرت وأنا مصمم على أن تكون هى البادئة فى اتخاذ الخطوة الأولى لاصلاح ذات البين ، وسأظل أهنىء نفسى دائما على أنك لم تكونى من بين الجماعة التى ذهبت الى « بَكس هِل » ، فلو أنك شاهدت سلوكى هناك ، فلست أظن أنك كنت تحسنين الظن بى بعد ذلك أبدا . وقد ظهر أثر ذلك عليها فى القرار الحاسم المباشر الذى اتخذته ، اذ حالما تبينت أنى قدر رحلت عن « راندولز » فعلا ، وافقت فورا على العرض الذى قدمته لها « مسز التن » ، تلك السيدة المتطفلة ، تلك السيدة — والشىء بالشىء يذكر — التى كانت طريقة معاملتها لها تملؤنى دائما بالسخط والكراهية . وليس لى أن أشكو مما حظيت به من طول الأناة والصبر ، والا فلابد لى من أن أعترض بشدة على ذلك القدر من الأناة والصبر اللتين تتمتع بهما هذه المرأة . انها تناديها :

« چين » ! نعم « چين » ! وانك لتلاحظين بأنى لم أبح لنفسى حتى الآن ، أن أناديها بهذا الاسم ، حتى ولا لك أنت . فكرى اذن فيما كنت أقاسيه حتما وأنا أسمع هذا الاسم يجرى على لسان « التن » وزوجته ، يتداولانه تكرارا بكل سماحة وفى غير ضرورة ، وبكل القحة التى لا تتوافر الا لكل من يتخيل فى نفسه عظمة وهمية . رجائى أن تفسحى لى صدرك ، فسأنتهى من خطابى حالا . لقد وافقت « مس فيرفاكس » على هذا العرض الذى عرضته عليها تلك المرأة ، وعزمت على أن تقطع صلتها بى نهائيا ، فكتبت لى فى اليوم التالى تقول : اننا لن نتقابل مرة أخرى ، وانها تشعر بأن خطبتنا كانت مصدر تعاسة واحساس بالتدم لكل منا . وفكت الخطبة . وصلنى منها هذا الخطاب فى صباح ذلك اليوم الذى ذهبت فيه روح

زوجة خالى المسكينة الى بارئها . وفى غضون ساعة كتبت لها ردى على خطابها ، ولكن ارتباكى ساعتها ، وكثرة الأعمال التى نيط بى أداؤها وقتها ، كل ذلك جعلنى أودع الخطاب فى درج مكتبى ولا أرسله مع سائر الخطابات الكثيرة الأخرى ، فى ذلك اليوم . ولما كنت اعتقدت بأنى كتبت ما فيه الكفاية لارضائها على الرغم من أن ردى لم يزد على بضعة سطور ، فقد لبثت ولا شىء يقلقنى ، بل على العكس ، شعرت بخيبة لما لم أتسلم منها خطابا آخر بسرعة ، ولكنى انتحلت لها الأعذار ، كما أنى كنت مشغولا جدا . وهل لى أن أضيف على ذلك فأقول لأنى كنت مسرورا للغاية كذلك بنظرتى الى الأمـور ، مما صرفنى عن تلمّس الأخطاء . وانتقلنا الى « وندسور » بعد ذلك ، ووصلنى منها « طرد » ، بعد ذلك بيومين . فقد أعادت لى كل خطاباتى ! كما وصلتنى بالبريد فى الوقت نفسه ، رسـالة سطرت فيها سطورا قليلة أبدت فيها بالغ دهشتها لعدم وصول أى رد منى على خطابها الأخير ، وزادت على ذلك فقالت : « وبما أن السكوت على مثل ذلك لا يمكن أن يحمل على غير محملة ، وهكذا أصبح أجدى على كل منا انهاء كل ترتيب آخر بأسرع ما يمكن ، فهى ترسـل لى الآن فى عربة مأمونة كل خطاباتى ، راجية اذا لم يتيسر لى وضع يدىَ مباشرة على كل خطاباتها حتى أرسلها الى « هايبرى » فى مدى أسبوع ، فان فى امكانى أن أبعث بها ، بعد تلك الفترة اليها بعنوان — وبالاختصار رأيت أمام عينى توجيها كاملا الى بيت « مسز سمول ردج » بالقرب من « برستول » » ، وكنت أعرف الاسم والمكان ، وأعرف كل شىء عنه ، فأدركت فى الحال ماذا فعلت . فقد كان ذلك متفقا كل الاتفاق مع ما تتصف به من صلابة العزم التى أعرف أنها من صفاتها . وكان حرصها فى خطابها السابق على الاحتفاظ بهذا المشروع سرا لا تبوح به ، دليلا على أنه موضوع شأنك يحتاج الى كياسة .

والحق أنه لم يبد منها أنها تريد تهديدى بأى حال ، ولك أن تتصورى الآن الصدمة التى لحقت بى . تخيلى كيف جن جنونى لما ترتب على أخطاء البريد ، الى أن تبينت غلطتى الحقيقية ، واذن فماذا أعمل ؟ شيئا واحدا لا ثانى له ، هو أن أتحدث الى خالى فى الموضوع ، اذ ما كان يمكننى أن آمل فى أن يستمع الى مرة أخرى بغير موافقته على خطبتنا . وتحدثت اليه وساعدتنى الظروف ، فلقد لطف حادث وفاة زوجته من كبريائه ، فوافق قلبا وقالبا ، وبأسرع مما كنت أنتظر ، مسكين ذلك الرجل ! فلقد تمكن من أن يقول أخيرا وهو يتنهد من أعماق قلبه ، انه يتمنى أن أجد فى زواجى مثل ما كان له فى زواجه من سعادة مقيمة .

وأحسست بأنها ستكون سعادة من نوع آخر . أتشعرين بميل الى الاشفاق على لما بدا أنى عانيته حين فاتحته فى الموضوع ، فجعلته بذلك رهنا بيد القدر ؟ لا ، لا يأخذنك الأشفاق على حتى تسمعى كيف وصلت الى « هايبرى » ورأيت الى أى مدى كنت عاملا من عوامل مرضها !! لا تشفقى على حتى أحدثك كيف وجدت مظاهر الوهن والمرض بادية عليها حين لقيتها ، فلقد وصلت الى « هايبرى » فى ساعة من النهار كنت أعرف فيها مما أعلمه عن تأخرهم فى تناول طعام الافطار عادة ، أنى على يقين بسنوح الفرصة لكى أجدها بمفردها ، ولم يخب ظنى . وأخيرا لم أبؤ بالفشل فيما سافرت الى « هايبرى » من أجله . لقد كان على أن أعمل على زوال الكثير مما علق بنفسها من غضب كان لها ولا شك كل الحق فيــه . وتم هذا وعاد لنا صفونا أعز وأعز كثيرا ممـا كان فى أى وقت ، ولن تكون بيننا لحظة كدر أبدا من الآن . والآن أعفيك يا سيدتى العزيزة من هذا العبء فلا أثقل عليك بعد ذلك ، ولكنى لن أختتم رسالتى قبل أن أقوم بالشكر لك ألف مرة وألفا ، لما حبوتونى به دائما من حنان ، وعشرة

آلاف مرة لما سوف تقومين به نحوها من رعاية يمليها عليك قلبك الطيب .
وان كنت لسبب ما أنى أسعد مما أستحق ، فأنا كما ترين تماما . ان « مس
وودهاوس » تسميني وليد الحظ السعيد وأرجو أن يتحقق ما تقول .
ان حظى السعيد لا ريبة فيه من ناحية واحدة ، هو أننى كنت قادرا على أن
أهب نفسى لأكون ابنك المحب الشكور .

« ف — س — وستن تشرشل »

الفصل الحادى والخمسون

كان لابد لهذا الخطاب من أن يهز مشاعر « اما » ، مما اضطرها الى أن تفسح له صدرها وتعمل بما أوصتها به « مسز وستن » على الرغم من عزمها السابق على أن تعمل نقيض ذلك . وعندما وصلت الى حيث ورد ذكر اسمها فى خطابه ، لقى كل سطر يتعلق بها هوى فى نفسها ، بل كانت كل سطوره مرضية فى نظرها . وحتى عندما ذهب عنها ما كان لهذا الخطاب من أثر السحر ، لبث موضوع الخطاب عالقا فى ذهنها ، اذ أثار فيها ما كانت تشعر به نحو كاتبه من التقدير . ولما كان لابد أن يكون لأية صورة من صور الحب فى نفسها جاذبية قوية فى تلك اللحظة ، لم تتوقف عن القراءة حتى أتت عليه بأكمله . وعلى الرغم من أنه كان من المستحيل عليها ألا تشعر بخطئه فقد رأت بعد الانتهاء من قراءته أن خطأه كان أقل مما كانت تظن ، وأنه قاسى وندم ، وأنه يعترف « لمسز وستن » بجميلها وأنه مولع بحب « مس فيرفاكس » . وشعرت هى نفسها بالسرور لأنها غدت وهى لا تحمل له ضغينة . ولو أنه دخل عليها الحجرة فى تلك اللحظة ، فلابد أنها كانت تصافحه بحرارة كما كانت تفعل دائما .

لقد كان للخطاب فى نفسها وقع حسن ، حتى أنها رغبت من « مستر نيتلى » عندما جاء اليهم مرة أخرى أن يقرأه . فقد كانت واثقة من أن « مستر وستن » يرغب فى أن يطلع عليه غيرها ، خاصة من كان مثل « نيتلى » ، قد رأى بعينيه كثيرا من العيوب فى مسلكه .

وقال لها « مستر نيتلى » : « يسرنى كثيرا أن أتصفحه ، ولكنه يبدو طويلا ، وسآخذه معى ليلا الى بيتى » .

« ولكن ذلك ليس ميسورا ، فان « مستر وستن » سيزورنا فى المساء ، ولابد لى من اعادة الخطاب معه » .

وأجابها : « كنت أفضل أن أقضى الوقت كله فى الحديث معك ، ولكن بما أنها مسألة تتعلق بعدالة الحكم عليه ، فلك ما تريدين » .

وشرع يقرأه ، ولكنه ما كاد يفعل ، حتى توقف ليقول :

« لو أنه أتيح لى يا « اما » أن أرى أحد خطابات هذا السيد الى زوجة أبيه منذ بضع شهور ، لما تناولته بعدم اكتراث كهذا » .

وقطع شوطا قصيرا وهو يقرأ فى سريرته ، ثم قال وهو يبتسم :

« ها ها !! انها بداية فيها ثناء عاطر ، ولكن هذه هى طريقته ، وان أسلوب واحد من الناس يجب ألا يكون قاعدة يسير عليها غيره ، على أننا لن نكون قساة » .

ثم أضاف بعد قليل : « سيكون من الطبيعى أن أبدى رأيى جهرا وأنا أقرأه ، لأنى لهذا سأشعر أنى قريب منك ، ولن يكون فى ذلك ضياع كبير للوقت ، أما اذا كنت تكرهين ذلك ... » .

« لا ، أبدا ، بل انى راغبة فى ذلك » .

وعاد « مستر نيتلى » الى قراءته بهمة أعظم ، ثم قال :

« انه يعبث هنا وهو يتحدث عن الاغراء . انه يعلم أنه مخطىء وليس لديه شىء منطقى يقدمه — انه شىء ردىء — كان الواجب عليه ألا يعقد الخطبة — انه يتحدث عن نزعات أبيه » — وهو مع ذلك غير منصف لأبيه ، فقد كان هدوء « مستر وستن » وتفاؤله بركة وعونا له فى كل ما قام به من جهود قويمة وشريفة وقد استحق « مستر وستن » كل هناءه ، فى الحاضر ، قبل أن يحاول اكتسابها — نعم هذا هو الصدق بعينه ، ان ابنه لم يأت الا بعد أن أتت « مس فيرفاكس » هنا » .

وقالت « اما » : « وأنا لم أنس كم كنت أنت واثقا من أنه لو كان يريد الحضور لما توانى فى ذلك — انك بارع جدا فى تخطى هذه النقطة وأنت تقرأ — ولكنك كنت على حق على أية حال » .

« لم أكن فى حكمى يا « اما » غير متحيز تماما ، ولكنى مع ذلك أعتقد أنه لولا دخلك فى هذه المسألة لظللت حتى الآن لا أثق به » .

وعندما وصل الى ما كتبه عن « مس وودهاوس » ، اضطر الى قراءة كل ما كتب عنها بصوت مرتفع — قرأ كل ما يتعلق بها ، اما بابتسامة أو بنظرة أو بهزة من رأسه ، أو بكلمة يعبر بها عن موافقته أو عدم موافقته ، أو لاظهار حبه ، حسب مقتضيات الحال ، ثم اختتم بعد ذلك بصورة جدية ، وبعد تفكير عميق فقال :

« هذا سلوك سيء ، وان كان من المحتمل أن يكون أسوأ من ذلك . انه يلعب لعبة فى منتهى الخطورة ، انه مدين بخلاصة للأمر الواقع — وهو لا يحكم على سلوكه نحوك . انه فى الحقيقة مخدوع دائما برغباته ، لا يهتم الا قليلا بغير ما فيه راحته — انه يتخيل بأنك غصت الى أعماق سره ! وهذا شيء طبيعى منه ، فان عقله مليء بالدسائس والمؤامرات حتى أصبح يظن ذلك فى غيره ، فما أكثر ما يضلل الغرض والخداع أفهام الناس ! ، « اما » حبيبتى ، ألست ترين أن كل شيء يعمل على أن يثبت أكثر فأكثر ما للصدق والاخلاص فى معاملة كل منا للآخر من جمال ؟ » .

ووافقته « اما » على ذلك ، ثم قالت وقد علت وجهها حمرة من أجل « هاريت » لم تجد لها تفسيرا صادقا :

« من الأفضل أن تستمر فى قراءة الخطاب » .

واستمع لها ولكنه توقف على الفور مرة أخرى ليقول :

« البيانو !! آه !! لقد كان هذا من أعمال الصغار . رجل وصل به

الطيش حدا لا يقدر معه اذا كان عمله قد يسبب من المتاعب ما يفوق كثيرا ما قد يأتى به من سرور ! انها خطة صبيانية !! ولست أدرك ما هنالك من رغبة أى رجل فى أن يقدم لسيدة دليلا على حب يعلم بأنها تفضل الاستغناء عنه ، ويثق من أنها كانت تمنع مجيء البيانو لو أمكنها ذلك » .

ثم قطع بعد ذلك شوطا فى القراءة دون توقف ، وكان أول ما استوقفه بعد ذلك ، اعتراف « فرانك تشرشل » بأنه قد سلك مسلكا مشينا ، فقد دفعه هذا الى أن يقول :

« انى متفق معك تماما يا سيدى ، فلقد سلكت مسلكا مشينا جدا ، وأنت لم تكتب سطرا واحدا أصدق من هذا » .

ثم بعد أن قرأ ما تلا ذلك مباشرة ، عن سبب اختلافهما ، وامعانه فى أن يعمل عكس ما كانت « چين فيرفاكس » تدرك أنه الصواب ، توقف الهوينا ليقول :

« هذا ردىء جدا ، فلقد استدرجها لتضع نفسها من أجله فى موقف صعب ومحرج للغاية . وكان أول ما يجب عليه أن يجنبها ما لا داعى له من الألم . وما من شك فى أنها كانت أشد منه صبرا وكفاحا حين استمرت تراسله . لقد كان من واجبه أن يراعى ظنونها وهواجسها ، ان وجدت ، حتى ولو كان لا مبرر لها ، ولكن ظنونها كانت كلها معقولة ولها ما يبررها .

وواجبنا أن ننظر الى غلطتها الوحيدة وأن تتذكر أنها أخطأت بموافقتها على الخطبة لكى تحتمل فكرة العتاب الذى لاقته » .

وعرفت « اما » بأنه الآن فى سبيل الوصول الى رحلة « بكس هل » فتضايقت ، اذ كان مسلكها هى نفسها فى تلك الرحلة ، بعيدا عن اللياقة ، وشعرت بمنتهى الخجل ، وخشيت بعض الشيء من نظرته التالية اليها ، ومع ذلك فقد قرأ كل هذا بثبات وامعان دون أن يبدى أقل ملاحظة ، اللهم

الا نظرة خاطفة ارتدت فى الحال خشية أن تؤلمها ، ولم تعد « بكس هل » بعدها الا نسيا منسيا .

وكانت ملاحظته التالية : « وليس فى خطابه الكثير مما يمكن أن يقال عن رقة أصدقائنا الأفاضل « التن » وزوجته — فمشاعره طبيعية ، عجبا ! ثم ما هذا ! لقد صممت على قطع صلتها به نهائيا !! شعرت بأن الخطبة أصبحت مصدر تعاسة وشعور بالندم لكل منهما فأنهتها . أية صورة تبدو لنا من هذا عن سلوكه ؟ أجل ، انه لابد أن يكون شاذا للغاية » .

« لا ، لا ، استمر وسوف تجد أنه يعانى الكثير » .

وأجابها « مستر نيتلى » دون اكتراث : أرجو أن يكون الأمر كذلك فعلا » .

وواصل قراءة الخطاب — « عجبا ! « سمول ردج » ! ما معنى ذلك ؟ وما كل هذا ؟ » .

« انها قبلت العمل كمربية لأطفال مسز « سمول ردج » ، وهى صديقة عزيزة « لمسز التن » ، وجارتها فى « مايل جروف » — وانى لأعجب بهذه المناسبة ، كيف تتحمل « مسز التن » الفشل فى مهمتها » .

« لا تتكلمى يا عزيزتى « اما » ، أنت ترغميننى على قراءة هذا الخطاب حتى ولو كان عن « مسز التن » ، فلم يبق علىّ غير صفحة واحدة ، وسأنتهى منها حالا — ما أعجب هذا الخطاب الذى كتبه الرجل !! » .

« بودى لو قرأته وأنت أكثر عطفا عليه » .

« أجل ، ها هى فقرة احساس ، اذ يبدو أنه تألم عندما وجدها مريضة ، حقا اننى لا أرتاب فى أنه مغرم بها . « أعز وأعز كثيرا مما كانت فى أى وقت ! » --- أرجو أن يداوم على شعوره بما لهذا التصافى بينهما من قيمة .... انه كريم فى شكره للغاية ، انه يكيله بالآلاف وعشرات الآلاف ....

« أسعد مما أستحق » — هلمى انه يعرف نفسه — « ان « مس وودهاوس » تسمينى وليد الحظ السعيد — هل هذا هو الاسم الذى كنت تسمينه به ؟ » .

« انك تبدو كأنك لم تقتنع بخطابه بمثل ما اقتنعت ، ولكن يجب مع هذا أن تقتنع ، لابد أن تحسن رأيك فيه من أجل هذا الخطاب ، وأرجو أن يكون شفيعه عندك » .

« أجل ، لا ريب أنه يشفع له . لقد كانت له أخطاء عظيمة ، وهى أخطاء نبعت من سوء تقديره وعدم تفكيره ، وانى أشاركه الرأى فى ظنه بأنه قد يكون أسعد مما يستحق . ولكن لما كان دون أدنى شك يهيم « بمس فيرفاكس » حقا ، وسيكون له قريبا حظ الوجود معها دائما ، فانى أرانى ميالا الى الاعتقاد بأن أخلاقه سوف تتحسن ، وأنه سيكتسب منها ما ينقصه من الثبات على المبدأ والمحافظة عليه . والآن دعينى أتحدث اليك عن شىء آخر فهناك موضوع يهم شخصا آخر قد شغل علىّ بالى فى هذه اللحظة حتى لم أعد أستطيع التفكير فى « فرانك تشرشل » أكثر من ذلك — اننى يا « اما » منذ أن تركتك هذا الصباح وعقلى لا يكف عن التفكير فى موضوع واحد » .

ثم أتبع ذلك بذكر الموضوع فى لغة انجليزية مهذبة لا تكلف فيها ، وخليقة بمثل « مستر نيتلى » فى حديثه حتى مع من يحبها . أما هـذا الموضوع فهو كيف يتسنى له أن يطلب يدها دون الافتئات على سـعادة والدها . وجاء رد « اما » سريعا : « فما دام والدها العزيز على قيد الحياة ، فان أى تغيير فى الظروف الحالية ، يكون عندها من المستحيلات ، فليس بوسعها أن تتركه اطلاقا --- وأقرها على جزء واحد من هذه الاجابة : استحالة تركها لأبيها ، فقد كان شعور « مستر نيتلى » بذلك لا يقل عن

شعورها ، ولكنه لم يسعه أن يوافق على عدم السماح بأى تغيير آخر ، لقد ظل يفكر فى هذا الموضوع ويمعن فى التفكير ، وكان أمله أولا أن يؤثر على مستر وودهاوس كى ينتقل معهما الى « دونول » ، وكان يوده أن يكون ذلك فى الامكان ، ولكن معرفته « بمستر وودهاوس » ، لم تجعله يتمادى فى خداع نفسه فاعترف الآن باعتقاده الراسخ بأن مثل هذا الانتقال ستكون فيه مجازفة براحته ، بل ربما كان فى ذلك مخاطرة بحياته ، وهو ما لا يمكن أن يخاطر به . أيعقل أن ينقل « مستر وودهاوس » من هارتفيلد ! لا ، لقد شعر بأن مثل هذا الاقتراح لا تجوز محاولته ، ولكنه كان واثقا بأن « اما » ، أعز الناس اليه ، لن تجد أى مجال للاعتراض على الخطة التى تفرعت عن هذه التضحية — وهى أن يتقبل هو نفسه لينزل فى « هارتفيلد » ، فما دامت سعادة والدها ، أو بتعبير آخر حياته — تتطلب استمرار اقامتها فى هارتفيلد ، فان هارتفيلد يجب أن تكون مقامه كذلك

لقد سبق أن خطرت « لاما » فكرة انتقالهم جميعا الى « دونول » فكرت فى تلك الخطة ورفضتها كذلك . أما الخطة التى جعلها بديلا لذلك فلم تطرأ على بالها . وقد شعرت بكل ما تدل عليه من محبة ، وأحست بأنه حين يترك « دونول » انما يضحى بالكثير من حرية التصرف فى وقته وعاداته ، وأنه سيجد أمامه الكثير ، والكثير جدا مما عليه أن يتحمله بمعيشته مع أبيها بصفة دائمة . ووعدته بالتفكير فى هذا ، كما نصحته بأن يزيده بحثا ، ولكنه كان متأكدا كل التأكد بأن أى بحث أو تفكير لن يصرفه عن رغباته أو عن رأيه فى هذا الموضوع ، بل هو يؤكد لها بأن هذا الموضوع ظل موضع اعتباره وتفكيره وقتا طويلا ، وأنه سار طوال الصباح وهو بمعزل عن « وليم لاركنز » ليفكر فيه بمفرده .

وصاحت « اما » ! « آه !! هناك مشكلة لم نحتط لها ، إنى متأكدة

بأن « وليم لاركنز » لن يرضى عن هذا ، ولابد من أن نحصل على موافقته قبل أن تسأل عن موافقتى » .

ووعدته مع ذلك فى أن تفكر فى الأمر ، بل وأن تفكر فيه وهى جد عازمة على أن ترى فيه مشروعا صالحا من كل الوجوه .

ولقد كان غريبا أن « اما » ، وقد بدأت الآن فى تقليب وجهات النظر الكثيرة عن « رهبانية دونول » لم تتطرق الى ذهنها الآن أية فكرة عما قد يلحق بابن أختها « هنرى » الذى كانت فيما مضى تتشبث بحقوقه باعتباره وريث « دونول » المنتظر ، أما أنها فكرت فيما ينطوى عليه ذلك بالنسبة للولد الصغير المسكين ، فهو مالم تكن تستطيع أن تتجنبه ، ولكن تفكيرها لم يتعد أثره ابتسامة فاترة ، فقد سرها أن تكتشف سبب كرهها الحقيقى لزواج « مستر نيتلى » « بجين فيرفاكس » أو أية امرأة أخرى .

ان ما عرضه عليها من فكرة الزواج والاقامة فى هارتفيلد كان يزداد قبولا عندها كلما فكرت فيه ، فبدت الأضرار التى تصيبه من جراء ذلك أقل ، والمزايا التى تجنيها هى نفسها منه أزيد ، ومنفعتها المتبادلة له ترجح كل العيوب .

ما أحسنه من رفيق لها فيما ينتظرها من أوقات تخيم عليها الهموم والقلق !! وما أعظمه من شريك فى كل ما هنالك من واجبات وأعباء تزداد همومها بمرور الأيام !!

لقد كانت السعادة تغمرها لولا المسكينة « هاريت » فقد بدت كل نعمة لها تحمل فى ثناياها ما يؤلم صديقتها التى صار من الواجب الآن ابعادها حتى عن « هارتفيلد » . وهذا الاجتماع العائلى الممتع الذى كانت « اما » تسعى لتستأثر به ، لابد أن تبعد عنه « هاريت » حرصا عليها وعطفا ، فهى الخاسرة فى كل الحالات ، ولن تكون « اما » آسفة على غيابها فى المستقبل

باعتباره انتقاصا من متعتها . ان وجود « هاريت » فى مثل هذه الجماعة ، سيكون عديم الأثر منه أى شىء آخر . أما من ناحية الفتاة المسكينة نفسها ، فان الضرورة القاسية قد جعلتها تتعرض لمثل هذه العقوبة التى لا تستحقها .

وسوف يسدل الستار على « مستر نيتلى » بالنسبة لها وتنساه بطبيعة الحال على مر الأيام ، أو بعبارة أخرى سيحل غيره محله ، وان لم يكن من المنتظر أن يحدث ذلك قريبا ، كما أن « مستر نيتلى » نفسه لن يفعل شيئا يساعدها على شفائها من عنائها ، وهو يختلف فى ذلك عن « مستر التن » . فان « مستر نيتلى » بما يتسم به دائما من العطف ورقة الاحساس ، ومراعاة شعور الناس لن يستحق أبدا أن يقلل من تمجيده وتقديسه عما كانت تفعل من قبل . ولا شك أنه أمل بعيد حتى من « هاريت » نفسها أن تحب أكثر من ثلاثة رجال فى عام واحد .

الفصل الثاني والخمسون

ارتاحت « اما » الى درجة عظيمة عندما وجدت أن « هاريت » كانت مثلها راغبة فى تحاشى المقابلة ، فقد كان اتصالهما عن طريق الرسائل ، فيه من الألم ما يكفى ، وما أشد ألمهما لو أنهما اضطرا الى المقابلة !!

وكانت العبارات التى تسطرها « هاريت » كما يتبادر الى الذهن ، خالية من كل لوم ومن أى شىء ينبىء بأى شعور بالاساءة ... ورغم هذا كانت « اما » تتخيل فيها شيئا من الاحساس بجرح الكرامة ، شيئا من هذا القبيل تعبر عنه بأسلوبها ، مما قوى عندها الرغبة فى انفصالهما عن بعضهما ، وقد يكون مرد ذلك احساسا كامنا فى دخيلة نفسها ، ولكن « اما » فى تصورها كانت ترى أنه من المستحيل على أحد أصابته مثل هذه الضربة أن يتجرد من الشعور بالاساءة ، الا أن يكون ملاكا .

ولم تلق « اما » أية صعوبة فى الحصول على دعوة من « ايزابلا » لهاريت وكانت سعيدة الحظ لأنها وجدت سببا كافيا يبرر هذه الدعوة دون أن تلجأ الى اختراع الأسباب المصطنعة ، اذ كان قد لحق بأحد أسنان « هاريت » عطب ، وكانت تود حقيقة منذ بعض الوقت أن تستشير طبيبا للأسنان . وسر مسز « چون نيتلى » أن تؤدى لها خدمة ، فقد كان أى شىء يتعلق باعتلال الصحة مثير اهتمامها . وعلى الرغم من أنها لم تكن تحبذ أى طبيب للأسنان مثل تحبيذها لطبيب الأسنان مستر « ونجفيلد » ، فقد أبدت رغبتها القوية فى أن تكون « هاريت » فى رعايتها . فلما انتهى كل شىء من جانب أختها ، عرضته « اما » على صديقتها فوجدتها سلسلة

القياد ، راضية عن الفكرة ، ومن ثم فقد أصبح ذهاب « هاريت » أمرا مؤكدا . وكانت الدعوة لفترة أسبوعين على الأقل . وتقرر انتقالها فى عربة « مستر وودهاوس » ، وعملت كل الترتيبات وتم كل شىء ، ووصلت « هاريت » الى «ميدان برنزويك » سالمة .

وهكذا صارت « اما » قادرة على الاستمتاع بزيارات « مستر نيتلى » ، وأصبح فى وسعها أن تتكلم وتستمع وهى مغتبطة لا يعكر صفوها ذلك الاحساس بالظلم أو الاجرام الذى كان ينتابها ، أو ذلك الألم المضنى الذى كان يعتريها كلما تذكرت ذلك القلب الكسير الذى كان قريبا منها ، وما قد يعانيه وهو على مقربة منها فى تلك اللحظة من ألم ، وهى التى أضلته الطريق بنفسها .

وقد تكون « اما » بالغت فى أثر الفرق بين وجود « هاريت » فى بيت « مسز جذرد » وبين وجودها فى لندن ، على مشاعرها ، ولكنها حين تكون فى لندن لن تفكر فيها الا اذا جد ما يثير حب الاستطلاع عندها ، ويشغل عليها تفكيرها ، وهو مع ذلك سيجعلها تغمض عينها عن الماضى ويجردها من نفسها .

وهى لن تسمح فى الوقت نفسه لأى شىء آخر مقلق بأن يشغل من فكرها المكان الذى كانت تشغله « هاريت » — فقد كان لا يزال أمامها نبأ ، كانت وحدها دون غيرها قادرة على نقله ، ألا وهو الاعتراف بخطبتها لأبيها . ولكنها كانت عازمة على ألا تقول عنه شيئا فى هذه الآونة ، مصممة على أن تؤجل انشاءه الى أن تنجو « مسز وستن » من أخطار الوضع ، وتكتب لها السلامة منها ، فليس من العقل ولا من الحكمة أن تثير فى تلك الفترة اضطرابا آخر فى نفوس من تحبهم ، ولن يلحقها ضير اذا انتظرت حتى الوقت المناسب ، وتريثت أسبوعين على الأقل تنعم فيهما بالفراغ

وهدوء البال حتى يكون سرورها أعظم وأكثر اثارة . واستقر رأيها على الفور ، أداء للواجب واغتناما للسرور ، أن تخصص نصف ساعة من أوقات هذه العطلة العاطفية لزيارة « مس فيرفاكس » ، فقد كان عليها أن تذهب لرؤيتها بقدر ما كانت تتوق هى نفسها الى ذلك . فلقد كان التشابه بين حالتيهما فى تلك الآونة مدعاة لزيارة عوامل الشعور بالمودة المشتركة بينهما . ان ارتياحها لهذه الزيارة سوف يكون ارتياحا دفينا خفيا ، ولكن الشعور بتشابه آمالهما سوف يزيد من اهتمامها بالاصغاء الى أى شىء قد تقوله « چين » .

وذهبت لزيارتها ، وكان قد سبق لها أن سارت بعربتها مرة حتى وصلت الى الدار ، ولم تتمكن من مقابلتها . انها لم تدخل عتبة دارها منذ الصباح التالى ليوم « بكس هل » حين كان الأسى قد استبد « بچين » وبلغ منها مبلغا جعل « اما » تفيض بالاشفاق عليها ، ولو أن أسوأ مآسيها لم تكن متوقعة فى ذلك اليوم ! أما اليوم فقد دفعها الخوف من عدم الترحيب بها الى أن تقرر ، على الرغم من تأكدها بوجودهن فى البيت ، أن تنتظر فى الممر ، وتبعث باسمها . وسمعت « پاتى » وهى تعلن اسمها ، ولكن حدث بعد ذلك هرج يشبه الهرج الذى حدث فى المرة السابقة . وحاولت المسكينة « مس بيتس » لحسن الحظ تفسيره وقتها — ولم تسمع « اما » بعد ذلك غير الرد المباشر : ! سليها أن تتفضل بالصعود » ! وبعد لحظة استقبلتها « چين » على السلم بنفسها ، وتقدمت نحوها فى شغف كأنما تريد أن تقول لها : « ليس غيرى من هو جدير باستقبالك » . ولم ترها « اما » بمثل هذه الصحة ولا بمثل هذا الجمال ولا بمثل هذه الجاذبية . كانت تفيض شعورا وحيوية وحماسا ، لا ينقص محياها ولا سلوكها شىء على الاطلاق . وتقدمت وقد مدت يدها وهى تقول فى نبرات خافتة ، ولكنها تفيض شعورا :

« لا شك أن هذا منتهى العطف منك يا « مس وودهاوس » ، انه لمن المستحيل علىّ أن أعبر — وآمل أن تصدقينني — اغفرى لى اذا كنت عاجزة عن الكلام بالمرة » .

وأثلج هذا صدر « اما » وكانت على أهبة الكلام ، ولم يمنعها عن الاسترسال فى التعبير عن سرورها الا سماعها لصوت « مسز التن » يأتى من حجرة الاستقبال ، مما جعلها تختصر التعبير عن كل ما كانت تجيش به نفسها من مشاعر المودة ، وما كانت تريد أن تعبر عنه من آيات التهنئة ، الى مصافحة باليد تفيض اخلاصا ومحبة .

كانت « مسز بيتس » و « مسز التن » تجلسان معا . أما « مس بيتس » فلم تكن بالبيت ، مما يفسر الهدوء الذى كان يسود جلستهما . وودت «اما» لو أن « مسز التن » كانت فى مكان آخر فى تلك اللحظة ، ولكنها كانت فى حالة نفسية تجعلها تفسح صدرها للناس جميعا . وقابلتها « مسز التن » ورحبت بها على غيرى عادتها ، مما جعلها تأمل ألا يكون وراء هذه المقابلة أى سوء . وخيّل « لاما » وقتها أن فى وسعها أن تنفذ الى ما يجول بخاطر « مسز التن » من الأفكار ، وأن تدرك لماذا كانت منتعشة مثلها . وسرعان ما هداها تفكيرها الى أن سبب ذلك هو أن « مس فيرفاكس » قد اتخذتها أمينة على سرّها ، وأنها لذلك تخيلت أنها على علم بما لا يزال سرا خافيا على غيرها . بل لقد لاحظت « اما » دلائل هذا الاستنتاج على ملامح وجهها بمجرد أن دخلت عليها ، إذ بينما كانت تقوم بتحية « مسز بيتس » وتبدى عناية بالاصغاء الى اجابات هذه السيدة العجوز الطيبة ، أبصرتها تطوى فى شىء من التظاهر بالسرية ، ورقة يبدو أنها كانت تقرؤها بصوت مرتفع على « مس فيرفاكس » ، ثم أعادتها الى حقيبة يدها ذات اللون الأرجوانى والذهبى ، التى كانت الى جوارها ، وهى تقول بايماءات لها مغزاها :

« يمكننا أن نفرغ من ذلك فى وقت آخر كما تعلمين ، ولن تعوزنا الفرصة . والواقع أنك قد سمعت الآن كل العناصر المهمة فى الموضـوع ، ولم أشأ الا أن أبرهن لك على أن « مسز (س) » تقبل اعتذارنا وأنها ليست مستاءة ، وأنت ترين رقتها فى الكتابة . يا الهى !! انها مخلوقة ظريفة ، ولو كنت ذهبت اليها لأحببتها من قلبك ، ولا أزيدك قولا بعد هذا — ولنكن على حرص ولا نحيد عن مسلكنا القويم — صه !! هل تذكرين تلك الأبيات ؟ لقد نسيت القصيدة الآن :

وإذا النساء ظهرن فى شىء حدث أخـلى الجميـع لهن كل مكان

والذى أعنيه الآن فى مسألتنا هذه يا عزيزتى ، تلك السيدة — اقرئى — وحذار أن تنطقى باسم ، قولى السيدة فقط ، والواقع أنى فى نشوة عارمة ، ألست كذلك ؟ وكل ما أريد ، هو أن أبعد عنك القلق من ناحية مسز (س) ، وأنت ترين أن بيانى قد أرضاها تماماً » .

ثم عادت تقول همسا عندما التفتت « اما » لتنظر الى ما كانت « مسز بيتس » منشغلة فى غزله : « انك تلحظين أنى لم أذكر أسماء ، لا ، لا ، فأنا حريصة حرص وزير الدولة فى تكتمه للسر ، وقد تصرفت تصرفا كان فى منتهى الحكمة » .

ولم يتطرق الى « اما » شك فى أن كل ذلك كان منها مجرد استعراض يتكرر كلما سنحت الفرصة . فلما انسجموا بعد ذلك فى الحديث برهة عن حالة الطقس وعن أحوال « مسز وستن » ، ألفت « اما » الحديث يوجه اليها فجأة :

« ألا تظنين يا « مس وودهاوس » أن صديقتنا الصغيرة « الدلوعة » التى معنا الآن قد شفيت بشكل جميـل ؟ ألا ترين أن ابلالها يكسب « پرى » أعلى مراتب الشهرة ؟ » وهنا نظرت بطرف عينها الى « چين »

نظرة لها دلالتها وقالت : « ثقى أن « پرى » قد أعادها الى كامل صحتها فى وقت قصير عجيب ! يا الله ! لو أنك كنت رأيتها عندما كانت فى أسوأ حال ! » — ثم همست فى أذن « مس فيرفاكس » عندما كانت « مسز بيتس » تقول شيئا « لاما » : « ولن ننطق بكلمة واحدة عن المعونة التى لقيها « پرى » ، ولا كلمة واحدة عن طبيب شاب جاء من « وندسور » ، لا أبدا ، بل سنجعل « لپرى » الفضل كله فى ذلك » .

وانتظرت برهة ثم عادت توجه الحديث الى « اما » : « اننى لم أسعد برؤيتك يا « مس وودهاوس » منذ أن ذهبت الجماعة الى « بكس هل » ، لقد كانت مجموعة لطيفة جدا ، غير أنى أظن مع هذا ، أنه كان ينقصها بعض النواحى ، فان الأمور لم تبد — أعنى أنه كان يبدو بأن سحابة خفيفة من الهموم كانت تخيم على بعض الموجودين ، هذا ما ظهر لى على الأقل ، ولكن ربما أكون قد أخطأت ، ومع هذا فانى أظن بأنه لم يكن بأس من القيام بالرحلة ، وهذا مما يغرى الانسان على الذهاب مرة أخرى . فما قولكما والطقس جميل فى أن نجمع الفريق بعينه ونقوم برحلة أخرى الى « بكس هل » ؟ لابد أن تكون الزمرة هى هى نفسها ، هى بعينها دون استثناء » ودخلت « مس بيتس » بعد ذلك فى الحال ، ولم تجد « اما » مناصا من الشعور بالتسلية بسبب ما بدا على « مس بيتس » من ارتباك عندما ردت على أول سؤال لها ، اما ترددا منها فيما يباح لها أن تقوله ، واما لأنها لم تعد قادرة على ألا تقول كل ما فى جعبتها .

« أشكرك يا عزيزتى « مس وودهاوس » ، أنت العطف مجسما ، من المستحيل أن أقول .. نعم .. انى أفهم تماما ولا شك .. تلك خطط العزيزة « چين » .. أى أننى لست أعنى .. ولكنها عوفيت لدرجة مفرحة . كيف حال « مستر وودهاوس » ؟ انى مسرورة للغاية .. هذا ليس فى

قدرتى مطلقا .. نحن كما ترينا هنا ، مجموعة صغيرة تغمرها السعادة .. نعم ، لا شك فى ذلك .. انه فتى ظريف ! أى ودود جدا .. أعنى « مستر پرى » الطيب ! .. ما أعظم عنايته بچين ! » .

وظنت « اما » من اغتباطها العظيم الذى زاد على كل مألوف ، وهى تعبر عن شكرها لوجود « مسز التن » أنه كان هناك بعض الأستياء من « چين » من جانب « الأبرشية » ، وأن هذا الاستياء قد زال كرما وجودا ... وبعد همسات قليلة جعلت شك « اما » يقينا ، عادت « مسز التن » تتحدث بصوت مسموع فقالت :

« أجل ، ها أنا جئت الى هنا يا عزيزتى الصبية ، وقد مكثت هنا طويلا ، ولو كنت فى مكان آخر لكان من واجبى أن أعتذر عن طول بقائى . ولكنى فى الحقيقة أنتظر سيدى ومولاى ، وقد وعدنى بأن يكون هنا ليؤدى واجب الزيارة لكنّ » .

« لعمرى ! هل سيسعدنا « مستر التن » بالزيارة ؟ ان هذا سيكون ولا شك فضلا منه ، لأنى أعلم بأن السادة لا يحبون الزيارات الصباحية ، كما أن « مستر التن » مشغول طول الوقت » .

« كونى واثقة بأنه سيأتى لزيارتكن يا « مس بيتس » ، انه ولا شك مشغول من الصباح الى الليل ، ولا نهاية للناس الذين يجيئونه منتحلين سببا أو آخر . فالقضاة والمشرفون وأوصياء الكنيسة ، يطلبون رأيه دائما . ويبدو أنهم بدون رأيه عاجزون عن القيام بأى عمل . انى أقول فى كثير من الأحيان : « انى أعتقد يا مستر « اى » أنك مشغول أكثر منى ، وأنا لا عرف ماذا كان يحدث لأقلام رسمى وللبيانو ، لو جاءنى نصف العدد الذى يأتى اليك من ذوى الحاجات ، وحسبى ما آلت اليه هواياتى الآن من سوء الحال ، فقد أهملتها بدرجة لا تغتفر . أعتقد أنى لم أعزف فاصلا

موسيقيا واحدا فى هذين الأسبوعين . ومع ذلك فانى أؤكد لكُنَّ بأنه سيحضر من غير شك ليزوركن جميعا » .

ثم رفعت يدها لتحجب بها كلماتها عن « اما » وقالت :

« انها كما تعلمين زيارة للتهنئة ، أجل ، انها زيارة واجبة » .

ونظرت « مس بيتس » حولها وقد غمرها السرور . واسترسلت « مسز التن » تقول فى صوت مسموع مرة أخرى :

« لقد وعدنى بالمجىء حالما يستطيع أن يخلص من « نيتلى » ولكنه فى خلوة مع « نيتلى » الآن يتشاوران . ان مستر « ان » هو يد « نيتلى » اليمنى » .

وصممت « اما » على ألا تبتسم مهما كلفها ذلك واكتفت بأن قالت :

« وهل ذهب « مستر التن » الى « دونول » ماشيا ؟ انه سيشعر بالقيظ فى الطريق » .

« لا ، لا ، ان الاجتماع فى « نزل التاج » وهو اجتماع يعقد بانتظام ، وسوف يكون « وستن » و « كول » هناك أيضا ، ولكن الانسان ينزع الى الكلام عادة عمن لهم الزعـامة وخدهم ، وأظن أن مستر « اى » و « نيتلى » هما أصحاب الرأى الأعلى فى كل شىء » .

وقالت « اما » : « ألم تخطىء فى اليوم ؟ انى أكاد أكون واثقة بأن الاجتماع فى « التاج » موعده الغد . لقد كان « مستر نيتلى » فى هارتفيلد بالأمس وقال ان الاجتماع سيكون يوم الأحد » .

وكان رد « مسز التن » فى الحال : « لا ، لا ، ان الاجتماع اليوم بالتأكيد » ثم استمرت تقول : « انى أعتقد أن هذه أكثر « الأبرشيات » تعبا ، فلم نسمع بمثل هذه الأشياء أبدا فى « مايل جروف » .

وقالت « جين » : « ان أبرشيتكم هناك صغيرة » .

« صدقيني يا عزيزتي أني لا أعرف ، ولم أسمع من قبل حديثا يثار عن هذه النقطة » .

ولكن الدليل على ذلك ، صغر المدرسة التي سمعتك تتحدثين عنها وتقولين انها مشمولة برعاية أختك و « مسز براج » ، وهي المدرسة الوحيدة ، ولا يزيد أطفالها على خمسة وعشرين طفلا » .

« عجبا أيتها المخلوقة الذكية !! هذه هي الحقيقة بعينها ، ما أعظم تفكيرك ! اني أعتقد يا « چين » أننا لو امتزجنا معا ، أنا وأنت ، لكانت منا شخصية كاملة : حيويتي وعزيمتك يجمعان الكمال كله — ومع ذلك فاني لا أقصد التلميح بأن بعض الناس قد لا يرون الكمال مجسما فيك كما أنت — ولكن صه !! — لا تتفوهي بكلمة ، أرجوك » .

وبدا أن لا ضرورة لهذا التحذير ، فان « چين » كانت تريد أن تتحدث ، لا الى « مسز التن » ، ولكن الى « مس وودهاوس » ، كما تبينت « مس وودهاوس » ذلك بوضوح ، فلقد كانت رغبتها في تمييز « مس وودهاوس » بقدر ما تسمح به الآداب المرعية واضحة جدا رغم أن ذلك لم يتجاوز النظرة في معظم الأحيان .

وحضر « مستر التن » ورحبت به زوجته بشيء من حيويتها المتألقة وقالت :

« انه لجميل جدا ولا شك أن ترسلني هنا يا سيدي لكي أضايق أصدقائي كل هذا الوقت ، الى أن تتفضل بالحضور ، لكنك تعلم طبيعة المخلوقة المطيعة التي تتعامل معها ، وتعلم بأني لن أتحرك من مكاني حتى يعود مولاي ، وها أنا ذا قد جلست هنا ساعة لأكون لأولئك الفتيات مثلا على الطاعة الزوجية السليمة — ومن يدري فقد يحتجن اليها قريبا » .

وكان « مستر التن » يشعر بالحر والتعب ، فلم تلق هذه الحكم منه

التفاتا ، فلما انتهى من تحية السيدات الأخريات أخذ يعبّر عما يشعر به من ضيق بسبب الحر ، وما لقيه من عنت من مشيه على غير جدوى .

قال : « عندما وصلت الى « دونول » لم أجد « نيتلى » ، مسألة غريبة ! فلم يكن هنالك ما يبرر غيابه بعد المذكرة التى بعثت بها اليه فى الصباح ، وبعد الرسالة التى رد بها علىّ وقال فيها انه سيكون بالتأكيد فى البيت حتى الساعة الواحدة » .

وصاحت زوجته تقول : « عجبا !! دونول !! لم تذهب يا عزيزى مستر « اى » الى « دونول » . لعلك تعنى « نزل التاج » .

« لا ، لا ، ان موعدنا لذلك غدا ، وقد أردت أن أرى « نيتلى » اليوم بشأن هذا الموضوع ذاته ، وكم كان الصباح شديد الحر فظيعا لا يطاق ! (ثم فى نبرات تنبىء عن شعور بسوء المعاملة) : « ومما زاد اليوم سوءا أنى سرت كذلك عبر الحقول ، ثم اذا بى لا أجده بالبيت !! أؤكد لك أنى لم أرتح لذلك أبدا ، فهو لم يترك لى اعتذارا ، أو يبعث لى برسالة ، وقد صرّحت لى مديرة البيت بأنها لا تعلم بأن حضورى كان مرتقبا . انه شىء فى غاية الغرابة ، ولا يعلم أحد قط أين ذهب . ربما يكون ذهب الى « هارتفيلد » أو الى طاحون الرهبانية ، أو الى الغاب . اننا يا « مس وودهاوس » لم نعهد ذلك فى صديقتنا « نيتلى » من قبل ، فهل يمكنك تفسير ذلك ؟ » .

وتسلّت « اما » باستنكار ما حدث وهى تقول : انه ولا شك أمر فى منتهى الغرابة ، وانها ليس لديها ما تقوله دفاعا عنه » .

وصاحت « مسز التن » تقول : (وهى تشعر بالمهانة كما هو خليق بأية زوجة مخلصة) : « لا يمكننى أن أتصور حدوث مثل هذا ، وليس بوسعى أن أتخيل كيف أمكنه أن يعمل شيئا كهذا معك وأنت غير الناس

جميعا ، وآخر من يئتنظر أن ينساه أحد !! لابد أنه يا عزيزى مستر « اى » ترك لك رسالة ، أنا متأكدة من ذلك ، وحتى « نيتلى » لا يمكن أن يكون بمثل هذا الشذوذ . اذ لابد أنه تركها ونسيها الخدم . كن واثقا بأن هذا هو الوضع ، بل هو محتمل جدا من خدم « دونول » الذين لحظت فى معظم الأحيان أنهم جميعا فى منتهى القبح والاهمال . وأنا أجزم بأنى لا أقبل شخصا مثل « هارى » ليقوم بتقديم طلباتى على المائدة فى بيتنا مهما كانت الظروف . أما مسز « هودچز » فان « رايت » كفيلة بأن تجعلها من سقط المتاع ، لا تساوى شيئا ، وقد وعدت بأن تبعث الى « رايت » وصفة نوع من الأطعمة ، ولكنها لم ترسلها أبدا » .

واستطرد « مستر التن » يقول : « وكنت قد قابلت « وليم لاركنز » عندما اقتربت من البيت ، فأخبرنى بأنى لن أجد سيده فى البيت ، ولكنى لم أصدقه . وكان يبدو على « وليم لاركنز » الاكتئاب ، قال انه لا يدرى ماذا حدث لسيده فى الأيام الأخيرة ، وانه عجز عن حمله على الكلام . على أننى لا شأن لى بما يريده « وليم » ، وكل الذى كان يهمنى هو أن أرى « نيتلى » اليوم ، ولهذا ضايقنى جدا أن أمشى فى القيظ على هذا النحو على غير طائل » .

وشعرت « اما » أن ذهابها الى البيت مباشرة هو أحسن شيء تفعله ، فقد كان هناك كل احتمال بأنهم كانوا ينتظرونها هناك فى تلك اللحظة ، كما أن فى الامكان منع « مستر نيتلى » من التمادى فى عدوانه على « مستر التن » ، ان لم يكن كذلك على « وليم لاركنز » .

وسرها وهى تستأذن فى الانصراف أن تجد « مس فيرفاكس » تصمم على مرافقتها عند خروجها من الحجرة ، وتسير معها حتى الطابق الأرضى ، مما جعلها تغتنم الفرصة وتبادر فى الحال الى اقتناصها فتقول :

« ربما كان من الخير أن الفرصة لم تتح لى، فلو لم يلتف حولك أصدقاء آخرون لكنت وجدت ما يغرينى على اثارة موضوع ما ، وتوجيه الأسئلة اليك بشأنه ، وأن أكون فى كلامى أكثر صراحة عما قد يجيزه العرف ... وأشعر بأننى كنت أبدو وقحة لا محالة ان فعلت » .

وصاحت « چين » تقول وقد علت وجهها حمرة واستولى عليها التردد فجعلاها تبدو « لاما » على درجة متناهية من الرشاقة لم تبلغها بكل ما كان لها من جمال فى وقت هدوئها العادى :

« أوه !! لم تكن هناك خطورة من ذلك ، وانما الخطر فى أنى أتعبك . بل ما كنت ترضيننى بشىء أكثر مما أظهرتيه من اهتمامك بأمرى — حقا يا « مس وودهاوس » (قالتها وهى أكثر استجماعا لأفكارها) : « اننى وأنا أشعر بأننى قد تنكبت الطريق القويم ، وسلكت مسلكا معوجا ، موغلا فى اعوجاجه ، أجد سلوى وعزاء فى علمى بأن أولئك الأصدقاء الذين يعض على آرائهم الصائبة بالنواجز لا يصل بهم الامتعاض منى الى حد يجعلهم .. انى لا أجد الوقت الذى يكفى لنصف ما أريد أن أقوله ، وأنا مشوقة الى تقديم الاعتذارات والمعاذير لأدافع عن نفسى ، وأشعر بأن هذا دين علىّ يجب أداؤه .. ولكنى لسوء الحظ .. وبالاختصار ، ان لم يتسع لى عطفك يا صديقتى .. » .

وصاحت بها « اما » فى حماس وقد أمسكت بيدها :

« أوه !! أنت ولا شك مرهفة الاحساس جدا ، دائما يقظة لما ترينه الصواب ، فما أنت مدينة لى باعتذار ، كما أن كل من تظنين بأن لهم عليك حق الاعتذار ، راضون كل الرضى ، مبتهجون حتى .. » .

« انك شديدة العطف ، ولكنى أدرك سلوكى نحوك ، وما أكثر ما كنت جافة متكلفة ! كان لى دائما دور أقوم بتمثيله ، كانت كلها حياة خداع !! وأنا أعلم بأنى لابد أثرت امتعاضك » .

« أستحلفك ألا تقولى أكثر من هذا ، بل انى لأشعر بأن الاعتذار يجب أن يكون كله من جانبى ، فليصفح كل منا عن الآخر حالا ، ولتؤد ما يجب أداؤه بمنتهى السرعة ، وأنا واثقة بأن مشاعرنا لن تتوانى عن أداء ذلك . أرجو أن تكون قد وصلتك أخبار سارة من وندسور ؟ » .

« للغاية » .

« وأظن الأخبار التى تتلو ذلك ستنبئنا بقرب ابتعادك عنا ، فى اللحظة التى بدأت أعرفك فيها » .

« أما من ناحية ذلك ، فان من المؤكد أنه لا يمكننى التفكير فى شىء من ذلك الآن ، وسأبقى هنا الى أن يستدعينى « المقدم كامپبل وزوجته » .

وردت « اما » تقول وهى تبتسم : « قد لا يتيسر اتمام أى شىء الآن ، ولكن اسمحى لى بأن أقول انه لابد من التفكير فيه » .

وأجابت « چين » وعلى ثغرها هى الأخرى ابتسامة :

« انك لعلى حق . فلقد فكرت فى ذلك بالفعل . وأنا أعترف لك (وأنا متأكدة بأن ما أقوله سيكون فى حرز أمين) بأن الأمر قد أصبح منتهيا فيما يتعلق بمعيشتنا مع « مستر تشرشل » فى « أنسكومب » ، ولابد من ثلاثة شهور على الأقل للحداد التام ، ولكننى لا أظن أنه سيكون ثمة شىء بعد انتهائها يدعونا للانتظار » .

« أشكرك ، أشكرك ، هذا ما كنت أريد أن أتأكد منه . آه لو عرفت مقـدار حبى لكل شىء أكيـد ليس فيه غمـوض .. فى رعاية الله ، فى رعاية الله ! » .

الفصل الثالث والخمسون

سعد أصدقاء « مسز وستن » جميعا بنجاتها من أخطار الوضع . واذا كان سرور « اما » بسلامتها مضاعفا ، فانما مرد ذلك أنها أصبحت والدة لبنت صغيرة . فلقد كانت أمنيتها أن يكون المولود « مس وستن » .

وما كانت لتعترف بأنها تهدف من وراء هذه الأمنية الى التمهيد لزواج الطفلة بعد أن تكبر ، بأحد ابنى « ايزابلا » ، ولكنها كانت متأكدة بأن الابنة هى أنسب ما يكون للأم والوالد ، وأنها ستكون بلسما شافيا « لمستر وستن » حين يتقدم به العمر — فحتى « مستر وستن » سيتقدم به العمر بعد عشرة سنين يطولها من عمره المديد — وان الحياة سوف تدب حول موقده بما يجرى حوله من ألعاب ، وما يُروى من خزعبلات ، وقصص عجيبة ، وخيالات تقوم بها طفلة ، لن يكون مصيرها النفى من بيت أبيها أبدا . أما عن « مسز وستن » ، فما من أحد كان يشك فى أنها ستجد فى الابنة كل ما تبتغيه ، فانه لمن المؤسف حقا ألا يُتاح لمن لهم المام بالتعليم ، فرصة لاستخدام ما لديهم من قدرات مرة أخرى . قالت « اما » لمستر « نيتلى » .

« لقد كان لها كما تعلم ميزة التمرن علىّ حين كانت تقوم على تربيتى ، ثم استطردت : « كما تدربت بارونة « ألمين » على كونتيسة « أوستلليس » فى قصة مدام « دى جنلس » المعروفة ، « أدليد وتيودور » . وسنرى الآن أن تربية صغيرتها « أدليد » ستجرى بطريقة أقوم » .

وأجابها مستر « نيتلى » : اذن سوف تدللها أكثر من تدليلها لك ،

ثم تعتقد بأنها لم تدللها أبدا . وسوف يكون هذا هو الفارق الوحيد » .

وصاحت « اما » : « مسكينة أيها الطفلة !! واذن فماذا عسى أن يكون مصيرها فى هذه الحالة ؟ » .

« لن يكون شيئا فى منتهى السوء ، بل سوف يكون مصيرها كمصير الآلاف ، متعبة فى طفولتها ، ثم تصلح من شأنها عندما تكبر . لقد أخذت يا عزيزتى « اما » أتجرد من كل ما كنت أشعر به من غضاضة نحو الأطفال المدللين ، ألا يكون جحودا منى أن أقسو على هؤلاء وأنا المدين لك بكل سعادتى ؟ » .

فضحكت « اما » وأجابته : « ولكنك عاونتنى بكل جهودك لكى أقاوم تدليل الآخرين . وأنا لا أثق فى أن عقلى وحده كان يكفى لاصلاحى بغير هذه المعاونة » .

« ألا تثقين ؟ أما أنا فواثق من ذلك . فالطبيعة قد وهبتك ادراكا ، بينا « مس تيلور » قد أضفت عليك المبادىء ، واذن فلابد أنك قد أفدت من كليهما . أما عن تدخلى ، فقد كان من المحتمل أن يكون ضارا بقدر ما كان يحتمل أن يكون نافعا . ولقد كان من الطبيعى جدا أن تقولى : « وماذا له من حق لكى يلقى علىّ درسا ؟ — وأخشى أن أقول ، انه كان من الطبيعى جدا أن تشعرى بأن هذا الدرس كان يؤدى فوق ذلك بأسلوب بغيض . ومن ثم فلست أعتقد بأنى أديت لك أية خدمة ، بل أنا الذى أفدت ، اذ جعلت منك هدفا لأرق مشاعرى . فما كان بوسعى أن أفكر فيك بهذا القدر دون أن أغرم بك وبأخطائك وبكل شىء فيك . وقد نتج عن دأبى على تخيّل الأخطاء الكثيرة فيك أنى أحببتك منذ أن كنت فى الثالثة عشرة من عمرك على الأقل » .

وصاحت « اما » تقول : « انى واثقــة بأنك أفدتنى ، وبأنى كنت

أهتدى بهديك بأكثر مما كنت مستعدة لأن اعترف به فى حينها ، وأنا واثقة من أن لك علىّ فضلا ، فاذا ما نشأت « أمّا وستن » الصغيرة مدللة ، كان عليك بما طبعت عليه من انسانية بالغة ، أن تؤدى لها مثل ما أديته لى — الا شيئا واحدا ، أن تحبها عندما تبلغ الثالثة عشرة » .

« كثيرا ما كنت تقولين لى وأنت فتاة صغيرة ، وأنت تنظرين الىّ نظرة اشمئزاز : « انى سأفعل كذا وكذا يا « مستر نيتلى » ، ووالدى يقول بأن لى أن أفعله » ، أو تقولين : « ان مس تيلور » سمحت لى بذلك » — وهو شىء كنت تعلمين أنى لا أوافق عليه — وكان تدخلى فى تلك الحالات يثير فى نفسك احساسين بغيضين بدلا من احساس واحد » .

« اذن ما ألطف ما كنت من مخلوقة فى ذلك الوقت !! ولا عجب أن تحتفظ بأقوالى فى طيات مثل هذه الذكريات الحبيبة » .

« كنت دائما تنادينى « مستر نيتلى » ، « مستر نيتلى ، ومع أن العادة قد أبعدت عن هذا النداء صفة الرسمية الصرفة ، فهو لا تزال به مسحة من الرسمية ، وبودى لو تنادينى باسم آخر ، ولكنى لست أدرى بأى اسم تنادينى » .

« أذكر أنى سميتك مرة فى احدى نوباتى اللطيفة « چورچ » — كان ذلك منذ عشر سنوات ، وقد فعلت ذلك لأنى ظننت بأنه يغضبك ، ولكنى لم أكرره مرة أخرى بعد ذلك لأنك لم تعترض عليه » .

« أفلا يمكنك أن تسمينى « چورچ » الآن ؟ » .

« هذا مستحيل !! لا يمكننى أن أسميك الا مستر نيتلى » ، ولن أعدك بمحاكاة « مسز التن » فى دلالها ، فأسميك مستر « ن » .

ثم عادت تقول فى الحال وقد احمر وجهها وضحكت : « انى أعد ، أعدك بأن أسميك مرة باسمك الأول مجردا عن لقبك ، لن أقول « متى »

ولكن ربما أمكنك أن تعرف « أين » ، أقوله — سأقوله فى المبنى الذى يعلن فيه « ن » أنه يقبل « م » على السراء والضراء » .

وأحزن « اما » ساعتها أنها لم تكن قادرة على أن تكون أكثر عدلا معه فيما كانت فطنته سوف تؤديه لها من خدمة جليلة ، بما كان يبديه لها من تضحية غالية كانت ولا شك تجنبها أسوأ ما فيها من حماقات نسائية ، ألا وهو اصرارها على أن تكون لها « بهاريت سمث » ألفة وثيقة — ولكن هذا كان موضوعا دقيقا للغاية ، وما كان بوسعها أن تثيره الآن ، بل قلّما كان يذكر اسم « هاريت » فى حديثهما ، ولربما كان مصدر هذا من جانبه فى عدم تفكيره فيها لا أكثر . أما « اما » فكانت أميل الى أن تنسب ذلك الى ما فى الحديث عنها من حرج ، والى ما كان يراوده من أن صداقتها لها كانت آخذة فى التضاؤل ، كما أنها هى نفسها كانت تشعر بأنهما لو كانا افترقا فى ظروف أخرى ، لكان من المحقق أن تزيد المراسلات بينهما ، ولكانت أخبارها لا تعتمد فى معظمها ، كما هى الآن ، على خطابات « ايزابلا » — ولعله لحظ ذلك فتجنب ذكرها فى حديثهما . على أن ألمها من اضطرارها الى اخفاء الأمر عليه ، كان لا يقل كثيرا عن ألمها من أنها عكّرت على « هاريت » صفو هنائها .

وأرسلت « ايزابلا » تقريرا طيبا عن ضيفتها كما كان منتظرا ، ذكرت فيه أنها ظنتها عند قدومها مهمومة ، وأنها خيّل اليها أن ما يبدو عليها لا يعدو أن يكون أمرا طبيعيا ، وهى توشك أن تذهب لاستشارة طبيب الأسنان ، ولكنها لم تلحظ عليها بعد أن انتهت هذه المهمة ، تغييرا كبيرا فى حالتها عما كانت عليه من قبل .

ولم تكن « ايزابلا » قوية الملاحظة ، ومع ذلك فلم يفتها أن تلحظ نفور « هاريت » من اللعب مع الأطفال .

وشعرت « اما » بالسكينة ، وراودتها الآمال العذبة ، لأن « هاريت » سيطول مكثها هناك ، اذ كان من المحتمل أن يمتد الأسبوعان الى شهر على الأقل ، فقد كان موعد مجيء مستر « چون نيتلى » وزوجته الى « هايبرى » فى شهر أغسطس ، ومن ثم فقد دعيت للبقاء معهم حتى تعود معهم الى هايبرى .

وقال « مستر نيتلى » : « ان « چـون » يضن حتى بذكر اسـم صديقتك ، ها هو رده ان أحببت أن تريه » .

كانت الرسالة ردا على خطابه الذين ذكر فيه عزمه على الزواج . ومدت « اما » يدها فى شوق عظيم واستلمته وهى فى لهفة شديدة على معرفة ما يقوله أخوه عن زواجه بها ، لا يمنعها عن ذلك سماعها بأنه لم يشر الى صديقتها فى خطابه ولو بكلمة واحدة .

واستطرد « مستر نيتلى » يقول : « ان « چون » أخى يسره سرورى ، ولكنه ليس ممن يجيدون المديح ، وعلى الرغم من معرفتى بأنه يكن لك أقصى ما يكون من حب أخوى ، فان خطابه بعيد عن زخرف الكلام ، الأمر الذى يجعل أية فتاة أخرى تظنه فاترا فى مدحه لها — على أنى لا أخشى أن تطلعى على ما كتبه » .

فلما قرأت « اما » الخطاب قالت : « انه يكتب كما يكتب الرجل العاقل . انى أجل اخلاصه ، ومن الواضح جدا أنه يعتبر الغنم لى كله من هذه الخطبة ، وأنه لم يفقد الأمل فى أن أصبح بمرور الوقت جديرة بمحبتك بقدر ما ترانى أنت الآن . ولو أنه قال شيئا خلاف ذلك ما كنت صدقته » .

« انه لا يعنى شيئا كهذا يا « اما » يا قرة عينى ، انه لا يعنى الا — » .

فقاطعته تقول وعلى ثغرها ابتسامة حادة :

« اننى أنا وهو نختلف اختلافا يسيرا جدا فى تقديرنا للطرفين ، وقد يكون هذا الاختلاف أقل كثيرا مما يدركه لو أننا تناولنا الموضوع دون تحفظ أو مجاملة » .

« اما » ، عزيزتى « اما » — » .

فصاحت تقول وهى أشد ابتهاجا مما كانت : « ان كنت ترى أن أخاك لم ينصفنى فما عليك الا أن تنتظر حتى يطلع والدى على السر وتسمع رأيه ، وثق بأنه سيكون أكثر من هذا بعدا عن انصافك أنت . وسيرى كل السعادة وكل الغنم فى جانبك بينما كل الفضل فى جانبى ، وان كان بودى ألا ينزل بى فورا الى حد أن يقول عنى « اما » البائسة ، فان اشفاقه الرقيق على الفضائل المكلومة لا يتعدى ذلك » .

فصاح قائلا : « بودى لو أمكن اقناع والدك بنصف السهولة التى سنقنع بها « چون » بأن تساوينا فى الفضائل يكسبنا كل الحقوق فى أن نسعد معا .. هناك جزء واحد فى خطاب « چون » يطيب لى .. فهل لاحظتيه ؟ انه يقول ان أخبارى لم تدهشه اطلاقا ، وانه كان يترقب سماع شىء كهذا » .

« اذا كنت أفهم أخاك على حقيقته فانه لا يعنى الا أنك كنت تفكر فى الزواج ، أما أنا فلم أخطر على باله ، ويبدو لى أنه لم يكن يتوقع ذلك أبدا » .

« أجل ، أجل ، ولكن الذى يثير دهشتى أنه استطاع أن يستشف ذلك من خلال مشاعرى . ترى ماذا جعله يحكم هذا الحكم ؟ انى لم أحس أى اختلاف فى حالتى النفسية أو فى حديثى كان يمكن أن يجعله يتوقع زواجى فى ذلك الوقت أو فى أى وقت آخر ، ومع ذلك فلا بد أنه كان هناك اختلاف ما ، وقد يجوز أن هذا الاختلاف بدا على عندما كنت أقيم معهم

منذ أيام ، اذ اعتقد أنى لم ألعب مع الأطفال بالكثرة التى كنت ألعب بها معهم . وأذكر أن الأولاد قالوا ذات مساء :

« ان عمنا يبدو الآن متعبا على الدوام » ..

وسارت الأيام تقترب بهم من الوقت الذى يذيعون فيه النبأ فى دائرة أوسع ، ويعرفون فيه وقعه على الآخرين . وحرصت « اما » على استخدام تفكيرها الهادىء فى هذه الناحية بمجرد أن تصبح حالة « مسز وستن » الصحية كافية للسماح بزيارات « مستر وودهاوس » ، فعقدت عزمها على أن تعلن النبأ فى بيتها أولا ، ثم فى « راندولز » . ثانيا — ولكن كيف تفصح عنه لأبيها قبل كل شىء ؟ وبأية طريقة ؟ لقد أخذت على عاتقها مهمة نقل الخبر اليه فى ساعة يكون فيها مستر « نيتلى » غائبا ، أو حين يجىء الوقت الذى يضيق فيه صدرها عن الاحتفاظ بالسر الذى كان عليها تأجيله . ولكن هذه الخطة كانت تقتضى أن يأتى « مستر نيتلى » فى ساعة معينة ليبدأ من حيث انتهت باعلان النبأ ، فهى تريد أن تكون البداية لهـا .

واضطرت أخيرا الى التحدث الى أبيها ، الى التحدث اليه فى مظهر من البهجة .. اذ كان من واجبها ألا تفصح عن النبأ بنبرات حزينة فتجعل الزواج مصدرا لشقاء لا مفر منه ، وألا تبدو وكأنه كارثة بالنسبة لها . ولذلك فقد بذلت كل ما فى مكنتها من جهد وتفكير ، أولا لكى تعد ذهنه لسماع شىء مدهش ، ثم أتبعت ذلك بكلمات قليلة مؤداها أنه لو أمكن الحصول على موافقته ، التى ترجو ألا تكون عسيرة ، بالنظر الى ما يترتب على ذلك من اسعاد للجميع ، فانها تنهى اليه بأنها هى و « مستر نيتلى » قد عقدا العزم على أن يتزوجا ، وأن « بيت هارتفيلد » — سوف يحظى بصحبة رجل تعلم بأنه أحب الناس الى قلبه من بعد ابنته و « مسز وستن » ، محبة مستديمة لا يفترق فيها عنهما .

مسكين هذا الرجل !! لقد كان النبأ صدمة قوية عليه فى بادىء الأمر ، وحاول جهده أن يصرفها عن هذه الفكرة ، وجعل يذكّرها أكثر من مرة بما كانت تقوله دائما من أنها لن تتزوج ، ويؤكد بأن أفضل شىء لها أن تظل عَزَبة . ثم تحدث عن تعاسة « ايزابلا » و « مس تيلور » — ولكن كل هذا ذهب أدراج الرياح ، وتعلقت « اما » بأكتافه فى حنان وابتسمت ثم قالت له انه أمر لا مفر منه ، وانه لا ينبغى له أن يجعلها فى مصاف «ايزابلا» و « مسز وستن » اللتين انتزعتا من « هارتفيلد » عندما تزوجتا ، فتركتا بذلك فراغا كئيبا ، أما هى فلن تغادر « هارتفيلد » ، بل ستبقى فيها دائما ، ولن تغير من عدد أفرادها ، ولا من أسباب الراحة فيها الا فيما كان أحسن وأفضل .

وتأكدت تماما بأنه سيكون أسعد حالا اذا ما اختمرت فى ذهنه فكرة وجود « مستر نيتلى » معه ، تحت يده وطلبه فى كل وقت . أليس يحب « مستر نيتلى حبا عميقا ؟ لقد كانت واثقة من أنه لن ينكر محبته له . فمن ذا الذى كان يسعى الى استشارته دائما فى أعماله ، غير « مستر نيتلى » ؟ ومن ذا الذى كان يؤدى له خدماته ، وكان على استعداد دائما لكى يكتب له خطاباته ؟ ومن ذا الذى كان يفرح اذا عاونه فى أمر ؟ وكان يفرح بلقائه ويعنى بأمره ويحب صحبته ؟ ألا يود أن يجده دائما أمامه ؟ أجل ، كل هذا كان حقيقة لا تقبل جدلا . ان من الصعب على « مستر نيتلى » فى وضعه الراهن أن يكون معه فى كل الأوقات ، واذن فيجب أن يفرح الآن لأنه سيكون معه كل يوم ، بل هما يريانه الآن كل يوم بالفعل ، فلماذا لا يستمران هو وهى على ما هما عليه ؟

لقد تبين أن من الصعب اقناع « مستر وودهاوس » بهذه السرعة ، ومع ذلك فقد أنجزت أصعب نقطة فى الموضوع ، فألقت بفكرة الزواج

أمامه ، وتركت للوقت والتكرار المتواصل القيام بما تبقى . وسرعان ما أعقبت توسلات « اما » وتوكيداتها ، توكيدات « مستر نيتلى » وتوسلاته فكان لثنائه عليها ثناء يتبع من صميم حبه لها ، ما جعل للموضوع نوعا من الترحيب . وسرعان ما اعتاد « مستر وودهاوس » أن يتحدث اليه كلاهما فى الموضوع كلما سنحت الفرص . وقدمت « ايزابلا » لهما كل ما أمكنها من مساعدة بما كانت ترسله من خطابات تعبر فيها عن تحبيذها الكامل ، كما أظهرت « مسز وستن » ، عندما سمعت بأمر الخطبة لأول مرة استعداها لمعالجة الموضوع بما يحقق الآمال — أولا على اعتبار أنه أمر مفروغ منه ، وثانيا على أنه شيء طيب ومستحب ، فقد كانت تعلم تماما ما لهاتين التذكيتين من تقارب فى الأهميــة النسبية فى عقــل « مستر وودهاوس » .

وتم الاتفاق على كل ما يجب أن يعمل ، وأخذ كل من اعتاد أن يأخذ برأيهم يؤكدون له أنها زيجة فيها كل ما يسعده . ولما كان هو نفسه قد أخذ يشعر ببعض هذه المشاعر التى تؤيد هذا الرأى ، فقد أخذ يفكر فى أنه قد يحين الوقت بعد عام أو عامين ، الذى لن يترتب فيه على اتمام هــذا الزواج ضرر بليغ .

ولم تكن « مسز وستن » فى هذه المهمة تمثل أى دور ، أو تظهر من المشاعر ما تضمر فى كل ما قالته « لمستر وودهاوس » تحبيذا لهذا الزواج ، بل لم يدهشها شيء أكثر من دهشتها عندما كاشفتها « اما » لأول مرة بالأمر ، ولكنها لم تر فى ذلك الا ما يزيد فى سعادة الجميع ، ولذلك فلم تتردد فى أن تدفعه الى آخر الشوط . فلقد كان لمستر « نيتلى » عندها من المكانة ما جعلها تؤمن بأنه جدير « باما » أعز عزيزة عندها ، وترى أن الزيجة لا غبار عليها من أى وجه من الوجوه ، وأنها من ناحية واحدة

من نواحيها ، وهى نقطة فى غاية الأهمية ، زيجة موفقة وسعيدة ، حتى بدا لها الآن أن « اما » ما كانت لتأمن الزواج بغيره ، وأنها هى نفسها كانت أغبى المخلوقات لأنها لم تفكر فيها وتجعلها أمنية من أمانيها قبل ذلك بوقت طويل ، فما أقل الرجال الذين لهم ما له من المكانة التى تؤهلهم لأن يطلبوا يد « اما » ، ولهم ما له من القدرة على أن يتخلوا عن بيوتهم من أجل « هارتفيلد » ! ثم من غير « مستر نيتلى » يستطيع أن يفهم « مستر وودهاوس » ويتحمله لكى يجعل مثل هذه الزيجة أمرا مستحبا ! فلقد كانت مشكلة مصير « مستر وودهاوس » المسكين ، المسألة التى اعترضتها دائما هى وزوجها كلما فكرا فى تزويج « اما » من « فرانك تشرشل » . وكان تفكيرهما فى الطريقة التى يمكن التغلب بها على ما لكل من بيت «هارتفيلد» وبيت « أنسكومب » من حقوق ثابتة ، العقبة الكأداء التى تتحطم عليها كل مشروعاتهما دائما . واذا كان « مستر وستن » أقل منها اعترافا بهذه العقبة ، فهو حتى مع هذا ، لم يقو أبدا على أن ينهى الحديث بأفضل من أن يقول : « ان مثل هذه المسائل سوف تحل من تلقاء نفسها ، وسوف يجد الشباب لنفسه منها مخرجا » أما فى هذه الحالة فليس هناك ما يمكن أن يلقى به الى خبايا المستقبل ، فهى زيجة على أساس سليم ، فيها تكافؤ ، مبرأة من الغموض ، وليس فيها ما يستحق أن يوصف بأنه تضحية من أى من الجانبين . انها زيجة تبشر بسعادة وفيرة ، وليست فيها عقبة حقيقية معقولة يجوز أن تقف فى سبيلها أو تدعو الى تأجيلها .

وكانت « مسز وستن » وهى غارقة فى مثل هذه الأفكار ، وطفلتها فوق ركبتيها ، تشعر بأنها من أسعد النساء جميعا . واذا كان هناك ما يمكن أن يزيد من سرورها ، فهو تفكيرها بأن الطفلة ستكبر عما قريب ، وستصبح أول مجموعة من قبعاتها ضيقة عليها .

وأثار خبر الخطبة الدهشة أينما ذاع ، ولبث « مستر وستن » خمس دقائق وهو فى دهشة ، غير أنه كان له من سرعة البديهة ما جعل الدقائق الخمس كافية لكى يألف الفكرة . فقد أبصر ما فى الزيجة من المزايا ، وسعد بها بنفس القوة التى سعدت بها زوجته ، وسرعان ما زالت دهشته ، وآمن بعد انقضاء ساعة بأن هذا هو ما كان يتنبأ به دائما .

ثم قال : « انى أستنتج بأن هذه المسألة ستظل فى طى الكتمان ، وهذه المسائل تكون دائما من الأسرار الى أن تتبين بأن كل الناس على علم بها ، ولست أريد الا أن أعلم متى أكون فى حل من ذكرها ، وأود أن أعلم اذا كان قد خالج « چين » أى شك بشأنها » .

وذهب فى صبيحة اليوم التالى الى « هايبرى » ، وأرضى نفسه من هذه الناحية فأنهى الى « چين » بالخبر . أليست منه فى منزلة الابنة ، ابنته الكبرى ؟ لقد رأى من الواجب أن يخبرها . وبما أن « مس بيتس » كانت حاضرة ،فقد كان من الطبيعى أن ينتقل الخبر الى « مسز كول » و « مسز پرى » و « مسز التن » على أثر ذلك . ولم يكن هذا غير ما يتوقعه صاحب الشأن نفسهما ، فلقد وضعا فى حسابهما منذ أن وصل الخبر الى « راندولز » أنه لابد منتشر سريعا فى أنحاء « هايبرى » جميعها ، بل وجعلا يفكران فيما سوف يثيره النبأ من دهشة فى كثير من الندوات العائلية التى تعقد فى الجهة فى الأمسيات . وبصفة عامة يمكن القول بأن هذه الزيجة حازت قبولا حسنا ، وان اختلفت الآراء فى أيهما كان أسعد حظا ... فريق كان يحبذ انتقالهم جميعا الى « دونول » وترك « هارتفيلد » لأسرة « چون نيتلى » ، بينما فريق آخر يتكهن بحدوث خلافات ومنازعات بين الخدم . وعلى الرغم من كل هذا ، لم يقم بوجه عام أى اعتراض جدى الا فى مكان واحد ، هو « الأبرشية » ، فهنالك ، وهناك فقط ، لم تلق الخطبة تحبيذا يخفف من وقع

النبأ . على أن اهتمام « مستر التن » اذا قورن باهتمام زوجته لم يكن شيئا مذكورا ، فقد كان لا يرجو أكثر من أن تجد الفتاة الآن ما فيه اشباع لكبريائها ، مفترضا فى الوقت نفسه أنها كانت تعمل دائما على ايقاع « نيتلى » فى حبائلها اذا أمكنها ذلك . أما عن مسألة العيش فى «هارتفيلد» ، فقد بلغت به الجرأة أن يقول : « خير أن يكون هو من أن أكون أنا الذى أعيش فيها » .

أما « مسز التن » فقد استبد بها الاضطراب ، وصاحت تقول : « ما أبأس « نيتلى » وما أتعسه من مخلوق !! ياله من رزء أصابه ! وانها لجد مهمومة من أجله ، فعلى الرغم من أنه متقلب الأهواء ، فان فيه ألف صفة حميدة . كيف أمكن أن تقهره ؟ ما كنت أظن أبدا أنه يحب ، وما تبادر الى ذهنى شىء من ذلك قط . مسكين أنت يا نيتلى !! سوف تنتهى كل اتصالاتنا الجميلة بك ، ما أسعده عندما كان يأتى ليتعشى معنا كلما دعوناه !! غير أن كل هذا سيصبح الآن أثرا بعد عين . ما أبأسه من انسان !! ولن تذهب بعد الآن جماعات جوالة الى « دونول » من أجلى . لا ، لا ، ان « مسز نيتلى » ستكون هناك لتحول دون ذلك . ما أقبح هذا !! اننى لا آسف أبدا على ما قلته بالأمس عن مديرة بيته . انها لفكرة مفزعة أن يعيشوا كلهم معا ، فكرة لن يكتب لها نجاح . لقد حاولت ذلك أسرة أعرفها بالقرب من « مابل جروف ولكنها اضطرت الى الانفصال قبل أن ينتهى الأسبوع الأول » .

الفصل الرابع والخمسون

ودارت عجلة الزمن ولم تبق الا أيام قلائل وتصل الجماعة من لندن . لقد كان ذلك تغييرا مزعجا ، وأخذت « اما » تفكر ذات صباح فى هـذا التغيير ، وترى أنه لابد أن يسبب لها قلقا وغما ، حين دخل عليها « مستر نيتلى » فطرحت عن ذهنها هذه الأفكار المحزنة . وبعد أن دارت بينهما فى بادىء الأمر بعض المجاملات السعيدة ، سكنت هنيهة ثم أخذ يقول فى نبرات حازمة :

« ان عندى ما أحب أن أفضى به اليك يا « اما » ، انه بعض الأخبار » .

وقالت مسرعة وهى تنظر الى وجهه : « أسارة هى أم مزعجة ؟ » .

« لست أدرى بم يجب أن تسمى » .

« آه !! انى متأكدة بأنها أخبار سارة ، فانى أرى ذلك مرتسما على محياك ، وأنت تحاول ألا تبتسم » .

فقال وقد انبسطت أسارير وجهه : « أخشى ، وأخشى كثيرا جـدا يا عزيزتى « اما » ألا تبتسمى عند سماعها » .

« عجبا ! ولكن لم هذا ؟ انه ليصعب علىّ أن أتخيل شيئا يسرّك أو يسليك ، ثم هو لا يسرنى ويسلينى كذلك » .

وأجابتها : « هناك موضـوع واحـد تختلف فيه آراؤنا ، وأرجو ألا يكون هناك غيره .. ثم توقف لحظة وابتسم مرة أخرى وعيناه محدقتان فى وجهها وقال : « ألم يخطر بذهنك شىء حتى الآن ؟ ألا تتذكرين ؟ انه « هاريت سمث » .

واحمرت وجنتاها عند سماعها الاسم ، وشعرت بأنها تخاف شيئا ، ولو أنها لم تكن تدرى ما هو .

وصاح يقول : « هل وصلتك منها أخبار فى هذا الصباح ؟ أعتقد هذا ، كما أعتقد بأنك على علم بكل شىء » .

« لا ، لم يصلنى شىء ، ولست أعلم شيئا ، فبالله خبرنى » .

« أراك على استعداد لسماع أسوأ الأنباء ، انه شىء فى غاية السوء ، ان « هاريت سمث » ستتزوج « روبرت مارتن » .

وارتاعت « اما » وكأنما كانت لا تتوقع ذلك ، وقالت وعيناها تحملقان فى لهفة بالغة : « لا ، ان هذا مستحيل » ثم ضمت شفتيها وكفت عن الاسترسال فى الحديث .

وواصل « مستر نيتلى » حديثه : « بل انه لكذلك ! وقد بلغنى هذا من « روبرت مارتن » نفسه ، وهو لم يتركنى الا منذ نصف ساعة » .

وظلت تنظر اليه فى دهشة معبرة .

« لقد صادف ذلك هوى فى نفسك يا « امتى » العزيزة ، ولست أجد عندك شيئا مما كنت أخشاه — وددت لو أن آراءنا كانت متشابهة ، ولكنها ستكون كذلك على مر الأيام . كونى واثقة كل الثقة بأن الزمن سيجعل أحدنا يغير رأيه . وفى الوقت نفسه لا أرى حاجة بنا الى الكلام فى هذا الموضوع بالذات » .

وأجابته وقد استجمعت قواها : « أنت تخطىء فهمى ، انك تخطىء فهمى فى هذه المسألة ، لا لأن خبرا كهذا يسبب لى ألما الآن ، بل لأنى لست قادرة على تصرفه ، فهو يبدو مستحيلا !! لا ، لا ! لا يمكن أنك تعنى أن تقول ان « هاريت سمث » قبلت أن تتزوج « روبرت مارتن » بالفعل ، ولا يمكن أن تعنى حتى أنه تقدم الآن ليخطبها مرة أخرى . ان كل ما تعنيه هو أنه يعتزم ذلك » .

وأجاب « مستر نيتلى » فى عزم وقد علت وجهه ابتسامة :

« أعنى أنه فعل ذلك وأنها قبلت » .

وصاحت « اما » تقول : « رباه !! ماذا أسمع ؟ » ثم لجأت الى سلة أشغالها تتخذ منها ذريعة لتطأطىء رأسها ، وتخفى كل ما يرتسم على محياها من مشاعر البهجة والمتعة التى كانت تعلم بأنها لابد قد ظهرت عليها . وأضافت تقول :

« أجل خبّرنى الآن عن كل شىء . دعنى أفهم كيف حدث هذا ؟ أين ؟ ومتى ؟ ، دعنى أعرف كل شىء ، فما من شىء أدهشنى أكثر من ذلك — لكننى أؤكد لك بأنه لم يحزننى — كيف ؟ كيف أمكن ذلك ؟

« انها مسألة فى منتهى البساطة — فلقد ذهب الى لندن منذ ثلاثة أيام ليقوم ببعض الأعمال ، وكنت عهدت اليه بتوصيل بعض الأوراق التى كنت أريد ارسالها الى « چون » ، فسلّمها اليه فى منزله . ودعاه « چون » ليذهب معهم فى نفس الأمسية الى ملهى « أستلى » ، وكانت النية معقودة على أخذ الولدين الكبيرين الى الملهى ، وبذلك كانت الجماعة تتألف من أخينا وأختنا ثم « چون » و « هنرى » و « مس سمث » . ولم يمانع صديقى « روبرت » فى قبول الدعوة . فعرجوا عليه فى طريقهم ، وكانوا جميعا فى منتهى السرور ، ثم دعاه أخى لتُناول العشاء معهم فى اليوم التالى — فلبّى الدعوة ، وفى أثناء ذلك (كما فهمت) وجد فرصة للتحدث مع « هاريت » ، ومن المؤكد أن حديثه لم يذهب عبثا ، فكان قبولها مصدر سرور له بقدر ما هو أهل لهذا السرور . وعاد فى عربة الأمس ، ثم جاءنى فى هـذا الصباح عقب الافطار مباشرة ليقدم الىّ تقريرا عما قام به أولا فيما يختص بشئونى ، ثم فيما يخصه . هذا كل ما يمكننى أن أقوله لك عن كيف وأين ومتى وستروى لك صديقتك « هاريت » بيانا أكثر من هذا عندما

ترينها ، وستخبرك بكل التفاصيل الدقيقة التى لا تكتسب رونقا الا اذا جاءت على لسان سيدة ، أما نحن معشر الرجال فلا نروى من الأخبار الا ما كان عظيما وهاما . ولابد لى مع هذا من أن أقول انه كان يبدو « لروبرت مارتن » ، كما كان يبدو لى ، أن قلبه كان يجيش بعواطف جارفة نحوها ، فقد قال دون أن يكون لقوله مساس كبير بالموضوع الأصلى ، انهم عندما غادروا مقصورة ملهى « أستلى » ، سار أخى وبرفقته زوجته و « چون » الصغير ، وسار هو ومعه « مس سمث » و « هنرى » من خلفهم ، ثم حدث أن اشتد حولهم الزحام حتى شعرت « مس سمث » بالضجر » .

وتوقف عن الكلام ، ولم تجرؤ « اما » على محاولة الرد فى الحال فقد كانت واثقة من أنها لو تكلمت فسوف تكشف عما تشعر به من سرور يفوق حد الوصف ، فكان لابد لها من الانتظار لحظة والا خالها مجنونة .

وراعه سكوتها . وبعد أن تأملها برهة عاد يقول :

« حبيبتى « اما » ، لقد قلت ان هذا الحادث لن يحزنك الآن ، ولكنى أخشى أن يكون قد آلمك أكثر مما كنت تتوقعين ، ان هناك مغمزا فى مركزه ، ولكن يجب أن تجعلى موضع اعتبارك أنه هو الرجل الذى تقنع به صديقتك ، وأنا كفيل بأنك ستحسنين الظن به كلما زادت معرفتك به ؛ فسوف تسرك رجاحة عقله وسلامة مبادئه . أما عن شخصه فلن يسعك أن تتمنى لصديقتك خيرا منه ، وسوف أغيّر من مكانته الاجتماعية اذا أمكننى ذلك ، وأؤكد لك يا « اما » أنه جدير بالكثير . انك تسخرين منى من أجل « وليم لاركنز » ولكنى لن أتخلى كذلك عن « روبرت مارتن » .

وود لو رفعت ناظريها اليه وابتسمت . وابتسمت فعلا ولكنها لم تكن ابتسامة عريضة ، وأجابته فى نشوة ظاهرة :

« ليس هناك ما يدعو لأن تتعب نفسك لكى تجعلنى أرضى عن هذا الزواج ، فان من رأيى أن « هاريت » قد تصرفت تصرفا حكيما ، بل قد تكون عائلتها أدنى من عائلته من حيث المكانة — وأنا لم ألذ بالصمت الا لدهشتى ، وهى دهشة شديدة حقا ، فأنت لن تستطيع أن تتصور ما كان لهذا النبأ فى نفسى من مفاجأة » فقد كنت لا أتوقعه فقد كان هناك ما يحملنى على الاعتقاد بأنها كانت أخيرا أشد عزوفا عنه ، أكثر كثيرا مما كانت قبلا » .

وأجابها « مستر نيتلى » : « يجب أن تكونى أكثر معرفة بصديقتك . والواجب يقتضينى أن أقول انها فتاة مرضية الطباع عطوفة ، ولا يحتمل أبدا أن تعزف عن أى فتى يقول لها انه يحبها » .

ولم تتمالك « اما » نفسها من الضحك وهى تجيبه :

« لعمرى انى أكاد أعتقد بأن مبلغ درايتك بها هو كمبلغ درايتى تماما ، ولكن هل أنت متأكد يا « مستر نيتلى » تماما بأنها وافقت عليه موافقة تامة ؟ قد أصدق أنها سوف تقبله فيما بعد — ولكن هل قبلته بالفعل ؟ أليس من الجائز أنك لم تفهمه ؟ انكما كنتما تتحدثان فى أمور أخرى — أعمال مالية ومعارض للماشية ، وآلات حديثة للبذر ، ألا يجوز وأنت فى خضم هذه الموضوعات الكثيرة ، أنك لم تفهمه ؟ وانه لم يكن متأكدا من يد « هاريت » بقدر ما كان متأكدا من مقاسات أحد الثيران المشهورة ؟ »

ولمست « اما » فى تلك اللحظة الفرق الشاسع بين وجهى كل من « مستر نيتلى » و « روبرت مارتن » وبين مظهرهما ، وتمثلت أمامها ذكريات ما حدث من « هاريت » أخيرا جلية واضحة ، وعاد الى أسماعها رنين تلك الكلمات التى قالتها فى حماس وحزم : « لا ، وأرجو أن أكون أحصف من أن أفكر فى « روبرت مارتن » ، حتى كانت تتوقع أن يكون الخبر الى حد ما سابقا لأوانه ، فهو لا يمكن أن يكون غير هذا .

وصاح بها « مستر نيتلى » : « هل تجسرين على أن تقولى هذا ؟ أتجرئين على الظن بأنى على هذه الدرجة من الغباوة حتى أعجز عن ادراك ما يقوله الرجل ؟ ماذا تستحقين على ذلك ؟ » .

« أستحق دائما أحسن معاملة لأنى لا أحتمل غيرها ، ولذا يجب أن أسمع منك الآن الرد صريحا واضحا . فهل أنت واثق تماما من مدى العلاقة التى بين « مستر مارتن » و « هاريت » الآن ؟ » .

وأجابها بكلام لا غموض فيه ولا أثر لابهام :

« بل أنا متأكد تماما بأنه أخبرنى أنها رضيت به زوجا ، وأثق بأن كلماته لم يكن فيها أى غموض أو شك ، وأظن أنى قادر على أن أبرهن لك بأن الأمر لابد أن يكون كذلك ، فقد سألنى عما يجب عليه أن يفعله الآن ، ولم تكن له معرفة بأحد يمكنه الرجوع اليه لجمع معلومات عن ذويها وأصدقائها الا « مسز جدرد » ، وقد سألنى اذا كان فى وسعى أن أنصحه بشىء أنسب من الذهاب الى « مسز جدرد » ، فأكدت له بأن هذا ليس فى امكانى . ثم قال انه سيحاول رؤيتها فى بحر ذلك اليوم » .

وأجابت « اما » بابتسامة وضاءة :

« انى مقتنعة تماما ، وأرجو لهما مخلصة كل سعادة » .

« ها !! لقد تغيرت تغيرا واضحا عما كنت حين تكلمنا فى هـذا الموضوع من قبل » .

« أرجو هذا — فقد كنت مغفلة فى ذلك الحين » .

« بل لقد تغيرت أنا كذلك ، وأصبحت الآن شديد الميل الى الاعتراف لك بكل ما فى « هاريت » من صفات حميدة ، لقد تكبدت بعض المتاعب من أجلك ومن أجل « روبرت مارتن » (فقد كنت أعتقد دائما بأنه يهيم بها) ، كى أزيد معرفتى بها ، وكثيرا ما تحدثت معها طويلا ، ولابد انك

رأيت ذلك . وقد تبادر الى ذهنى أحيانا أن شيئا من الشك قد أخذ يساورك فى أنى أحاول التأثير عليها من أجل « مارتن » المسكين ، وهو مالم يحدث اطلاقا ، ولكننى مقتنع ، من كل ملاحظاتى عنها ، بأنها فتاة لطيفة ليس فيها تكلّف أو تصنع ، أفكارها ناضجة ، ومبادئها سليمة للغاية ، وتستوحى سعادتها تأتى لها به حياتها المنزلية من العطف والمنفعة ، ولا شك عنـدى فى أنها مدينة لك فى ذلك بالتفكير » .

فصاحت « اما » وهى تهز رأسها : « أنا !! واحسرتاه على المسكينة « هاريت » ! وكبحت جماح نفسها واستسلمت فى هدوء لسماع المزيد من هذا المديح الذى لا تستحقه .

وانقطع الحديث بعد ذلك بقليل عندما دخل أبوها عليهما ، ولم تأسف لذلك ، فقد كانت تريد أن تنفرد بنفسها ، وكانت فى دهشة وحيرة استحالت معهما قدرتها على تهدئة نفسها . فقد طارت نفسها شعاعا بما استولى عليها من دهشة ، وما استبد بها من نشوة . وما كان فى وسعها تحكيم عقلها فى أى شيء ، الى أن أخذت تتحرك وتحدث نفسها ، وتضحك وتتأمل .

وكان مجيء أبيها ليعلن أن « چيمز » قد خرج ليُعِد الخيل تمهيدا للذهاب الى « راندولز » ، وهى رحلة أصبحت تؤدى يوميا الآن . فكان ذلك مبررا لها لكى تتوارى من الحجرة .

وللمرء أن يتصور ما كانت عليه مشاعرها من ابتهاج وفرحة وشعور بالحمد فى تلك اللحظة . فان السعادة المرتقبة التى كانت تنتظر « هاريت » ، أزالت عن « اما » الشيء الوحيد الذى كان يثقل كاهلها ، حتى أصبح يُخشى عليها من أن تؤدى مبالغتها فى فرحتها الى تهديد أمنها . وما الذى كانت ترجوه أكثر من ذلك ؟ لا شيء الا أن تصبح أهلاً له ، ذلك الذى كانت نواياه وآراؤه عـلى الدوام تفوق نواياها وآراءها ، ولا شيء الا أن

يكون لهـا من غفلتها السابقة دروس تتعلم منها التواضع والحـذر فى المستقبل .

لقد كانت حادة ، وجادة للغاية فى حمدها وثنائها على ما قالت ، وفى قراراتها التى اعتزمتها لأيامها المقبلة . وعلى الرغم من ذلك فلم يكن هناك ما يمنع ضحكها أحيانا وهى على هذا الحال من الجديّة .

وكان لابد لها أن تضحك من مثل هذه الخاتمة ، خاتمة الفشل الذريع الذى نزل بها منذ خمسة أسابيع !! ما أقرب قلب « هاريت » وما أغرب « هاريت نفسها » !!

لقد أضحت عودتها الآن باعثا على السرور ، بل وسيكون كل شيء مبعث سرور ، وسيكون من دواعى هذا السرور التعرف « بروبرت مارتن » .

وكان أكثر ما يثلج صدرها ، ويريح بالها ، أنه لم تعد هناك ضرورة الى اخفاء شيء عن « مستر نيتلى » ، وسيزول قريبا ما كانت تمجّه نفسها من تنكر وتورية وغموض .

وأصبحت الآن ونصب عينيها أن تجعله موضع ثقتها التامة ، وهو ما كانت ترحب به نفسها كل الترحيب ، كواجب من واجباتها .

وخرجت مع أبيها وهى أكثر ما تكون فرحة وسرورا . واذا لم تكن تنصت اليه دائما ، فقد وافقته على كل ما قاله . وسواء أتكلم أم سكت ، كان يجد منها تأييدا كاملا ، لما كان يشعر به من ضرورة الذهاب الى « راندولز » كل يوم خوفا من أن يحزّ عـدم ذهابهما فى نفس « مسز وستن » .

ووصلا الى « راندولز » ، وكانت « مسز وستن » وحدها فى حجرة الاستقبال ، وما كادا ينصتان الى أخبار الطفـلة ، ويتلقى « مستر

وودهاوس » عبارات الشكر على مجيئه ، وهو ما كان يطمع فيه ، حتى ظهر من خلال رتاج النافذة شبحان يمران بالقرب منها .

وقالت « مسز وستن » : « انهما « فرانك » و « مس فيرفاكس » ، لقد كنت على وشك أن أخبركما بسرورنا ودهشتنا عندما رأيناه يصل هذا الصباح . وهو باق معنا الى الغد ، وقد أمكننا أن نؤثر على « مس فيرفاكس » كى تمضى اليوم معنا . انهما داخلان هنا فيما أرجو » .

ولم تمض نصف دقيقة حتى كانا داخل الحجرة . وامتلأ قلب « اما » سرورا عند رؤيتهما ، وان كان هذا لم يحل دون وجود شىء من الاضطراب فى نفسها ، واثارة لبعض الذكريات المحرجة للطرفين . ولكنهم تقابلوا فى جو من الترحيب ، والابتسامات تعلو شفاههم ، وان ظل يسودهم شعور لم يسمح بادىء الأمر بالاسترسال فى الكلام . وخيم عليهم الوجوم بعض الوقت بعد أن أخذوا أماكنهم ، حتى شكت « اما » فيما اذا كانت الرغبة التى طالما شعرت بها وتحققت الآن ، رغبة رؤيتها « لفرانك تشرشل » مرة أخرى وهو بصحبة « چين » ، وجدت ما يتناسب معها من السرور . ولكن ما كاد « مستر وستن » ينضم الى الجماعة ، وتحمل الطفلة الى الحجرة ليراها الضيوف ، حتى انتهت حاجتهم الى ما يثيرهم أو يملأ عليهم الجو حياة ، واستطاع « فرانك تشرشل » أن يغتنم الفرصة ، وأن يستجمع من الشجاعة ما جعله يقترب منها ويقول :

« ان من واجبى أن أشكرك يا « مس وودهاوس » على صفحك الكريم الذى جاء فى أحد خطابات « مسز وستن » ، وأرجو ألا يكون الزمن قد قلل من رغبتك فى الصفح ، كما أرجو ألا ترجعى فيما قلتيه عنى وقتئذ » .

وصاحت « امـا » تقـول فى سرور عظيـم : « لا ، أبدا ، ان ذلك

لن يكون . ويسرنى أنا بصفة خاصة أن أراك وأصافحك وأقدم لك التهنئة بنفسى » .

وشكرها من صميم القلب ، واستمر بعض الوقت وهو يعبّر لها فى شعور مستفيض عن امتنانه وسروره .

ثم قال وهو يلتفت الى « چين » :

« ألا تبدو فى صحة جيدة ؟ أليست أحسن مما كانت فى أى وقت مضى ؟ وأنت ترين مقدار ولع أبى و « مسز وستن » بها » .

ولكن سرعان ما أخذت مشاعره تتقد ثانية ، وفى نظرات تكاد تنطق بالضحك ، وبعد أن تحدث عن عودة أسرة « كامپبل » المنتظرة ، نطق باسم « دكسون » ، فاحمر وجه « اما » ونهته عن أن ينطق به فى وجودها ، وصاحت قائلة :

« لا يمكننى أن أفكر فى هذا الاسم أبدا الا وأشعر بمنتهى الخجل من نفسى » .

وأجابها : « بل ان الخجل كل الخجل هو من نصيبى أنا ، أو هو يجب أن يكون من نصيبى . ولكن هل من المعقول أن ذهنك ظل خاليا من كل شك فى هذا الموضوع ، أقصد فى الفترة الأخيرة ؟ فأنا أعرف أنك لم يكن يداخلك أى شىء قبل ذلك » .

« أؤكد لك بأنى لم يداخلنى أدنى شك ! » .

« ان ذلك يبدو فى منتهى الغرابة ... لقد كنت مرة على وشك ، وبودى لو أننى أقدمت وقتها ... فلو فعلت لكان أفضـــل . فعلى الرغم من أنى كنت كثير الخطأ فان خطئى كان من النوع الجسيم الذى لا يعود علىّ بفائدة . فلو أننى تحللت من السرية وقتها ، وأخبرتك بكل شىء لكان الخطأ أخف وطأة » .

وقالت « اما » : « ان الخطأ لا يستحق أسفا الآن » .

وعاد يقول :

« عندى بعض الأمل فى التأثير على خالى كى يزور « راندولز » ، فهو راغب فى أن يتعرف بها . وعندما تعود أسرة « كامپبل » ، فاننا سنلتقى بها فى لندن ، ونبقى هناك ، وأعتقد أن بقاءنا سيستمر الى أن يتيسر لنا الانتقال بها شمالا . ولكنى الآن على مسافة بعيدة منها — أليس ذلك صعبا يا « مس وودهاوس » ؟ اننا لم نتقابل مرة واحدة منذ أن عاد الوئام بيننا ، الى أن كان هذا الصباح ، ألا تشعرين بالاشفاق علىّ ؟ » .

وعبّرت « اما » عن اشفاقها بحنان بالغ ، حتى صاح وقد طرأت عليه فكرة سارة قائلا :

« أجل ! وبهذه المناسبة » — ثم خفّض من صوته ، وبدا وقتها جادا ، واستطرد يقول : « أرجو أن يكون « مستر نيتلى بخير !! انى أعلم أنك اطلعت على خطابى ، وأظنك تذكرين ما ضمنته من تمنياتى لك . دعينى أرد التهانى ، وأؤكد لك بأن سماعى للخبر كان له فى نفسى أجمل الأثر وأطيب السرور . انه رجل فى غنى عن كل مديح » .

وابتهجت « اما » وودت أن يستمر على هذا النحو من الحديث ، ولكنه شغل بعد لحظة بما يعنيه ، وبحبيبته « چين » ثم عاد يقول :

« هل رأيت مثل هذه البشرة ؟ مثل هذه النعومة والنضارة ! ومع هذا فهى لا توصف بالجمال ، ولا يمكن أن يقال انها جميلة ، ان لون وجهها غير عادى بهذه الأهداب السوداء ، وهذا الشعر الأسود ، انه لون مميز للغاية وقد ميز صاحبته عن غيرها ، ففيها من اللون ما يكفى ليكسب صاحبته جمالا » .

وأجابت « اما » فى دهاء وخبث : « لقد كنت معجبة بلون بشرتها

دائما ، ولكن هل يمكن أن يغيب عن ذاكرتى ذلك الوقت الذى عبت فيه شحوب وجهها حين كنا نتحدث عنها أول الأمر ؟ هل نسيت كلية ؟ » .

« لا ، لا ، وكم كنت كلبا وقحا !! كيف أمكننى أن أجرؤ — »

ثم عاد فضحك ملء شدقيه عندما تذكر هذا الحديث ، حتى أن « اما » لم تجد مناصا من أن تقول :

« اننى لا أشك فى أنك وأنت فى خضم ارتباكاتك فى ذلك الوقت ، كنت تجد متعة كبيرة جدا فى أن تخدعنا جميعا ، أنا واثقة من ذلك ، وأعتقد أن هذه كانت تسليتك » .

« لا ، لا — كيف تتهميننى بشىء كهذا ؟ لقد كنت أتعس مخلوق » .

« لا ، لم تبلغ بك التعاسة حدا يجعلك لا تشعر بالمرح ، وأنا واثقة بأن هذا كان ينبوعا تغترف منه متعة هائلة أن تشعر بأنك تخدعنا جميعا . ولعلى أكون أكثرهم استعدادا للشك ، لأنى والحق أقول ، أظن بأنى كنت أجد شيئا من التسلية أنا نفسى فى مثل ذلك الموقف ، بل أظن أن هناك شيئا من التشابه فى حالتينا » .

وأحنى رأسه موافقا .

وأردفت تقول على الفور وهى تنظر نظرة تدل على أصالة الرأى :

« اذا لم يكن بيننا تشابه فى طباعنا وميولنا ، فهناك تشابه فى مصيرنا ، ذلك المصير العادل الذى ربطنا بشخصين يتفوقان علينا بكثير » .

فأجاب فى حماس :

« هذا صحيح ، هذا صحيح — لا ، انه ليس صحيحا من ناحيتك ، اذ ليس هناك من يتفوق عليك ، ولكنه يصدق علىّ تماما ، انها ملاك كامل ، أنظرى اليها ، أليست ملاكا فى كل حركاتها ؟ لاحظى كيف تحرك رقبتها ، لاحظى عينيها وهى تتطلع الى والدى » (ومال برأسه وهمس) : « ويسرّك

أن تسمعى بأن فى نيّة خالى أن يعطيها كل مجوهرات زوجته بعد أن تُعاد صياغتها ، وقد عزمت على أن أصوغ من بعضها حلية للرأس ، ألا تبدو جميلة فوق شعرها الداكن ؟ » .

وأجابت « اما » : « بل جميلة جدا ولا شك » ، وبدا الحنان فى كلماتها حتى انطلق يقول شاكرا :

« ما أعظم سرورى لرؤيتك ثانيا !! وأن أراك بهذا المظهر الخلاّب !! وما كنت لأضحى بهذه المقابلة بأى ثمن ، ولو أنت لم يتيسر لك المجىء ، لكان من المؤكد أن أذهب لزيارتكم فى « هارتفيلد » .

وكان الباقون فى شغل عنهما بالحديث عن الطفلة ، اذ كانت « مسز وستن » تروى لهم ما استولى عليها من الفزع بسبب بعض مظاهر اعتلال الصحة التى بدت على الطفلة فى الأمسية الماضية ، وتقول انها تعتقد أن ذلك كان جهلا منها ، ولكنها مع ذلك انزعجت ، وكانت على وشك أن تستدعى « مستر پرى » ، وقد يكون أحرى بها أن تتوارى من ذلك خجلا ، ولكن « مستر وستن » نفسه لم يكن أقل منها انزعاجا ، ومع ذلك فلم تمض عشر دقائق حتى عوفيت الطفلة كلية — كانت هذه قصتها عن الطفلة . وقد أثارت اهتمام « مستر وودهاوس » بصفة خاصة ، فأثنى عليها كثيرا لأنها فكرت فى استدعاء « پرى » ، ولم يأسف على شىء الا لأنها لم تنفذ ذلك وقال : « انه يجب عليها ن تستدعى « پرى » دائما اذا ما بدا على الطفلة أقل توعك حتى ولو لم يمكث غير لحظة ، وبذلك يذهب عنها الفزع سريعا ، ولا تحتاج الى استدعاء « پرى » كثيرا — وربما كان مما يؤسف له أنه لم يأت فى الليلة الماضية ، اذ على الرغم من أن الطفلة قد عوفيت الآن ، فقد كان من الأفضل لو أن « پرى » رآها » .

قال «لاما» وهو يحاول استلفات نظر «مس فيرفاكس» فى أثناء الكلام:

« پرى » ! صديقى مستر « پرى » !! ماذا يقولون عن مستر « پرى » ؟

هل كان هنا هذا الصباح ؟ وكيف يتنقل الآن ؟ هل أصلح عربته ؟ » .

وتذكرت « اما » فى الحال ، وأدركت ما يرمى اليه ، وأخذت تشاركه الضحك ، وبينا هى كذلك ، كانت ملامح وجه « چين » تدل بوضوح على أنها أيضا قد سمعت الحديث عنه رغم تظاهرها بأنها لم تسمعه .

وصاح « فرانك » : « لقد كان حلما عجيبا ذلك الذى رأيته !! وأنا لا أفكر فيه أبدا الا وأضحك . انهـا تسمعنا ، انها تسمعنا يا « مس وودهاوس » ، انى أتبين ذلك فى وجنتيها وفى ابتسامتها ، وفى محاولتها الفاشلة للعبوس . أنظرى اليها ، ألا ترين السطور التى دبجتها فى خطابها وحمّلتها هذا الخبر عن عربة « پرى » ، تجرى تحت عينيها فى هـذه اللحظة ؟ — ان الغلطة كلها تتكشف أمامها — انها غير قادرة على أن تستمع الى أى شىء آخر ، ولو أنها تتظاهر بالانصات الى الآخرين ؟ » .

ووجدت « چين » نفسها مضطرة الى أن تبتسم ابتسامة عريضة ، بقيت معالمها على فمها وهى تلتفت نحوه وتقول فى صوت خافت واضح ومنطلق :

« ان قدرتك على تحمّل مثل هذه الذكريات تثير دهشتى ، ان الذكريات قد تخطر أحيانا بالذهن عفوا ، أما أنت فلا أدرى كيف تستعيدها عمدا ؟ » .

وكان فى جعبته الكثير مما كان يمكن أن يقوله ردا عليها ويصادف هوى فى النفس ، ولكن عواطف « اما » كانت معظمها مع « چين » فى أثناء المناقشة ، فلما بارحت « راندولز » وأخذت بطبيعة الحال توازن بين الرجلين ، شعرت بأنها مع سرورها برؤية « فرانك تشرشل » وتقديرها الودّى له ، كما فعلت ، لم تكن أبدا آكثر مما هى عليه الآن شعورا بما كان عليه « مستر نيتلى » من سمو الخلق . وقد استكمل هذا اليوم ، الذى كان آكثر أيامها سعادة ، مظاهر سعادته كلها ، بهذه المقارنة التى دفعتها الى التفكير فى صفات نيتلى ومناقبه .

الفصل الخامس والخمسون

اذا كانت « اما » لم تزل تشعر من حين الى حين بالقلق من ناحية « هاريت » ولم تزل يساورها الشك فى قدرتها على نسيان حبها « لمستر تتلى » حقا ، وفى استعدادها لقبول أى رجل آخر مكانه عن طيب خاطر ، فان عذابها وقلقها من جراء هذا الشك لم يطل بهما الزمن . فلقد وصلت الجماعة من لندن بعد أيام قلائل ، وما كادت تتهيأ لها فرصة الانفراد ساعة بهاريت حتى اقتنعت تماما ، وعلى غير ما كانت تنتظر ، بأن « روبرت مارتن » قد حل مكان « مستر نيتلى » من قلبها كلية ، وأنه قد أصبح محط آمالها فى السعادة .

لقد شعرت « هاريت » بشىء من الكآبة وبدت عليها بعض مظاهر البلادة فى أول الأمر ، ولكنها بمجرد أن اعترفت بأنها كانت مدعية وبلهاء ومغرورة فى قدر نفسها ، أخذ ما كانت تشعر به من الألم والارتباك يتلاشى وينتهى بانتهاء الكلمات على لسانها ، واذا بالماضى وقد ذهب عنه كل ما فيه من هم وحزن ، واذا بالسعادة تغمرها فى الحاضر والمستقبل . وأما ما كان من رأى صديقاتها ومدى استصوابهن لما فعلته ، فان « اما » أزالت عنها فى الحال ما كانت تخشاه من تلك الناحية ، بتقديمها أجمل التهانى لهـا عندما قابلتها . وسر « هاريت » غاية السرور أن تسرد تفاصيل كل ما حدث فى الأمسية التى أمضوها فى ملهى « أستلى » ، وفى أثناء تناول العشاء فى اليوم التالى ، فتناولت الحديث فى كل هذا وهى على أقصى ما تكون من الغبطة . ولكن أى مغزى كان لهذه التفصيلات ؟ الواقع أن « هاريت » ،

كما استطاعت « اما » أن تعترف الآن ، كانت دائما تعجب « بروبرت مارتن » وأن حبه لها ظل يعلو على كل مقاومة ، أما ما عدا ذلك ، فهو ما لا علم « لاما » به ، ولا تفسير له عندها . وأيا كان الأمر فقد كانت حادثة سعيدة ، وكان كل يوم يمر ، يمد « اما » بسبب جديد يعزز هذا الرأى . وقد ظهر الآن منبت « هاريت » ، وتبين أنها ابنة لتاجر له من الثراء ما يكفى لأن يهيىء لها العيش المريح الذى ظلت تنعم به دائما ، وكان له من النبل ما جعله يحرص دائما على التستر — ذلك هو كرم العنصر الذى لم تكن « اما » لتتوانى قبل ذلك عن أن تشهد به ، بل لعل عنصره لم تعلق به شائبة كأى واحد من سادة القوم ، ولكن أى نسب ذلك الذى كانت تريد أن تتقدم به الى « مستر نيتلى » !! ان وصمة البنوة غير الشرعية التى لا تمحوها نبالة الأصل ولا الثروة ، كانت ولا شك وصمة دائمة .

ولم يبد الأب أى اعتراض على هذه الزيجة ، بل لقد لقى الفتى منه كل معاملة كريمة ، وسارت الأمور جميعها كما يجب أن تسير . ولما تعرفت « اما » « روبرت مارتن » ، الذى أصبح الآن من معارف بيت «هارتفيلد» ، تبينت فيه كل مظاهر الحكمة والجدارة التى تلائم صديقتها الصغيرة . ان « اما » لم تكن تشك فى سعادة « هاريت » مع أى رجل كريم النفس . أما مع هذا الرجل خاصة ، وفى البيت الذى أعده لها ، فقد كان لها أمل فيما هو أكثر من ذلك ، فى الطمأنينة والاستقرار والتطور . وهى فوق ذلك ستعيش بين أولئك الذين يحبونها ، ولهم من الادراك ما يفوق ادراكها ، تنعم بينهم بقدر من العزلة يضمن لها السلامة ، ولها فى الوقت نفسه مما يشغلها ما يكفى لأن يحقق لها البهجة ويشرح نفسها . وهى لن تنقاد الى ما فيه اغراء ، ولن يجد الاغراء سبيله اليها ، بل سوف تعيش موقرة سعيدة .

واعترفت « اما » بأن صديقتها أسعد المخلوقات حقا فى العالم ، لأنها استطاعت أن تغرس فى قلب رجل كهذا حبا ثابتا لا يتزعزع — فاذا لم تكن أسعد الناس حظا ، فقد نجحت على الأقل فى أن تجعله لا يخضع لأحد سواها .

ولما كان من الضرورى أن تشغل « هاريت » بما تتطلبه واجباتها نحو بيت « مارتن » ، فقد أخذ ذهابها الى « هارتفيلد » يقل شيئا فشيئا ، وما كان فى ذلك ما يدعو الى الأسف . فقد كان لابد للعلاقة الوثيقة التى بينها وبين « اما » أن تقل ، وأن تتحول صداقتهما الى نوع من العطف أكثر هدوءا واستقرارا . وهكذا كان من حسن الحظ أن ما ينبغى أن يكون وما كان لابد أن يكون ، قد أخذ يتحقق الآن بطريقة طبيعية وشيئا فشيئا .

وحضرت « اما » الى الكنيسة قبل أن ينصرم شهر سبتمبر ، ورأتها وهى تعاهد « روبرت مارتن » على أن تتخذه زوجا وهى فى رضى بلغ من الكمال حدا لم تستطع معه ذكريات الماضى ، حتى ما كان منها متعلقا « بمستر التن » ، الذى وقف أمامها الآن ، أن تقلل من شأنه . ولعلها مع ذلك لم تلحظ وجود « مستر التن » فى تلك اللحظة ، الا باعتباره راعى الكنيسة الذى يباركها الى جوار المذبح . وهكذا كان « روبرت مارتن » و « هاريت » ، وهما آخر زوجين من الأزواج الثلاثة عقدت خطبتهما ، أول من عقد قرانهما من بينهم جميعا .

وكانت « چين فيرفاكس » قد غادرت « هايبرى » قبل ذلك ، وعادت الى بيتها الحبيب مع أسرة « كامپبل » وما فيه من متع . كما كان « مستر تشرشل » وفرانك تشرشل فى لندن كذلك ينتظران حلول شهر نوفمبر .

وحدد كل من « اما » و « مستر نيتلى » الشهر الذى يتوسط هذين

الشهرين موعدا لزواجهما ، واتفقا على أن يتم زواجهما فى أثناء اقامة «چون» و « ايزابلا » فى « هارتفيلد » كى تتاح لهما فرصة التغيب أسبوعين يقضيانهما فى رحلة على الساحل . هكذا كانت خطتهما . وقد وافق كل من « چون » و « ايزابلا » وغيرهما من الأصدقاء عليها . أما « مستر وودهاوس » — كيف يمكن التأثير على « مستر وودهاوس » لكى يوافق عليها ؟ — وهو الذى لم يشر يوما الى زواجهما الا على أنه حدث بعيد الأثر ، فقد حزن عندما أخذوا يجسون نبضه أول مرة حتى كادا ييأسان ، ثم عادا يفاتحانه فى الموضوع فكانت مفاتحتهما هذه المرة أقل ايلاما . ثم بدأ يفكر بعد ذلك فى أنه أمر لابد منه ، وأنه ليس فى وسعه أن يمنعه — فكان ذلك منه بادرة تبشر بالأمل ، وخطوة فى اتجاه نزوعه الى الاستسلام . ورغم هذا فهو لم يفرح . بل على النقيض من ذلك بدا منه العكس الى حد بدأت معه شجاعة ابنته تتصدع . فهى لم تكن تقوى على تحمّل رؤيته وهو يتألم أو يتخيل أنه قد أهمل . وعلى الرغم من أنها كادت تقتنع بما كان يؤكده لها كل من « مستر نيتلى » وأخيه ، بأن ما يخالجه من الألم سوف يزول بمجرد أن يتم عقد القران ، فقد ترددت مع ذلك — ترددت ولم تقو على أن تقدم على الزواج .

وفى وسط هذا القلق والتردد اتفقا ، ولم يكن اتفاقهما عن حالة من توقد الذهن طرأت على «مستر وودهاوس » أو نتيجة لأى تغير عجيب فى جهازه العصبى ، ولكنه جاء بفعل هذا الجهاز نفسه ، ولكن فى اتجاه آخر . فقد سُرقت فى احدى الليالى كل الديوك الرومية التى كانت فى حظائر « مسز وستن » — وكان من الواضح أنه عمل مُدبَّر ، ثم امتدت الأيدى بعد ذلك الى حظائر أخرى للدجاج فى المنطقة ، فذهبت مخاوف « مستر وودهاوس » الى أن هذا النهب والسلب لم يعد أن يكون سطوا

وانتهاكا لحرمات البيوت ، واشتد قلقه لذلك . ولولا احساسه بالحماية التى يهيئها له زوج ابنته ، لاستولى عليه الفزع فى كل ليلة من ليالى حياته ، ومن ثم فقد ألفى نفسه وقد أخذ يعتمد على ما لمستر « نيتلى » وأخيه من قوة وعزم وبديهة حاضرة . فطالما كان أحدهما يسبغ حمايته عليه وعلى ما ملكت يداه ، كان بيت « هارتفيلد » آمنا . غير أن مستر « چون نيتلى » لابد أن يعود الى لندن قبل نهاية الأسبوع الأول من نوفمبر . وكانت نتيجة هذه المأساة أن استطاعت ابنته تحديد يوم قرانها بعد أن أعطى موافقة كانت أكثر رضى وبهجة مما كانت تأمله وقتئذ — ولم يمض شهر على زواج مستر ومسز « روبرت مارتن » ، حتى لجأوا الى « مستر التن » كى يضم يدى « مستر نيتلى » و « مس وودهاوس » فى زيجة لا تنفصم .

كانت حفلة زواجهما شبيهة بغيرها من حفلات الزواج التى لا يميل فيها الفريقان الى فخامة الملبس أو التظاهر .

وظنت « مسز التن » من وصف زوجها الدقيق أن الملابس جميعها كانت فى منتهى القبح ودون ما غيرها بكثير وقالت : « ياله من نقص كبير فى الساتان ، ويا لها من قلة فى قناعات الوجوه المصنوعة من « الدانتل » . ان ذلك كله لمدعاة للاشفاق !! ان « سيلينا » ستتجهم عندما تسمع بهذا » .

وعلى الرغم من تلك المآخذ ، فان التمنيات ، والآمال ، والثقة ، والتكهنات التى أبداها العدد القليل من الأصدقاء الأوفياء الذين شاهدوا الحفل ، قد تحققت كلها بما رفرف على هذه الزيجة من سعادة كاملة وهناء مقيم .



مطبعة مصر
ابريل ١٩٦٣

الثمن ٥٥ قرشا